المناهل



22

المناهل

تصدرها

وزارة الشؤون الثقافية

الرباط - المغرب

العدد الثاني والعشرون

السنة التاسعة

ربيع الأول 1402

يناير 1982

عدد خاص

بالحركة الفكرية في سبتة

فهرس

صفحة

سَبْتَة

رجالها ومكانتها وصلاتها العلمية بمختلف الحواضر الاسلامية

محمد العربي الخطابي

لم أدَعْ للعيشِ ما تشتاقُ في برٍّ وبحرِ
وخبرت النّاسَ والأرض لدى خير وشرّ
لم أجد جاراً ولا داراً كما في طَيَّةِ صدري
فكأني لم أَسِرْ إلا بمَيْتٍ أو بقفرِ

الشريف الإدريسي

تمهيـــــد

يُجمِع المؤرخون على أن سبتة دخلت في حوزة الإسلام طواعية وبمحض اختيار سكانها ورؤسائها. وكان يليان الغماري - واليها - واسطة الإرادة السبتية ومنفذها.

وكانت سبتة، منذ أن اعتمرها سكانها وحملت هذا الإسم إلى الأبد، مرتعا لغمارة، القبيلة المغربية المصمودية التي عمرت «جبال الريف بساحل البحر الرومي من عن يمين بسائط المغرب من لدن غساسة، فنكور، فبادس، فتيكيساس، فتطاوين، فسبتة، فالقصر (أي قصر مصمودة ويسمى اليوم بالقصر الصغير) إلى طنجة : خمس مراحل أو أزيد» كما قال عبد الرحمن ابن خلدون في «العبر».

وإذا كانت سبتة قد ذاقت الحلو والمرّ من طعم اللقاء الحضاري بالفينيقيين الكنعانيين وفرعهم القرطاجي، ثم بالرومانيين والبيزنطيين فأذعنت لهم على كره منها - كما أذعن عدد من الثغور الواقعة على ساحلي البحر الأبيض المتوسط شمالا وجنوبا - فإنها قد احتفظت بطابعها المغربي الذي أهّلها لاعتناق دين الإسلام والامتزاج بثقافته وحضارته، وخول لها أن تحمل رسالة العلم طوال تسعة قرون من حياتها في ظل الإسلام.

وقد عرفت سبتة، منذ الفتح الإسلامي للمغرب في القرن الأول من الهجرة، تقلبات سياسية كانت تعكس تطور الأحوال في العدوتين

المغرب والأندلس. إلا أنها ظلت مدينةَ علم وثقافة. فتلك كانت ميزتها البارزة وشعارها الدائم بين مدن العالم الإسلامي، وبذلك وصفها المؤرخون والجغرافيون وكُتّاب السير.

وحينما ضعفت الدولة الإسلامية بجناحيها الشرقي والغربي، اغتصب النصارى سبتة في أوائل القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي) فلم تقم لها منذ ذلك الحين قائمة في ميدان العلم والفكر. وغدت مجرد مرفأ لصيد السمك و«محلة عسكرية اسبانية وميناء حر على ساحل المغرب الشماليّ» كما وصفتها الموسوعة البريطانية (*).

ولم تُعرَف سبتة. قديما وحديثا إلا بكونها جزءا من بلاد المغرب كما ورد ذكرها في الموسوعات الجغرافية والعامة.

فهذا ياقوت الحموي (ت سنة 626 هـ/ 1228 م) يقول عنها في معجم البلدان : «وهي بلدة مشهورة من قواعد بلاد المغرب. ومرساها أجود مرسى على البحر».

وتقول دائرة المعارف الإسلامية في طبعتها الأولى : «سبتة بلدة بحرية من أعمال مراكش على مضيق جبل طارق».

فكيف اكتسبت سبتة ميزتها العلمية هذه، وماذا كانت مكانتها بين الحواضر الإسلامية الشهيرة. وما مدى إسهام رجالها الأفذاذ في إثراء التراث الثقافي الإسلامي والعالمي ؟

(*) Encyclopedia Britannica, Vol. 5, 1969.

ذلك ما سأحاول الكشف عن بعض ملامحه في هذه الدراسة الموجزة؛ ولست أدعى أني قد وفيت الموضوع حقه، وإنما هي محاولة يقتضيها الوفاء لمدينة مغربية مازالت تعاني الأسر وقد تحررت أخواتها الكبيرات والصغيرات، مدينة طالما قدمت للثقافة والحضارة أجل الخدمات.

المقومات البشرية والجغرافية والإقتصادية

وصف أبو عبد الله محمد الشريف الإدريسي الحسني (ت سنة 560 هـ / 1164 م) مسقط رأسه سبتة في موسوعته «نزهة المشتاق» وصفا جغرافيا مقتضبا ومفيدا، قال : «فأما سبتة فهي تقابل الجزيرة الخضراء، وهي سبعة أجبل صغار متصلة بعضها ببعض، معمورة... ويتصل بها من جهة الغرب وعلى ميلين منها جبل موسى، وتجاوره جنات وبساتين وأشجار وفواكه كثيرة وقصب سكر وأترج يُتَجَهَّز به إلى ما جاور سبتة من البلاد لكثرة الفواكه بها، وسُمِّيَ هذا المكان الذي جمع هذا كله بليونش. وبهذا الموضع مياه جارية وعيون مضطردة وخصب زائد... «إلى أن يقول : «وبمدينة سبتة مصايد للحوت، ولا يعدلها بلد في إصابة الحوت وجلبه... ويصاد بمدينة سبتة شجر المرجان الذي لا يعدله صنف من صنوف المرجان المستخرج بجميع أقطار البحار، وبمدينة سبتة سوق لتفصيله وحكه وصنعه خرزا وثقبه وتنظيمه، ومنها يُتَجَهَّز به الى سائر البلاد، وأكثر ما يحمَل الى غانة وجميع بلاد السودان، لأنه في تلك البلاد يستعمل كثيرا».

فما الذي نستنتجه من هذا الوصف الدقيق الذي زودنا به جغرافي عالمي ثقة في علمه وفي معرفته ببلده ؟

نستنتج عدة أشياء، منها :

- أن سبتة كانت، في ظل الحكم المغربي الإسلامي - مركزا تجاريا وصناعيا نشيطا مفتوحا على العالم الخارجي من جهة المبادلات الإقتصادية التي تؤدي إلى انتقال الرجال والأفكار وبالتالي إلى تلاقي الثقافات والحضارات.

- أن سبتة لا تذكر إلا مع جناحها الغربي «بليونش»، هذه البلدة المنيعة ذات الأراضي الخصبة والمناظر الخلابة التي خاطبها الأمير الرئيس أبو العباس الينشتي بقوله متشوقا إليها حال وجوده في بغداد :

وأذكر أوطانا أفأت بظلهـــــا معاهدَ أحباب ومغنى حبائـــــب
أبليونش لا جَف نبت رياضهــا وجاد على مغناها صوبُ السحائب

وقال فيها ذو الوزارتين أبو عبد الله ابن الخطيب السلماني :

هي جنة الدنيا التي من حَلَّهـــا نال الرضا والرَّوْحَ والريحانـــا

ولم تكن بليونش مجردَ منتزه يرتاده السبتيون للمتعة والإستجمام، بل كانت موردا زراعيا عظيم الشأن في حياة سبتة الإجتماعية والإقتصادية، إذ من بليونش كان يُصَدَّر «إلى ما جاور سبتة من البلاد» قصب السكر والاترج - أي البرتقال - وكل ما يَفضُل عن حاجة السكان

من فاكهة وغيرها (*) وكان البرتغاليون - ومن بعدهم الاسبان - على علم بأهمية بليونش الاقتصادية والإستراتيجية فحاولوا السيطرة عليها إلا أنها امتنعت عليهم بفضل حمية أهل قبيلة انجرة وقوة شكيمتهم وصلابتهم في الدفاع عن أرضهم. وما زالت بعض أدلة ارتباط سبتة بقرية بليونش قائمة إذ أن المياه العذبة التي يشربها سكان سبتة اليوم تتدفق إليها من عيون بليونش الزاخرة (*)

---

*) يصف محمد بن القاسم الأنصاري في كتابه «اختصار الأخبار عما كان بثغر سبتة من سني الآثار» قرية بليونش وصف شاهد عيان فيذكر عدد منابعها الجارية ومطاحنها وبساتينها وأصناف ثمارها، كما يذكر مساجدها ومنازلها ومصانعها وأبراجها. ومما قاله : «والقرية في كثرة الفواكه الصيفية والخريفية واختلاف أصنافها وتعدد أرهاطها وأنواعها بحيث توسق منها الأجفان - أي السفن - وتسافر إلى المغرب وبلاد الأندلس» مطبوعات القصر الملكي، تحقيق الأستاذ المؤرخ عبد الوهاب بن منصور، الرباط 1389 - 1969.

*) قل من يعرف قضية النزاع الشائك القديم بين بلدية سبتة وجماعة بليونش في مسألة مياه هذه القرية. وخلاصته أن السلطات الاسبانية كانت تطمع منذ عهد بعيد في الاستيلاء على منابع بليونش - التي تبعد عن سبتة بنحو ستة أميال - لتزويد هذه المدينة بالماء العذب الشريب. وفي عهد السلطان المستنير مولاي الحسن الأول قامت اسبانيا بمساع دبلوماسية القصد منها «شراء» المنابع ومد القنوات منها إلى سبتة، إلا أن مولاي الحسن - طيب الله ثراه - أمر مندوبه في طنجة أن يبلغ المفوض الدبوماسي الاسباني أن موارد المياه في المملكة المغربية ملك عمومي وهي بذلك غير قابلة للبيع والشراء.

وحينما فرضت الحماية الأجنبية على المغرب سنة 1912 تطلعت السلطات الاسبانية في سبتة من جديد إلى الاستيلاء، بطريق التحايل والاكراه، على منابع بليونش، فادعت في الثلاثينات أنها «اشترت» من جماعة هذه القرية منابع مياهها، ومدت القنوات إلى سبتة وهنالك احتدم النزاع وبدأت تتقاطر على وزارة العدل في تطوان وفود جماعة بليونش تفند مزاعم بلدية سبتة وتثبت بالبينة والحجة أن الجماعة لم تفوت منابع قريتها ببيع أو غيره. وجاء الاستقلال سنة 1956 فبعثت قبيلة أنجرة

- أن شواطيء سبتة كانت تزخر بالمضارب ومصايد السمك، ومنه التن الكبير، وكان ببحرها أجودُ أصناف المرجان، وقد أصبحت هذه المادة النفيسة مصدرَ عيش لكثير من البحّارة والصيادين والصنّاع وتجار «التصدير والتوريد» حتى إن المرجان فتح طريق التجارة طويلا عريضا بين ثغر سبتة وسائر البلاد في حوض البحر الأبيض المتوسط وفي «غانة وجميع بلاد السودان» أي أقطار القارة الإفريقية.

وقد تعرّض الحسن الوزان (ت سنة 944 هـ) في كتابه «وصف افريقيا» لذكر سبتة فقال : «وكان فيها كثير من الجوامع والمدارس والعديد من الصناع ورجال الأدب والفكر. وكان فيها نحاسون مهرة يصنعون الشمعدانات والأطباق والمحابر وغيرها. وكانت هذه المصنوعات تباع كما لو كانت من فضة. وقد رأيت منها في ايطاليا، وكان كثير من الطليان يعتقدون أنها صنعت في دمشق»، وكان في سبتة، فضلا عن ذلك، مصانع الحرير والكتان.

ولا شك أن كلّ هذه المزايا البشرية والجغرافية والإقتصادية قد أهّلت سبتة لتكون ملتقى التجار الواردين عليها من كل مكان ولتصبح مركز علم وحضارة، شأنها في ذلك شأن جنوه والبندقية والمهدية

وفدا عنها لمقابلة جلالة الملك الراحل محمد الخامس - طيب الله ثراه - وعرض مشكل مياه بليونش على نظره السامي.

والغريب في أمر هذه المنابع أن الخليفة الموحدي أبا يعقوب يوسف كان قد أمر سنة 580 - كما في كتاب الاستبصار - بجلب الماء إلى سبتة من قرية بليونش في قناة تحت الأرض، وشرع في العمل فعرضت أمور أوجبت التربص.

وباليرمو وغيرها من المرافيء المحظوظة التي هيأ لها موقعها الجغرافي، ونشاط سكانها، خصبا ثقافيا مرموقا في عالم العصر الوسيط وعصر النهضة.

وقد أبدع الوزير الأديب ابن الخطيب السلماني فيما قاله عن سبتة مكملا الصورة الجغرافية التي رسمها لها الشريف الإدريسي وغيره ا قال ذو الوزارتين، بأسلوبه المنمق، يصف سبتة : «كرسي الأمراء والأشراف، بصرة علوم اللسان، وصنعاء الحلل الحسان، وثمرة امتثال قوله تعالى : «إن الله يأمر بالعدل والإحسان، الأمينة على الاختزان، القويمة المكيال والميزان، محشر أنواع الحيتان، ومحط قوافل المصيد والحرير والكتان، وكفاها السكنى ببليونش في فصول الزمان، ووجود المساكن النبيهة بأرخص الأثمان، والمدفن المرحوم غير المزحوم، وخزانة كتب العلوم».

ونلاحظ أن ابن الخطيب قد أضاف إلى عناصر الجغرافية البشرية والإقتصادية - التي وقف عندها الإدريسي - مزايا خلقية واجتماعية وسياسية؛ فهي مدينة إمارة وجاه، وموطن علم وحضارة، وهي خزانة علوم، ومركز صناعة، وملتقى تجارة ومبادلات، يسودها العدل والأمانة والرخاء والإحسان.

وقد لخص بعض المؤرخين والرحالة - ومنهم ابن عذارى المراكشي - مزايا سبتة في عبارة جامعة فحواها : «ولم تزل دار علم» وهي عبارة تفيد العراقة والإستمرار، ولم تزل سبتة كذلك حتى آخر عهدها المغربي

الإسلامي، فهذا محمد بن القاسم الأنصاري ـ شاهد العصر البصير النا به ـ ينبئنا في رسالته «اختصار الأخبار» بما كان في سبتة، قبيل الغزو البرتغالي، من معالم الحضارة والعمران، ومعاهد الثقافة والعلم، ومقامات الرجال الأعيان، فقد كان بها ألف مسجد ومن بينها مدرسة الشيخ المحدث أبي الحسن الشاري الغافقي السبتي (ت عام 649 هـ) والمدرسة الجديدة «العظيمة البناء المتسعة الزوايا ذات الصنائع العجيبة التي ابتناها ملك المغرب أبو الحسن المريني، كما كان بها اثنتان وستون خزانة علمية منها خزانة بني العجوز الكتاميين، وخزانة بني الحضرمي وبني ابن أبي حجة، وكان من هذه الخزانات العلمية ثمان موقفة على طلاب العلم كخزانة الشيخ أبي الحسن الشاري «وهي أول خزانة وقفت بالمغرب على أهل العلم» وخزانة الجامع العتيق «وكانت من الكثرة بحيث لم يشذ منها فن».

لقد ترك لنا الأنصاري ـ رحمه الله ـ جردا، وأكاد أقول إحصاء دقيقا، لما كان بسبتة قبل سقوطها في يد النصارى من معالم عمرانية وممتلكات دينية وعلمية واقتصادية، وكأنه أراد أن يقيم البينة على الغاصبين بما نهبوه حتى إذا ما عدنا إلى بلدتنا الحبيبة ـ ولطالما حاولنا بالسياسة أحيانا وبالحرب أخرى ـ طالبنا بممتلكاتنا فيها كما كانت يوم أجبرنا على مغادرتها.

تمثال العذراء في المسجد الجامع :

ومن حقنا اليوم أن نتساءل : أين ذهبت تلك المعالم والمؤسسات وماذا بقي منها ؟

نعلم من مصادر اسبانية وبرتغالية ومغربية كما نعرف بالمشاهدة أن معظمها طُمِس ومُسِّخ.

فهذه «موسوعة الأندلس»* تشير إشارة عابرة، لكنها ذات دلالة، إلى ما حل ببعض المؤسسات الدينية فتقول ما ترجمته :

«في القرن الخامس عشر الميلادي أعد البلاط الملكي البرتغالي بعوثا عسكرية عدة إلى افريقيا بعد أن وضع سبتة نصب عينيه طامعا في جعلها من الأحجار الكريمة التي ترصّع تاجه. وفي 14 أغسطس من سنة 1415 نزل الجيش البرتغالي، بقيادة ملكه جواو الأول، في شاطيء المدينة وتمكن من غزوها لحساب الغرب، حسب شهادة كوريادي فرانكا. وبعد إقرار النصريانية في البلدة أقيم فيها أول محفل كاثوليكي في اليوم التالي من احتلالها، وذلك بمناسبة عيد المعراج، وقد «بارك» الرهابنة المسجد الإسلامي الجامع فوضعوا فيه تمثال العذراء... وما تزال هذه الكنيسة قائمة إلى اليوم واسمها Nuestra señra del valle

*) Enciclopedia de Andalucia, Tome II Sevilla, 1980.

وهكذا تحولت المساجد إلى كنائس والمدارس إلى معسكرات واصطبلات، ودرست الأضرحة، وأتلفت كتب العلم كما وقع في غرناطة إثر سقوط الحكومة الإسلامية فيها حيث أشرف كبير الأساقفة على إحراق مئات الآلاف من المجلدات.

حجرة ساحة افريقيا

هذا ويَحكِي المستعرب الإسباني إيميليو فوينتي القنطرة* الذي رافق بتكليف من حكومته، الجيشَ الاسباني في زحفه من سبتة على مدينة تطوان عام 1859، هذه الوقائع والمشاهدات

«في القسم الجنوبي الغربي من مدينة سبتة تقع ساحة افريقيا وجزء من السور العتيق مع برج مرتفع يُحكَى أن سيدة مغربية قذفت من أعلاء حَجَرَةً أصابت القائد البرتغالي فاسكودي أتايدي فأردته قتيلا حينما كان يهم باقتحام الساحة. وما تزال تلك الحَجَرَة مثبتة في جدار ساحة افريقيا وقد كُتِب عليها باللغة اللاتينية ما وقع للقائد البرتغالي. وفي نفس الساحة بناء تعلوه مئذنة ما تزال بها أقواس مبنية بالآجر على الطراز المعماري المغربي، وفي صحن البناء ساريتان شبيهتان بسواري حوش السباع في قصر الحمراء بغرناطة. وكلاهما من الطراز المعماري العربي المتأخر، من القرن الرابع عشر أو أوائل الخامس عشر، وقد كتب على أحد تلك الأقواس هذه الآيات من القرآن (الكريم) :

*) Emilio Fuente y Alcantara, Catálogo de Codices arábigos, Biblioteca National de Madrid, 1865.

«الحمد لله، فسبحانَ الله حين تُمسون وحين تُصبحون، وله الحمدُ في السمواتِ والأرضِ وعَشياً وحين تُظهرون، يُخرِج الحيَّ من الميت ويُخرِجُ الميتَ من الحي ويُحيى الأرض بعدَ موتها، وكذلك تُخرَجون» 16 ـ 17 ـ 18 / 30.

وفي باب ذلك الصحن، الذي يؤدي إلى الساحة، قوسان تُحلِّيهما زخارفُ عربيةٌ من كلس ومرمر، وعليهما كتابةٌ تتعذر قراءتُها. وفي هذا المكان بئرٌ يحيط بها سياج من رخام أبيض مكتوب عليه بالخط الكوفي كلام لم يبقَ منه سوى هذه العبارة :

نعمة شاملة وغبطة كاملة ويمن...

ولا شك أن هذا البناء كان مسجدا في زمن الغزو البرتغالي لهذه المدينة فَحُوِّلَ إلى كنيسة نصرانية ثم أصبح فيما بعد ديرا، ولم يبق من هيأته القديمة سوى الصحن والنصف الأسفل من المئذنة.

ولعل هذا البناء الذي أشار إليه المستعرب «القنطرة» هو الذي ذكره أحمد بن المهدي الغزال، سفير السلطان سيدي محمد بن عبد الله الحسني إلى ملك اسبانيا كارلوس الثالث عام 1178 هـ/1754.

لقد سجل هذا السفير النابه بعض مشاهداته في سبتة المحتلة وهو في طريقه إلى اسبانيا، فقال :

«ومن الجهتين الأخريين كنائس صاعدات منها ديور حاملة للنواقيس، منها المسجد الذي كان للمسلمين أبقوا بابه على حاله،

وصومعته مبنية على قوس الباب، وجعل أعداء الله بها ناقوسا؛ وفي احدى وجوه الصومعة المقابل القبلة آجْرة مكتوبٌ عليها : بركة محمد صلى الله عليه وسلم، وبداخل الباب خط مشرقي من عمل الجباس، متلاش، وفوقه خط آخر محفور في اللوح (الخشب) في غاية الاتقان لم يحدث فيه تغيير، مكتوب فيه :

النعمة الشاملة والعظمة الكاملة... *

والخط مستدير بالموضع الذي يدور فيه الباب، وعن يمين الداخل أقواس دائرة بالصحن شدت بالبنيان، وهي الآن بيوت يسكنها بعض ضعفاء الفرايلية (أي الرهابنة وأصلها من الإسبانية Fraile) وبالصحن ساريتان من الرخام المرقوم، وقد علاهما خط مشرقي أبلاه القدم وانسلخت بعض مواضع الكتابة ولم يبق إلا لفظ أمير المسلمين أبي سعيد بن أحمد فقط». *

لكل شيء بدايـــة

إذا كان من المتعذر علينا أن نُحيِّد بدقة تاريخ انطلاق الحركة العلمية في سبتة فإننا نعرف تقريبا متى بدأت تزدهر وتعطي أكلها.

---

*) يلاحظ أن المستعرب القنطرة قد نقل الشطر الثاني من العبارة هكذا «وغبطة كاملة» بدل «والعظمة الكاملة».

*) نتيجة الاجتهاد في المهادنة والجهاد، تحقيق اسماعيل العربي، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1980.

إن مصادر التاريخ والتراجم التي بين أيدينا تجعلنا نميل إلى الظن أن سبتة لم تكن تُذكَر من بين حواضر العلم الشهيرة في العالم الإسلامي قبلَ القرن الخامس الهجري. إلا أن الروابط العلمية بينها وبين العديد من تلك الحواضر كانت سابقةً لهذا القرن إذ أنها استحكمت وأخذت في الاتساع منذ القرن الرابع. ولدينا في هذا الصدد معلومات مفيدة عن التبادل العلمي بين سبتة وبعض المدن المغربية الأخرى، وبين تلك ومدن الأندلس والمشرق.

إننا نعرف أن هذا الثغر المغربي قد مر، منذ الفتح الإسلامي، بحقب من الاضطراب السياسي فلم يتمكن سكانه والطارئون عليه من التفرغ لإحداث الازدهار الفكري والعلمي الذي عرفته سبتة في القرن الخامس وما بعده، أي منذ قيام دولة المرابطين. وربما كان هذا هو حال المغرب عموما في عصر أمراء الخلافة الأموية ثم العباسية. بل حتى في عصر الدولة الإدريسية المستقلة عن الخلافة المشرقية. وعلة ذلك واضحة. فقد كان على الحاكمين أن يُعنوا، أولا، بنشر الدعوة الإسلامية وترسيخ دعائمها، وتعليم السكان الأصليين القراءة والكتابة ومبادىء الدين الجديد. ثم إن الأندلس نفسها لم تعرف الإزدهار العلمي بمعناه الحقيقي إلا في عهد الخلافة المروانية، ولا سيما في عصر عبد الرحمن الناصر (300 ـ 350 هـ/912 ـ 961 م).

وإذا كان لكل شيء بداية، فإن أول ما دخل سبتة وسائر بلاد المغرب من العلوم الإسلامية كتاب الله العزيز الذي لا شك أن تعلمه كان مسبوقا بنشر القراءة والكتابة ومصحوبا بتلقين السنة النبوية، وهذه مهمة تولاها قادةُ الفتح الإسلامي بتوجيهٍ من الخلفاء، فقد كانوا كما نعلم يصطحبون معهم معلمين وفقهاء لهذه الغاية.

لقد أخبرنا عالِمٌ ثقة من أهل سبتة هو أبو العباس أحمد العزفي اللخمي (ت 633 هـ) أن أبا زُرعة هو الذي أدخل القرآن الكريم إلى المغرب؛ وقد سجَّلَ هذه الرواية سبتي آخر من المتأخرين هو محمد بن القاسم الأنصاري حينما ذكر في «اختصار الأخبار» أن أبا زرعة هذا من الأعلام المدفونين في سبتة، وأن قبره مزار مشهور بها.

وأبو العباس العزفي مُحَدِّث ثقة لا يُرسل الكلام جزافا، وهو قد روى الخبر عن شيخه أبي محمد بن عبيد الله الحجري (ت سنة 591 هـ)(*) وهو أيضا من العلماء الثقات الامناء، وربما يكونان قد ذكرا المصدر الذي نقل عنه الأنصاري مع معلومات أخرى عن أبي زرعة، فضاع المصدر كما ضاعت مؤلفات أخرى جليلة الشأن ككتاب «العيون الستة في أخبار

(*) هو أبو محمد عبيد الله بن محمد بن عبيد الله بن ذي النون الحجري، أصله من حجر ذي رعين، انتقل من المرية إلى فاس ومنها إلى سبتة حيث توفي ودفن، وهو من أشهر علماء وقته وإليه كانت الرحلةُ للسماع منه (انظر ترجمته في التكملة، وجذوة الاقتباس).

سبتة» للحافظ القاضي أبي الفضل عياض اليحصبي السبتي (ت عام 544 هـ) وهو من هو مكانة في بلده، ومعرفة بالرجال والأخبار، وتثبتا في الرواية والنقل ؛ ومن يدري فلربما كنا نجد في هذه المصادر ما يشفي الغليل ويُمَكِّنُ من معرفةِ أشياءَ ذاتِ بال عن بداية الحركة العلمية ورجالها ومعاهدها في سبتة أكثر مما نعرف الآن.

وحتى محمد القاسم الأنصاري ـ آخر الناطقين بلسان سبتة السليبة ـ لم يصلنا شيء من مؤلفاته المطولة، وقد ذكر منها في مختصره اثنين هما: الكواكب الوقادة والاعلام. ولعلهما أن يكونا من الكتب التي أتت عليها يد الإستعمار البرتغالي بالإتلاف مع ما أتلفته من خزانات العلم وطمسته من معالم الحضارة الإسلامية في مدينة البوغاز.

ونعود إلى أبي زرعة لنقول إن عددا من التابعين دخلوا المغرب والأندلس مع جيوش الفتح الإسلامي، ومنهم : عقبة بن نافع، وحنش بن عبد الله الصنعاني، وعلي بن رباح، وموسى بن نصير. فهذا الحافظ أبو الوليد ابن الفرضي الأزدي (ت سنة 403 هـ) يورد في «تاريخ علماء الأندلس» ترجمة وافية لأحد هؤلاء التابعين هو حنش بن عبد الله الصنعاني فيقول عنه : «انه تابعي كبير ثقة، وأنه غزا المغرب مع رويفع ابن ثابت، والأندلس مع موسى بن نصير... وأن قبره بسرقسطة، بغرب المدينة، معروف».

أما أبو زرعة ـ وهي كنية الرجل كما يبدو ـ فلم يتيسر لنا أن نعثر على معلومات كافية عنه تثبت تاريخ دخوله إلى المغرب ومُقامه في سبتة ووفاته بها. على أن ابنَ سعد قد ذكر في طبقاته الكبرى أفرادا من الصحابة والتابعين وغيرهم يحملون هذه الكنية، ومنهم أبو زرعة يحيى ابن أبي عمرو الشيباني ـ وهو من الطبقة الثالثة من التابعين بالشام ـ وأبو زرعة روح بن زنباع الجذامي الذي كان من أصحاب عبد الملك بن مروان. غير أننا لا نجد أية إشارة تفيد انتقال أحد الرجلين إلى المغرب.

وكيفما كان الحال فإننا لا نرى كبير فائدة في تمطيط البحث في هذا الأمر لأن ما يهمنا معرفته هو أن رجلا من أعيان المسلمين وصلحائهم نذر نفسه لتعليم كتاب الله في المغرب وانتهى به المطاف إلى سبتة حيث تُوفي ودفن. ونحن نصدق في هذا ما نقله قاسم الأنصاري عن أبي العباس العزفي عن أبي محمد عبيد الله الحجري، وكلهم سبتيون يعرفون بلدهم ويؤكدون وجود ضريح أبي زرعة في سبتة. وقد عدَّه الأنصاري من القبور المعروفة بها في أوائل القرن التاسع الهجري.

بين سبتة وشقيقاتها المغربيات

نعرف من أسماء الاعلام السبتيين أفرادا ينتسبون إلى أُسَرٍ عريقة المحتد موصولة الذكر استوطنت مدينة البوغاز منذ أقدم عصورها الإسلامية، فمن الأسر المغربية : اللواتيون والكتاميون والصنهاجيون

والمجكسيون* والحمود يون الأدارسة وهم ينتسبون إلى أسرة من آل البيت تمغربت قديما بالمصاهرة وطول المقام. ومن الأنساب المشرقية : الأمويون والأزديون واللخميون والتميميون واليحاصبة. وقد نبغ من هذه الأسر ومن غيرها أعلام مرموقون في دنيا العلوم والآداب.

أما أُولَى الروابط العلمية التي نعرفها فقد انعقدت بين سبتة وشقيقاتها المغربيات قبل أن تتسع لتشمل حواضر الأندلس والمشرق. ولعل الغريب في أمر هذه الروابط أن مدينة البوغاز كانت في بداية عهدها بالعلوم والآداب مثابة رجال ينتسبون إلى مدن مغربية لا تُعَدُّ من حواضر العلم الشهيرة كأصيلا وكتامة وبصرة المغرب والنكور. والمدينتان الأخيرتان قد اندثرتا الآن وأصبحتا أثرا بعد عين.

فمن بصرة المغرب نذكر عالِما جليلا هو أبو زكرياء يحيى بن خلف الصدفي الذي قال عنه ابن الفرضي في تاريخ علماء الأندلس، إنه «رحل إلى المشرق فسمع بمكة أبا سعيد الأعرابي كثيرا. وتوفي بسبتة «ولم يذكر ابن الفرضي تاريخ وفاته مع أنه أفادنا أن أبا زكرياء الصدفي «من أهل سبتة، وأصله منْ بصرة المغرب»» ونستطيع أن نعرف، بصورة تقريبية. الزمن الذي رحل فيه هذا البصري إلى المشرق لطلب العلم. ذلك

---

*) المجكسيون نسبة إلى مجكس الذي ولي أمر سبتة في عصر الادارسة وبتفويض من ملوكهم. وخلفه من بعده ابنه عصام ثم مجبر بن عصام ثم الرضا الذي انقضى حكمه بدخول القائد فرج بن عفير سبتة في شعبان سنة 319 بأمر عبد الرحمن الناصر. هذا وقد أطلق اسم مجكسة على ما يسمى اليوم بالحوز في إقليم تطوان.

أن شيخه الصوفي الزاهد أبا سعيد أحمد الأعرابي، صاحب كتاب الزهد وغيره، توفي سنة 341 هـ. فلا بد أن يكون الصدفي قد لقيه بمكة قبل هذا التاريخ، ثم عاد إلى سبتة حيث انتصب، ولا شك للتدريس، رغم تردده على الأندلس للتجارة أحيانا، وللمرابطة والجهاد أحيانا أخرى.

ويعطينا ابن الفرضي أيضا معلومات مفيدة عن رجل آخر ارتبط اسمه بسبتة، وأصله من مدينة نكور، وهو أبو علي حسين بن فتح الذي سكن اشبيلية، وكان يؤدب بالقرآن، وكان له بصر بالغريب والنحو والشعر، سمع من أبي جعفر أحمد بن محمد بن هارون البغدادي، وحَدَّث عنه أبو محمد الباجي وأحمد بن عُبادة الرعيني. غير أن الذي يسترعي الانتباه هو ما ختم به ابن الفرضي ترجمة الرجل حيث قال : قال لي أبو محمد الباجي : «وعلى يديه أخذت مدينة سبتة» ويتضح من هذا الكلام أن حسين بن فتح كانت له يد طولى في نشر العلوم والآداب بين أبناء سبتة النجباء؛ فمتى كان ذلك ؟

لم يذكر ابن الفرضي تاريخ دخول ابن فتح الأندلس ولا تاريخ وفاته. غير أننا نقدر أنه كان حيا نشيطا في النصف الأول من القرن الرابع، ذلك أن تلميذه أبا عمر بن عبادة الرعيني القرطبي توفي - كما في تاريخ علماء الأندلس - سنة 332 هـ، بينما توفي تلميذه الآخر أبو محمد عبد الله بن محمد الباجي اللخمي سنة 378 هـ. أما شيخه أبو جعفر أحمد البغدادي فإننا نجهل تاريخ وفاته، ونعرف من طريق ابن

الفرضي أنه هو الذي أدخل إلى الأندلس بعض كتب أبي محمد عبد الله ابن مسلم ابن قتيبة.(ت سنة 276 هـ)، رواية عن ابنه أبي جعفر. كما أدخل بعض كتب عمرو بن بحر الجاحظ (ت سنة 255 هـ)؛ ويمكننا أن نستخلص مما تقدم أن هذه الكتب ذات الشأن في تاريخ العلوم والآداب الإسلامية قد دخلت إلى سبتة من طريق حسين بن فتح روايةً عن شيخه البغدادي.

هذا وقد دخلت سبتة أيضا أسرة نابهة الذكر من أصل كتامي ذاع صيتها في أفق العلم والأدب وتبوأت في هذه المدينة وفي سائر المغرب والأندلس مكانة رفيعة منذ القرن الرابع إلى التاسع الهجري. وهي أسرة آل ابن العجوز. وكان جَدُّهم عبد الرحيم مقيما بمدينة أصيلا ومنها انتقل إلى سبتة. وكان لهذه الأسرة المغربية النابهة فرع في بلاد الأندلس أيضا.

يقدم لنا القاضي أبو الفضل عياض في «الغنية» معلومات مقتضبة ومفيدة عن هذا البيت العلمي العريق فيقول - متحدثا عن شيخه عبد الرحمن بن محمد ابن العجوز الكتامي (ت بفاس سنة 515 هـ).

«من بيت علم وجلالة. فقيه، ابن فقيه، ابن فقيه، ابن فقيه، خامس خمسة، وعبد الرحيم أكبرهم في العلم والجلالة والأمانة هو المنتقل إلى سبتة من أصيلا. وأصلهم من بلدهم كتامة».

والظاهر أن عبد الرحيم بن أحمد الكتامي قد دخل سبتة في النصف الثاني من القرن الرابع، وبها توفي - حسب القاضي عياض - سنة 413 هـ. وقد ترجم له ابن بشكوال في «الصلة» فقال عنه : «كان عالما بمذهب المالكيين، ذا رواية واسعة بافريقيا والأندلس، ذكره أبو محمد ابن خزرج فقال : «أجاز لي جميع رواياته سنة ثمان أو تسع عشرة وأربعمائة، وتوفي بعد إجازته لي بنحو عامين، ومولده سنة خمس وأربعين وثلاثمائة.

وذكره ابن فرحون في الديباج فقال : «من كبار قومه كتامة، من فخذ يسمى أجان، وكانت له ولأبيه فيهم وفي المغرب رياسة بالعلم. وإليه كانت الرحلة في المغرب في وقته، وعليه كانت تدور الفتيا... ورحل عبد الرحيم إلى الأندلس وافريقيا، ولازم الفقيه أبا محمد بن أبي زيد واختص به وسمع منه كتبه : النوادر والمختصر، وجاء بهما وبغيرهما إلى سبتة. وسمع من دراس بن اسمعيل الفاسي وأبي محمد الأصيلي ووهب بن مسرة الحجازي. وكانت رحلته ورحلة الرجل الصالح أبي محمد بن غالب إلى القيروان من سبتة في نحو الثمانين وثلاثمائة قرب وفاة أبي محمد. أخذ عنه الناس بسبتة علما كثيرا، وتفقهوا عليه وسمعوا منه. كان من حفاظ المذهب القائمين به. روى عنه جماعة من فقهاء سبتة أبو محمد قاسم الماموني، ومحمد بن عبد الرحمن بن سليمان،

وابن خلف الله، وابرهيم بن يعقوب الكتامي... وجماعة من أهل سبتة وفاس».

يتضح من هذه الترجمة أن عبد الرحيم ابن العجوز كان من أفذاذ العلماء الذين وَثّقوا روابط سبتة بالقيروان وفاس والأندلس ومهّدوا لها سبل الأخذ والعطاء في ميدان العلم.

هذا وقد دخل سبتة عالم جليل آخر من القيروان هو أبو عبد الله محمد بن حارث الخشني المتوفى عام 361 هـ. وقد حبسه أهل سبتة حينما ورد على بلدهم من قرطبة حيث سمع من ابن أيمن، وقاسم ابن أصبغ، وأحمد ابن عبادة وغيرهم. وتفقه عليه قوم من سبتة؛ وللخشنى هذا عدة تآليف منها كتاب الاتفاق والاختلاف في مذهب مالك. وقد ترجم له صاحب الديباج.

ومن الاعلام الآخرين الذين أوقدوا شعلة العلوم والآداب في سبتة وبقي ذكرهم موصولا :

- أبو الأصبغ عيسى بن العلاء بن نذير بن أيمن : أخذ العلم بقرطبة عن أحمد بن خالد ومحمد بن عبد الملك، وقاسم بن أصبغ، ومحمد بن عيسى بن رفعة. وعاد إلى بلده سبتة فولى القضاء والصلاة بها «وكان فقيها عالما ومحدثا ضابطا» كما وصفه ابن الفرضي. وكانت وفاته سنة 306 وعمره ست وثمانون سنة. وقد ورد في «ترتيب المدارك» (الجزء السادس) أن وفاته كانت سنة 336. وذكر القاضي عياض أسماء

تلاميذه بسبتة وهم : ابنه قاسم، وخلف ابن قاصر، وغالب بن تمام، وقاسم ابن مخلد، ومحمد بن علي ابن الشيخ.

ـ أبو عبد الله محمد بن علي بن عبد الله ابن الشيخ الأموي، قال عنه ابن بشكوال في صلته : كان «محدث سبتة في وقته، شهر بالخير والصلاح والورع. رحل إلى الأندلس فأطال المقام بها. وسمع من ابن أبي عيسى وهب بن مسرة، وابن الخراز وغيرهما... وتوفي في حدود أربعمائة» وقد عَدّه القاضي عياض من تلاميذ عيسى ابن العلاء المذكور قبله.

والأموي هذا هو غير أبي عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد الأموي المتوفى عام 517 هـ فهذا من شيوخ القاضي عياض ترجم له في «الغنية» وذكره الأنصاري في «اختصار الأخبار» موضحا أن قبره بمسجد الحلة في سبتة.

ـ أبو محمد خلف بن علي بن ناصر بن منصور البلوي السبتي، من العلماء الزهاد. وكان من شيوخه بالمشرق أبو محمد عبد الملك ابن الحسين الصقلي؛ قال عنه ابن بشكوال في الصلة : «وكان زاهدا متبتلا سائحا في الأرض لا يأوي إلى وطن، راوية للعلم، حسن الخط، ضابطا لما كتب؛ قدم قرطبة وسكن مسجد متعة وتعبد فيه، وكان الصلحاء

والزهاد يقصدونه هنالك، وسمع منه جماعة من علماء قرطبة وغيرها منهم أبو عمر الطلمنكي، والصاحبان، وأبو عبد الله الخولاني، وأبو عمر بن عفيف، وتوفي بألبيرة».

ـ أبو الحجاج يوسف بن حمود بن خلف بن أبي مسلم الصدفي، تولى قضاء سبتة وبقي في هذا المنصب نيفا وعشرين عاما. ثم رحل إلى المشرق للحج وطلب العلم فتلقاه عن شيوخ منهم أبو ذر الهروي وأبو عبد الله الصوري. واجتاز إلى الأندلس فأخذ عن أبي بكر الزبيدي وأبي محمد عبد الله الأصيلي، وخَطَّاب بن مَسلمة، وأبي محمد الباجي، كما جاء في «الصلة» وهؤلاء الشيوخ كلهم من أعلام الفقه والحديث والعلوم، وناهيك بأبي ذر الهروي وأبي محمد الأصيلى. وكان الصدفي ـ كما أكد ابن بشكوال ـ رجلا صالحا متواضعا، وكانت له جِنان يحفرها بيده، وكان أديبا شاعرا، وتوفي سنة 428.

ـ أبو محمد عبد الله بن غالب بن تمام بن محمد الهمداني، تلقى العلم في الأندلس حيث أخذ عن أبي محمد الأصيلى وأبي بكر الزبيدي، وصحب في القيروان أبا محمد بن أبي زيد القيرواني وأخذ عنه الفقه، وتتلمذ في مصر على أبي بكر اسمعيل وابن الوشاء؛ قال عنه ابن بشكوال : «وكان من أهل الفقه التام والأدب البارع والشعر الجيد والعلم الواسع... جمع الدراية والرواية» وقلما تجتمعان لأحد. وتوفي أبو محمد الهمداني سنة 434. ومن المرجح أن رحلته إلى الأندلس وافريقيا

والمشرق كانت في النصف الثاني من القرن الرابع. ذلك أن أحد شيوخه ـ وهو أبو محمد الأصيلي ـ توفي سنة 372 هـ. كما أن شيخه الآخر ابن أبي زيد القيرواني توفى عام 386 هـ.

ـ أبو اسحق ابرهيم بن أبي العيش بن يربوع القيسي السبتي. ذكر صاحب «الصلة» أنه سمع أبا محمد الباجي بالأندلس. وروى عنه فيها محمد بن خزرج. توفي سنة 433 هـ.

ـ أبو محمد عبد الله بن ابرهيم بن جماح الكتامي السبتي؛ قال عنه ابن بشكوال : «كان من أهل العلم والمعرفة بالفقه وعلم التوحيد والاعتقاد... وسكن بشرق الأندلس. وكان القاضي أبو الوليد الباجي يستخلفه ـ إذا سافر ـ على تدريس أصحابه. ثم رحل إلى المشرق سنة خمسين. وتوفي في حدود السبعين وأربعمائة».

فهذا سبتي آخر من أرومة كتامية. بلغ من العلم وحسن الأداء مبلغا بحيث إن عالما فقيها أصوليا في مكانة أبي الوليد سليمان الباجي كان يقدمه لتعليم تلاميذه إذا سافر.

حقيقتـــــان

إن هذا القدر من التراجم التي ذكرناها كاف لإعطائنا صورة عن الحركة العلمية بسبتة في القرن الرابع خاصة. وهي حركة تبرز حقيقتين اثنتين :

أولاهما : أن الصلات العلمية بين سبتة والحواضر الإسلامية الأخرى في الأندلس وافريقيا والمشرق بدأت تستوثق في وقت مبكر، وهي صلات يطبعها الأخذ والعطاء بمعنى أن رجالا من سبتة يرحلون إلى قرطبة أو القيروان أو مصر أو مكة أو بغداد لتلقي العلم ومصاحبة رجاله والرواية عنهم، أو للتدريس والإقراء وإفادة أهل تلك البلاد، وهذه الظاهرة بقيت مستمرة إلى القرن الثامن الهجري كما سنرى.

وثانيهما : أن أفذاذ رجال سبتة قد وردوا العلم من مصادره الأصلية وامتازوا بعلو الإسناد وصحة الرواية ونقلوا ذلك إلى بلدتهم بعد أن أخذوا عن أعلام وقتهم كأبي ذر الهروي وأبي محمد الأصيلي وابن أبي زيد القيرواني وقاسم بن أصبغ وأبي الوليد الباجي، وغيرهم؛ كما أن من أهل سبتة من بَرَّز في التدريس في غير بلده فكان من تلاميذه أعلام مرموقون كأبي عمر الطلمنكي وأبي عبد الله الخولاني، وفي اعتقادي أن هذه الإنطلاقة السليمة للحركة العلمية في سبتة كانت من أسباب الإزدهار الذي عرفته هذه المدينة في حقل العلوم والآداب منذ القرن الخامس الهجري حيث نشطت معاهدها العلمية واتسعت خزانات الكتب بها، وقويت حركة التأليف واشتدت رغبة رجالها إلى الترحال لطلب العلم كما ورد على سبتة العديد من العلماء والأدباء من الأندلس والمشرق وافريقيا، ومنهم من قدم عليها للقاء رجالها والإفادة منهم والأخذ عنهم.

بوادر الإزدهــــار

يمكن القول ان بوادر الإزدهار العلمي في سبتة بدأت تظهر في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري، أي مع ظهور الدولة المرابطية التي وَحّدت المغرب والأندلس وساهمت في توسيع الصلات العلمية بين العدوتين المغربيتين.

وقبل الكلام عن مظاهر هذا الإزدهار ورجاله المبرزين في القرنين الخامس والسادس أرى من المناسب في هذا المقام أن أذكر ما قاله ياقوت الحموي في معجم البلدان عن سبتة، وهو كلام يمكن عَدّه من الطرائف ذات الدلالة في موضوع دراستنا، وذلك إذا لم نحمله محمل التصديق؛ جاء في مادة سبتة بهذا المعجم: «وقد نسب اليها جماعة من أعيان العلم منهم: ابن مرانة السبتي، كان أعلم الناس بالحساب والفرائض والهندسة والفقه، وله تلامذة وتآليف، ومن تلامذته ابن العربي الفرضي الحاسب، يقولون إنه من أهل بلده؛ وكان المعتمد بن عباد يقول اشتهيت أن يكون عندي من أهل سبتة ثلاثة نفر: ابن غازي الخطيب، وابن عطاء الكاتب، وابن مرانة الفرضي».

فإذا نحن صدقنا ياقوت ـ الذي لم يذكر مصدر نقله ـ فإننا نستخلص مما سبق أن مكانة سبتة العلمية كانت قد توطدت في النصف الثاني من القرن الخامس، أي في الحقبة التي ساد فيها المعتمد ابن عباد

(461 ـ 484 هـ/1068 ـ 1091 م). حتى إن هذا الأمير الشاعر كان يتمنى أن تزدان دولته بثلاثة من أعيان العلم والأدب السبتيين.

على أن حقائق التاريخ تثبت أن سبتة أصبحت بالفعل منارة علوم وآداب في القرنين الخامس والسادس. فنشطت معاهدها العلمية، ونبه ذكر العديد من أعيانها وطار صيتهم في جميع أنحاء العالم الإسلامي.

ولدينا في هذا الصدد مرجع عظيم الفائدة جليل القدر خلفه لنا عالم ثقة كان من شهود عصر الإزدهار ومن أعلامه البارزين. ذلكم هو كتاب «الغنية»* لأبي الفضل عياض بن موسى اليحصبي السبتي؛ وهذا الكتاب لا يقتصر على كونه فهرسة تراجم الشيوخ. بل إنه ـ فضلا عن ذلك ـ مصنف يصور بكثير من التفاصيل مسار الحركة العلمية في سبتة من حيث مكانة الرجال واتصال الأسانيد وقيمة الكتب التي كان عليها مدار التدريس، كما أنه يعطينا ـ من خلال ذلك كله ـ صورة بينة عن اتساع الروابط العلمية بين سبتة وحواضر العلم الشهيرة في العالم الإسلامي من طريق تبادل البعوث العلمية وعقد المراسلات بين العلماء ورواج مؤلفاتهم في الإتجاهين.

فمن حيث الأسانيد ـ وكانت كما نعلم من وسائل رواية الأخبار وانتقال العلم بأصح الطرق ـ نجد في «الغنية» أمثلة حية يأتي بها عياض

*) كتاب الغنية ـ فهرسة شيوخ القاضي عياض، تحقيق الدكتور محمد بن عبد الكريم، الدار العربية للكتاب، ليبيا ـ تونس 1398 ـ 1976.

عفو الخاطر؛ فهو - مثلا - حينما يترجم لشيخه القاضي أبي عبد الله محمد بن عيسى التميمي يذكر بتوسع ما قرأه عليه من مصنفات ويبين أسانيده فيها؛ فيقول عن كتاب «إصلاح الغلط» لأبي محمد ابن قتيبة : قرأته على القاضي أبي عبد الله محمد بن عيسى، حدثني به عن أبي مروان عبد الملك بن سراج، عن أبي القاسم ابرهيم بن محمد الافليلي، عن أبيه، عن قاسم بن أصبغ، عن أبي محمد بن قتيبة.

وعن «المدونة» يقول عياض : «ناظرت في جميعها عليه - يقصد شيخه التميمي - وقرأت عليه الكثير منها رواية وضبطا، وأجازني باقيها؛ حدثني بها عن الفقيه أبي عبد الله محمد ابن فرج مولى ابن الطلاع، عن الفقيه أبي علي الحداد، عن محمد ابن عبدون، عن محمد ابن وضاح، عن سحنون.

وعن كتاب «التقصي لمسند الموطأ» لأبي عمر بن عبد البر النمري يقول أبو الفضل : «وسمعت جميعه، أيضا، على الفقيه أبي عمران موسى ابن أبي تليد، حدثني به عن مؤلفه».

وعن كتاب «الكامل» لأبي العباس المبرد يقول عياض إنه قرأه على الأديب الراوية أبي عبد الله محمد بن سليمان النفزي «حدثني به عن خاله أبي محمد غانم، عن أبي عمر يوسف بن عبد الله السهمي، عن أحمد بن أبان ابن سيد، عن أبي عثمان سعد ابن جابر، عن أبي الحسن الأخفش، عن المبرد».

فهذه أمثلة قليلة أتينا بها، أولا، لصلتها المتينة بموضوع هذا البحث، وثانيا، لبيان أن رواية العلم والأدب كانت حلقة تكتمل بها السلسلة المتصلة الحلقات بين مختلف حواضر العلم الإسلامية شرقا وغربا.

وأما الكتب والتصانيف التي كان عليها مدار التدريس، فإن أبا الفضل اليحصبي قد سجل منها أصنافا وفنونا تضم علوم القرآن والحديث والأصول والفقه واللغة والنحو والأدب، وكلها تدرس قراءة وسماعا وتنتقل بأصح طرق الرواية والنقل والإجازة والمناولة، عالما عن عالم، وأديبا عن أديب، حتى تنتهي إلى منبعها الأصلي.

وقد أحصينا ما درسه عياض نفسه من هذه المصنفات على شيوخه في سبتة ومدن الأندلس فوجدناها تنيف عن مائتين وخمسين مصنفا من جنس صحاح الحديث الشريف، وشمائل الترمذي، ومدونة سحنون في فقه الإمام مالك، وعلوم الحديث للحاكم النيسابوري، وطبقات النسائي، واصلاح المنطق لابن السكيت، والهداية للمهداوي في القراءات، وأمالي القالي، وحماسة الجرجاني، وإكمال ابن ماكولا، والكافي لأبي جعفر النحاس، والإيضاح للفارسي، وفصيح ثعلب... وكل هذه المصنفات ـ التي ذكرنا بعضها على سبيل المثال ـ يرويها عالم عن عالم، وشيخ عن شيخ، حتى تفضي الرواية إلى منبعها، بما يتبع ذلك من تحرير وشرح وضبط وما يستوجبه الأخذ والعطاء من شد الرحال والتنقل بين حواضر العلم واستجازة العلماء.

ومن الرواية والإسناد ومصادر العلم ننتقل الى الأساتذة والشيوخ. وفي هذا الصدد يمدنا القاضي عياض بقائمة طويلة ينتسب أصحابها إلى العديد من بلدان الإسلام في الشرق والغرب.

ويمكن تقسيم هؤلاء المشايخ الأعلام إلى ثلاث فئات؛ وإنما نفتعل هذا التقسيم التعسفي لغرض البحث الذي اخترناه وجعلنا موضوعه الرئيسي الروابط العلمية بين سبتة وحواضر العلم الأخرى.

فالفئة الأولى تتألف من علماء ينتسبون إلى الأندلس وافريقيا والمشرق لم يدخلوا سبتة ولم يقيموا فيها للتعليم، وإنما شدت إليهم الرحال وقصدهم الطلاب لمكانتهم العلمية وكان لهم على سبتة ورجالها المشاهير فضل وأي فضل.

وقد ذكر عياض في «الغنية» أسماء هؤلاء وتراجمهم وأسماء شيوخهم ومؤلفاتهم وأسانيدهم وبين مكانتهم في بلدهم وفي العالم الإسلامي؛ ومنهم: أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد القرطبي (ت 525 هـ)، وأبو بكر محمد بن الوليد الفهري الطرطوشي الأندلسي دفين الاسكندرية (ت 520 هـ)، وأبو عبد الله محمد التميمي المازري (ت 536 هـ) والقاضي أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن علي ابن شبرين (ت 503 هـ) وأبو عبد الله محمد بن مفرج الصنهاجي (ت 536 هـ) والوزير أبو جعفر أحمد بن سعيد ابن بشتغير اللخمي (ت 516 هـ) والحافظ أبو طاهر أحمد السلفي

الأصبهاني (ت 516 هـ) والمقريء أبو جعفر أحمد بن عبد الرحمن ابن عبد الحق الخزرجي (ت 511 هـ) والإمام الحافظ أبو علي الحسين الغساني الجياني (ت 498 هـ) والمقريء أبو القاسم خلف ابن النخاس (ت 511 هـ) وأبو محمد عبد الله بن السيد البطليوسي النحوي (521 هـ) وأبو محمد عبد الرحمن بن محمد بن عتاب الجذامي (ت 520 هـ) وأبو الحسن علي بن عبد الرحمن ابن الأخضر التنوخي النحوي (ت 476 هـ) واللغوي الحافظ الوزير أبو الحسين سراج بن عبد الملك ابن سراج الأموي (ت 508 هـ) والقاضي المقريء شريح بن محمد بن شريح الرعيني (ت 539 هـ) وأبو الحسن يونس ابن الصفار (ت 532 هـ).

أما الفئة الثانية فتضم طائفة من الشيوخ ليسوا من أهل سبتة أصلا إلا أنهم أقاموا بها مدة قصيرة أو طويلة وجلسوا فيها للتدريس وأخذ عنهم الطلاب وأفاد منهم الناس. ومن هؤلاء :

ـ أبو بكر محمد بن عبد الله ابن العربي المعافري الاشبيلي دفين فاس (ت 543 هـ) قال عنه عياض : «واجتاز ببلدنا عند انصرافه من المشرق فكتبت عنه حينئذ فوائد من حديثه. وناولني كتاب «المؤتلف والمختلف» للدارقطني.

ـ أبو عبد الله محمد بن علي بن محمد الأزدي الريوطي الطليطلي (ت 503 هـ) وهو من تلاميذ الحافظ أبي الوليد سليمان

الباجي، ولي الخطبة وصلاة الجمعة بفاس ثم انتقل إلى سبتة حيث سمع عليه الطلبة.

ـ أبو عبد الله محمد بن عمر بن قطري الزبيدي (ت 501 هـ) أصله من اشبيلية؛ أقام بسبتة يُدَرِّس النحو واللغة العربية؛ قال صاحب «الغنية» : «وكان له حظ من العلم بالأصول والاعتقاد. وله سماع ورحلة جال فيها في الحجاز والعراق والشام» من شيوخه : أبو محمد بن جماح السبتي ـ وكان مجاورا بمكة ـ وأبو عمران الصقلي ومهدي الوراق والحسين الطبري وأبو بكر الخطيب الحافظ. وأبو الوليد الباجي.

ـ أبو العباس أحمد بن محمد الأنصاري الشارقي (ت 500 هـ) سكن سبتة كثيرا وتكرر عليها.

أحمد بن طاهر بن علي ابن شبرين الأنصاري الداني (ت في نحو 520 هـ) وهو من علماء الحديث وكان يميل في فقهه إلى الظاهر. له مؤلفات ذكر منها عياض : «أطراف الموطأ» و«رجال مسلم». وقد أقام بسبتة.

ـ أبو علي الحسن بن عبد الأعلى الكلاعي دفين أغمات (ت 505 هـ). أصله من سفاقس، وقد دَرَسَ في بلاد المصامدة واستوطن سبتة؛ قال عنه عياض : «وكان محققا، فهما، أصوليا، متكلما، عارفا بعلم الهندسة والحساب والفرائض وغير ذلك من المعارف».

ـ أبو القاسم خلف بن يوسف ابن فرتون النحوي الشنتريني (ت 532 هـ) ترجم له عياض فقال : «كان من أئمة النحاة والأدباء الثقات الأخيار... انتقل إلى العدوة فسكن سبتة مدة وأنزلته بجامعها للإقراء... وقرأ عليه عدة من المشايخ والكهول والشبان كُتُبَ النحو واللغة والغريب والآداب، وبعض كتب الحديث، وانتقل إلى فاس فأقام بها مدة وأُخِذَ عنه بها ثم رحل إلى الأندلس». وقد قَدَّم لنا صاحب «الغنية» صورة طريفة عن نفور هذا الشيخ النحوي الأديب من الاستقرار بمكان واحد وميله إلى التنقل بين البلدان، فقال : «وكان لا يليق به قطر، ينتقل من بلد إلى آخر بجملته وعياله، مرة بالأندلس، ومرة بالعدوة، وتارة بقرطبة، وكرة بغرناطة».

ـ القاضي الحافظ أبو علي الحسين الصدفي ابن سُكَّره، ترجم له القاضي عياض في الغنية، وحينما تعرض لذكر تلميذه أبي محمد بن خلوف الأزدي قال إنه سمع من أبي علي الصدفي، عند اجتيازه بسبتة.

ـ أبو محمد عبد الله بن محمد بن منصور اللخمي (ت 513 هـ)، أصله من نكور، ولي قضاء سبتة ومراكش، وكان ـ كما وصفه عياض ـ «من أهل الفهم والنباهة والنظر والتفنن والمشاركة في ضروب العلم... وكان يحضر مجلسه الأكابر من شيوخنا وأصحابه لكثرة فائدته، وكان يلازمه شيخنا أبو اسحق ابن الفاسي، وأبو محمد ابن شبونة، وأبو القاسم ابن العجوز».

ـ أبو محمد عبد الله بن محمد النفزي الخطيب (ت 538 هـ). أصله من قرطبة. أخذ عن أبي حجاج بن قاسم المأموني، وعبد الجبار ابن أبي قحافة. ولقى أبا الحسن ابن حمدين، وأبا عبد الله ابن الطلاع، وأبا مروان ابن سراج، وسمع من أبي علي الصدفي. وعَلَّمَ بسبتة وغرناطة واشبيلية وقرطبة.

ـ أبو محمد عبد الغالب بن يوسف السالمي (ت 516 هـ). أقام بسبتة، وعَلَّمَ في مدارسها وتولى الخطبة وصلاة الجمعة بها، وتوفي في مراكش؛ وصفه صاحب «الغنية» بالمتكلم على مذاهب أهل السنة من الأشعرية. وهذا يثبت ما رجّحناه في دراستنا عن أبي الفضل عياض* من أن الموحدين لم يكونوا أول من أدخل إلى المغرب علم الكلام على طريقة الأشاعرة.

ومما قاله عياض في ترجمة هذا الشيخ : «أخذ عن ابن شبرين القاضي وغيره، وأخذ عنه الناس كثيرا. وكان خيرا فاضلا مستقلا بعلمه إماما فيه. له فيه تصانيف كثيرة... وقد كتب هو وأبو الحجاج الضرير كتابه في اختصار «الهداية» و«الشامل» المسمى بـ «أنوار الحقائق وأسرار الدقائق».

ـ الوزير أبو محمد عبد المجيد بن عبدون الفهري اليابري (ت 527 هـ) وهو من مشاهير أدباء الأندلس وأعيان شعرائها. خدم الدولة

---

*) انظر العدد 19 من مجلة المناهل.

المرابطية؛ قال عنه أبو الفضل في «الغنية» : «كان أحد رؤساء الأدب، القائمين بعلم العرب، الحافظين للخبر ومعاني الشعر واللغات، قرأ الناس عليه كثيرا، وحملوا عنه كتب الغريب والآداب وغير ذلك؛ لقيته بسبتة... وأقسم لي أنه ما قصد سبتة إلا للقائي والإجتماع بي؛ وسألني عن أشياء في نفسه، وذاكرته في شيء، وسمعت عليه قصيدته الرائية المشهورة... وأولها :

الدهر يفجع بعدَ العين بالأثـــرِ

فما البكاء على الأشباح والصـــور

وسمعت عليه كثيرا من كتابه في نُصرة أبي عبيد... وأجازني جميع رواياته».

فانظر إلى هذا العلم الشامخ يمر بسبتة للقاء أبي الفضل عياض ومذاكرته لتعرف مكانة هذه المدينة وشهرة رجالها في العصر الذي نحن بصدده.

ـ الأستاذ النحوي أبو الحسن علي بن محمد ابن دري الأنصاري (ت 520 هـ)، أصله من طليطلة، وتوفي بغرناطة؛ قال عنه عياض : «أحد مشايخ المقرئين والنحاة المقدمين، وكان فاضلا متواضعا محببا إلى الناس متصرفا في شؤون صغيرهم وكبيرهم، مقبول القول، مقضى الأرب عند الرؤساء، سكن بلدنا سبتة مدة كثيرة وأقرأ بها؛ قرأت عليه ـ حينئذ ـ

القرآن برواية ابن عامر. ثم انتقل إلى غرناطة ولقيته بعدُ بها وسمعت منه بعضَ كتابه في مخارج الحروف، وحدّثني بجميعه. وحاز رياسة الإقراء بغرناطة... وكان له نظر في العلوم القديمة وتفنن في المعارف، من أهل الضبط والاتقان. وكان ظريفا حلوا».

ـ أبو الحسن علي بن أحمد الربعي المقدسي الشافعي التاجر (ت 531 هـ)، وهو من أهل المشرق أقام بسبتة وعلّم بها وأخذ عنه الناس. أخذ عن أبي اسحق الشيرازي وأبي بكر الخطيب وأبي الفتح نصر المقدسي.

ـ أبو الأصبغ عيسى بن محمد بن عبد الله بن أبي البحر الزهري (ت 530 هـ)، أصله من شنترين، سكن مدينة سلا، وتردد على سبتة للتجارة. وجلس فيها للتدريس؛ قال عنه أبو الفضل عياض : «لقيته بسبتة مرات... ناولني من كتب أبي الوليد كتاب التعديل والتجريح وكتاب التسديد وكتاب الفصول في أحكام الأصول، وحدثني بجميعها عنه. وعندي منها أصول الباجي».

ـ الحافظ أبو بكر غالب ابن عطية المحاسبي (ت 518 هـ)، وهو والد المفسر القاضي أبي محمد عبد الحق ابن عطية مؤلف «المحرر الوجيز في تفسير كتاب الله العزيز»؛ أخذ العلم في الأندلس والمشرق، وجلس في مكة لتعليم العقيدة والأصول؛ قال عنه صاحب «الغنية» : «وحصل علما جما وتقدم في علم الحديث، وأحسن التقييد والضبط،

وتصدّر ببلده للفتيا والتدريس والإسماع والتفسير. وانتفع به الناس. وأخذوا عنه كثيرا. وكان شيخهم المقدم... لقيته بسبتة عند قدومه على أمير المسلمين ـ أيده الله ـ وبقرطبة أيضا. وفاوضته كثيرا وسمعت من لفظه فوائد. رحمة الله عليه».

ـ أبو عمران موسى بن عبد الرحمن بن أبي تليد الشاطبي (ت 517 هـ). قال عنه عياض : «شيخ بلده ومفتيه وكبيره. مع الأدب الجم والرواية العالية... لقيته بسبتة منصرفه من حضرة السلطان ـ أيده الله ـ فسمعت منه «التقصي» لأبي عمر بن عبد البر... وحدثني به عن مؤلفه. وناولني كتاب الصحابة لأبي عمر بن عبد البر. عنه. وكتب إجازته لي بخطه بجميع رواياته».

ـ أبو عبد الملك مروان بن عبد الملك بن ابرهيم ابن سمجون اللواتي (ت 491 هـ). وهو من جلة علماء المغرب ومشاهير أبنائه. ترجم له عياض فقال في حقه : «زعيم المغرب وشيخه وذو الجاه العريض والقول المسموع فيه. كان من أهل العلم والفقه والأدب. وله سماع عال من المصريين : ابن نفيس وابن عنبر وأبي محمد بن الوليد ونمطهم؛ وقرأ القرآن على المقرئين بها. وجالس الفقيه عبد الحق بصقلية. وسمع من أبي علي المعروف بابن أمكنو. فقيه سجلماسة بها عن أبي محمد ابن أبي زيد. وحصل علما جما. وكان ذا جزالة وشهامة وفصاحة... ولي

الخطبة والصلاة والفتيا بسبتة. ثم انتقل إلى طنجة صدر الدولة المرابطية. ومنها أصله. فولى صلاتها وخطبتها وفتياها. ثم تقلد أحكامها. وانصرفت إليه جميع أمور الأندلس والمغرب. وفوض له أمير المسلمين يوسف في كبارها. وكان مهيبا صليبا. لقيته بسبتة أول طلبي للأدب في بعض جيآته اليها. وحضرت مجلسه. وسألني عن مسائل من الأدب. وأجبته وسمعت كلامه».

ـ أبو نصر سهل بن علي بن عثمان النيسابوري التاجر (ت 531 هـ). وهو مشرقي من تلاميذ أبي المعالي إمام الحرمين الجويني والحافظ أبي طاهر السِّلَفي. أقم بسبتة مدة طويلة. «وكان متسمتا جليلا» كما وصفه عياض.

ـ أبو الطيب سعيد بن أحمد السفاقسي الينونشي (ت 501 هـ)؛ قال عنه عياض : «اجتاز ببلدنا. وسكن أغمات. كان من المحققين بالفقه والكلام. من أهل البلاغة والتأليف والنظم والنثر».

ـ أبو الحجاج يوسف بن موسى الكلبي الضرير (كان حيا في أواخر المائة الخامسة) قال عنه عياض : «كان من المشتغلين بعلم الكلام على مذهب الأشعرية ونظار أهل السنة. عارفا بالنحو والأدب. وله في ذلك تصانيف مشهورة. وسكن بلدنا مدة وتردد بالأندلس والمغرب. وكان آخر المشتغلين بعلم الكلام بالمغرب وهو يعني، ولا شك، بهذه العبارة

الأخيرة أن الاشتغال بعلم الكلام توقف في عهد الدولة المرابطية، وكان أمراؤها وذوو الرياسة فيها لا يميلون الى تشجيع هذا الضرب من العلوم. هذا ونستند مرة أخرى الى ما قاله عياض عن شيخه هذا لنؤكد أن الاشتغال بعلم الكلام على طريقة الأشاعرة كان سابقا لظهور دولة الموحدين، وأن مؤلف الغنية نفسه قد تعمق في دراسة هذا العلم، أخذه عن الكلبي وغيره.

ـ أبو الحجاج يوسف بن عبد العزيز ابن عديس (ت 505 هـ)، وهو من طليطلة؛ قال صاحب الغنية في حقه : «وكان من أهل العلم والمعرفة والحفظ والتفنن... لقيته بسبتة، ولم أسمع منه، وسمع منه جماعة من أصحابنا وشيوخنا، منهم أبو عامر ابن حبيب» وقد توفي أبو الحجاج بفاس.

ـ أبو الأصبغ عيسى بن سهل الأسدي (ت 486 هـ) لم يترجم له القاضي عياض في الغنية، وإنما أشار إلى مقامه بسبتة إشارة عابرة؛ وقد ذكره ابن بشكوال في الصلة، فقال : «كان من جلة الفقهاء، وكبار العلماء، حافظا للرأي، ذاكرا للمسائل، عارفا بالنوازل، بصيرا بالأحكام، عول الحكام على كتابه فيها» وهو يقصد كتاب (الإعلام بنوازل الأحكام).

أما ابن فرحون فقد أفاض في ترجمته، وذكر من شيوخه : حاتم الطرابلسي، وابن عتاب، وابن القطان، ومكي ابن أبي طالب، وابن

الشماخ، وأبا عمر ابن عبد البر؛ وقال إنه : «كان جيد الفقه مقدما في الأحكام... وولي بقرطبة الشورى، وأنا به حاكمها، ودخل سبتة، فنوه بمكانه صاحبها البرغواطي، فرأس فيها، وأخذ عنه جماعة من فقهائها، منهم قاضي الجماعة أبو محمد ابن منصور، والقاضي أبو اسحق ابرهيم ابن أحمد البصري، والفقيه أبو اسحق (ابرهيم) بن جعفر اللواتي... وسمع منه القاضي : أبو عبد الله بن عيسى التميمي(*).

في رحاب معاهد سبتـــة

ها نحن قد استعرضنا طائفة من أهل العلم والأدب المغاربة والأندلسيين والمشارقة الذين استوطنوا سبتة أو مروا بها وأقاموا فيها مدة من الزمن تطول أو تقصر، فحملوا معهم علمهم ومروياتهم وأفادوا أبناء هذه البلدة واستفادوا منهم فوصلوا بذلك روابط العلم بين سبتة والحواضر الإسلامية الأخرى، وكان ذلك في أواخر القرن الخامس وأوائل السادس من الهجرة. وهم بذلك قد مهدوا لاستمرار هذه الروابط واتساعها فيما بعد.

وننتقل الآن إلى الكلام عن الفئة الثالثة، وتتألف ـ حسب التقسيم الذي اصطنعناه ـ من أعلام سبتيين، أصلا، وكانت لهم اليد الطولى في ازدهار الحركة العلمية بسبتة وفي توسيع روابطها بالحواضر الإسلامية الشهيرة في أواخر القرن الخامس وأوائل السادس من الهجرة. فمن هؤلاء :

*) الديباج المذهب، ج 2، ص 70.

- القاضي أبو عبد الله محمد بن عيسى التميمي المتوفى بسبتة سنة 505 هـ. قال عياض في حقه : «أجل شيوخ أهل بلدنا سبتة - رحمه الله - ومقدم فقهائهم. مولده بمدينة فاس، انتقل به أبوه إلى سبتة وهو شاب، وأصله من تاهرت... وكان كثير الكتب، حافظا، عارفا بالفقه، مليح الخط والكتابة والمحاضرة، من أعقل أهل زمانه وأفضلهم وأسمتهم، تام الفضل، كامل المروءة، بعيد الصيت عند الخاصة والعامة، عظيم القدر... وكان من أحسن القضاة سيرة، وأنزههم وأجراهم على الطريقة القويمة، فمضى فقيرا حميدا».

وقد طلب هذا الشيخ الجليل العلم في سبتة ورحل إلى الأندلس ثلاث مرات فدرس على أعلامها في اشبيلية والمرية وقرطبة ومنهم أبو بكر ابن الصيدة، والجياني، وابن الطلاع، وأبو مروان ابن سراج وأبو القاسم الباجي.

- القاضي أبو عبد الله محمد بن عبد الله الأموي المتوفى عام 517 هـ؛ كان ذا معرفة بالفقه وعلوم القرآن، سمع من القاضي أبي الأصبغ ابن سهل ومروان بن عبد الملك، وأبي عبد الله ابن العجوز. ولي قضاء بلده مرتين.

- أبو بكر محمد ابن البراء الجزيري (كان حيا سنة 493 هـ)، وكان شاعرا أديبا، قرأ الناس عليه النحو، وذكر عياض أنه قرأ عليه (الكامل) لأبي العباس المبرد.

ـ محمد بن عبد الله المورروري، الشيخ المقريء، توفي في حدود سنة خمسمائة بسبتة بعد أن أفنى عمره في تعليم كتاب الله العزيز، وكان «قائما بعلم القراءات».

ـ أبو اسحق بن جعفر بن أحمد اللواتي المعروف بابن الفاسي، توفي سنة 513 هـ بسبتة، ترجم له عياض فقال : «كان من أهل الفقه والعلم، والمعرفة بالوثائق، والبصر بالأحكام... صحب القاضي أبا الأصبغ ابن سهل وتفقه عنده... وسمع أيضا الفقيه أبا عبد الملك مروان بن عبد الملك، والمقريء أبا محمد ابن سهل، وكتب للقضاة بسبتة، وشوور في الأحكام، ثم قعد عن ذلك وانقبض عن الناس، واشتغل بنفسه وطلب الإنفراد والتقلل والزهد في الدنيا؛ وقد طُلِب لقضاء سبتة وولاية خَطابتها فامتنع ولم يجب، فلزم ذلك إلى أن توفي، رحمه الله».

ـ القاضي أبو اسحق ابرهيم بن أحمد البصري المتوفي عام 513 هـ. «تفقه بسبتة عند عبد الله بن جماح وعبد الله المسيلي، واختص بأبي الأصبغ ابن سهل وقت سكناه عندنا... ولي قضاء سبتة... وكان صينا نزيها محمود السيرة في قضائه» ـ كما وصفه صاحب الغنية ـ

ـ أبو علي الحسن بن علي ابن طريف المتوفي عام 501 هـ وهو من شيوخ النحاة وجلة علماء سبتة، تعلم ببلده وبالأندلس فسمع من حجاج ابن المأموني ومروان بن عبد الملك والقاضي ابن سهل، قال عنه أبو الفضل «ودَرّس عمره النحو ببلده وأخذ عنه جماعة من شيوخنا»

ـ أبو محمد عبد الله بن أحمد بن خلوف الأزدي المعروف بابن شبونة. توفي سنة 513. قال عياض في حقه : «أحد الحفاظ المبرزين للمذهب القائمين به. دَرَس بسبتة على أبي الأصبغ ابن سهل. وسمع منه وتفقه عنده، وعند الفقيه أبي عبد الله ابن عيسى، وسمع من أبي علي ابن سكرة، عند اجتيازه بسبتة، ومن أبي محمد ابن أبي جعفر وغيرهما من مشايخنا السبتيين والطراء عليها. وبرع في الفقه، وحلق بجامع سبتة».

ـ أبو محمد عبد الله بن أحمد التميمي المتوفى بسبتة عام 501 هـ. رحل إلى الشرق فلقى عبد الحق الصقلي وأبا المعالي الجويني والقاضي القضاعي.

ـ القاضي الخطيب أبو القاسم عبد الرحمن بن محمد المعافري المتوفى سنة 502 هـ. أخذ في الأندلس عن القاضي أبي الوليد الباجي. ورحل إلى افريقيا وصقلية ومصر والحجاز فأخذ عن جماعة من أعلامها منهم إمام الحرمين أبو المعالي الجويني. لقيه بمكة. ولى القضاء ببلده سبتة ثم بالجزيرة الخضراء.

ـ أبو القاسم عبد الرحمن بن محمد ابن العجوز الكتامي المتوفي سنة 515 هـ. وهو من بيت آل ابن العجوز المشهور وقد تقدمت الإشارة اليه. أخذ العلم عن أبيه وعن عدد من أعلام العلم كمروان ابن سمجون

وحجاج المأموني وأبي الفضل النحوي؛ قال عنه صاحب الغنية : «وكان يميل إلى النظر والحجة... وولى قضاء الجزيرة الخضراء ثم قضاء سلا. ثم خلافة القضاء بالحضرة (مراكش).

ـ الأستاذ أبو الحسين يحيى أبو الطراوة النحوي الأديب. كان حيا في المائة الخامسة؛ قال في حقه عياض : «أحد أئمة الأدب وشيوخ النحاة. القوام على كتاب سيبويه وغيره. مع تفنن في علوم رياضية. وكان شاعرا مجيدا».

هؤلاء أعلام ورد ذكرهم في كتاب (الغنية). وجلهم من أبناء سبتة. ومنهم طراء عليها اختاروها للإقامة والتدريس. وكلهم أسهموا في ازدهارها العلمي وتقوية صلاتها بشقيقاتها الإسلاميات من طريق الرحلة والسماع والقراءة وتبادل الإجازة وانتقال مصادر العلم واتصال أسانيد الرواية. هذا ويجمل بنا أن نذكر من تلاميذ عياض الأندلسيين كُلّاً من أحمد بن عبد الرحمن بن عمير اللخمي المتوفى باشبيلية عام 592 هـ وأبي العباس أحمد بن عبد الرحمن بن الصقر الأنصاري الخزرجي المتوفى عام 569 هـ بمراكش وقد أقام بسبتة ثم بفاس. واستوطن أخيرا مراكش ـ وترجمتهما في الديباج لابن فرحون.

منارتان على بحر سبتة

وما دمنا بصدد الكلام عن القرنين الخامس والسادس فإننا لا بد من أن نذكر رجلين جليلين من أعلام سبتة هما أبو عبد الله محمد

الشريف الإدريسي الحسني المتوفي سنة 560 هـ. وأبو العباس أحمد بن جعفر الخزرجي المتوفى سنة 601 هـ. وهو تلميذ أبي عبد الله الفخار الذي أخذ العلم عن القاضي عياض.

فالشريف الإدريسي، وهو من بيت شرف ورياسة، أتيح له ما لم يتح لغيره من اتصال مباشر بأوربا بواسطة روجار الثاني النورماندي ملك صقلية المسلمة فأسهم أيما إسهام في تقدم علم الجغرافية وفن رسم الخارطات وفي علمي الطب والصيدلة فتجاوز بذلك تأثيره نطاق العالم الإسلامي من حيث إن اسمه لمع في سماء أوربا النصرانية وكان من أساتذتها ورواد العلوم بها. ألف لملك صقلية الكتاب الروجاري المعروف بنزهة المشتاق، وكتاب «روض الأنس ونزهة النفس» وكلاهما في الجغرافية ووصف البلدان، وألف كتاب «الجامع لأشتات النبات» الذي أفاد منه عالم النبات الشهير ابن البيطار. وتُرجِمت بعض أعمال الإدريسي إلى اللغات الأوربية، وبسبب ذلك عُدَّ من رواد العلم في العالم.

أما أبو العباس السبتي، دفين مراكش وأحد أقطابها السبعة فقد غزا بإنسانيته وسلوكه وعلمه الفكر الصوفي في العالمين الإسلامي والمسيحي؛ أو ليس هو الذي طور مفهوم الإحسان وجعل منه قاعدة عملية من قواعد التصرف والسلوك في المجتمع ووهب لذلك علمه وجهده فكان المؤسس الأول للمواساة الإجتماعية التطبيقية مسترشدا بالكتاب والسنة ؟ وهو الذي كان يرى أن الوجود ينفعل بالجود، كما قال عنه ابن رشد.

الثبات والإستمــرار

تواصل سبتة على امتداد القرنين السابع والثامن مسيرتها الفكرية فلا تهن ولا تتعثر وتتسع روابطها بحواضر العلم الأخرى في المشرق والمغرب وتلمع في سمائها أسماء أعلام ذوي شهرة وجاه عريضين كلهم من أقطاب العلم أو فرسان الآداب؛ ومنهم من تبوأ مكانة رفيعة في حلقات التدريس بأشهر الجامعات الاسلامية. ومنهم من رفعه علمه وأدبه إلى أعلى الدرجات في حقل الحكم والسياسة والقضاء. ومنهم من شَدَّ الرحال إلى أقطار الأرض يجوبها متعلما ومعلما ويسجل ملاحظاته ومشاهداته ومراحل مسيرته العلمية.

وبإلقاء نظرة على بعض المراجع القيمة التي أبقاها تقلب الأزمان نتبين مدى ما أدركه علماء سبتة وأدباؤها من جاه ومكانة في كثير من حواضر العالم الإسلامي. فمن هذه المراجع برنامج أبي عبد الله محمد بن جابر الوادي آشي، أصلا. التونسي. مولدا ونزلا. (ت سنة 750 هـ). فقد رحل هذا المحدث الراوية شرقا وغربا وتلقى العلم عن جلة المشايخ. وأورد لمحا من تراجمهم وسماعهم وأسانيدهم في برنامجه ومنهم عدد من علماء سبتة يصل إلى ستة عشر. وهم :

ـ أبو محمد عبد المهيمن بن عبد الله بن محمد الأنصاري السبتي (ت سنة 690 هـ) أخذ عن أبي عبد الله محمد بن أحمد الأندى، وأبي

العباس ا بن فرتون، وأبي عبد الله محمد ا بن المحلى. وأخذ عنه ا بن جا بر الوادي آشي بتونس عند رجوعه من الحج، وأجازه إجازة عامة كتبها بخطه.

- الحسين بن طاهر بن رفيع الحسيني السبتي (ت سنة 672 هـ). من شيوخه القاضي أبو الحسن ا بن قطرال، وأبو عبد الله الأزدي، وأبو اسحق ا بن الكماد، وأبو المطرف ا بن عميرة.

- محمد بن عبد الله بن أحمد العنسي السبتي (ت سنة 693 هـ).

- محمد بن ا برهيم ا بن يربوع الكلبي السبتي (ت سنة 644 هـ) من شيوخه أبو اسحق ا برهيم بن علي الفهري الشريشي، وأبو الحسن علي بن ا برهيم الفخار، وأبو بكر بن رفاعة الجذامي.

- محمد بن ا برهيم بن محمد بن الحاج السلمي البلفيقي السبتي (ت سنة 694 هـ)، من شيوخه : ا بن أبي الربيع، وأبو بكر ا بن مشليون، وأبو عبد الله الد باج.

- مالك بن عبد الرحمن ا بن المرحل (ت سنة 699 هـ)، وهو من أعلام سبتة المبرزين في القراءات وعلوم العربية، ومن شعرائها الفحول؛ من أشياخه : أبو العباس أحمد ا بن الفحام، وأبو القاسم ا بن بقي، وأبو الحسن الد باج، وأبو علي الشلوبين.

ولمالك ا بن المرحل - كما نعلم - عدة مؤلفات منظومة ومنثورة في القراءات والفرائض واللغة والأدب.

ـ ضياء الدين أبو الهدى عيسى بن يحيى بن أحمد السبتي (ت سنة 696 هـ). أخذ العلم عن بعض أصحاب الحافظ أبي طاهر السلفي ولقي السهروردي بمكة. ومن تلاميذه الحافظ الذهبي مؤلف «تذكرة الحفاظ»، وابن رُشَيْد السبتي، والقاسم بن محمد بن علي التجيبي السبتي مؤلف «مستفاد الرحلة والاغتراب» الذي خصَّ أستاذه أبا الهدى بترجمة وافية في كتابه هذا فقال عنه : «كان ـ رحمه الله تعالى ـ شيخا فاضلا مقتصدا سليم الصدر حسن اللقاء والبشر، تبدو عليه سيماء الخير. وكان كثير الحفظ للأحاديث النبوية، على قائلها الصلاة والسلام، خصوصا لما في جامع الترمذي. يقال إنه كان يستحضر أكثره»[*] وكان أبو الهدى عيسى بن يحيى السبتي أستاذا بالمدرسة الظاهرية في القاهرة، وتوفي في حاضرة الديار المصرية.

ـ عبد العزيز بن ابرهيم بن ينه الجزيري السبتي (ت سنة 701 هـ)، وهو من مواليد تلمسان وأصله من جزيرة شقر؛ من شيوخه أبو مروان الباجي، وابن الحاجب، وابن المقير، وابن الصلاح.

ـ عبد الله بن أبي القاسم الأنصاري السبتي (ت سنة 706 هـ)، من شيوخه أبو محمد عبد الرحمن الخزرجي القمارشي، والحافظ أبو الربيع ابن سالم، وأبو الحسين ابن زرقون.

---

*) مستفاد الرحلة والاغتراب، تحقيق عبد الحفيظ منصور، الدار العربية للكتاب، ليبيا ـ تونس 1395 / 1975.

- محمد بن مالك ابن المرحل، وهو نجل مالك المذكور (توفي في حدود سنة 710 هـ) بمالقة؛ من شيوخه : والده، وأبو الحسين ابن أبي الربيع، وأبو الحسن الدباج، وأبو الحسين ابن السراج، وأبو عبد الله محمد الأزدي.

- محمد بن عبد الله بن عبيدة الأنصاري الإشبيلي أصلا، السبتي نزلا (ت سنة 706 هـ)؛ من شيوخه : أبو الحسن علي بن جابر الدباج، وأبو فضيل المقريء، وأبو عبد الله بن المحلى السبتي، وأبو الحسن الزيات، وابن أبي الربيع.

- محمد بن عبد الرحيم القيسي العنسي السبتي (ت سنة 701 هـ)؛ من شيوخه : القاضي أبو عبد الله الأزدي، والحافظ أبو الحسين المتيوي، وأبو عمرو العبدري.

- محمد بن محمد بن أبي عمر بن خليل السكوني السبتي (ت سنة 702 هـ) ؛ من شيوخه : محمد بن أحمد بن خليل، وأبو عمر عبد الله ابن حوط الله، وأبو الحسين ابن أبي الربيع.

- محمد بن عمر بن محمد الأنصاري التلمساني السبتي المعروف بابن الدراج (تـ سنة 704 هـ)، من شيوخه ، أبو يعقوب يوسف المحاسني، وفضل بن محمد ابن فضيلة.

ـ قاسم بن عبد الله بن محمد ابن الشاط الأنصاري السبتي المتوفى سنة 723 هـ وهو من أعيان العلم المرموقين. ترجم له ابن فرحون في الديباج المذهب فقال : «كان ـ رحمه الله ـ نسيج وحده في أصالة النظر، ونفوذ الفكر، وجودة القريحة، وتسديد الفهم إلى حسن الشمائل، وعلو الهمة والعكوف على العلم والاقتصار على الآداب السنية، والتحلي بالوقار والسكينة. أقرأ عمره بمدينة سبتة الأصول والفرائض مقدما موصوفا بالإمامة. وكان موفور الحظ من الفقه، حسن المشاركة في العربية، كاتبا مترسلا، ريانا من الأدب، له نظر في العقليات. قرأ على الأستاذ أبي الحسين ابن أبي الربيع، وعلى الحافظ أبي يعقوب المحاسبي وغيرهم؛ وأجازه أبو القاسم ابن البراء، وأبو محمد ابن أبي الدنيا، وأبو العباس ابن الغماز، وأبو جعفر الطباع، وأبو بكر بن فارس وغيرهم؛ وأخذ عنه الجلة من أهل الأندلس كالأستاذ أبي زكرياء بن هذيل (شيخ ابن الخطيب السلماني في الطب والتعاليم) وأبي الحسن ابن الجياب والقاضي أبي بكر ابن شبرين.

هذا وقد ترك لنا ابن الشاط وثيقة هامة هي برنامج شيخه المقرىء النحوي الفرضي أبي الحسين عبيد الله بن أحمد ابن أبي الربيع القرشي المتوفى عام 688 هـ ويحتوي البرنامج على فصلين، يُعَرِّفُ في الفصل

الأول بأسماء شيوخ ابن أبي الربيع ويذكر في الثاني «ما وقع له عاليا من الأسانيد في عيون من الكتب المشهورة إلى مؤلفيها»*

ونستفيد من هذا البرنامج أن ابن أبي الربيع أخذ العلم على جماعة من كبار علماء الأندلس والمغرب. فمن أساتذته الأندلسيين : أبو عمر محمد بن أحمد ابن أبي هارون التميمي الاشبيلي، وأبو بكر محمد بن عبد الله الأنصاري الاشبيلي المعروف بالقرطبي، وأبو الحسن علي بن جابر اللخمي الاشبيلي المعروف بالدباج، وأبو علي عمر الأزدي الاشبيلي المعروف بالشلوبين، وقاضي الجماعة أبو القاسم أحمد بن يزيد ابن مخلد القرطبي، والقاضي أبو بكر محمد بن نبيل مولى عبد العزيز الغافقي الاشبيلي، وأبو عمرو محمد بن ابرهيم الأزدي الاشبيلي المعروف بابن زغلل، ومن المغاربة : أبو الفتوح بن عمر بن فاخر العبدري، وهو من أهل فاس، وسكن اشبيلية وتوفى بمراكش سنة 636 هـ وهو نحوي أصولي صوفي، وذكر ابن الشاط في برنامج شيوخ ابن أبي الربيع شيخين جليلين أولهما أبو محمد عبد الله الأنصاري الاستجي المعروف

*) أبو الحسين عبيد الله بن أحمد ابن أبي الربيع رحل إلى سبتة إثر استيلاء النصارى على مسقط رأسه اشبيلية، وهو من أئمة النحو والقراءات أخذ عنه خلق كثير منهم محمد بن عبيد الاشبيلي وأبو اسحاق ابراهيم الغافقي، وروي عنه أبو حيان بالاجازة (انظر ترجمته في بغية الوعاة للسيوطي، ص 319)، وقد نشرت برنامج شيوخه مجلة معهد المخطوطات العربية بتحقيق عبد العزيز الأهواني، المجلد الأول، الجزء الثاني، 1375 / 1955.

با بن ستارى وهو اشبيلي استقر بسبتة وتوفي بها عام 647 هـ. وثانيهما أبو العباس أحمد العزفي السبتي، المتوفى عام 633 هـ. وهو من بيت عريق في العلم والنسب انحدر منه رؤساء وعلماء سنشير إلى المشاهير منهم فيما بعد.

أما الفصل الثاني من برنامج شيوخ ابن أبي الربيع الذي أعده ابن الشاط، نيابة عن أستاذه المسن، فيتضمن ـ كما سبق أن قلنا ـ تحرير الأسانيد. وهو يعطينا نظرة عما رواه ابن أبي الربيع عن أشياخه، بالسند المتصل، من كتب القراءات والحديث والفقه والنحو واللغة والأدب، وعددها نحو خمسة وثلاثين كتابا من الأمهات؛ وسنكتفي بإيراد بعض أمثلة من تلك الأسانيد العالية وهي تقدم لنا دليلا آخر على صحة الطرق التي سلكها أهل سبتة في روايتهم للعلم والأدب، كما تطلعنا على قوة الروابط بين هذه المدينة ومختلف حواضر العالم الإسلامي. وفيما يلي تلك الأمثلة :

ـ كتاب التيسير (في القراءات) لأبي عمرو عثمان بن سعيد الداني، يحمله ابن أبي الربيع عن أبي عبد الله ابن خلفون، عن جماعة غيره، كلهم عن أبي عبد الله أحمد بن محمد الخولاني، عن أبي عمرو مؤلفه.

ـ كتاب الموطأ للإمام مالك (في الفقه والحديث)، رواه عن أبي القاسم بن بقي، عن أبي عبد الله محمد بن عبد الحق ابن أحمد

الخزرجي، عن أبي عبد الله محمد بن فرح مولى الطلاع، عن أبي الوليد يونس بن عبد الله ابن مغيث، عن أبي عيسى يحيى بن عبد الله ابن أبي عيسى، عن عم أبيه عبيد الله بن يحيى بن يحيى، عن أبيه يحيى ابن يحيى (الليثي) عن مالك.

- المسند الصحيح لأبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، يرويه عن بقية المحدثين أبي العباس العزفي، عن أبي عبد الله محمد بن عبد الرحمن المسعودي، عن أبي عبد الله محمد بن الفضل الصاعدي الفراوي، عن أبي الحسين عبد الغافر بن محمد الفارسي، عن أبي أحمد محمد بن عيسى بن عمرويه الجلودي، عن أبي اسحق ابرهيم ابن محمد بن سفيان، عن أبي الحسين مسلم؛ ويرويه عن أبي علي الشلوبين، عن أبي الطاهر أحمد بن محمد السلفي، عن أبي عبد الله الحسين بن علي الطبري، عن عبد الغافر لسنده المذكور.

- الكافي (في الفقه) لأبي عمر يوسف ابن عبد البر النمري، يحمله عن جماعة منهم أبو العباس العزفي، عن أبي القاسم بن بشكوال، عن أبي محمد ابن عتاب، عن أبي عمر، عن عبد الله بن زرقون، عن الخولاني، عن أبي عمر.

- كتاب سيبويه، يحمله عن أبي علي الشلوبين، عن أبي بكر محمد بن عبد الله بن الجد الفهري، عن أبي الحسن علي بن عبد

الرحمن التنوخي، عن أبي الحجاج يوسف بن سليمان بن عيسى، عن أبي بكر مسلم بن أحمد بن أفلح، عن أبي عمر أحمد بن أبي الحباب، عن أبي علي اسمعيل بن القاسم البغدادي، عن أبي محمد عبد الله بن جعفر بن درستويه، عن أبي العباس المبرد، عن أبي عثمان بكر بن محمد المازني عن أبي الحسن سعيد الأخفش، عن سيبويه.

- الإيضاح لأبي علي الحسن بن أحمد بن عبد الغفار الفارسي، يرويه عن أبي بقي والشلوبين وغيرهما، عن أبي محمد بن عبيد الله، عن أبي بكر بن العربي، عن أبي الفوارس شجاع بن فارس الدهلي، عن أبي الحسين هلال بن المحسن، عن أبي علي.

- أشعار الستة، ترتيب أبي الحجاج يوسف الأعلم، يحملها عن أبي علي الشلوبين، عن أبي بكر بن الجد، عن أبي الحسين بن الأخضر، عن الأعلم.

- سقط الزند، لأبي العلاء التنوخي المعري، يحمله عن الشلوبيين وغيره، عن أبي محمد بن عبيد الله، عن أبي بكر ابن العربي، عن أبي زكرياء يحيى التبريزي، عن المعري.

إذا نحن تركنا كتب البرامج وفهارس الشيوخ - على قلة ما وصل إلينا منها - إلى كتب التراجم العامة كالديباج المذهب لابن فرحون، وجذوة الاقتباس لابن القاضي وصلة الصلة لابن الزبير، والإحاطة لأبي

عبد الله ابن الخطيب، والمرقبة العليا للقاضي النباهي، ونثير الجمان لاسمعيل ابن الأحمر وغيرها. فإننا نجد فيها معلومات كثيرة تطلعنا على جوانب من صلات سبتة العلمية بمختلف الحواضر الأخرى من طريق انتقال الرجال واتصال الأسانيد وتبادل العلماء.

فهذا محمد بن أحمد ابن جبير الكناني (ت سنة 614 هـ) الرحالة المحدث الأديب، دفين الإسكندرية، قد أخذ العلم على عدد من أعلام سبتة. كما يخبرنا ابن الخطيب في الإحاطة، ومن أساتذته فيها أبو عبد الله محمد بن عيسى التميمي السبتي. ثم إن ابن جبير قد تولى في سبتة الكتابة عن الأمير الموحدي أبي سعيد عثمان بن عبد المؤمن.

ونعرف من نفس المصدر - نقلا عن ابن عبد الملك في الذيل والتكملة - أن العلامة المحدث المقرىء أبا سليمان داود ابن حوط الله الأنصاري الحارثي الأندي - نسبة إلى حصن أنده بشرق الأندلس - قد رحل إلى سبتة وولى قضاءها، وكان من أساتذته فيها أبو عبد الله ابن الفخار الحافظ، دفين مدينة تطوان. وكانت وفاة ابن حوط الله سنة 621 هـ.

ومن أعلام مراكش الذين تتلمذوا على مشاهير علماء سبتة نذكر أبا عبد الله محمد بن علي ابن قطرال المراكشي، الصوفي المحدث (ت سنة 709 هـ)؛ من شيوخه فيها أبو الحسين ابن أبي الربيع، وأبو محمد بن عبيد الله الحجري، وأبو عبد الله ابن خميس، وأبو القاسم أحمد العزفي.

ومن جهة أخرى يخبرنا ابن فرحون في الديباج المذهب أن العالم المصرى أبا العباس أحمد ابن القسطلاني المتوفى بالإسكندرية سنة 626 هـ قد دخل سبتة لطلب العلم، وسمع بها من عبد الحق بن محمد بن عبد الحق الخزرجي.

هذا وقد ازدانت معاهد سبتة ومجالس القضاء فيها بسليلي أسرتين اشبيليتين نابهتي الذكر أحدهما أبو اسحق ابرهيم بن أحمد بن عيسى الغافقي (ت سنة 716 هـ)، رحل إلى سبتة إثر تغلب النصارى على مسقط رأسه اشبيلية؛ وقد لازم أبو اسحق الشيخَ أبا الحسن ابن أبي الربيع، وتصدر بعد وفاة شيخه هذا للإقراء في مكانه «فأخذ عنه الكبير والصغير، وولي قضاء سبتة» كما جاء في (المرقبة العليا) للقاضي الحسن النباهي. وكان العلامة مالك ابن المرحل من جملة شيوخه، كما كان من تلاميذه الغرناطيين، شيخ النحاة الأستاذ أبو عبد الله محمد بن علي الخولاني.

وقد صنف أبو اسحق الغافقي كتابا في قراءة نافع، كما في الإحاطة لابن الخطيب الذي وصفه بشيخ النحاة والقراء في سبتة.

أما الإشبيلي الآخر الذي رحل إلى سبتة من بلده عند تغلب النصارى عليها سنة 646 هـ فهو أحمد ابن شبرين، والد القاضي أبي بكر، وسنذكره في موضعه.

ومن أعلام الأندلس الذين تتلمذوا على عدد من مشاهير الشيوخ السبتيين الإمام أبو الحسن علي ابن الجياب الغرناطي (ت سنة 749 هـ). وهو ـ كما وصفه ابن الخطيب في الإحاطة ـ من أئمة البلاغة والأدب... شيخ طلبة الأندلس، روايةً وتحقيقا ومشاركة في كثير من العلوم، قائما على العربية واللغة، إماما في الفرائض والحساب، عارفا بالقراءات والحديث، متبحرا في الأدب والتاريخ، مشاركا في علم التصوف، فذا في المسائل الأدبية البيانية. وذكر ابن الخطيب من بين شيوخه السبتيين: أبا عبد الله محمد ابن رُشَيْد، وأبا القاسم ابن الشاط، ومالك ابن المرحل.

ومن الأعلام الأندلسيين الذين حلوا بمدينة سبتة، واتخذوها مستقرا ودارا محمد بن أحمد ابن خميس الأنصاري (ت عام 750 هـ في وباء الطاعون) وهو من أهل الجزيرة الخضراء؛ وكان ـ كما قال ابن الخطيب في الإحاطة: «فاضلا وقورا مجودا للقرآن... شهير البيت... مضى عمره خطيبا بمسجد بلده الجزيرة الخضراء إلى أن تغلب العدو عليها، وباشر الحصار بها عشرين شهرا، نفعه الله، ثم انتقل إلى مدينة سبتة، فاستقر خطيبا بها إلى حين وفاته». ومن شيوخه السبتيين أبو عبد الله ابن رشيد، والقاضي أبو عبد الله الحضرمي، والإمام الصالح أبو عبد الله ابن حُرَيْث، والمحدث الرحالة أبو القاسم التجيبي، والأستاذ أبو عبد الله بن

عبد المنعم الحميري. والأخوان أبو عبد الله وأبو ابرهيم ابنا يربوع؛ وابن خميس هو مؤلف «النفحة الأرجية في الغزوة المرجية».

ونذكر في هذا الباب أيضا القاضي المجتهد النحوي الأصولي أبا محمد عبد الله بن سليمان ابن حوط الله الأنصارى الحارثى المتوفى عام 612 هـ. فهو قد ولى قضاء سبتة وأقام بها وأفاد منه أهلها.

بعد هذا يجمل بنا أن نستعرض، بإيجاز، أسماء عدد من الرجال السبتيين، أصلا أو نزلا، الذين نبه ذكرهم داخل بلادهم وخارجها في المغرب والمشرق وكان لهم الأثر الأكبر في توثيق صلات بلدهم بمختلف الحواضر الإسلامية؛ فمن هؤلاء :

- عياض بن محمد اليحصبي (ت سنة 630 هـ) بمالقة، وهو حفيد القاضي أبي الفضل الشهير.

أخذ عن أبيه محمد، وعلى أبي بكر بن الحداد، قاضي سبتة، وأبي القاسم ابن بشكوال، وابن جبيش، وأبي بكر ابن بيبش الشلطيشي؛ وروى عنه ابنه أبو عبد الله قاضي الجماعة، وأبو العباس ابن فرتون، أخذ عنه بمدينة مراكش. قال عنه ابن الخطيب في الإحاطة : «كان من ذوي المشاركة في العلوم العقلية وغيرها، شاعرا، لسنا... موصوفا بجزالة وجِدّة... وكان مع ذلك كثير التواضع، فاضل الأخلاق سريا.

ـ أبو الخطاب عمر بن الحسن ابن دحية الكلبى المعروف بابن الجُمَيّل (توفى بالقاهرة عام 633) ترجم له أبو جعفر ابن الزبير في صلة الصلة فقال إنه أخذ بسبتة عن أبي محمد بن عبيد الله الحجرى، وفي الأندلس عن اضراب الحافظ ابي بكر ؛بن الجد وأبى عبد الله ابن زرقون. وقد رحل أبو الخطاب إلى المشرق وتنقل بين مصر والشام وخراسان. واستقر أخيرا بالقاهرة المعِزية حيث علا ذكره وبنى السلطان الكامل دار الحديث الكاملية وأسند إليه أمرها. وأبو الخطاب هو مؤلف كتاب المطرب في أشعار أهل المغرب، وكان أخوه أبو عمر عالما أديبا. وقد رحل معه إلى المشرق وتوفى هناك. ولم يذكر ابن الزبير تاريخ وفاته.

ـ أبو علي الحسين بن عتيق بن الحسين ابن رشيق التغلبي (كان حيا سنة 674). وأصله من مرسية؛ قال عنه ابن الخطيب في الإحاطة : «كان مشاركا في كثير من الفنون اللسانية والتعالمية. متبحرا في التاريخ... شاعرا مفلقا... جهم المحيا. موحش الشكل. تحرف بالعدالة. وبرز بمدينة سبتة. وكتب عن أميرها. وجرت بينه وبين الأديب أبي الحكم مالك ابن المرحل من الملاحاة والمهاترات أشد ما يجري بين متناقضين». من مؤلفاته : التلخيص المسمى بميزان العمل وكتاب في التاريخ.

ـ أبو الحسن علي بن محمد الغافقي الساري (توفي سنة 649 هـ)؛ وهو عالم محدث راوية ومؤرخ؛ أخبرنا ابن الخطيب في الإحاطة نقلا عن التكملة أنه كان «جَمَّاعةً للكتب، منافسا فيها، مغاليا في أثمانها، وربما أعمل الرحلة في التماسها، حتى اقتنى منها بالابتياع والانتساخ كل عِلْقٍ نفيس، ثم انتقى منها جملة وافرة فحبَّسها في مدرسته التي أحدثها بقرب باب القصير، أحد أبواب بحر سبتة، وعَيَّن لها خير أملاكه، وجَيِّد رباعه وقفا صالحا... وقعد بها بعد إكمالها لترويه الحديث وإسماعه في رجب 635 هـ، وكثر الأخذ بها عنه» ومن شيوخ أبي الحسن الغافقي أبو الحسن بن عطية ابن غازي، وأبو عبد الله محمد ابن عيسى، وأبو الحسن ابن خروف النحوي، وابن جبير، وابن الملجوم، وأبو محمد عبيد الله الحجري. ومن مشاهير تلاميذه : الولي الصالح أبو عبد الله الطنجالي، والعلامة المحدث أبو جعفر ابن الزبير.

وقد أخبرنا صاحب الإحاطة أيضا أن أمير سبتة اليانشتي* أبعده عن مسقط رأسه «غاصا بجلالته وأهليته، وكونه قد عرضت عليه فأباها، فدخل الأندلس، فنزل بالمرية وأخذ عنه الناس، ثم انتقل إلى مالقة، ودخل غرناطة.

*) هو أبو العباس أحمد بن محمد اليانشتي، (وقد يكتب الينشتي) حكم بسبتة من 630 إلى 635 ثم خلع وبايع أهلها الرشيد الموحدي. وكان أبو العباس شاعرا، وله قصيدة طويلة في وصف قرية بليونش أوردها ابن عبد المنعم الحميري في (الروض المعطار) ونقلنا بيتين منها في أول هذه الدراسة.

- أبو عبد الله محمد بن عبد المهيمن الحضرمي (ت سنة 712)؛ والد الأديب الكاتب أبي محمد عبد المهيمن؛ ذكره النباهي في (المرقبة العليا) فقال : «وكان في قطره كبير القدر، ولي القضاء بسبتة لقرابته من رؤسائها بني العزفي، فقام بالأحكام أجمل قيام»، أقام بغرناطة مبعدا فيها بصحبة ابنه، ثم أُذِن له في الانتقال إلى وطنه.

- أبو طالب عبد الله بن محمد بن أحمد بن محمد العزفي اللخمي (توفي بفاس سنة 713 هـ) رأس بسبتة من 678 إلى 705 هـ، وكان - كما وصفه صاحب الجذوة - : «من أهل الجلالة والصيانة وطهارة النشأة، حافظا للحديث ملازما لتلاوة كتاب الله، عارفا بالتاريخ» من شيوخه السبتيين أبو الحسين ابن أبي الربيع.

- أبو القاسم عبد الرحمن بن أبي طالب عبد الله بن محمد بن أحمد العزفي اللخمي (توفي بفاس سنة 717 هـ)، وكان فقيها محدثا حافظا، كما وصفه صاحب الجذوة.

- أبو زكرياء يحيى بن أبي طالب عبد الله العزفي اللخمي (ت سنة 719 هـ)؛ قال صاحب الإحاطة في حقه : «كان قيما على طريقة أصحاب الحديث، رواية وضبطا وتقييدا وتخريجا... شاعرا مجيدا مطبوعا، رأس بسبتة... نائبا عن ملك المغرب السلطان أبي سعيد بن عبد الحق (المريني)... ثم استبد بها مخالفا عليه».

من شيوخه السبتيين : أبو اسحق الغافقي، وأبو عبد الله ابن رشيد، وأبو القاسم البلقيقي، وأبو علي الحسن بن طاهر الحسيني، وأبو القاسم ابن الشاط. وأخذ عن عدة علماء مبرزين في كل من المرية ومالقة والجزيرة الخضراء وبجاية وفاس حيث تتلمذ على أبي عبد الله المومناني.

- أبو عبد الله محمد بن عمر ابن رُشَيْد الفهري (توفي بفاس سنة 721 هـ) قال عنه ابن الخطيب في الإحاطة : «الخطيب المحدث المتبحر في علوم الرواية والاسناد... قرأ بسبتة على إمام النحاة أبي الحسين ابن أبي الربيع، وأخذ عنه القراءات» ومن أساتذته في المشرق جار الله ابن عساكر، وحازم القرطاجني. سكن بغرناطة مدة في وزارة صديقه أبي عبد الله بن الحكم، وتقدم للخطابة بمسجدها الأعظم، وعقد فيها مجالس العلم، وهو مؤلف الرحلة المشهورة «ملء العيبة...».

- القاضي محمد بن محمد اللخمي السبتي المعروف بالقرطبي (ت سنة 723 هـ) «كان من جلة الحكام الصدور الأعلام» كما قال عنه النباهي في (المرقبة العليا)؛ من شيوخه، أبو الحسن ابن أبي الربيع، وابن الخضار، وابن الطيب.

ـ أبو عبد الله محمد بن علي ابن هانيء اللخمي السبتي (توفي شهيدا في جبل الفتح عام 733 هـ) قال عنه ابن الخطيب في الإحاطة اتصف بالعفاف، وشموخ الأنف على أهل الرياسة... (وكان) إماما في العربية... بارع الخط... مشاركا في الأصلين، قائما على القراءات، حسن المجلس... بارع المحاضرة» من مؤلفاته كتاب شرح التسهيل لابن مالك وكتاب «الغرة الطالعة في شعراء المائة السابعة».

ـ القاضي أبو بكر محمد بن أحمد ابن شبرين (ت سنة 747 هـ) وقد سبق أن ذكرنا أباه المنتقل من اشبيلية إلى سبتة. تولى القضاء بكثير من الجهات، وعمل في الكتابة السلطانية بغرناطة؛ اتصف بالمروءة والعدالة وكان «أشد الناس اقتدارا على نظم الشعر» كما قال النباهي وابن الخطيب.

من شيوخه : أبو اسحق الغافقي، والشريف أبو علي بن أبي الشرف، وأبو عبد الله بن حُرَيْث، وكلهم سبتيون؛ وقرأ بغرناطة على المحدث العلامة أبي جعفر ابن الزبير وأبي عبد الله ابن رشيد السبتي، وبمالقة على أبي عبد الله الطنجالي، وببجاية على الإمام المشذالي وأبي العباس الغبريني، وبتونس على أبي علي بن علوان والقاضي أبي اسحق بن عبد الرفيع.

ـ أبو عبد الله محمد بن عبد المنعم الصنهاجي الحميري (ت سنة 749)* ترجم له ا بن الخطيب في الإحاطة فقال :

«كان من صدور الحفاظ. لم يستظهر أحد في زمانه من اللغة ما استظهره... قائما على كتاب سيبويه... طبقة في الشطرنج يلعبها محجوبا. مشاركا في الأصول. آخذا في العلوم العقلية. مع الملازمة للسنة».

من شيوخه في سبتة : أبو اسحق الغافقي وأبو القاسم ا بن الشاط.

ـ أبو محمد عبد المهيمن بن محمد الحضرمي (توفي في وباء الطاعون بتونس سنة 749 أو 750)؛ وهو شيخ أبي زيد عبد الرحمن ا بن خلدون. وأبي عبد الله ا بن الخطيب السلماني. قال عنه الأول في (التعريف) : «امام المحدثين والنحاة بالمغرب... لازمته وأخذت عنه. سماعا وإجازة. الأمهات الست. وكتاب الموطأ. والسيرة لا بن اسحق. وكتاب ا بن الصلاح في الحديث. وكتبا كثيرة شذت عن حفظي؛ وكانت بضاعته

*) إن بعض الدارسين ـ ومنهم الأستاذ إحسان عباس محقق الطبعة الأخيرة من معجم «الروض المعطار في خبر الأقطار» ـ يميل إلى نسبة هذا الكتاب إلى ابن عبد المنعم الحميري السبتي؛ إلا أننا قرأنا في مصور مخطوط بالخزانة الملكية عنوانه : «طبقات المالكية» لمؤلف غير معروف إن مؤلف الروض المعطار هو «محمد بن محمد بن عبد الله ابن عبد المنعم ابن عبد النور، الشيخ العلامة المتفنن أبو عبد الله الحميري التونسي، كان من صدور العدول المبرزين، أخذ عن القاضي ابن زيتون وغيره... له تصانيف جليلة اختصر تفسير الفخر الرازي سماه : نفحات الطيب في اختصار تفسير ابن الخطيب... وله تقييد على الحاصل في سفرين. والروض المعطار في أخبار الأقطار، في سفرين... لم أقف على مولده ولا وفاته هي».

في الحديث وافرة. ونحلته في الحفظ والتقييد كاملة. كانت له خزانة من الكتب تزيد على ثلاثة آلاف سفر» وقد أخبرنا ابن خلدون أن عبد المهيمن تولى رئاسة الكُتّاب ورسم العلامة للسلطان أبي سعيد المريني «ولم يزل عليها سائر أيام السلطان أبي سعيد وابنه أبي الحسن. وسار مع أبي الحسن إلى افريقيا». وكان عبد المهيمن زينة المجالس العلمية حيث حل وارتحل. أفاد منه طلبة العلم في المغرب والأندلس وتونس.

وترجم له ابن الخطيب في الإحاطة فقال : «شيخنا الرئيس صاحب القلم الأعلى بالمغرب... كان رحمه الله. خاتمة الصدور. ذاتا وسلفا وتربية وجلالة. له القدح المعلى في علم العربية. والمشاركة الحسنة في الأصلين. والإمامة في الحديث. والتبريز في الأدب والتاريخ واللغة والعروض».

من شيوخه السبتيين : أبو اسحق الغافقي. وأبو القاسم محمد عبد الرحيم الطيب. وأبو عبد الله محمد بن عمر ابن الدراج. وخال أبيه أبو حاتم العزفي وأبو عبد الله ابن رشيد. وأبو الحسين ابن أبي الربيع. وأبو القاسم ابن الشاط. وابن خميس النحوي. وأجاز له مالك ابن المرحل وأبو علي الحسين بن عتيق؛ وأخذ في غرناطة عن أبي جعفر ابن الزبير والوزير أبي محمد المرادي. والوزير أبي الوليد الحضرمي القرطبي. وبمالقة عن الإمام أبي عبد الله الطنجالي.

ـ قاسم بن أحمد بن محمد بن عمران الحضرمي (توفي في حدود 750 في وباء الطاعون)، قال عنه صاحب الإحاطة، نقلا عن أبي الحسن ابن الحسن (النباهي)، : «كان شيخا يتقد ذكاء، رحل من سبتة إلى الحجاز، فقضى فريضة الحج وتطور في البلاد المشرقية نحوا من أربعة عشر عاما، وأخذ بها عن جلة العلماء، وورد على غرناطة في حدود عام ثمانية عشر وسبعمائة، فأخذ عن بعض أشياخها وعاد إلى بلده، وكان على خزانة الكتب بها».

من شيوخه : شهاب الدين أبو العباس أحمد الدمشقي الحجار، وأبو عبد الله محمد بن جميل الشيرازي، وأبو عبد الله محمد ابن الضايع.

ومن تآليف قاسم الحضرمي : كتاب الشافي في اختصار التيسير الكافي في القراءات.

ـ أبو القاسم محمد بن أحمد الشريف الحسني السبتي (توفي بغرناطة سنة 760 هـ)، قال النباهي في حقه : «نسيج وحده براعة وجلالة، وفريد عصره بلاغة وجزالة... ارتحل عن بلده سبتة وقد تملأ من العلوم، وبرع في طريقتي المنثور والمنظوم، فطلع على الأندلس طلوع الصباح عقب السرى» وترجم له ابن الخطيب في الإحاطة فقال : «هذا الفاضل جملة من جمل الكمال، غريب في الوقار والحصافة وبلوغ المدى... حمل راية البلاغة، وبرز في علوم اللسان واللغة والفقه، وبرع في الأحكام وإتقان التدريس».

وكان صديقا حميما لرئيس الكتاب في البلاط النصري العلامة أبي الحسن ابن الجياب. وتولى الشريف الحسني خطة القضاء في كل من مالقة ووادي آش وغرناطة ثم انقطع للتدريس وأخذ عنه الناس؛ من شيوخه في بلده سبتة : أبوه، وأبو عبد الله ابن هانيء، وأبو اسحق الغافقي، وأبو عبد الله الغماري، وأبو عبد الله ابن رشيد، وأبو القاسم ابن الشاط، وأبو عبد الله ابن حريث، وكلهم من الجلة الأعلام.

من تآليفه : رفع الحجب المستورة في محاسن المقصورة (وهو شرح على مقصورة أبي الحسن حازم)، وشرح على التسهيل لأبي عبد الله المالكي. وقد ألف له الطبيب الشهير محمد بن علي الشقوري كتابا بعنوان «تحفة المتوسل وراحة المتأمل»[*] يعرض فيه وسائل علاج مرض ألم بالشريف الحسني.

ـ أبو الحسين محمد بن أحمد التلمساني الأنصاري السبتي (ت عام 764 هـ) أخذ عن جلة شيوخ سبتة كأبي علي الحسن بن طاهر الحسني، والرئيس أبي حاتم أحمد بن أبي القاسم محمد بن أبي العباس أحمد العزفي، والمقرىء أبي القاسم ابن الطيب، والإمام أبي عبد الله ابن حريث، وأبي اسحق الغافقي، وأبي القاسم خلف بن عبد العزيز القبتوري، وأبي عبد الله ابن الخضار، وأبي عبد الله ابن رشيد، وأبي عبد الله الغماري.

---

*) توجد من هذا الكتاب نسخة في الخزانة الملكية تحمل رقم 2337 طب.

وقد رحل أبو الحسين التلمساني إلى غرناطة حيث ولي الحسبة. وناب عن أبي عبد الله ابن الخطيب السلماني في بعض أعماله السلطانية، وكان محدثا أديبا.

- أبو القاسم محمد بن يحيى بن عبد الله بن محمد بن أحمد العزفي اللخمي (ت بفاس عام 768) رأس بسبتة مدة قصيرة من الزمن. وانتقل إلى غرناطة ثم إلى فاس حيث استُعمِل في الخطط الفقهية وكتب عن ملوكها. كما أخبرنا صاحب الجذوة. وكان أبو القاسم محمد شاعرا برع في التوشيح، وكانت له ميول إلى علم الطب وألف فيه كتابا بعنوان : «الاكتفاء في طلب الشفاء»(*).

- أبو عبد الله محمد الغماري (توفي بقرية بليونش سنة 772 هـ). برز في الفقه وكان شاعرا فضلا عن مهارته في الفنون الحربية وملازمته للرباط. وقد ترجم له صاحب (بلغة الأمنية).

- أبو محمد بن مسلم الأنصاري القصري (توفي عام 773 هـ) تولى قضاء سبتة. واشتغل بالتدريس.

- أبو عثمان سعيد الأنجرى الصنهاجي (توفي عام 789 هـ). اشتغل بتدريس الفقه والحديث بمسجد القفال والجامع الأعظم بسبتة. وكان مفتيا مجتهدا. وترجمته في بلغة الأمنية.

(*) توجد نسخة خطية من هذا الكتاب في الخزانة الملكية تحمل رقم : 1044 طب. وقد ذكره لوكليرك في كتابه «تاريخ الطب العربي». Histoire de la Médecine Arabe.

ـ أحمد بن محمد ابن مهنا (توفي في حدود سنة 820)؛ وهو تلميذ أبي عبد الله ابن الخطيب السلماني. وكان طبيبا بارعا له كتاب جليل بعنوان «الإيضاح والتتميم» شرح فيه ألفية الأستاذ الرئيس ابن سينا فتمم بذلك شروح كل من ابن رشد وابن طملوس والشريف الصقلي.(**) هذا ونرجح أن يكون محمد ابن المهنا السبتي المذكور في جذوة الاقتباس (1 : 316). أباً للطبيب أحمد بن محمد، وقد توفى في فاس أواخر المائة الثامنة

ويتضح من تاريخ وفاة أحمد ابن مهنا أنه كان من أواخر علماء سبتة قبل سقوطها في يد البرتغاليين، وذلك فيما وصلنا من أسماء أولئك ومنهم قاسم الأنصاري مؤلف كتاب «اختصار الأخبار بما كان في سبتة من سني الآثار» وهو الحجة الباقية على المكانة المرموقة التي كانت تحتلها هذه المدينة قبل احتلالها.

خاتمـــة

الآن، وقد وصلنا نهاية المطاف، في تقديم هذه اللمحة الخاطفة عن سبتة العالمة في عصورها المغربية الإسلامية، يجدر بنا أن نختم القول في ذلك بكلام جامع يلخص ما قدمته هذه المدينة للعالم الإسلامي، عامة وللمغرب، خاصة، من جليل الخدمة، وما خلفته مشاركتها العلمية من أثر عميق تجاوز حدود البلاد المغربية.

(**) توجد بالخزانة الملكية نسختان خطيتان من هذا الكتاب، رقم 11546 ز ورقم 8775.

لقد أسهمت سبتة في تقدم العلوم والآداب إسهاما مرموقا، وعمل رجالها الأبرار على ربط أطراف العالم الإسلامي والمشاركة في الحفاظ على وحدته الروحية والفكرية بما تحملوه من وصل أسانيد العلم، وضبط طرقه، وإحكام وسائل تبليغه، مع حسن التصرف في أصوله وفروعه، فبلغت عندهم علوم القرآن والحديث والفقه والأصول والنحو واللغة والأدب من إتقان السماع والرواية، وتجويد أساليب النظر والبحث والشرح والنقد، مبلغا يجعلها تتبوأ مكانة سامية مرموقة بين حواضر العالم الإسلامي.

لقد عرف رجال سبتة كيف يستثمرون موقع بلدهم الجغرافي الممتاز فجعلوا منه مجازا حقيقيا يصل الأطراف المتنائية بين الشرق والغرب والشمال والجنوب ولم يقفلوا أبواب بلدهم في وجه أحد حتى انهم في ابان المحل الذي أصاب سكان قلشانة رحبوا بالمهاجرين منها ومكنوهم من شراء الأراضي في سبتة حيث بنوا منازلهم الجديدة وأقاموا في أمن وأمان. وقد تقاطر على سبتة أعداد من ذوى الجاه والمكانة في الأندلس وافريقيا، فرحب بهم أهلها وأحلوهم على الرحب والسعة، وقد ذكرنا أفرادا من هؤلاء منهم من هاجر إلى سبتة بعد سقوط مسقط رأسه في وجه العدو، ومنهم من جاء بمحض اختياره مفتونا بمكانة سبتة وشهرة معاهدها وجاه الكثير من اعلامها. وقد وجد السبتيون، في الدول الحاكمة، ولا سيما في المرابطين والموحدين والمرينيين، خير مشجع لهم على الإنفتاح والتبادل فاختاروا ميدان العلم لتوثيق صلات بلدهم بمختلف

أنحاء العالم الإسلامي، ولم تعجزهم البحار والبراري عن شد الرحال إلى كل مكان تعقد فيه حلقة للعلم، أو يبزغ نجم عالم، أو يُخَطُّ كتاب، وبذلك نقلوا المعارف إلى بلدهم بعد أن اغترفوا من منابعها، ثم فتحوا ديارهم للطارئين النجباء يأخذون بأيديهم إلى مجالس العلم، ويتحلقون حولهم سامعين وقارئين. ولم يتردد أعلام سبتة - وكان منهم المحدثون والفقهاء والنحويون واللغويون والجغرافيون والقضاة والمفتون - في إعطاء ما عندهم من علم وأدب، فمنهم من شدت إليه الرحال في بلده، ومنهم من ارتحل بنفسه وتصدر للتعليم أو القضاء في قرطبة أو فاس أو القاهرة أو غرناطة أو القيروان أو تونس أو مكة وغيرها، ومنهم من سجل مشاهداته وتفاصيل رحلته العلمية والروحية. وقد لمسنا كل ذلك من خلال ما قدمناه من تراجم الرجال ومشاهد الصلات العلمية، على أننا لمسنا أيضا أن ما ضاع من تراث هذه المدينة العلمي أكثر بكثير مما بقي منه. وهذا النزر القليل الباقي لم يتح له من أسباب النشر والتحقيق والدراسة ما هو جدير به، إذا استثنينا بعض المؤلفات التي أبصرت النور كترتيب المدارك، والالماع، والغنية للقاضي عياض، وبرنامج ابن أبي الربيع، والمطرب لابى الخطاب ابن دحية الكلبي، ومستفاد الرحلة للتجيبي وبرنامجه الذي صدر أخيرا، واختصار الأخبار للأنصاري؛ ومن الأمور التي لا ينقضي العجب منها أن كتاب «نزهة المشتاق» للشريف الإدريسى لم يتح له أن يطبع محققا مدروسا بتمامه إلى اليوم، ومما يبعث على

السرور أن مجموعة دولية من العلماء المتخصصين قد انكبوا على هذا العمل العظيم تحت رعاية المعهد الإيطالي للشرق الأقصى والأوسط في روما ـ كما تخبرنا الموسوعة الإسلامية في طبعتها الجديدة ـ أما رحلة العلامة المحدث ابن رشيد المعروفة بملء العيبة فإنها ما تزال ترفل في غبار خزانات الكتب، وقد علمنا أن صديقنا العلامة الدكتور محمد الحبيب بلخوجة أخذ على عاتقه عبء اصدار هذا الكتاب محققا، وهو اجدر من يقوم بذلك وفقه الله. فعسى أن يكون صدور هذا العدد الخاص من مجلة «المناهل» حافزا للباحثين والدارسين على مضاعفة الجهود من أجل إبراز التاريخ الفكري لمدينة سبتة.

ورحم الله الشريف الإدريسي الذي قال :

لم أدَعْ للعيْنِ ما تشتاقُ في برٍّ وبحرِ
وخبرت الناسَ والأرض لدى خير وشرِّ
لم أجد جاراً ولا داراً كما في طَيَّةِ صدري
فكأني لم أسِرْ إلا بمَيْتٍ أو بقفرِ

إنه في ذلك يحكي عن حاله في لحظة قلق وتأمل باطني، غير أن ما قاله يُعْرِبُ، بشكل ما، عن حال سبتة وقتَ ضياعها، لو كان لها لسان ينطق؛ ولله الأمر من قبل ومن بعد.

الرباط   **محمد العربي الخطابي**

سبتة المسلمة

منارا للعلم والأدب ومهدا للفضل والصلاح

محمد ابن تاويت

إذا كانت البحار جازرة للبقاع، فهي كذلك واصلة فيما بينها، وقد كرم الله بني آدم وحملهم في البر والبحر، فانبعثت أشعة الأفكار عند اليونان، من هذه البحار الواصلة، وانطمست معالم الحضارة والعرفان، في جزر أخرى بعوامل البحار القاطعة.

وكذلك الشأن في سبتة، لقد حملت مشعل الهداية إلى القارة الأوربية بأسرها، وعرفت في عهد مبكر حضارة اسلامية متصلة الحلاقات، وثقافة عربية مزدهرة يانعة في جميع الحقب والحالات، بفضل اتصالها بالأندلس الإسلامي، والظهير العربي الأمامي، الذي التحم بهذه الفرضة

التحاما كليا على بداية القرن الرابع، وقد مرج البحرين مارجها، فكانت اساطيل بني أمية ترسو وتقلع في سبتة وطنجة وأصيلة، بينها وبين الأندلس ، مشرب صاف، ومزاج مسك، وجوار يطفح بالحسن، ويتنفس بالطيب، ويعبق بالاريج مروءة ومودة، ونفحات زكية، منبعثة عن روض الإسلام، نابعة من حوض العروبة الفياض.

ثم كان هذا البحر الواصل بالخيرات، نفسه قاطعا لها، وقد تعكر الصفو، واختلف المزاج، ومسح الحسن، فقبحت السرائر، وانحبست الأنفاس، فانخنقت الحناجر، وانبعثت كريهة الرياح، فذهبن بأريج تلك النفحات الإسلامية العربية، فما عدنا نجد في سبتة، طوال القرون الستة التي عاشتها في هجير النصرانية، أي واحة من واحات الاسترواح، ولا أى بصيص من تلك الأنوار الجلية التي كنا نهتدى بها، خلال الستة القرون، التي سلفت تلك، وظل الاسلام عليها وارف، وجناح العروبة عليها يرف.

فالبحر إذن واصل حينما يكون وصال الأحبة، قاطع حينما تكون مقاطعة الأعداء الالدة، لا استثناء ولا مراء...

لقد كانت سبتة على شديد الاتصال، منذ الفتح، بالأندلس التي تلقت منها مشعل النور، وما تأسست بها دولة بني عصام، حتى كانت تأخذ بكلتا يديها من الأندلس، كما كانت تأخذ من الأدارسة بالولاء لهم، وسنتعرض لرجالها مسايرين للزمان.

وفي مطلع القرن الرابع تم الالتحام بين سبتة والأندلس، على حين كان من رجالها علماء، تولى منها قضاءها حسين بن فتح، الذى كان علما في القراءات، بصيرا بالغريب والنحو والشعر، له رحلة إلى المشرق حيث أخذ عن رجاله، كأبي جعفر البغدادي الذي سمع منه كتب ابن قتيبة، كما كان من رجال الأندلس الذين حدثوا عنه أبو محمد الباجي وأحمد بن عبادة الرعيني.

وكان من علماء سبتة لعهده، عيسى بن علا بن نذير بن أيمن، الذي رحل إلى الأندلس وأخذ عن علمائها، مثل أحمد بن خلد بقرطبة، ومحمد بن عبد الملك، وقاسم بن أصبغ وغيرهم، وهو أيضا ممن تولوا قضاء سبتة للأمويين، وكان كسلفه مشاركا في علوم غير الفقه، كعلوم الحديث، الذي اتصف فيه بالضبط العظيم، فكتب عنه حفاظه وعلماء روايته، أندلسيين وغيرهم، وكانت له رحلة كزميله إلى المشرق، توفي سنة ست وستين وثلاث مائة، وقد عمر ستا وثمانين سنة.

يضاف إلى هذين العلمين، علم آخر يضاهيهم في المشاركة والرحلة إلى الشرق والأندلس، هو خلف بن يحيى الصدفي، الذي جالس العلماء في الشرق والغرب، وناظر الفحول فيهما، واشتهر بأقطارهما بين العلماء والحفاظ، وسمع بمكة من أبي سعيد الأعرابي كثيرا، كما سمع من غيره، وحدث بسبتة كثيرا وبها توفي.

ومن علمائها خلف بن علي بن ناصر البلوى، والشيخ محمد بن علي الأموى، وعتيق بن عمران بن محمد الرفعي النفزاوى، وكان مشاركا أيضا. اشتهر بالفقه والحديث كثيرا، وهو معدود أيضا من قضاتها، وعبد الرحمن بن سليمان البلوى يصفه ابن حزم في طوق الحمامة بأنه كان شاعرا مفلقا، ويذكر من شعر هذين البيتين :

سريع إلى ظهر الطريق وانـه إلى نقض أسباب المودة أسـرع
يطول علينا أن نرقـع وده إذا كان في ترقيعه يتقطـع

وهكذا وجدنا جمهرة من العلماء المشاركين، ينتمون إلى القرن الرابع، ومنهم من أدرك أوائل القرن الخامس وجلهم تولوا قضاء سبتة، وكان منهم قاضيها ابن زويع، الذي سيعدمه علي الحمودى الآتي ذكره. وهو أبو بكر محمد بن زويع البصرى من بصرة المغرب له رحلة إلى العراق وبالجملة، فإن القرن الرابع، كان قرن اتصال سبتة بالأندلس اتصالا غير منقطع، منذ أن ضمها إلى سلطانه عبد الرحمن الناصر، واستخلصها مما تعرضت اليه من الاحتلال الفاطمي الذي كاد أن يلحقها بما احتله في الريف أو في القطر الجزائرى، لهذا قال معاصر ابن عبد ربه، وزميله من شعراء الدولة، وهو عبيد الله بن يحيى بن ادريس الخالدى في تلك المناسبة :

بسيفك دانت عنوة وأقـــرت بصائر كانت برهة قد تولـــت
وما قربت أهواؤها إذ تقربـــت ولا حليت بالزى يوم تحلـــت
ولكن أزالت راسبات عقودهـــا عزائم لو ترمى بها العصم زلـــت
ودولة منصور اللواء مؤيـــد ادال بحمد الله من شر دولـــة
فهذا أوان النصر منها وهـــذه بشائره تروى الأنام بسبتـــة

فهذه اللهجة تفيد أن سبتة كانت خطرا على الأمويين، اما لكون بني عصام وضعوا أيديهم بيد العبيديين، كما هو المتبادر منها، وإما لأن العبيديين كانوا على وشك احتلالها. وهذا ما عرفوا به في النكور وفي تاهرت وغيرهما، حيث لم تكن لهم هوادة مع القائمين. وفعلا فقد استطاع العبيديون سنة 324 هـ أن يستهووا نواحي سبتة وطنجة فانتقضت على الناصر ووجه اليها أسطوله بقيادة ابن أبي حمامة لاخضاعها.

وتكررت المحاولات في أواخر هذا القرن، فكان المنصور ابن أبي عامر وابنه لها بالمرصاد، وظلت سبتة على شدة اتصالها بالأندلس الأموية، إلى أن أسلمها الخليفة سليمان الملقب بالمستعين، وذلك أوائل القرن الخامس، كما سيأتي ذكره.

والذى يهمنا أن سبتة، كانت في القرن الرابع، طافحة بالعلم والعلماء، ولهذا نجد البكرى، في كتابه الجغرافي العظيم، يقول عنها عند وصفها.

«ولم تزل دار علم» فالعبارة هذه تؤدينا ان لها سابقة شهيرة في الحركة العلمية، ومن المفيد أن نأتي بوصفها له هكذا ؛

«وهي مدينة كبيرة مسورة بسور صخر محكم البناء، بناه عبد الرحمن الناصر لدين الله، وحماماتها يجلب اليها الماء على الظهر من البحر، وبمدينتها حمام قديم، يعرف بحمام خالد، ولها ربض من جانب الشرق فيه ثلاث حمامات، وجامعها على البحر القبلى المعروف ببحر بسول، له خمسة بلاطات، وفي صحنه جبان، ولها مقبرة في الجبل، ومقبرة أخرى بجوفيها، على بحر الرملة، ثم قال ؛ وفي شرقيها جبل منيف، كان محمد بن أبي عامر ابتدأ فيه بناء سور لم يتم، وهذا الجبل مطل على الربض المذكور الذى فيه الحمامات، وما بينهما كروم، ودار الإمارة في جوفي المدينة وطولها من السور الغربي الذي يدخل منه إلى المدينة قاطعا إلى آخر الجزيرة خمسة أميال.

والمدينة في الجانب الغربي منها، ولسورها الغربي تسمة أبراج، والباب في البرج الأوسط، وبين يدى هذا السور سور لطيف يستر الرجل، ويتصل به خندق عميق عريض، عليه قنطرة خشب، أمامها بستان وآبار ومقبرة، والسور القبلى على أجراف عالية والشرقي والجوفي (أي الجنوبي) فيه تطامن.

ولها باب ثان مما يلي الجوف في برج يعرف ببرج سابق، يدخل منه إلى دار الإمارة.

وذرع المدينة من السور الغربي إلى الشرقي الفان وخمس مائة ذراع. وذرع ما يأخذه ثقاف الربض المتصل بالسور الغربي سبعة آلاف وأربع مائة ذراع. وهي مدينة قديمة سكنها الأول، وبها آثارهم. بقايا كنائس وحمام. وماؤه مجلوب من نهر أويات، مع ضفة البحر القبلي، في قنا إلى الكنيسة التي هي اليوم الجامع.

هذا وصف مهم لخطط المدينة التي زارها البكرى ولا شك. فوصفها هذا الوصف الدقيق، الذي لم يهمل فيه الناحية العلمية والاجتماعية، التي قال فيها «وأهلها عرب وبربر، فعربها ينسب إلى صدف، وبربرها من ناحية اصيلة والبصرة. نص على هذه الناحية بالذات، لكون سبتة - وكانت تحت إمارة الأدارسة - تشاطر هذه المدن غالبا. بل حتى قبل وهي دار بني عصام، فإن هؤلاء كانوا كما قال هو نفسه يؤدون الطاعة إلى قريش العدوة من الحسنيين.

وفي مرتفقها ذكر أن بني محمد بن القاسم بن ادريس لما شرعوا في اعادة بناء تطوان «ضج أهل سبتة من بنيانها وزعموا أنها تضر بمدينة سبتة، وتقطع عنها مرافقها. فأعجل عبد الرحمن أمير المومنين اخراج الجيوش إليهم، وتجهيز العساكر نحوهم، وذلك سنة احدى وأربعين وثلاثمائة.

وفي القرن الخامس نجدها تتعرض لأحداث جسام متلاحقة. فهذه الفتنة البربرية التي تقوم بالأندلس، كما يسمونها، ويسميها ابن عذارى بالفتنة الأندلسية، نجدها تتصاعد إلى سبتة، وإذا بهذه تخوض فيها مع الخائضين، وتتدخل بأمرائها في قلب الخلافة الأموية، وإذا بصاحبها يبايع بهذه الخلافة نفسها، كما نرى.

فمن المعلوم أن خلفاء بني أمية، صاروا منذ ابن أبي عامر فابنه كالدمى في يد محركيها وإن كانت الخلافة في نفسها متماسكة غير متصدعة لما كان المحركون أقوياء العضلات أشداء القبضات، كما هو أيام محمد بن أبي عامر، ثم ابنه عبد الملك. أما بعدهما فقد تضعضعت الخلافة بضعف المستبدين بها، وذلك منذ عبد الرحمن بن أبي عامر، الملقب بسنجول، فقامت الفتن على ساقها، وتمزقت رقعة الخلافة، ولعب الأمراء الطامحون أدوارهم الخطيرة فيها، فكان منهم علي بن حمود الادريسي الذى تمكن بأعماله البطولية من رضى الخليفة سليمان المستعين فجازاه على عمله، بأن ولاه على سبتة وغيرها سنة ثلاث وأربعمائة، هكذا يقول التاريخ ببساطة، ولكن الواقع لم يكن بها، فإن عليا كان هدفه الأول هو الجلوس على العرش، فيقال إن المستعين نفسه أحس بهذا فصار متوجسا من علي، فأراد إقصاءه إلى العدوة، وهي سياسة عمل بها الأمويون، منذ مؤسس دولتهم بالأندلس، فكانوا يبعدون كل من يتخوفونه إليها.

ويهمنا في موضوعنا ما ورد في نفح الطيب من أن عليا على عجمته وبعده من الفضائل، كان يصغى إلى الأمداح ويثيب عليها، ويظهر في ذلك آثار النسب العربي، والكرم الهاشمي، ومن شعرائه المختصين به ابن الحناط القرطبي، ويوصف بأنه كان يدين بالتشيع، ولكنه لم يظهره للناس، على أن عليا، لم يكن بدعا بهذا فقد استغله من قبله من الأدارسة، لتدعيم السياسة، التي كان على هذا الحمودى الادريسي، أن يدعمها بذلك أيضا فكان يصغى إلى تلك الأمداح ويقيم سوقا رائجة للشعر والأدب. وبذلك تقدم إليه وإلى من اتوا بعده من بيته، شعراء مرموقون، لهم عارضة في فنهم وسابقة لمدحهم ومن الذين كانوا يخدمون الفكرة، فكان من المتشيعين، عبادة بن ماء السماء القائل لهؤلاء الحموديين :

أبوكم علي كان بالشرق بدء ما ورثتم وذا بالغرب أيضا سميه
فصلوا عليه أجمعون وسلموا له الأمر إذ ولاه فيكم وليه

ومن هؤلاء شاعر المنصور نفسه ـ أحمد بن دراج، الذى اشتهر بهاشمياته، وأشاد بها ابن بسام في الذخيرة، ايما اشادة، ومنها اللامية التي مدح بها على بن حمود المذكور، وهو بسبتة، سنة أربع وأربع مائة، ومطلعها :

لعلك ياشمس عند الأصيــــل شجيت لشجو الغريب الذليــــل
فكوني شفيعي إلى ابن الشفيـع وكوني رسولي إلى ابن الرســول
إلى الهاشمي إلى الطالبــــي إلى الفاطمي العطوف الوصــول
إلى ابن الوصي إلى ابن النبـي إلى ابن الذبيح إلى ابن الخليل
فأنتم هداة حياة ومــــوت وأنتم أيمة فعل وقيــــل
وسادات من حل جنات عـدن جميع شبابهم والكهـــول
وأنتم خلائف دنيا وديــــن بحكم الكتاب وحكم العقــول
ووالدكم خاتم الأنبيــــاء لكم منه مجد حفى كفيــل
تلذ بحملكم عاتقــــاه على حمله كل عبء ثقيـــل
ويطرقه الوحي وهنا وأنتـــم ضجيعاه بين يدي جبرائيــل

ومن الحق أن يقال ، إن هذه الهاشمية، لا تطرف فيها للتشيع الذي كان عليه أصحابه في الشرق، وبلغ ذروته العبيديون في الغرب والشرق، وليس فيها من التعابير الخاصة بالشيعة إلا البيت الوارد فيه «ابن الوصي» وكذلك الشأن في هاشمية أخرى مدح بها القاسم أخاه يقول فيها :

القاسم المقسوم راحة كفــه في بسط معروف وقبض مهند
الهاشمي الطالبي الفاطمـــــ ـي الوارث العليا بأعلى قعدد
أهدى إلى الدنيا علي هديــه في طي أردية النهى والسؤدد

يا ابن الشفيع بنا وأكرم إسوة للمقتدين وأنت أجدر مقتـد
يا ابن الوصي علي أوصى سميه ألا يضيع سمي جدك أحمـد
يا صفوة الحسنين كم قد أحسنا إصفاء ود النازح المتـودد

ثم يخاطبه وأخاه بقولـه :

فلأ جعلن ثناء ما أوليتمـا زادا لكل مكوف أو منجـد
حتى يسمع طيب ما أثنى بـه قبر بطيبة أو بصحن المسجـد

يريد بعد قبر النبي قبر علي بالكوفة، الذى يقصده الشيعة، ويشير إلى ذلك بقوله «زاد لكل مكوف».

نعم ان عبادة كان أشد لهجة، في قصيدته التي ذكرنا البيتين منها :

وهكذا فإن التشيع الذى واكب هذه الدولة كان تشيعا رفيقا لا يرفضه السنى في غالبه، وكذلك القول في نونية أبي زيد عبد الرحمن ابن مقانا الأشبوني، التي مدح بها إدريس بن يحيى بن علي الحمودي وهي :

ألبرق لائح من اندريـن ذرفت عيناك بالدمع المعيـن
لعبت أسيافه عاريـة كمخاريق بأيدى اللاعبيـن
ولصوت الرعد رجز وحنيـن ولقلبي زفرات وأنيـن
وأناجي في الدجى عاذلتـى ويك لا أسمع قول العاذليـن
عيرتنى بسقام وضنـى ان هذين لزين العاشقيـن

قد بدا لى وضح الصبح المبين فاسقنيها قبل تكبير الاذيـــن
مزة صافيـة مشمولـــة لبثت في دنها بضع سنيــن
نثر المزج على مفرقهـــا دررا عامت فعادت كالبريــن
مع فتيان كرام نجـــب يتهادون رياحين المجـــون
ويسقون إذا ما شربـــوا بأباريق وكأس من معيــن
شربوا الراح على خد رشـــا نور الورد به والياسميــن
رجلت داياته عامــــدة سبج الشعر على عاج الجبيــن
لوت الصدغ على حاجبــــه ضمة اللام على عطفة نـــون
فانثنى غصن على دعص نقـــا ودجا ليل على صبح مبيــن
وجناح الصبح قد بللـــــه ماء ورد الصبح للمصطبحيــن
ومصابيح الدجى قد طفئـــت في بقايا من سواد الليل جـون
وكأن الطل مسك في الثـــرى وكأن الطل درفى الغصـــون
والندى يقطر من نرجســـه كدموع اسبلتهن الجفـــون
والثريا قد هوت من أفقهـــا كقضيب زاهر من ياسميــن
وانبرى جنح الدجى عن صبحه كغراب طار عن بيض كنيـن
وكأن الشمس لما أشرقـــت فانثنت عنها عيون الناظريــن
وجه ادريس بن يحيى بن على ابن حمود أمير المومنيــن
ملك ذو هيبة لكنــــه خاشع لله رب العالميــن
خط بالمسك على أبوابـــه ادخلوها بسلام آمنيــن

وينادى الجود في آفاقـــه يمموا قصر أمير المومنيـــن
فإذا ما رفعت راياتـــه خفقت بين جناحي جبرئيـــن
وإذا أشكل خطب معضـــل صدع الشك بمصباح اليقيـــن
فبيسراه يسار المعسريـــن وبيمناه لواء السابقيـــن
يابني أحمد يا خير الـورى لابيكم كان وفد المسلميـــن
نزل الوحى عليه فاحتبـــى في الدجى فوقهم الروح الاميـن
خلقوا من ماء عدل وتقـــى وجميع الناس من ماء وطيـن
انظرونا نقتبس من نوركـــم انه من نور رب العالميـــن

هكذا كانت تنبعث من سبتة أصداء الأدب وتترد بها على عهد الحموديين ثم صارت بعدهم لسقوط البرغواطي الذي صار أميرا يمتد سلطانه في بحر الزقاق، فهيمنت إمارته على ساحله، وكانت طنجة ضمن حكمه. فكانت المدينتان يتولى حكم إحداهما مباشرة، ويتولى ولي عهده، يحيى ابنه، حكم الأخرى، وهما يتمتعان بالاستقرار. ويعمل سقوط هذا جاهدا على جلب العلماء إليه، فيكون منهم ثلاثة يحسده عليهم المعتمد بن عباد، كما في معجم البلدان، وكان في هذا الصدد يكاتب ملوك الأندلس في توجيه رجال العلم اليه. كما نجد في قصة، وورود رسائل ثلاث علي ابن جوهر اثنتان منها لأميرين أندلسيين يطلبان مغنية، والأخرى لسقوط يطلب مقرئا جيدا.

نعم، هكذا كانت دولة سقوط الفتية النشيطة، ولكنها ما أوغلت في النصف الثاني من هذا القرن حتى تعرضت إلى خطر عظيم، سيكون ثالث الأحداث التي تواجهها سبتة في القرن الخامس، ألا وهو قيام دولة المرا بطين.

وقبل أن ننتقل إلى هذه المرحلة، نلقي نظرة على رجال العلم والأدب الذ ين سلخوا النصف الأول من هذا القرن، بل الذ ين كان بعضهم بسبتة، قبل دخولها في حكم المرا بطين العظام، وإن توفوا في عهدهم.

فمن هؤلاء إسماعيل بن حمزة بن زكريا الأزدى، من أهل سبتة بها ولد، وكان مائلا إلى علم أصول الد يانات، روى عن الأصيلى وغيره، فهو من أوائلهم ومنهم العالم المشارك، محمد بن يعلي المعافرى، كان مولده بسبتة سنة 428 وتوفي بها في العقد الثالث من الخامس، وكان شاعرا أد يبا. ومن شعره مضمنا من القرءان :

يا من عدا ثم اعتدى ثم اقترف	ثم ارعوى ثم انتهى ثم اعتــرف
أبشر بقول الله في تنزيلــــه	«إن ينتهوا يغفر لهم ماقد سلف»

ومنهم خلف ابن علي بن ناصر البلوى، والشيخ محمد بن علي الأموى، وعتيق ابن عمران بن محمد الرفعي النفزاوي المحدث الفقيه، وهــــو معـــدود فــــي قضاتهـــا، ومـــن شعرائهـــــا

أيضا أبو الحسن ابن بياع الذي ذكر له ابن بسام هذا البيت ،

وردت بها التنوفة وهي بدر   فلم أحدر بها إلا هلالا

ومنهم قاضيها يوسف بن حماد بن خلف الصدفي ابن أخي الصدفي المذكور في القرن الرابع، الذى أدركه يوسف هذا وتوفي في نحو الثلاثين وأربع مائة، بعد ما قضى نحو خمس وعشرين سنة، قاضيا بسبتة، ومنهم خطيبها ومفتيها مروان بن عبد الملك ابن سمجون الطنجي الأصل له رحلة إلى المشرق توفي 491 هـ

ومنهم الفقيه عون الله بن نوح المقرىء الذى وجهه إلى سقوط، وبطلب منه، أبو الوليد بن جهور صاحب قرطبة، ومنهم حجاج بن قاسم الرعيني المعروف بابن الماموني، رحل إلى المشرق وأخذ عن شيوخه، وكان مشاورا بالمرية واستقر بسبتة. وأصله منها توفي سنة 480، ومنهم أبو الأصبع بن سهل الجياني. وهذا قد عاد إلى غرناطة، بعدما تولى القضاء في مدن أخرى بالمغرب، وتوفي سنة 486. وسنعود إليه فيما بعد، حيث قام بمهمة دبلوماسية في أول العهد المرابطي، وتقدم أن ابن دراج قصد سبتة، وقال شعرا منه قصيدة قالها في ادريس بسبتة يهنئه بمولود، واستهلها بقوله ،

هلال بنور السعد والحق مقمـــــر   أهل على الإسلام «الله أكبر»

ومن الذين وفدوا من القيروان وأقاموا بها وأقرأوا، الحصرى الشاعر، أبو الحسن علي، الذى أقرأ بها القراءات أواسط القرن الخامس، وتزوج وولد له من الولد من توفي بسبتة نفسها، كما نجد في شعره، حيث يقول :

استودع الله لي بدانيـــــة ... وسبتة فلذتين من كبــــــدى

ويقول في رثائه له :

ابني مذ منحتك سبتة للعلـى ... لم يرضها يحيى ولا ادريـــس

وواضح أنه يريد يحيى وادريس الحموديين، ومن شعراء البرغواطيين أبو محمد عبد الله بن القابلة السبتي ذكر له في «عنوان المرقصات» الأبيات :

ووجه غزال رق حسنا أديمـــه ... يرى الصب فيه وجهه حين ينظر
تعرض لي عند اللقاء به رشـا ... تكاد الحميا من محياه تقطـر
ولم يتعرض كي أراه وإنمـــا ... أراد يريني أن وجهي أصفــر

وذكر في المطرب له في رفاء :

يا رافيا قطع كل ثــــوب ... ويا رشا خيب اعتقـــادى
عسى بكف الوصل ترفـــو ... ما قطع الهجر في فـــؤادى

ونختم هؤلاء العلماء والأدباء، بالثلاثة الذين أشرنا إليهم، فقد قال المعتمد، كما في معجم البلدان لياقوت : «اشتهيت أن يكون عندى من

أهل سبتة ثلاثة نفر، ابن غازى الخطيب، وابن عطاء الكاتب، وابن مرانة الفرضي» ووصف هذا الأخير ياقوت بقوله : «ابن مرانة السبتي، كان من أعلم الناس، بالحساب والفرائض والهندسة والفقه، وله تلامذة وتآليف، ومن تلامذته ابن العربي الفرضي الحاسب يقولون إنه من أهل بلده. ويقول المقرى، في كتابه «أزهار الرياض»، معلقا على بيت ذكره ضمن أخرى، للمنصفي في بليونش، وهو :

وقد أرتنا اليوم من حسنهـــــا ما لم يكن في زمن الحاجـــب

فقال المقرى : «والحاجب أحد ملوك سبتة»، وله عمل ابن مرانة قصيدة، في الكوائن والحوادث «يريد بالحاجب يحيى بن سقوط» وفي «أزهار الرياض» أيضا نجد إشارة لابن مرانة، وقصيدته، في ملعبة لرجل ذكره ابن خلدون، ونقل كلامه المقرى يعرف بالكفيف الزرهوني، قال هذا في ملعبته المذكورة :

وأصحاب الجفر في كتيباتـــا وفي تاريخ كاتبا وكيوانـــا
تذكر في صحفها وأبياتـــا شق وسطيح وابن مرانـــا

ومن هذه الملعبة استطعنا ضبط الراء بالتشديد ولم نطلع على أثر باق لهذا الرجل.

أما ابن غازى الخطيب، وابن عطاء الكاتب، فقد ذكر ابن دحية في المطرب شعرا لهما، ذاكرا الأول بالفقيه الأجل أبي العباس أحمد بن سعيد بن غازى السبتي، ثم أتى بهذين البيتين له :

حرف كمثل الصاد الا أنهـــا بعد السرى جاءت كحرف النون
كالبدر قدره الإله منــــازلا في الأفق حتى عاد كالعرجون

ولا شك أنه استفاد من البيت الذي ذكره ابن بسام، لابن بياع السالف الذكر، ولكنه استغل الاشتراك في الحرف، فوضع الصاد بدل البدر، في البيت الأول، وعاد إليه في البيت الثاني، فاعتمد على القرءان الكريم، بعدما استغل أيضا في البيت الأول حرف النون في التشبيه، ووضعه موضع الهلال، الذى تكفل به التشبيه القرآني الكريم، في العرجون.

وأما الكاتب ابن عطاء، فبعد ذكره بأبي بكر ابن عطاء، كاتب صاحب سبتة، الحاجب بهاء الدولة، وكاتب أبيه قبله، ساق له هذه الأبيات :

سأمنع قلبي أن يكون لكم مثوى واستدفع البلوى واستصرف اللهــوا
وما سرني بعد الرضى إذ غدرتكم وغادرتكم بين الحشى هضبتي رضوى
وصيرتم العتبى عتابا فكلمـــا أبثكم شجوى تزيدونني شجـــوا
قضى الله أن أقصى وأصفيكم الهوى وغيري يستدني وإن كان لا يهوى

وما كان ظني قبل ذا ان حاسدى بمنهلكم يروى واني لا أروى
ما جلت البلوى علي وانمـــا شماتة أعدائي أجل من البلـــوى

وبعد فقد بزغ نجم المرابطين في سماء البلاد، وتوجه يعسوب القوم إلى فتح معاقلها. وكان من أهمها مدينة فاس التي كان أمراؤها على صلة وثيقة بسقوط صاحب سبتة ثم طنجة. وما تمكن يوسف من فتح فاس حتى توجه لفتح سبتة وطنجة، فبدأ بهذه، وبها سقوط ثم وجه ابنه المعز لفتح سبتة التي كان عليها ابن سقوط، الأمير يحيى، وبعد معارك ضارية فتحت سبتة، وانتهى أمر البرغوطيين فيها، وجاء يوسف فحل بها، وهو في طريقه إلى نجدة المسلمين بالأندلس، وخلف بها ولي عهده الذى توفي فيها على أثر موقعة الزلاقة. وفيها ولد له علي الذي صار وليا لعهده بدل أخيه المتوفى.

وكان يوسف ينظر إلى سبتة نظرته إلى العواصم التي لها وزنها في المملكة، ولهذا نجده يوجه اليها كتابه بولاية أبي زكرياء يحيى ابن أبي بكر بن ابراهيم (اللمتوني الذي وجهه لانقاذ مدينة بلنسية من النصرانية المدمرة على يد «القمبياطور») على سبتة وفاس معا، وهو، من إنشاء أبي القاسم بن الجد هكذا :

كتابنا أبقاكم الله، وأكرمكم بتقواه ويسركم لما يرضاه، وأسبغ عليكم نعماه، وقد رأينا، والله بفضله يقرن جميع آرائنا بالتسديد، ولا

يخلينا في كافة أنحائنا من النظر الحميد، أن نولي أبا زكرياء يحيى بن أبي بكر، محل ابننا الناشىء في حجرنا، أعزه الله وسدده، فيما قلدناه اياه، من مدينتي فاس وسبتة، وجميع أعمالهما حرسهما الله، على الرسم الذى تولاه غيره قبله.. إلى آخر الرسالة التي ينص ابن خاقان على أنها وجهت إلى أهل سبتة خاصة. ومعنى هذا أن إقليم سبتة صار يضم في إطار حكمه نحو ربع المغرب، وظل كذلك يتولاه على حاله ثلاثة عمال أبو بكر فأبو عبد الله محمد بن تاشفين، ثم ابن الحاج. فكان أحد الأقاليم الخمسة، تلمسان، السوس، الصحراء بعد سجلماسة. وهذه الأربعة تولى اثنين منها عاملان، واثنين آخرين عامل واحد.

وفيما يخص قضاتها فقد تقلب عليها من القضاة تسعة، كان المرابطون يعتمدون عليهم كل الاعتماد في تعميرها وتحقيق العدالة بربوعها. وهم :

ابراهيم بن أحمد البصرى، من بصرة المغرب.
عبد الله ابن حمـــود.
عبد الله بن محمد بن ابراهيـم.
عياض، تولاها مرتين سنة 515 و539.
محمد بن داود بن عطيـــة.
محمد بن عيسى بن حسين التميمـي.

مروان بن عبد الملك اللواتي تولاها مرتين.

محمد بن محمد الأمـــوى.

الحسن بن علي بن سهل الخشنـــي.

محمد بن داود بن عطيـــة.

أما الحركة العلمية في حد ذاتها ووفرة رجالها في سبتة لهذا العهد، فنستطيع أن نقول في ثقة واطمئنان، إنه لم تكن بالمغرب لهذا العهد مدينة تضاهي سبتة في نشاطها العلمي والقرائي وكثرة الرجال القارين بها والوافدين عليها ونظرة واحدة على كتاب المعجم في أصحاب الصدفي تؤيد ما قلنا، فمنهم أبو اسحاق ابراهيم بن أحمد اللواتي المعروف بابن الفاسي من أهل سبتة، سمع من أبي علي عند اجازته البحر من سبتة إلى الأندلس في صدره من المشرق سنة 490 اشتهر بالحديث وتوفي بسبتة سنة 513 والحسن بن علي بن طريف المعروف بالتاهرتي، من أهل سبتة، اشتهر بالنحو وسمع من أبي علي وتوفي سنة واحدة وخمس مائة. والأديب الفقيه المحدث محمد بن عيسى بن حنين التميمي القاضي بسبتة، أصله من تاهرت وانتقل أبوه من فاس إلى سبتة، فنشأ بها، ويعرف بابن الدقاق، وله رحلات عديدة إلى الأندلس في طلب العلم والأدب، سمع من أبي علي بسبتة، وتولى قضاء فاس أيضا، وهو أحد رواة عياض الجلة، توفي سنة خمس وخمس مائة، وعبد الله بن محمد بن ابراهيم اللخمي النكورى الأصل سكن سبتة، وكان له اختصاص

بأبي الأصبع ابن سهل، وسمع من أبي علي عند اجتيازه المذكور، ولى قضاء الجماعة بمراكش. ولأبي الفضل عياش رواية عنه، ومناظرة معه في الموطأ والمدونة وأصول الدين. توفي سنة ثلاث عشرة وخمس مائة وعبد الله بن محمد النفزى المرسى المحدث السلفي سكن سبتة وخطب بجامعها مدة، وسمع من أبي علي في اجازته، جامع الترمذى والشمايل له وأدب الصحبة للسلمي وغير ذلك. قال عياض، سمع بقراءتي وسمعت بقراءته، وحكى أنه روى عنه بسبتة واشبيلية وغرناطة، وبها توفي 538. وتواليفه خمسة عشر ونيف ومنظوم في الزهد.

ومنهم عبد الرحمن الكتامي، الذي كان من جملة قضاة سبتة بالأندلس، يذكر في الصلة بأنه فقيه ابن فقيه توفي في حدود 51. وابن التميمي القاضي عبد الله، له رحلة إلى الأندلس في طلب العلم وسماعه، ومن الرواة عنه القاضي أبو عبد الله محمد اللخمي والد شيخ ابن الأبار، أبي العباس الحافظ. قرأ على أبي علي سنة 509 وله سماع كثير منه. وعلي بن محمد الأنصارى المقرىء الطليطلي الأصل سكن سبتة وأخذ عن أبي علي وقرأ الحديث، وانتقل إلى غرناطة وخطب بجامعها، وأخذ القراءات عن أبي عبد الله المغاسي وتوفي سنة 520. ومنهم الحسن الخشني المقرى الذى سكن سبتة وولى القضاء والخطبة بها، روى عن بن أبي تليد وغيره، وأخذ عن ابن عيسى التميمي والصدفي وكان فقيها مشاورا يبصر الحديث والقراءات، وممن حدثوا عنه أبو القاسم بن

الملجوم، لقيه بسبتة سنة 545 وتوفي في حدود الستين ومحمد ا بن هشام اللخمي اللغوى الأديب صاحب التآليف التي منها لحن العامة، ومن شعراء سبتة ا بن يقظان رحل إلى مصر سنة 544، هؤلاء جميعا يمثلون المدرسة المرابطية، سواء منهم السبتيون أصلا ومنشأ والأندلسيون الوافدون عليها مقيمين وعابرين وغير هؤلاء كثيرون، كانوا يقرئون بسبتة ويحدثون، في عبورهم اليها ومنها، كما حدث من الصدفي، وكما نجد من أعلامهم الذين لقيهم عياض بها أبا عمْران بن أبي تليد وأبا بكر بن عطية وا بن العربي.

ومن الذين مروا بسبتة المتصوف ا بن العريف ويقال إنه توفي بها، وقد أخلى سبيله من قبل علي بن يوسف، فبلغ الموكلون به سبتة حيث مرض بها فكانت وفاته، في قصة مذكورة بالمعجم المذكور وغيره. وعبد الرحمن أبو القاسم بن محمد المعافرى السبتي المتوفي سنة 520 قاضي سبتة وخطيبها واحد أشياخ عياض، ولو تتبعنا هؤلاء الذين كانوا يعبرون إلى سبتة ومنها، لما استطعنا احصاءهم آنذاك، ولم يكن عبور العالم، كما نفهمه الآن، بل كان معناه الاقراء والأخذ مثال من ذلك، ان الصدفي قرىء عليه في عبوره جامع الترمذى ولازم الناس سماعه بالجامع ليلا ونهارا، وكانوا يبيتون بالمقصورة حتى كمل في مدة يسيرة. كما كان الأخذ المتبادل والمناظرة والامتحان العسير (كما سنجد له مثلا في ا بن خميس التلمساني مع طلبة سبتة بالذات) وكانت سبتة المعبر المرابطي.

ومن علمائها كذلك محمد بن عبد الله الموروى سكن سبتة وقام فيها بعلم القراءات، وأخذ عنه القاضي عياض، وتوفي في حدود 500. ومنهم محمد بن قطر الزبيدى، سكن سبتة وعلم بها العربية وتوفي بها سنة 501. وكفانا العالم الذى يمثل مختلف الثقافات التي كانت تقوم عليها معاهد سبتة ورجالها، الا وهو القاضي عياض الذى يكون التعريف به من قبيل تحصيل الحاصل، وحسب سبتة فخرا أن يقال في ا بنها البار بها «لولا القاضي عياض ما عرف المغرب» وهو وان استقضى آخر عمره للموحدين، فإنه يمثل العهد المرا بطي حق تمثيل ولا صلة لعلمه بغيره. وعلى الجملة، فإن سبتة في العهد المرا بطي كانت قد انتهت إلى ذروتها العلمية، التي كللها القاضي عياض مفخرة المغرب على الإطلاق في هذا الباب، كما كانت قد استكملت كيانها السياسي الذى رفرف عليه هذا العلم العظيم، مما جعلها تقف ازاء عبد المومن موقفها الرهيب، كما سنرى.

ومن الناحية العقلية، فقد تكون فيها تفكير صوفي، لعله كان من رواسب التشيع الحمودى، ثم ترسخ بما كان لا بن العريف من أصداء قوية فيها، هذه الأصداء التي كانت تنبمث أيضا، في غالبها مما كان بين ا بن العريف و بين القاضي عياض من اتصالات ومكاتبات بينتها كتب الأدب والتراجم.

ولأمر ما، قيل إن وفاته كانت بسبتة، مع أن المعروف أنه توفي بعيدا عنها ودفن بمراكش، فما هذا الادعاء، إن كان، الا دليل على تعلق

السبتيين، بهذا الصوفي الذى هز الدولة نفسها، فاتخذت منه موقفا لم تتخذه ازاء غيره، ثم اتخذ أصحابه وأتباعه المريدون موقفا ازاءها، انتهى بالثورة والقضاء على سياستها داخل الأندلس.

ومنذ هذا التاريخ، طبعت سبتة بطابعها المتصوف، فكان أبو العباس السبتي صاحب المذهب المعروف بالإحسان، ثم كان في الأخير، القاضي أبو العباس الغزفي صاحب المولد النبوى، الذى لم يقف الاحتفال به عند سبتة، بل عم المغرب فالشمال الافريقي ثم العالم الإسلامي أجمع.

ولم تنطفىء شعلة التصوف من سبتة، الا بانطفاء السيادة الإسلامية فيها، عند الاحتلال النصراني الغاشم.

ونعود إلى القاضي عياض فنجد من أشعاره ما يتسم بسيمة التصوف، كما في قصائد له ثلاث، مطلع احداها :

اليك بؤت بذنبـــــــي ... فاغفر خطاياى ربـــــى
وامنن علي بلطـــــــف ... تجبر به صدع قلبـــــي
فقد ركبـت ذنوبـــــا ... سودت منهـن كتبـــــي

ويقول في مطلع أخرى :

إليك مددت الكف استمطر الفضلا ... واستكشف البلوى واستعطف الطولا
دعوتك مضطرا فعجـل إجابتـــي ... بتفريج كرب طالما واصل الهـولا
عليك اعتمادي في جميع مقاصدي ... إليك رفعت الأمر والقول والفعـلا

فهذه توسلات المتصوفة والزهاد.

أما القصيدة الثالثة، فهي في الرسول عليه السلام وفي البقاع المقدسة، خصوصا منها المدينة المنورة، يقول فيها :

هذا الشفيع الذي ترجى شفاعتـــه للمذنبين إذا ما اسـودت النـــار
بادر وسلم على أنوار روضتـــــه قبل المماة فلا تشغلـــك اعـــذار
إن لم تعاين ثراه العين يا اسفــي أو لم تزرهـــه فإن الشـوق زوار
يا أهل طيبة حل ربعكم قمـــــر بر عطوف لفعـــل الخيـــر امـــار

فالتعلق هكذا بالرسول وروضته الطاهرة، مما سادت فيه أشعار المتصوفة ورسائلهم بعد، بل إن أمداح النبي عليه السلام لم تصل إلى ما وصلت إليه إلا بفضل رجال التصوف، وعلى رأس هؤلاء المادحين البوصيرى، رحمهم الله جميعا.

وفي هذا العصر المرابطي كانت سبتة تحظى بالتآليف فيها من رجالها، فكان القاضي عياض يؤلف كتابه «الفنون الستة في أخبار سبتة» ويعتبر كتابه هذا أول ما ألفه المغاربة في مدنهم، نعم، قد سبق إلى التآليف فيها وغيرها من مدن المغرب، بعض الأندلسيين كالوراق في أخبار سجلماسة والنكور وبصرة المغرب بطلب من المستنصر الأموى أواسط القرن الرابع.

وبعد المرابطين يأتى دور سبتة في العهد الموحدى. وهكذا نجد أنه في سنة أربعين وخمس مائة كانت سبتة تتقدم ببيعتها التى حملها قاضيها عياض الى عبد المومن، ولكن سرعان ما عادت في خطوتها لأمور يصعب تعليلها تماما. فخلعت ربقة البيعة عن عاتقها وتزعم ذلك قاضيها كذلك، ثم عادت واناابت. وفي سنة 548 نجد الكاتب أبا جعفر ابن عطية، يوجه رسالة عن عبد المومن، الى الطلبة الذين بسبتة، وجميع من فيها من الموحدين خاصة وعامة، يعلمهم فيها بالقضاء على من سولت له نفسه الغدر بالدولة. ولا شك أنه يعني بهم عبد العزيز وعيسى أخوى المهدى. وعلي يصليتن قريب المهدى الذي أتى به من سبتة مكبولا، فأمر بقتله وصلبه بباب مراكش، وكان من مشيخة بني عبد الواد.

وكأن الخليفة قد استشعر منهم محاولة للخروج عليه من جديد، ولهذا نجد في الرسالة «وتوبوا إلى الله توبة نصوحا، غاسلة للقلوب من الأدران، ونعوذ بالله من الخسران، وقد آن لكم أن تجددوا توبتكم، وتشهدوا الله على التمسك بعصم الإيمان». وأسلوب الرسالة خطابي منبرى للعامة. ثم كان أهل سبتة يكتبون إلى عبد المومن، بما سن الله لصاحبهم أبي محمد عبد الله بن سليمان، من ظفر في معركة أسطولية، وأنه وأصحابه «اجتازوا بأهل مالقة والمنكب فأظهروا لهم، من أحوال الامتناع والإستعداد للدفاع، ما أظهروا، ثم استخاروا الله على قصد المرية فألفوها قد أخذت بإشعار أولئك الأشقياء حذرها، فصحبها أولياء الله بكرة

باكرتها بحتفها» إلى آخر ما أشارت إليه الرسالة التي أجابهم بها عبد المومن من انشاء أبي جعفر ابن عطية، وتدل على أن تلك الجهات، كانت لا تخضع للموحدين، ولهذا نجد في آخر الرسالة، أن التجار الذين يحملون المرافق إلى مالقة وأمثالها، «فلتنظروا نظرا أكيدا في قطعهم وردعهم. ولا سبيل لأحد، أن يمد أحدا من تلك الأصناف بمادة، وكل من أخذ حاملا إليهم مادة، فالسيف جزاؤه». وكان النصارى متحصنين بالمرية آنئذ، وقد داهموها واحتلوها وغلبوا المسلمين عليها.

وفي سنة تسع وأربعين نجد أيضا الكاتب أبا جعفر، يكتب عن عبد المومن، إلى الطلبة الذين بسبتة وطنجة، يعلمهم فيها بتقديم ابنه محمد على بلاد افريقية وولايته عهده. وفيها عقد لابنه عثمان على سبتة وطنجة، واستوزر له أبا محمد عبد الله بن سليمان التينمللي وأبا عثمان سعيد بن ميمون الصنهاجي، واستكتب له أبا بكر بن طفيل القيسي، وأبا بكر بن حبيش الباجي، وهذا العدد من الرجال اختصت سبتة به وكان من كتابه محمد ابن جبير الكناني البلنسي الغرناطي توفي سنة 614.

ثم كتب رسالة أخرى إلى الطلبة والأشياخ والأعيان والكافة بسبتة، وهي بتاريخ احدى وخمسين، يعلمهم بولاية بنيه على بعض الأقطار من المغرب، ويذكر أنه لم يكن له قصد فارط في تولية ولده ولاية العهد «لكنه أمر الله فأتمه». وهذه كلها تخالف الأولى في أسلوبها غير

الخطابي كما أن هذه الأخيرة كانت واردة عليهم، من رباط الفتح «عمره الله، وفي سبيل الله ما يربط بروابط هذا الأمر العزيز ويعقد». وفيها «أن يكون أمر غمارة وما اتصل بهم من عمل سبتة وجهاتها راجعا إلى العمل المذكور (لبعض أولئك الاخوة) وأن الطلبة العاملين على سبتة، تذاكروا مع اخوانهم في معنى البحر ومجازه، واتساع النظر في مراسيه وأحوازه، وأنه إذا بقي معه النظر في أمر غمارة، وسائر القبائل التي إلى سبتة وطنجة، محتاج إلى من يدور عليه ذلك المحيط».

ثم في نفس السنة وردت عليهم رسالة أخرى لنفس الكاتب، موجهة إلى الطلبة والأشياخ والأعيان والكافة، بالوعظ والنصح وتخبرنا بانابة غيرهم.

فهذه الرسائل العديدة التي وجهت إلى سبتة، في هذا الظرف الوجيز وبقلم رئيس الكتاب، تنبى عما كانت لسبتة من مكانة خاصة بها كما قلنا، لأنها مفتاح الأندلس، كما يقول ابن عذارى وغيره، ولهذا نجد عبد الله بن سليمان، السالف الذكر يوجه إلى الأندلس في مهام خطيرة فقد وجه به عبد المومن إلى الأندلس للقبض على القائد يحيى بن يغمور، والاتيان به معتقلا، لأنه عرض أهل مدينة لبلة لما اقتحمها، وهو والي قرطبة واشبيلية، على السيف، بظاهر المدينة، حتى خلص القتل إلى الفقيه المحدث أبي الحكم ابن بطال والفقيه الصالح أبي عامر ابن الجد، وبيعت نساؤهم وأبناؤهم وأمتعتهم وأسلابهم، فبلغ ذلك عبد المومن

فسخطه ثم عفا عنه وسرحه لتلمسان كما نجد الأمير نفسه يتوجه إلى الأندلس، من سبتة، ليتسلم مدينة غرناطة، من عاملها المرابطي ميمون بن يدر اللمتوني المتنازل عنها بعدما تأكد من فشل المقاومة للموحدين. وقد صحب الأمير أبو محمد عبد الله ابن سليمان المذكور، وكان صاحب الأسطول بسبتة (كما يقال).

وكما فعل يوسف بن تاشفين، فجعل سبتة احدى المراكز لانشاء الأساطيل فإن عبد المومن نجده، سنة سبع وخمسين، يأمر بانشاء الأساطيل الجهادية، في مدن كانت سبتة من أهمها. وكان عبد المومن قد عبر من سبتة سنة 555. ثم عاد إليها من جهاده بالأندلس سنة ست وخمسين بعدما أقام بجبل طارق شهرين. وسماه جبل الفتح وبنى به المدينة التي ما زالت آثارها باقية. واستقبل الشعراء من الأندلس والمغرب، ودرس في إقامته شؤون الأندلس مع وفودها، وكان تقدم بجيش للجهاد. فالتقى بفحص بلقون مع الطاغية الفونصو Alfonso ملك طليطلة أو «فرديناند» Fernando ملك ليون فكان له الظفر عليه. فقال الشاعر الجراوى قصيدته المشهورة :

أعليت دين الواحد القهـــــــــار بالمشرفية والقنا الخطـــار

توفي عبد المومن بعد سنة من أمره بانشاء الأساطيل المذكورة. فلما بويع يوسف لم يلبث حتى قامت الثورة بجبال غمارة 560. ولما استفحل أمرها، توجه الخليفة لاخمادها، ثم عقد لأخيه أبي علي الحسن

على سبتة وسائر بلادهم، وكان ذلك سنة احدى وستين وفيما قبلها بسنة، كان أخو الخليفة، أبو حفص عمر، يركب البحر من طنجة إلى سبتة ومعه كاتبه عبد الملك بن عياش وبعض خاصته، والتحق به بقية ركبه، بطريق البر... للعبور منها إلى الأندلس، واستمرت سبتة معبرا للموحدين، حتى كان عهد المنصور، فاستبدل القصر الصفير بها عابرا إلى طريف بدل جبل طارق، لأن اهتمامه كان موجها مباشرة إلى غرب الأندلس الأقصى، خصوصا البرتغال التي كان أبوه قد أصيب فيها فتوفى بذلك ثم عاد العبور منها في عهد ابنه ومن أتى بعده من الابناء والاحفاد.

وفيما يخص العلم والأدب فقد كانت سبتة، كسالف عهدها عكاظ الأدب والشعر، وفيها وقعت المناظرة بين الشقندى الأندلسى وبين ابن المعلم الطنجي كما في النفح وفي «الغصون اليانعة» أن ابن خروف الشاعر، مدح بسبتة ملكها ادريس بن يوسف بن عبد المومن أى أميرها، فقال في قصيدة يصفها في نهايتها :

خذها إليك عروسا لاكفاء لها | تزيد جدتها ما دامت الحقب
عذراء أخجلها ما فيك من عظم | حتى لكادت من العلياء تنتقب
إن لم تكن أحرزت من ربها حسبا | فإن مدحك في أثنائها حسب

واضطربت الأحوال بعد الناصر، الذي دعا أخوه أبو موسى لنفسه بسبتة، خالعا طاعة أخيه المأمون، ثم توجه إلى الأندلس حيث ابن هود

الثائر بها ودخل في طاعته، وكان ذلك في نفس السنة التي بويع فيها أخوه. كان ابن هود حينما خلع ربقة الطاعة قد بايع للخليفة العباسي، فتكون سبتة تلقائيا، قد بايعت العباسي. ولكن هذا الأمر لم يستقر، فإن أبا موسى لما نزل لابن هود عن سبتة، بعد أن أعانه على استيلائه على جبل طارق والجزيرة الخضراء، فصار المضيق في حوزته، كان ابن هود قد عهد بحكم سبتة إلى نائبه الغشتي، فلبث هذا بها بضعة أشهر، وسرعان ما ثار أهلها به وطردوه منها وخلعوا عنهم طاعة ابن هود ثم بايعوا بها الحاج أبا العباس اليانشتي، سنة ثلاثين وست مائة. واليانشتي هذا من أصل أندلسي، ينسب إلى حصن ينشتة وأبوه محمد أو جده مبارك هو الذي هاجر إلى سبتة. واغتنى أبو العباس بتجارته التي صار من كبرائها وقد اشتهر بمروئته فأحرز رضى قومه، الذين بايعوه ملكا عليهم، واتخذ لنفسه لقب الموفق. وكان ابن جعفر طلحة العباسي، من شعرائه المختصين به كما كان أبو العباس أحمد بن محمد الشقرى الذى نجد ترجمته في نفح الطيب والذيل والتكملة، والمعروف بابن طلحة من المشهورين بالمجون والخلاعة، وكان كذلك مستهترا بممدوحه اليانشتي، فكان مما قال فيه :

سمعنا بالموفق فارتحلنـــــا   وشافعنا له حسب وعلـــــم
ورمت يدا أقبلها وأخـــرى   أعيش بفضلها أبدا وأسمـــو
فأنشدنا لسان الحال فيـــه   يد شلا وامر لا يتـــــم

وكان ابن طلحة هذا كاتبا للمتوكل ابن هود ينوب عنه في غيبته، ولكن فسد ما بينهما، فخافه وفر إلى سبتة فأقبل عليه اليانشتي، ومن الذين مدحوه ابن سعيد، علي ابن موسى في قصيدة يقول فيها :

بالعدل قمت وبالسماح فدن وجد لا فارقتك كفاية وعطاء
ما كل من طلب السعادة نالها وطلاب ما يأبى القضاء شقاء

وبالجملة فقد أصبح اليانشتي يتخذ لنفسه، وقد استبد بسبتة، مظهر الملوك فيضم مجلسه الشعراء والعلماء، يحادثهم ويفاوضهم، ومن علماء الأندلس الذين دعاهم اليه ابن الجنان، فوفد عليه فأجل وفادته، وأجزل افادته، وحظى عنده حظوة تامة، كما بالإحاطة والنفح عنها وتمكن من طاعة القبائل المجاورة لسبتة. ولهذا نجد كما في البيان المغرب، حادثا خطيرا تعرضت له سبتة، بعد حكمه لها بسنتين فقد وصل اليها نصارى جينوة، في مراكبهم، برسم محاولات تجارتهم، فاجتمع منهم في ديوانها وربضها عدد كثير، فراموا التغلب عليهم بتحيلاتهم، ولما علم بذلك اليانشتي، كتب إلى القبائل الساكنة عليها، والراجعة في الحكم اليها، فعرفهم بتلك الأمور، وأمرهم بالوصل إليه، والقدوم بجملتهم عليه، في يوم معين معلوم. وهذا الأمر عنده من الجمهور مكتوم، فلما كان في اليوم المذكور، خرج للقائهم أبو الحسن ابن اليانشتي فلقاهم في جموع لا يستطاع احصاؤهم. وعند خروج ولد صاحب سبتة اليهم، فهم النصارى أن

الدائرة عليهم، فأبرموا أمرهم طامعين فيما أملوه، وزحفوا بجموعهم إلى الباب لعلهم يملكوه. فبينما هم بمقربة من الباب يحاولون اليه المسير، إذ لم يبق بينهم وبينه إلا شيء يسير، إذ أقبلت عليهم عساكر البربر داخلين على الباب فكسروهم. وقتل كل واحد منهم من قتل من الروم، وما صبر وما ودبر. فقتل النصارى في ذلك اليوم قتلا ذريعا، وقطعوا تقطيعا، وتحكمت السيوف والرماح من كل مفرق لهم ونحر، ومن سلم من القتل رمى بنفسه إلى الأجفان في البحر. وانتهبت أموالهم التي في فنادقهم أى انتهاب، والتهبت النار في سلعهم وسلاحهم كل التهاب. واحتوت البربر والسوقة وغزاة البحر وغيرهم، على جميع ما كان في الفنادق من أسبابهم، وما خلص للنيران من أموالهم. وأخذت كل يد ما ملكت من أى شيء وجدت، أو عليه سلكت. وعلم من كان في تلك المراكب من أهل ملتهم أن المنية قد نزلت بجملتهم، فأخذوا في الاقلاع من مرسى سبتة، ينادون الفرار الفرار. فلما وصلوا إلى إخوانهم، أعلموهم بقصتهم وشأنهم، فاجتمعوا في نحو مائة مركب، ويمموا سبتة لحصارها والمبالغة في اضرارها. فلما وصلوا اليها نصبوا المجانيق عليها، فنصرها الله وعصمها منهم. ثم وقع الصلح بينهم، على أن يعطي أهل سبتة للروم مالا معلوما من جملة ما مضى لهم، فدفعه لهم اليانشتي، من مال المخزن، وأقلعوا عنهم. وأراح الله بفضله منهم، وكان عام جنوة عند أهل سبتة مشهورا. وفي تواريخهم مذكورا. ومما يذكر لليانشتي، أنه كان من التجار

الكبار، وله حظ من الأدب والقريض رحل إلى الشرق، ولما كان فيه تذكر بلاده، وما له من ذكريات فيها، وخصوصا جنة بليونش، فقال هذه القصيدة :

تذكرت من بغداد أقصى المغارب فجال لجى الفكر بين الترائب
فصبرتها نفسا تكاد من الأسى تسرب ما بين الدموع السوارب
وقلت لئن كابدت ترحة راحل فسوف يريك الله فرحة آيب
فلا تيأسي من بعد قصة يوسف ولو كنت قد جاوزت سد مآرب
ويا جفن كم تجفو المنام حفيظة وكم أنت معقود برعي الكواكب
لعل الذي ترعاه ليس بحافظ لعهدك والأيام ذات عجائب
فكم منزل بدلته بعد منزل وكم صاحب عوضت عنه بصاحب
ولكن سأرعى من يخون مودتي ورعي الهوى في البعد أوجب واجب
واذكر أوطانا نعمت بظلها معاهد أحباب ومغنى حبايب
أبليونش لا جانبت روضك الصبى وجاد على مغناك صوب السحائب
فما «شعب بوان» ولا «الغوطة» التي زهت برياض بينها ومذانب
بأحسن من مرآك والبحر معرض وقدجال فيه الطرف من كل جانب
لقد طفت في شرق البلاد وغربها فجانب طرفي غير تلك الجوانب
وما عهد أويات لدى مذمم ولا ذكر ميمات علي بذاهب
فكم لي بها من لذة مع معشر يحيون بالريحان يوم السباسب
كرام نمتهم للمعالي أكارم حسان الوجوه والحلى والضرائب
سلام عليهم ما حييت فإنني أزيد لهم حبا بطول التجارب

قال فيه الحميرى أبو العباس الينشتي صاحب سبتة، كان قيامه فيها سنة ثلاثين وست مائة، وتلقب بالموفق، وما زال أمره مستقيما برا و بحرا، يخاف ويرجى ويمدح ويقصد وتخاطبه الملوك من البلاد، إلى أن اغتر بحبه ابراهيم بن مسعود الكومي من جهة الزهد واطراح الدنيا فكان إذا ورد سبتة يكرمه وينزله معه، ويصنع له السماع، ويتبرك به ويستريح اليه، وفي أثناء ذلك يعلم القلوب المائلة عنه ويبحث عن النفوس المتغيرة عليه ويتأمل الأماكن التي يدخل منها إلى افساد دولته واعادة دولة بني عبد المومن، حتى اطلع من ذلك على المطلب وظفر بالفرض، ولم يشعر الينشتي المغتر بزهده، ومهلهل وده، حتى نثر عليه سلكه، وابتز منه ملكه، فصبحه مثل راغية البكر، وجاء مع جيش من قبل صاحب مراكش الرشيد عبد الواحد، فخرج جنده القليل ورجاله وعامة أهل سبتة، فحمل عليهم الجيش المراكشي حملة فقد فيها من السبتيين نحو ستمائة، وتخاذل الباقون، فملك عليهم البلد، واستخفى الأهل والولد، وألقى الينشتي بيده، فخلع نفسه، وقيد مع جماعة من أهل سبتة، خيف من كل واحد منهم الوثوب على مثل ما وثب عليه الينشتي، وكان له ولدان، فاختفى الأكبر محمد، وجرت عليه خطوب في خلوصه إلى البحر، ثم حبسه ببجاية ووصوله إلى الاسكندرية ولحوقه باليمن، والولد الأصغر حين سار مع أبيه، فيقال ، إن وباء جارفا كان بحضرة مراكش أهلك الجميع من الغرباء المذكورين، وقيل إن الوالد والولد هلكا بشربة لبن، واستمرت بسبتة دولة

الرشيد عبد الواحد، وترددت عليها ولاته إلى آخر أيامه، وكان أبو العباس هذا سلك مسلك الأدباء وتغرب ووصل إلى بغداد، وكان موصوفا في أيامه بحسن المجالسة وإكرام الوافدين والاصفاء للمادحين، وكان بذله على مقدار ما يحتمله بلده، أخبر من حضر مجلسه أن أديبا من الأندلس أخذ يحكي من حكايات البرامكة وأمثالها ما استقله، فقال، يا أهل الأندلس لا تحكوا لنا الحكايات الا ما يسعه بلدنا، وجيء اليه بشخص من أهل مراكش، سمع وهو يقول، وقد رآه على فرس عتيق وعليه ثياب ملوكية وغفارة كحلاء، وبين يديه العبيد بالرماح وبجانبه الحجاب - ذا العار ابن العار يريد أن يحكي بني عبد المومن، فما زاده على أن قال له، العار ابن العار من لا يحكي بني عبد المومن، ثم خلى سبيله، فلم يصبح المراكشي الا في طريق مراكش خوف أن يتعقب في رأيه، وكان من جهة أخرى في نهاية من الغيرة على الملك، بلغه أن طلحة بن الشرقي من أكابر دولة بني عبد المومن قد قال، لو كان في سبتة رجل ما ملكها هذا، وأشار اليه، فأحضره وقال ، زعمت أن ما في سبتة رجل، وأنا أكذبك، احملوه وغرقوه في اللجة، فحمل في زورق وغرق.

ومهما يكن فقد عادت سبتة الى حكم الموحدين 635 وكانت مهاجرة الأندلس واشبيلية بالخصوص، تقصد سبتة لاتخاذها مقرا لها ودارا، وكان من هؤلاء الاندلسيين أبو علي ابن خلاص البلنسي، الذي ولاه الرشيد على سبتة سنة ست وثلاثين، فلما مات الرشيد سنة 640 وبويع

المعتضد ابن المامون، خالف عليه أبو خلاص، وبايع لابي زكريا الحفصي، ووجه اليه بسفينة فيها ابنه ووجوه من رجاله، وفيهم الشاعر ابن سهل الاشبيلي الاسرائيلي الذي كان يشغل منصب الكتابة له، فغرقت السفينة بمن فيها.

وظلت سبتة تحت حكم الأمير الحفصي، الذي وجه اليها بعض ولاته، فاستقروا بها على حكمه ردحا من الزمان، حتى ثار في وجههم السبتيون وفتكوا بهم بعد ما استحكمت الضغينة بين الوالى الحفصى وقائد البحر، أبي العباس أحمد الرنداحي، صهر أبي القاسم العزفي على بنته، فلما توفي أبو زكريا الحفصي، وبويع ابنه الذى كان يعاصره المستنصر العباسي، وتلقب هذا بلقبه، رأى السبتيون الفرصة للتخلص من طاعة الحفصيين، وكانوا قد ضاقوا غاية التضييق كما في البيان، من جور هذا الوالي ابن أبي خالد، وتغافل رفيقه ابن الشهيد. فاجتمع القائد الرنداحي مع الفقيه العزفي، وحرضه على القيام بأمر بلده، وهو يعينه على ذلك بعده وعدده، والتزم له أن يقوم بالأمر حتى يخلصه.

فوافقه الفقيه على ذلك وأمره بانجازه في ليلة، استعمل فيها الرنداحي طعاما في داره وعرضه على بعض عمائر الأجفان من الرؤساء والقواد والرماة والغزاة وكان له على الغزاة النهي والأمر فاستدعى لمنزله أولئك جميعا، كأنه وليمة مشهورة، ولا علم أحد منهم بسره، ولا كيفية أمره، فاشتغل الناس عنده بالسماع والشطح في الدار، وهو مع ذلك لا

يستقر له معهم قرار، وهو قد بعث زعماء رجاله بالليل بعد ما كشف لهم عن الحال وأمرهم أن يسوقوا له رأس «شقاف»، وشقاف هذا كان بسبتة وهو قائد الفحص الذي كان السبب في دخول النصارى مدينة اشبيلية، ووصل منها إلى سبتة مع جملة من الأجناد والقواد، فكان على رأسهم بها فصاح القوم بالقائد شقاف وهو بداره، فلما خرج اليهم احتزوا رأسه، وقتلوا كل من أمرهم الرنداحي بقتله، ورجعوا اليه آخر الليل، فاجتمع مع الفقيه المعظم وعرفه بكل ما كان من الأمر، وما فعله من قتل القواد والأجناد من الأندلسيين وغيرهم، فلما أعلمه بذلك تركه قاعدا في اسطوانه، بشمعة أمامه مع بعض اخوانه وخدامه، وهم يشطحون ويفرحون، ولا يعرفون ما وقع وهم لا يشعرون فخرج بهم من داره وتقدم إلى القصبة بعدما ضرب النفير، فاجتمع من عمائر الأجفان، الكبير والصغير، وشاع الخبر عند أهل البلد، فخرج السوقة والتجار واجتمعوا أجميمين، على القائد والفقيه باسطوانه مرتقب لما يتزايد من الأخبار، ومتخوفا مما يقع من تصرف الأقدار، والرجال يسيرون اليه مرة بعد أخرى، وأهل سبتة مجتمعون على قائدهم يطلبون رأس ابن أبي خالد، دون غيره لأنه كان أضربهم بظلمه وجوره، وابن الشهيد معه خائفا أيضا من حاله وعاقبة أمره، وظفروا بابن أبي خالد فقتلوه، وقطعوا رأسه وعلقوه على السور، وأخرج ابن الشهيد المذكور ونفي الى الأندلس في زورق إلى أو وصل بعد ذلك إلى تونس بشهور، واستبد أبو القاسم العزفي بملك سبتة وبقي بها مسرورا، معظما

ميسورا، ولم يزل أهل بلده، يعظمونه بغاية الاعظام، والتقدير لجانبه والاحترام، فهو من جلة الفقهاء الأعلام، ومن مآثره العظام قيامه بمولد النبي عليه السلام، من هذا العام، فيطعم فيه أهل بلده ألوان الطعام ويوثر على أولاده ليلة يوم المولد السعيد، بالصرف الجديد، من جملة الاحسان عليهم والانعام، وذلك لأجل ما يطلقون المحاضر والصنايع والحوانيت، يمشون في الأزقة يصلون على النبي عليه السلام، وفي طول اليوم المذكور يسمع المسمعون لجميع أهل البلد مدح النبي عليه السلام، بالفرح والسرور والاطعام للخاص والعام، جار في ذلك على الدوام، في كل عام من الأعوام، وتوفي رحمه الله سبعة وسبعين فكانت مدته نحو ثلاثين سنة على ما سيأتي ذكره.

وهكذا نجد ا بن عذارى، ينقل هذا النص كسابقه بحرفه، ولا شك أنه كان لمعاصر شاهد عيان، متواضع في عربيته، التي تتخللها ركاكة ولحن خفيف، نجد له تخريجه، وهذه من القطع العديدة المختلفة، التي يضمنها ا بن عذارى كتابه، بدون نص على مصدرها، وليس له فيها، الا الجملتان الاخيرتان.

وكان قيام أبي القاسم، مما أثلج صدر الخليفة الموحدى، إذ كان على ولائه للخليفة الموحدى. ولهذا نجد المرتضى يوجه رسالة، اثر كائنة سلا التي داهمها النصارى. وكان العزفي يكتب من سبتة الى الخليفة،

يعرف بخبر العمارة البحرية التي كان ملك قشتالة يعدها في وادى اشبيلية بقصد احتلال سلا. وقد بعث اليه يعقوب بن عبد الحق أن يصله ويتخذ من رجاله أجناده، كما في البيان المغرب. يقول المرتضى في فصل من رسالته إلى أبي القاسم :

وانا كتبناه اليكم، كتب الله لكم أحمد عاقبة وأجملها، وأكنف كلاءة وأكلأها، وان تعلموا انا نعتد بولائكم الخالص، ونحفظ ما لكم ولسلفكم من السوابق والخصائص، ونشكر نصائحكم التي ما زلتم اياها تبذلون، وخدمتكم التي توالون وتصلون، ونستمد منكم الى العلم الذي أنتم له مخلصون، والدين الذي على سننه القويم لا تعدلون، والله يتولاكم بحفظه وصونه، ويجزل حظكم من انجاده وعونه.

وقد طرأ في مدينة سلا جبرها الله سبحانه واستنقذها، ما قد اتصل بكم مما كنتم أبدا منه تحذرون، وبه لعلمكم بزيادة العدو تنذرون، ولكن لم ترد الأقدار لمن فيها الا انهمالا، في الاضاعة واذهالا، لمن مهل في أعماله الساعة بعد الساعة، حين نفذ المقدور ووقع المحذور، ولا حول ولا قوة الا بالله الذى تصير اليه الأمور والله سبحانه يجرى دينه القيم من النصر والظفر ما عوده، ويجمع أيدى عباده المومنين على من اتخذ الاها غيره وعبده، وهو سبحانه يكافىء سعيكم على ما عرفتم وحذرتم لأهل السواحل، وخوفتم من فجأة المخاتل، لما ظهر من استعداده، ونبهتم في

ذلك أقصى مبالغة. بنيتكم الصالحة الصريحة، ووفيتم منه أوجب حق للمسلم على أخيه من النصيحة. لكن قد نفذ حكم الله تعالى فيما ثبت في الكتاب مسطورا. فلم يحذر التحذير، وكان أمر الله قدرا مقدورا.

وثوابكم على الله سبحانه فيما من ذلك توليتم، وقضيتم به حق الإسلام وأديتم، وأنا لنشكر لكم ذلكم. كما رأى الله عز وجل فيه منا بكم وشكر اليه انتدابكم. فما قصرتم في عمل سديد، ولا تأخرتم في الجد والنصح عن شأو بعيد. فعرفوا بكل ما تتعرفون من إرادات الأعداء بعد، وطالعوا من محاولاتهم الذميمة ما نتأهب لدفعه بحول الله تعالى ونستعد، وهو سبحانه يتدارك بمعهود لطفه ومعتاده ويمد الإسلام وأهله بنصره ونجاده، ويعينكم على أفضل ما أنتم عليه من صواب العمل وسداده بمنه.

وكتب في ثالث ذى القعدة من عام ثمانية وخمسين وستمائة.

فهذه رسالة وردت على أبي القاسم بعد استبداده بخمس سنوات، وفيها من اللت والعجن ومضغ الكلام، ما هو عنوان للفراغ الذى كانت عليه الدولة المحتضرة، والعجز الذى كانت تعانيه، ولا يد لها في اصلاح الأمر. والمتأكد أن ورود ذكر أبي العباس في البيان المغرب كان محرفا عن أبي القاسم أو كان خطأ فيه، ومن الغريب أن يكون هذا الملك الضعيف، قد استمر سلطانه، أكثر من باقي الخلفاء الموحدين من المنصور

إلى آخرهم، والضعف في بعض الأحيان قد يبقى على المريض فيطول به حبل الحياة العليلة (1).

ومما يذكر لهذا الخليفة الموحدى أنه كان شاعرا، وأن شعره ردد فيه ما ودعا اليه أبو العباس العزفي في سبتة، من اقامة المولد النبوى والاحتفال به، فقال هذا الخليفة :

وافى ربيع قد تعطر نفحــــه   اذكى من المسك العتيق نسيما
بولادة المختار أحمد قد بـدا   يزهو به فخرا وحاز عظيمـا

وقد شاهدت سبتة لأول مرة في المغرب، مولد الاحتفال بالمولد النبوي الكريم، وكان الداعي الى ذلك الاحتفال، القاضي ابن القاضي، أبو العباس بن محمد العزفي، كما تقدمت الاشارة اليه. وهو الذي ألف في الموضوع كتابا سماه «الدر المنظم في مولد النبي المعظم، ولم يكمله، فأكمله ابنه أبو القاسم المذكور، وتولى تدريسه بنفسه، كما كان يجيز فيه. وكان من الذين أجازهم في ذلك، الخطيب أبو علي ابن الخطيب أبي فارس بن غالب الجمحي، مع جماعة من أهل سبتة .وأعيانها، حين قرؤوه عليه بالجامع الأعظم من سبتة، سنة سبع وخمسين، كما في «أزهار

1) وهو ما وجدناه للخليفة العباسي. الناصر الذى حكم في ملكه ستا وأربعين سنة والدولة في رمقها الأخير. فعاصر من خلفاء الموحدين ستة هم يوسف ويعقوب وابنه الناصر الذى تلقب بلقبه وابنه يوسف الثاني المنتصر وابنه عبد الواحد. وعبد الله العادل ابن المنصور الذي بويع سنة 621 وتوفي الناصر العباسي سنة 622 وكانت مبايعته 575.

الرياض». وكان الداعي إلى هذا، كما قال أبو القاسم، ما كان عليه النصارى من الاحتفال بعيد الميلاد. ومن شعراء سبتة آنذاك مالك بن المرحل المالقي، الذي دعا اليه فقال :

فحق لنا أن نعتني بـــولاده ونجعل ذلك اليوم خير المواسم
وان نصل الأرحام فيه تقربـــا ونغدو له من مفطرين وصائـــم
ونترك فيه الشغل الا بطاعـــة وما ليس فيه من ملام للائـــم
ونتبع فيه الصالحين فإنهـــــم هدونا بأنوار الوجوه الوسائـــم

هذه سبتة الموحدية، وهذه تقلباتها واحداثها السياسية في العهد الموحدى وبقي أن نلقي نظرة على نشاطها العلمي داخل هذا النطاق الزمني الذي يسع أكثر من مائة سنة، قام به السبتيون أنفسهم وشاركهم الأندلسيون، الذين تعرضت بلادهم للاكتساح النصراني الفاشم، فاضطروا لمغادرة بلادهم واللجؤ أفرادا وجماعات إلى هذه الفرضة، التي لا تضيق بنزلائها، وان ضاقت في بقعتها. ولو حاولنا أن نتتبع في هذا الظرف تراجم السبتيين والأندلسيين المقمين بها، ترجمة وافية أو قريبة من الوفاء، لتطلب ذلك سفرا أو اسفارا، بحسب التناول لها، فحسبنا في هذه المجالة، أن نذكر بعض الممتازين من رجالها، وأسماء بعض النازحين اليها بدون تعرض، في الغالب، لمزاياهم العلمية، وآثارهم التأليفية وغيرها.

وإذا كانت سبتة المرابطية تفخر بالقاضي عياض، الذي خلف وراءه جيلا بل أجيالا تحمل رسالته بل رسالاته العلمية المختلفة وتحمل حتى الآن ألويته الخفاقة في مجالات شتى، فإن سبتة الموحدية، يحق لها أن تجعل الشريف الادريسي في مقدمة المسيرة التي سار فيها العالم الجغرافي. وما زال حتى الآن يلهج بذكر أستاذه. ويتهافت على نشر تراثه وترجمته إلى مختلف اللغات العالمية، ومحمد الادريسي، يعد في الحلبة الأولى لهذا الرعيل المؤحدى الأول، فقد أدرك العهد المرابطي، وعاصر القاضي عياض، الا أن آثاره بعكس عياض، تنطق بالعهد الموحدى الذى ظهرت فيه، وقد ولد بعد القاضي عياض بثلاث عشرة سنة وتوفي بعده بثلاث عشرة كذلك.

وهو من سلالة أولئك الحموديين، الذين أعطوا لسبتة طابعها الخاص، وجعلوا مكانتها ترتفع مع الزمان، ولا تنخفض الا حينما نالها المسخ النصراني البغيض. انه حفيد لذلك الخليفة الأخير، ادريس بن يحيى بن علي، فهو ابن محمد ابن عبد الله بن ادريس المذكور.

وكما قلنا إن الكلام على القاضي عياض، من قبيل تحصيل الحاصل، فكذلك الكلام على الشريف الادريسي الجغرافي والرحالة العظيم.

وسبق أن قلنا إنه يلفت نظر الدارس لسبتة آنذاك، أن سبتة، أصبحت مركزا للتصوف ورجاله، سلوكا وفكرة، وقد وضع اللبنة الأولى له

في الواقع القاضي عياض نفسه. فإن ابن العريف، ما ظهر بتصوفه في شرق الأندلس، حتى كان القاضي عياض يتصل به ويكاتبه ويذاكره. ولعل تناوله للسيرة النبوية بتلك الاشراقة الروحية، التي لم نعهدها قبله. لعل ذلك كان منبثقا عن هذه النزعة الصوفية، التي لم تهتم بالغزوات ونحوها اهتماما بالسلوك السامي والقدسية الالهية لنبي البشرية كافة بشيرا ونذيرا. وما كان كتاب أبي العباس العزفي، على ما نعتقد، الا منطلقا من كتاب الشفا، وهو عمل انفردت به سبتة لذلك العهد. فما وجدنا له ضريبا لا في الأندلس ولا في المغرب. فالعزفي هذا حدثه أبو القاسم ابن عباس الجذامي عن عياض في السبع، وسمع كتاب الشفا على أبي ذر مضعف بن مسعود وغيرها ـ كتب الحديث لعياض كما سمع الشفا على أبي عبد الله محمد ابن غازي الأنصارى وغيرها لعياض. وهو ابن عطية.

ومن تلاميذ القاضي عياض المتصوفين، أبو عبد الله الفخار السبتي، المتوفي سنة ست وثمانين وخمس مائة، فهو من أصحابه، كما نجد بالاستقصا. وهذا المتصوف الزاهد، هو دفين تطوان، وضريحه مقصد للزوار. ومنذ ما يزيد على خمس وثلاثين سنة، شاعت في المغرب شائعة تحدث بها الخاصة والعامة، وسألني فيها عالم فاس آنذاك، مولاى عبد الله الفضيلي، وقامت لها السلطات المخزنية للتحقيق فيها. ونحن مع رفضنا لوقوعها، مسخة خلقية لمن دنس ضريحه بارتكاب جريمة تحت سقفه، لا

نهمل ما تحمل هذه الشائعة من تقديس عظيم لهذا الزاهد ومن تلاميذ هذا المتصوف الشيخ أبو العباس أحمد بن جعفر الخزرجي السبتي، دفين مراكش التي توفي بها سنة 611، وقد اشتهر هذا القطب العالم، بسلوكه الانساني، كما اشتهر بآرائه وأفكاره في الإحسان، تلك التي انبثقت من قوله تعالى ، «ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم». وقد أدركنا الأسفنجية، لا يبيعون أسفنجهم الا بعد الاحسان بالمقلة الأولى على من يقصد دكاكينهم، وكان المحاضرة المبكرون بتيبيس ألواحهم في أفران الأسفجنية، ينالون نصيبهم من هذه «العباسية» التي ان لم تجد أصحابها حاضرين، بقيت في بيجانها» تنتظرهم، ولا جزاء ولا شكورا عليها.

فنظرية الاحسان التي أوجبها أبو العباس السبتي، صارت تسترعي نظر الفلاسفة لعهده، إذ وجدنا الفيلسوف أبا الوليد ابن رشد يوجه خصيصا اليه، الفقيه أبا القاسم عبد الرحمن بن ابراهيم الخزرجي، ليخبره بمذهبه ويعلمه بأهدافه وما صدع بأمره وحين عاد إليه بما خبر منه قال الفيلسوف أبو الوليد «هذا رجل مذهبه أن الوجود ينفعل بالجود».

إنها فلسفة اشراقية اسلامية حقا، دعا اليها أبو العباس السبتي، ولم يدع اليها كفكرة مجردة، بل كسلوك خلقي اجتماعي، يهدف إلى أكثر من هدف بإحسانه الذى دعا إليه، فاستجيب دعاؤه حيا وميتا، وصار قبره

بباب تاغزوت من مراكش مأدبة تعرض عليها أطعمة تأتي اليها من كل فج عميق، كما قال صاحب الاستقصا.

وكما كانت سبتة تطفح بعلمائها فقد كانت تهدر بشعرائها الذين كانوا يعقدون فيما بينهم ندوات وجلسات ومساجلات، مثلما ينقل المقرى في نفح الطيب وغيره، أنه اجتمع جماعة من الأدباء فيهم أبو الحسن سهل بن مالك والمهر ابن الفرس وغيرهما بمدينة سبتة سنة 581، فتذاكروا محبوبا لهم يسكن الجزيرة الخضراء أمامهم، فقالوا ليقل كل واحد منكم شيئا فيه، فقال سهل بن مالك :

لما حططت بسبتة قتب النوى ... والقلب يرجو أن يحول حاله
والجو مصقول الأديم كأنما ... يبدى الخفي من الأمور صقاله
عاينت من بلد الجزيرة مكنسا ... والبحر يمنع أن يصاد غزاله
كالشكل في المرآة تبصره وقد ... قربت مسافته وعز مناله

فقال الجماعة والله لا يقول أحد منا بعد هذا شيئا.

ومما قيل في رجالها لهذا العهد، ما ورد لأبي موسى الطرياني الذي هاجر إلى المغرب، وسكن قصر عبد الكريم، القصر الكبير، وتوفي سنة 639. وهو أنه رفع إلى القائد أبي السرور صاحب ديوان سبتة، قصيدة يتعرض له فيها بزاد، وقد عزم على سفر، فأنعم عليه بذلك، ثم اتبعه

بتحف مما يكون في الديوان، مما يجلبه الافرنج إلى سبتة، ولم يكن التمس منه ذلك ولا خطر بخاطره، فكتب اليه :

أيا سابقا بالذي لم يجـــل ... بفكرى ولم يبد لي في خطاب
ويا غائصا في بحار النـــدى ... ويا فاتحا للعلا كل بــــاب
كذا فلتكن نعم الأكرميـــــن ... تفاجي بنيل المنى والطــــلاب
ولم أر أعظم من نعمـــــة ... أتتني ولم تك لي في حســاب
سأشكرها شكر عهد الرضـــى ... وأذكرها ذكر غض الشبـــاب

ومما ذكر ابن سعيد لهذا الشاعر، قوله في المدينة التي يعملها أهل المغرب، من العجين بأصناف الألوان، في النورز المعروف عندهم بينير :

مدينـــة مصـــــورة ... تحــار فيهـــا السحـــــرة
لم تبنهـــا الا يـــــدا ... عـــذراء أو مخـــــدرة
بـــدت عروســـا تجتلـــي ... من درمــــك مزعفـــــره
وما لهـــا مفاتـــــح ... الا البنـــــان العشـــــرة

ولعل شوقي رحمه الله، اطلع على هذه الأبيات، ضمن قراءته بالأندلس، فقال قصيدته المعروفة في مملكة النحل على وزنها ورويها (2) :

(2) كان شوقي رحمه الله في منفاه بالأندلس لا يفتر عن قراءة ذخائرها. وقال لي بعض الزملاء الاسبان من برشلونة، إنه كان يصعد إلى الربوة المعروفة الآن باسم «تيبي دابو» مصطحبا معه كتابا دائما وكنا قد أشرنا في تعاليقنا على ديوان أبي الربيع الموحد، إلى ما له من نظرات إلى هذا الديوان، في بعض قصائده. أحسسنا بذلك إحساسا قويا

مملكــــة مدبــــرة بامــــرأة مؤمـــرة
تحمل في العمــــال والصنــــاع عــبء السيطــرة

إلى أن يقــول

كأنها جانــــدرك فـــــي كتبـــــة معسكـــــرة

وبعد ما كانت المساجد والجوامع في سبتة تؤدى مهمتها في التعليم، وكان منها - غالبا - مسجد عياض الجد، ثم مسجد ا بن عبيد، الآتي ذكره، فقد صارت المدارس تبنى، بالإضافة اليها، لهذه المهمة. والغالب أنها كانت تقوم بمهمة التعليم والإسكان للطلبة الآفاقيين، الواردين على سبتة للتعليم على أساتيذتها، كما كان عليه الحال التي أدركنا عليها العاصمة العلمية فاس. فتكون سبتة أول مدينة في المغرب بنيت بها مدارس العلم. وربما كان هذا في عهد مبكر، إذ يذكر صاحب الكتاب «قيام دولة المرابطين» أن المدارس كانت منتشرة بسبتة في العهد المرابطي، وقد أحال في بعضها على كتاب «التكملة» لابن الأبار، ولكننا لم نعثر على هذا، ولما نتحقق منه حتى الآن. وكل ما انتهى اليه علمنا أن أبا الحسن الشارى، تلميذ ا بن عبيد الله المذكور، بنى مدرسة بسبتة، ووقف عليها أوقافا، من كتب وغيرها، واشتهرت هذه المدرسة اشتهاراً عظيما وتردد ذكرها في عدة كتب ذكرت سبتة أو صاحبها عليا الشارى، رحمه الله.

والشارى هذا من أصل أندلسي، درس بسبتة وأخذ عن أعلامها، مثل ابن الكاد الخشني السبتي وابن عبيد الذى اعتمده كثيرا، وكان هذا أستاذ الجيل لعهده، ولا شك أنه أوحى إلى تلميذه ببناء مدرسته العريقة الأصيلة، وتوفي سنة 641.

وهذا استعراض لبعض أسماء العلماء الذين كانوا بسبتة لهذا العهد، فيهم السبتيون أصالة وفيهم الواردون عليها والنازلون بها فمنهم ابن القاضي عياض، أبو عبد الله محمد، الذى تولى القضاء، كأبيه بغرناطة، أخذ عن أبيه وأبي بكر ابن العربي وقرأ على ابن بشكوال كتابه «الصلة» بالأندلس، وتوفي سنة 575.

وولده أبو الفضل عياض روى عن أبيه وابن عبيد الله وأبي بكر ابن الحداد قاضي سبتة، وكان أديبا شاعرا، مشاركا في العقليات والنقليات، وتوفي سنة 630.

وابنه عبد الملك محمد قرأ بسبتة وأسند بها، كما في «الاحاطة»، فأخذ عن القاسم عبد الرحمن ابن القاسم القاضي المتفنن كتاب «سيبويه»، ودرس على آخرين يطول ذكرهم، وتوفي سنة 654.

ومنهم ابن الجميل (بوزن قبيط كما في القاموس) وهو حسن بن فرج الداني من أهل النباهة والفهم والإدراك توفي سنة 571.

وولده الحافظ المشارك أبو الخطاب عمر ابن دحية، صاحب كتاب «المطرب من أشعار أهل المغرب» توفي بمصر قبل سنة 640.

وأخوه أبو عمر عثمان الحافظ اللغوى، أخذ كأخيه بسبتةعن ابن عبيد الله كثيرا. كما أخذ عن ابن زرقون الآتي، وتوفي بمصر كذلك.

ومنهم يحيى بن الصائغ، أخذ بسبتة عن الأستاذ ابن عبيد الله وغيره، وتوفي سنة 600.

ومنهم ابن خروف الشاعر القرطبي، أبو الحسن علي بن محمد بن يوسف، نزل بسبتة، ومدح والي الناصر عليها، واجتمع بعلمائها كابن دحية، وتنقل في المغرب، ثم هاجر إلى المشرق وتوفي بحلب سنة 606.

ومنهم ابن خروف النحوى، نزل بسبتة، وتنقل في مدن المغرب، تاجرا ومعلما، وهو أبو الحسن علي بن محمد بن علي بن محمد الاشبيلي من أساتيذه أبو بكر الخدب الذى درس عليه كتاب «سيبويه»، فشرحه في أربع مجلدات، ورفعه إلى الناصر، فأجازه بأربعة آلاف درهم توفي قريبا من وفاة سميه، فقد وقع الخلاف من 5 إلى 610، وذكر كذلك في وفاة الشاعر أنه توفي بعد 610. وهذا أتى من اختلاط الترجمتين للرجلين.

ومنهم عمر بن مودود الفارسي السلماني، سكن سبتة مدة وانتقل إلى مراكش وأقرأ الفقه وعلم الكلام وسمع عنه الحديث، توفي سنة 639.

ومنهم علي بن أحمد الجذامي الكفيف المقرى روى عنه بسبتة ا بن المعذور السبتي أحمد، وأبو القاسم ا بن الخراز، وقال فيه، كما في «صلة الصلة» علي بن محمد بن الغماد الضرير المالقي، وقد اعتمد ا بن الزبير، على الأستاذ أبي علي ا بن سعيد الطراز، ولا شك أن هذا، غير علي بن أحمد الجذامي من أصحاب أبي علي الصدفي، وذكر في معجم ا بن الأ بار، وصلة ا بن بشكوال و بغية الضبي.

وعلي بن محمد ا بن العمادية أبو الحسن وهو من شيوخ أبي القاسم عبد الرحمن بن علي الجذامي حدث عنه أبو العباس العزفي في السبع قراءات.

ومنهم الحسن بن ا براهيم الخزاعي الخضراوى وأقرأ بسبتة العربية وكثر عنه الأخذ فيها، وكان محققا في علمه وتوفي سنة 595.

ومنهم يحيى بن محمد بن رزوق الألمرى، الحافظ المحدث الزاهد، قال الضبي شارك أشياخي في أكثر شيوخهم وتوفي سنة 560.

ومنهم ا بن الد باج وهو علي ا بن جا بر الاشبيلي أخذ عن ا بن عبيد الله من اشبيلية، وتوفي باشبيلية قبل أخذها بتسعة أيام.

ومنهم عبد الله بن محمد الحجر الألمرى، نزل بسبتة وأقرأ بها، ولقيه الضبي وقرأ عليه كتاب مسلم، وكان معظما في بيته توفي سنة 591.

ومنهم القاضي محمد بن الحسن النباهي المالقي، كان قد اتهم بالقيام على ابن هود، فهاجر وابن عمه واستقرا بسبتة وتوفي 631.

ومنهم حيان بن عبد الله بن حيان الأنصارى الاوسي من أهل بلنسية، روى عن ابن عبيد الله بسبتة، وكان لغويا شاعرا توفي 609.

ومنهم محمد بن محمد التجيبي من أهل «البسانة» من عمل قرطبة، اقرأ القرآن والعربية وأخذ عن الشلوبين وغيره توفي سنة 644.

ومنهم علي ابن الحصار الخزرجي، اقرأ البرهان لأبي المعالي وموطأ مالك بسبتة، وحضره على الغافقي وهو سبتي الأصل يراه ابن الزبير.

ومنهم ابن شبرين والد القاضي أبي بكر الاشبيلي الأصل، انتقل من شلب لما أخذت إلى سبتة وبها ولد ابنه كما سنذكره بعد.

ومنهم يحيى الهوزني الاشبيلي المقرى، أخذ الناس عنه من سبتة، وكان منهم أبو العباس العزفي، توفي سنة 602.

ومنهم مرجى بن يونس الغافقي، من تواليفه شرح على قصيدة الحصرى في القراءات، وهو من شيوخ العزفي أيضا والشارى وعياض ابن محمد وغيرهم من السبتيين والطنجيين، وعمر حتى التسعين.

ومنهم محمد بن عبد الله السلمي المرسي سمع بسبتة من ابن عبيد الله، كان حيا بعد الأربعين والست مائة.

ومنهم محمد بن الفضل بن مهيب اللخمي الشلبي توفي بسبتة سنة 645.

ومنهم محمد بن عامر ابن شامة الأنصارى الخزرجي الاشبيلي سمع منه بسبتة أبو العباس العزفي في سنة 580.

ومنهم محمد ابن هشام اللخمي سكن سبتة وأخذ عن أبي بكر بن العربي كان قائما على اللغات والآداب وله تآليف توفي 557.

ومنهم محمد بن أحمد بن عبد الملك اللخمي الباجي الاشبيلي قاضي جماعتها وخطيبها نزل بسبتة وروى عنه ابن الحصار وصحبه في طريقه إلى الشرق وتوفي بمصر سنة 635.

ومنهم محمد بن عبد البر الأنصارى الاشبيلي المعروف بابن زرقون كان متعصبا للمالكية فاعتقل بسبتة (3) درس الفقه والآراء والآداب 621.

ومنهم عبد الجليل الأنصاري الأوسي، آخر المتصوفين بالمغرب على الطريقة المثلى ، كما يرى ابن الزبير، توفي بسبتة سنة 608.

ومنهم محمد بن محمد أبو عيشون اللخمي المرسي اليكى من تآليفه تقييد في الوفيات اعتمد عليه ابن الأبار في «التكملة»، من شيوخه

---

3) يستفاد من هذا أن دعوة الخلفاء الموحدين الأول إلى نبذ كتب الفروع ظلت قائمة بعدهم.

في سبتة ا بن عبيد الله، وحدث وأخذ عنه، توفي سنة 614 وهو ا بن ستة وسبعين.

ومنهم أبو بكر بن رزق السبتي كتب إلى محمد بن أحمد الأنصارى الألمرى ا بن البلنسي المتوفي سنة 621.

ومنهم محمد بن عبد الرحمن التجيبي اللقنتي، أخذ عنه بسبتة سنة 574 وله تآليف و برنامج ورحلة إلى الشرق توفي سنة 610.

ومنهم الداني شيخ القراء محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن المعروف بالأشقر، أقرأ بسبتة كثيرا وكان عالي الروا ية توفي سنة 559.

ومنهم داود بن سليمان بن حوط الله الأنصارى الحارثي الأندى نزل سبتة وسمع بها من ا بن عبيد الله وغيره، وتوفي سنة 621.

ومنهم عمر بن عبد المجيد بن عمر الأزدى الرندى، أخذ بسبتة عن ا بن عبيد الله وا بن زرقون، توفي سنة 616 بعد تدريسه للعربية والآداب.

ومنهم عيسى بن سليمان الرعيني، أبو محمد المعروف بالرندى نزل بسبتة ولقيه بها أبو العباس ا بن فرتون وأخذ عنه توفي 632.

ومنهم سهل بن محمد الأزدى الغرناطي روى عن ا بن مضا والجراوى الشاعر، وأجاز له ا بن عبيد الله، وكان أديبا شاعرا شيخه ا بن هود توفي 639 وتقدم له شعر ذكر سبتة فيه.

ومنهم أبو العباس أحمد بن يوسف السلمي ابن فرتون السالف الذكر، حدث من سبتة ابن الأبار مكاتبة.

ومنهم عبد الله بن الحسن الأنصارى المالقي نزل بسبتة وأخذ بها عن ابن عبيد الله، وأجازو له بها وتوفي سنة 611.

ومنهم عتيق بن عبد الله الاشبيلي اليابرى، روى عنه ابن الدباج وابن حوط الله بسبتة.

ومنهم محمد بن واجب البلنسي القيسي المحدث المقرى، خلص إلى سبتة بعد أخذ بلده وتوفي بها سنة 637.

ومنهم أبو الحسن علي بن محمد بن علي الرعيني الاشبيلي قرأ على الشارى بالجامع الأعظم كما يقول في برنامج شيوخه كتاب الجامع الصحيح للبخارى بخط أبي الوليد ابن الدباغ. قال ، وقرأته على الصدفي وغيره وأمسك علي حين القراءة أصل أبي بكر ابن خير رواية أبي ذر الذى بخط أبيه. ولد الرعيني سنة 592 وتوفي سنة 666.

ومنهم أبو حجة أحمد بن محمد القيسي القرطبي المتوفي سنة 643.

ومنهم ابن مفرج أحمد الأموى المتوفي سنة 637.

ومنهم عدى بن علي القيسي الاشبيلي سكن سبتة وروى عن أبي علي الشلوبين، وتوفي بها.

ومنهم أحمد بن عبد المومن القيسي الشريشي روى بسبتة، عن ابني خروف المذكورين وأبي العباس العزفي وابن عبيد الله وأبي الصبر أيوب وغيرهم، وتوفي سنة 619.

ومنهم علي بن أحمد ابن مكثر الخولاني روى عن أبي عبد الله ابن هشام وأقام بسبتة.

ومنهم أبو العباس أحمد ابن مضا المتوفي سنة 616.

ومنهم علي بن أحمد بن يحيى الأزدى الجياني نزل سبتة وروى عنه أبو عبد الله بن عبد الله الأزدى القرطبي توفي في حدود سنة 628.

ومنهم علي ابن هشام الشريشي لقي بسبتة وأخذ بها عن ابن عبيد الله وتوفي سنة 616.

ومنهم أبو الصبر-أيوب ابن عبد الله أخذ عن قاسم بن محمد بن مبارك ابن الحاج الزقاق بسبتة وتوفي هذا بعد سنة 559.

ومنهم أحمد بن الصقر الأنصارى السرقسطي، وكانت سرقسطة منزل الأنصار، نقله أبوه عبد الرحمن اليها ابن سبع وتوفي في مراكش 569.

ومنهم فتح بن علي الأنصارى الاشبيلي، عبر إلى سبتة عائدا إلى الحجاز فأقام بها للتوثيق وأدركته وفاته بالريف سنة 637.

ومنهم أحمد بن علي السماتي الاشبيلي، تلقى بسبتة عن أبي عبد الله بن عبد الله ابن عيسى التميمي السبتي وأجاز له ابن الدباغ، وتوفي سنة 614.

ومنهم يوسف ابن معرور من طريف نزل سبتة وسمع بها من علمائها وتوفي سنة 620.

ومنهم محمد بن أحمد بن عبد الله ابن سيد الناس اليعمرى الاشبيلي، له اجازة كتب بها إلى بني العزفي وتوفي سنة 659.

ومنهم ابن عبد الله الأزدى روى عنه أحمد ابن خلصة المتوفي 610.

ومنهم يحيى بن مجمل الصنهاجي من شيوخه ابن عبيد الله وأبو الصبر أيوب وتوفي سنة 625.

ومنهم أحمد بن محمد بن قاسم الأنصارى الاشبيلي نزل بسبتة ولقي علماءها وتوفي سنة 657.

ومنهم صهيب بن عبد المهين الجياني الرومي الأصل الفقيه المحدث القاضي بجيان وغيرها، أجاز له ابن عبيد الله وتوفي 631.

ومنهم عبد الله القضاعي الاشبيلي، أخذ عنه بسبتة أبو العباس العزفي، وتوفي في طريقه إلى الرباط بالقصر الكبير وبه دفن.

ومنهم عبد الله بن عمرو الخزرجي القرطبي سمع بسبتة من أبي محمد بن وهب القضاعي وأخذ عنه وعن أبي عبد الملك بن عبد المزيز وأبي عبد الله ابن خليل القيسي، وأجاز له أبو عبد الله ابن عبد الرزاق وأبو بكر بن رزق توفي سنة 613 وقد نيف على السبعين.

ومنهم عبد الله التميمي البجائي قاضيها توفي سنة 620.

ومنهم عبد الله بن علي الأنصاري الأوسي من أهل استجة درس الأصول بقرطبة واشبيلية واقرأ بسبتة وأخذ عنه وتوفي سنة 646.

ومنهم عبد الله التميمي الفاسي الأصل، انتقل أبوه محمد مع والده عيسى المذكور سلفا، وحدث عنه محمد بن أحمد المزفي.

ومنهم أبو العباس ابن مطرف التميمي لقي ابن الجوزى أبا الفرج ولقيه الرعيني كما يقول في برنامج شيوخه غير مرة وتوفي بسبتة عام 627.

ومنهم عبد الرحمن بن علي الجذامي المقرى سكن سبتة، وهو المعروف بالقراق والخراز توفي بسبتة سنة 581.

ومنهم عبد الرحمن ابن الحداد التنسي استقر بسبتة وأقرأ بها وتوفي بمراكش سنة 640 تقريبا.

ومنهم عبد الرحيم الأنصارى الشاطبي الأصل السبتي، روى عنه ابن الأبار وتوفي سنة 655.

ومنهم أبو عبد الله محمد السبتي المقرى نزل المرية وأخذ عنه بها أبو عبد الله بن سعيد الداني.

ومنهم محمد ابن العربي الحاتمي، نزل بسبتة وأخذ بها من ابن عبيد الله، وهو نفسه سبتي الأصل، وأن ولد باشبيلية.

أما ابن عبيد الله الذي تكرر ذكره في غالب التراجم، فهو عبد الله بن محمد ابن علي بن عبد الله ابن عبيد الله الحجري الألمرى الأصل والنشأة، هاجر إلى سبتة واستقر بها بعد سقوط المرية، وبنى بها مسجدا عرف به، كان يلقي فيه دروسه، وتوفي سنة 591 وهو ابن خمس وثمانين سنة أخذ عنه بسبتة كثيرون منهم ابن زرقون وأبو القاسم الجذامي، وابن حوط الله بها، كما سمع عن غيرهم.

ومنهم علي بن أحمد الأزدى الجياني المتصوف، استقر بسبتة وأخذ الناس عنه فيها، وتوفي سنة 623.

ومنهم ابن دادوش محمد القاضي كما هو في برنامج الرعيني سمع من عياض والجراوى الشاعر قصائد له ولقيه الرعيني بسبتة ولم يذكر تاريخا لوفاته.

وبعد هؤلاء نتعرض لمن أقضى بها، فمنهم : الحجرى المذكور ابن عبيد وابن حوط الله أبو محمد عبد الله الأنصارى المالقي، ولى القضاء بسبتة وغيرها وتوفي سنة 612 وهو أخو أبي سليمان.

ومنهم علي بن عبد الله ابن قطرال الأنصارى القرطبي انتقل من شاطبة عند سقوط بلنسية إلى سبتة فأخذ عن ابن عبيد، توفي سنة 651.

ومنهم قاصد اليعمرى المتوفي سنة 650.

وتقدم منهم عبد الرحمن التميمي البجائي.

ومنهم محمد بن محاد العجلاني الفاسي استشهد في موقعة العقاب رحمه الله.

ومنهم عمر بن عبد الرحمن الأنصارى الجراوى أخذ عن عياض وأبي بكر بن العربي وتوفي سنة 576.

ومنهم محمد بن أحمد ابن الحاج تولاها لابن خلاص روى عن ابن حوط الله وأبي بكر بن العربي وتوفي سنة 694.

ومنهم ابن عياش التجيبي توفي سنة 629.

ومنهم أبو العباس أحمد بن القاضي محمد العزفي المتوفي سنة 633 صاحب الدر المنظم.

ومنهم أبو بكر ابن الحداد السالف الذكر.

وسبق منهم عبد الله بن عمرو الخزرجي.

وبعد فقد عرفت سبتة في العهد العزفي استقرارا في الحكم ورفاهية في الحضارة، واتساعا في الثقافة التي نال منها الرجال والنساء. وكذلك

في العهد المريني، فإن المرينيين كانوا يبقون غالبا على هذه العائلة، التي ما تنكرت للموحدين قبلهم ولا هي نكرتهم وقد أمر أمرهم. فالموقف لسبتة، هو الموقف، مع الفاتحين الأول ثم مع المرابطين فالموحدين وأخيرا هؤلاء المرينيين، لااستسلام الا بعد المقاومة والحيطة للامر، ثم لاخيانة بعد ذلك كله، وما بعد هذا كله إلا ان تسوء النوايا فيسوء كل شيء، كما حصل من اواخرهم.

هؤلاء العزفيون، ورثوا الفضل والعلم أصاغر عن أكابر، فأبوا العباس والد الرئيس كان عالما قاضيا بها، وأبوه أبو عبد الله كان علامة قاضيا كذلك، وأبو هذا الحسين ابن للفقيه الإمام علي المعاصر لابن أبي زيد القيرواني، كلهم فاضل ابن فاضل، عالم ابن عالم.

لقد تولى الرياسة منهم ـ كما تقدم ـ أبو القاسم، فحكم سبتة وطنجة مضافة اليهما أصيلة، نحو ثلاثين سنة. ولما توفي سنة 677 تولى سبتة ابنه أبو حاتم أحمد، الذي خلع بأخيه أبي طالب، بعد سنة من توليه، فحكم قريبا مما حكم أبوه فاستمر سبعا وعشرين سنة صاحب سبتة ورئيسها، إلى أن خلع سنة خمس وسبع مائة. ولم يكن خلعه الا بخيانة من الأمير النصرى الذي وجه ابن عمه أبا سعيد فرج بن اسماعيل بن يوسف ابن الأحمر ليداهم البلاد على حين غفلة. فتعرض بذلك شمل سبتة للتشتيت، وهاجر منها حتى بعض أولئك الذين نجوا من فتن بلادهم الاندلسية

وكان منهم ابن شبرين الاديب العالم المتفنن الذى هاجر إلى الأندلس من سبتة، فصدق عليه «حسبنا أن نفر منكم اليكم».

ولكن هذا الاحتلال الغاشم لم يطل حبله، بل سرعان ما عاد العزفيون إلى بلدهم الحبيب، فحكمها ابن أبي طالب أبو عمر يحيى سنة عشر وسبع مائة. ولم تكن الظروف تساعد على استرجاع مجدها العزفي، ولهذا وجدنا أبا عمر هذا لا يمكث الا سنة حتى يخلع، ثم بعد ثلاث سنوات يعود إلى امارته، فيستمر فيها خمس سنوات أخرى تنتهي بوفاته.

ويوصف أبو عمر هذا بأنه كان شجاعا بطلا عارفا بالأصول والفقه والمنطق والعربية واللغة والحديث، ويقال إنه أول من ركب بالرمح والسيف من بني العزفي، وجند الجنود. وخلفه أبو القاسم محمد، ولكنه خلع بعد سنة، فهاجر إلى فاس حيث توفي بها كاتبا للحضرة المرينية، وكان شبيه أجداده وآبائه، فقيها شاعرا مكثرا، وشاحا بز أهل زمانه في الموشحات، وكان مولعا في نظمه بالتورية، كما في أزهار الرياض، وقد أراده أبو عنان على أن يتولى حكم قسطنطينة، لما أخذها فاعتذر. وبالجملة فإن دولة العزفيين بسبتة كانت دولة العلم أكثر منها دولة سياسة إن صح هذا التعبير وطال حكمهم لها. لأننا إن استثنينا تلك الفترات القليلة، فإن الحكم العزفي لسبتة كاد يغطي قرنا من الزمان، من

سنة 646 إلى سنة 728 يضاف اليها سلطة قاضيها أبي العباس. فلا ننس ما كان للقضاة من سلط على هذه المدينة منذ القرن الرابع حينما فتحت سبتة أبوابها للناصر بأمر حسين بن فتح قاضيها ثم تعرض قاضيها ابن زوبع أوائل الخامس لانتقام على الحمودي ثم عياض نحو الموحدين. واستمر بعد ذلك سلطانهم على سبتة في مدّ وجزر فاستفحل في عائلة العزفيين ثم حافظ على رمقه الأخير قاض من عائلة الحسينيين الصقليين. ومهما يكن فهذا هو نطاق العزفيين عامة. وفيه كانت الأحداث التالية وقد تقدم أن طنجة كانت تالية لسبتة. ولكن عاملها الذى كان قد دخل في طاعة العزفي انتقض عليه بعد سنة. وهو ابن الأمير يوسف بن محمد الهمداني. الذي اغتيل وتولي ابنه فاسترجع العزفى طنجة منه وولى عليها 765.

وكان ديوان كتابتهم يضم الصفوة من كتاب الأندلس اللاجئين الى سبتة بعد توالى الكوارث على بلادهم من قبل النصارى الذين سقطت في أيديهم جل قواعد الإسلام. ومن هؤلاء أبو القاسم خلف بن أبي الأصبغ القبتوري كما يأتي الاشبيلي أحد شيوخ ابن رشيد بسبتة. وصلحائها المشهورين فيها. ومن شعراء التوسلات الربانية بها. كتب بديوان الإنشاء عن أبي القاسم العزفي. كما كتب عن أبي حاتم. إلى ملوك من العهد الموحدى والمريني. بالإضافة إلى بني الأحمر بالأندلس. ومن أوائل تلك الرسائل. ما كان موجها إلى المرتضي

الموحدى، ومن ديباجتها التقليد الذي يحافظ على «الرضا عن الإمام المعصوم، المهدى المعلوم» وفي هذه التذكير بأهمية سبتة وأنها أقرب ديار الإسلام إلى أعدائه من النصرانية، وأنها اضطرت بذلك إلى عقد الصلح مع ملك قشتالة، على مال تدفعه له، واطلاق سراح الماسورين النصارى، لمدة سنتين، وأن الملك القشتالي قبل انصرامهما، استزاد من المال ما يقارب ضعف الأول، مهددا بالهجوم على سبتة، وعضده في هذا ملك برشلونة، والكنيسة التي صار رجالها يحرضون النصارى على مداهمة المدينة، لهذا يطلب أشياخها من الخليفة الاذن لهم في تجديد عقد الصلح، اتقاء للشرور والاخطار المحيفة، ومديد المعونة في هذه المبالغ المفروضة، لمدة سنتين أخريين، كما حصل منه في الاوليين «ونظر الامر الكريم، ايده الله، فيه الخير أجمع، وعنايته كفيلة من احسانه، بما امتد له الرجاء وتعلق به الطمع، لا زال لمفزع العلل مزيحا، ومن مفظع الخلل مريحا، والله تعالى يديم الحضرة العلية ويصل بقاءها، ويوالي اسماء دعوتها السنية وارقاءها، ويضاعف اظهارها واعلاءها، ويشكر اعتناءها، ويكافي آلاءها.

وهي من الرسائل الطوال، الواردة ضمن ما نشره الدكتور الهيلة التونسي، من رسائل العهد العزفي وفي قصيدة لابن خميس التلمساني قالها وهو في سبتة يحن إلى وطنه نجده يشيد فيها بالعزفيين ويقول

تركت لمينا سبتة كل نجعـة كما تركت للعز أهضا بها الشمخ
وآليت الا ارتوى غير مائهـــا ولو حل لي في غيره المن والمذخ
وألا احط الدهر الا بعقرهـــا ولو بوأتني دار أمرتها بلـــخ
فكم نقعت من غلة لكم الأضا وكم ا برأت من علة تلكم اللبخ
وحسبها منها عدلها واعتدالهـا وأ بحرها العظمى وأريافها النفخ
وأملاكها الصيد المقاولة الالـى لعزهم تعنو الطراخمة البلـــخ
كواكب هدى في سماء رياسة تضيء فما يدجوظلام وما يطخو
ثواقب أنوار ترى كل غامــض إذا الناس في طخياء غيهم التخوا
وروضات آداب إذا ما تأرجـت تضاءل في افياء أفنانها الرمخ
مجامير ند في حدائق نرجـس تنم ولا لفح يصيب ولا دخ
وأ بحر علم لا حياض روايـــة فيكبرمنها النضح أويعظم النضخ
بنو العزفيين الالى من صدورهم وأ يديهم تملا القراطيس والطرخ
إذا ما فتى منهم تصدى لغاية تأخر من ينحو وأقصر من ينخو
رياسة أخيار وملك أفاضـــــل كرام لهم في كل صالحة رضخ
إذا ما بدا منا جفاء تعطفـوا علينا وان حلت بنا شدة رخوا
نزورهم حذا نحافا فننثنـــــى وأجمالنا دلح وأبداننا دلـــــخ
يربوننا بالعلم والحلم والنهـى فما خرجنا بز ولا حدنا برخ
وما الزهدفي أملاك لخم ولاالتقى ببدع وللدنيا لزوق بمن يرخو
والا ففي رب الخورنق غنيـــة فما يومه سر ولا صيته رضـخ

تطلع يوما والسدير أمامـــــه | وقدنال منه العجب ماشاءوالجفخ
وعن له من شيعة الحق قائـــم | بحجة صدق لا عيام ولا وشـــخ
فأصبح يجتاب المسوح زهادة | وقدكان يوذى بطن اخصمه النخ
وفي واحد الدنيا أبي حاتم لنا | دواء ولكن ما لأدوائنا نتـــــخ
تخلى عن الدنيا تخلي عـــارف | يرى أنها في ثوب نخوته لتـخ
وأعرض عنها مستهينا بقدرهـا | فلم يثنه منها اجتذاب ولا مصخ
فكان له من قلبها الحب والهوى | وكان له من كفه الطرح والطخ
وما معرض عنها وهي في طلابه | كمن في يديه من معاناتها نبخ
ولا مدرك ما شاء من شهواتها | كمن حظه منها التمجع والنجخ
ولكننا نعمى مرارا عن الهدى | ونصلج حتى ما لآذاننا صمـــخ
وما لامرىء عما قضىالله مزحل | ولا لقضاء الله نقض ولا نسـخ
أبا طالب لم تبق شيمة سؤدد | يشاد بها الا وأنت لها سنـــخ
لسوغت أبناء الزمان أياديـــا | لدرتها في كل سامعة شـــخ
وأجريتها فيهم عوائد ســـؤدد | فما لهم كسب سواها ولا نـــخ
غذتهم غواديها فهي في عروقهم | دماء وفي أعماق أعظمهم مـــخ
وعمتهم حزنا وسهلا فأصبحـوا | ومرعاهم وزخ ومرعيهم ولـــخ
بني العزفيين ابلغوا ما أردتـم | فما دون ما تبغون وحل ولا زلخ
ولا تقعدوا عمن أراد سجالكـم | فما غربكم جف ولاغرفكم وضخ
وخلوا وراء كل طالب غايـــة | وتيهوا على من رام شأوكم وانخو

ولا تذروا الجوزاء تعلو عليكـــم		ففى رأسهامن وطءأسلافكم شدخ
لا فواه أعدائي وأعين حسدى		إذا جليت خائيتىالغص والفضخ
دعوها تهادى في ملاءة حسنها		ففي نفسها من مدح أملاكهامدخ
يمانية زارت يمانين فانثـــــت		وقدجد فيهاالزهوواستحكم الزمخ

وهي طويلة كما يقول المقرى في أزهاره، ولا شك أن صاحبها تعمد هذا الحذف الذى ينبو عنه الذوق في بناء القوافي، ويتمسر على من يراوده، كما يعسر فهم الحرف الكلمات التي وجدنا في هذه الأبيات تنتهي بذلك الحرف إلا قليلا منها.والشاعر مزهو بهذا متحد فيه.كما رأينا في الأبيات الثلاثة التي انتهت بها القصيدة. وكان للشاعــــر منافســـــون وحاسدون. امتحن بهم وبتلا ميذهم، كما هو مذكور في كتب التراجم والآداب عندنا. وبحق فإن هذه القصيدة، يمكن أن تكون مصدرا لغويا ذا بال في مادته.

ودولة العزفيين عايشت المهدين أما ما يخص العهد المريني وحده فمن حسن الحظ أننا وجدنا مؤلفا ضم كثيرا من علماء العهد المريني بسبتة وهو كتاب «بلغة الأمنية ومقصد اللبيب فيمن كان بسبتة في الدولة المرينية من مدرس وأستاذ وطبيب» وهو يحتوى سبعة وأربعين رجلا وامرأة، كنا نشرناه ونذكر هنا من لم يرد لهم ذكر في الكتاب المذكور كما يلي :

محمد بن ابراهيم بن محمد السبتي المالكي النحوى يكنى أبا الطيب، قرأ على ابن أبي الربيع واختصر شرح الايضاح توفي سنة 695.

ومحمد بن أحمد بن محمد الشريف الحسني السبتي يكنى أبا عبد الله وأبا القاسم، قرأ على أبيه وأبي عبد الله بن هانىء وابن رشيد توفي 760 أو 761، من تآليفه شرح الخزرجية ومقصورة حازم وله نثر وشعر فائق.

ومحمد بن أحمد بن ابراهيم بن الزبير الغرناطي أخذ عن أبي اسحاق الغافقي وابن الشاط وابن أبي الربيع وغيرهم بسبتة.

ومحمد بن قاسم الشديد - بالتصغير أخذ عن أبي العباس الحسني بسبتة واختص بابن هانىء المذكور سلفا.

وابراهيم بن أحمد الغافقي المذكور شيخ النحاة والقراء بسبتة، قرأ على أبي بكر بن شبلون وابن أبي الربيع، من تصانيفه شرح الجمل توفي سنة 710.

وعبد الله بن محمد بن أحمد بن محمد العزفي أبو طالب كان في جملة من غربوا إلى غرناطة اثر احتلال سبتة كما سبق.

ومحمد بن عمر ابن رشيد الفهرى السبتي، قرأ على ابن أبي الربيع وغيره من فطاحل عصره، وله الرحلة العظيمة الى الشرق توفي سنة 721.

وعبد الله ابن عبيد الله، أبو الحسين ابن أبي الربيع، امام نحاة زمانه، استقر بسبتة لما استولى النصارى على اشبيلية، له مؤلفات توفي سنة 688.

ومحمد التميمي التسلى الفاسي أخذ عن ابن رشيد وأبي عبد الله الغمارى وابن هانيء وغيرهم بسبتة كما فالاحاطة.

ومالك بن وهيب الله ابن المرحل، العالم اللغوى النحوى والشاعر المفلق، وقع بينه وبين ابن أبي الربيع جدال في «كان ما ذات» توفي سنة 699.

ومن أمداحه لسبتة قصيدة طويلة كما يقول المقرى، منها :

سلام على سبتة المغـــــرب اخية مكة أو يثــــــرب

وله أيضـــا :

اخطر على سبتة وانظر إلـــى جمالها تصبو إلى حسنـــــه

كأنها عود غناء وقــــــــد القى في البحر على بطنـــه

وعثمان بن محمد العبدرى البياسي استقر بسبتة، روى عنه جماعة كأبي عبد الله ابن الحصار الضرير وأحمد بن فرتون أم بمسجد القفال توفي سنة 663.

وعدى بن علي بن عبد الله القيسي الاشبيلي سكن سبتة وروى عن أبي علي بن الشلوبين، وكان حافظا للمذهب بفروعه، توفي بسبتة.

ومحمد بن علي الغساني ا بن العربي من عمل المرية كان مقيما بسبتة مكبا على قراءة القرآن والعربية وأخذ عن الغافقي وا بن حريث وا بن شهيد وغيرهم.

وعلي بن أحمد بن عبد الله ا بن مكثر الخولاني، أبو الحسن، وروى عن أبي عبد الله بن هشام كان مقيما بسبتة.

ومحمد ا بن الفخار الجذاف الاركشي الشرشي عبر الى سبتة لما أخذت شريش فقرأ بها وروى عن ا بن أبي الربيع وغيره كثيرين ذكروا بالإحاطة.

ومحمد بن أحمد بن سيد الناس فصل عن الأندلس إلى سبتة وأقام بها ثم استدعى إلى تونس سنة 654 وتوفي سنة 659.

وعبد الله ا بن سلمون الكناني الغرناطي أخذ بسبتة عن ا بن الطيب والدراج وغيره كما ذكر بالاحاطة.

وأحمد بن راشد المالقي رحل إلى سبتة ونزل بها وتوفي سنة 702.

وعبد الله ا بن أبي جمرة جاز إلى سبتة وانعقدت بينه وبين رؤسائها المصاهرة وهي في حكم بني الأحمر كما تقدم ثم عاد لما عادت إلى أهلها.

وأبو اسحاق التلمساني نزيل سبتة، من تآليفه أرجوزة في الفرائض، وكان أديبا لغويا إماما في الفرائض، توفي بسبتة سنة 690.

وعبد الملك القيسي اليحانسي ترجم له في صلحاء الريف وتوفي بسبتة كما يأتي.

وعبد الله بن محمد ابن الحاج النميرى الغرناطي ولى الأشغال بسبتة عند تصيرها الى بني نصر أوائل القرن الثامن وهو من شوظر والمنظر، أصل قومه المختصين بتلك الجهات من وادى آش.

وابراهيم بن محمد بن أبي العاص التنوخي الطريفي، قرأ بسبتة على امام المقرئين ابن زرقون الضرير وأبي اسحاق الغافقي وله شعر.

وداود الأندى رحل إلى سبتة واستقضى بها أوائل القرن السابع.

والشريف أبو العباس المعروف بصاحب سبتة لمكانته العظيمة فيها، ولما اجتاز المخلوع صنع له ولوزيره ضيافة ملوكية وهو من أصدقاء ابن الخطيب وبيت الشرفاء الصقليين بسبتة، بيت نباهة ورياسة وعلم وآداب يضاهي بيت عياض وبيت العزفي.

ومحمد ابن أرقم النميرى قرأ بسبتة على أبي بكر بن عبيدة وابن حريث وابن الخضر وابن الشاط وغيرهم.

ومحمد بن محمد بن ابراهيم ابن سعد الخير بن عياش قاضي ألقنت والمرية وغيرهما، نظم قصيدة وهو بسبتة في وصف حاله أخذها

عنه أبو عبد الله بن هانىء وأبو القاسم الحسيني وأبو القاسم بن حزب الله وزاد عليها وكان ذلك «بوادلو» أولها «تأسفت لكن حين عز التأسف» عاصر ا بن الخطيب.

ومحمد الأشعرى المالقي أجازه من أهل سبتة شيخ الشرفاء ا بن ربيع وأبو عبد الله الأنصارى وا بن رشيد وا بن الحصار وغيرهم توفي سنة 741.

ومحمد بن أحمد ا بن حيون ا بن الحسن بن علي قرأ بسبتة بلده على أبيه الشريف أبي القاسم وأبي عبد الله بن هاني والغافقي توفي سنة 760.

ومحمد بن أحمد ا بن شبرين العالم الأديب والكاتب الشاعر الشهير توفي سنة 747، وهو من شيوخ ا بن الخطيب حلاه بالفقيه المؤرخ الكاتب وهو من قضاة سبتة، ذكر في المرقبة ضمنهم، وقال انه تولى القضاء بكثير من الجهات يعنى من الأندلس، من شيوخه ا براهيم الغافقي.

ومحمد بن محمد بن محارب الصريحي ا بن أبي الجيش الملقي قرأ بسبتة على جماعة منهم أبو اسحاق الغافقي كما بالإحاطة.

ومن أعلام سبتة الفقيه أبو عبد الله محمد بن علي بن فرج.

وابن الشاط أبو القاسم قاسم بن عبد الله الأنصارى السبتي، اقرأ بسبتة الأصول والفرائض، وقرأ على ابن أبي الربيع وغيره توفي سنة 723.

والشريف أبو علي حسن بن يوسف أبي يحيى الحسيني السبتي أدرك ابن أبي الربيع وأبا القاسم العزفي واختص بابن عبيدة وابن الشاط توفي سنة 754.

والحضرمي من الأسر التي اشتهرت بالعلم في سبتة، والمراد هنا الرئيس الكاتب عبد المهيمن الذى طبقت شهرته الآفاق، وله في سبتة أبيات من قصيدة مدح بها ابن الحكيم كما بالاحاطة، توفي سنة 749.

وكان بنو مرين يستدعون من سبتة من يقرىء بحاضرتهم علوم العربية، كما يقول ابن خلدون، إذ لم يتصدر من الفاسيين من يقرىء الكتاب، كما هو متداول بين أهل الأندلس، مثل ابن أبي الربيع، والشلوبين وغيرهما، كما في أزهار الرياض منقولا عنه.

وأحمد بن ابراهيم بن الزبير العاصمي الجياني أخذ بسبتة عن شيوخها حين رحل للرواية عنها مثل ابن مشلبون مولده سنة 628.

وأحمد بن علي بن أحمد الأنصارى أبو العباس الماردى الاشبيلي الأصل استقر بسبتة وأقرأ بها وكان حيا سنة 666 كما بالذيل.

وأحمد بن أبي الحسن نبيل الرومي مولى أبي القاسم التجيبي المستوطن بسبتة، كان فقيها نبيلا، واستقضى بسبتة وغيرها توفي سنة 669.

وأبو محمد عبد الحق الشهير با بن سبعين المرسي، انتقل إلى سبتة وانتحل التصوف، فمالت إليه العامة، وفي اقامته بسبتة وردت عليها المسائل الصقلية التي هي عبارة عن جملة من المسائل الحكمية، وجهها علماء الروم، تبكيتا للمسلمين فيها، فانتدب للجواب عنها، على فتاء من سنه، وبديهة من فكرته، توفي سنة 669.

وأبو القاسم خلف بن عبد العزيز الغافقي القبتوري مقرىء نحوى كبير مترسل تولى كتابة سبتة توفي سنة 704. وتقدم ذكره ونموذج من إنشائه.

وأبو عبد الله بن قاسم الأنصارى المالقي نزيل سبتة وعرف فيها با بن حكم وا بن أخت أبي صالح، حدث عنه ا بن العشاء وعن هذا ا بن مرزوق.

والمقرى الجد حل بسبتة في رحلته، ولا شك أنه حدث بها وأخذ عن رجالها، شأن العلماء آنذاك، في رحلهم الممتعة الحافلة بالمعرفة.

وأبو عبد الله محمد ا بن الفخار، شيخ الشاطبي الذى حدثه بما جرى بين ا بن خميس وطلبة سبتة من تلاميذ ا بن أبي الربيع.

وأبو الحضرمي الكاتب المذكور، كان بسبتة كما في الإحاطة وغيرها قطب مدارها ومقام حجها واعتمارها. وكان جده عبدون النازل بسبتة. وفي المرقبة أن محمدا هذا ولى القضاء بسبتة لقرابته من رؤساء بني العزفي، فلما تصيرت لبني نصر صرف إلى غرناطة معهم توفي بسبتة سنة 712.

وأبو سعيد بن عبد المهيمن المذكور طلب منه أبو عنان أن يرتسم من جملة كتابه فأبى وقال، لا أكون تحت حكم غيرى وعاد إلى سبتة توفي سنة 787.

وقاضي الجماعة أبو البركات ابن الحاج البلفيقي الأنصارى، كان بسبتة، ولما أراد الانصراف عنها، قال له أبو العباس الشريف، متى عزمت على الرحيل فأنشده ،

أما الرحيل فدون بعد غـــد فمتى تقول الدار تجمعنـــــا

فأنشد الشريـــف ،

لا مرحبا بغد ولا أهلا بـــــه إن كان تفريق الأحبة في غـــد

ومن نظم أبي البركات، في حلقة بعض الشيوخ بسبتة، معتذرا عن استدباره لبعض المفضلاء الحاضرين بها ،

إن كنت أبصرتك لا أبصـــرت بصيرتي في الحق برهانهـــا
لا غرو انى لم أشاهدكـــــم فالعين لا تبصر انسانهـــا

وأبو جعفر ابن عبد الملك العذرى السبتي، كان فقيها أديبا شاعرا، كتب إلى ابن الخطيب في بعض الأغراض ،

إني بمجدك لم أزل مستيقنا ... الا يهدم بالتغير ما بنـــى
إذ أنت أعظم ما جد يعزى له ... صفح وأكرم من عفا عمن جنى

وكتب أيضـــا ،

إن كان دهرى قد أساء وجارا ... فذمام مجدك لا يضيع جـــارا
فلانت أعظم ملجأ ينجى إذا ... ما الدهر أنجد .موعدا وأغـــارا

ومن الذين نزلوا بسبتة القاضي النباهي، الذى خاطب منها ابن الخطيب وكان في سلا برسالة مذكورة في الإحاطة ونقلها المقرى بالنفح.

وابن الجنان الناظم الناثر، وهو محمد بن محمد بن أحمد الأنصارى المرسي دعاه ابن خلاص إلى سبتة فحظي بها حظوة تامة عنده.

وعتيق بن محمد بن علي ابن الغساني المقرى الجنان، عرف بذلك لتحرفه بعمل الجنان، وحدث عنه المقرى الضرير أبو الحسن الخضار بسبتة توفي في عشر السبعين وستمائة بغرناطة كما في «صلة الصلة»

ومن قضاة الأندلس الوافدين على سبتة أو المقيمين بها لهذا العهد من ذكروا في تاريخ قضاة الأندلس للنباهي، وهم :

ابراهيم الغافقي الاشبيلي، هاجر بعد تغلب العدو فلازم ابن أبي الربيع وقام مقامه، وتولى قضاء سبتة، وعليه اعتماد شيوخ في القراءة. توفي سنة 716.

محمد بن محمد اللخمي القرطبي القاضي بسبتة والخطيب بمسجدها والمدرس به الفقه وغيره، أخذ عن ابن أبي الربيع وابن الخضار أيضا وتوفي سنة 723.

محمد بن يحيى الأشعرى المالقي، من أهل الدراية والرواية، أخذ بسبتة عن طاهر بن ربيع وعبد العزيز الهوارى وابن الخضار وغيرهم، توفي سنة 741.

أبو اسحاق ابراهيم بن يحيى بن زكرياء، أخذ بحظ من النظم والنثر، وأخذ بسبتة عن الغافقي، كان مولده سنة 751 وكتب للنصرين.

ويلاحظ أن المذكورين بالمرقبة، بعضهم لم يتول القضاء الا بسبتة، كما رأينا أول من سردناهم، فلعل النباهي ذكرهم ضمن قضاة الأندلس باعتبار أصلهم منها، ولم نأت بباقيهم في المرقبة، مثل قاضيها ابن شبرين، وابن الحاج البلفيقي وأبي القاسم الشريف الغرناطي ومحمد بن الحسن بن محمد بن الحسن النباهي، لتقدم ترجمتهم فيما قبل، وإن

كانت ترجمة الشريف في المرقبة أو في تراجمه. ومن شعره قصيدة يقول فيها

أبلغ بسبتة أقواما ودونهم — عرض الفلا وذميل الاينق الرسم
ولج ذى ثبج طام كان به — أعلام لبنان أو كثبان ذى سلم

وقد ورد في القرن الثامن ذكر بعض الرحالين من سبتة. في رحلة ابن بطوطة. فنجد فيها. ابن بطوطة. وهو بالصين. يذكر ما يلي :

وبينما أنا يوما في دار ظهير الدين القرلاني (من شيوخ المسلمين بالصين) إذ بمركب عظيم لبعض الفقهاء المعظمين عندهم. فاستوذن له علي وقالوا : مولانا قوام الدين السبتي. فعجبت من اسمه ودخل الي. فلما حصلت المؤانسة بعد السلام. سنح لي اني أعرفه. فأطلت النظر اليه. فقال أراك تنظر إلي نظر من يعرفني فقلت له : من أى البلاد أنت ؟ فقال : من سبتة. فقلت له : وأنا من طنجة فجدد السلام علي. وبكى. حتى بكيت لبكائه. فقلت له : هل دخلت بلاد الهند ؟ فقال لي نعم. دخلت حضرة دلهى. فلما قال ذلك تذكرت له وقلت : أأنت البشرى ؟ قال : نعم. وكان وصل إلى دلهي مع خاله أبي القاسم المرسى. وهو يومئذ شاب لا نبات بعارضيه. من حذاق الطلبة. ويحفظ الموطأ. وكنت أعلمت سلطان الهند بأمره. فأعطاه ثلاثة آلاف دينار. وطلب منه الإقامة عنده فأبى. وكان قصده في بلاد الصين. فعظم شأنه بها واكتسب الأموال الطائلة.

أخبرني أن له نحو خمسين غلاما، ومثلهم من الجوارى، وأهدى إلي منهم غلامين وجاريتين وتحفا كثيرة. ولقيت أخاه بعد ذلك ببلاد السودان، فيا بعد ما بينهما :

وقد أشرنا إلى أن ابن الخطيب كان يتردد على سبتة، فكان ينزل على عائلة الشرفاء الصقليين غالبا، ومن قوله - مطلع قصيدة يقرض بها شرح ابن مرزوق للشفا - في سبتة هذه الأبيات :

حييت يا مختط سبت بن نوح بكل مزن يغتدى أو يروح
وحمل الريحان ريح الصبا أمانة فيك إلى كل روح
دار أبي الفضل عياض الذى اضحت برياه رياضا تفوح

ومن مقاماته في البلدان، ما نجده عن سبتة، كما في أزهار الرياض :

قلت : فمدينة سبتة ؟ قال : تلك عروس المجلى، وثنية الصباح الأجلى تبرجت تبرج العقيلة، ونظرت وجهها من البحر في المرآة الصقلية، واختص ميزان حسناتها بالأعمال الثقيلة، وإذا قامت بيض أبسوارها، وكان جبل بليونش شمامة أزهارها، والمنارة أنوارها، فكيف لا ترغب النفوس في جوارها، وتهيم الخواطر بين أنجادها وأغوارها، إلى

الميناء الفلكية، والمراقي الملكية، والركية الزكية، غير المنزورة ولا البكية، ذات الوقود الجزل، المعد للأزل، والقصور المقصورة على الجد والهزل، والوجوه الزهر السحن، المضنون بها على المحن، دار الناشبة، والحامية المضرمة للحرب المنشبة، والأسطول المرهوب المحظور الالهوب، والسلاح المكتوب المحسوب، والاثر المعروف المنسوب، كرسي الأمراء والأشراف، والوساطة، لخامس أقاليم البسيطة، فلاحظ لها في الانحراف، بصرة علوم اللسان، وصنعاء الحلل الحسان، وثمرة امتثال قوله : «ان الله يأمر بالعدل والإحسان» الأمينة على الاختزان، القويمة المكيال والميزان، محشر أنواع الحيتان، ومحط قوافل العصير والحرير والكتان، وكفاها السكنى بليونش في فصول الأزمان، ووجوه المساكن النبيهة بأرخص الأثمان، والمدفن المرحوم غير المزحوم، وخزانة كتب العلوم، والآثار المنبئة عن أصالة الحلوم، إلا انها فاغرة الأفواه للجنوب، للغيث المصبوب، عرضة للريح ذات الهبوب، عديمة الحرث فقيرة من الحبوب، ثغر تنبو فيه المضاجع بالجنوب، وناهيك بحسنة تعد من الذنوب، فأحوال أهلها رقيقة، وتلفهم ظاهر مهما ظهرت وليمة أو عقيقة، واقتصادهم لا تلتبس منه طريقة، وأنساب نفقاتهم في تقدير الأرزاق عريقة، فهم يمصون البلالة مص المحاجم، ويجعلون الخبز في الولائم بعدد الجماجم، وفتنتهم ببلدهم فتنة الواجم، بالبشير المهاجم، وراعى الجدب بالمطر الساجم، فلا يفضلون على مدينتهم مدينة، الشك عندى في مكة والمدينة.

فهذا الوصف من ا بن الخطيب نستفيد منه فوائد شتى، وأهمها ما يتصل بالحياة الثقافية والاجتماعية والموارد الاقتصادية، فهي من الناحية العلمية، تحرز مكانة عالية في الدراسات العربية، فهي بصرة علوم اللسان، تتوفر على خزانة لكتب العلوم المختلفة، وهي في حياتها تنعم بسكنى القصور المقصورة على الجد والهزل وتتبدى في الحلل الحسان، وسكانها صبح الوجوه ومع هذا فهم احلاس حرب وأبطال نزال يحميهم أسطولهم العتيد وهم على خلق قويم واعتدال في السلوك، فموازينهم ومكاييلهم قويمة، ولا حظ للانحراف فيهم، وهم على معيشتهم المقتصدة في رقة من الحال يعدون لما يستهلكون عدته من الاختزان والقصد في النفقات والاحتراز من التبسط حتى في الولائم والأفراح، ولئن كانت الأرض تشح عليهم بالحبوب فإن البحر يسخو لهم بأنواع الحيتان، التي ينعمون باصطيادها كما أن البحر الذى تتوجه اليه، يسعفها بموارده ومصادره، فهي محط هام للتجارة، وخصوصا ما يعصر من الزيت وما ينسج من الحرير والكتان، وأهلها بلغ حبهم لها مبلغ الفتنة بها، فهم يفضلونها على ما عداها من البلاد، وتقدم من ا بن المرحل، انه ينزلها منزلة مكة والمدينة، وهو ما أومأ اليه ا بن الخطيب في جملته الأخيرة.

ومن علماء سبتة في العهد المريني أبو عبد الله محمد بن عبد المنعم الحميرى، صاحب كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار

والمتوفي عام سبعة وعشرين وسبع مائة، كما في الدرر لابن حجر ومن كتابه في وصف سبتة ما يلي :

سبتة مدينة عظيمة على الخليج الرومي المعروف بالزقاق، وهو أول البحر الشامي المنتهي إلى مدينة صور من أرض الشام، وهي تقابل الجزيرة الخضراء والمعروف أنها مفتوحة السين، والنسب اليها بكسرها، مثل بصرة وبصرى، والبحر يحيط بسبتة شرقا وجوفا وقبلة، وليس لها إلى البر غير طريق واحدة، من ناحية الغرب، لو شاء أهلها أن يقطعوه قطعوه، ولها بابان أحدهما محدث، ولها من جهات البحر أبواب كثيرة، وفي آخر المدينة بشرقيها جبل كبير فيه شمراء كثيفة يسمى جبل المينا، وقد كان عبد الملك ابن أبي عامر أمر أن تبنى بهذا الجبل مدينة ينقل اليها أهل سبتة، فبنى سورها ومات ولم يتم له المراد، والسور باق إلى الآن كأنه بني بالأمس وهو يظهر من بر الأندلس لبياضه، ومن غرائب ذلك السور أن فيه شقة مستطيلة بأبراجها مبنية بالزيت عوضا عن الماء، وكان غرضه اتمام عمله على هذا النعت لولا الإنفاق الكثير فإن البناء بالزيت أصلب وأبقى على مرور الدهر، فلم يساعده الأجل.

وسبتة سبعة جبال صغار متصلة بعضها ببعض، معمورة، طولها من المشرق إلى المغرب نحو ميل، ويتصل بها من جهة المغرب وعلى ميلين منها جبل موسى، وهذا الجبل منسوب إلى موسى بن نصير الذى على

يديه كان افتتاح الأندلس في صدر الإسلام، وتجاوره جنات وبساتين وأشجار وقرى كثيرة وقصب سكر وأترج يتجهز به إلى ما جاور سبتة من البلاد، وهو الموضع المسمى بيليونش، وبه مياه جارية وعيون مطردة وخصب زائد، ويلي المدينة من جهة المشرق جبل عال أعلاه بسيط، في أعلاه سور بناه محمد ابن أبي عامر حين جاز اليها من الأندلس، وأراد أن ينقل المدينة إلى أعلى هذا الجبل عند فراغه من بناء أسوارها، وعجز أهل سبتة عن الانتقال، فمكثوا في مدينتهم، وبقيت المدينة خالية (1) وأسوارها قائمة قد نبت خطب الشمراء فيها، وهذه الأسوار تظهر من عدوة الأندلس لبياضها.

وسبتة مدينة قديمة سكنها الأول، وفيها آثار كثيرة وكان لها ماء مجلوب من نهر على ثلاثة أميال منها. يجرى اليها من قناة مع ضفة البحر القبلي فكان يدخل كنيستها التي هي الآن جامع سبتة وكان يوسف بن عبد المومن سنة ثمانية وخمس مائة أراد أن يجلب اليها الماء من قرية بليونش على ستة أميال من سبتة في قناة تحت الأرض على حسب ما فعله الأوائل في قناة قرطجنة، وشرع في عمل ذلك ثم اقتصر عليه، وعلى قرية بليونش جبل عظيم فيه القردة، عبر من تحته موسى بن نصير إلى

(1) ورد هنا كما عند البكرى أن محمد بن أبي عامر هو الذي بنى السور (إلى اخر القصة) وتقدم قبله بأسطر أن الباني ابنه عبد الملك. ولاتناقض في هذا فإن عبد الملك عبر الى المغرب كما تذكره التواريخ ولم تذكر لأبيه عبورا اليه فيكون بذلك بنى السور للمدينة المذكورة بأمر والده له في هذا البناء الذي صدر عنه.

ساحل طري ، وكان عليه حصن هدمته مصمودة المجاورون له، ثم بناه الناصر عبد الرحمن المرواني فهدموه ثانية، وتحته أرض خصيبة فيها مياه عذبة وعليه قرية تعرف بقصر مصمودة، ولها نهر يصب في البحر عذب. والبحر يحيط بسبتة من جميع جهاتها الا من جهة الغرب، فإن البحر يكاد يلتقي ولا يبقى بينهما الا أقل من رمية قوس، وبسبتة مصايد للحوت، ويصاد بها منه نحو مائة نوع، ويصاد بها التن ورقا بالرماح وفي أسنتها أجنحة تثبت في الحوت ولا تخرج، وفي أطراف عصيها شرائط القنب الطوال ولهم في ذلك دربة وحنكة، ويصاد بها أيضا شجر المرجان الذى لا يعد له مرجان، وبها سوق لتفصيله وحكه وثقبه وتنظيفه. قالوا وتظهر سبتة عند صفاء البحر من الجزيرة الخضراء، ولذلك قال بعض المتأخرين (وذكر أبيات بن مالك السالفة الذكر).

وأشمر المقيمين بها عديدة ومنها قرية «بليونش» التي قال فيها عياض أو ابن مجبر ؛

بليونــش جنــة ولكـــــن
طريقهــا يقطــع النياطــا
كجنــة الخلــد لا يراهــا
إلا الذي جــاوز الصراطــا

وسبق حنين اليانشتى إليها، وهو في مدينة بغداد.

ولعبد المهيمن الحضرمي في سبتة، وتخلص لمدح الوزير ا بن الحكيم في نهاية الأبيات المذكورة بالإحاطة :

سقى ثرى سبتة بين البـلاد ... وعهدها المحبوب صوب العهـاد
وجاد منهل الحيا ربعهـــا ... بوبله تلك الربى والوهـــاد
وكم لنا في طور سينائهـــا ... من رائح للأنس في اثر غاد
وعينها البيضاء كم ليلـــة ... بيضاء فيها قد خلت لو تمـاد
وبالمنارة التي نورهـــا ... لكل من ضل دليل وهـــاد
نروح منها مثلما نغتـــدى ... للأنس والأفراح ذات ازديـاد
في فتية مثل نجوم الدجـــى ... ما منهم الا كريم جـــواد
ارتشفوا كأس الصفا بينهـــم ... وارتضعوا أخلاف محض الـوداد
ويااللأيام ببنيولـــــش ... لقد عدت عنها صروف العـواد
أدركت من لبنى بها كلمـــا ... لبانة وساعدتنى سعـــاد
فنلت من لذات دهرى الـذى ... قد شيته وللأماني انقيـــاد
منازل ما ان على مبـــدل ... هاء مكان اللام فيها انتقـــاد

ثم تخلص في البيت التالي لمدح ا بن الحكيم.

سلوتها من ضمني بعدهـــا ... نادى الوزير ا بن الجكيم الجواد

وهكذا وكما سبق عن ا بن الخطيب فإن القاطنين بسبتة، من قومها والنازحين اليها، كانوا هائمين في حبها، مما جعلهم أكثر الناس اشادة

بوطنهم الخاص، ولا غرو فإن للحب مزايا عظيمة. تعد كيماء الأعمال الخالدة. ومنبعا ثريا للآثار الجميلة. وكانت سبتة قد نالت من هذا النصيب الأوفر، على حسب ما كان حبها متمكنا من شغف القلوب، وتقدم في التعبير عن ذلك ما صدر عن مالك ا بن المرحل المالقي الأصل، وعن ا بن خميس التلمساني، وعن حاكمها اليانشتي الأندلسي الأصل، ثم هذه الأ بيات التي اقتطفناها من قصيدة عبد المهيمن، ويستمر هذا الحب صعدا حتى المرحلة الأخيرة، وقد اقتحمت من قبل الأعداء فكان ذلك مسجلا في الكتا بين البلغة والاختصار، اللذين ألفا كلاهما. بعد سقوط المدينة، أقال الله عثرتها، ويأتي تلخيصهما بعد.

وشكرا للحب، فلولاه ما كان ا بن خفاجة شاعر الأندلس بحق، ولما كان ا بن الخطيب، رجل الأندلس الذى كان يلفظ نفسه الأخير، والذى من أجله سجلت معلمته، في نفح الطيب، كما حفظت مآثر عديدة لسبتة، من أجل عياض في أزهار الرياض، فالبلاد بأبنائها البررة، الذين يجدون دفء أحضانها فيهم، ويتفنون بذلك قائلين :

بلاد بها نيطت علي تمائمـــي وأول أرض مس جلدى ترا بهـــا

وبعد، نأتى بذكر من ترجموا في كتاب البلغة الذى تقدم ذكره، وهؤلاء المذكورون هم هكذا على التوالي :

أبو علي ابن رشيق الثعلبي المرسى الأصل، عالم مصنف بارع الخط، انتقل من المرية إلى سبتة، فولى قضاءها لأبي القاسم العزفي توفي سنة 696.

أبو عبد الله ابن هانىء اللخمي الشهيد السبتي، عالم مصنف بارع الخط، كان يقرىء بمسجد القفال بسبتة، استشهد بجبل الفتح سنة 733. (له لحن العامة).

أبو عبد الله بن عبد المنعم الصنهاجي السبتي حافظ للغات العرب، متفنن يقول الشعر، وفد مع أهل سبتة علي أبي الحسن المريني توفي سنة 750.

أبو عبد الله بن هرون الأموى السبتي، أستاذ المدرسة الجديدة بها، متفنن في المعارف يقرض الشعر، من مشايخه أبو عبد الله الكتاني توفي سنة 750.

أبو عبد الله ابن خميس الأنصارى الجزيرى الخطيب بجامع سبتة، مصنف بارع الخط متفنن شاعر، توفي بالوباء سنة 750 كسابقيه.

أبو عبد الله الزرعي الجدميرى السبتي التاريخي الحافظ المتصرف الشاعر البارع الوراقة يقع تاريخه في أربعين سفرا بأخبار العلماء يعاصره أبو القاسم التجيبي السبتي الراوية الرحالة، حسن الخط متقن للضبط يقول الشعر، توفي بسبتة سنة 730. كما كان يعاصره أخوه المكتب أبو

عبد الله بن حريث العبدرى، الفقيه المشارك الإمام بجامع سبتة، خلفه على الامامة أبو الحسن ابن وشاش، وتوفي هو بمكة بمسجدها قبل سنة 750.

وأبو الحسن المذكور، هو الفقيه الورع، كانت تشد اليه الرحال، وكان المفتى أبو الحسن الصغير يعظمه، فيمتنع من الافتاء لوجوده ويقدمه أبو عبد الله الغافقي السبتي ابن الشيخ القاضي الأستاذ النحوى أبي اسحاق شارح الجمل والأستاذ بالمدرسة القديمة الشارية توفي قبل سنة 750.

أبو القاسم بن عمران الحضرمي السبتي المقرىء الراوية المصنف العارف بالعربية، كان ناظرا لخزانة الجامع الأعظم في امامة ابن وشاش توفي سنة 750.

أبو عبد الله بن زيد السمار السبتي الفقيه المشارك الموثق المدرس بالمسجد الأسفل من زقاق أبي يحيى، ثم تزهد وصار يسمر الدواب توفي بعد سنة 750.

أبو محمد الزكندرى القاضي بسبتة والأستاذ بالمدرسة الجديدة منها، وهو مراكشي البلد، ولما صرف عاد إلى بلده، من شيوخ ابن أبي حجة.

وأبو مدعينة الذى كان يقرىء بمسجد مقبرة زجلو.

وابن اليكى الذى كان يقرىء بمسجد الغزالين، وكان يشترط ألا يحضر مجلسه الا من يكون شاعرا خطاطا، ولا يرتدى حلية الطلبة.

وابن قاسم النحوى الذى كان يقرىء بمسجد رحبة الوزان، حيث كان يدرس أبو بكر بن عبيدة شارح جمل ابن القاسم في سفرين.

وابن نبيل الحسابي، أخذ عنه علم الحساب من أهل فاس الشيخ أبو العباس ابن الشماع أحد أشياخ الشريف أبي بكر الحسني السبتي.

هؤلاء الأربعة كانوا في طبقة السابقين عليهم في الذكر، وبهم وبأخي أبي عبد الله الزرعي، تكون التراجم تامة في هذه المخطوطة التي نشرنا. وتأتي بعد هؤلاء الطبقة الثانية فيها :

أبو عبد الله ابن بيبش (1) العبدرى النحوى اللغوى الحافظ الراوية، أجازه ابن الخطيب وذكره في الكتيبة الكامنة وأتى بشعر له أقرأ بمسجد زقاق الفضل.

أبو عبد الله عامر الأنصارى أستاذ المدرسة الجديدة وخطيب جامع الربض الأسفل، كان إماما في العربية والأصول وغيرهما ناظما ناثرا توفي سنة 765.

---

1) هي في الاسبانية vives ترجم له في الاحاطة.

أبو عبد الله الجناتي الفقيه المفتى الحافظ القاضي بسبتة والمدرس بمدرستها بعد الأستاذ أبي عبد الله ابن عامر، توفي قبل عام 780.

أبو عبد الله الوادلاوى السعيدى الغمارى الفقيه المتفنن الشاعر، كان يدرس المدونة في مسجد مقبرة زجلو، توفي عام 772 ببليونش.

أبو محمد ابن مسلم الأنصارى القصرى، قاضي سبتة وأستاذ مدرستها وخطيب القصبة بها، فقيه مقرىء راوية كثير الاطلاع والاجتهاد توفي سنة 773.

أبو عبد الله الطرطوطي الحافظ المتفنن والفقيه المدرس بمسجد مقبرة زجلو وغيره اشتهر بالعدوتين، وتوفي خطيبا بربض مالقة حوالي سنة 767.

أبو عبد الله ابن المجراد الفنزارى السلوى الحافظ المحدث الراوية، انتفع به كثيرون منهم الخطيب أبو عبد الله ابن عدل السبتي توفي حوالي سنة 778.

أبو عثمان الصنهاجي الأنجرى امام المدرسة بها، كان فقيها مفتيا مقيدا مجتهدا، يدرس الفقه والحديث بمسجد القفال والجامع الأعظم توفي سنة 799.

أبو العباس التاميسي أستاذ المدرسة المذكورة. كان نحويا فرضيا حيسوبيا متفننا صدرا في سماط الموثقين بسبتة توفي بالطاعون سنة 792.

أبو العباس أحمد بن أبي الحسن علي الشريف الحسيني، كان نحويا مشاركا يقوم على اقراء ألفية ابن مالك قيما حسنا. ولأول مرة تذكر الألفية به فتكون بذلك الألفية قد درست بسبتة. قبل أن تدرس بفاس من قبل المكودى، الذى أحضرت اليه. فترك بها تدريس الكتاب لسيبويه.

أبو عبد الله المهنى، الشاعر النحوى المدرس بمسجد القفال، توفي بفاس أواخر المائة الثامنة. وقد بلغ من السن خمسا وتسعين.

أبو الحسن الأنجرى المدرس بمسجد مقبرة زجلو ومسجد زقاق الحرة وبجامع التبانين من الربض الأسفل، توفي بفاس سنة 714.

أبو عبد الله ابن الأصفر السبتي النحوى، كان يدرس لأولاد الكبراء بسبتة.

أبو سرحان الزواوى النحوى الأصلي المشارك في الفقه والفرائض، تصدر للاقراء بمسجد القفال، وتولى قضاء سبتة والتدريس بمدرستها توفي حوالي سنة 803.

أبو عبد الله البطيني اللخمي المكتب النحوى المقرىء بالمسجد المحاذى لزقاق أبي الفضل وبالمسجد الأعلى من زقاق ابن عيسى توفي عام 792.

أبو عبد الله العباسي الخطيب بجامع افراك وجامع القصبة، من بني العباس بن عبد المطلب، نحوى انتفع به كثيرون ودرس بمسجد عياض وحضر عليه المؤلف.

أبو يوسف يعقوب القصرى المجكي العارف بالقراءات السبع، والمدرس بمسجد القفال، توفي عام 812.

أبو العباس الشعار الأستاذ بمسجد مقبرة زجلو كان نحويا لغويا مقرئا شاعرا متفننا بارع الخط، حضر المؤلف اقراءه للتفسير.

أبو محمد قاسم بن أبي حجة الأنصارى أستاذ المدرسة الجديدة بعد أبي العباس الناميى توفي بفاس مغربا عن وطنه سبتة عام 802.

أبو القاسم محمد الأنجرى الفقيه الحافظ المدرس بمسجد القفال الفقه والحديث والعربية والأشعار وغيرها وتوفي عام 803 عن زمانة ومرض.

أبو العباس القباب الجذامى القاضي من أهل فاس، كان اماما في الأصلين قائما على الفروع، عارفا بالأحكام، تولى التدريس والقضاء بها توفي سنة 793.

أبو يحيى ابن السكاك العياضي القاضي شيخ المؤلف، كان إماما في الأصول وعلم البيان، الذى يذكر بها لأول مرة توفي فاتح سنة 800.

أبو يحيى الشريف الحسني القاضي من شيوخ المؤلف كذلك، كان إماما في العربية والقراءات السبع يدرس بالمدرسة الجديدة علوما شتى.

وكان من الأطباء :

الطبيب الماهر الأشهر أبو عبد الله الشريشي، كان أبو عنان يقول، اختصت سبتة بأربعة رجال يذكره فيهم، توفي عام 771.

الطبيب أبو عبد الله ابن مقاتل، كانت عيادته (حانوته) بالصفاح من مقربة رجلو، امام المسجد الكبير هناك، وتوفي عام 771.

الطبيب أبو عبد الله بن مبارك الأزدى تلميذ سابقه في الذكر توفي عام 791 لمرض ألزمه الفراش فكان يقسم أنه لن يعيش طويلا كما قال.

الطبيب أبو عبد الله الجياني، قدمه أبو العباس المريني ناظرا على البناء بسبتة، وتوفي اما في أواخر 789 أو أول عام تسعين.

الطبيب أبو عبد الله المعز الصنهاجي، كان إلى جانب طبه موثقا بسماط العدول، وتقدم في أعمال سبتة لأبي عبد الله النصرى توفي سنة 792.

وكانت العامة قد قامت على عامل النصرى يحيى بن شعيب الصنهاجي سنة 788 وحلعوا طاعته، فنهب منزل المترجم وغرب إلى فاس فتوفي.

الطبيب أبو عبد الله بن مروان المعافرى، تولى أشغالا بسبتة، كان آخرها أحباسها والنظر في الخزانة الشهيرة بالجامع العتيق توفي سنة 817، فتكون وفاته قبل سقوط سبتة في يد البرتغال بسنة واحدة، وكان الطاعون جارفا بها.

الطبيبة عائشة ابنة الشيخ الكاتب الوجيه أبي عبد الله ابن الجيار المحتسب بسبتة، قرأت الطب على الشريشي أدركها المؤلف وكان سنها نحو سبعين سنة، فتكون هذه الطبيبة قد قطعت عقدين أو ثلاثة من القرن التاسع، ان صح هذا التقدير والغالب انه ألف كتابه بعد الاحتلال الغاشم فإنه ترجم لمن أدركته الوفاة قبل ذلك بسنة، ونص هو على تاريخ الوفاة وإن لم يشر إلى هذا الاحتلال.

وبعد، فقد قال المؤلف بعد هؤلاء المترجمين :

وقد كان بسبتة في هذه الطبقة، جماعة من الأطباء والشجارين، سوى من ذكرناه، لم يبلغوا في العلم والمكانة مبلغ هؤلاء.

وكما سجل علماءها أحد الحضارمة الذين توارثوا العلم في أسرتهم كما نظن، فكذلك قيض لها أن توصف لهذا العهد وصفا شاملا، من لدن

ابن بار بها، وهو الأنصارى، أحد الأبناء والأحفاد من أسرة الأنصاريين في ظننا الذين كان لهم ذكر عريض في الحركة العلمية بسبتة بعد ما تفرقوا من موطنهم الأول سرقسطة في بلاد الثغر من الأندلس واستقر كثير منهم أخيرا في سبتة. والكتاب الذى سجل لنا سبتة لذلك العهد هو كتاب اختصار الأخبار، الذى أشرنا إلى تلخيصه كغيره والذى كنا قد أعدنا نشره منذ 25 سنة وفيه ما سيلقى لنا بعض الضوء على الأمكنة التي ذكرت بهذه التراجم فيما يلي :

منها مقبرة التوتة من الميناء شرقي المدينة، وبها قبر أبي زرعة الذى أدخل القرآن إلى المغرب، كما يقول أبو العباس العزفي راويا عن شيخه ابن عبيد الله، والمقبرة الكبرى بسفح جبل الميناء حيث قبر أبي الحسين بن أبي الربيع، وأبي عثمان بن حكم القرشي المحدث الأديب، وأبي عبد الله بن معلى القيسي صاحب المناسك، وأبي العباس الحسني الشيخ المقرىء، وأبي بكر يحيى بن محمد رزق العالم الورع وأبي العباس الدقاق الشيخ الولي، وأبي العباس بن أبي الخير الأنصارى، جد المؤلف من قبل أمه، وقبر أبي اسحاق المعروف بالتلمساني الأنصارى، صاحب رجز الفرائض ونظم السير، وأبي بكر بن عبيدة شارح جمل أبي القاسم، وأبي القاسم التجيبي، صاحب مستفاد الرحلة (تقدما) وأبي عبد الله ابن العد بن الرعيني صديقه، وأبي الفضل عبد الرحمن ابنه القاضي الخطيب، وأخيه أبي القاسم أحمد الشيخ النحوى العدل وابن عمهما أبي

عبد الله محمد وأبي عبد الله بن عدل الكتاني، وقبر السعيدى (المذكور سابقا) وأبي الحسن بن وشاش المجسكي (كذلك) وأبي محمد ابن مسلم الأنصارى القصرى (كذلك) وأبي عبد الله بن عدل الكتاني، والقبر الشاطر سمي بذلك لطوله، ويعتقد العامة أنه لسبت مختط سبتة وفي مقبرة المنارة وجد قبر ريحان الأسود المذكور بالتشوف، وقبر زينب العابدة، وأبي محمد بن عبيد الله (الذى تردد ذكره فيما سلف) حلاه بالشيخ الفقيه القاضي الخطيب البليغ الصالح الورع المحدث الراوية الناقد بقية المشايخ وآخر المسندين (وحق له ذلك)، وأبي عبد الله ابن الدراج الأنصارى الفقيه القاضي، وأبي العباس ابن الأزرق، وأبي عبد الله بن عبد المنعم الصنهاجي (تقدم كذلك بالبلغة) وأبي عثمان الأنجرى أمام المدرسة الجديدة (كذلك) وقبر تفاحة العابدة السوداء.

وفي مقبرة الحافة توجد قبور الشهداء، وفي مقبرة زكلو (زجلو) قبر أبي العباس العزفي، وبمقبرة المحلة، حيث نزل طارق، قبر أبي عبد الله محمد بن عبد الله الأموى السبتي، من أشياخ عياض، وبقبور الشهداء، قبر العجوز أم المجد مريم المسندة بالبقعة المحبسة على دفن من يموت من طلبة مدرسة والدها أبي الحسن الشارى.

وبالربض الأسفل، قبر أبي الربيع سليمان بن سبع العجميسى مؤلف شفاء الصدور، والقبر في صحن جامع التبانين (سبق ذكره كثيرا) وقريبا منه قبر أبي عبد الله ابن خرزوزة، وفي مقبرة الشريعة من

الربض الأوسط، قبر أبي عبد الله القرموني السبتي الصالح، وفي مقبرة الريض البراني داخل سور البحر المعروف بمضرب الشبكة، قبر أبي عبد الله بن مسعود العكى المعروف بابن الكنقز، وأبي الحسن بن القارى، وأبي محمد عبد الجليل الأوسى الأندلسي، نزيل قصر كتامة، وصاحب شعب الإيمان، وقبر أبي الحسين ابن الصائغ الأنصارى، وأبي الحسن المتيوى القاضي المدرس، وشارح رسالة ابن أبي زيد، وقبر أبي العباس القنجائرى، وأبي عبد الله بن صالح التجيبي الشيخ المحدث وأبي عبد الله بن سنان الاستجى، وفي مقبرة مضرب الشبكة البراني خارج الباب الأحمر، قبور الشرفاء الحسينيين، منها لأبي العباس الحسيني (أشاد به في أزهار الرياض كثيرا وكان ابن الخطيب ينزل في داره، وله مكانة عند المرينيين، ويعظمه السبتيون ويجلونه، وكان سخيا يهب ما يصطاد يوم مضربه للناس عامة) وأبي الشرف رفيع الجسيني التالي لكتاب الله (وهو غير السابق ذكره، فهذا توفي شابا) وفي مقبرة أحجار السودان، قبر أبي مروان عبد الملك بن محمد بن بشر القيسي اليحانسى (4)، وأبي عبد الله بن خميس الأنصارى الجزيرى خطيب جمعها (تقدم بالبلفة) وبالمقبرة الأخرى أيضا قبر أبي الحجاج المنصفى الأنصارى البلنسي.

4) وردت بالجيم وصوابها بالحاء OHANES في ولاية المرية، كما نص على ذلك تلميذي الدكتور فرنندو لاكرانخا في تحقيقه لكتاب «تحفة المغترب ببلاد المغرب» لأحمد بن ابراهيم بن يحيى الأزدي القشتالي وهو في كرامات أبي مروان اليحانسي. فهذا الولي الصالح يضاف إلى الصلحاء الذين كانوا بسبتة وتوفوا فيها ويذكر في روض القرطاس ان وفاته كانت سنة سبع وستين أي من القرن السابع.

ومن أشهر المزارات بمقبرة الولجة أول بزبج قرية المؤلف، قبور الشرفاء الحسنيين، نحو اثنى عشر قبرا، ثم قبر أبي عبد الله بن الحسن المكتب، ومن أشهرها بمقبرة الظهر المشرف على السوانى، من عدوة عين علي من القرية المذكورة قبر أبي عبد الله محمد بن موسى الحسيني.

وبمقبرة عين اللوز، من بليونش جماعة من الشهداء، استشهدوا يوم دخول النصارى عام 818 القرية المذكورة، وكان يوم الجمعة 3 شوال. وكان في يوم الأربعاء منتصف جمادى الأخرى دخول سبتة (وهذا مهم جدا، فالبرتغال بدأ احتلالهم من سبتة واستمر غربها).

ومن قبور الشهداء بمقبرة الجنتل من القرية المذكورة ثلاثة استشهد أهلها قبل الدخلة بسنتين.

وبعد ذكره للمقابر والأضرحة والمزارات مكتفيا بمشاهيرها، ذكر أن عدد المساجد ألف، من جملتها المدرستان، مدرسة الشارى والمدرسة الجديدة التي ابتناها أبو الحسن المريني، وهي كما قال تدل على شماخة الملك وعلو المقدار، وأعظم المساجد الجامع العتيق الذى أسهب في وصفه، وذكر أنه صنع منبره سنة 408، وكان صنع مقصورته العجيبة سنة 428.

أما الخزائن العلمية، فذكر أنها اثنتان وستون، كان منها قديما خمس وأربعون دون خزائن الأكابر وذوى الأقدار، مثل بني العجوز، أخذ

جدهم عن ابن أبي زيد جميع تواليفه، وتفقه عليه، وكالقاضي أبي عبد الله بن عيسى التميمي، من أشياخ عياض، والقاضي أبي عبد الله محمد ابن عبد الله الأموى (المذكور في المزارات من أشياخه، وأبي العباس العزفي، وفي زمن المؤلف كان تسع منها بدور الفقهاء والصدور كبنى القاضي الحضرمي، وبني ابن أبي حجة، وكان ثمان منها موقفة على طلاب العلم، أقدمها خزانة الشارى بمدرسته، وهي أول خزانة وقفت على أهل العلم بالمغرب، وأعظمها احدى خزانتي الجامع العتيق، بشرقي حصنه وبازاء باب الشواشين من أبوابه، لم يشذ منها فن، مع تعدد ما ألف فيه، ومن باقي الخزانات اثنتان بالمدرسة الجديدة، وواحدة بمسجد القفال، وأخرى بمسجد مقبرة زكلو، وهو في كبره يلى الجامع الأعظم وصومعته عجيبة، من بناء أبي القاسم العزفي، وهناك خزانة أخرى كانت بجامع الربض الأسفل.

أما عدد الربط والزوايا فسبع وأربعون، وكانت الربط محاذية للبحر شمالا وجنوبا، أعظمها رابطة الصيد، وتتصل بها دار يسكنها القيم بخدمتها، وقد أسهب في وصفها بالكبر وعظم البناء، وإلى جانبها رابطة أخرى وسطها قبر لجارية موحدية.

ومن الزوايا، الزاوية الكبرى التي ابتناها أبو عنان، بخارج باب فاس، أحد أبواب افراك للغرباء والتجار الجائلين وأسهب فيها.

ثم ذكر أن عدد المحارس ثمانية عشر، من المدينة إلى اثنى عشر ميلا خارجها، من ناحيتي البحر وما وراء ذلك إلى الريف وطنجة سوى الطالع الكبير، بأعلى جبل مينائها، المعروف بالناظور، ابتناه المرابطون حصنا للناظر الراتب، وبه قلهرة كبيرة (أصل الكلمة Calhora) بداخلها مسجد، وكان ذلك على يد قاضيها عياض، وكان يشرف على العدوتين إلى بادس من الريف وطرف القسيس من مالقة شرقا وإلى ما وراء طريف غربا إلى طرف شنيل من الأندلس.

وعدد الأزقة مائتان وخمسون، سوى ما دثر، وهي أزقة الخندق الكبير، عرف قديما بخندق ايمن وحديثا بخندق الدجاج.

والزقاق الأعظم من أشهرها وأشرفها، زقاق ابن عيسى (القاضي المتقدم) يضرب به المثل لأنه زقاق الأكابر، وهو فاصل بين شطريها، فيه أربعة وعشرون حماما، اثنان مبرزان، والباقي بدور السادة كالشرفاء والعزفيين، ومن الأزقة زقاق عياض، والقاضي أبي عبد الله من أشياخه، وتقدم ذكره، وزقاق ابن يربوع، وزقاق العزفي أبي العباس وأبي علي ابن الشراد، وأبي القاسم ابن الشاط، وكل تنغلق عليه دروب.

وعدد الحمامات المبرزة للناس اثنان وعشرون، أعظمها حمام القائد أبي علي ناصح، يسع المئين من الناس، وأسهب في وصفه.

ومن الحمامات حمام ا بن عيسى المذكور بزقاقه، وحمام حاكمها اليانشتي السالف الذكر، وحمام عيود بناحية الميناء يضاهيه. وبالقصبة عشرة، أبدعها حمام القصر، ثم قال إن بكل دار من د يار سبتة حماما ومسجدا، الا القليل، وكان اثنان منها ومسجد بمنزله.

وعدد الأسواق مائة وأربعة وسبعون، تختص المدينة بمائة واثنين وأربعين والأرباض الثلاثة العامرة باثنين وثلاثين، ومن أشرفها سوق العطارين، وسماط العدول، حيث المدرسة الجديدة، وكلاهما بجوفي الجامع الأعظم، والقيسارية خلف ذلك.

ومن أسواق الماكول والمطعوم والفواكه والادام وغير ذلك السوق الكبير، وسوق مقبرة زجلو من الجانب الشرقي للمدينة.

ومن الأسواق للآنية الصفرية، الخاصة صنعتها بسبتة دون غيرها، سوق السقاطين.

وعدد الحوانيت أربعة وعشرون ألفا، وكانت فيما مضى أكثر، كما قال :

وعدد التربيعات للقزازين والحرارين فقط احدى وثلاثون، أعظمها التربيعة التي بأسفل زقاق خطاب، وفي صحنها مسجد.

وعدد المنجرات المعدة لعمل القسى أربعون، ينسب بعضها لبني القنطرى وبني العاقل وبني ا بن غالب وغيرهم، وفي زمن المؤلف كان

خمس عشرة منجرة، أدرك من أشياخ الصناع بها أبا عبد الله محمد بن عبد الله الحسنى، وابنه أبا عبد الله محمدا، وأبا عبد الله محمدا المعروف بالعقدة، وأبا محمد عبد الله ابن الدليل وأبا الحسن العبادى، ومن أنبلهم وأبرعهم الشاب أبو عبد الله الشماني.

وعدد الفنادق ثلاث مائة وستون، وأعظمها الفندق الكبير المعد لاختزان الزرع، ابتناه أبو القاسم العزفي، وأفاض في وصفه.

يليه من الفنادق المعدة لسكنى الناس، فندق غانم، وهو قديم البناء، لعله من أيام المرابطين، كما قال، وأبدعها فندق الوهراني.

وعدد الأفران ثلاث مائة وستون، أكبرها الفرن الذى بأعلى زقاق ابن يربوع (المتقدم) وهو من بناء العزفي كذلك.

وعدد السقايات خمس وعشرون، أبدعها التي بطرف العطارين وأول سماط العدول وبازاء باب الشواشين من أبواب الجامع (كما تقدم).

ومن السقايات الخاصة بالدواب، سقاية جب الميناء، من بناء أبي القاسم العزفي، ومن ذلك سقاية القبة بالربض البراني.

وعدد الميضات اثنتا عشرة، منها الكبرى للجامع الأعظم بإزاء باب الزلاقة، أحد أبواب بحر أبي السول، وأحكمها بناء للمدرسة الجديدة.

وديار الأشراف أربعة، دار الأشراف على عمالة الديوان، أمام فندق تجار النصارى حيث الرحبة العظمى، وهي سبعة فنادق لهم.

ودار الأشراف على سكة المسلمين بقصبة المدينة.

ودار الأشراف على سد الأمتعة وحلها، وهي المعروفة بالقاعة، حيث تجار العطر.

ودار الأشراف على البناء والتجارة وما اليها.

وعدد المطامير لحفظ الزرع أربعون ألفا، ما عدا مخازن الفندق الكبير، والاهراء التي بالقصبة، وأحسنها ما كان في أعالي البلد كطالعة الميناء وفي اسناد الربى، مثل ربوة ظهر الغدير حذاء سمع الطير، وهي الأولى منها، والسابعة جنة اليانشتى شرقي المرقوب.

وعدد الطواحين مائة وثلاث، من أعظمها طاحونة السمارين، تليها طاحونة أبي السعد الحضرمي، وطاحونة مقبرة زجلو، وطاحونة أبي الحسن الشماع، وبغربي البلد طاحونة الزياتين، وطاحونة الحلفاويين، وطاحونة الكمادين، جميعها بمياهها.

وعدد الأرباض ستة، الثلاثة العامرة المتصلة بالبلد، والربض البراني، حيث الحارة، والكسابون، الذى هدم سوره أبو سعيد المريني من حافة الغدار الى مضرب الشبكة، وأفراك المدينة المحاذية له حيث القصر الملوكي لبني مرين، والميناء من الجانب الشرقي دورها ستة أميال، وبها زوايا ونبات ومشاجر وشعارى وغيرها.

وعدد الأبواب خمسون، منها الباب الأعظم المعروف بالباب الجديد، اكتنفته قلهرة عظيمة، قد استقلت على عشر قباب وأربعة عشر قوسا، وبابه الأوسط بين قلهرتين، والباب في السعة والارتفاع، يذكر أنه على شكل باب مدينة همذان، وعدد أبواب الغدر والخنيزرات وأبواب الستارات ومسالك السلوقيات ستة عشر، وأبواب الربض الرباني الذى هدم سوره خمسة، وأبواب أفراك ثلاثة، أكبرها باب فاس الذى بناه أبو الحسن على شكل باب السبع (من فاس الجديد) جملة ذلك أربعة وسبعون.

وعدد الحفائر أربعة، الحفير الكبير المحيط بالربض البراني، والحفير الفاصل بينه وبين الأرباض الثلاثة، من الشطابين إلى مضرب الشبكة، والحفير الهائل المعروف بالسهاج، الفاصل بين الأرباض والمدينة، وهو الذى عليه القنطرتان، قنطرة باب المشاطين وقنطرة باب الفرج، والرابع الحفير الفاصل بين جنة اليانشتى من الميناء وبين ما يلي ذلك من البلد، من العرقوب إلى باب الحلويين.

وعدد المصليات ستة، أشرفها مصلى المدينة، ومنها بأعلى حافة الغدار المصلى الملوكي المختص بسكان أفراك، صلى به أبو الحسن والأمراء وباقيها لأهل الارباض والقصبة، ثلاث منها بربوة أبي الفضل احدى ربى المنارة من الزماميين الحارسين بها نهارا.

وعدد المرامي المعبر عنها بالجلسات وأماكن السبق للرماة أربعة وأربعون، بالميناء تسع، منها جلسة الحفير المخصوصة بالقاضي والصدور، إذ الرمى طبع لأهل سبتة، ومعظم رميهم بالقوس المقارة، ومن هذه الجلسة الى الهدف مجال من مائة وعشرين خطوة، ومنها من أربع مائة خطوة، وأخرى من سبع مائة، وبالمنارة من داخل البلد اثنا عشر، سبعة من ألف وخمس مائة خطوة، ومن أبدع الجلسات جلسة بظهر خارج الملعب، وبالقصبة جلسة واحدة برحبة الزجاج، وبالأرباض الثلاثة سبع جلسات، وبالربض البراني جلسة، وبخندق القمل خارج الباب الأحمر جلستان، وبخارج باب فاس جلستان، وبجوف أفراك جلسة، وهذه وأخرى غيرها مختلفة المدى.

وعدد المقاصر خمسة وعشرون، وكلها تحت الأسوار والأبراج والأبواب، منها بالميناء ستة عشر، واحد بجانب القبلة وهو مقصر عش الغراب، وخمسة عشر بالجانب الجوفي من قالة الدنيقى إلى موضع «ماء يقطر» ولكل مقصر برج خاص تحط به الأمتعة ليلا وتنشر نهارا حتى تتم قصارتها وتتخلص، ومنها بساحة الحافة من داخل البلد ستة، والأرباض ثلاثة، وبقرية بزبج مقصر كبير على ساحلها، وعدد الغزلية تسعة عشر متصلة بمقاصر الحافة، وأماكنها ستة من جملتها قالة البسابس وقالة الصندل وقالة العين (كلمة CALA مسلك للماء ونحوه) وعدد المقبرات بخارج المدينة وداخلها ثلاث عشرة، مقبرة التوتة، مقبرة

الميناء، مقبرة المنارة تحتوى على ست، مقبرة ا بن الرامي، مقبرة الخواتم، مقبرة زكلو، مقبرة مسجد المحلة، مقبرة البلد القديم، مقبرة الشريعة، مقبرة الحارة، مقبرة مضرب الشبكة اثنتان وأحجار السودان اثنتان.

وعدد المراسي من طرف قب منت CABO MONTE شرقي جون فراطلة من بحر أبي السول إلى حجر الطفل القريب من قصر المجاز ثلاثون منها ، مرسى المدينة بحفرة مختار من بحر الرملة، يخاف فيها من الريح البراني سيما عند دار الصناعة، حيث مضرب الشبكة (لصيد السمك) وهي أمام باب الحلفاويين، وهو من أشرف مراسي المدينة.

وعدد المضارب والمصايد تسعة، أعظمها مضرب اويات، منها ما هو بداخل المدينة ومنها خارجها، وعدد المصايد التي وقفنا عليها - يقول المؤلف - مائتان وتسعة وتسعون، من طرف قب منت من بحر أبي السول إلى مرسى موسى بل إلى مجشر فرديوة على بحر الرملة.

بعد هذا يتعرض المؤلف لقرية بليونش، فيذكر عيونها وأنهارها وفواكهها ورياحينها ومشموماتها المختلف وغير ذلك مما لا حاجة اليه في بحثنا هذا، والا فإن المقام سيطول، ويكفي في وصفها وما قيل فيها من أشعار كتاب أزهار الرياض وقد زرتها وبها بقية من عمارة هي الآن في

اندثار، وكان على مدخل هذه القرية برج رأيته منذ عشرين سنة تقريبا ولكنه هدم فلم يبق له أثر، ولعل ذلك من طمس المعالم التي أقدم عليها الإسبان، كما هم مقدمون على طمس معلم مغربي هام داخل المدينة سبتة، هو السور الذى نشرنا صورته في مجلة تطوان قبل 25 سنة فهم الآن يلصقون به مباني يقيمونها ولا يمضي وقت حتى يختفي بها، من غير مراعاة لقداسة التاريخ والماضي المجيد.

تطـوان **محمد بن تاويت**

سبتة
مدينة رائدة في تاريخ الثقافة المغربية

د. محمد زنيبر

ميزة المدينة في المجتمع الاسلامي

تتجه معظم الأبحاث المعاصرة عن تاريخ الاسلام إلى إبراز **ظاهرة** أساسية وهي أن مركز الثقل في ذلك التاريخ كان يوجد في **الحاضرة** لا في البادية (1). وهو ما يؤكده لنا عدد من عناوين الكتب التاريخية التي ألفت قديما وحديثا مثل تاريخ بغداد لابن طيفور أو «تاريخ بغداد» للحطيب البغدادي أو «تاريخ دمشق» لابن عساكر أو «الإحاطة في أخبار غرناطة» لابن الخطيب الخ... ولم يشذ المغرب عن غيره من البلاد الاسلامية إذ نجد عناوين كثيرة من هذا النوع. ويكفى أن نذكر، على سبيل المثال، الكتاب المنسوب إلى ابن أبى زرع الفاسى،

---

1) R. Mantran : L'Expansion musulmane p. 269

والذي يحمل هذا العنوان : «الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس». فإذا تأملنا هذا العنوان نجده ذا دلالة واضحة : إن تاريخ ملوك المغرب الذى هو التاريخ السياسي للمغرب يقترن في ذهن المؤلف بتاريخ مدينة فاس. وإذا تصفحنا الكتاب. نجد المؤلف يتحدث عن المغرب ككل وعن أقاليمه الشمالية والجنوبية. لكن في لمحات وجيزة. بينما تظل فاس هي **المحور** الذي تدور عليه كتابته. وهي المرآة التي تنعكس عليها التطورات التاريخية والحضارية.

هذا هو الاتجاه الذي سار فيه أغلب المؤرخين. إن لم نقل كلهم. لكن. هل يعنى ذلك أن البادية في العالم الإسلامي لم يكن لها تاريخ ؟ هنالك عنصر أساسي يجب أن لا يغرب عن بالنا ونحن نواجه هذا السؤال : ألا وهو **النسبة الديموغرافية** التي كانت تتوفر عليها البادية في مجموع السكان. فنحن إذا رجعنا إلى التقديرات التي قام بها عدد من الباحثين والمؤرخين بالنسبة للقرون الأخيرة. بناء على معطيات ملموسة. نجد أن الحاضرة لا تحتضن الا خمس السكان بينما البادية تشتمل أربعة الأخماس الباقية أى ثمانين في المائة (2). فكيف يمكن أن نتصور أن تلك الأغلبية الساحقة كانت خارجة عن التاريخ. سيما ونحن نلمس حضورها في عدد من الأحداث كثورة الزنج بالبصرة. مثلا. أو التحركات القبلية بالمغرب. إلا أن مؤرخينا أهملوا. في الغالب. أخبار

---

2) قدمت تقديرات كثيرة من هذا النوع عن المغرب. مثلا

البادية ولم يتحدثوا عنها إلا لماما. لا لأن البادية لم يكن لها تاريخ، ولكن لأنهم، نظرا لعقليتهم والايديولوجية السائدة في وسطهم، اعتبروا أن ذلك التاريخ لا يستحق أن يكتب. ولنضف إلى ذلك، في نطاق تفسير هاته الظاهرة، أن الأغلبية الساحقة من المثقفين والمؤلفين كانوا ينتمون إلى الحاضرة، فكان لهم رأى مشوب، من الأساس، بنوع من **التحيز**. فإذا نبغ مؤلف بدوى مثل أبى على اليوسى، نجده يدافع عن البادية وسكانها. لكن الاتجاه العام في الأدب العربى لم يكن لصالح البادية. ويكفى أن نستحضر هنا «المقامة البغدادية» لبديع الزمان الهمذاني التي يسخر فيها من السوادى ويستجهله ويستغفله. أو أن نذكر بعض القصص من «ألف ليلة وليلة» التي تعطى عن البدو صورا لا تخلو من تحامل (3).

وبالجملة، نستطيع، من خلال دراستنا لعدد من النصوص الادبية والتاريخية أن نخرج باستنتاج عام يتعلق بموقف المثقفين المسلمين من البادية في تلك العصور المنصرمة وهي الاهمال والازدراء مما جعلهم يهمشونها في كتاباتهم، لا نستثنى من ذلك إلا **البداوة العربية** في الجاهلية وصدر الاسلام التي حظيت باهتمام خاص من لدن الرواة والاخباريين ورجال الأدب، نظرا لمالها من ارتباط أساسي بحدث ظهور الاسلام ونزول القرآن والحفاظ على اللغة العربية، مما جعل تلك البداوة

---

3) كما يستخلص، مثلا، من قصة «الملك عمرو النعمان وولده شركان...»

تحتل في «المتخيل الجماعى» صورة مثالية ومنزهة تختلف عن صورة «الواقع البدوى» كما عايشته أجيال المثقفين فيما بعد (4).

لكن هذا الموقف لم يكن خاصا بالمثقفين وحدهم، بل نجد أنه كان، في الواقع يسير مع **اتجاه رسمى** سارت عليه الدولة الاسلامية ونلمسه في عدد من الآثار المكتوبة التي بقيت لنا عن تلك العهود. فلنذكر، على سبيل المثال، مجموع الرسائل الموحدية التي نشرها «ليفى بروفنصال» إنها تشتمل على سبع وثلاثين رسالة معظمها موجه لجماعات مختلفة من المملكة الموحدية. لكن، ما هي تلك الجهات ؟ إنها مدن مثل مراكش وفاس وسبتة وتلمسان وبجاية وتونس وقرطبة وغرناطة وأشبيلية الخ... ولا نكاد نظفر بواحدة موجهة إلى جهة من جهات البوادى. الشك عندى في الرسالة الثالثة الموجهة من الخليفة عبد المومن إلى طلبة صنهاجة تاسغرت، وهي نص قصير صارم اللهجة يختلف عن النصوص الموجهة للمدن (5). وهذا لا يعنى، بالطبع، أن الدولة الموحدية لم تعر أى اهتمام للبادية. إنها، بالعكس، كانت تقيم لها وزنا كبيرا، سيما وقد كانت تستند إلى **عصبية** واسعة متركزة حول مجموعة من قبائل مصمودة المستقرين بالأطلس الكبير وسفوحه ووديانه. كما بين ذلك

4) كتب الأدب الكبرى كلها تنويه ببداوة الجاهلية، مثل الأغانى، والعقد الفريد. وعيون الأخبار، والكامل، والأمالى الخ...

5) مجموع رسائل موحدية ص 5

عبد الواحد المراكشي (6). ولا ننس كذلك اهتمامهم بتوسيع الرى في منطقة الحوز وما حققوه من تقدم بالنسبة لاسلافهم المرابطين في هذا المضمار (7). ونضيف إلى ذلك اهتمامهم بتوطين العرب في المغرب وكذلك قبيلهم من گومية. ومع ذلك، فكل هذا لا يذكر بالنسبة للجهود التي صرفوها للمدن من حيث الادارة والعمران والبناء الخ... تبقى، مع ذلك، ضرورة التنبيه إلى أن الموحدين والدولة الاسلامية، بوجه عام، كانت لهم سياسة تجاه البادية. ما هي تلك السياسة ؟ ما هي الأطوار التي مرت منها البادية ؟ هذا موضوع بحث جديد يفتقر بكل أسف، للمصادر، لأن المؤرخين المعروفين قصروا في الحديث عنها. فإذا انتقلنا، الآن، لتفسير **الأفضلية** التي أحرزتها المدن، نجد مجالا طويلا للكلام، ولكننا سنتحرى الايجاز ونحيل القارىء على دراسة سبق لنا أن نشرناها تحت عنوان «تراثنا الفنى... لماذا ؟» (8).

1 ـ كان هنالك صراع بين البداوة والحضارة في مجتمع الجاهلية. فجاء الاسلام، فاختار الثانية، لأن **القيم** الجديدة التي تتضمنها دعوته تتنافى مع أخلاق البداوة وتقاليدها، من عصبية، وتغليب القوى على الضعيف، ولجوء إلى الإغتيال والقتل عند نشوء الخلاف وغير ذلك من السمات التي عرف بها البدو والتي لخصها القرآن الكريم في الآية

6) في كتابه «المعجب» فصل خاص بالمصامدة وجماعة الموحدين.

7) PASCON : Le Haouz

8) مجلة «أقلام» اعداد 1، 2، 3 من سنة 1978. أنظر عدد 2، بالخصوص.

المعروفة «الأعراب أشد كفرا ونفاقا وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله».

2 ـ السيرة النبوية، التي سار الحكام المسلمون، فيما بعد، على هديها، أبرزت **الدور الأساسي** للمدينة في تسيير الدعوة الاسلامية وإقامة مجتمع اسلامي جديد. وهكذا اعتمد النبي صلى الله عليه وسلم على مدينة يثرب حين هاجر إليها فأقام فيها المؤسسات الإسلامية الجوهرية، وجعل منها حاضرة مركزية للدولة الإسلامية الناشئة. ومنها انطلقت الغزوات نحو البادية لتبليغ الاسلام إلى القبائل وحملهم على اعتناقه.

3 ـ في محيط جغرافي غلبت عليه أسباب الصراع والتناقض لوقوعه بين الصحراء القاحلة في الجنوب والأراضى المعتدلة في الشمال، مثل البقعة التي انتشر فيها الاسلام، كانت المدينة هي التي تمثل عنصر الإستقرار والإستمرار وتحافظ على كل القيم المجتمعية وتمسك بخيط التاريخ.

4 ـ العوامل العسكرية المقترنة مع الفتوح دفعت بالقادة المسلمين إلى الإستعانة بأمصار وأجناد، وهي عبارة عن مدن ذات وظيفة عسكرية مثل البصرة والكوفة وواسط ومرو والفسطاط والقيروان الخ... وقد أصبح لهاته المدن شأن كبير فيما بعد وتعددت أدوارها وظهرت إيجابيتها.

5 ـ من الظواهر المعروفة في تاريخ الاسلام أن كل دولة ذات طموح إلى المجد كانت حريصة على أن تبنى لنفسها حاضرة جديدة، شأن العباسيين مع بغداد والأدارسة مع فاس، والفاطميين مع القاهرة والمرابطين مع مراكش الخ... وتزداد تلك الحاضرة عظمة على قدر عظم الدولة فتصبح عنوانا لها ورمزا من رموزها (9).

مع ذلك، لم تكن كل المدن المستحدثة في الدولة الاسلامية على شاكلة واحدة، بل اختلفت نوعيتها ومهمتها، حسب الدور الذي قدر لها أن تلعبه. فهنالك المدن الصغيرة التي لم يكن يتجاوز أفقها الإقليم الذي توجد به فيقام بها سوق أسبوعي في الغالب. ونجد عنها أمثلة مختلفة في المغرب منذ العصر الوسيط (10). وهنالك المدن التي تقع كمحطات في طريق القوافل الكبرى. وهنالك المدن التي تقصدها القوافل بتجاراتها مثل سجلماسة وتيارت. وهنالك الموانىء مثل طنجة وسبتة وبجاية وتونس والاسكندرية. وهنالك الحواصر الكبرى التي اصطلحنا، اليوم، على تسميتها بالعواصم.

والمدينة، مهما اختلفت نوعيتها، كانت تقوم، على قدر أهمتها، بعدة أدوار نذكر منها، على الخصوص :

---

9) عن ازدهار المدينة في عهد الإسلام أنظر :
M. Lombard : L'Islam dans sa première grandeur p 121 – 147

10) البكرى : المغرب. يعطينا فكرة عن بعض الأسواق.

1 ـ **الدور السياسي** : فهي عاصمة للبلد كله أو لاقليم أو لدائرة صغيرة. ففيها مركز الحكم والادارة والقضاء. بل إن بعض المؤرخين اعتبر الدولة بالمغرب مقترنة في طور من أطوارها. فتحدث عن **المدينة الدولة** (11).

2 ـ **الدور الاقتصادي** : ففيها **انتاج** صناعي تقوم به الحرف المتجمعة في أسواقها ومعاملها وفيها مراكز للتجارة سواء بداخل المدينة أو خارجها في المنطقة المحيطة بها.

3 ـ **الدور الديني** : في المدينة توجد المساجد والائمة والعلماء والقضاة أى الأجهزة المادية والبشرية التي تضمن المحافظة على الطقوس الدينية وتساعد على نشر العقيدة بين كل فئات الشعب في المدينة وناحيتها عن طريق الدروس المبسطة والاحتفالات الدينية الموسمية.

4 ـ **الدور الثقافي** : قد يمتزج مع النشاط الديني، ولكنه يتميز بظهور طائفة ذات مستوى فكرى مرتفع، وظهور مؤسسات علمية وهيئة من كبار الشيوخ والمدرسين، وتنوع في المواد الدراسية (12).

أردنا بهاته المقدمة أن نبين المنزلة الخاصة التي حظيت بها المدينة في تاريخ الدولة الإسلامية، والتي تتجلى في تعدد أدوارها وهيمنتها على البادية والتي جعلت منها بالفعل، المحرك والمؤطر

---

(11) A. Laroui : Histoire du Maghreb p. 15.

(12) انظر مقالنا المشار إليه سابقا في مجلة أقلام. فهنالك معلومات ببليوغرافية كافية.

للحضارة الاسلامية في مراحلها المتعاقبة، ولعلنا سنلمس هاته الظاهرة بصورة أجلى حينما ننتقل من النظرة العامة إلى الدراسة الخاصة. فنركز عملنا في دراسة إحدى المدن التي كانِ لها شأن كبير في تاريخ الغرب الإسلامي : **سبتة.**

وسأكون مضطرا، نظرا لاتساع المادة، إلى الإلحاح على جوانب دون أخرى، رعيا للموضوع الذي آثرت أن أعالجه هنا وهو : كيف قدر لسبتة أن تصبح مركزا ثقافيا كبيرا في المغرب أثناء العصر الوسيط.

سبتة : تاريخ متقلب وحافـل

لعل خير من يلخص الوضعية التاريخية لمدينة سبتة هو الحسن بن محمد الوزان الذي خصص أسطرا قليلة في كتابه «وصف أفريقية» لهذا الموضوع، فاستطاع، مع ذلك، أن يخط فيها الاتجاهات الأساسية التي سارت فيها المدينة منذ نشأتها إلى سقوطها في يد البرتغال والتي يمكن تلخيصها في النقط التالية :

1 ـ كانت سبتة «مدينة عظيمة» في عهد الرومان فكانت «حاضرة موريطانيا كلها»، وقد اعتنى الرومان بها جيدا «فأصبحت مدينة متحضرة جدا وافرة السكان».

2 ـ في العهد الإسلامي، ظلت سبتة «تنمو باستمرار سواء فيما يتعلق بعدد السكان أو بشرف أرومتهم إلى أن صارت أجمل مدن موريطانيا وأكثرها سكانا».

3 ـ وتجلى نموها من حيث العمران في احتوائها لعدد من المساجد والمدارس، وازدهار العلوم والآداب بها، وتوفرها على كثرة من الصناع والعمال المهرة، وبالأخص في المصنوعات النحاسية «فكانت هذه الأشياء تباع كما لو كانت فضة، وقد رأيت بعضها في ايطاليا».

4 ـ ومن دلائل رفاهية سكانها، في رأي المؤلف، اشتمالها على «أملاك فخمة وديار في غاية الحسن، لا سيما في مكان يدعى بنيونس لكثرة ما غرس فيه من كروم».

6 ـ لكن جانب ضعفها يكمن في فقر باديتها، مما يجعلها في خصاص مستمر إلى الحبوب، وكذلك في قربها من شبه الجزيرة الايبيرية، مما يجعلها ثغرا معرضا، باستمرار، لهجمات الخصوم.

7 ـ وقد صدر من بعض الحكام المغاربة تفريط في حقها. وهكذا، نجد عبد المؤمن ينتقم منها «لأنها انحازت ضده، فاستولى عليها وخربها، وقضى على كثير من أشرافها بالنفي الدائم إلى مختلف الجهات». «كما أن ملك غرناطة، حينما استولى عليها، لم يكتف بتخريبها حتى أجلى أعيانها وأغنياءها إلى غرناطة».

8 ـ كل هذا أدى إلى تدهور المدينة وجعلها في حالة عجز حينما هجم عليها البرتغاليون بأسطولهم فاحتلوها سنة 1413/818. ويردف الوزان ايراده للحدث بهذا التعليق البليغ في إيجازه :

«وفر من كان بها، فدخلها النصارى دون عناء، ومكثوا فيها نحو ثلاثة أسابيع متوجسين خيفة من ملك فاس أن يأتي لنجدتها. لكن أبا سعيد (المريني) الذي كان ملكا على فاس آنذاك تخاذل ولم ينهض لاستردادها. بل بالعكس أتاه الخبر وهو في وليمة والناس يرقصون فلم يوقف الاحتفال» (13).

قد تكون الصورة التي قدم لنا الحسن الوزان قابلة للمناقشة في بعض النقط والجزئيات، ولكن النص، على العموم، يقدم لنا **العناصر التاريخية الأساسية** التي يجب أن تستوقف نظرنا ونحن نحاول أن نربط الحياة الثقافية بمدينة سبتة مع مسيرتها التاريخية في كليتها.

والملاحظ في هذا التاريخ المتقلب كما قدمه لنا الوزان هو أن سبتة، برغم ما اجتازته من أزمات وشدائد، حافظت في كل الأطوار على نشاط ثقافي كظاهرة **ثابتة** في مجتمعها. ولا يدخل في موضوعنا أن نتناول بالدرس مراحل ذلك النشاط ورجاله ومحتوياته في تفاصيلها. وإنما نكتفي بتقديم بعض الدلائل على استمراره إلى أن وقعت المدينة

13) الحسن الوزان : وصف أفريقية الرباط 1980 ص 245.

في كارثة الاحتلال البرتغالي. ومتى تمكنا من تقديم تلك الدلائل. انفسح المجال أمامنا لتفسير تلك الظاهرة.

إشكالية النمو الثقافي في المغرب الإسلامي

إذا انطلقنا من البداية أي من عهد الفتح الإسلامى، نجد القرون الثلاثة الأولى يشوبها الغموض من الناحية الثقافية. إذ لا تمدنا المصادر المتوفرة لدينا حاليا بمعلومات دقيقة في هذا الصدد. فلا نعرف أسماء الرجال الذين اشتغلوا في الحقل العلمي. بصورة خاصة. فهل يعنى هذا أنهم كانوا منعدمين ؟ لست اعتقد ذلك. صحيح أن المغرب تأخر نسبيا في انطلاقته العلمية بالنسبة لأفريقية والأندلس. ولكن هذا **التأخر الزماني**، حينما نتحدث عنه، لا نقصد منه الا العلم في مستواه **الاعلى**، مستوى التبريز والتأليف والإجتهاد. وأما المستوى **البسيط** الهادف إلى تبليغ تعاليم الإسلام لكافة الناس وتحفيظ القرآن، فقد كان موجودا منذ البداية إذا اعتبرنا أن الإسلام أخذ ينتشر منذ عهد الادارسة. وتلقى الإسلام في حد ذاته مرحلة أولى في العلم، بالمفهوم الإسلامي. ثم لا ننس أن **ممارسة** الشعائر الدينية كانت تقتضي وجود رجال ومؤسسات من مساجد وربط للعبادة ولمواجهة الفئات المعادية والدفاع عن دار الإسلام (14). والمصارد تشير إلى وجود سلسلة من الربط منذ عهد مبكر. كما

---

١٠) ابن حوقل.

كانت تقتضي وجود أئمة وقضاة أى سلطات ساهرة على قيام الحياة الدينية بمختلف مظاهرها ووظائفها.

فلم، يا ترى، لم تتجاوز المصادر المتوفرة لدينا حاليا الإشارة الوجيزة عند تعرضها لهذا الموضوع ؟ هنالك سببان رئيسيان :

1 ـ ضياع المصادر المهمة التي عنيت بهاته الفترة الأولى مثل «تاريخ أفريقية والمغرب» للرقيق القيرواني و«المقباس» لعبد الملك بن موسى الوراق وكتاب محمد بن يوسف بن عبد الله الوراق عن مسالك فريقية والمغرب وممالكها وغيرها من المصادر المطولة. ومن دون شك ن من جملة ما ضاع بضياعها معلومات مهمة عن الحياة الثقافية. ونحن ندرك ذلك بالمقارنة حينما نرى أن ابن أبي زرع الفاسي، مثلا، استطاع ن يحتفظ لنا بأسماء أئمة القرويين حسب تسلسلهم إلى أيامه، (15) في حين أن قائمة الأئمة الذين تعاقبوا بسبتة ضاعت، ولا نعرف الا البعض منهم. فنجد فراغا هنا وامتلاء هنالك، مما يحملنا على الإعتقاد أن جزءا مهما من التاريخ ما زال غائبا عنا.

2 ـ لا ينبغي، مع ذلك، أن نذهب بعيدا في مجال الخيال فنعتقد أن ما ضاع مهم جدا وأن هنالك كنوزا من العلم حرمنا منها. بل إن القرائن تدل على أن الرجال الذين اشتغلوا بالعلم في هذا الطور كانوا،

---

15) ابن أبي زرع : الأنيس المطرب دار المنصور 1973 ص 54 ـ 76.

على العموم، من مستوى بسيط. وهذا ما يفسر نوعا ما سكوت المصادر التاريخية أو شحها في شأنهم. ولعل أكبر حجة لدينا في هذا الصدد هو القاضي عياض الذي حرص حرصا كبيرا على ذكر علماء المالكية، حسب طبقاتهم، في كتابه «ترتيب المدارك». وبما أنه كان يعيش بين القرنين الخامس والسادس الهجريين، وأنه كان معتنيا بالأسانيد والفهارس، فلم تكن تغيب عنه أخبار الحركة العلمية في عهودها الأولى بالمغرب، وخاصة ببلده سبتة. وقد اجتهد بالفعل أن يذكر كل علماء المغرب، ولو لم يكن يعرف عن البعض منهم إلا النزر القليل. وكان له من التباهي ببلده، تبعا لموضة العصر، دافعا قويا لذكر رجاله والاشادة بهم. ومع ذلك، فقد جعلته النزاهة العلمية لا يقدم الا قائمة صغيرة عن علماء المغرب بالقياس إلى القائمتين اللتين قدمهما عن أفريقية والأندلس اللتين تحتويان على عدد كبير. ومن ثم نستطيع أن نستنتج بشيء من اليقين أن ما غاب عنا من أخبار الفترة الأولى لم تضع معه عناصر تاريخية ذات أهمية كبيرة من شأنها أن تقلب نظرتنا الحالية رأسا على عقب

مع كل ذلك، يجب أن نعير اهتماما خاصا للنشاط الثقافي الذي وجد في هذا الطور الأول، ولو كان من مستوى بسيط وابتدائي، لأن عليه ستبنى الأطوار التالية، أطوار الإزدهار والإنتاج. وانحصار النشاط الثقافي في مستوى من ذلك النوع له دلالته التاريخية، فهو يعني أن الحاملين لشيء من العلم في تلك الآونة صرفتهم عن التبريز والتأليف عدة **شواغل مستعجلة**، منها مساهمتهم في إقامة الدول الأولى بالمغرب

كالدولة الادريسية والعمل في دواليبها. ومنها، بالخصوص، تبليغ الدعوة الإسلامية للبربر الذين أقبلوا على الدين الجديد بحماس وكانوا في حاجة إلى من يعلمهم شعائره ومبادئه في السلوك والمعاملات والأخلاق. كل ذلك في بلد شاسع الأطراف، متعدد الشعوب والقبائل. ومما جعل هاته المهمة تحظى بأولوية على غيرها أن المغرب أثناء خطواته الأولى نحو الدخول في المجموعة الإسلامية. واجه عدة **ثورات** ونحل **مذهبية** من خارجية وبرغواطية. فكان لا بد له من مجابهتها بسلاح الفكر والدعوة إلى جانب محاربتها بسلاح القوة والجلاد. وطبيعي أن تكون الحركة الثقافية الأولى ذات صبغة شعبية، ولربما استعملت (16) فيها اللهجات البربرية حتى يتغلغل مفعولها في عامة الناس. وهو نفس السلوك الذي أخذ به المهدي بن تومرت في أوائل القرن السادس حين عمل على تبسيط التعليم الديني وكتبه باللغة المصمودية. ولدينا شهادات على أن اللغة التي كانت سائدة آنذاك بالمدن والبوادى هي البربرية بمختلف لهجاتها. فكان لا بد، اذن، أن يضطلع أولئك العلماء الأولون بتبليغ الدعوة بالأسلوب الشعبي، مساهمين في العملية الثقافية الكبرى التي تطلبت قرونا والتي اصطلح علماء الاجتماع على استعمال مفهوم **المثاقفة** لتسميتها.

16) يشير القرطاس، مثلا، إلى أن خطباء القرويين كانوا يختارون على أساس معرفتهم بالبربرية.

وبقدر ما تغلغلت تلك المثاقفة، أخذت **اللغة العربية** تبرز في المجتمع المغربي وتحتل مكانا اتسع شيئا فشيئا، على مر القرون. وعلى أي، فقبل بروز العربية بروزا كافيا، لم يكن مجال في المجتمع المغربي لذلك العلم اللامع بتحليقاته، الغنى بمصادره وأسانيده المتسع بأبوابه وفروعه، مثلما وجد بالأندلس المجاورة في أمد وجيز. ولم تكن هنالك مجالس وصالونات حافلة بالعلم والأدب يحضرها الأمراء والوزراء وعلية القوم، ويتبارى فيها العلماء حفظا وبديهة وبلاغة على غرار ما كان موجودا بالأندلس.

وما دمنا ولجنا باب المقارنة، فمن الضروري أن نفسر، ولو بإيجاز الفوارق بين الأندلس والمغرب في هذا الشأن، مع تجاوز القطرين واتصالهما. وهو ما يمكننا أن نجمله في العناصر التالية :

أ ـ اختلاف المشروعين الاسلاميين بين المغرب والأندلس

انتهاء الفتوح الإسلامية بعد امتدادها إلى اسبانيا وجزء كبير من فرنسا لم يكن يعنى أن الإسلام استقر نهائيا بكل ناحية من هاته الأرض الشاسعة التي يدعوها المؤرخون، أحيانا، **الغرب الإسلامي**، وإنما كان يعني، كما رأينا منذ قليل، بداية مجهود آخر في سبيل الدعوة للدين الجديد المنتصر. وقد صادف الإسلام بإسبانيا انتشار النصرانية بين سكانها، فلم يسعه الا التسليم بهذا الأمر الواقع تمشيا مع تعاليمه في احترام أهل لكتاب في أديانهم، واضطر أن يسلك مسلك الرفق والتسامح في الدعوة

لنفسه. وأقبلت. بالفعل طوائف كثيرة من الإسبانيين على الإسلام، وهم الذين دعو في كتب التاريخ : **المولدون**. لكن بقيت طوائف أخرى على دين النصرانية. وجاء وقت توقفت فيه حركة الدخول إلى الإسلام، وحدث نوع من **التوازن** بين الملتين. ويئس المسلمون من حمل بقية الإسبان على الدخول في دينهم، فلم يبق مجال للدعوة في شكلها المتحرك. وأصبح المشروع الإسلامي في الجزيرة الايبيرية لا يطمح إلى أكثر من **المحافظة على المكاسب** أي المحافظة على دولة اسلامية بالأندلس معززة بطائفة اسلامية ودعمها ماديا ومعنويا حتى تستمتع بالهيمنة السياسية (17). وهو ما تم في عهد الدولتين الأموية والعامرية.

فكان من الضروري، في نطاق المنافسة والمجابهة بين الملتين، أن يأخذ الإسلام وجها أكثر بروزا ولمعانا في الديار الأندلسية، وأن تتباهى الطائفة الإسلامية بكثرة علمائها وأدبائها وتعدد معاهدها ومدارسها وعظمة مساجدها وتنوع مجالاتها في ميادين الثقافة على اختلافها. وهكذا كان المشروع الإسلامي بالأندلس تابعا لما نستطيع أن نسميه ميزان القوى بين الطائفتين الإسلامية والمسيحية، مما دفع به إلى تأكيد نفسه على كل المستويات الثقافية والحضارية أى إلى أن يظهر في أحسن مظاهره وأرقاها.

---

17) يقدم لنا السيد عبد العزيز سالم في كتابه تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس تحليلات مهمة فى هذا الشأن، وبخاصة في الفصل الثالث عند تعرضه لدراسة عناصر السكان.

وأما في المغرب، فقد كان المشروع الإسلامي مغايرا كل المغايرة لما رأينا في الأندلس، إذ وجد أمامه ميدانا **بكرا** لا تطغى عليه أى ديانة لها صلة بالسماء وتعتز بكتاب مقدس. وإذا كان هنالك يهود ونصارى، فقد كانوا أقلية وسط أغلبية من السكان لم تكن لديهم عقيدة دينية مبنية على نبوة وتنزيل وجديرة بأن يتعصبوا لها. فكان ذلك مما سهل دخول عدد كبير منهم في الإسلام منذ الحملات الأولى للفتح، مصداق ذلك اشتراكهم في فتح اسبانيا مع العرب. ومنذ ذلك الحين، أصبح المغرب دار اسلام بكل معنى الكلمة وبدون منازع. فكان المشروع الإسلامي التاريخي في المغرب هو نشر الاسلام بين كافة السكان بعد أن دخل هؤلاء في الدين بصورة مبدئية. الشيء الذي اقتضى أن يتجه عمل العلماء بالأساس إلى الاتصال بعامة الناس وتبليغهم الدعوة بفرائضها وسننها، دون تقعر ولا تعقيد، أو لا إثارة مسائل الخلاف والنقاش. وقد بقى لنا نموذج من هذا التعليم المبسط في كتاب القاضي عياض «الاعلام بحدود قواعد الإسلام» لقد شعر الإسلام، منذ أول وهلة، أنه في أرضه بالمغرب، فلم يكن له منافس ولا مناوىء خطير، ولم يكن ثمه ما يدعوه إلى سلوك سياسة المظاهر، بل إنه احتفظ على نوع من البساطة متناسبة مع نوعية السكان ونمط عيشهم. وحينما نذكر العنصر البشري يبرز أمامنا فارق آخر.

ب ـ اختلاف البيئة بين المغرب والأندلــس

لم تكن البيئة المجتمعية متشابهة بين المغرب والأندلس في الفترة الأولى من دخول الإسلام إلى البلدين. وكان هنالك تفاوت نسبي لصالح الأندلس تنعكس آثاره في مستويات متعددة نخص بالذكر منها، الآن، ما يتعلق بالحياة الثقافية. ويلوح لنا ذلك بادىء ذى بدء في **الإرث التاريخي**. فكانت إسبانيا أكثر تحضرا من المغرب لأنها اختلطت أكثر بالحضارات المتوسطية، وبالأخص الرومانية منها: بحيث انتشرت فيها الاتينية وأصبحت لغتها من أقرب اللغات إلى اللاتينية. ويدخل في هذا الإرث تعدد **المدن** والقرى التي عملت على رفع المستوى الفكرى العام، مثل طليطلة وقرطبة وإشبيلية وإلبيرة وغيرها. وكتاب ابن سعيد «المغرب» فيه شهادة ناطقة عن تعدد المدن الأندلسية وتنوعها ورقيها إذ أبرز لنا مساهمة كل واحدة منها في الحضارة والعلم، نضيف إلى ذلك **تعدد العناصر البشرية** التي انتقلت إلى الأندلس عبر القرون، ناقلة معها بعض ما تعتز به من تراث. ومن بينهم يجب أن نذكر الايبيريين والسلتيين واللاتينيين واليونانيين والفينيقيين والقرطاجيين واليهود والوندال والقوط والعرب والبربر. مما جعل أحمد أمين يستنتج «وبذلك اختلطت فيها أروبا وآسيا وأفريقيا، وامتزجوا امتزاجا غريبا. وهذا هو ما يمثلها حتى الآن» (18).

---

18) ا. أمين : ظهر الإسلام 3/20.
إحسان عباس : تاريخ الأدب الأندلسي 1/9 ـ 65.

ثم لا ننس أن العرب القادمين من المشرق اعتبروا المغرب، في الغالب، **معبرا** نحو الأندلس وفضل الكثير منهم اجتياز بوغاز جبل طارق والاستقرار بالأندلس، حيث تكونت منهم جالية كثيفة بمدنها. وهذا لا يعنى أنهم كلهم أضربوا عن الاستيطان بالمغرب. ولكن الذي نريد أن نقول هو أن الأكثرية منهم آثروا الهجرة إلى اسبانيا. فكان أن انتقلت معهم بسرعة اللغة العربية والشعر والأدب ورواية الفقه (19). وحينما تأسست إمارة الأمويين القوية بقرطبة، طمحت إلى منافسة الخلافة العباسية ببغداد، فكان من جملة اهتماماتها رعاية الثقافة والعمل على تنميتها وازدهارها في سائر فروعها. فكان احتياج هذه البيئة الأندلسية إلى التبحر في العلم **ظاهرة مبكرة**. وكانت رحلات العلماء الأندلسيين إلى المشرق وقدوم علماء من المشرق إلى الأندلس بدعوة من أمرائها في بعض الأحيان. ولا ننس شغف الأندلسيين باقتناء **الكتب**. وخزانة الحكم المستنصر الأموي (350 ـ 366 هـ) من أشهر الخزانات عند المسلمين في العصر الوسيط. ولا ننس، أيضا، الدور الفعال الذي قامت به **المرأة** الأندلسية في هاته البيئة الناهضة. كما أن **طبقة العامة** في المدن كانت على درجة من الوعي قلما يتوفر في جهات أخرى (20).

فهل يمكننا أن نذكر للمغرب مثلا ما ذكرنا للأندلس في هاته النواحي المختلفة ؟ نعم، إلا أننا سنلاحظ **تخلف** المغرب بينا فيها. فمن

19) ع كنون : النبوغ المغربي بيروت 1/53.

20) إحسان عباس : ن. م : المقدمة.

الناحية السياسية، كان المغرب أضعف من الأندلس. ولم تستطع الدولة الإدريسية أن تكون في مستوى الدولة الأموية، مما جعل هاته الأخيرة تمارس نوعا من **الهيمنة** على جزء كبير من المغرب منذ عهد عبد الرحمان الناصر إلى قيام ملوك الطوائف. ثم إن الإرث الحضارى الذي كان يتوفر عليه المغرب، لم يكن من الكثافة والانتشار ما يجعل كفته في الميزان أرجح من كفة **البداوة**. وهو ما لاحظه ا بن خلدون منذ عدة قرون، حينما قارن بين الأندلس والمغرب في ميادين حضارية متعددة. ثم إن مدن المغرب في تلك الآونة لا يمكن مقارنتها بمدن الأندلس، لا من حيث العدد ولا من حيث الضخامة والكبر. فما أبعد فاس الإدريسية عن مدينة كقرطبة أو كأشبيلية ! ثم إن **الإمتزاج البشري** الذي حدث في المغرب كان أقل بكثير مما جرى في الأندلس ثم إن الجاليات العربية التي استقرت بالمغرب كانت، كما ذكرنا، قليلة، مما جعل الإحتكاك الفعلى بين العنصرين البربري والعربي ذا مفعول بطيء، وجعل المغاربة، برغم دخولهم في الإسلام يظلون في حالة **انطواء** بالقياس إلى جيرانهم من أهل الأندلس. ولطالما أشاد المؤرخون بشخصية المرأة البربرية، لكننا بالنسبة للعصر الذي يعنينا الآن لا نلمس أثرها في تنمية الحضارة. ولا نشك أنها ظلت تعيش على الهامش، كما يتجلى لنا ذلك في العصور التالية (21).

---

21) موضوع تطرق اليه شارل أندرى جوليان في كتابه «تاريخ أفريقيا الشمالية» ج 2 الدار التونسية للنشر ص 24 و25، عند حديثه عن الكاهنة.

وهكذا فالتفاوت يكمن بالأساس في كون طابع البداوة كان أغلب على المغرب في حين كان نصيب الأندلس من الحضارة أقوى.

ج ـ العوامل الظرفيـــة

العصر الذي ننظر إليه الآن من تاريخ المغرب لم يكن عصر استقرار وتوازن، بل كان عصر تحول وتأزم، إذ دخلت فكرة **الدولة والأمة** مع الإسلام، واصطدمت بالبنيات القديمة المرتكزة على **التوازن القبلي**، وسرعان ما بدأت الفكرة تزحف في أقاليم المغرب فتحدث كيانات سياسية هنا وهناك، وتثير صراعات وثورات. ثم لا ننس أن المغرب في القرن الثالث والرابع أصبح مسرحا لصراعات بين الفاطميين والأمويين وبين الإمارات الصنهاجية والزناتية. وكان شمال المغرب بالخصوص، يعاني من هاته الوضعية التي من الطبيعي أن ينعكس مفعولها السلبي على الحياة الثقافية. والعطاء الفكري لا يحصل الا مع الأمن السياسي والإستقرار الإجتماعي.

فمن الطبيعي، إذن، أن نجد الثقافة تنمو بسرعة في الأندلس، في حين تظل في مستوى ابتدائي بالمغرب. لكنها، كما رأينا، كانت تؤدى دورا ايجابيا، وتواجه متطلبات مستعجلة في المجتمع المغربي. وهاته الخطوات الأولى جديرة، مع ذلك، بأن تركز نظرنا في بعض عواملها التاريخية كما أشرنا إلى ذلك من قبل (22).

(22) في كتاب ع. كنون «النبوغ المغربي» إشارات مفيدة للأزمة التى اجتاز منها المغرب في تلك الآونة ج 50/1 ـ 56.

خصوصيات الشمال المغربي

لماذا قدر لسبتة أن تلعب دورا أساسيا في الثقافة بالمغرب أثناء العصر الوسيط ؟ للجواب على هذا السؤال لا يصح لنا أن نفصل سبتة عن **المحيط** الذي كانت تعيش فيه، بل يجب أن ندخلها في التطور الذي خضعت له المنطقة ونركز نظرنا في بعض عواملها التاريخية :

1 ـ **التوزيع الجغرافي** الذي خضع له المغرب في عملية المثاقفة أحدث، بالطبع، **تفاوتا** بين الأقاليم المغربية ذاتها. فقد كان اتجاه المغرب في تلك الحقبة التاريخية نحو **الشمال** أي نحو الساحل المتوسطي، ولم يكن نحو الغرب أي الساحل الأطلسي كما هو الشأن اليوم. يتجلى لنا ذلك في الحياة الاقتصادية إذ كانت أهم المبادلات التجارية، مثلا، تباشر من موانىء الشمال. كما يتجلى لنا في دور المنطقة الحيوي داخل شبكة **المواصلات** بالعالم الإسلامي. فمنها كان الإتصال المستمر بالأندلس التي كان لها لربما أكبر نصيب في تلك المبادلات. ومنها كانت تنطلق الطرق البحرية نحو الشرق ونحو موانىء المغربين الأدنى والأوسط، ونحو صقلية وايطاليا وجنوب فرنسا. وإليها كانت تتجه معظم السفن القادمة من تلك الجهات. فإذا ذكرنا صعوبة الملاحة بالمحيط الأطلسي بالنسبة لوسائل ذلك العصر، فهمنا بوضوح كيف أصبح الشاطىء المتوسطي هو المنفذ الرئيسي الذي استعمله المغرب في العصر الوسيط، مما جعل موانئه تكتسي أهمية أكثر من اليوم (23).

(23 M. Lombard : L'Islam dans sa première gandeur pp. 66 – 71.

وجاء حدث، تاريخي مهم زاد في تأكيد هذا الإتجاه وترسيخه، ألا وهو قيام دولة **برغواطة** بتامسنا. فنتج عن ذلك انشطار المغرب إلى شطرين أحدهما واقع بشمال تامسنا والآخر بجنوبها. كما أن البرغواطيين أصبحوا يسيطرون على جزء مهم من الساحل الأطلسي يمتد من مصب أبي رقراق إلى مصب تانسيفت، فكان من الطبيعي أن توجه الدولة الادريسية معظم اهتمامها إلى الشمال. ولا ننس أن عاصمتهم فاس تقع، أيضا، في منطقة الشمال بجوار أهم تجمع قبلي عرف بالناحية ونعني بهم **غمارة**. ولا يستفاد من هذا أنهم تخلوا عن الجنوب، وإنما أن وسائلهم التي لم تكن قوية ولا وفيرة جعلتهم يختارون بين مغرب «نافع» وآخر غير نافع. والمغرب «النافع» بالنسبة اليهم كان هو الأقرب إليهم جغرافيا، والأسهل انقيادا. ولا أدل على ذلك من كون الادارسة حينما عضهم الدهر بنا به وأصبحوا مضطهدين ومشردين اتخذوا من تلك المنطقة معقلا وملجأ. وأخبار الادارسة في الجنوب لا تكاد تذكر بالقياس إلى أخبارهم في الشمال كانت هنالك، إذن، **جاذبية طبيعية** نحو الشمال نجمت عن الفتح الإسلامي والربط بين المغرب والأندلس، من جهة، وكانت هنالك **ضرورات اقتصادية وسياسية وملاحية دفعت إلى نفس الاتجاه، من جهة أخرى. كل هذا جعل عملية المثاقفة** العربية الاسلامية تكتسي ألوانا مختلفة حسب المناطق. فهنالك جهات ظلت **مغلقة** ومستعصية مثل بلاد برغواطة التي واجهت الدعوة الإسلامية بالاعتراض والمقاومة، وإن كانت تأثرت نوعا ما وبصورة غير

مباشرة بالمد الإسلامي واضطرت للتعايش معه. وهنالك جهات أخرى رحبت بالدعوة الإسلامية، لكنها ظلت تعيش على تلقائيتها وبساطة ايمانها ولم يبذل فيها أي مجهود يذكر لنشر الثقافة العربية الإسلامية اللهم إلا ما جاء على يد بعض المتطوعين. ولعل المناطق الواقعة جنوب تامسنا وبالجبال الأطلسية تقدم لنا أمثلة عن ذلك. وهذا ما فسره لنا، بكل وضوح، فيما بعد، قيام الدولتين المرابطية والموحدية. وهنالك مناطق أخرى اتجهت إليها جهود صادقة ومركزة من أجل تلقينها الثقافة العربية الإسلامية، وتأتي في أولها منطقة الشمال بما فيها مدن فاس وسبتة وآصيلا والبصرة الخ...

2 ـ **التعريب** : نستطيع أن نقول أن عملية التعريب بدأت في المنطقة الشمالية قبل غيرها. وهذا العامل ناشىء من بعض الوجوه، عن العامل الأول، ولكن كانت له مضاعفاته الخاصة به. لكن يجب علينا، قبل كل شيء، أن نجتنب المبالغة والخطأ في التقدير ونحن نتناول هذا الموضوع، فلا نعمم، مثلا، ونقول إن المغاربة استعربوا في هاته المرحلة وكأن الحدث وقع دفعة واحدة بضربة من قضيب سحرى (24). بل يمكننا أن نتقدم بفرضية تستند إلى عدة قرائن، وهي أن **الاستعراب** بدأ في الشمال وتركز في المدن، بصورة خاصة. وإذا اعتبرنا ما قلناه آنفا من أن منطقة الشمال كانت أكثر احتكاكا بالفاتحين العرب وبالأندلس

24) كما ورد في عدد من الكتب التى ألفت عن تاريخ الأدب المغربى.

من غيرها. فهمنا كيف أقبل المغاربة القاطنون بفاس وطنجة وسبتة ووليلي وسلا على اللغة العربية كلغة دين وحضارة ودولة. شأنهم في ذلك شأن الإسبان الذين تبنوا العربية في الأندلس مثلا. والصبغة الدينية التي اكتستها العربية أضفت عليها من **القداسة** ما حببها لعدد من المؤمنين. ثم إن تأسيس عدة إمارات إدريسية بالشمال بعد انحلال الدولة الإدريسية كان له الأثر الفعال في نشر الثقافة العربية الإسلامية بالمنطقة.

3 ـ **جوار الأندلس** : من المعلوم أن الحياة الثقافية نشطت وتوسعت بالأندلس في عهد **مبكر** نستطيع أن نصعد به إلى أواخر القرن الثاني وبداية القرن الثالث. فإلى أى حد استفاد المغرب من جواره بالأندلس في هاته الناحية ؟ ليست لدينا أخبار وفيرة عن انتقال السكان بين العدوتين، ولكن يظهر أن الأمر كان عاديا بحيث لم يكن المؤرخون يرون ضرورة لتسجيله. وقد أصبحت هاته العلاقات وثيقة ابتداء من سنة 317، حينما أخذ الناصر يتصل بأمراء المغرب وزعماء قبائله ليوطد علاقاته بهم ويصرفهم عن التعاون مع الفاطميين بافريقية. ويفهم من كلام ابن حيان أن الاتصال كان سابقا نعهده وإنما أراد أن يؤكده وينميه. وهو ما يفهم من عبارة المؤرخ التالية : «فأرهف العزم وألطف الحيلة وابتدأ. ففتح ذلك بمخاطبة من تقدمت له بأسلافه، ملوك بنى أمية، من أمراء تلك البلاد وصلة أو ائتلفت بينهم آصرة» (25).

25) ابن حيان : المقتبس ج 255/5 وما بعدها نشر المعهد العربى الإسبانى بمدريد وكلية الاداب بالرباط.

كانت هنالك، اذن، اتصالات قبل القرن الثالث، ولكن المعلومات المفصلة منعدمة عنها. والمهم هو أن نسجل وجودها لنرى **التواصل** الذي كان بين العدوتين منذ القرن الهجري الثالث. وجاءت مبادرة الناصر في بداية القرن الرابع لتدعم ذلك الاتصال وتوسع مداه على الصعيد الرسمي. لكن الناصر لم يقف عند حد المكاتبة مع أمراء العدوة، بل سرعان ما اتخذ مبادرة ثانية حين استولى في سنة 319 على مدينة سبتة، وفي 320 على أصيلا وفي 324 على نكور ومليلة وجراوة. وكان لهاته المبادرات الجريئة نتائجها على مستويين.

أ ـ على مستوى الاقليم الشمالي : أصبح تأثير الأندلس **قويا ومباشرا**. فكان لا بد من استقرار قوات عسكرية أندلسية بالمنطقة لتدعيم الفتح، مما ينجم عنه إقامة علاقات إنسانية يومية بين عقليتين وحضارتين. ولست أشك في أن مغاربة الشمال كانوا يغبطون أولئك القادمين من الأندلس على مدى تقدمهم وحذقهم لأنواع من المعارف والفنون. وفي مثل هذا الاطار، يحصل الاتصال على **المستوى الشعبي**. ثم إن الناصر حرص على أن يضبط تلك المنطقة بواسطة **إدارة** مكثفة على النمط الأندلسي. فنجده، مثلا، يعين أمية بن إسحاق القرشي عاملا على سبتة، وهو من سادة الأسرة المروانية، وسبق له أن كان عاملا على كورة الجزيرة الموازية لسبتة من وراء البوغاز. وكان هذا العامل، على ما يظهر، طموحا قوى الشخصية. والجدير بالذكر أن الناصر حينما عينه

عاملا على سبتة احتفظ له بنفس المنصب في الجزيرة الخضراء، بحيث أصبحت منطقة البوغاز تخضع لارادة واحدة، الشيء الذي ساعد على التقارب، بل على التداخل بين العدوتين في عدة مجالات، نستطيع أن نذكر منها المجالات الادارية والاقتصادية والاجتماعية، والحضارية، بوجه عام (26)، وفي نفس المصدر، إشارة إلى تعيين عامل آخر على سبتة هو فرج بن عفير أحد زعماء الأندلس ورجالها الأشداء الذين تمرسوا بالحرب. وهنالك، أيضا، إشارة إلى تعيين قاض بسبتة هو حسين بن فتح الذي سلم سبتة إلى جيش الناصر. كل هاته الأحداث تبرز لنا بعض الظروف التي جعلت شمال المغرب يتلقى التأثير الأندلسي بصورة قوية ومباشرة.

ب ـ على مستوى المغرب، بوجه عام، وضع الناصر زعماءه وأمراءه في موقف **اختيار سياسي ومذهبي** في آن واحد. فهم إما مائلون إلى الفاطميين، مع ما ينجر عن ذلك من التقرب من مذهبهم الباطني، وعليهم حينئذ أن يتحملوا مسؤوليتهم في مواجهة الناصر بالعداء الكلي، واما واقفون في صفه لصد الهجوم الفاطمي، ولذلك، فعليهم أن يعلنوا عن اختيارهم بصراحة والتزام. وهذا ما يفهم من المراسلات المتبادلة بين الناصر ورؤساء المغرب.

26) ابن حيان : ن. م ص 288 وما بعدها.

ولم يكن الأمر سهلا بالنسبة لهؤلاء. فالمغرب في ذلك الظرف بالذات لم يكن قادرا على تحديد موقف واضح والالتزام به، نظرا لتشتت كلمته ومروره من أزمة سياسية حادة تمثلت في صراعات داخلية. وهنالك صعوبة ثانية، وهي أن المغرب لم يتعود الخضوع لسلطة أجنبية، والطريقة التي جاء بها الناصر إلى المغرب لم تكن تخلو من التهديد واستعمال القوة. وصعوبة ثالثة آتية من الناحية الدينية. فالاسلام السائد في المغرب هو نفس الاسلام السائد في الأندلس. وهو عامل يسهل التقارب بين البلدين، في حين يدفع إلى رفض الدعوة الفاطمية ومقاومتها. وإذا كانت الدعوة الفاطمية صادفت تيارا قويا من الرفض والمعارضة في عقر دارها، بأفريقية فما بالك بالجهات النائية عنها ! والواقع أن الدولة الفاطمية مدينة لقوة سيفها أكثر مما هي مدينة لقوة إقناعها من أجل قيامها وتوطيد كلمتها ونشر نفوذها بالمغرب.

ومهما يكن، فالوضع بمتنا قضاته كانت له انعكاساته على الحياة الثقافية، حيث دفع بالمغرب إلى تحديد اختياراته المذهبية وتأكيدها. وهو ما نلمسه في المراسلات العديدة التي دارت بين زعماء المغرب وامرائه و بين عبد الرحمن الناصر (27). فهذا الخير بن محمد بن خزر الزناتي المصاقب للعبيدين بالمغرب الأوسط ينعت أحد قادة الشيعيين في رسالة له إلى الناصر بالعبارة التالية «اليهودى عبد الرحمان ولد

27) عن هذه المراسلات يرجع إلى كتاب ابن حيان الآنف الذكر حيث أثبت عددا منها.

الشيعى مبدل الايمان». وهذا الأمير إدريس بن إبراهيم السليماني الحسنى يقول في كتاب له إلى الناصر : «قد انتهى إلى أمير المؤمنين سيدى مباعدتى للكلب السوء اليهودى الخنزير المبدل لدين رسول الله صلى الله عليه وسلم، المعلن للكفر، الجاحد للتنزيل...» (28) بل إن بعض الرسائل تطرح القضية المذهبية بكامل الوضوح والصراحة. ففي كتاب وجهه محمد بن خزر سنة 317، أى قبل نزول الناصر بجنوده إلى بر العدوة المغربية، وردت العبارات التالية.

والله، يا أمير المؤمنين، ما أعلم على وجه الأرض أحدا أعرف بما أوجب الله لك منى، لأنى ما قمت بدعوتك إلا تقربا إلى الله تعالى، وتوصلا إلى قتال كفار المشارقة بحقها وصدقها. فقد يعلم الله تعالى أنى لم أتعرض للمشارقة، أهلكهم الله على يدك، ما تعرضونى. كما أنى كففت زمانا عنهم قبل استحكام البصيرة فيك. فكفوا عنى ورضوا بذلك منى حتى رأيت أمرهم قد عم الناس شره. وقد حاولوا أن يبطلوا نور الإسلام بما كانوا به أهله. فاستخرت الله في جهادهم، وقمت أدعو ربى في جوف الليل بالتوفيق والتسديد، وأن يخير لى وللمسلمين في مناهضتهم ويكشف عنا ما أغمنا من غيهم وشرهم. وفكرت في إمام اعتلق حبله، وأكون على بينة من أمرى في الدعاء إليه. وقد تشبثت في حبال المسودة من بنى العباس واستدعانى أخى المقيم عندهم. بمصر، وأتتنى كتب

---

28) نفس المصدر.

تكين التركى، صاحبهم بمصر، في أول الأمر، يروم ثنيى إليهم واستجلابى نحوهم، فعصمنى الله من ذلك باتباع الحق، وأخذى برأى الناصح المرشد، وإصغائى إلى ما أوضح من الأمر، حتى علمت، يا أمير المؤمنين، أنك أحق الناس بالخلافة...» (29).

إن هذا النص، على قصره، يطرح أمامنا عدة نقط تاريخية. ويصعب علينا، بادىء ذى بدء، أن نتهم كاتبه بالمحاباة والمصانعة. فقد أشرنا إلى أن تاريخ كتابته يقع في الفترة التي كان أمراء المغرب يتمتعون بكامل حريتهم ويتعاملون مع الناصر معاملة الندللند. ويدل على هاته **الحرية** الصراحة التي يتحدث بها إلى الخليفة الأموى. فهو يبين له أنه لم يكن معه من أول يوم، بل حاول أن يعيش في سلام مع العبيديين، ثم اتجه بعد ذلك إلى الخلافة العباسية، لكن يظهر أن وضعها المتردى صرفه عن كل ارتياح إليها، ولذلك فهو لم يجد خيرا من الخليفة الناصر الأموى كإمام يستكين إليه ويضع يده في يده. ويؤكد أن هذا الإختيار لم يأت عفوا أو رهبة وإنما نشأ عن «استحكام البصيرة» أى بعد اطلاع وتأمل.

والمقاييس التي سار عليها في استعمال «البصيرة» هى مقاييس **دينية وسياسية** معا. فقد دفعته الظروف إلى اتخاذ موقف واضح من دولة نشأت بجواره. وبعد أن سالمها مدة، رأى سلوكها «قد عم الناس شره»

---

29) ابن حيان : ن. م ص 265.

لأنهم «حاولوا أن يبطلوا نور الإسلام». والاشارة واضحة هنا إلى كون ا بن خزر الزناتي يضع نفسه في معسكر **أهل السنة** ومن هنالك ينظر إلى تصرفات الفاطميين فيراها مخالفة للإسلام الصحيح، مما يدفعه إلى نعتهم « كفار المشارقة»، فيعبر عن عزمه في جهادهم. ومن ثم تكون الرا بطة التى ربطت بينه و بين الناصر هى **العقيدة السنية** التي كانت تسود أقطار المغرب والأندلس، وعلى أساسها اتجه باختياره إلى الناصر لأنه كان أقوى عاهل سنى في عصره. وهنالك را بطة أخرى ذات صبغة سياسية وهي أن الناصر لم يكن من **المشارقة** الذين استفزوا المغاربة فيما مضى بعدد من التصرفات الجائرة، بل هو من أبناء المغرب (ولو بالإكتساب) وهذا ما يحببه لأ بناء المنطقة.

إذا انتقلنا من الجزئيات الظرفية لنتأمل التطور التاريخي في اتجاهاته الكبرى، نستطيع أن نقول إن **الجانب المذهبى** اكتسى أهمية كبرى في الحرب الطويلة التي قامت بين الناصر والفاطميين. فعن تلك الحرب تمخض الاختيار النهائى الذى سار عليه المغرب في حياته الدينية. وليس هذا بالحدث الصغير في تاريخه، إذ ستكون له انعكاساته المستمرة في التطورات التالية. والذى جعل هذا الإختيار برسخ رسوخا سرمديا لا ينحصر في العاطفة الدينية المجردة، بل إن المغاربة شعروا أنهم يدافعون عن عقيدتهم الأصلية ضدا على عقيدة دخيلة تريد أن تفرضها عليهم بالقوة سلطة أجنبية فهذا **التحدى** التاريخى الكبير هو الذي جعل من اختيارهم قرارا حاسما.

لكن تحويل هذا القرار إلى الواقع اليومى الملموس كان يتطلب وجود **بنيات ثقافية** قارة في المجتمع المغربي ترعاه وتستخرج كل مضامينه وتمكن له السطوة الكاملة في المجتمع المغربى. وتتمثل هاته البنيات، أساسا، في **المؤسسات** الإسلامية، من جهة، وفي **هيئة العلماء**، من جهة أخرى. فأين توجد هاته البنيات بالصورة المكثفة والفعالة ؟

في المدينة طبعا. ومن ثم يبرز أمامنا بكل وضوح الدور الكبير الذي قامت به مدن مثل سبتة وفاس وآصيلا والبصرة ونكور الخ... في هذا العصر. كما تتبلور أمامنا المساهمة الكبرى التى قدمها شمال المغرب في هاته المعركة المذهبية التي تتميز عن غيرها من المعارك بكونها لم تكن ظرفية وسطحية. وبرغم ذكرنا لعدد من المدن، فإن سبتة تبقى لها مميزات في هاته المرحلة التاريخية المهمة. وهى التى سنعرض لها في بحثنا القادم.

(يتبـــع)

ســـلا **د. محمد زنيبــر**

من أصداء الحياة اليومية في سبتة المرابطية(•)

د. محمد ابن شريفة

1 ـ مقدمة :

يؤلف التراث الفقهي الشطر الأكبر في تراثنا المدون، وإن كثرة هذا التراث الواضحة، وتداوله الكثير، وانتشاره الواسع يدل على عناية المغاربة، في مختلف العصور، بالتراث الفقهي، ويعكس نزعة عملية وسمة واقعية، هما ـ في الغالب ـ من مميزات الذهنية المغربية، على العموم.

(•) تفضل الدكتور الأستاذ محمد ابن شريفة ـ مشكورا ـ فوافى هذا العدد الخاص ببحثين هما : «من أصداء الحياة اليومية في سبتة» و «تحقيق إسم سبتي : ابن بياع، لا ابن زنباع» ولارتباط هذين البحثين بموضوع هذا العدد، ارتأت «المناهل» أن تنشرهما معا.

وذلك لأن التراث الفقهي كان شديد الارتباط بوقائع الحياة العامة، ومشكلات الناس اليومية، وأقضيتهم الطارئة، ويمكن القول باختصار، أن عليه كان المدار.

ومن هذا التراث الفقهي فروع ، مثل النوازل، والفتاوي، والشروط والرسوم العدلية، والحوليات الحبسية، ومدونات الحسبة، أصبحت اليوم تثير اهتمام الدارسين، وتلفت نظر الباحثين، لما تشتمل عليه من فوائد قيمة تتصل بالحياة الاجتماعية والاقتصادية.

وقد كان عدد من المستشرقين تنبهوا إلى أهمية المؤلفات الفقهية في الفروع المذكورة، وما تنطوي عليه من قيم تاريخية واجتماعية واقتصادية. وعدوها في جملة الوثائق التاريخية، واعتبروها من المصادر الإخبارية.

ثم برزت العناية بهذه الفروع في العقود الأخيرة، فنشرت نصوص مختلفة، وأنجزت بحوث متنوعة، ومع ذلك فما يزال قسم كبير منها ينتظر العناية ويتطلب الاهتمام.

ومن هذا القسم كتاب : مذاهب الحكام، في نوازل الأحكام، الذي سنعتمد عليه في التقاط أصداء - ولو أنها بعيدة - من الحياة العامة في سبتة، وتسجيل أصوات - قد تكون خافتة - من أصوات الشارع فيها، وذلك بانتقاء نصوص من الكتاب المذكور مع التقديم لها باختصار.

إن هذا المؤلف الذي وصل إلينا ـ لحسن الحظ ـ هو من جمع القاضي أبي عبد الله محمد بن عياض، ولد قاضينا الشهير (1)..

وهو مؤلف قيم في موضوعه وطريف في بابه، ولعله أن يكون أقدم ما ألفه المغاربة ـ أو أقدم ما وصل إلينا مما ألفوه ـ في موضوع النوازل، فقد سبق فقهاء القيروان والأندلس إلى التأليف في هذا الموضوع، ومن أقدم ما ألف في ذلك «نوازل القرويين» ـ أي أهل القيروان ـ في إفريقية، ونوازل ابن رشد الجد وأبي الأصبغ عيسى بن سهل وابن الحاج القرطبي وغيرهم في الأندلس. أما في المغرب الأقصى فيعتبر هذا المجموع الذي بدأه القاضي عياض ورتبه وأكمله ولده من بعده أول ما ألف في هذا الشأن ـ فيما نعرف ـ وغير خاف ان كتب النوازل هذه تعد من مصادر التاريخ المغربي العام وانها تقدم فائدة كبيرة ومادة غزيرة للباحث عن الجوانب الاجتماعية والاقتصادية في تاريخ المغرب، وهذا علاوة ـ بطبيعة الحال على وظيفتها الفقهية وطبيعتها القانونية، وأصل الكتاب بطائق، كان القاضي يجمعها تحت عنوان «أجوبة القرطبيين» يقول ولده ـ وهو يعدد مؤلفاته ـ : «وكتاب أجوبة القرطبيين، رأيت هذه الترجمة بخطه ـ رضي الله عنه ـ ولم أجد لها عنده مبيضة، غير أني وجدتها في

---

1) انظر ترجمته في مقدمة تحقيقنا لكتابه : التعريف بالقاضي عياض، من منشورات وزارة الأوقاف.

بطائق، فجمعتها مع أجوبة غيرهم وأجوبته (2) مما نزل في أيام قضائه من نوازل "الأحكام في سفر (3)».

ويقول في مقدمة «مذاهب الحكام» موضحا أصل هذه النوازل ومبينا الظروف التي حررت فيها : «أما بعد، رزقنا الله وإياك من العمل ما يقربنا إليه، ومن الشكر ما يوجب دوام نعمائه والمزيد عليه (4)، فإن أبي قدس الله روحه ونور ضريحه، لما طال في خطة القضاء دوامه وساعدته لياليه وأيامه، نزلت إليه من الأقضية نوازل تحار فيها الأذهان والأفهام، ويبعد مأخذها من طرق القضايا والأحكام، فيحكم فيها بما يتجه عنده، ويبذل في ذلك استطاعته وجهده فيخالفه من يروم به اللحاق، ويحاول الركض معه في ميدان السباق، هيهات ! ليس كل من قرأ درى ولا كل من همز أجرى، فيريد انتصارا لما ذهب إليه، واستنصارا فيما يعتمد من المذاهب عليه، فيخاطب في ذلك من شهر من الفقهاء علمه، ووثق في نوازل الأحكام فهمه». ثم يذكر بعد هذا انه ألفى بعد موت والده سؤالاته على تلك النوازل والأجوبة على أسئلة سئل عنها فاتخذ من ذلك كله أساسا لهذا الكتاب الذي يقول فيه : «وجعلت كتابي هذا ديوانا يشتمل على جميعها وترجمته «بمذاهب الحكام، في نوازل

---

2) لم يتنبه ابن الخطيب والمقري إلى أن هذه الجملة معطوفة على ما قبلها واعتبراها كلاما مستأنفا، ومن ثم عداها كتابا مستقلا.

3) انظر : ص 118. من كتاب التعريف بالقاضي عياض.

4) في الأصل : اليه.

الأحكام» وربما ذيلت بعض تلك النوازل بما تقدم فيها أو في نوعها للقرويين والأندلسيين وغيرهم. والله يعصم بمنه».

تتألف النسخة الوحيدة التي وصلت إلينا من هذا الكتاب والمحفوظة بالخزانة الملكية بالرباط تحت رقم 4042 من 78 ورقة وهي منتسخة سنة 1081 هـ وقد تخللتها بياضات في مواضع عديدة وخطها ليس بالجيد. وفيها كثير من اللحن والتحريف ومع ذلك فالإفادة منها ممكنة.

يشتمل الكتاب على نوازل في الأبواب التالية :

الأقضية. الشهادات. الدعاوي والايمان. الحدود. الجنايات. نفي الضرر. المياه. الغائب. المريض. السفه. المديان المفلس. السمسار. الغصب. الاستحقاق. الوصايا. الأحباس. الصدقات. الهبات. النحلة. المتعة. العمرى. الاسكان النفقة. الوديعة. الرهون. الحمالة. الوكالات. المزارعة. الشركة. القسمة. الشفعة. الصلح. الاسترعاء. الأكرية. البيوع. القيام بالعيب. الصرف. العتق. المدبر. أمهات الأولاد. النكاح. العدة. الطلاق. الأيمان بالطلاق. الخلع. اللعان. الجنائز. كتاب الصلاة.

وفي هذه الأبواب المذكورة نجد فتاوي وأجوبة للقاضي عياض. وهي الكثيرة. وابن رشد الجد. وابن سهل. وأبي عبد الله محمد بن الحاج القرطبي. وأحمد بن نصر الداودي. وابن أبي زيد القيرواني. وأبي الحسن القابسي . وموسى ابن حماد. ومحمد بن اسماعيل. ومحمد بن

محمد القرشي، وابن الإمام، ويوسف بن أحمد، ومحمد بن حسون، وعبد الملك بن ميسرة، ومحمد بن سليمان وغيرهم..

أما مصادر المؤلف فيها فهي أوراق والده وكتبه الفقهية وغيرها ولا سيما «التنبيهات» «والمدارك» و «الاكمال»، ونوازل ابن رشد ونوازل ابن سهل وأجوبة ابن الحاج القرطبي، ونوازل القرويين، والحاكمة لابن العربي المعافري وغيرها.

وفي الكتاب فوائد تاريخية عامة لا بأس بها، بعضها يشير إلى، ما كان بين سبتة وبين غيرها من المدن المغربية من صلات تجارية بحرية في عصر المرابطين كهذه النازلة التي تصور حركة وسق الحبوب وتصديرها من مرسى مازيغن (الجديدة حاليا) إلى سبتة. (5) وبعضها الآخر يتعلق بخطط سبتة وقرية بليونش في عهد المرابطين، (6) .

ويمثل الكتاب كذلك الثقافة الفقهية لولد عياض لأنه كثيرا ما يلخص الأقاويل الواردة في كل مسألة ويرجح ويعقب بمثل قوله : قال محمد وقد يناقش كلام والده، ويفصل ما أجمله في جوابه (7).

وكتاب مذاهب الحكام استعمله المشتغلون بالقضاء والفتيا، وممن نقل عنه الونشريسي في المعيار وابن هلال السجلماسي في نوازله وغيرهما.

---

5) انظر رقم 3 في النصوص.
6) انظر رقمي 3،2 في النصوص.
7) انظر رقم 6 في النصوص.

ذكرت فيما سبق ان نوازل القاضي عياض من جمع ولده وترتيبه تأتي من حيث التسلسل التاريخي بعد نوازل أبي الأصبغ عيسى بن سهل (تـ 486 هـ) ونوازل أبي الوليد ا بن رشد الجد (تـ 520 هـ).

ولكنها باعتبار اتصالها بتاريخنا وارتباطها ببعض وقائعه الاجتماعية قد تكون أهم من المؤلفين المذكورين اللذين يهتمان بنوازل الأندلس، قبل كل شيء. وقد كتب لهذين حظوة كبيرة وانتشار واسع، فنسخهما المخطوطة متعددة ومتوفرة، وقد عني بدراستهما، ونشر أطراف منهما عدد من الدارسين، (8) كما رجع إليهما بعض المؤرخين (9).

بينما لم يصل إلينا من نوازل القاضي عياض إلا هذه النسخة الفريدة التي حفظتها الخزانة الملكية العامرة.

وهذه النوازل وان لم تبلغ في حجمها، ومحتواها، مبلغ نوازل ا بن سهل، ونوازل ا بن رشد، إلا أنها تمتاز عنهما بطابعها المغربي، وملامحها «الشمالية» على العموم، والسبتية على الخصوص، ويتجلى ذلك في النوازل التي تتصل بالبيئة البحرية السبتية مثل الصيد البحري، وكراء المراكب،

---

8) نشر باب مسائل الاحتساب من نوازل ابن سهل مع مقدمة بالفرنسية للأستاذ التهامي الازموري في مجلة هسبيريس 1973. وظهر أخيرا 3 أجزاء تتعلق باحكام أهل الذمة والقضاء الجنائي ومحاربة الأهواء والبدع، وكلها مستخرجة من نوازل ابن سهل مع دراسات للدكتور محمد خلاف. 1980 ـ 1981. كما نشرت نبذ من نوازل ابن رشد في مجلة معهد المخطوطات. 1958 انتقاها استاذنا المرحوم الدكتور عبد العزيز الاهواني، وللأستاذ برنشفيغ حولها دراسة موسعة، وكذلك دراسة د. إحسان عباس في مجلة أبحاث.

9) بروفنسال، تاريخ اسبانيا المسلمة، 3 : 214 ـ 432 وكان يطمع في نشرها.

وحركة الوسق، وكذلك ما يتعلق بالطابع الفلاحي كالري والسقي في بساتين بليونش، وهذا مع الميزة التجارية التي عرف بها ميناء سبتة.

وقد نجد في هذه النوازل أصداء بعض القرى (10) والمدن القريبة من سبتة مثل مدينة طنجة (11).

أما ما يتصل بأخبار العدوة الأخرى - الأندلس - فهو موجود فيما يورد من أجوبة الأندلسيين أو أسئلتهم التي كانت ترفع إلى القاضي عياض.

وقد وقفنا في هذه على الخصوص عند أجوبة للقاضي عياض على سؤال عن كنيسة بني فيها مسجد، هل تبقى أحباسها للمسجد أم تكون لبيت المال، وقد رأينا اثباتها مع النصوص الآتية، وهي وان لم يكن لها تعلق بسبتة، فإنها من ذيول واقعة من وقائع التاريخ المغربي في أيام المرابطين، ألا وهي إجلاء المعاهدين من نصارى الأندلس، لنقضهم العهد، وقد لحق الفقيه ابن رشد من أجل ذلك بأمير المسلمين علي بن تاشفين وشرح له أمرهم وأفتى بتغريبهم واجلائهم.

---

(10) منها نازلة استفتى فيها عياض في موضوع، امتناع بعض الفلاحين في احدى قرى بادية سبتة من دفع نصيبهم في أجرة الامام مع الجماعة لعدم تمكنهم من الصلاة خلفه بسبب تنقلهم بماشيتهم في المواضع الخصبة. ينظر كتاب الصلاة.

(11) في كتاب الصدقات نقف على رسمي تصدق وتوكيل لاحد أعيان طنجة أبي العباس أحمد بن عبد الله الخولاني الطنجي يتصدق على ولديه اسحاق وعلي بدار مع توكيل أبي الحجاج يوسف بن ابراهيم الكتامي، وفي الرسمين أسماء أعلام وأماكن بطنجة، وهما مؤرخان بعام أربعين وخمسمائة.

وأشير في هذه المقدمة الموجزة إلى أن هذه النوازل تتراوح بين الطول والقصر والايجاز والاطناب، وفيها فتاو طويلة جدا مثل فتوى الحلف بالطلاق الثلاث في كلمة، وفتاو مختصرة جدا كهذه :

«سؤال عن ذى الجاه يوكل خادمه.

الجواب رضي الله عنك في رجل عامل بلد، بينه وبين رجل خصام، هل لهذا العامل أن يوكل رجلا من خدامه وحشمه أم لا ؟.

الجواب :

لا يمنع العامل من التوكيل فيما ذكرت. قاله ابن عياض».

كما أكرر الإشارة إلى أن هذه النسخة الفريدة التي بين أيدينا لاتخلو من الاضطراب، والنقص، والبياض، ورداءة الخط، وسوء النقل، ومع ذلك فنحن نستفيد منها، ونحمد الله على وجودها على كل حال.

أما النصوص التي انتقيناها من الكتاب والتي يجدها القارئ بعد هذه المقدمة فإن الأول منها وارد في كتاب الدعاوي والايمان، ومن الواضح أنه يدور حول الشفعة وهي كما في حدود ابن عرفة : «استحقاق شريك أخذ مبيع شريكه بثمنه»، ولهذا النص أكثر من دلالة. فمنها التحايل الذي كان بعض الناس ـ وما يزالون ـ يلجأون إليه، ولا سيما حين يغريهم الطمع، ويعميهم الجشع، وصاحب هذه النازلة من الفقهاء، وهم أدرى من غيرهم بالحيل الفقهية واجرأ على اللجوء إليها أحيانا، ولكن تراجع هذا الفقيه السبتي المعروف ـ ولو بعد أن غلب ـ مما يخفف الأمر.

ومنها يقظة رجال الفتوى والقضاء وتنبههم إلى الحيل وعدم تساهلهم فيها. ومن المعروف أن الفقه المالكي ليس كغيره من المذاهب الأخرى في مسألة الحيل.

وتدل الوثيقة على ما يقع من بعض الفقهاء أحيانا من إيثار ومراعاة لاحد المتنازعين لقرابة أو زمالة أو نحوهما. ولهذا طلب الخصم الرجوع إلى فقهاء قرطبة. وعلى كل حال فقد ظل اعتماد أهل المغرب في الفقه على ما به العمل في قرطبة حتى عهد متأخر. الأمر الذي أغضب أحد فقهائنا فقال : ذهبت قرطبة وأهلها، و بقي في الناس جهلها.

و يدور النص الثاني، حول مشكلات السواقي والمياه التي تسقى بها لجنات، وتدور بقوتها الارحي، مما شهرت به قرية بليونش، التي فاقت شعب بوان فيما قيل. وقد كان لغط الناس يرتفع، وصياحهم يعلو، في جنبات هذه القرية، وكان للماء وتوزيعه، عند أهلها، عرف خاص، ونظم وأحكام مذكورة. والواقع أن هذا النص، وغيره في نوازل عياض، ليس إلا تأكيدا لما جاء في نصوص عديدة مثل اختصار الأخبار للأنصاري.

ومع ما عرفت به سبتة، من توفر المياه، فقد كانت تعرف أعواما من القحط، يخرج فيها أهلها إلى صلاة الاستسقاء، و يختلف فقهاؤها في مسألة تحويل الرداء، كما في نوازل كتاب الصلاة، أو يتشاجر أصحاب الجنات مع أصحاب الارحى كما في نوازل كتاب الصلح.

ومما يفهم من هذا النص، رجوع المحتسب إلى القاضي، وتعاونه معه، على إيقاف من يضر بالصالح العام، والقيام بما يلزم في شأنه. كما أن النص يتضمن إشارة إلى تطاول أصحاب السلطان، وخوف الناس من الاعتراض عليهم في عهدهم.

أما النص الثالث فهو مفيد وطريف، لأنه يشير إلى النشاط التجاري البحري، في عهد المرابطين، وينص على حركة الوسق بين الثغور المغربية الأطلسية والمتوسطية. ويستفاد من هذا النص عدة مسائل، منها تأكيد شهرة إقليم دكالة بإنتاج الحبوب، والتنصيص ـ لأول مرة فيما يبدو ـ على حركة الوسق في مازيغن (الجديدة حاليا)، وقد ظلت الحبوب تحمل من دكالة إلى سبتة بعد ذلك. ونشأت مع هذا صلات ثقافية وروابط روحية بين سبتة وبعض مدن دكالة مثل تيط وأزمور على الخصوص وذلك في عهد ابن خلاص والعزفيين. وكان لهؤلاء اعتقاد حسن في الامغاريين أصحاب تيط. ويشهد لما ذكرناه ماورد من إشارات في بهجة الناظرين لابن عبد العظيم الازموري والروض المعطار للحميري.

والنص الرابع نموذج لرسوم ذلك العهد، وفيه كما يرى القارئ لحن لا نعرف أهو من الناسخ الردىء أم هو مما يقع لبعض العدول، وأبقينـــا عليه ليكون دالا على أسلوب التوثيق في هذا العصر؛ وقد حفلت هذه الوثيقة بأسماء الاعلام والأماكن السبتية، والألفاظ الاصطلاحية المغربية .

وشرحنـا معظـم ذلك في الحواشي، وغني عن الإشارة أن هذا الرسم يقدم كذلك مثالا قديما لتقاليد بعض العائلات العريقة والكبيرة، من التحبيس على العقب، ومما يلفت النظر في نوازل كتب الوصايا، والأحباس، والصدقات، والهبات، في هذا المجموع شيوع الوصية بالثلث على المساكين، وتحبيس المرافق والمنافع على المحتاجين، وكل ذلك يظهر الروح الدينية في تلك البيئة السبتية الخيرة، وفي هذا الرسم الإشارة إلى «جنان المساكين» و «حانوت أحباس المساكين».

ويقدم النص الخامس وثيقة تتعلق بنازلة نزلت في عهد القاضي عياض، وهي مثل الوثيقة السابقة تتصل بعائلة سبتية كبيرة ومعروفة وغنية. وزيادة على الفوائد التاريخية التي يشتمل عليها عقد الاسترعاء المذكور، فيما يخص أسماء الأماكن والاعلام، فان فيه فوائد أخرى مثل اتخاذ الأسر الغنية النبيلة في سبتة خادمات علجات أي نصرانيات اسبانيات في الغالب.

والوثيقة تفضح بصراحة تصرفات بعض الوكلاء، وتعسفات بعض المشرفين والأوصياء، وخراب ذممهم وموت ضمائرهم، وهذا داء قديم وبلاء أبدي سجله أحد الشعراء الأندلسيين وهو يحيى الغزال في هذه الأبيات الساخرة :

يقول لي القاضي معاذ مشاورا ووَلى امرءاً فيما يرى من ذوي الفضل
فديتك ماذا تحسب المرء صانعا فقلت : وماذا يصنع الدب في النحل
يدق خلاياها ويأكل شهدها ويترك للذبان ماكان من فضل

ويمثل النص السادس لما كان يقع - وما يزال يقع أحيانا - من ظلم للمرأة - حتى من أقرب أقربائها - واهتضام لحقوقها، واستغلال لسذاجتها - يومئذ - كما يقدم، من جهة ثانية، صورة ناصعة لانصاف الفتوى، وصرامتها في الحق، ولا شك في أن مسرح هذه الحادثة كان في سبتة وان لم تذكر ولم يسم أشخاصها في الوثيقة. وفي الفتاوي المتعلقة بالمرأة من هذا المجموع حرص بالغ على رفع الضرر عنها، كما يتجلى في نوازل الحضانة التي ألف فيها القاضي عياض تأليفا مستقلا (12) اتى فيه على جميع معانيها وفصولها (12) وله فيه كلام جميل في شرح معنى الأهلية فيها (12).

والنص السابع عبارة عن نسخة عهد، من أحد أعيان سبتة الموسرين، وقد كان صهرا لعائلة الصدفي الكبيرة التي تقدم ذكرها، وهذه الوثيقة تصور كيف كان السبتيون يجهدون في حصر ميراثهم في ذريتهم - ولا سيما إذا كانت الذرية من البنات - خشية أن يشركهم الورثة ويدخل معهم العصبة.

وقد أجاب ابن رشد الجد على السؤال الوارد في هذا النص بأنه إذا ثبت العهد بعد موت العاهد، فلا يجوز ماتضمنه من الاقرار لابنته، ويكون ذلك ميراثا بين جميع ورثته.

---

12) تراجع ورقة 68 من المخطوط.

أما النص الثامن والأخير فقد أثبتناه، وإن لم يكن له تعلق بسبتة، نظرا لفائدته في الدلالة على أحوال المعاهدين من أهل الذمة في عهد المرابطين، وقد ساق ابن الخطيب في مقدمة الإحاطة (13) خبر المعاهدين ونقضهم العهد، باستدعائهم الفونسو إلى مملكة غرناطة، وقدومه وحصاره وتنقله في مجيئه ورجوعه، وما كان من لحاق ابن رشد بالأمير علي بن يوسف بن تاشفين، وشرحه أمر الأندلس له، وافتائه بتغريب المعاهدين واجلائهم (14) .

ويقارن ما في جوابي القاضي عياض، بما ورد في نوازل ابن سهل ومسائل ابن رشد في الموضوع.

والنص التاسع يتضمن الخلاف بين مدعى الحق في الارث وصاحب المواريث ـ كما تكرر في هذه النوازل ـ أو أبي المواريث كما كنا نقول إلى عهد قريب، وقد أفتى ابن الحاج في هذه النازلة بأنه ان توافق القائم مع صاحب المواريث فحسن وان تعذر فتوقف التركة حتى يستظهر القائم بما هو أوضح لأن ما استظهر به من مضمن العقدين لا يبلغ مبلغ الحكم بالميراث .

أما النص العاشر والأخير فهو بالرغم من قصره واضح الدلالة فيما كان قديما من عدم وصول الإدارة إلى المواطنين في جبال الأطلس

13) الإحاطة 1 : 106 ـ 114 الطبعة الثانية.

14) المصدر السابق والمراجع المشار إليها.

الكبير والفراغ الذي كان يشكو منه الناس هنالك، وقد كان لذلك عواقب سياسية معروفة لدى المؤرخين.

وأذكر في آخر هذا التقديم الخفيف أن في الكتاب نوازل أخرى تتعلق بسبتة في عهد القاضي عياض في الأغلب، وهي متنوعة، وتقدم مادة طيبة في معرفة الأوضاع العامة بهذه المدينة خلال عصر المرابطين (15)، ونرجو أن يسهل الله نشر هذا الكتاب مع دراسته دراسة شاملة.

2 ـ نصوص :

ـ 1 ـ

ورأيت بخط أبي ـ رضي الله عنه (16) ـ أن يحيى بن تمام، الفقيه السبتي (17)، اشترى حصة حمام، كان لرجل يعرف بابن اللونكه

15) أشير إلى نوازل في الخلاف بين شخص من سبتة يدعى الرميلي وسعد صاحب سكة الجزيرة وغرناطة، وشهادة متعاطي الكيمياء، والحكم فيمن قال لرجل ينتسب أمويا : اثبت حريتك، والمرأة التي ادعت الغصب، ومن ادعي عليه بالقتل فشهد فيه بالعفة، والرجل الذي غاب ستة أعوام فأخذ له الناظر في المواريث سبع بقرات والخلاف حول العقار، والخلاف بين أصحاب السفن والمراكب، والخلاف بين ملاكين من قرية المتنان وغيرها.

16) ساق القاضي عياض هذه المسألة في ترجمة أبي عمر ابن المكوي من المدارك، ونصها : «ومنها مسألة وقعت ببلدنا سبتة وهي إذ ذاك من عمل صاحب الأندلس وذلك أن الفقيه يحيى بن تمام من أهلها اشترى حصة من حمام فيه شريك، وأشهد البائع لابن تمام في الظاهر انه تصدق به عليه، ليقطع شفعة الشريك فقام الشريك بشفعته، فأفتى الفقهاء بها إذ ذاك كلهم بقطع الشفعة، إذ لا شفعة في الصدقة، فقال الشفيع للقاضي : لا أرضى إلا بفتوى فقهاء الحضرة بقرطبة فرفع إليهم السؤال على وجهه وبدأ بالشيخ أبي عمر فوقع أسفلها : هذا من حيل الفجار وأرى الشفعة واجبة، فلما رأى ابن تمام جوابه قال : هذا عقاب لايطار تحت جناحه والحق خير ما قيل، هات مالي وخذ حمامك» المدارك 3 ـ 4 : 639 (ط. بيروت).

17) ترجم به القاضي عياض في المدارك وذكر أنه كان من فقهاء سبتة مشهورا بالعلم بها. قال : وهو صاحب مسألة الشفعة في الصدقة. المدارك 3 ـ 4 : 630 بيروت).

(18) فيه حصة. فخاف ابن تمام أن يشفع عليه. فأشهد له البائع بالصدقة. فقام ابن اللونكه بشفعته. فدافعه ابن تمام بالصدقة. ورفعه إلى القاضي بسبتة القباعي (19) فأفتى والفقهاء معه أن لاشفعة في الصدقة. فرفع ابن اللونكه أمره إلى الحضرة بقرطبة. وكتب إلى أبي عمر ابن المكوي بصورة المسألة. فكتب بخطه في أسفلها : «هذه من حيل الفجار. وأرى الشفعة واجبة» فنفذ وأخذ الشفيع بشفعته (ورقة 13).

- 2 -

سؤال عن الماء في المحجة والسقاية به. ومن أحق به. الارحى ؟ أو الجنات ؟ وهل يعقل ؟ أم لا ؟ وأين يصرف إذا أوجب عقله ؟ وهل يحل عقله باستغناء أحد المتخاصمين عنه ؟ وهل الحكم فيما يقضى على ما غيره انبعث بعد الحكم أم لا ؟.

أشهد القاضي بسبتة وأعمالها. عبود بن سعيد (21). أن محتسبا قام عنده. فذكر له أن عبد السلام بن فلان. أجرى الماء المعروف بماء السياح

---

18) اللونكه أو اللونقه كلمة عجمية معناها : الطويل.

19) هكذا في الأصل. ويوجد أبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد بن عمر بن سليمان الغافقي القباعي من الجزيرة الخضراء. كان حيا بعد السبعين وخمسمائة. أي بعد تاريخ هذه النازلة بكثير. فلعل القباعي في النص من افراد هذه العائلة الخضراوية. انظر الذيل والتكملة 6 : 39 - 40 والتكملة : 519.

20) كان شيخ فقهاء الأندلس في وقته أي في العهد العامري له ترجمة مطولة في المدارك 3 - 4 : 635 - 642.

21) لم أقف على ترجمته. ولعله المنسوب إليه حمام عبود بسبتة الموصوف في اختصار الاخبار : 38.

(22)، بموضع كذا، على محجة المسلمين، وحفرها وأضر بالمارة بها، وأظهر إليه عقدا نسخته : يشهد من تسمى أسفل هذا العقد، من الشهداء أنهم يعرفون الماء المعروف بماء السياح، من قرية بليونش (23)، لا يعدو جنان ابن هذيل، وأنه لم يجر قط في المحجة الممرور عليها إلى الأرحى، وإنما أحدثه عبد السلام، وأن هذه الطريق قد أفسدها الماء، وأضر بالمارة بها، شهد بذلك، إلى آخر العقد ونص البينة وذكر في السجل، اثباته العدالة لشهوده المذكورين وذكر في السجل أنه أحضر المقوم عليه، وعرفه بذلك فأقر بإجراء الماء المذكور، وأنه حق من حقوقه، قد استوجبه بحكم حاكم، وحازه بالقدم، وأن الشهود الذين شهدوا عليه، جارون إلى أنفسهم، لسقائهم من الماء المذكور وأنهم لم يزالوا ينظرون إلى جري الماء المذكور أكثر من عشرين سنة، ولا ينكرونه وادعى المرفوع ؟ فيما ادعاه من ذلك، فذكر في السجل، أنه جاء بعقد يتضمن جري هذا الماء في الزقاق المذكور، ودخوله في جنة عبد السلام المذكور، وذكر القاضي أنه لم يقبل شهاد هذا العقد، لسقوط بعضهم عنده بالجهالة، وجرحة آخرين ولعلة ذكرها في العقد، وأنه غير عامل، وذكر فيه انه ثبت عنده أن عبد السلام كان من التعلق بالبرغواطي (24) بحيث لا يجترأ على الإنكار

---

22) لم أقف عليه.

23) انظر ما ورد في قرية بليونش أو بنيونش اختصار الاخبار : 56 وأزهار الرياض 1 : 33 وما بعدها.

24) يقصد به سكوت البرغواطي حاكم سبتة، فيما يبدو.

عليه، وذكر أنه وسع للمقوم عليه في الآجال والتلوم، فلم يات بشيء له نظر، فجزه القاضي، وحكم عليه بقطعه، ومنع إجــراءه فــي الطريــق ولا في وقت من الأوقات، وذكر في السجل أن المقوم عليه، رغب أن يجعل للماء المذكور سربا تحت الأرض ويغطيه، حتى لا يضر با حد، فذكر القاضي، أنه ثبت عنده، بشهادة من سماه، ا نه لا يؤمن من فساده وتهدمه، وأن جري الماء مما يضر بحيطان الجنات التي تليه بالبلد، ويشيع الماء ويخاف من سقوطها (25) (ورقة 23).

- 3 -

سؤال عن إيجاب اليمين احتياطا له.

كان سفيان بن يعقوب بن مرو (26) المصمودي القصري (27) قد أوسق عنده سليمان الصنهاجي بمرسى مازيغن (28) قمحا وشعيرا على أن يوصله إلى مدينة سبتة، ثم عدت على سليمان المذكور أمور، فباع القمح، والشعير المذكور، من محمد بن عبد الله الأنصاري بستة عشر دينارا من

25) يلي هذا أسئلة عديدة على فصول السجل وأجوبة مختلفة عليها ولم نثبتها هنا نظرا لطولها من جهة، ولطابعها الفقهي من جهة ثانية، وهي لأعلام الفقهاء في ذلك العصر وكلها تتعلق بأحكام المياه والجنات والارحي.

26) اسم غير واضح في الأصل؛ ولعله مروان.

27) نسبة إلى قصر مصمودة، ويعرف أيضا بقصر المجاز، والقصر الصغير، تمييزا له عن القصر الكبير، وهو قصر كتامة المعروف أيضا بالقصر الكبير.

28) مرسى مازيغن، هي ما يعرف اليوم بالجديدة، وقد ورد هذا الاسم في عدد من كتب البلدان، ويعتريه التحريف كثيرا وفي «بسط الأرض» لابن سعيد : «مازيغان، وهي فرضة مشهورة تحمل منها المراكب القمح إلى سبتة وغيرها». ص 71.

الذهب المالكي ودرهم ونصف فضة بعد أن وقف على القمح والشعير المذكورين وعرف عده كله. ووصل الآن سفيان المذكور إلى مدينة سبتة. والمبتاع محمد بن عبد الله. وطالبه محمد بالقمح والشعير المذكورين. فأقر سليمان بالشراء، ولم يعلم هل دفع لسليمان المذكور الثمن أم لا. وتنازعا في ذلك، وقد كان بيع القمح والشعير المذكورين بسبتة، بسبعة عشر دينارا غير ربع من الفضة الموصوفة. فاتفق سليمان الآن مع محمد هذا على أن دفع له نصف هذه العدة الموصوفة وذلك ثمانية دنانير. وثلاثة أثمان الدينار. ويبقى النصف الثاني بيد سفيان هذا. حتى يجتمع بسليمان المذكور. فإن أقر له ببعض الثمن من محمد. دفع له. وضمن له محمد ذلك في ماله وذمته. وقبض محمد من سفيان هذه الثمانية دنانير وثلاثة أثمان الدينار الموصوفة. شهد على إشهاد سفيان ومحمد. من أشهداه به على أنفسهما. في صحتهما وجوازهما وعرفهما. وذلك في شهر كذا من عام كذا.

الجواب على هذا العقد :

يقول عياض بن موسى بن عياض : كان سفيان ومحمد. قد اختصما عندي. في مقتضى هذه الوثيقة وحضر لأمرهما من حضر. واستفتيا فيها من الفقهاء فرأينا أن موجب الحق تسليم سليمان لجميع الطعام لمحمد. لاعترافه أن محمدا اشتراه. ولا يضره قوله إني لا أعرف. دفع الثمن أم لا. لكن بحكم الحق حكمت له بطعامه. ورأيت بالاجتهاد

تحليف محمد. لقد دفع الثمن لربه، إذ بيت المال يدعي عليه أنه لم يدفع وأنه يستحق الثمن المذكور وبالله التوفيق.

جواب ثان على مقتضى هذا العقد :

يقول حسن بن علي بن سهل (29) إنه اختصم عندي المذكوران فوق هذا في الطعام المذكور فأفتيت بتسليم جميعه لطالبه محمد على موجب الحق وتحليفه من الاحتياط لبيت المال. والله أسأله التوفيق برحمته (ورقة 28).

ـ 4 ـ

أحباس حمود بن أبي مسلم الصدفي

يشهد من تسمى أسفل هذا العقد، من الشهداء، ـ كذا ـ أنهم يعرفون أحباس حمود بن خلف بن أبي مسلم الصدفي (30) والد الفضل، ويوسف، ويعلمون أن هذه الأحباس محبسة على يوسف وعقبه،وأن عدة هذه الأحباس المذكورة :

---

29) الفقيه الحافظ أبو علي ابن سهل شيخ ولد القاضي عياض. كان قاضيا بسبتة. ترجمته في التكملة 1 : 259 والمعجم لابن الآبار : 74 والتعريف بالقاضي عياض : 9 (المقدمة).

30) بيت حمود بن أبي مسلم الصدفي من البيوتات الشهيرة بالعلم في سبتة ونسبة هذا البيت إلى قبيلة صدف العربية التي كانت تؤلف الشطر الأول من سكان سبتة. اشتهر من أهل هذا البيت :

ـ حمود بن خلف صاحب الأحباس المذكورة في هذا العقد.

ـ يوسف بن حمود الذي ولي قضاء سبتة نيفا وعشرين سنة. ولد سنة 357 هـ وتوفي سنة 428 هـ. ترجمته في المدارك 3 ـ 4 : 721 (ط. بيروت) وصلة ابن بشكوال 2 : 645 وبغية الملتمس. 473 والذيل والتكملة.

ـ الدار التي بمقبرة الزقلو (31)، مع الحانوتين المتصلين بها، حد جميعها : من القبلة (32) والشرق : الزقاق الهابط منه إلى مسجد ا بن الخنشية، (33) ومن الجوف : (34) دار إدريس بن عطاف القرار، ومن الغرب : الزقاق الطالع منه إلى مسجد المقبرة (35) المذكورة.

ومن هذه الأحباس الثلاثة الدور الملاصقة بعضها ببعض مع الجنينة التي في ظهورهم ـ كذا ـ بحومة مسجد ا بن علا قومه (36)، وحد جميعهم في القبلة : جنان (37) المساكين، ومن الشرق : دار ورثة الأصيلي، ومن المغرب : دار ا بن وشقون، ومن الجوف : الزقاق الكبير، فيه يشرع أبوا بهم.

ـ أبو الفضل بن أبي مسلم. استخلفه عمه على قضاء سبتة لما رحل إلى الحج المدارك 3 ـ 4 : 772.

ـ ابراهيم بن الفضل القاضي. أخو السابق، أخذ عن عمه أبي الحجاج يوسف، المدارك 3 ـ 4 ـ 773.

31) انظر في مقبرة زكلو ومن دفن بها. اختصار الاخبار : 22، 39، 54.

32) القبلة : الجنوب في اصطلاحنا.

33) لم يرد ذكره فيما وقفنا عليه، وعلى كل حال فقد كان في سبتة الف مسجد ـ حسب الأنصاري، وقد يكون تحريفا لابن الحبشية.

34) الجوف : الشمال في اصطلاحنا.

35) ورد ذكر مسجد مقبرة زجلو في بلغة الامنية : 176، 178، 180، 181، 182، 184، 185، 186، تحقيق الأستاذ ابن تاويت.

36) ذكر القاضي عياض في المدارك، قاسم بن علا قومه، في الآخذين عن القاضي أبي الحجاج يوسف بن حمود، فلعله صاحب المسجد المذكور هنا أو هو لاحد أفراد أسرته. المدارك 3 ـ 4 : 723.

37) الجنان : البستان.

ومن الأحباس ، الدارين ـ كذا ـ المتضمنين مع المصرية التي هي ملاصقة بها باب الدرب، حد جميعهم، من القبلة ، دار الزهبلي، ومن المشرق دار بن الحانية مع الدرب الغير نافذ. وفيه يشرع أبوابهم، وهذا الدرب الخارج منه إلى مسجد يوسف بن أبي مسلم.

ومن هذه الأحباس الفرن الذي بمسجد يوسف بن أبي مسلم، حد جميعه من القبلة والغرب الدار المعروفة باسم ابن القرطبي، ومن الجوف حمام ابن القرطبي، ومن المشرق ، الزقاق الهابط منه والخارج إلى مقبرة السوق، وفيه يشرع بابه.

ومن هذه الأحباس ، الحانوت التي بسوق الحجامين بمقربة من مسجد المقبرة المذكورة، وحد جميعه من القبلة والشرق : فندق أحمد بن ابراهيم الزيات، ومن الغرب حانوت الأحباس المساكين، ومن الجوف ، الزقاق الخارج منه إلى مقبرة السوق وفيه يشرع بابه.

ومن هذه الأحباس ، الحانوتين ـ كذا ـ الملاصقين بسوق الشقاقين بباب حانوت ورثة ابن الشيخ (39) ، ومن القبلة : الشارع الطالع منه إلى سوق العطارين (40) وفيه يشرع أبوابها.

---

38) المصرية : العلية.

39) المراد به ـ في أغلب الظن ـ محمد بن علي بن عبد الله الأموي أبو عبد الله، يعرف بابن الشيخ، محدث سبتة في وقته، شهر بالخير والصلاح والورع، توفي سنة 400 هـ. صلة ابن بشكوال 2 : 562.

40) يقول صاحب اختصار الأخبار : 39 في أثناء حديثه عن أسواق سبتة. «ومن أشرفها قدرا وأجملها مرأى سوق العطارين...».

ويعلمون أن هذه الأحباس المذكورة فوق هذا حبس على يوسف وعقبه. ويعلمون أن ليس لبني البنات من عقب يوسف، فيها حق ولا دعوى ولا حجة. ويعلمون أنه لم يبق من عقب يوسف بن حمود بن خلف المحبس، حاشا فاطمة بنت محمد بن يوسف بن حمود، ومريم ابنة عمها حمود بن يوسف ابن أبي مسلم. وأنها آخر العقب من يوسف المذكور. وأنه متى ماتت هاتين - كذا - المرأتين المذكورتين. فاطمة ومريم. فمرجع هذه الأحباس المذكورة المحدودة فوق هذا على بني أعمامهم من بني الفضل بن حمود بن خلف بن أبي مسلم وهم : أحمد بن محمد بن إبراهيم ابن الفضل بن حمود بن أبي مسلم. وحسن، وحسين، ومحمد، بنو علي بن حسين ابن الفضل بن حمود بن خلف بن الفضل. وأخوه حمود بن خلف بن حسين بن الفضل بن خلف. هم أولى الناس بهذه الأحباس المذكورة وأقربهم إليها. فإذا انقرضوا فمرجع هذه الأحباس إلى بنيهم من بعدهم وبني بنيهم. وعلى ذلك كان أصلها في التحبيس المذكور. كل ذلك في علم من شهد بذلك ومبلغه. وكانت شهادتهم هذه إذ سئلوا عنها فقاموا بها. وذلك في انسلاخ شهر ذي الحجة من سنة ثلاث وثمانين وأربعمائة :

محمد بن غازي الحسني.

وزكرياء بن هارون القضاعي.

وعلي بن يحيى بن عبدالله اللخمي.

وشهد : أبو بكر بن علي القيسي.

وعلي بن الحسن الكندي.

وحماد بن أحمد الأنصاري.

ومنصور بن علي الأزدي.

على إشهاد عبد الجبار بن مسعدة على شهادته في التخليـ . على شهود الأصل الثلاثة المذكورين (41) (ورقة 46).

- 5 -

سؤال عمن صالح وكان قد استرعى آن ذاك ليظهر حقه

يشهد من أوقع اسم أسفل هذا العقد، من الشهداء أن محمد بن عطية ابن غازي (42)، سألهم الوصول معه إلى دار أخته فاطمة، وأنهم لما وصلوا معه، وجدوا زوجها محمد بن أحمد، في الدار المذكورة، فذكر لهم ما حل بفاطمة من المشرف عليها أحمد بن حسون بن يشرق (43) - المعروف

41) يلي هذا سؤال طويل عما تضمنه العقد المذكور مع جوابين عنه لابن رشد الجد ومحمد ابن الحاج. ولم نثبت ذلك تمشيا مع الاختصار المطلوب هنا واكتفاء بما له دلالات تاريخية فقط.

42) بنو غازي أو بنو الغازي أسرة سبتية ترفع نسبها إلى جابر بن عبد الله صاحب النبي صلى الله عليه وسلم. وقد اشتهر منهم بعض الاعلام مثل الفقيه القاضي محمد بن حسن بن عطية ابن غازي، روى عن أبي الفضل عياض واختص بصحبته وملازمته وسمع منه جل روايته وتواليفه، وهو سبط أبي الربيع سليمان ابن سبع خطيب سبتة وصاحب المؤلفات الباقية، التكملة 2 : 679، الذيل والتكملة 8 : (ق. غ. مخطوط).

43) كتب مرة يشرق ومرة أخرى مشرق ، وهما اسمان غريبان، وأخشى أن يكونا محرفين. وفي الاعلام السبتية يوجد شاعر يدعى بابن شقرق (خريدة القصر) فلعل للاسم المذكور علاقة به.

بالمغربي ـ من تعسفه عليها، وتكليفه إياها مالا يلزمها، وأنها لما عزمت على الخروج مع زوجها المذكور إلى جنة بقرب بليونش، قال لها أحمد المذكور : لا سبيل إلى خروجك حتى تطلعيني على حلي ابنة أخي، وتودعيها عند غيرك، فإني لا آمن على بقائها في الدار، وأن فاطمة لم تجبه إلى ذلك ولا رأت أن تخرج مال ابنتها من يدها ولا تزيلها من دارها ومن مناشرها (44) وثقافتها، وقالت إني أترك ثقتي العلجة مرية، مع امرأة ثقة في الدار، وخافت من أحمد أن تطلعه على شيء من ذلك، لأسباب تقدمت له معها، وذكر لهم أيضا ما سمع وشاع بسبتة، من دخول أحمد هذا في دار سكنى المذكورة، يوم عقد نكاحها مع زوجها محمد المذكور، وفتح منشارها، وأخذه منه ألف مثقال أو نحوها، وانها بقيت بعد ذلك نحو العام، تلاطفه هي وأخوها محمد المذكور، لعل أن يرد المال إلى موضعه، أو يشهد به على نفسه وهو يرجي ويطمع في ذلك ويقربه في السر، فإذا حضر أحد أنكر وحلف أنه ما أخذ شيئا، حتى انقطع الرجاء منه في ذلك، ثم رغبا إليهم بعد ذلك أن يستخفوا في دار فاطمة المذكورة، ويحضر أحمد المذكور ويجرى معه الكلام في جميع ما ذكر، فلعل أن يقر بالمال كما عهد منه في حال الانفراد به، فاختليا في مجلس الدار المذكورة وبقيا فيها متسارين مغفولين، وحضر أحمد المذكور، وذلك عشية يوم الأربعاء التاسع من جمادى الأولى من عام

44) هكذا في الأصل، ويفهم من السياق انه مايودع فيه الحلي والثياب.

خمسة عشر وخمسمائة. قال محمد بن عطية المذكور لأحمد المذكور هذا الحلى وهذه الثياب في المنشار تحت البلج والأقفال والعلجة مرية وامرأة ثقة باقيتان في الدار فقال أحمد المذكور : لا يأ محمد. لا يبقى إلا مودعا عندك. أو عند عمران. تراني أنا قد دخلت الدار وأخذت ألف مثقال كلحظة. فقال له محمد : ألف مثقال أخذت ؟ فقال له أحمد : ألفا أو ألفين أو أقل أو أكثر. فقال له محمد : ولم تقر لي بثمان مائة أو بسبع مائة وخمسين ؟ فقال له أحمد ما أخذت شيئا فخشي أن تدور عليه دورات. شهد بذلك من حضرهما وسمع مراجعتهما وتحقق قولهما وعرفهما وأوقع بذلك شهادته في شهر رمضان المعظم من عام خمسة عشر وخمسمائة.

يشهد من سمي أسفل هذا العقد. من الشهداء أنهم حضروا إلى عقد نكاح محمد بن أحمد. مع فاطمة بنت عطية ابن غازي. في دار أخيها لأبيها محمد. فبينما هم في ذلك حتى دخلت في الدار المذكورة العلجة وهي تصيح وتبكي ثم قالت لفاطمة المذكورة. وهم يسمعون. أن أحمد المغربي دخل دارك بعدك وفتح القفل عن المنشار وأخذ كل ما فيه من المال ثم دخل عليهم بعد ذلك أحمد المذكور ملهوفا وفي يده قفل مفتوح. شهد بذلك من علمه وتحققه. وحضر لذلك وعاينه. وأوقع بذلك شهادته في شهر رمضان عام خمسة عشر وخمسمائة. جعفر بن محمد. وعلي بن عبد الله ابن خندف. شهدا به وحضرا عقد النكاح المذكور في الدار المذكورة. فبعد تمامه بلغهم أن أحمد المغربي خالف فاطمة

المذكورة لدارها المذكورة بطي هذا العقد الواقع بطي هذه البطاقة واحدث فيها حدثا يهم فاطمة، فرغب إليهم في الوصول للدار المذكورة. فوصلوا فوجدوا بيت سكناها مقفولا بقفل، ووجدوا أحمد **المغربي** في الدار المذكورة ومفتاح القفل بيده فأنكروا عليه وأخذوا على يده فأخرج المفتاح مغضبا ففتح القفل عن باب البيت المذكور.

وبمثل ذلك يشهد محمد بن خلف بن دحنان، وعبد الرحمن ابن عبد الله ابن ادريس يشهد لنص العقد إلا أنه لم يعاين القفل في يد أحمد.

توقيف على ما تقدم :

وقف في مجلس نظر الفقيه القاضي بسبتة وأعمالها أبي الفضل عياض ابن موسى وفقه الله أحمد بن حسونِ المعروف بالمغربي هل أخذ الألف مثقال من الدار المذكورة واقتضى خليفة بن يحيى فخاصمه ووقفه على قوله هذا.

شهد بذلك من حضرهما وسمع مقال أحمد بن حسون المذكور.

وذلك في ذي القعدة من عام خمسة عشر وخمسمائة.

عقد استرعاء في الصلح في هذه القضية.

أشهدت فاطمة بنت عطية بن غازي على نفسها شهداء هذا الكتاب في صحتها وجواز أمرها أنها متى صالحت أحمد بن مشيرق على شيء من المال الذي كان أخذه لها من منشارها أو قبضت منه شيئا من ذلك

وأشهدت له بتبريته من المال المذكور فإنما تفعل ذلك إظهارا لحقها وتقوية لما شهد عليه به لها وأنها راجعة في طلبها وباقية على حقها الواجب قبله لها ولا بنيها.

شهد بذلك على فاطمة من أشهدته وهي بالحالة الموصوفة وعرف إنكار أحمد للمال المذكور في مجلس نظر الفقيه القاضي بسبتة أبي الفضل عياض وفقه الله وذلك غدوة يوم السبت الثامن والعشرين من محرم ستة عشر وخمسمائة.

عقد الصلح :

كان الحاج محمد بن حسون بن **مشرق**، قد أوصى في عهده الذي توفي عنه، ولم ينسخ شيئا في علم شهوده. وأوصى الحاج محمد بن حسون المذكور أيضا في عهده الذي توفي عنه، ولم ينسخه بغيره، في علم شهوده، بالنظر للمحجور محمد بن حماد المذكور، إلى أخيه أحمد المذكور، أقامه له مقام نفسه، حسب ذلك كله، وبيانه في غير هذا العقد. وكان أحمد ابن حسون المذكور قد قبض للمحجور محمد بن حماد بمدينة فاس بتوكيل أخيه الحاج على ذلك ذهبا عدتها سبعمائة مثقال غير عشرون - كذا - مثقال، وزعم أنه دفعها إلى أخيه الحاج المذكور وكان الحاج المذكور قد تولى للمحجور محمد بن حماد النظر في ماله فابتاع

له خادما وربعا بسبتة، وبنى له بنيانا كثيرا، تحمل في ذلك كله ثلاث مائة دينار وتسعون - كذا - دينارا فوقع بين الوصي فاطمة بنت عطية بن غازي، وبين المشرف الناظر أيضا لمحمد بن حماد المذكور، تنازع واختلاف، في مال أولاد الحاج محمد ابن حسون وفي مال محمد بن حماد محجوره، وطلب أحمد أخذ مال محجوره حسبما يجب له، وقال إن ذلك تخلفه اخوه الحاج عند زوجه فاطمة المذكورة، وقالت فاطمة إن أحمد هذا دخل دار سكناها وهي غائبة عنها، وفتح خزانتها، وأخذ منها مال المحجور محمد بن حماد ومالها ومال ابنيها، وطال نزاعهما وتراجعا في ذلك، وأشكل أمرهما ثم إن أحمد المذكور، حضر في دار فاطمة المذكورة معها، وذهبا إلى التقار والتراجع إلى ما يجب فكان من قول فاطمة ما ذكر فوق هذا، من دخوله دارها وهي غائبة عنها وفتحه لخزانتها وأخذه ما ذكر منها، وقرر أحمد من حضرهما على ما أخذ من المال من الخزانة، وسمى له عددا فقال له أحمد في ذلك التراجع أخذت كذا وكذا وسمى ألف مثقال، وشهد عليه بذلك شاهدان كانا وراء ستر في البيت، ثم لما طلب بالذي قال ووقف، أنكر أن يكون قال ذلك ثم قال : إنما قلت ذلك على سبيل الخروج والغضب وردا لما قيل له وسمي من العدد المذكور، ثم بعد ذلك دخل بينهما بالصلح من رغب الأجر، وأن يبقي بعضهما على بعض، وحضهما على التراجع إلى الحق، والإقرار بالصدق، والتناصف، فيما وقع التنازع فيه بينهما والخلاف، فتراجعا على

ما تحققاه وعلماه واصطلحا على أن أقر أحمد بن حسون المذكور بثمانمائة مثقال ومثقالين وتسعين مثقالا ذهبا مرابطية، كان قد دفع من ذلك للوصي فاطمة المذكورة تسعين مثقالا وبقي بعد ذلك ثمانمائة مثقال ومثقالان، يرجع منها للوصي فاطمة مائتي مثقال - اثنين - ومثقالين، وتقبضهما فاطمة منه بنفسها ولابنيها المذكورين عبد الله وعائشة وتبرىء أحمد الوصي على فاطمة وتركة أخيه الحاج محمد بن حسون من السبع مائة مثقالا غير عشرين مثقالا المذكورة التي ذكر أحمد أنها وصلت إلى أخيه محمد من مال المحجور محمد بن حماد بعد أن تثبت الوصي فاطمة وتظهر براءة بالثلاثمائة مثقال والتسعين مثقالا المذكورة فوق هذا باسم ابتياع ربع وخادم للمحجور محمد بن حماد وفي بنيان رباعه بسبتة وتبقى بيد أحمد ستمائة مثقال الباقية بيد أحمد تبقى موقوفة بيده للمحجور محمد بن حماد على ما زعم أحمد فإن **أثبت رحمون بن المنتوف أو غيره بفاس** أنها وصلت إلى الحاج محمد من مال المحجور محمد بن حماد بقيت حينئذ بيد أحمد المحجور ومحمد، وإن لم يثبت ذلك دفع أحمد حينئذ الثلاثمائة مثقال الموقوفة إلى

الوصي فاطمة تكون مالا من مالها ومال ابنيها المذكوران من ورثة الحاج وتم اتفاقهما على هذا، وتراضيا به، وأقرا بحقيقته وصحته فبعد ذلك كله من الاتفاق المذكور أحضر أحمد بن حسون المائة مثقال والمثقالين المذكورة، لها، ودفعها إلى الوصي فاطمة وقبضتها منه طيبة، وصارت

بيدها لابنيها المذكورين لها، وأشهد أحمد وفاطمة على أنفسهما بهذا الاتفاق المذكور، وأمضياه على المحجورين المذكورين وألزماهم إياه ورأياه نظرا سديدا لجميعهم، وأشهدا أنه لم يبق بينهما بسببهم دعوى ولا حجة ولا علقة يمين بوجه من الوجوه ولا بسبب من الأسباب قديمها وحديثها وجعلا هذا الصلح حسما وقطعا للدعاوي في ذلك كله، مما تنازعهما فيه فوق هذا.

أشهد على إشهاد المتصالحين : أحمد بن حسون وفاطمة بنت عطية، على أنفسهما بجميع ما ذكر في هذا الكتاب عنهما من أشهداه به في صحتهما وجواز أمورهما، وعرفهما، وذلك في غرة صفر ستة عشر وخمسمائة (45) (الورقتان 61 ـ 62).

ـ 6 ـ

سؤال عمن وهب لينفق عليه حياته :

جوابك وفقك الله في امرأة كان لها أخ، وبينه وبينها أملاك كثيرة مشاعة فاحتاجت المرأة وأولادها، فقال لها أخوها : اعطني نصيبك في

45) يلي هذا السؤال على هذه العقود المتقدمة والجواب عليه لابن رشد، ولم نثبتهما اختصارا.

هذه الأملاك المشاعة بيني وبينك وأنا أكفيك وبناتك حياتك ! فقالت له نعم. فأشهد عليها وكتب بذلك عقودا عليها. فأنفق عليها بعد ذلك مدة يسيرة ثم ضيعها وتركها. ورحلت المرأة فارة من البلد. وماتت في غيره ضيعة. ولم تعرف المرأة قدر ما اعطت ولا حدوده. فقام بنو المرأة بعد زمان على أولاد أخيها يطلبون ميراثهم في مال أمهم.

بين لنا وفقك الله هل يجوز ما فعلته المرأة أم لا يجوز ؟ وهل لبنيها في ذلك قيام أم لا؟

الجواب :

إذا ثبت أنها أعطت لينفق عليها كما ذكرت فالعطية مردودة ويرجع بما انفق. قاله ابن عياض.

قال محمد : ما قاله أبي رضي الله عنه. هي رواية ابن القاسم عن مالك. وأصبغ ويقول : هو حرام. واشهب : لا أحبه ولا أفسخه إن وقع. وأما الغلة فهي للمعطى له لا لرب الملك. هذا هو ظاهر ما وقع في آخر كتاب الحبس من المدونة. وقول الشيخ أبي رضي الله عنه في الجواب يرجع بما انفق. هو قول مالك في الكتاب المذكور ووقع في (كتاب) السلم : بقيمة ما أنفق. قال الشيخ أبي رضي الله عنه في تنبيهاته : يحتمل الانفاق وإن لم يكن معنى ما في كتاب الحبس أنه أنفق دراهم أو مكيلا أو موزونا معلوما دفعه إليه ومعنى ما في كتاب السلم أنه لم يحقق ما أنفق عليه فيرجع إلى القيمة والتقدير أو دفع إليه طعاما مصنوعا فيرجع إلى القيمة أيضا. (ورقة 54).

- 7 -

سؤال عمن أقر بدين لوارث في صحة وابرأه في عهده وصرح أن لايحلف :

الجواب رضي الله عنك في رجل توفي وترك عهده بعده ونسخته :

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد نبيه الكريم.

هذا ما عهد به محمد بن أحمد الفلاني المعروف با بن الخشية وهـــــو صحيح الجسم ثا بت العقل والذهن. أشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له وان محمدا عبده ورسوله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون وأن الجنة حق وأن النار حق وأن الله يبعث من في القبور كما بدأهم يعودون، على هذه الشهادة يحيى وعليها يموت وعليها يبعث ان شاء الله. وأنا أشهد بهذه الشهادة وادعها عند الله تعلى وهو أحق وأولى من يؤدي الامانة إلى أهلها. وأوصى أهله ومن تخلف بعده بتقوى الله العظيم واصلاح ذات بينهم، وأن يطيعوا الله ورسوله إن كانوا مومنين. وأنه متى حدث حدث الموت الذي لا بد منه، ولا محيد للخلق طرا عنه ان لا بنته أم العلو عنده وفي ماله خمسة وخمسين مثقالا ذهبا مرابطية سلفا اسلفتها إياه وأن يخرج مما يخلفه من جميع الأشياء قلت أو كثرت، يخرج منها قفيز قمح بكيل سبتة حماها الله، يفرق في المساكين واهل الستر والعفاف، ويتولى ذلك زوجه فاطمة بنت محمد بن أبي مسلم الصدفي ان كانت حية أو ابنته أم العلو المذكورة فوق هذا. لا اعتراض على من تولى منها في شيء مما جعله إليها لا من حاكم ولا

من غيره، وان عهده هذا لا يبدل ولا يغير، وحرج بعذاب الله العظيم وعقابه الأليم على من بدله بعدما سمعه، قال الله سبحانه : فمن بدله بعد ماسمعه فإنما إثمه على الذين يبدلونه، إن الله سميع عليم.

وان فاطمة وأم العلو لاشيء لهما عنده بوجه من الوجوه فيما عسى أن يتلابس الزوجان ولا يمين عليهما فيما يدعى بسببه بسبتة، والله ولي الانتقام ممن يريد ظلمهما، وان عهده هذا ناسخ لجميع ما تقدمه من وصاياه.

شهد علي محمد بن أحمد المذكور فوق هذا من سمعه منه حسب نصه وعرفه بعينه واسمه وحالته الموصوفة من الصحة والجواز. وذلك في شهر كذا من عام كذا.

بين لنا أعزك الله ان كان العقد كله جائزا أو بعضه ماجورا مشكورا ان شاء الله. (46) (ورقة 44).

- 8 -

سؤال عن كنيسة بني عليها مسجد، هل تبقى أحباسها للمسجد أم تكون لبيت المال ؟

جوابك رضي الله عنك في أحباس حبسها نصارى معاهدون على كنيسة لهم، وكان القسيسون يستغلونها وينفقونها في مصالح كنيستهم وما فضل منها يأخذونه لأنفسهم، فبقيت كذلك ماشاء الله إلى أن اجلاهم الأمير من ديارهم، فرد المسلمون الكنيسة المذكورة مسجدا، تصلى فيه

46) بعد هذا جوابان لم نأت بهما مخافة الاطالة.

الصلوات الخمس، ويخطب فيه أيام الجمع، فبقيت الأحباس المذكورة على حالها، يكسى منها المسجد، ويستغل الأئمة الباقي، فبقيت كذلك مدة من ثمان عشرة سنة لم تعارض بشيء من الأشياء.

إلى أن قام عامل من عمال بيت المسلمين، وأراد ضمها لبيت مال المسلمين، بغير أن يستظهر بظهير من عند الأمير بضمها، فهل له أن يضمها لبيت المال من غير أن يأمره الأمير بذلك، أم لاسبيل له إلى ضمها على هذا الوجه المذكور؛ وكيف إن أمره الأمير بضمها لبيت المال، هل يجوز له ذلك أم لا ؟

بين لنا وفقك الله وجه الحكم في هذه المسألة إلى أن يستتم النظر فيها بيانا شافيا ما جهل ان شاء الله.

الجواب :

أحباس أهل الذمة لاحرمة لها، فإذا كان محبسها حيا وأراد الرجوع فيها، أو بيعها، لم يتعرض له، وان كانت هذه الأحباس قديمة وهي ببلد أهل الذمة لم يعارضوا فيها، وإذا كان الناظر للمسلمين قد رأى في مسالتك عند اجلاء أهل الذمة عن موضع كنيستهم ردها مسجدا فمن أحسن النظر، إذ لا بد للمسلمين النازلين مكان أهل الذمة المجلين عنها من مسجد يقيمون فيه صلاتهم، وللإمام بناؤه لهم فأولى أن يجعل ذلك من هذه الكنيسة ويحولها مسجدا إذ هي وأحباسها عند إجلاء أهلها عنها لبيت المال، لارتفاع أيدي النصارى عنها، إذ لا يتعلق لهم تملكها بوجه، إلا أن

يكون محبس الكنيسة أو شيء من أحباسها حيا، فله الرجوع في ماله وبيعه ونقض حبسه، لا يعترض في ذلك، وأما ولا مالك لها، فإنما كانت لهم منفعتها بحكم سكناهم، فإذا أجلوا عنها بقيت للمسلمين، إذ لامالك لها، ولم يثبت كونهم صلحيين، فيحكم لهم بحكمهم، فإقامة المسجد فيها وترك ما يقوم به المسجد وما يحتاج إليه لحصر ووقيد وإمام وخادم وبناء من أحباسها، من النظر السديد، ولما فيه من الغيظ للكفار ليصير بيت كفرهم وطاغوتهم بيتا يذكر فيه الله، ويقام فيه شرع الاسلام وبالله التوفيق. قاله ابن عياض.

قال محمد : هذا الجواب لم أنقله من خط الشيخ، ووجدت له أيضا بخطه جوابا على هذا السؤال وهو :

وقفت وفقني الله وإياك على سؤالك، وقد كان تقدم مني منذ سنين جواب لأبيك رحمه الله، والذي أراه في هذه القضية أن أمر نصارى الأندلس مشكل، هل هم صلحيون، وصلحهم على ما بأيديهم، فيجرى أمرهم على ما بأيديهم مجرى الصلحيين ؟ أم هم عنوة وارضهم عنوة فيجرون مجرى أهل العنوة ؟ أم ما بأيديهم مكتسب لهم، وأصل جماجمهم على الصلح والعنوة فتكون أحكامهم في ذلك غير الحكمين ؟ إذ لم يحقق من أمرهم ماتبنى عليه الفتيا، غير أن الفقهاء أصحاب التاريخ والخبر يذكرون أن الأندلس منها عنوة ومنها صلح، وأكثر أموال هؤلاء المعاهدين إنما هي فيما ذكر انه كان عنوة. لكني أقول : هؤلاء النصارى لما اشكل

الأمر فيهم وفيما وجدنا بأيديهم من الأملاك، وجب كون ما بأيديهم وفي أملاكهم لهم، بحكم وضع اليد وصحة الحوز الذي لم يجىء ما يزيله، ولا قامت حجة تبطله.

وخرجت الكنائس والأحباس عن هذا الباب لاسيما بإخراجهم عنها، ومنعهم من التصرف والمنفعة التي كانت لهم فيها، إذ ليس وضع أيديهم عليها وضع ملك إلا ماعرف محبسه وتعين، فله أو لورثته الرجوع فيه، إذ ليست أحباسهم لازمة إذ لم يرد بها وجه الله ولا حبست له بل للجبت والطاغوت، فترجع على ملك محبسها إن طلبها، وسائر مالا يعرف مالكه حكمه حكم مال من تخلى منهم عن ماله وفقد ذلك لبيت مال المسلمين والامام ينظر فيه، وكذلك حكم الدين ان كان محبسا لاملاك له، وإذا كانت أموالهم وقراهم قد اشتراها منهم المسلمون وعمرت لزمتهم الجماعات في الصلوات فعلى الإمام إقامة مسجد لهم أو جامع إن كانوا بحيث تلزمهم الجمعة، وأخذهم باظهار شعائر الإسلام من الأذان والتجميع وإقامة الجمعة، وأولى ما وضع لهم المسجد أو الجامع في هذه البيع والديارات لقرب بنائها من بناء المساجد وكونها غير مملكة وارغام انف الشيطان بتبديل كلمة الكفر بها وشعار الضلال بكلمة الايمان وشعار الإسلام ثم للإمام أن يترك تلك الأحباس لهذه المساجد أو يضمها إلى بيت المال ويقيم للمسجد مايحتاج إليه من غير ذلك، هذا الذي يظهر لي ولا يتوجه عندي سواه، وبالله التوفيق. قاله ابن عياض، (ورقة 50).

- 9 -

سؤال عن اقراره بوارث.

يشهد من اوقع اسمه بعد هذا انهم يعرفون طاهر بن محمد بن طاهر بعينه واسمه وانهم قالوا له في مرضه الذي توفي منه : ألك وارث، فقال نعم : يزيد بن عمي بحوز فاس وارثي، فقالوا له : أله ذرية، فقال : كان له ولد يقال له عبد الله.

عقد ثان :

يشهد من تسمى أسفل هذا العقد من الشهداء ـ كذا ـ انهم سمعوا سماعا فاشيا مستفيضا على ألسنة أهل العدل وغيرهم أن طاهر بن محمد بن طاهر بن قاسم الباجي المعروف بابن التنسية (وعبد الله) (47) متناسبين يرجعان في نسبهما إلى قاسم، وسمعوا أن طاهرا توفي ولا يعلمون له وارثا سوى عبد الله بن يزيد المذكور.

السؤال على مقتضى هذين العقدين.

تأمل أبقى الله نفعك للمسلمين العقدين المذكورين، وكون احدهما على السماع وكون الثاني بالاعتراف ليزيد أنه وارث وان له ابنا ولم يقل هو وارثي، وقد ثبت عندي العقد الأول على نصه بسبتة، والثاني بخطاب من خاطبني به من أهل الغرب أعني المتضمن لشهادة السماع، وطاهر المذكور إنما نشأ بسبتة هو وأبوه ولا نجد بسبتة من يرفع نسبه

47) زيادة يقتضيها السياق.

حسبما رفعه أولئك على بعد (48) مواضعهم لا على السماع ولا على العلم، ويزيد إنما كان بجهة فاس، ثم انتقل إلى الجهة التي شهد فيها هؤلاء، وهم على بعد منها، فينظر في هذا كله، فإن نسب المذكور لا يشهد به أحد إلا ماتضمن من عقد شهادة السماع، وأنت تعلم مافيه في هذا الموضع وضعفه، ثم ان العقد الاخر إنما حصل الاعتراف (فيه) بأنه وارث لأبيه، وقد علمت ما في أصل مسألة الاعتراف لقدماء أئمتنا ثم مافي نوعها في مثل مسألتنا لمن تأخر من شيوخنا، فأردت رأيك العلي هل يورث عبد الله هذا من طاهر، إذ قد ثبت موت طاهر وأنه لا وارث له، إلا ماشهد به لعبد الله وموت يزيد وانه لا وارث له إلا ابنه عبد الله هذا وكيف ان سعى صاحب المواريث إلى مصالحة عبد الله.

بين لي رأيك العلي في ذلك كله مأجورا إن شاء الله.

- 10 -

«وسئل أيضا عن بلد المصامدة ربما لم يكن عندهم سلطان، وتجب الحدود على السراق وشربة الخمر وغيرهم من أهل الفساد، هل لعدول ذلك الموضع وفقهائه ان يقيموا الحدود إذا لم يكن سلطان ؟

فقال ذلك لهم (50).

---

48) في الأصل : بعض.

49) زيادة يقتضيها السياق.

50) في تتمة الجواب بياض.

وسئل أيضا عن بلد لاقاضي فيه ولا سلطان، أيجوز فعل عدوله في بيوعهم (51) وأشريتهم ونكاحهم .

فقال : إن العدول يقومون مقام القاضي والوالي في المكان الذي لا إمام في ولا قاضي» (ورقة 3).

الرباط

د. محمد ابن شريفة

---

51) في الأصل : في بيوتهم.

يا أخت أندلس...

عبد العلي الوزاني

هي سبتة. المدينة المغربية الواقعة على مرمى حجر من أوروبا. والمتكئة على ذراع الشمال الإفريقي. هواؤها مزيج من الطقس الأوروبي المتقلب، وهواء المغرب المار عبر جبال الأطلس والمتجول حول جبال الريف. وحضارتها خليط من التراث اللاتيني وحداء الإبل المحمول على الرواحل العربية الضاربة في شتى الآفاق.. وذوقها تخرج من مناديل النساء القوطيات وقبعات فرسان المعبد. واستكمل تكوينه على راحة الحاكم العربي المسلم، وفي لهوات أدباء العرب. غارسي فسائل الشعر العربي الحاد النكهة في اهاب هذه البلدة الجميلة. بعد الفتح العربي صارت سبتة تقرأ الجمال الأوروبي باللغة العربية، وتترنم قصيدا عربيا حاملا لكثير من مواجع الشرق ورؤاه القديمة. ومنذ ذلك اليوم وهي

تواظب على اكتساب العادات العربية النبيلة والأصيلة، من الرقص على صهوات الخيول، ونحر الذبائح في المواسم والأعراس، الى حج بيت الله الحرام، ومن ارتشاف الشعر من ثغر جارية جميلة فصيحة، الى جمع الفتات من مائدة أحد المتصوفين الميامين، وكل يوم يمضي يزيد شمائلها العربية بروزا، والشمائل العربية قابلة للنمو في جميع الآفاق، إذ هي من النوع الذي يؤلف بسهولة. سبق أن زحفت على ديوان كسرى، وبلاط قيصر، وعربت السلوك اللاتيني في أجزاء من أوروبا، ودعت عدة أقوام ينتسبون الى حضارات أجنبية الى أن يدخلوا تحت عباءتها، ويحاكوا صراحتها، ويتجولوا تحت خيامها المضروبة على طول الوطن العربي من الخليج الى المحيط.. يوليان حاكم سبتة كان أحد الذين أخذوا بالشمائل العربية حين التقائه بطليعة موسى بن نصير.

إذ جاءه القائد العربي ملوحا بشمس العروبة، وصلت فيه مواهبها البطولية الى درجة عالية، كانت كافية ليترك بيته في الشام، محاولا اتمام الرسالة، رسالة سعد بن أبي وقاص وخالد بن الوليد وأبي عبيدة بن الجراح، وفي ظروف أشق وأصعب، وبوسائل أقل ومع احتمالات خليقة بأن تبث الخوف في قلوب الصناديد من الرجال. كان يوليان حاكما لقبيلة مغارة المغربية، فخلعت عليه شخصيتها، وأعطته اسمها، وشككت التاريخ في حقيقة نسبه القوطي وتصرفت في اسمه كما يحلو لها.. وأوشكت أن تركبه جملا، وتدير على رأسه عمامة زرقاء، وتحشره في

قميص فضفاض. يتسع لجسمه ولزوبعة من الرياح الهوج.؛ وحصل ليوليان الشرف.. لأن الانتساب الى قبيلة مغربية مفخرة عظيمة. سيما إذا كان من شهود الإثبات في هذه القضية مؤرخ عظيم كابن خلدون.. كلمة منه تساوي حدثا.. فلا غرابة إذا صار يوليان شخصية استثنائية في تاريخ المغرب السياسي.. ارتبط اسمه بتاريخ قبيلة مغارة وإلى الأبد.. ونحن لا مانع عندنا من أن نتبنى يوليان.. فقد تبنينا أجيالا من الروم والفرس والمغول والفينيقيين.. وخلعنا عليهم كنانا وألقابنا.. وأسكناهم دارنا.. وأنزلناهم أكرم منزلة في أدبنا وحضارتنا.. والحق أن الكثيرين منهم كانوا مستحقين لذلك.. إذ برهنوا على أنهم جادون في الإنتماء الى أمتنا العربية.. مقدمين بين يدي انتسابهم إليها أعمالا مشرفة.. مازلنا نترنم بمحاسنها حتى اليوم. إلا أن يوليان هذا لم يدخل في ديننا.. ولا اصطنع لغتنا.. ولا اعتنق آدابنا.. أعني أنه لا يستحق النسب العربي لو ادعاه.. غير أن مالم يدعه هو ناب عنه آخرون في ادعائه وكذب قومه ذلك وجحدوه.

كان يوليان يومها جريحا.. على طريقة رجال تلك العصور المشمولة بأخلاق الفروسية.. بلغ منه الغضب مثل ما بلغه من المعتصم لما ترامى الى مسامعه ذلك النداء الفاحم : وامعتصماه...! ابنة يوليان كانت قد ذبحت بالأدب الذي أخذت به في بلاط حاكم طليطلة.. تسلل هذا الأدب الى ضفائرها وثيابها الداخلية وشاركها فراش نومها على

مهل.. فلم تفق إلا على صراخ عرضها معصورا بين حبال أفعوان.. وسحقها الأدب الرفيع بعد أن دربها على التساهل في المبادىء.. وشجعها على البذل من ذات النفس.. وذات الشرف.. وطلع موسى بن نصير ليوليان وهو في هذا الظرف الدقيق.. فرأى أمامه رجلا لم ير له مثيلا في الرجال، جاء يعدو على فرسه مقتحما زوايع الصحراء، خارجا من معركة داخلا في أخرى ينصب خيمته صباحا في هذا الأفق، لينقلها مساء الى أفق آخر.. متحركا في جميع الاتجاهات.. يقاتل على أكتاف الجبال.. ويقاتل على شواطىء البحر، ويقاتل فوق رمال الصحراء.. ويقاتل مع الجند الكثير ومع الجند القليل.. ومع وجود الزاد، ومع فقدانه، رجل باع نفسه لله واشترى قصرا في الجنة.. فليس له بعد ما يحرص عليه.. الموت الذي هو أسوء الاحتمالات لا يعني بالنسبة إليه معضلة.. المعضل الحقيقي بالنسبة اليه هو الا تكفي حياته وروحه المبذولة لتحقيق الهدف.. رجل أسطورة.. حدث خارق لا يتكرر في جميع العصور.. وليس من السهل أن يخرج شخص من غوطة دمشق.. فلا يقف إلا على رأس يوليان حاكم سبتة.. إذا نحن أقمنا وزنا لحساب الإمكانات والاحتمالات.

وكان بين الرجلين فوارق تكاد تكون عازلة.. أحدهما قعدت به أمانيه على كرسي يرجو المحافظة عليه.. تصل الى شاطىء البحر ثم تقف.. مرتدة أمام ما يليها من أمواج هادرة.. أغلى ملاذه كأس مشعشعة.. وغادة تحت الطلب.. وسلاح لامع مصقول.. وفرس يحسن الاختيال

وأبواب تدخلها البشائر ولا يلجها الخوف.. لديه من الإيمان المسيحي ما يكفي لصلاة يوم الأحد.. ووضع صليب ذهبي في صدر البيت.. والصلاة ليسوع ساعة الإحساس بشدة.. يحب الحياة على طريقة اسفنج البحر حين يمتص السوائل.. وطريقة اللبلاب حين يلتف بالشجر.. ويتسلق الحيطان والشرفات.. وطريقة الريح حين تهب على أوراق النبات وهفهاف الثياب يومن بفكرة الجنة وفكرة النار في تناوله لشؤون الدنيا.. الجنة هي الوجه الجميل، واللحن الآسر، والعيش الرخو، والأمن المستتب.. والنار هي العرق الكثير، والحركة الدائبة، والنوم على خطة للهجوم أو خطة للدفاع، مع ما يصحب ذلك من مقاطعة التقلب بين الوسائد والشمس سلطانة الكون.. والتردد بين الحجرات والليل يلم أطراف خيمته في تثاقل كسول.. اما موسى بن نصير فجنته ليست هنا.. مؤجلة لميقات يوم معلوم.. موصولة بأطراف الأمل الصوفي.. بشرى جميلة تتراءى طلائعها خلف الأفق البعيد.. غبطة استكانت في أعماق القلب المومن توسعه من برد وطمأنينة لا بد أن يكون الطريق الى جنة موسى بن نصير مستغرقا طول الممر الواصل بين الأزل والأبد.. كالبعث الذي ينتظر حبة القمح.. مصدره باطن الأرض.. كالروعة المورقة في بعض الكلمات.. لا بد من مرورها بدهاليز الخيال الغارقة في الغموض.. باختصار فموسى يعتقد أن الموت استشهادا هو الطريق الى الجنة..

ومن الأفضل أن يكون الموت بأسلوب بطولي ممتاز.. ليكون المقام في الجنة أحسن.. ومن الأروع أن يكون الموت البطولي ذا شرف..

ليكون الجزاء في الجنة أو في .. فروق وفروق بين الرجلين.. فما الذي جمعهما على خطة واحدة..؟ عندما يترك الواحد منا لغة المؤرخين يجد نفسه إزاء هذه المسألة أمام ظاهرة طالما تكررت، وهي أن الله تعالى يؤيد الإسلام حتى بأعدائه..! أيده بأبي لهب.. إذ كشفت دناءته نبل محمد.. ودفع صلفه أتباع الدعوة الجديدة الى الاستماتة.. وأيده بأبي سفيان.. وحتى بقيصر الروم.. وعاهل الفرس. فلماذا لا يعين يوليان دولة الإسلام وهو من أعدائها بالقوة أو بالفعل...؟ شيء رائع ومدهش أن تفتح سفن مسيحية أذرعها لاستقبال مسلمين ذاهبين لرفع المظالم المسيحية عن أمة عانت منها الكثير..

نود البقاء قليلا في سبتة، صحبة طارق عامل موسى بن نصير.. ولوان الحديث عن سبتة بدون الأندلس حديث ناقص.. مبتور الذيول.. مقتضب الى حد التشويه الكامل.. ولكن في سبتة وحدها الخير الكثير.. فهي بالحورة الفاكهة.. ومقدمة البشارة.. والنقرة الأولى قبل تدفق الألحان.. وكل الألحان العربية تبدأ بالهمس.. وتنتهي بالصراخ.. تغازل أولا.. ثم تجذب جذبتها الكبرى.. لذلك كان الطرب العربي يداعب مستمعيه أولا.. تمهيدا للرمي بهم من فوق الجسور.. أو في أحواض خاصة يعوم فيها الزئبق..

لما مر موسى من سبتة عبر طليعته طارق غير شخصيتها.. أعطاها انطباعا آخر.. كانت الليالي التي قضاها في سرير نومها كافية لضبط مزاجها حسب توقيت من نوع مختلف.. وكانت الخطوات التي نقلها عبر

دروبها مناسبة جعلتها مستعدة لتغيير كل اسمائها الأعجمية.. كان موسى هو الرجل المتخصص في إعطاء التاريخ وظيفة يؤديها طبقا لتعليمات جرى التفكير في شأنها..

وكان طارق قد سبقه الى مغازلة المدينة المغموسة الأطراف في مياه البحر.. فأعطت أحدهما ذات اليد التي أعطتها للآخر.. رجلان من هذا الطراز يتعاقبان على جسد مدينة رهن الإشارة.. أمر له نتائج قد لا تكون متوقعة.. وواحد منهما كاف لتدويخ مدينة كهذه وأخذها أخذ عزيز مقتدر.. فكيف وقد اخترقها شهابان : أحدهما قذفت به آفاق المشرق والثاني قذفت به آفاق المغرب.. يمثلان جبهتين عربيتين لهما الصدر دون العالمين أو القبر.. والوجود الى جانب طارق ليس حدثا عاديا.. كالوجود الى جانب ذي القرنين.. أو صلاح الدين الأيوبي.. أو يوسف بن تاشفين.. فطارق هو الرجل الذي ما أن لامس الإسلام شغاف قلبه حتى تحول الى زوبعة لا تكفي أرحب الأجواء لامتصاص عنفوانها.. وكل شجرة أو صخرة أو مدينة مرت بها إلا وتركت عليها شيئا من غبارها الهائل.. تدفقت العربية على لسانه حادة الأريج ولما يمر على تهجيه لحروفها الا وقت يسير.. وإن كان هناك من يستكثر على العبقرية الإنسانية هذه السرعة في التفتح على مواهب لغة لم يقع اكتسابها إلا مؤخرا.. لما نطق طارق بالعربية وخطب بها، كانت العربية على لسانه السنة من لهب.. تكفلت بإحراق سفن يوليان.. وإحراق كل الجسور من

وراء جنوده وهم في زحفهم العظيم، إني أتخيله داخلا مدينة سبتة في روعته البطولية.. يختال على صهوة فرسه المتصبب عرقا.. عينان متقدتان، وقامة برونزية، انحدر منها سيف جمع الشجاعة والتقوى في غمد.. ورجولة شاعرة بالإكتفاء الذاتي.. وجبهة توزن بكل جبهات القتال المضادة.. وذراع مجدولة انسابت انسياب الرصاص في أنبوب من حديد.. بينما نساء المدينة انتشرن في المنعطفات، وأطللن من الشرفات، يحدقن في رجل المغرب الذائع الصيت، وهو يجوس خلال المدينة المرشحة للزواج منه، بعد أن أثبت قدرته على شق الصفوف إليها.. وتقدم كل العشاق والمعجبين..

كان يوليان مخطئا عندما ظن أن صداقة طارق من النوع الذي يعرف.. هناك فرق بين صداقة الثعالب وصداقة الأسود.. بين صداقة قد تصل الى حد الشذوذ الجنسي.. وصداقة لا تقدم الوعود.. ولا تفرش الطريق بالورد.. ولا تدشن عهدها بالقبل، لتختمه باللكمات.. وطارق لم يدخل سبتة بقصد حضور مأدبة.. أو حفلة زفاف ملكي.. أو التماسا للراحة من عناء السفر.. وإنما دخلها كما يدخل الخيط في قطعة نسيج.. بقصد الإقامة الدائمة .. أو كما يدخل اللفظ صفحة من كتاب.. بنية التوطن الخالد.. أو كما تدخل أشعة الشمس تحت الجلد.. بإرادة الترسب في العظام.. طارق لديه من سمو الأخلاق ما يؤهله لصداقة مثالية.. مالم تكن هذه الصداقة على حساب عقيدته وإحساسه القومي.. وهو عندما ضم اليه سبتة لم يكن خائنا ليوليان.. لأنه ببساطة لم يعده بشيء ثابت.. لم

يضع يده في يد هذا القوطي ليؤكد له وقوفه الى جانبه ليبقى دائما على كرسي الحكم.. خصوصا وأن مدينة سبتة لم تلبث أن اعلنت اسلامها.. مستقبلة المهاجرين.. والأنصار.. رافعة أعناق المآذن.. كاتبة لا إله إلا الله محمد رسول الله على جبهتها الجميلة.. مستعدة لحفظ القرآن الكريم.. والجلوس الى مائدة الأدب العربي الفاخرة.. محولة قبلتها من طليطلة عاصمة الحكم القوطي.. الى مكة منزل الوحي.. وفي شريعة طارق أن من غير المعقول أن يخضع المسلمون لحاكم غير مسلم.. وأن يكتب القرآن تحت شارة الصليب.. وان يشرع المسلمون في صلاتهم وعلى رأسهم كاهن أو قسيس.. وأن تنظم قوافل الحجاج الى بيت الله الحرام بإذن من الحاكم المسيحي.

وبإشراف هيئة ترى الايقونة أفضل من الكعبة المشرفة.. ومن كل مزارات أولياء الله المنتشرة على امتداد بلاد الإسلام قضى الأمر وصار طارق حاكما لمدينة سبتة.. أشهى أغنية لديه هي الآذان.. واحب الأناشيد الى قلبه ترتيل آيات القرآن.. وأروع المشاريع في رؤياه فتح مسجد.. أو فتح مدينة.. وتدشين معسكر لتكوين الجند.. أو تأليف كتيبة لمواصلة الزحف العظيم..

رجل كهذا لا يمكن أن تحبه مدينة كسبتة الوديعة من النظرة الأولى.. أو الثانية.. فهو طراز فريد بين الرجال.. لا يتقن أسلوب الغزل المتعارف.. فهو - مثلا - لا يعرف كيف يلثم الأنامل.. ويحل الجدائل.. ويداعب الأكف.. ويتراوح بين العين والحاجب.. ويتجول بين الخد

والنحر.. ويحلم بين الأرنبة والشفة.. كل المدن التي أحاطها بذراعيه القويتين شكت الوجع معه المتعة.. والقسوة في باطنها الحنو.. والخشونة في خلالها الرقة.. عاشق كطارق كان يروض الضلع الواهن على تحمل الثقل.. والكف الرقيقة على تعود الضغط.. والجانب اللين على المقاومة.. ولم يكن طارق يستأذن حبيباته من المدن في أن يحبهن.. كان لا يستأذن في المكاشفة بالخطاب.. والسماح برفع الحجاب.. وعقد السؤال بأسباب الجواب.. وإنما كان يتصرف كما يتصرف النسر إذ ينزل بباسقات الدوح، أو منحنيات الجبال.. يترك البيئة تتعود على مزاجه بمهل.. أو كما يصنع الحوت الضخم، بعد احتلاله مساحة في عرض البحر.. يملك نفسا طويلا لفرض التلاؤم معه على مجاله الجديد.. لا يستعجل النتائج.. ولا يومن بفكرة الانسجام السريع.. والاستجابة المستعجلة.. وما ظنك برجل تحمل اسمه الجبال..؟

كان مروره بجبل أثناء عبوره الى اسبانيا كافيا لكي يستكين الجبل تحت اسمه الى اليوم، وربما الى الأبد.. تعاقبت عليه حكومات وشعوب، وما زال يحمل توقيع طارق.. وهو توقيع غير قابل للزوال.. كتوقيع البحار على صخور الشواطىء.. وتوقيع الزلازل على تضاريس الأرض.. وتوقيع الشمس الإفريقية على جلود ما يطأ ثراها من كائنات حية.. وتحول الجبل العتيد بمرور الزمن الى وكالة سياحية تصدر توقيع طارق الى كل أنحاء الأرض.. على طوابع البريد، وفي عناوين الصحف، وعلى ظهر علب البضائع وهدايا رأس السنة الميلادية. فاسم طارق ينام

في اليوم العشاق.. ويلمع في التراث الأدبي للعائلات.. ويشرق في ملفات رجال الحكم والسياسة.. ويدخل ضمن مواد الامتحان في كل جامعات العالم..

لما ترك طارق مدينة سبتة الى اسبانيا، كانت المدينة قد دخلت دورة جديدة من تاريخها.. صار يوليان يعيش فيها كما يعيش فأر بين مخالب قط.. أو كما يعيش غصن في مهب العاصفة لأن طارقا موجود فيها وان رحل.. لا يمكن شطبه من ذاكرة المدينة ولا الغاؤه من لغة حياتها اليومية.. ولا مصادرته من الحيطان والأبواب والدروب والأشجار وعيون الناس منذ بنى طارق مسجده بها تضايقت الكنائس من الطارق الجديد.. تسمع في نواقيسها رنة حزن.. وتتراءى لها أحلام مزعجة أثناء نومها المثقل بالكوابيس يحزنها أن ترى جماعة من المومنين بالله يتجهون نحو مسجد طارق.. وإن ينافسها في سلطتها الدينية منافس خطير.. أثبت كفاءته في جهات أخرى كان فيها السيد المسيح يتجول وحده بين رعايا مخلصين.. وتمخض مسجد طارق فولد عدة مساجد.. بين الحين والآخر تنشق الأرض عن مئذنة ترتفع عاليا مزهوة بجلالها العجيب.. كأنها كلمة الشهادة تجسمت هيكلا رفيعا يعرج نحو السماء.. تظنها لسموها نزلت من السماء ولم تصعد من الأرض.. عشرات المساجد استوطنت المدينة وافترشتها طولا وعرضا حتى لقد كان لكل بيت مسجد وحمام.. مسجد طارق كان النواة الأولى.. في تربة تغذت بالسماد الإسلامي..

فكان العطاء عظيم النماء.. كل بيت الحق به مسجد وحمام.. لكأن

سكان المدينة لا عمل لهم إلا الاستحمام والصلاة.. ثم الاستحمام فالصلاة لا يفصل المسجد عن المسجد الا المسجد.. أو الحمام. والمآذن تتقابل في الفضاء ويفضي بعضها الى بعض.. بلدك هذا لا أتصور الغواية تعيش فيه إلا بصعوبة.. فلكل بيت حارس يقظ يعمل بترخيص خاص من السماء.. انتقل من الرقابة العامة الى الرقابة الخاصة.. صار عمله سهلا.. يؤديه بنجاح تام يسكن مع الشخص الموضوع تحت مراقبته في بيت واحد.. لا يفصله عنه إلا باب موصد.. ينفتح عدة مرات في اليوم الواحد الغواية إذن محاصرة.. وغير مسموح لها بأن تتنفس إلا من سم الخياط.. ما أن تأخذ اهبتها للعمل حتى يخرسها صوت مؤذن.. أو تنفضها عتبة مسجد هذا هو السر في أن المدينة امتلأت بالزهاد والمتصوفة وأولياء الله.. يعطرونها بأنفاسهم الطيبة .. ويرفعون درجة خشوعها الى أرفع مستوى.. ومع ذلك فالغواية لا بد أن تكون موجودة.. ولو في ظرف عصيب.. لا يمكن أن يوجد الورع دون أن تبحث لها عن موطإ قدم الى جانبه.. أو قريبا منه.. أو في بعض مجالاته غير المحروسة.. أو هوامشه المأنوسة بشيء من تساهل .. كنقطة ضعف صغيرة مهملة.. تتسرب منها نسمة هواء منعشة.. تلطف من صرامة الجو.. يستحيل أن تكون مدينة كسبتة كان يعبد الله فيها بذلك الشكل الرائع ولا تذوق متعة الزيغ الخفيف الباعث على الضراعة من أجل المغفرة .. وهي المدينة المفتوحة على البحر من كل الجهات.. والبحر دائما يرمي المدن الواقفة على بعض أطرافه بشيء من تحولاته وعنفوانه.

هذا الى ما يستلقي خلالها من بساتين ورياض يعتبر الحب العمل اليومي لكل ما يملأها من عصافير.. أضف الى ذلك كونها سكرت ببنت الحان قبل ترتيلها لآيات القرآن.. ووضعت متانة الإسلام فوق محبة النصرانية.. ووقاية الحجاب فوق اباحية السفور.. تبتلت بعد أن تهتكت.. واتزنت بعد أن عربدت.. وصامت بعد أن هامت.. وتحنفت بعد أن تزندقت.. واستغفرت بعد أن اذنبت.. جاءها الحق إثر التحامها بالباطل.. وأدركتها العفة عقب افتتانها بالانحلال.. وشملها الصلاح بعد سقوطها في حضن الخطيئة.. لا عجب إذا هزتها أطياف من عهود مضت.. وأخذتها نشوات من صبوات خلت.. وداعبتها أصداء من هوى أذبلت زهراته الأيام.. لكن تقاها صانتها من الخضوع لفتنة الهاجس.. وورعها اتقذها من الإنقياد لأحلام الجاهلية.. واسلامها تجافى بها عن مباذل الفجور.. ورضيت الغواية بأن تحيا مجازا إذا أعياها أن تعيش حقيقة.. مكتفية بالاحتيال على تشبيهات الشعراء واستعاراتهم وصورهم البيانية وما يطوف بهم من أخيلة شديدة الإغراء.. فللوردة خد.. وللغصن قد.. وللنعمة إقبال وصد.. وللزهر عيون.. وللعيش فنون.. وللبيان سحر وفتون..

تجاذبت الشخصية الإسلامية لسبتة شتى التناقضات التي كانت تحكم المغرب والأندلس يومئذ.. كانت أموية الولاء، ولم يلبث ولاؤها هذا أن انحل تحت تأثير نزعة بربرية اتسمت بطابع الثورة، حيث وجد فيها المذهب الخارجي مرتعا خصبا وشجعها على التمرد والعصيان، وعرفت الولاء للأدارسة، وأدارت وجهها نحو فاس تتلقى عنها الإشعاع

وأسلوب الحكم، واقعة بعد ذلك تحت الظلال الزاحفة لقامة عبد الرحمن الناصر، فعاودها الولاء للأمويين، آتيا هذه المرة محمولا عبر الأجواء الإيبيرية.. قريب المصدر.. مسيرة بضعة أيام.. مسافة ما بين الصوت والصدى..

ولكن المغرب استعاد بعد ذلك المدينة الموزعة الأهواء، المتنوعة الولاء، وكان أن تقدم منها المنصور بن أبي عامر.. فوقف بها وقفة تركت فيها آثارا قاومت تقلبات الأيام، وشخصية الرجل كانت من النوع الجارف.. أقام دولته على أسطورة.. روج لها بذكاء نادر.. ووفر لها عناصر الإخراج والتشويق والإثارة والحبكة.. واستثمرها بأسلوب بارع.. وصدقه الناس إلا القليل منهم.. فضرب المكذبين بالمصدقين.. واثاب على التصديق وعاقب على التكذيب.. ورفع الواقع الى مستوى الأسطورة. وطال عمر الأسطورة حتى امتدت الى عقبه.. وحتى تلقفها آخرون وقاموا بنفس الدور.. وشغل الناس بحركاته الكبيرة، وأعماله المدهشة، الشبيهة بخوارق العادات هذا الرجل لما أخضع مدينة سبتة لحكمه أراد أخذها بما يشبه عملية غسل الدماغ.. صعد الى المرتفعات وشرع في بناء سبتة جديدة سماها المنية.. أراد استلال الروح من سبتة القديمة.. وابعادها عن الأضواء.. وأضعاف جهدها الحضاري.. بتحويل طاقتها الحضارية الى المنية.. مدينة المنصور بن أبي عامر.. بحجة التحصن ضد الغزاة الآتين من هنا وهناك.. وأوشكت سبتة أن تصاب بعقدة الانقسام على الذات..

والوقوع في سوء التفاهم بين الذات العليا والذات السفلى.. والخضوع لصراع يجري بين القمة والقاعدة.. بين الجبل والسفح.. بين سبتة الملقاة على شاطىء البحر.. وسبتة المحمولة الى المرتفعات.. وعندما تصير سبتة الجديدة تصدر أوامرها الى سبتة القديمة الواقعة تحت قدميها الرفيعتين..

تتعقد هذه الأخيرة وتسكن بالمركبات.. باكية عزها القديم.. معتبرة نفسها بائسة سيئة الحظ هجرها زوجها الى زوجة شابة أصغر سنا وانضر.. لكن الزوج العتيد أدرك الأجل المحتوم قبل البناء.. وترملت سبتة بموت المنصور بن أبي عامر.. ولا بد أن تكون حزينة.. لأن فقيدها كان سيد الرجال.. رجولة وفحولة وشهامة وموت الأبطال مؤلم بشكل تراجيدي صاعق.. ولو كانوا طغاة وجبابرة سيما والمنصور صار أمل المسلمين المغاربة والأندلسيين.. لترميم ما تصدع من هيبة دولة الإسلام في اسبانيا ونكرر امتلاك سبتة مرات عديدة.. ولم يكن ابن أبي عامر إلا واحدا من غزاتها الكثيرين.. كل منهم اغتصبها أولا.. ثم أعلن زواجه منها.. وقل ان ترك لها أمر اختيار زوجها المفضل.. بذوقها وحاستها الغريزية.. جلهم دخل عليها تحت بريق السيوف.. واستباحها على ضوء الحرائق التي أشعلها أثناء هجمته الشرسة.. ولم ينتظر لحظة واحدة أن يسمع كلمتها.. ورأيها.. نطقها بنعم.. أو بلا.. يكفي أن يمتلك قوة العضلات.. والجرأة على الامتلاك لتجده على رأسها جارية ملك اليمين.. خدمت من تحترمهم ومن تحتقرهم.. من تراهم من فصيلة السادة.. ومن تراهم من فصيلة الرعاع.. موقعها أهلها لذلك.. كالقنوات الواصلة بين

البحار.. والممرات الرابطة بين سلاسل الجبال.. وقفت على مدخل البلدين : المغرب والأندلس.. وقوف وسيط بين طرفين متجاذبين.. أحيانا يموتان حبا.. وأحيانا يشتعلان حقدا.. ولا بد أن تتحمل نزواتهما.. واندفاعهما للعناق.. أو تورطهما في الخناق.. عبرها تمتد أيدي الطرفين بقصد المصافحة أو بقصد المكافحة.. وعانت سبتة الكثير.. بين هذين الحبيبين العدوين .. ما أن تبارك لهما الصفاء والوداد.. حتى تندب حظهما من الجفاء والبعاد.. لا تعلم إذا مر بها رسل من هذا الطرف الى ذلك. أهم رسل خير واصلاح ومحبة. أم هم رسل تآمر ومكيدة وفتنة.. خيول تركض في هذا الاتجاه أو ذاك.. متسللون هاربون اما الى هذه الجهة أو تلك.. البريد يعمل بدون توقف.. تهديدا بحرب، أو التماسا لعون، أو دفعا لظن، أو طلبا لنفع، أو عقد المعاهدة، أو كشفا لمكيدة، أو مغالطة في خطة.. الممر المائي يأبى الا أن يتمدد بين البلدين.. لا يريد أن يضيق ويضيق.. حتى ينعدم..

ويتصل التراب بالتراب.. ويلتحم الرصيف بالرصيف.. وتتعانق أشجار العدوتين. عناق ودووفاق، أو عناق هيمنة واحتواء.. لو أن مياه البحر لم تكن ذات عناد. لتجمدت تحت أقدام الألوف التي عبرتها في ذهابها والأياب.. وانتصبت جسرا ثابتا متين البنيان.. وتحملت سبتة عبئا ثقيلا في هذه الحركة الدؤوب، عبرها تنتقل القبلات واللكمات.. هي طليعة كل خطة للهجوم أو خطة للدفاع.. الجولة الأولى دائما تبدأ منها.. ومعها.. وعلى ضوء نتائجها يتقرر مصير كل محاولة.. ويمكن تصور

مراحلها المستقبلة.. ومن خلالها تبدو الخطوات التالية بصورة أوضح وأفضل.. أول خانة تبدأ منها الحركة في قطعة شطرنج.. وعلى هذه الحركة تتوقف نهاية العملية كلها في أحوال كثيرة.. لذلك قالوا عن هذه المدينة أنها المدخل الى المغرب، والمدخل الى الأندلس، باب كل منهما. والمداخل بين الأوطان والشعوب دائما تعيش في حالة ترقب وتوجس.. وكثيرا ما لا تعرف النوم الهادىء الخالي من الكوابيس والأحلام المزعجة.. هي في أحسن الأحوال تقيم على شيء من سوء الظن.. بدافع من اليقظة والحزم حزام العفة الوطني يعتبر امتلاكه مقدمة لامتلاك الوطن كله هو مفتاح المسألة كلها.. لذلك ينصب عليه الاهتمام.. فإذا أمكنت السيطرة عليه، كان الباقي أشبه بجولة سياحية أحيانا..

وتأرجحت سبتة بين المغرب والأندلس.. وتغير شعارها السياسي عدة مرات.. وادعتها الأسرتان المسلمتان الواقفتان على العدوتين.. ورقة يلعب بها.. ما أن تخرج من يد أحد اللاعبين حتى تتحول الى يد الآخر.. لتؤدي نفس الدور وبذكاء أقل أو أوفر.. كانت مغربيتها - أي المدينة - هي الأصل.. ورغم أن ملابسها السياسية تغيرت مرارا، فإن الأصل بقي دائما راسخا.. متمكنا من الأعماق.. لا ينال منه.. كل من فرض عليه وضعا تأباه طبيعته يشعر بالقلق.. بعدم الاستقرار.. بأن وجوده غير مشروع.. بانتفاضة من الأصل المقهور يصير شظايا.. اشلاء مبعثرة.. وفعلا فإن الأصل كثرا ما كان يتحرك وينتفض.. فينقلب الوضع رأسا على عقب.. والأصول كانت وما تزال تبحث عن نفسها.. بوسيلة أو

بأخرى.. حتى تثبت وجودها.. وتطرح عنها كل زيف.. ورغم أن سبتة بالنسبة الى جغرافية المغرب طرف وهامش.. فإنها بالنسبة الى أمنه واستقلاله مركز وقلب. وبالنسبة إلى حضارته وثقافته عقل ومزاج.. كلما داهمها دخيل أحست فاس أن أسراب الطيور العابرة لسمائها مصابة بالذعر.. ومرت سلا بنوبة بكاء تكاد توقعها في الجنون.. وارتفعت حرارة مراكش الى حد يشعر بالخوف.. ووقفت شعور أبناء طارق وموسى بن نصير وعقبة بن نافع.. شعورا منهم بأن البيت المغربي كله لم يعد في أمن.

التحرك من ضجيج الحكم والسياسة نحو واحة الفكر الهادئة، وحدائق الشعر الوادعة، بمثابة التحول من صخب الشارع الى سكينة البيت.. أو من قلب المعركة الى الخرائط والبيانات الموضوعة على المكاتب في رئاسة الأركان.. وهذا يعنى أن هناك صلة وصل بين حياة الفكر وحياة السياسة، كالصلة الواقفة بين القواعد الفقهية وما يجري في المحاكم.. أو بين عروض الشعر وإيقاع القوافي.. وهذا لا يعني أن الفكر مسؤول عن كل الحركات السياسية، فالسياسة كثيرا ما تتمرد على القوانين.. أو المبادىء.. أو المثل الأخلاقية.. أو القيم المعنوية.. فتكون كأفعى الحاوي حين تخالف التعاليم وتعض من جيىء بها لإدهاشه.. أو كالبندقية المعبأة.. حين تنفجر بين يدي من يلامسها بقصد الدعابة.. ومهما يكن من أمر، فإن من الممتع أن نتحول الآن الى عقل سبتة ووجدانها لتقديم بعض الملامح والسمات، لا بقصد التاريخ لهما ووضعهما

داخل فصل مدرسي.. ولم تكن مدينة سبتة مجرد متعلمة دارسة، تحفظ الشعر، وتروي الحديث، وتدون قواعد الفقه والأصول، وتضبط مسائل النحو والبلاغة. فهي قد تجاوزت هذه المرحلة، وقعدت مقعد الأستاذية تلقي المحاضرات.. وتعطي الإجازات.. وترخص بالتدريس والافتاء.. وتجري الامتحان على من يرد عليها من طلبة العلم.. ما من واحد من علمائها الافذاذ الا ووصف بالأستاذ أو الإمام.. يكفي أن تتصفح كتاب (الإحاطة) لترى أجيال العلماء الذين بدأوا دراستهم بالأندلس وأنهوها بسبتة.. والكثيرون منهم وفدوا على المدينة المغربية علماء تامي التكوين، ليتحولوا فيها الى مجرد طلبة.. ينشدون فيضا من معرفة.. ومنهم من لم يترك بلدا اشتهر بعلم أو أدب سواء في المغرب أو في الأندلس الا وعرج عليه، التماسا للمعرفة في مختلف مظانها. ولم تكن سبتة لتفوته، لأن عندها طريفا تعطيه.. ما بين مستعجل يأخذ ضالته ويرحل، ومستطيب للمقام الطويل وربما إلى آخر العمر.

وما استقبلت سبتة عالما أو أديبا إلا وودعت نظيره من خيرة رجالها ليكونوا رسل أدب وعلم في أي بلد حلوا به.. فكان التواصل الفكري والحضاري قائما على قدم وساق بينها وبين كل من فاس وغرناطة وغيرهما من مراكز الثقافة القائمة على طرفي العدوتين واشتهرت اسر سبتية بفضائل العلم والأدب والأخلاق كأسرة عياض : الحفيد والأب والجد، وأسرة الشرفاء الحسنيين وأسرة الأمراء العزفيين. ولو عن لنا أن نقف عند شخصية عُلمية أو أدبية كان لها بسبتة وغيرها من

مدن العدوتين الصيت البعيد. لبقينا حائرين أنقف عند الامام الأستاذ أبي اسحق الغافقي المديوني ؟ أم لدى الامام ابن رشيد دفين مطرح الجلة خارج (باب فتوح) بفاس ؟ أم لدى الشاعر الكاتب مالك بن المرحل. شاعر بني مرين الذائع الصيت ؟ أم عند الشريف الإدريسي الجغرافي الشهير. والعبقرية المغربية التي أذهلت الأوساط العلمية في صقلية ؟ أم عند القاضي عياض اليحصبي. قاضي سبتة وتادلة ودفين مراكش العظيم ؟ أم نقف عند واحد من آخرين وهم كثير ؟ أود الوقوف قليلا عند أبي العباس السبتي شريف سبتة.. فقد كان رصيدا ضخما من الجود والفضل والأريحية تخبئه المدينة كي تنفق منه كل يوم.. وتوزع خيراته بسخاء ظاهر في الأيام الحوالك.. رجل كان يعتبر نسبه الشريف تكليفا ومسؤولية.. عبئا موروثا عن الأسلاف الأكارم.. منقبة عائلية انتهت إليه.. لينهض بها كاملة ويحولها الى من يليه.. دون أن يخدش لها وجه. أو تضيع منها فضيلة.. أو يهدر لها معنى.. التقى على حبه الفقراء والأغنياء. الفضلاء واللؤماء.. الكبراء والبسطاء.. شجرة مبسوطة الظل.. دانية القطوف.. سهلة المجتنى.. تأوي إليها العنادل والعناكب.. ويحتمي بفروعها من يروم الإختلاس ومن يطلب الاستئناس.. مخضرة الأوراق في جميع الفصول.. تمسك بالربيع لتجعله حاضرا بشكل دائم.. لا الصيف يرميها بالجفاف.. ولا الخريف ينحلها بالشحوب .. ولا الشتاء يقوضها بالإعصار.. متخلفة عن عائلة استوطنت سبتة من زمن بعيد. مواطنة جميلة المواطنة نبيلتها.. دأبت على الإنهماك في تعطير المدينة وتحلية جيدها بيواقيت الفضيلة والكرم.

وجاء أبو العباس ليكون أروع خاتمة لأجمل بداية.. بلغ فيه الجلال العائلي قمة ما قدر له من رفعة وسمو. وتكاملت فيه أنبل الصفات، مارة عبر أجيال أو سعتها من صقل وتهذيب.. عاشت أغمارا ومرت بتجارب نفت عنها كل شبهة من شائبة واقتربت بها من مدارج الكمال والجلال.. عاش أبو العباس في سبتة أجمل أيام حياتها وحياته.. كما يحيا النور في قلب جوهرة كريمة.. أو كما يحيا المعنى النبيل في الترنيمة العذبة.. بسطة في الرزق مع سمو في الذوق، وعلو في المكانة مع لطف في الشمائل، واقتراب من ذوي السلطان مع تأليف لقلوب العامة.. هذا الى امتلاك لجوهر البلاغة، وتجمل بحلية الأدب، وارتواء من مناهل البيان وتشتمل على ذلك كله عقيدة رفيعة الذرى، انسانية المنزع، مع شفوف وسماحة ولين عريكة ورقة جانب وجمال سمت. مائدته تباعدت أطرافها، واتسع قطرها، وامتدت طولا وعرضا حتى صارت مساحتها بحجم مساحة المدينة كلها.. تسعى الى ضيوفها قبل أن تحدثهم نفوسهم بالسعي اليها.. تدعوهم اليها بصوت بالغ التهذيب، يفتح شهية الشبعان، ويصون كرامة الجائع، ويشجع خطو المتردد.. جليسها مأنوس الجو، موفور الحبور، مستجاب الطلب، والصادر عنها ممرع الجانب، مبسوط الخاطر، ريق المزاج، تواق للعودة، مأمون الجوع، مضمون الرغيبة.

صارت سبتة على عهد أبي العباس ذات معلمة بارزة، وخاصية مشار إليها بالبنان. ما ان يفد على المدينة غريب أو قريب أو نسيب،

حتى يجد حافة المائدة أقرب إليه من أطرافه، واحنى عليه من وساده ولحافه، وأوقى له من درعه وسلاحه.. ليس من دونها حراس، إلا مضيفين يوسعون للضيف في المجلس، ويغرونه بالإنبساط، ويتحفونه بالإلطاف، ويقربون منه الطعام أصنافا بعد أصناف، وخلال ذلك يكون شريف سبتة في بحبوحة الاغتباط والعز الموطد الأركان، طلق المحيا، مشرق البسمة، بهي الطلعة، عذب الحديث، مفعما من انتشاء واكتفاء، يطوف على ضيوفه ليسبغ عليهم جميل تلطفه، ويبيحهم خرق تعففه، لا يرى بالنكتة بأسا وإن أساءت بعرف، ولا بالمزحة عيبا وأن تشبهت بالخطيئة.. فإذا أحس أن حضوره يفسد الدعابة، ويعقد الألسنة، ويخجل الجباه، ويحرج العيون، توارى عن الأنظار، واحتجب عن العيان، تاركا طيور المرح ترفرف من غير عائق، وزهور الفكاهة تتفتح من غير خوف، وضاحك الكلمات تميس مليحات القسمات، معسولة العذبات.. وهو سيد من يعلم أن المرح أنيس الولائم، نديم المآدب، ينشط الأيدي لإعداد اللقمات، ويعين الأفواه على مضغ ما يلقى اليها الحين بعد الحين، ويجعل خوان الطعام كمطرح المدام، والآكلين الشاربين كالندماء الظرفاء العابثين. وما خير طعام يزدرد دون هوادة، وشراب يورد دون تلمظ، كأن القوم احرار كالمرغمين، طلقاء كالمكرهين، إنما روح الولائم بشاشة تذهب بالكلفة، وطلاقة تشي بالمودة، وأنس يفتح الشهية، ضيوف الشريف أبي العباس أكثرهم لا يعرفه، مستدعى من الطريق العام، اعترض سبيله ليعرج على المائدة العامرة فيصيب منها مالذ وطاب قبل أن يستأنف السير.

وكل من طعم منها لابد أن يعود، فما سمعت بمائدة محبوبة كمائدة هذا الرجل.. لاتسأل ضيوفها حتى عن أسمائهم.. أو ألقابهم.. أو وجهاتهم.. لاتصنفهم بين علية ورعاع.. لاتضع في جناح فاخر الطعام، وفي جهة فضلات العظام.. لا تشترط على من يجلس اليها أن يقدم شهادة بحسن السلوك .. هي مائدة عربية مائة في المائة.. مستعدة للسلوك العربي بكل آدابه وكل رعونته، لا بأس عندها أن يخرج أعرابي من أهاب ضيف متحضر.. وان يشذ الطبع البدوي عن مكتسب العادات.. وليس للشريف إلا مائدة واحدة وان تعددت جهاتها يغشى جوانبها كل العرب.. ومن مختلف العشائر والقبائل.. من المدر كانوا أو من الوبر.. فلا عجب إذا كان علىَ رأسها تاجر جمال.. وفي ذيلها قائل شعر ومبدع مقال.. وفي وسطها ثاقب جوهر وناظم لآل.. كل الأيدي تمتد نحو طعام واحد.. اليد المعتادة على تحريك الأوتار.. بجوار اليد الخارجة من روث الأبقار.. بجوار اليد الخبيرة بتدوين الأشعار.. كان الشريف يعوض أهل بلده عن نقص محاصيلهم الزراعية المحدودة، لأنهم كانوا أهل تجارة، ولم يكونوا أهل فلاحة، فعاشوا متعودين على الاقتصاد في الإنفاق، والقناعة بمقسوم الأرزاق، لكن رجال الشريف كانوا يحملون اليه الغلال من مختلف الآفاق، وينتزعونها من باطن الأرض، ويستنبتونها حتى من شحيح التربة، لتقدم بعد ذلك سهلة ميسورة لكل عابر سبيل.. وكأنها مجتناة من أوفر الطرق، مبذولة بأرخص الأثمان، معروضة في الأسواق بغزارة تزحم طريق المارين...

يا أبا العباس اني وصلت بابك متأخرا.. بعد انصراف جميع ضيوفك.. وخلو مائدتك من الطاعمين.. وبعد أن صيح في الناس : ألا من راغب في الأكل من طعام سيد الكرماء وخادم الجائعين..؟ فلم يجب أحد.. لأن البركة عمت الجميع.. خجول أن يا أبا العباس أن اتقدم نحو مائدتك وحدي... لأن مائدتك كبيرة.. وأنا فرد.. وخيرك كثير.. وأنا قليل.. هلا أمرت بعض خدمك فآكلوني.. وفي نعمتك اشركوني.. وعلى جميلك شجعوني...؟ فيدي قصيرة يا طويل الأعمار.. ما ولج الليل في النهار.. ولكنها تطول بحول الله إذا آنستها بعض الأيدي وهي تسعى نحو طعام الله.. وقفت ببابك يا سيدي لأن لساني قد تشقق من ظمإ.. وأمعائي تقلصت من الجوع.. وأنا منك جد خجول.. أيجوع أحد وفي المدينة صاحب الولائم الكبيرة، والخيرات الوفيرة، والفضل العميم..؟ لكن يا أبا العباس كنت آتيا من سفر طويل.. زرت خلاله مدنا عامرة.. وصحاري قاحلة.. ومفازات يتجول فيها الموت.. وانقضى زادي.. وتباعد مرادي.. واكتوى جسمي بشدة الحر.. وارتجف من لسعة القر.. وتخطفتني الهواجس.. وتناوشتني الوساوس.. واعترض طريقي قراصنة البحر.. ولصوص البر، فسلبوني ثيابي.. وضاعفوا عذابي.. فناديتك من أعماق محنتي : أين أنت يا أبا العباس ..! أين مني قلبك الكبير.. وكفك الندية.. وجنابك الرقيق..؟ والآن ها أنا واقف ببابك والحال ما سمعت، وما ربما قد رأيت.. أنا لا أحتاج الى استئذان كي أمد يدي للطعام.. ومتى احتاج جائع الى إذن، كي يتقدم من مائدة سيد الكرماء، وخادم

الجائعين..؟ لكني أخافك ياسيدي أخاف أن تعاقبني بتعاستك.. لأني كتمت جوعي.. وعصيت دموعي.. أخاف أن يتولاني غضبك.. ويزور عني أد بك.. لأني صبرت على المشقة.. وتحملت العناء... ولم أتكلم الا بعد أن أخذ الجهد مني كل مأخذ.. أبا العباس أعذر المتأخرين من أمثالي.. فضيوفك منهم من يأتيك من مسافة ذراع.. ومن يأتيك من مسافة خطوات.. ومن يأتيك من مسافة يوم.. ومن يأتيك من مسافة شهر.. ومن يأتيك من مسافة سنة.. ومن ليس بينك وبينه أية مسافة.. لأنه موجود حولك باستمرار.. أما أنا فأتيتك قاطعا مسافة أحقاب.. مسافة أحقاب يا أبا العباس.. اضطررت خلالها الى اجتياز عصور بأكملها.. مررت بعصر الفتنة الكبرى.. ثم عصر الفتنة الصغرى... ثم عصر الفتنة فقط.. ثم عصر الفوضى.. فعصر الاستقرار داخل الفوضى.. الى أن وصلت مجهدا أكاد أسقط من فرط العناء.

وأفيق الآن من هذه الرؤيا.. لكن ماذا أسمع..؟ إنه ضجيج الهاربين من الاضطهاد المسيحي لمسلمي الأندلس عند بداية النهاية.. تسيل بهم كل الدروب، تمتلىء بهم كل الأودية، انه النزوح الجماعي الكبير، لشعب يترك وطنه مكرها ويرحل، يغير موضع إقامته لأول مرة منذ مئات السنين، تتشبث به الأشجار التي غرسها.. المباني التي شادها.. تتوسل اليه كل آية محفورة في حائط.. وكل رسم منقوش في آنية.. وكل قصيد مسطور في كتاب.. أن يبقى بأي شكل من الأشكال.. حيا.. ميتا.. مبتور الأيدي والأرجل معلقا من شعره على فروع الأشجار خادما للخنازير..

متسولا تطارده هموم اليوم وذكريات الأمس.. ولم يعط فرصة لالتقاط الأنفاس.. لأن يدا عاتية اسودت من الحقد.. استمرت تدفعه بعنف الى أن رمته وراء الحدود.. ليجد نفسه يكافح الموج.. على شواطىء سبتة.. المدينة المغربية الصامدة، الشجاعة، فاندفع نحوها مالئا عليها كل المسالك.. رافعا نسبة سكانها في أيام معدودات الى أضعاف سكانها عدة مرات.. وضاقت بالوافدين عليها بالليل والنهار، مضطرة الى التخلي عن كثير من عاداتها الجميلة تحت وطأة الزحام.. ولما اشتدت الوطأة على المدينة الكريمة الطيبة، أخذت تصدر مهاجري الأندلس الى مدن مغربية أخرى اقتسمت معها العبء.. ونهضت بنصيبها من المسؤولية.. فهناك طنجة، وفاس، وسلا، العناوين الجديدة لعرب الأندلس.. تحولوا اليها مواطنين كغرباء.. غرباء كمواطنين.. يعيشون بين إخوتهم المغاربة، ولكن كما يعيش القريب في بيت قريبه.. بعد أن فقد كل شيء.. فلاذ بالقرابة يستنصرها على الشدائد، ويستعديها على المكاره.. امام هول الفجيعة تراجعت في ذاكرة المهاجرين كل قصص حبهم.. كل ما الفوه من اغان، وما ضربوه من مواعيد، وما لفقوه من أكاذيب، وما حبكوه من حكايات، وما أبدعوه من صور..

نسيت الأصابع حبها لرقيق الملامسة.. والعيون عشقها للذيذ المخالسة.. والجنوب كلفها بلطيف المؤانسة.. كما نسيت الصدور هيامها بالعناق.. والقلوب اكتواءها بالأشواق.. والأحداق استغراقها في الأحداق.. وصار الجميع لايذكر إلا ترويعا للسرب الضعيف، وتقويضا للظهر الواهن،

وتحقيقا للوعيد المتهدد. ولم يعد الى تذكر العيش بين طيف الجيب ورجع الصدى، والتراوح بين أنس مأمول وآخر ولى وانقضى. والجرى من قصيد الى قصيد، والسكر بين فتون الهوى وروعة النشيد، الا بعد أن الف الحياة في الوطن الجديد، كما يألف النبات مهجره المقدور. معولا على طيبة الأرض، أن تسمح للعروق بتناول غذائها، وعلى نفحات الهواء أن تعيد للأوراق ثوب شبابها، وعلى أشعة الشمس أن تعيد للاعضاء موفور نشاطها.. ومرت عهود قبل أن تتكرر في سبتة مأساة العرب في اسبانيا، فهاهم البرتغاليون ما أن تنتشر جحافلهم في أطراف سبتة حتى يستولى على سكانها الرعب، مستحضرين مأساة الأمس القريب في البلد المجاور، فيتركون بلدتهم الأثيرة الجميلة وينتشرون هنا وهناك. ومرة أخرى تخرس المآذن، وتنفض المجالس، وتصوح زهور الآداب، وتندثر مراكز العلم، ويقهقه الشيطان في بيوت الله، ويتحول الإنسان الى دابة تحمل الأمتعة، متلمسة طريقها الى المجهول تحت جنح الظلام، بينما تنحني كواهل الشيوخ على العصي، وتنوء أعناق الأمهات تحت أطفال يدرجون نحو مصير محفوف بالمكاره، وتزيغ النظرات في عيون تخطفها الفزع وتملكها الروع، وترتفع النجود وتنخفض الوهاد بالجموع الغفيرة الهاربة من الغزاة، وتنكب مدينة سبتة في بنيها ومن طرأ عليها من عرب الأندلس ولا معنى لفصل مأساة سبتة عن مأساة الأندلس، فالأولى تنقلنا حتما الى الثانية، تضعنا فيها من فرع الرأس الى أخمص القدم.. لأنها أصل الداء، مصدر العلة، سبب التلوث الذي أصاب مياهنا الإقليمية.. أساس الصداع العنيف الذي عانينا منه أزمنة طويلة..

فلما تسرب الوهن الى عظام الدولة الإسلامية باسبانيا، شعرت مدينة سبتة بالخطر.. قبل أن يشعر به غيرها من بقية أجزاء الوطن.. ولديها من التجارب الماضية ما يكفي لاقناعها بأنها على حق في هذا الشعور.. وبأنها ليست فريسة وهم.. وأنا هنا أستأذن القارىء، قبل انتقالي من الدمل الظاهر في أحد أطراف جسمنا الوطني.. الى المجال الأول لجرثومة الداء.. الى الأندلس.. لا بقصد التحليل والدرس، فلست هنا بصددهما، وإنما بقصد طرح رؤياي الخاصة للأحداث.

خرجنا من الأندلس ولم نخرج من تاريخه.. ومن ذوقه القديم.. ومن سحنات أهله.. وهندسة بيوته.. وتراثه الأدبي الجميل.. ولغته ذلت الإيقاع العنيف والرنة العالية تركنا هناك كل شيء.. لم نحمل معنا سوى أوجاعنا وأحزاننا ودموعنا.. تركنا كل تراثنا العظيم الذي انهمكنا في تكوينه على مدى ثمانية قرون.. فكان العرب الشعب الوحيد في التاريخ الذي ذهب الى بلد وظل فيه ثمانمائة عام يبدع مناسج الحرير، ويحصن كبريات المدن، ويعطي دروس الأدب، ويؤسس دولة البيان، ويعلي صروح العلم، ويرسخ أجمل التقاليد، ويثري مواهب الطبيعة، ويزخرف أصلاب الحيطان، ليخرج عن ذلك كله.. ضاربا في شتى الآفاق.. وكأنه كان في نزهة جميلة.. عاد بعدها من حيث أتى، لا يكاد يحمل معه حتى زاد الطريق.. ولم نترك في اسبانيا مجرد آثار معمارية يتفرج عليها الأجانب.. ونتفرج عليها نحن الذين أبدعناها .. ولكن تركنا أجنة في أرحام نساء البلد.. وفصائل من دمائنا تكفي لأجيال من البشر.. وملامح

من شخصيتنا ما زالت واضحة الى حد الساعة.. وصحفا من تراثنا تأدبت بها حضارات أمم بأكملها. وكلما زار عربي اسبانيا خيل اليه أنه كان في سفر، عاد بعده الى بيته وأهله مشوقا عظيم الحنين.. يسير بين الدروب، ويدلف بين الأبهاء، ويمر تحت العقود والأقواس، ويصعد الحصون ويطل من الشرفات، وهو لا يكاد يصدق أن جولته لحساب وزارة السياحة الإسبانية..

إن ثمانية قرون من العرق الحضاري لا يمكن أن تمحى أبدا.. لا لأن بلدية اسبانيا حريصة على ذلك لمصلحة سياحية فحسب.. ولكن لأن محوها غير ممكن.. إلا إذا أمكن الغاء الشخصية الإسبانية وإفراغها من مضامينها الوجدانية والذوقية والروحية.. كيف يمكن - مثلا - إقناع الإسباني بأن يراجع نسبه لينفي عنه أية شبهة قرابة عربية..؟ وكيف يمكن مطاردة الخيال العربي والذوق العربي في الأدب الإسباني القديم وحتى عصر النهضة..؟ بل كيف يمكن أن تنسى المدن الإسبانية ذكرياتها العربية، ومواعيد غرامياتها العربية، وسائر كلاسيكياتها العربية الكامنة وراء أقنعتها وأزيائها الأوروبية الحديثة..؟ هل تنسى قرطبة شهامة عبد الرحمن الناصر.. أو المرية جلالة ابن حزم.. أو غرناطة صولة لسان الدين بن الخطيب.. أو اشبيلية عزة المعتضد، وشاعرية المعتمد.. أو مرسية روحانيات محيي الدين بن عربي...؟ ان جل السائحين يذهبون الى اسبانيا ليقرأونا في النقوش، ويتذوقونا في التحف، ويحاورونا في فنون المعمار، ليشاهدوا بقايا شعب نسي نفسه فلم ينسه التاريخ.. نزل عن

مجده فاعادته اليه ذاكرة الزمن.. أبدع الفن ولم ينتظر أن يستمتع به فاحتفظ له الفن بأجمل الذكريات.. ولم يكن فنه خفيفا مهلا.. وإنما كان هياكل باذخة، وقبابا عالية، وحصونا مازالت حصانتها تصد عنها عوامل الفناء الى اليوم.. إنه نفس الفن الذي ترسي به الطبيعة توازن الأرض.. وتقهر بعظمته متطاول المواهب .. وتتحدى بجبروته ملكات الإبداع.. كانوا يعملون من أجل الخلود.. ولكنهم تركوا الخلود في ذهول تام بينما يعودون فيخلفون موعدهم مع التاريخ.. بيد أن التاريخ أمسك بأذيالهم، واحتفظ بخطوات أقدامهم، ووسدهم صفحات مشرقات من سجله الحافل.. فكرمهم من حيث عجزوا عن تكريم أنفسهم.. ورد عليهم أصداء فخمة نسوها في غمرات الأحداث.. ورتل على مسامعهم أناشيد كانوا قد ألفوها. ثم ذبحوها واتلفوا آلات الطرب التي غنوها على إيقاعها في عهود خلت..

أجل، خرج العرب من اسبانيا ولم يخرجوا من تاريخها.. انهم هناك، في فصائل الدم، وفي أطياف الخيال. وفي صلب الحقيقة، وفي رؤى الوسنان، وفي هدوء المكتبات، وفي انحناء الأقواس، وفي كبرياء القصور، وفي فصوص الخواتم.. ما من مدينة اسبانية إلا والعروبة تنبع من مسامها، وتتفتح في الحاظها. وتمرح في مرابعها. وما من نسمة هواء أو لمعة ضياء، أو وصلة غناء، إلا وفيها من شمائل الأندلس الرقيقة الشيء الكثير.. لما اندمغت شخصيتنا بتلك البلاد، لم يعد من الممكن أن تجمع أشياءها وامتعتها وتتبعنا عند مغادرتنا للبلد.. وليس في مقدور أحد ارغامها على أن تقتلع نفسها من مسام الأرض، وأطياف الأفق، وعنفوان

الينابيع، ومغارس الأشجار، ليس في مقدور أحد أن يفعل ذلك، لأن الشخصية التحام بين الذات والأشياء، واندماج بينهما لدرجة يتعذر معها فصل أحدهما عن الآخر.. فلو جاء أحد الى الحضارة القائمة في شبه الجزيرة الإيبيرية منذ عهود قديمة، لوجدنا في لحمها وعظمها، وفي دورتها الدموية، وفي إحساسها التاريخي.. لذلك كان سكانها أقرب الشعوب الأوروبية إلينا.. وكنا طليعة الشعوب الإفريقية التي اقتسمت معهم التاريخ، فعندما قرر التاريخ في هذا الجزء من العالم أخذ أهبته للقيام بمراجعة لبعض حساباته القديمة، فرض علينا وعليهم أن نكون اداته المختارة في العمل.. ولما رأى التاريخ احراق بعض وثائقه وأوراقه غير المرغوب فيها، اتخذ من ثيابنا وثيابهم وقودا للنار.. فاشتعل الحريق في خزانة الملابس المشتركة.. وبعد تجديد ثيابنا وثيابهم لم يكن في وسع أي منا نسيان القماش القديم.. لأنه بعض ميراثنا المشترك.

أما نسيج الوجوه والسحنات فارسخ من أن تنال منه يد التغيير.. هو دائما مستمر، غير خاضع إلا لطبيعته الخاصة.. نسيج الوجوه والسحنات كانت الأنوال التي نسج عليها من صنع مغربي عربي اسباني.. والخيوط متنوعة متداخلة.. بعضها من شمس المغرب العنيفة.. وبعضها من أصائل سوريا الرقيقة.. وبعضها من أحلام اسبانيا الهفهافة لم نقتسم هذا فقط، ولكن اقتسمنا الأسماء والألقاب والاحساب والانساب، واختلطنا في دواوين الشعر، وتجاورنا في المدافن، وانتظمنا في الموشحات، وتحاورنا في الدين، وكان من أصدقاء عبدُ الرحمان الناصر قسيس اسباني اسمه

عبيد الله بن القاسم.. ثمانية قرون كانت كافية ليتشكل خلالها مزاج حضارى مزدوج الجنسية... وتنهض ثقافة متنوعة السلالة.. ولتضطرب الأرض المشتركة بجنين جديد... يحمل في دمه خلايا الأطراف المتزاوجة.. وليكون الجد هو العباس أو موسى أو السعيد.. ويكون الحفيد هو أنطونيو أو غارسيا أو ما شئت.. ولتلتقي العين الزرقاء بالشعر الفاحم.. وتتعاون القيثارة العجمية مع العود العربي.. أو المعرب.. ولكي يستعير الشعر الأوروبي شيئا من أوزان الشعراء العرب... ويرتفع معمار غربي بسواعد عربية الأديم والخبرة... وتحرر وثائق بيوع ونكاح ووصايا اسبانية باللغة العربية... تتصدرها باسم الله الرحمان الرحيم.. وتقرأ بنفس اللغة صلوات الكنائس.. فتكون القراءة العربية للإنجيل أجمل قراءاته وأروعها على الإطلاق.

إن الأجيال التي فتحت عيونها على بحر الزقاق ربما خيل اليها أن ذلك الفاصل المائي كان هناك منذ الأزل.. غير مصدقة أن البلدين المتجاورين كانا جسدا واحدا أحقابا طويلة من الزمن.. يرفع رأسه الى جبال أوروبا.. ويغرس قدميه في صحراء افريقيا.. بلغ من طوله وامتداده الى حد أنه كان يجد نفسه في سوء تفاهم بين رأسه وقاعدته.. وكثيرا ما يتحول الى ميدان للصراع.. لكأني به منزل تهيأ لساكن واحد.. ولكن قدر أن توافد عليه سكان اختلفت جنسياتهم فاصبح مجالا لمشادة لا تكاد تهدأ حتى تستأنف نشاطها من جديد.. ورد في بعض الكتب أن الاسكندر لما جاء بجيوشه الجرارة الى شبه جزيرة ايبيريا شكا اليه سكانها من أن

المغاربة يشنون عليهم الغارات، ويغزونهم في عقر دارهم، الحين بعد الحين، فأمر الاسكندر بحفر ما بين أولئك وهؤلاء، الى أن التقى البحران الأبيض والمحيط.. ثم بنى رصيفا في شاطىء هذه العدوة. يقابله رصيف على العدوة المواجهة.. ومهما كان على هذا الكلام من طابع الأسطورة، فهو ذو دلالة صادقة، وهي أن سكان البلدين كانت بينهم صلات تاريخية أبعد من توقيت الفتح الإسلامي.. وليس المغرب وحده هو الذي كان يتحرك نحو الطرف الآخر. فكثيرا ما كانت الحركة تأتي من الجهة الأخرى. ويكفي التذكير بأن الواندال كانوا أثناء حكمهم لشبه جزيرة ايبيرية يقومون بالهجوم على المغرب، ويشتبكون مع المغاربة في قتال عنيف. وإذن فلم يكن الفتح الإسلامي المغربي لتلك الجزيرة الا حلقة من حلقات الصلات التاريخية، بين البلدين. ولم يستطع ذلك المعبر المائي الذي لا يتعدى خمسة عشر كيلومترا في أوسع جهاته، أن يفصل بين شعبين اتصلا واحتكا واشتبكا، وحمل كل منهما شيئا من افراز الآخر عصورا متطاولة..

كانت الجغرافيا قد ألقت يد كل منا على كتف الآخر.. وأدارت الألحاظ للألحاظ..وأحاطت خاصرة بساعد.. وهيأت الجو الملائم لتبادل القبلات... وتبادل اللكمات.. وصار كل من البلدين : المغرب واسبانيا، صدى لما يعتري الآخر من توتر عصبي.. ومن رقة مزاج.. ومن رغبة في إثبات الذات.. إذا احمرت حدقتا المغرب، نفرت لهما عروق اسبانيا.. وإذا ارتفعت حرارة اسبانيا، نبض قلب المغرب بشدة وعنف.. والأسماك

سابحة باستمرار بين الشاطئين.. والبرقيات تترى بين سوالف النخيل وعناقيد الكروم.. والغيوم تتواعد في سماء اسبانيا قبل أن تستأنف رحلتها نحو المغرب، ناقلة إليه تحية المياه الإسبانية الشديدة العنفوان.. والرياح تتلاقح وتتداخل.. ورب نسمة هواء مغربية رفعت ثوب غادة من اسبانيا.. ورب همسة نسيم اسبانية داعبت ذؤابة نخلة من المغرب.. الطيور هنا وهناك من أسرة واحدة.. فلو جمعت مجموعة منها في قفص، لما كان أمامها الا أن تتعاطى الحب بشكل علني.. وكثيرا ما تحبل شحرورة إيبيرية أثناء نزهتها على الشاطىء المغربي.. لتضع فراخها بعش على الشاطىء المقابل.. وقد يقوم طائر اسباني برحلة خاطفة الى المغرب فلا يعوّد الى موطنه إلا وبمعيته آنسة من أجمل الطيور المغربية.. فتتخذ لها من مهجرها الجديد وطنا ثانيا تستطيب فيه الإقامة.

والتوقيت بين البلدين واحد.. لا يتقدم بعضه على بعض أو يتأخر عنه إلا ببضع دقائق.. لدرجة أن المغاربة والإسبان يأوون الى فرش نومهم في وقت واحد.. وينهضون منها صباحا في وقت واحد.. ويتناولون فطورهم الصباحي في وقت واحد.. ويضبطون ساعاتهم طبقا لتقويم فلكي واحد.. وما أن ينفلت مؤشر الراديو من محطة إذاعة هذا البلد، حتى يلتقط إذاعة البلد الآخر.. وكأن الإذاعتين قناتان متفرعتان عن إذاعة واحدة.. وأصغر أجهزة الراديو وأضعفها يكفي لالتقاط إذاعة المغرب أو إذاعة إسبانيا مسموعة بوضوح كاف.. ولو تدحرج حجر في جبال الريف لتجاوبت معه أحجار من جبال إسبانيا.. ولو حركت هذه الأخيرة بعض

أكتافها لتحركت على إيقاعها جبال الأطلس.. وتبقى بين البلدين بعض الاختلافات.. فإسبانيا لم تجد من نفسها حماسا كافيا لإنتاج الأسود ربما لأنها آثرت انتاج العصافير والحمام.. ربما لأن مزاجها الفني يفضل الجميل على الجليل من آيات الخلق والإبداع.. ربما لأن حاشيتها كانت أرق من أن تتسع لهذا النوع من الكائنات.. على حين أن غابات المغرب وجباله كانت معروفة بزئيرها الرهيب.. ولم تطلب إلينا اسبانيا قط أن نصدر اليها أسدا واحدا.. دون أن يكون ذلك مانعا من أن يحمل المغاربة معهم الى ذلك البلد اصداء عالية من أدغال المغرب المخيفة.. أضف الى ذلك أن المغرب متعود على الإمساك بالثعابين والأفاعي وهو محصن ضد سمومها.. إذ ألف التساكن معها منذ أقدم العصور.. معترفا بمواطنتها الأصيلة.. ورقصة الثعابين ببلدنا صحبة الطبل والمزمار أشهر من أن تعزف.. على حين أن اسبانيا لم تعرف شيئا من ذلك..

هل خرجنا ناهئيا من اسبانيا ؟ القضية عندي مرفوضة إذا هي صيغت هكذا.. فلم يكن تحطيم دولتنا هناك إلا مقدمة لتحولنا الى حطام تتغذى عليه التربة.. ويتغذى عليه السكان.. كما تتغذى عناصر الأرض ببقايا شجرة بعد احتراقها.. ولم يكن يعني احتراق الدولة الإسلامية هناك إلا مناسبة لتذويب موادها الأولية في الكيان العام للبلد.. ومن طبع الشخصية العربية أن تبقى حتى بعد زوال أسباب حمايتها.. وعندما توضع في محلول قصد تذويبها، تبقى خلاياها حية تتناسل باستمرار.. وذلك طابع كل شخصية متميزة بالحدة والعنفوان.. ونحن عندما ذهبنا الى

اسبانيا لم نذهب على سبيل الضيافة.. ولا بقصد السياحة.. أو لغرض تغيير الجو.. أو الاستشفاء بالمياه المعدنية.. وإنما ذهبنا بقصد الاستيطان.. والإقامة الدائمة.. فجئنا بدواوين أشعارنا.. ومجلداتنا الكبيرة.. وكل متاعنا الموروث والمبتكر.. وحولنا كل عناويننا الى مقر سكنانا الجديد.. واستحدثنا لنا هوية أخرى .. وغيرنا أوراقنا ووثائقنا الشخصية.. لتتلاءم مع وضعنا الجديد.. لذلك لم يكن من السهل اقتلاعنا من جذورنا باليسر الذي كانت متصورا لدى البعض.. سيما واننا كان لدينا متسع من الوقت، نعمق فيه هذه الجذور.. ونكسبها نوعا من الأصالة في الموطن الذي ضربت فيه..

وكم كان كل من فرناندو وإيزا بيلا مخطئا ومغرورا عندما اعتقد أن في إمكانه اقتلاعنا من نخاع اسبانيا وأحلام يقظتها ونخوة قصورها الجميلة.. غافلا عن عملية المزج الكيماوي التي حدثت.. وعن أننا كنا موجودين في محفوظاتهما الأدبية القديمة.. وفي بعض عاداتهما الملكية البالغة التهذيب والرقة.. حقيقة إنهما استطاعا طردنا كدولة وكيان سياسي.. ولكنهما لم يقويا على طردنا من مزاج البلد. وسبحاته الخيالية، ووقفاته التأملية.. لما قضى علينا بالنزوح عن البلد الذي علمناه ترتيل القرآن.. وربيناه على العشق العفيف.. ونهيناه عن الحب الاباحي.. وسناه على الترنم بجمال العربية وإيقاعها الآسر.. تركناه في حالة تعسه.. قصور الخلافة كقلاع سلمها حماتها بعد الهزيمة.. وبساتين غرناطة كفت عن تبرجها الذي دابت عليه عهودا متطاولة. وجميع آلات الطرب

التي غصت بها اشبيلية أضاعت أنغامها العذبة الجميلة.. بذلك حدثنا اخوتنا الرافضون نقل موضع إقامتهم الى مكان آخر.. عندما لقيناهم في مناسبات عائلية.. وما أكثر المناسبات العربية.. فنحن أمة تحتفل ولو من أجل انتاج فرس.. وقالوا لنا فيما قالوا إن حمام الزاجل دأب سائلا عنا عدة سنين.. وإن أبيات الشعر العربي المحفورة في المباني كثيرا ما يسمع انتحابها بشكل يمزق غلاظ الأكباد.. وأن الرهبان التوت ألسنتهم باللاتينية، بعد أن فرض عليهم مقاطعة القراءة العربية للإنجيل.. وأن الموشحات الأندلسية أصبحت بعد وقوع المأساة تختلس مواعيد حبها محولة إيقاعها العالي الى مناجيات.. وان شوارع المدن الأندلسية تجعدت وجوهها بسرعة.. لأن الشباب الغربي الذي كان يهبها رونقا أخاذا رمته الليالي بكل كريهة.. وقالوا لنا فيما قالو إن بريدنا العربي حزين لفقدان مهمته التي أداها بكفاءة عدة قرون.. فلطالما أسكرته تنقلاته ما بين مشرق ومغرب.. محتضنا رسائل الحب.. ورسائل الاستعطاف.. وروائع البلاغات الرسمية.. وإن الشخصية الأندلسية اضطرت بعد امتناع الى التعامل مع ولاة الأمر الجدد.. والتظاهر بأنها نبذت عقيدتها واعتنقت عقيدتهم.. وإن بعض النساء العربيات الابكار رفضن الزواج من بعض من تقدم لخطوبتهن من الشباب الأندلسي الذي رمى بشاراته القومية.. وانتسب الى قومية زائفة.. وبمرور الأيام ذهب جيل وجاء آخر، ليس بينه وبين سابقه الأمثل ما يكون بين عطر مستحضر، وزهور كانت ذات يوم متألقة على سوقها رائعة فاتنة.

بعد خروجنا من الأندلس، ظللنا زمنا طويلا نبكي على مرابع الذكريات، وملاعب الشباب، ومجالس الأنس، ومعاصر الأعناب، وبيادر القمح، وملاعب الفتيان، ومعاهد العلم، لم ننس أيام كانت نفوسنا منطوية على حبور، وخواطرنا مستطارة في شاعرية، وحواشينا مزدهاة في بذخ، ومقلنا مشعة من سعادة.. تنقل الخطو على وقع المنى، ونرسم الآتي بريشة الخيال، ونلحن أيامنا أغاريد تنتشي بها الدنيا ما بين مشرق ومغرب.. لم نتعود على مهاجرنا الا بتراخي الأيام.. لم ننم عدة سنوات الا أغفاء.. لم تألف جنوبنا النوم على أرض أوطاننا الجديدة الا بعد تجارب قاسية وأخذنا نحكي عن أيامنا هناك.. نعيش بالوهم ما عجزنا عن معاناته حقيقة.. نجتر ذكرياتنا الأليمة باصرار، لأنها فرصتنا الوحيدة للعودة تجاه فردوسنا المفقود.. ومازلنا كذلك، وسوف نبقى الى ماشاء الله..

وسبتة أخت الأندلس.. اقتسمتا العطف الأبوي.. وأمجاد العائلة وأوجاعها ومصيرها.. ونالتا تعليما واحدا على يد مربين وأساتذة ظلوا يتنقلون بين هذه وتلك طيلة مراحل التعليم.. كما ورثنا وشائج الاخوة وخلافاتها.. احداهما تقيم في بلد أوروبي.. عاشت فيه عربية رغم كل الموانع.. حاول الباسها القبعة فحشرته في قميص.. وجرب تلقينها اللغة اللاتينية فأنبتت في أديم لسانه زهرات العربية.. ورام استدراجها لقراءة الإنجيل.. فوضعته بين جلدتي المصحف.. فخرجت منتصرة في معركة اثبات الذات.. وبما أن المنتصر لا بد أن تعلق به آثار من المنهزم.. فإنها

خضعت للتأثر بالذوق الأوروبي وبعض العادات الأوروبية.. مع قدرتها على تعريب ما علق بها من آثار.. وأما الثانية فمقيمة بين أهلها والأقارب.. موضوعة مباشرة تحت الرقابة الأبوية.. ومن ثم كانت أقرب الى المحافظة.. وأكثر خضوعا لتقاليد الأسرة.. على أن ما بين الأختين من معابر، كان كفيلا بتلقيح ذوق بذوق. ومزج قابلية بأخرى.. حتى لقد انفعلت بذلك صور التشبيه.. وأزياء الاستعارة.. ومنحنيات الأساليب.. وكانت الأخت الأندلسية قادرة على أن تكون الأقوى في عملية التأثير المتبادل.. لأنها الأكبر، والأنضج، والأوسع تجربة وخبرة.. ومع ذلك كانت تبعث الحين بعد الحين ببعض أبنائها ليستكملوا تعليمهم عند أختها المغربية.. واثقة من أن كفاءتها العلمية والأدبية ليست دون المستوى المطلوب.. وحلت الفجيعة بالكبرى من الأختين.. فأحست سبتة بأعراض فقر الدم.. وهبوط في ضربات القلب.. مع دوار يداهمها بين الفينة والأخرى.. وكانت قريبة من مسرح الأحداث..

إن لم نقل أنها بعض أطرافه.. تسمع الصراخ والعويل.. وتوشك أن تلمس بأصابعها بقع الدم المتخلفة عن جسد أختها الممزق بالسكاكين.. وكبرت الفجيعة فأصبحت غولا ينشر الرعب في كل مكان.. غولا حاقدا مجنونا بأكل لحوم البشر.. ووقعت سبتة الجميلة بين فكي الغول.. ازدردها كتفاحة ناضجة مسيلة للعاب.. كانت الوجبة الإضافية بعد تناوله للوجبة الأساسية.. وخرجنا من سبتة كما خرجنا من الأندلس.. لكننا هذه المرة أبعدنا عن حجرة بديعة في بيتنا.. اقتحمها قادم من قلب

المغامرة.. وجنون العاصفة.. فاحتلها محرما علينا التفكير في استعادتها من جديد..وتشبتنا بحقنا في ملكية البيت الوطني كله.. فما معنى استقلال حجرة عن بقية الحجرات..؟ وما معنى أن تكون ملكيتنا مسجلة على عقار بكامله.. ويقع النزاع في جزء منه.. أهو داخل ضمن حدود أملاكنا أم لا...؟

كانت لنا معهدا علميا مفتوحا على البحر.. قصيدة منظومة الأبيات على أجمل شواطىء المغرب.. فما أن ينزل غريب من سفينة على هذا الشاطىء حتى تحاصره البلاغة العربية في أزيائها المغربية.. وهكذا لم نرس على بعض شواطئنا قطع الأسطول وأبراج المراقبة فحسب.. ولكن أرسينا الى جانبها معاهد العلم والثقافة.. وزرعنا دواوين الشعر بأرض تستقبل غزاة المدن، وشداة الكلم الجميل.. في سبتة كنا نعبىء الجيوش، وننظم التجارة. ونعرج على قمم الفكر. ونهيم في أودية الخيال.. أمواج البحر تهيج حسنا الايقاعي.. فتضطرب في أعماقنا أبحر الشعر.. ولم نكن نصطاد من البحر سمكا غزيرا فقط، ولكن كنا نصطاد فيه أيضا رؤى قد يكون مبدؤها جيدا أتلع في الأندلس.. ومنتهاها مقلة شاعر سبتي يلتقط بها الحلم والأرق والأحزان..

ولم يذهب الفكر المغربي الى شواطىء سبتة لمجرد الاغفاء بين نسمات البحر الباردة أو للتخفف من أعبائه الثقيلة متفرجا على داخلي سبتة والخارجين منها.. فقد كان من مهامه الجسيمة هناك، أن يجعل من البلدة المحاصرة بالمياه قلعة علمية راسخة كحاملة الطائرات المائلة

عرض المحيط.. وكل حاملات الطائرات تعاني مركبا إزاء البحر.. فتتمادى في تضخيم أطرافها سدا لكل نقط الضعف.. وعامت الناقلة المغربية سبتة في بحر الثقافة الأندلسية.. من أية جهة أبحرت تجدها أمامك.. كل البحارة الأندلسيين يعرفونها.. ويحترمونها .. ويحبونها.. نهضت بعبئها الثقيل رغم أن الأمواج تضربها بعنف ودون هوادة.. لكونها فضلت أسلوب التحدي.. في مواجهة البحر.. أو أن قدرها شاء لها ذلك..

كانت سبتة مرفأ مدينة فاس العلمي والأدبي.. منها شحنت الدواوين وكتب الفقه والتفسير والحديث والنحو وكذا المواهب، لإرسالها الى المدينة التي تسكن الثقافة كل عصب فيها.. فأول ما يفد الفكر على هذه الديار المغربية من جهة الشمال يجد سبتة في استقباله.. وكلها كانت لجنة استقبال مفتوحة الأذرع.. أهلا للتشريفات العلمية والأدبية.. يمر عبرها النص العلمي أو الأدبي مرور النور من خلال البللور الصافي.. ولما كان النص من أدب الأندلس وعلمه يصل الى سبتة، تطيب له الإقامة.. ويلذه البقاء وإلقاء عصا التسيار.. لكن سبتة ما أن تأخذ حاجتها منه حتى تصدره إلى فاس.. وبذلك لم تكن سبتة مجرد جسر.. وإنما كانت مركز ثقافيا ثابتا يشتغل لحسابه الخاص.

فاس **عبد العلي الوزاني**

كتاب الشفا للقاضي عياض
من خلال رواته ورواياته

محمد المنوني

كما هو معروف... فكتاب «الشفا بالتعريف بحقوق المصطفى صلى الله عليه وسلم» : كان من تأليف القاضي أبي الفضل : عياض بن موسى بن عياض اليحصبي السبتي، المتوفى - بمراكش - عام 1149/544.

وقد اشتهر الكتاب من حياة مؤلفه، فأقبل الدارسون على روايته، وسمعه على مصنفه من لا يحصى كثرة من أعلام الغرب الإسلامي (1).

1) المقري في «أزهار الرياض» مطبعة فضالة 342/4، وفي نفس الاتجاه يقول الداودي عن كتاب الشفا في ترجمة مؤلفه : «وحمله الناس عنه، وطارت نسخه شرقا وغربا»، طبقات المفسرين، نشر مكتبة وهبة بالقاهرة 20/2.

ثم استتبع ذلك وفرة روا ياته، وشيوعها على مستوى العالم الإسلامي.

كما تعددت أصوله انطلاقا من أصل المؤلف، الى الأصول المتفرعة، ثم انتشرت نسخها مغربا ومشرقا وغربا.

وبهذه الاعتبارات : كان رواة الشفا، ورواياتها، ونسخها : ثلاثتها تجسم الدور البارز للكتاب العياضي : في تعريفه بمدى النضج الثقافي للمغرب عند عصر المؤلف، فضلا عن أثر ذلك في ربط الصلات العلمية بين هذه المنطقة وما جاورها من الأندلس والمغربين، إلى ماوراء ذلك من البلاد المشرقية، مع ما تبع هذا وذاك من الصيت الذائع للمؤلف وكتابه، وللمغرب والمغاربة : عبر الأجيال والجهات القريبة والبعيدة.

وسيسير عرض الموضوع متدرجا في ثلاثة أبواب.

فيقدم الباب الأول نماذج من رواة الشفا - عن المؤلف - تستوعب 22 اسما.

بينما يتناول الباب الثاني أمثلة من روايات نفس الكتاب، وعددها 22 رواية رئيسية.

والباب الثالث : يشتمل على مسرد لبعض أصول كتاب القاضي عياض في 37 نسخة بين أصول معروفة ومندثرة.

وختاما ؛ يذيل بعشر ملحقات تستوعب نصوص السماعات والأسانيد المدونة على عدد من أصول الكتاب المنوه به. فضلا عن ملحق بالمطبوعات الأولى من الكتاب ذاته، ثم ملحق عثر عليه وشيكا. حيث يستوعب مجموعة كبرى من الأسانيد لكتاب الشفا.

البـــــاب الأول

ـ رواة الشفا عن المؤلف.

والقصد هنا الى تقديم نماذج ـ في اثنين وعشرين اسما ـ من رواة كتاب القاضي أبي الفضل. فتروية جماعة بطريق السماع من المؤلف، بينما يحمله آخرون ـ عنه ـ بواسطة الإجازة. فيأتي عرض كل فريق على حدة. حسب التسلسل التاريخي للذين عرفت وفياتهم أو عصرهم.

1 ـ ويبتدي فريق السماع بولد المؤلف ؛ محمد بن عياض بن موسى السبتي ، المتوفى ـ بغرناطة أو سبتة ـ عام 79/575 ـ 1180 (2).

---

2) روايته هي الواردة عند رقم 5 من الباب الثاني، وهو موضوع عرض روايات الشفا، وسنجتزي ـ هنا ـ بهذه الإشارة من غير أن نحتاج إلى تكرارها عند الإحالة على الروايات التالية.

وقد جاء عند ابن الأبار في ترجمة محمد بن عياض : «سمع من أبيه القاضي أبي الفضل». «التكملة» نشر قديرة بمجريط رقم 1056. ونشير لهذه الطبعة في الإحالات التالية بحرف ق.

2 ـ أبو الطيب ابن الخلوف : عبد المنعم بن يحيى بن خلف الحميري الغرناطي، المتوفى ـ بالأسكندرية ـ عام 1190/586 (3).

3 ـ أبو عبد الله ابن زرقون : محمد بن سعيد بن أحمد الأنصاري الاشبيلي، المتوفى ـ بها ـ عام 1190/586 (4).

4 ـ ابن الغازي : محمد بن حسن بن عطية الأنصاري الجابري السبتي، المتوفى عام 94/591 ـ 1195 (5). ويرد ذكره في الأسانيد «بابن غاز» دون تعريف، وبالياء آخره وحذفها.

3) سماعه للشفا من المؤلف : يحتفظ بنصه المقري في «أزهار الرياض» 349/4 ـ 50، وترجمته في «التكملة» ق 1813.

ثم «الذيل والتكملة» نشر دار الثقافة في بيروت : 5/ رقم 132. مع «صلة الصلة» المطبعة الاقتصادية بالرباط رقم 25.

4) روايته تحمل رقم 6، وترجمته في «التكملة» ق 824، فيذكر عنه ابن الأبار : أنه سمع من القاضي عياض واختص به، ولازمه كثيرا، ونحوه في «الذيل والتكملة» 6/ رقم 597.

وفي تعبير ابن دحية وهو يذكر ابن زرقون : «ثم لزم القاضي أبا الفضل عياض بن موسى مدة مديدة، وأعواما عديدة» (المطرب في أشعار أهل المغرب) : المطبعة الاميرية بالقاهرة، ص 220.

5) روايته تحمل رقم 1، وترجمته في «التكملة» ق 1060، غير أن ابن الأبار لم يدقق تاريخ وفاته : «وتوفي في بضع وتسعين وخمسمائة»، ثم حدد ابن الزبير هذا البضع بعام 591، حسب «صلة الصلة» : القطعة المخطوطة بدار الكتب المصرية رقم 850 تاريخ : قسم الخزانة التيمورية.

5 ـ ابن فليح : عبد الله بن محمد بن فليح الحضرمي القصري : قصر عبد الكريم بشمال المغرب، كان بقيد الحياة عام 94/591 ـ 1195 (6).

6 ـ ابن مضاء : أحمد بن عبد الرحمن بن محمد اللخمي الجياني ثم القرطبي، المتوفى ـ باشبيلية ـ عام 1196/592 (7).

7 ـ أبو جعفر الحصار : أحمد بن علي بن حكم القيسي الغرناطي، المتوفى ـ بها ـ عام 598 / 1201 (8). ويذكر في الأسانيد «بابن حكم».

8 ـ أبو عبد الله بن عبو : محمد بن عبد القادر الفازازي الركلاوي المكناسي، كان بقيد الحياة عام 1214/611 ـ 15 (9).

6) روايته ومعه ابن مضاء : تحمل رقم 7، وترجمة ابن فليح في «التكملة» ق 1489، ويقول عنه ابن الأبار وهو يعدد مشيخته : «روى عن أبي بكر بن العربي... وأبي الفضل عياض بن موسى وعليه اعتماده في الرواية، وأجاز له أبو بكر بن طاهر...».

7) روايته مع ابن فليح تحمل رقم 7، ومع ابن حكم : رقم 8، وجاء التصريح بسماع ابن مضاء من أبي الفضل عند الفاسي في «العقد الثمين...» : مطبعة السنة المحمدية بالقاهرة 44/6، وله ترجمة موسعة في «الذيل والتكملة» 1/رقم 291.

8) روايته ـ بمفرده ـ تحمل رقم 2، وترجمته في «التكملة» ط الجزائر رقم 239، مع «الذيل والتكملة» 1/رقم 387، وبالمصدرين ـ معا ـ يذكر سماع ابن حكم من القاضي عياض.

9) ترجمته في «صلة الصلة» : القطعة المخطوطة، فيذكر ابن الزبير أنه سمع على عياض كتاب الشفا وغيره.

9 ـ أبو بكر محمد بن أبي بكر بن الحداد الجذامي، تاريخ وفاته غير مذكور (10).

10 ـ أبو عبد الله العزفي : محمد بن أحمد بن محمد اللخمي السبتي قاضيها، تاريخ وفاته غير مذكور (11).

11 ـ أبو عبد الله التميمي : محمد بن عبد الله بن محمد بن عيسى السبتي، تاريخ وفاته غير مذكور (12).

5

ومن الذين يرون الشفا عن المؤلف بطريق الإجازة :

12 ـ ابن قرقول : ابراهيم بن يوسف بن ابراهيم القائدي الحمزي ثم الوهراني، المتوفى ـ بفاس ـ عام 1174/569 (13).

---

(10) روايته ـ بمفرده ـ تحمل رقم 9، ومع العزفي في رقم 10. وورد التصريح بسماعه من المؤلف عند السراج في الإفتتاحية التي صدر بها أصله من كتاب «الشفا»، حيث عرض بها أسانيده، وتوسع في ذكر طرقها، حتى انتهى بها الى عياض المؤلف. وسيرد نص الافتتاحية عند الملحق رقم 5.

ولا ذكر لترجمة ابن الحداد بالمصادر التي رجعت لها. وأشار لاسمه الرعيني وهو يعدد أشياخ أبي العباس العزفي هكذا : «وأبو عبد الله محمد بن أبي بكر الجذامي : سمع عليه الشفا...». «برنامج شيوخ الرعيني» : المطبعة الهاشمية بدمشق ص 45.

(11) روايته ومعه أبو بكر بن الحداد تحمل رقم 10. ولا ذكر لترجمته بالمصادر التي رجعت لها.

(12) روايته تحمل رقم 3. ويرد التصريح بسماعه من المؤلف في أسانيد ابن جبير لكتاب الشفا. وترجمته في «التكملة» ق 1057. وهي خالية من تاريخ وفاته.

(13) روايته رقم 11. وترجمته في «التكملة» ط الجزائر رقم 394. ثم في «جذوة الاقتباس» ط. دار المنصور بالرباط رقم 13. وفي المصدر الأخير يشير ابن القاضي الى أن ابن قرقول مجاز من أبي الفضل.

13 ـ أبو الطاهر السلفي ، أحمد بن محمد بن أحمد الاصبهاني نزيل الأسكندرية، المتوفى ـ بها ـ عام 1180/576 (14).

14 ـ ابن بشكوال : خلف بن عبد الملك بن مسعود الأنصاري القرطبي، المتوفى ـ بها ـ عام 1182/578 (15).

15 ـ أبو الحسن ابن أبي : عبد الرحمن بن أحمد بن عبد الرحمن بن ربيع الأشعري النسب والمذهب، القرطبي، المتوفى ـ بغرب عدوة المغرب ـ عام 89/585 ـ 1190 (16).

16 ـ أبو محمد الحجري ، عبد الله بن محمد بن علي المري، نزيل سبتة، والمتوفى ـ بها ـ عام 1195/691 (17).

---

14) روايته ـ بمفرده ـ رقم 12، ومع ابن بشكوال رقم 14، وكتب له ترجمة موسعة الأستاذ محمد محمود زيتون في كتاب على حدة بعنوان : «السلفي أشهر علماء الزمان»، وهو منشور بمبادرة شباب الجامعة بالاسكندرية في مطبعة صلاح الدين.

15) روايته ـ بمفرده ـ رقم 13 ومع السلفي رقم 14، وترجمته في «التكملة» ق 179، ويقول ابن بشكوال عند ترجمة عياض : «وقدم علينا قرطبة... فأخذنا عنه بعض ما عنده»، حسب «الصلة» نشر العطار رقم 975، غير أن سنده للشفا عن مؤلفها كان بالمكاتبة، كما سيتبين من سياق روايته الواردة عند رقم 13 من الباب الثاني.

16) روايته رقم 15، وترجمته في «التكملة» ق 1619، حيث يذكر ابن الأبار عياضا بين الذين كتبوا له بالإجازة.

17) روايته ـ بمفرده ـ رقم 16، ومع ابن الغازي رقم 17، وترجمته في «التكملة» ق 1416، ويقول عنه ابن رشيد : «ولقي أبو محمد الحجري ـ بغرناطة ـ القاضي أبا الفضل عياض بن موسى إذ ولي قضاءها، وأجاز له ما حمله ورواه»، إفادة النصيح.... ط. الدار التونسية للنشر ص 86.

17 ـ ابن الفرس : عبد المنعم بن محمد بن عبد الرحيم الخزرجي الغرناطي، المتوفى ـ بها ـ عام 1201/597 (18).

18 ـ ابن أبي جمرة : محمد بن أحمد بن عبد الملك المرواني ولاء، المرسى، المتوفى ـ بها ـ عام 1202/599 (19).

19 ـ ابن الصائغ : يحيى بن محمد بن علي، الأنصاري السبتي ، المتوفى ـ بها ـ عام 600/03 ـ 1204 (20).

20 ـ الشقوري علي بن أحمد بن علي الغافقي القرطبي، المتوفى ـ بها ـ عام 1219/616 (21).

٥

21 ـ ومن الذين ذكرت روايتهم مجملة دون النص على السماع أو الإجازة : أبو محمد : خليل بن اسماعيل بن خلف السكوني اللبلي، المتوفى ـ بها ـ عام 557 / 1162 (22).

(18) روايته رقم 18 وترجمته في «التكملة» ق 1814، ثم في «الذيل والتكملة» 5 / رقم 129، وفي هذا المصدر يثبت أن عياضا من المجيزين لابن الفرس، ومثله في «صلة الصلة» : القطعة المنشورة رقم 28.

(19) روايته رقم 19، وترجمته في «التكملة» ق 870، وفيها أن ابن أبي جمرة استجاز عياضا، وترجمته ـ أيضا ـ في «الذيل والتكملة» 6 / رقم 1.

(20) روايته رقم 4، وترجمته في «التكملة» ق 2070، مع «صلة الصلة» : القطعة المنشورة رقم 391، وحدد روايته بالإجازة كل من السراج حسب الملحق رقم 5، ثم ابن غازي في فهرسه : «التعلل برسوم الإسناد...»، نشر دار المغرب بالبيضاء، ص 188.

(21) روايته رقم 20، وترجمته في «التكملة» ق 1890، ثم في «الذيل والتكملة» 5 / رقم 334، وبهما ـ معا ـ ان أبا الحسن الشقوري مجاز من عياض.

(22) روايته رقم 21 وترجمته «بالتكملة» ق 188 وتحديد تاريخ وفاته عند السيوطي في

22 ـ أبو القاسم ابن الملجوم : عبد الرحمن بن يوسف بن محمد الأزدي الزهراني الفاسي، المتوفى ـ بها ـ عام 1208/605 (23).

الباب الثاني
روايـــات الشفـــا

قدم الباب الأول اثنين وعشرين من رواة الشفا عن المؤلف بين سماع وإجازة، غير أن اثنين منهم لا تعرف لهم ـ الان ـ أسانيد مسلسلة للكتاب، وهما الواردان عند رقمي 2 و 8، بينما تفرعت عن باقيهم إثنتان وعشرون رواية رئيسية، وهي التي يقدمها هذا العرض، مع ملاحظة أن أربعة منها كانت أكثر انتشارا، فصارت لها الأسبقية في هذا المسرد :

1 ـ بدءا من **رواية ابن الغازي** سابق الذكر عند رقم 4. ويقول عنه ابن الآبار (24)، «روي عن أبي الفضل عياض، واختص بصحبته وملازمته، وسمع منه جل روايته وتواليفه ».

ثم يذكر عنه السراج (25) أنه قرأ كتاب الشفا على مؤلفه، وعارض بأصله، وكتب له عياض خطه بذلك في غرة ذي القعدة سنة 535.

= «بغية الوعاة» : مطبعة السعادة بمصر ص 245.

23) روايته رقم 22، وترجمته في «التكملة» ق 1652.

24) «التكملة» ق 1060.

25) في افتتاحيته للشفا حيث سيرد نصها بالملحق رقم 5.

وقد انتشرت روا ية ا بن الغازي بالمغرب مع مر الزمن، اعتمادا على نسخة على بن فرج من الشفا، وهي التي كتبها هذا بخطه، ثم قابلها وصححها، وترجع الى أصل ا بن الغازي المقرؤ - مرتين - على القاضي أبي الفضل (26).

وهذه النسخة - التي كتبها ا بن فرج - أعاد مقابلتها يحيى السراج، فصارت - بعد ذلك - هي أم المنسخات المغربية من هذا الكتاب، كما سنرى عند التعريف بها (27).

ونشير - الآن - الى أن للسراج أسانيد متعددة لكتاب الشفا، حيث دونها في افتتاحية النسخة المنوه بها، وا بتدأ منها بالسند الى ا بن الغازي

26) سيرد التعريف بهذه النسخة عند رقم 17 من الباب الثالث، وعليها كتابات تعرف بقيمتها حسب الملحقات رقم 1 - 4، أما كاتب هذا الأصل فاسمه كاملا : علي بن محمد بن فرح القيسي القيجاطي نزيل غرناطة، وله ترجمة في «صلة الصلة» المنشورة رقم 282، وعند الرحالة السبتي أبي القاسم التجيبي في تعاليقه المنشورة مع «الذيل والتكملة» 5 / ص 319.

ومن الجدير بالذكر أن كاتب النسخة التي نعلق عليها، يوجد بخطه كتاب «الإلماع» للقاضي عياض، فرغ منه بتاريخ 5 رمضان عام 632، ويحمل بالاسكوريال رقم 1572، مع نسخة من الجواهر الثمينة لابن شاش، حيث يوجد منها السفران الثاني والثالث في مجلد مبتور الطرفين، وجاء عند أخر السفر الثاني أنه وقع الفراغ من كتابته أواخر ذي القعدة عام 646، ومن معارضته بتاريخ 4 ربيع الأول عام 647، والسفران - معا - ضمن مخطوطات خزانة تمكروت بإقليم ورزازات رقم 1103.

27) انظر رقم 17 من الباب الثالث، وترجمة السراج توجد ومعها جملة من مصادرها ومراجعها عند الكتاني في «سلوة الأنفاس...» ط.ف : 2/143 - 144.

عن شيخه ابن الحاج البلفيقي : محمد بن محمد بن ابراهيم السلمي (المرداسي المري) (28).

عن أبي اسحاق الغافقي : ابراهيم بن أحمد (بن عيسى) المديوني (الاشبيلي ثم السبتي) (29).

عن أبي عبد الله الأزدي : محمد بن عبد الله بن أحمد السبتي (30).

عن ابن الغازي، عن المؤلف أبي الفضل.

2 ـ **رواية أبي جعفر الحصار** : سابق الذكر عند رقم : 7

ويعرف ـ أيضا ـ بابن حكم، وقد انتشرت روايته بالأندلس وسبتة وتونس، وبمصر والشام والمدينة المنورة.

وسنتبين مدى شيوعها بالأندلس من أسانيد الجهات التالية :

ففي **تونس** : يستند الى رواية ابن حكم : عبد الله بن محمد بن

28) ترجمته عند ابن الخطيب في «الإحاطة» نشر مكتبة الخانجي بالقاهرة 2/143 ـ 169، وكان قد ترجمه قيد حياته، ثم ترجمه وذكر تاريخ وفاته «بالدرر الكامنة» مطبعة مجلس دائرة المعارف في حيدر أباد الدكن 4/155 ـ 157.

29) ترجمته عند الوادي آشي في «برنامجه» طبع دار الغرب الإسلامي رقم 101.

30) ترجمته في «برنامج شيوخ الرعيني» رقم 91.

أحمد التجاني، في «كتاب الوفا ببيان فوائد الشفا» (31). فيصدر تعاليقه بسنده الى أبي الفضل عياض :

من طريق شيخه أبي القاسم الكلاعي : محمد بن قائد بن علي (32).

عن أبي اسحاق بن عياش : ابراهيم بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد العزيز التجيبي (33).

عن أبي زيد الناشي : عبد الرحمن بن محمد الخزرجي (34).

عن ابن حكم، عن المؤلف.

وفي **تونس** أيضا : يروي ابن جابر الوادي آشي نفس الكتاب من ثلاث طرق :

أ - عن القبتوري : خلف بن عبد العزيز بن محمد الاشبيلي نزيل سبتة (35).

---

31) السفر الأول : مخطوط خ. م. 4016 : ص 2. ومؤلفه هو صاحب الرحلة التجانية، حيث توجد ترجمته بمقدمة طبعتها في المطبعة الرسمية بتونس : ص 19 م - 43 م.

32) أشار له ولوفاته الزركشي، مسميا له عبد الوهاب بن قائد الكلاعي : «تاريخ الدولتين...» مطبعة الدولة التونسية ص 34.

33) لا ذكر لترجمته بالمصادر التي رجعت لها. ولوالده ترجمة «بالتكملة» ق 1642.

34) قد يكون هو القمارشي المتكرر الذكر بالروايات التالية. وترجمته «بالتكملة» ق 1643. مع «برنامج شيوخ الرعيني» رقم 64.

35) ترجمته في «برنامج الوادي أشي» رقم 26.

عن ابن أخت أبي صالح ، عبد الله بن أبي القاسم الأنصاري المالقي نزيل سبتة (36).

عن القمارشي ، عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن الخزرجي المالقي (37).

عن ابن حكم، عن المؤلف (38).

وللقبتوري نسخة معتمدة من الشفا سنشير لها من بعد (39).

ب ـ وعن ابن الغماز ، أحمد (بن محمد بن حسن الخزرجي البلنسي نزيل تونس) (40).

عن أبي الربيع (الكلاعي ، سليمان بن موسى) بن سالم (الحميري البلنسي) (41).

عن ابن حكم، عن المؤلف (42).

---

36) ترجمته بنفس المصدر رقم 190.

37) مصدر ترجمته سبق عند التعليق 34.

38) ساق هذا السند الوادي أشي في «برنامجه» ص 215 ـ 216، ولصاحب السند ترجمة موسعة عند تقديم برنامجه المنشور ؛ ص 9 ـ 20.

39) انظر النسخة رقم 11 من الباب الثالث.

40) ترجمته في «برنامج الوادي أشي» رقم 1.

41) ترجمته في «الذيل والتكملة» 4 / رقم 203.

42) هذا السند عند الوادي أشي في «برنامجه» ص 216.

وهذا السند وسابقه : من طرق ابن مرزوق «الخطيب» للشفا : عن ابن جابر مباشرة (43).

ج - وعن ابن هارون : عبد الله (بن محمد الطائي القرطبي نزيل تونس) (44).

عن أبي الحسن بن مالك : سهل (بن محمد بن سهل بن أحمد الأزدي) الغرناطي (45).

عن ابن حكم، عن المؤلف (46).

وهذا السند أحد طرق ابن حجر العسقلاني الى الشفا : عن أبي اسحاق التنوخي، عن ابن جابر (47).

وفي سبتة : نشير الى أبي الحسين بن أبي الربيع : عبيد الله بن أحمد بن عبيد الله القرشي الأموي العثماني الاشبيلي نزيل سبتة (48).

---

43) «نفح الطيب» المطبعة الأزهرية المصرية 3/108، على إبهام في اسم القبتوري، وحذف اسم ابن الغماز من السند الثاني، وانظر عن ترجمة ابن مرزوق الخطيب : «الديباج المذهب» لابن فرحون : مطبعة المعاهد بمصر ص 305 - 309، مع «نيل الابتهاج» للتنبكتي، المنشور بهامش الديباج ص 267 - 270.

44) ترجمته في «برنامج الوادي أشي» رقم 13.

45) له ترجمة مطولة في «الذيل والتكملة» 4 / رقم 229.

46) أورد هذا السند الوادي أشي في برنامجه ص 218.

47) «كفاية الراوي والسامع...» اسم ثبت الشيخ يوسف الحسيني الحلبي، المنشور ضمن «الأنوار الجلية....» لمحمد راغب الطباخ : المطبعة العلمية بحلب ص 66، وأصل ذلك عند ابن حجر في «المعجم المفهرس» : مصور خ. م 12646 : لوحة 56.

48) ترجمته بالقطعة المخطوطة من «صلة الصلة» لابن الزبير.

فيروي الشفا عن أبي علي الشلوبين : عمر بن محمد بن عمر الأزدي الإشبيلي (49).

عن ابن حكم، عن المؤلف (50).

ومن نفس المدينة ابن رشيد : محمد بن عمر بن محمد الفهري (51).

وهو يروي الشفا عن أبي محمد عبد الله بن أبي القاسم الأنصاري سابق الذكر. عن أبي زيد القمارشي سابق الذكر.

عن ابن حكم، عن المؤلف (52).

وهنا تنتهي هذه النماذج من الأسانيد الى ابن حكم في كل من تونس وسبتة، وكما أشير له سلفا : فهي تدل على شيوع لهذه الرواية بالأندلس.

٥

ونضيف لذلك رواية أندلسية من طريق أبي عبد الله (الطنجالي) : محمد بن أحمد ابن يوسف الهاشمي (المالقي) (53).

---

49) له ترجمة موسعة «بالذيل والتكملة» 5 / رقم 807.

50) جاء هذا السند في برنامج ابن أبي الربيع : المنشور في «مجلة معهد المخطوطات العربية» : بالجزء الثاني من المجلد الأول ص 266.

51) ترجمته ومعها جملة من مصادرها ومراجعها : في «سلوة الأنفاس» 2 / 191 ـ 192.

52) ورد ضمن أسانيد السراج بالافتتاحية التي صدر بها أصله من كتاب الشفا، حيث سيرد نصها بالملحق رقم 5.

53) ترجمته في «الاحاطة» 3 / 245 ـ 248.

عن أبي الوليد العطار ، اسماعيل بن يحيى (بن اسماعيل الأزدي الغرناطي) (54).

عن ابن حكم، عن المؤلف (55).

ورواية أندلسية مغربية من طريق المنثوري ، محمد بن عبد الملك بن علي القيسي الغرناطي (56).

عن ابن عمر ، محمد بن محمد بن عبد الرحمن اللخمي الفاسي (57).

عن أبي الحسن القرطبي ، علي بن سليمان بن أحمد الأنصاري نزيل فاس (58).

عن ابن حوط الله ، عبد الرحمن بن عبد الله بن سليمان الأنصاري الأندي (59).

عن ابن حكم، عن المؤلف (60).

---

54) ترجمته في «غاية النهاية في طبقات القراء» لابن الجزري ، دار الكتاب اللبناني ، رقم 790.

55) هذا السند عند السراج، حسب الافتتاحية أصله من الشفا ، بالملحق رقم 5.

56) ترجمته عند الكتاني في «فهرس الفهارس» 2 / 5 ـ 6.

57) ترجمته عند الكتاني في «سلوة الأنفاس» 2/ 3.

58) ترجمته «بالمصدر الأخير» 3 /149.

59) ترجمته في «غاية النهاية...» رقم 1580.

60) ساق هذا السند المنتوري في «فهرسه» ، مخطوط خ.م. 1578 / 1 ص 70.

وبلغت رواية ابن حكم الى مصر والشام، فيرويها صلاح الدين العلائي ، خليل بن كيكلدي بن عبد الله الدمشقي (61)، نزيل بيت المقدس.

عن أبي الحسن علي بن عمر بن حسان الشاغوري (62).

عن أبي عبد الله بن محارب : محمد بن محمد بن عبد الرحمن القيسي : من الأسكندرية (63).

ومنها زار الأندلس فروى ـ بغرناطة ـ عن ابن حكم، عن المؤلف (64).

٥

ووصلت الرواية ذاتها الى المدينة المنورة فرواها جماعة. بينهم محمد بن فرحون بن محمد بن فرحون اليعمري التونسي ثم المدني (65).

عن خلف القبتوري ، بسنده المتقدم الى ابن حكم، عن أبي الفضل (66).

---

61) ترجمته في «الدرر الكامنة» 2 / 90 ـ 92، ومن الرواة الأندلسيين عن صلاح الدين العلائي : خالد ابلوي، حسب رحلته «تاج المفرق...» مطبعة فضالة 1 / 260، غير أنه لم يحدد سند أستاذه للشفا.

62) لا ذكر لترجمته فيما رجعت له من المصادر، وترجم ابن حجر لعلي بن عثمان بن حسان الدمشقي الشاغوري، حسب «الدرر الكامنة» 3/83، فهل تصحف هنا والد المترجم بعمر ؟

63) ترجمته في «التكملة» ق 2144 ص 752 ـ 753.

64) هذا السند عند السراج حسب افتتاحيته الشفا : بالملحق رقم 5.

65) ترجمته عند السخاوي في «التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة» مطبعة دار نشر الثقافة بالقاهرة، رقم 4066.

66) أشار لهذا السند : السخاوي في «التحفة اللطيفة» عند رقم 1142.

3 ـ رواية أبي عبد الله التميمي سابق الذكر عند رقم 11.

عرفت في الشرق من طريق تلميذه الرحالة ابن جبير : محمد بن أحمد بن حسين الكناني البلنسي المولد، ثم استوطن عدة مدن بالأندلس وغيرها ، الى أن أقام ـ آخر عمره ـ بالقاهرة والأسكندرية يحدث ويوخذ عنه، الى أن توفي بالمدينة الأخيرة عام 1217/614 (67).

أ ـ وقد حدث عنه بكتاب الشفا جماعات، بينهم أبو محمد المنذري :

عبد العظيم بن عبد القوى (بن عبد الله). الشامي ثم المصرى القاهري. (68).

ب ـ و(ابن الجرج التلمساني) : محمد بن ابراهيم بن عبد الرحمن الأنصاري نزيل الأسكندرية. (69).

ولكل من الاثنين نسخة من الشفا سنشير لها من بعد (70).

---

67) له ترجمته مطولة «بالذيل والتكملة» 5/ رقم 1172.

68) ترجمته في «طبقات الشافعية الكبرى» للسبكي : المطبعة الحسينية المصرية 5/ 108 ـ 109، وفي ترجمة ابن جبير من شجرة النور الزكية«ص 175 » وحدث بالشفا... وسمع منه الحافظان عبد العظيم المنذري، وأبو الحسن يحيى بن علي القرشي، وانظر العقد الثمين... للفاسي 44/6.

69) أشار لاسمه ووفاته الذهبي في «تذكرة الحفاظ» : «دار أحياء التراث العربي» ص 1438.

70) سيرد التعريف بهما عند الباب الثالث رقم 36،35،24،23.

ج ـ ونفس الكتاب رواه عن ابن جبير : رشيد الدين ابن العطار : يحيى بن علي (بن عبد الله) القرشي (الأموى النابلسي ثم المصري) (71).

د ـ والتاج القسطلاني : على بن أحمد بن علي القيسي المصرى ثم المكي (72).

هـ ـ والكمال : علي بن شجاع (بن سالم) العباسي الضرير (73).

و ـ ومعين الدين : عبد الهادي بن عبد الكريم (بن علي) القيسي (المصري) (74).

ز ـ كما رواه عن المنوه به : القاضي علم الدين : محمد بن الحسين ابن عتيق بن الحسين بن رشيق الربعي القاهري (75).

---

(71) ترجمته عند الذهبي في «تذكرة الحفاظ» ص 1442 ـ 43، ووردت الإشارة لروايته الشفا عن ابن جبير ومنه الأربعة المذكورون بعده : عند الفاسي في «العقد الثمين...» 44/6.

(72) ترجمته بالمصدر الأخير رقم 2032، وروايته عن ابن جبير : إحدى الطرق التي أسند إليها زكرياء الأنصاري وهو يذكر أسانيده للشفا، حسب «فهرسه» من جمع تلميذه السخاوي : خ.ع.ك سادس مجموع 1233 ـ ص 124.

(73) ترجمته في «غاية النهاية» رقم 2231.

(74) ترجمته بنفس المصدر رقم 1975.

(75) ترجمته عند الصفدي في «الوافي بالوفيات» : الطبعة الثانية رقم 881، وطريق ابن رشيق : إحدى روايات الشفا التي يسند لها ابن حجر في «المعجم المفهرس» : لوحة 56.

وعنه ـ مباشرة ـ يسند أبو الفتح ابن سيد الناس إلى «الشفا» في كتابه «عيون الاثر...» (76).

ومن جهة ابن سيد الناس : يسند ابن حجر العسقلاني إحدى طرقه لهذا الكتاب (77).

حـ ـ ومن رواة الشفا عن ابن جبير : الحسين بن الحسن بن ابراهيم الخليلي الدارى (78).

ومن طريقه وصلت الرواية الجبيرية للمغرب، فيسوقها السراج (79) بسنده الى الخليلي الداري عن ابن جبير...

ثم دخلت الرواية ذاتها للمغرب من طريق عبد العظيم المنذري، وكان ذلك بواسطة ابن غازي، محمد بن أحمد بن محمد الغثماني المكناسي نزيل فاس (80)، فيرويها عن مجيزه فخر الدين الديمي :

---

76) نشر دار المعرفة في بيروت 347/2، وترجمة مؤلفه في «الوافي بالوفيات» رقم 198.

77) يوجد هذا السند في إجازة مكتوبة بهامش خاتمة كتاب الشفا في مخطوطة مشرقية خ.م. 2552، وسيرد التعريف بهذه النسخة عند الباب الثالث رقم 20.

ومن جهة إبن سيد الناس عن ابن رشيق أيضا : يسند الصفدي إلى الشفا، حسب «الوافي بالوفيات» ج 23 : مخطوط دار الكتب الوطنية بتونس 13325 : ورقة 33.أ.

78) لا ذكر لترجمته بالمصادر التي رجعت لها، وذكره إبن حجر في «المعجم المفهرس» لوحة 56 : باسم محمد بن الحسن بن الحسين الخليلي.

79) في افتتاحية أصله من الشفا : حسب الملحق رقم 5.

80) «التعلل برسوم الاسناد...» ص 140.

عثمان بن محمد بن عثمان المصري : (81) بسنده الى المنذري عن ابن جبير...

وسيضاف الى الرواة السبعة المشار اليهم : مجموعة يبلغ تعدادها خمسة عشر روايا، وهم المدونة أسماؤهم في لائحة السماع على الرحالة الأندلسي، حيث سجل نصها على المجلد الأول من أصل الشيخ المسمع، المحفوظ بمخطوطات الأوقاف ببغداد رقم 2950.

وإلى ذلك تضاف ثمانية أسماء ضمن لائحة سماع أخرى، وهي بآخر المجلد الأول من مخطوطة للشفا بمكتبة الحرم المكي بمكة المكرمة رقم 416.

وسيرد نص هذه اللائحة عند الملحق رقم 10.

4 ـ **رواية ابن الصائغ** سابق الذكر عند رقم 19.

يظهر أنها وصلت للمشرق بواسطة تلميذه ابن تامتيت «أحمد بن محمد بن حسين اللواتي الفاسي، فيذكر عنه ابن الابار (82) ، أنه لحق بالمشرق وحدث بمصر وغيرها عن أستاذه ابن الصائغ.

81) ترجمته عند السخاوي في «الضوء اللامع» 5 / 140 ـ 142.

82) عند ترجمته من «التكملة» ط. الجزائر رقم 325، وتاريخ وفاته في «الوافي بالوفيات» رقم 3377.

غير أن الأسانيد التي سنشير لها إنما تتصل بابنه يحيى، الراوي بدوره للشفا عن ابن الصائغ ـ مباشرة ـ إجازة. (83) وقد اشتهر من المشارقة اثنان يسندون لكتاب أبي الفضل من طريق يحيى ابن تامتيت

الأول : أبو المحاسن الدلاصي : يوسف بن محمد بن محمد بن أبي الفتوح القرشي المصري (84).

الثاني : ابن سيد الكل، الزبير بن علي الأزدي المهلبي، الأسواني ثم المدني نزيلها ودفينها (85).

---

83) رواية يحيى ابن تامتيت هذه : أشار لها ابن مرزوق الخطيب في أحد أسانيده للشفا، حيث وردت عند ابراهيم بن هلال في «فهرسه» المخطوط خ.ع.ك 1233، ثم ابن غازي في «التعلل برسوم الاسناد» ص 188.

84) لا ذكر لترجمته فيما رجعت له من المصادر، ويسميه المقري بعبد الله بن عبد الحق القرشي المخزومي الدلاصي... حسب «أزهار الرياض» 4/341، وهذا له ترجمة مذكورة بعدد من كتب التراجم، ومنها في «برنامج الوادي آشي» رقم 47.

85) ترجمته عند الادفوي في «الطالع السعيد...» : المطبعة الجمالية بالقاهرة ص 129 ـ 130، ثم في «الدرر الكامنة» 2/113، حيث يسمى جده بسيد الكل، بينما يسميه المصدر الأول سيد الأهل.

وقد انفرد الادفوي بذكر سماع ابن سيد الكل ـ مباشرة ـ من أبي العباس ابن تامتيت، وهو شيء غير ممكن، اعتبارا بأن هذا الأخير كانت وفاته من مفتتح عام 657 هـ، حسب «الوافي بالوفيات» 7/384، بينما كانت ولادة ابن سيد الكل عام 656 هـ : «غاية النهاية» 1/293، أو في عام 660 هـ : «الدرر الكامنة» 2/113، هذا فضلا عن التاريخ الذي يحدده المصدر الأخير لرواية الأسواني عن ابن تامتيت، وهو عام 675 هـ.

والذي كان بقيد الحياة في هذه الحقبة هو يحيى ابن تامتيت، فيكون هو استاذا بن سيد الكل، وهو ما يسير عليه سياق ابن مرزوق الخطيب في أحد أسانيده للشفا الواردة

فمن طريق الدلاصي نشير لثلاثة أسانيد :

أ ـ الحافظ ابن حجر العسقلاني : عن ناصر الدين ابن الفرات : محمد ابن عبد الرحيم، حيث يذكر عنه السخاوي (86) : أنه أسمع ـ صغيرا ـ على الدلاصي وحدث بالشفا (87).

ب ـ ابن مرزوق الكفيف : محمد بن محمد الحفيد بن أحمد بن محمد الخطيب ابن أحمد العجيسي التلمساني (88) : عن والده محمد الحفيد (89) : عن الشيخين : ابن الكويك : محمد بن محمد بن عبد اللطيف الربعي القاهري، (90) وابن الملقن : عمر بن علي بن أحمد الأنصاري القاهري (91) : كلاهما عن الدلاصي (92).

ج ـ السخاوي : محمد بن عبد الرحمن (93) : عن محمد بن عبد

عند ابراهيم بن هلال في فهرسه انف الذكر، ثم السراج في افتتاحية أصله من الشفا : «الملحق» رقم 5. وثالثا : الرصاع في «فهرسه». نشر المكتبة العتيقة بتونس ص 111، وغير هؤلاء.

86) «الضوء اللامع» 8/ 51 : عند ترجمة ابن الفرات.

87) أورد هذا السند السخاوي في «الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الاسلام ابن حجر» : مخطوط خ.م. 1500 1/ 75.

88) ترجمته في «نيل الابتهاج...» المنشور بهامش الديباج ص 330.

89) ترجمته بنفس المصدر ص 293 ـ 299.

90) ترجمته في «الضوء اللامع» 9/ 111.

91) ترجمته بالمصدر الأخير 6/ 100 ـ 105.

92) ورد هذا السند في «ثبت» أحمد بن علي البلوي : مصورة مخطوطة الاسكوريال رقم 1725 من فهرس بروفنسال.

93) كتب لنفسه ترجمة ذاتية «بالضوء اللامع» 8/ 2 ـ 32.

الله الخطيب (94)، عن علي بن محمد السبع (95)، عن الدلاصي (96).

٥

ومن طريق ابن سيد الكل ، نعرض ثلاثة أسانيد للشفا :

أ - فيرويها كل من إبن مرزوق الخطيب المتكرر الذكر، والنويري ، علي بن أحمد بن عبد العزيز العقيلي المكي (97) : كلاهما عن ابن سيد الكل (98).

ب - أبو شامل الشمني (99) : عن محمد بن أحمد المرغوشي (100) بالأسكندرية، عن ابن سيد الكل (101).

ج - أبو الطيب السحولي : محمد بن عمر بن علي اليمني ثم المكي، قال عنه السخاوي : (102) «واحضر - في آخر الخامسة بالمدينة - على الزبير الأسواني : الشفا»، ثم قال : «سمع منه الايمة، سيما الشفا، فحدث به غير مرة لتفرده به في الدنيا، وممن سمع منه شيخنا (يعني ابن حجر العسقلاني)، وذكره في معجمه، والتقى بن فهد».

---

94) يعرف بالرشيدي، وترجمته في «الضوء اللامع» 8 / 101 - 102.

95) ترجمته في «الدرر الكامنة» 3/111، ثم في «شذرات الذهب» 6/340، وقد ضبط فيها «السبع» بفتح فسكون.

96) ورد هذا السند في «التعلل برسوم الإسناد... ص 152 - 153.

97) «الدرر الكامنة» 3/17.

98) جاء هذا السند في ثبت البلوي سابق الذكر وشيكا.

99) ترجمته في «الضوء اللامع» 9/ 74 - 75.

100) لا ذكر لترجمته فيما رجعت له من المصادر.

101) أورد هذا السند التلمساني في الفتاحية شرحه للشفا خ.ع. ك 1340 : ص 4.

102) «الضوء اللامع» 8/251 عند ترجمته.

وابن فهد هو محمد بن محمد بن محمد الهاشمي المكي. (103) ومن طريقه عادت رواية ابن الصائغ الى المغرب الأوسط، فيرويها الشريف التلمساني (104) : محمد بن علي بن أبي الشرف الحسني - في افتتاحية شرحه للشفا (105) - عن المحب النويري : أحمد بن محمد بن محمد العقيلي المكي، (106) في منزله - بمكة - سنة 920 هـ ، عن التقي بن فهد، عن السحولي، عن ابن سيد الكل.

كما عادت نفس الرواية الى تونس من طريق أبي القاسم البرزلي، عن الزبيدي (107)، عن ابن مرزوق الخطيب، عن ابن سيد الكل (108).

وعادت الى المغرب الأقصى من طريق محمد بن أحمد ابن غازي سابق الذكر، وهو يتصل بالدلاصي بسند كل من ابن مرزوق الكفيف والسخاوي.

ويتصل بابن سيد الكل، بسند كل من ابن مرزوق الخطيب والشمني (109).

---

103) ترجمته بالمصدر الأخير 9/ 281 - 283.

104) ترجمته في «نيل الابتهاج» ص 336.

105) المخطوط الآنف الذكر : ص 4.

106) ترجمته عند الغزي في «الكواكب السائرة...» 1/ 126.

107) ترجمته في «نيل الابتهاج» ص 225 - 226، وله ترجمة موسعة في «فهرس الرصاع».

108) أورد هذا السند الرصاع في فهرسه ص 101.

109) «التعلل برسوم الاسناد...» ص 46، 152 - 153، 187 - 188.

وقد مر تفصيل الأسانيد الأربعة وشيكا.

٥

والى هنا نتابع تقديم بقية روايات الشفا حسب العرض التالي :

5 ـ **رواية ولد المؤلف : محمد بن عياض** مار الذكر رقم 1.

ومن الأسانيد اليها : رواية مسلسلة بالآباء : من طريق ابن مرزوق الكفيف محمد، عن أبيه محمد الحفيد، عن أبيه محمد (110) وعمه أبي الطاهر أحمد، (111) عن أبيهما محمد ابن مرزوق الخطيب، عن سبط حفيد القاضي عياض : أبي المجد أحمد (112)، عن أبيه محمد، (113) عن أبيه عياض الحفيد، (114) عن أبيه محمد، الراوي عن والده القاضي أبي الفضل عياض مصنف الشفا (115).

6 ـ **رواية أبي عبد الله بن زرقون** مار الذكر رقم 3.

يسندها ابن أبي الربيع القرشي ـ سابق الذكر ـ من طريقين :

---

110) لا ذكر لترجمته فيما رجعت له من المصادر.

111) لا ذكر لترجمته فيما رجعت له من المصادر.

112) لا ذكر لترجمته فيما رجعت له من المصادر.

113) ترجمته في «الاحاطة» 2/ 226 ـ 229.

114) ترجمته في «التكملة» ق 1952، ثم في «صلة الصلة» : القطعة المطبوعة رقم 322، مع الاحاطة 4/ 221.

115) هذا السند أحد طرق ابن مرزوق «للشفا»ونقله عنه ابراهيم بن هلال في «فهرسه»، وابن غازي في «التعلل برسوم الاسناد...» ص 188 من النص المطبوع، مع الرجوع الى بعض مخطوطات الفهرس.

أ ـ عن ابن خلفون : محمد بن اسماعيل بن محمد الأزدي الأونبي، (116) عن أبي عبد الله بن زرقون، عن القاضي أبي الفضل عياض (117).

ب ـ وعن أبي القاسم بن بقي : أحمد بن يزيد بن عبد الرحمن الأموي، (118) عن أبي عبد الله بن زرقون (119)...

وإلى هذا السند الأخير ترجع رواية ابن غازي المكناسي للشفا : من طريق شيخه عبد الله بن عبد الواحد الورياجلي، (120) بسنده المبسوط في التعلل برسوم الإسناد (121).

ويسند السراج (122) هذه الرواية عن شيخه أبي علي الحكيم : عمر بن أحمد بن عمر القرشي العبدري، (123) عن أبي عبد الله بن

---

116) ترجمته في «برنامج ابن أبي الربيع» المنشور في مجلة معهد المخطوطات العربية : بالجزء الثاني من المجلد الأول ص 260.

117) ورد هذا السند بنفس المصدر ص 266.

118) ترجمته بنفس البرنامج ص 259.

119) ورد هذا السند في «التعلل برسوم الاسناد» ص 118.

120) ترجمته في «سلوة الأنفاس» 3 / 303 ـ 304.

121) ص 118.

122) في افتتاحية أصله من «الشفا» حسب الملحق رقم 5.

123) ترجمته عند السراج في «فهرسه» : الجزء الأول مخطوط خ.ع.ك 1241.

123) ك ـ ترجمته في «الذيل والتكملة» 6/ رقم 672، مع «عنوان الدراية...» : الطبعة الثانية ص 104 ـ 107.

صالح، (123) عن أبي برطلة : عبد الله بن عبد الرحمن الأزدي (124)، عن أبي الحسين بن زرقون محمد (125)، عن والده أبي عبد الله محمد بن سعيد صاحب الرواية...

7 - رواية ابن مضاء وابن فليح، وقد مر ذكرهما رقم 6.5.

يرويها محمد بن علي بن محمد بن عبد الغافر الجملي : (126) عن أبي عبد الله الطنجالي سابق الذكر، عن ابن حوط الله : عبد الرحمن بن عبد الله بن سليمان الأنصاري الأندي سابق الذكر، عن ابن مضاء وابن فليح : كلاهما عن القاضي أبي الفضل عياض.

8 - رواية ابن مضاء، مع ابن حكم سابق الذكر عند رقم 7.

يرويها السراج (127) عن الطنجالي، عن ابن حوط الله، عن ابن حكم وابن مضاء.

9 - رواية ابن الحداد، سابق الذكر عند رقم 9.

رواها السراج (128) عن أبي الربيع الأنفاسي : سليمان بن يوسف

---

124) ترجمته في «غاية النهاية» رقم 1797.

125) ترجمته في «برنامج شيوخ الرعيني» رقم 11.

126) ترجمته في «الدرر الكامنة» 68/4، والجملي نسبة إلى جملة بضم أولها وفتح الثاني وتشديد اللام : من أعمال مرسية، حسب التكملة ق 913. ونسخة رواية الجملي : سيرد التعريف بها عند الباب الثالث رقم 32.31.30.

127) في افتتاحية أصله من الشفا : بالملحق رقم 5.

128) المصدر الأخير.

بن عمر الفاسي، (129) عن أبي عبد الله اللوشي : محمد بن يوسف اليحصبي، (130) عن ابن ربيع المالقي : عبد الله بن أبي عامر يحيى بن عبد الرحمن الأشعري، (131) عن محمد بن عياض، عن أبيه عياض الحفيد، عن، أبي بكر بن الحداد، عن المؤلف سماعا.

10 - **رواية ابن الحداد، مع محمد بن أحمد العزفي** سابق الذكر عند رقم 10.

يسندها السراج (132) عن ثلاثة من أشياخه : أبي محمد الوانغيلي عبد الله بن عمر الفاسي، (133) وأبي محمد العمراني : عبد النور بن محمد بن أحمد الحسني الفاسي، (134) وابن عمر : محمد بن محمد بن عبد الرحمن اللخمي الفاسي سابق الذكر.

ثلاثتهم عن أبي الحسن القرطبي : علي بن سليمان الأنصاري الفاسي سابق الذكر.

عن ثلاثة من أشياخه : ابن أبي الربيع القرشي المتكرر الذكر، وأبي علي بن الناظر :

---

129) ترجمته في «سلوة الأنفاس» 3 / 156 - 158.

130) ترجمته في «غاية النهاية» رقم 3554.

131) ترجمته في «التكملة» ق 1459.

132) في الفتتاحية أصله من «الشفاء» : بالملحق رقم 5.

133) ترجمته عند السراج بالجزء الأول من فهرسه الآنف الذكر، ثم في «سلوة الأنفاس» 3 / 301.

134) ترجمته بالجزء الأول من فهرس السراج.

الحسين بن عبد العزيز بن محمد بن أبي الأحوص القرشي الفهري الغرناطي. (135) ثم أبي الحجاج المربلي ؛(136) ثلاثتهم عن أبي العباس العزفي أحمد. (137) عن أبيه القاضي محمد بن أحمد. وأبي بكر بن الحداد : كلاهما عن المؤلف.

11 ـ **رواية ابن قرقول** سابق الذكر رقم 12.

أسندها في «المنح البادية» (138) الى ابن سالم : أبي الربيع الكلاعي مار الذكر، عن القرطبي، (139) عن ابن قرقول، عن المؤلف.

12 ـ **رواية أبي الطاهر السلفي** سابق الذكر عند رقم 13.

يرويها السراج (140) بسنده الى صلاح الدين العلائي : خليل بن كيكلدي سابق الذكر، عن شرف، الدين محمد بن عبد الحميد بن عبد الله القرشي (المصري) (141)، عن ابن (بنت) الجميزي : علي بن هبة

135) ترجمته في «الإحاطة» 1/ 463 ـ 465. مع «المرقبة العليا...» للنباهي، نشر دار الكاتب المصري، ص 127، ثم «غاية النهاية» رقم 1106.

136) ترجمته في «المصدر الأخير» رقم 3910.

137) ترجمته في «برنامج شيوخ الرعيني» رقم 14.

138) مخطوطة خاصة، ومؤلفها هو محمد بن عبد الرحمن بن عبد القادر الفاسي الفهري، المترجم في «سلوة الأنفاس» 1/ 319 ـ 320.

139) قد يكون هو أبو بكر محمد بن عبد الله بن أحمد الأنصاري الإشبيلي المعروف بالقرطبي، وهو مترجم في «برنامج شيوخ الرعيني» رقم 3، ثم في «الذيل والتكملة» 6/ رقم 697.

140) في افتتاحية أصله من «الشفا» : بالملحق رقم 5.

141) ترجمته في «الدرر الكامنة» 3/ 493.

الله (بن سلامة اللخمي المصري)، (142) عن أبي طاهر السلفي، عن المؤلف.

ويرويها الشريف التلمساني شارح الشفا : (143) عن محب الدين النويري : أحمد بن محمد العقيلي المكي سابق الذكر، عن أبي العباس الحفار، أحمد بن محمد الدمشقي، (144) عن المسندة أم عبيد الله زينب ابنة الكمال أحمد بن عبد الرحمن المقدسية، (145) عن ابن بنت الجميزي آنف الذكر، عن أبي طاهر السلفي...

13 ـ **رواية ابن بشكوال** سابق الذكر رقم 14.

أشار لها عبد الله التجاني عند افتتاحية تعاليقه على الشفا، وأسند اليها من طريق شيخه أبي القاسم الكلاعي، محمد بن قائد بن علي.

عن أبي اسحاق بن عياش، ابراهيم بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد العزيز التجيبي، وقد مر ذكرهما.

---

142) ترجمته عند الذهبي في كتابه «معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار»، مطبعة دار التأليف بمصر ص 518 ـ 519، مع «غاية النهاية» رقم 2366.

143) في افتتاحية شرحه «للشفا» : ص 4.

144) قد يكون هو المترجم عند السخاوي في كل من «الضوء اللامع» 2/110، مع «التحفة اللطيفة» رقم 271، وفي المصدرين معا يلقب المترجم بالحجار بالجيم، بدل الحفار بالفاء الوارد بالنص الذي نعلق عليه.

145) ترجمتها في «الدرر الكامنة» 2/ 117 ـ 118، باسم زينب بنت أحمد بن عبد الرحيم.

عن أشياخه القضاة : أبي عامر (بن أبي : يحيى بن عبد الرحمن بن أحمد بن عبد الرحمن) بن ربيع الأشعري نسبا ومذهبا، القرطبي (146).

وأبي الوليد بن الحاج : (محمد بن أحمد بن محمد) التجيبي (القرطبي) (147).

وأبي أمية بن عفير : (اسماعيل بن سعد السعود بن أحمد) الأموي (اللبلي) (148).

ثلاثتهم عن ا بن بشكوال، عن المؤلف مكاتبه.

14 ـ رواية أبي الطاهر السلفي مع ابن بشكوال.

من طريق السراج : (149) بسنده الى صلاح الدين العلائي المتكرر الذكر، عن أبي بكر محمد بن عبد الرحمن الصالحي، (150) عن أبي القاسم عبد الرحمن بن مكي، (151) عن الشيخين : أبي طاهر السلفي وأبي القاسم بن بشكوال، عن المؤلف.

---

146) ترجمته في «التكملة» ق 2068، مع «صلة الصلة» : القسم المنشور رقم 387، ثم «المرقبة العليا» ص 124.

147) ترجمته في «التكملة» ق 1024.

148) ترجمته في «التكملة» ط الجزائر : 496.

149) في افتتاحية أصله من «الشفاء» : بالملحق رقم 5.

150) لا ذكر لترجمته فيما رجعت له من المصادر.

151) هو سبط السلفي، وورد اسمه ضمن الآخذين عن جده، حسب «تذكرة الحفاظ» ص 300. وأشار لتوقيت وفاته في «النجوم الزاهرة» 7 / 31.

15 ـ **رواية ابن أبي ، عبد الرحمن بن ربيع** سابق الذكر عند رقم 15.

يرويها السراج (152) بسنده الى ابن ربيع المالقي : عبد الله سابق الذكر، عن أبيه أبي عامر يحيى سابق الذكر، عن أبيه عبد الرحمن بن ربيع، عن المؤلف.

16 ـ **رواية أبي محمد الحجري** سابق الذكر عند رقم 16.

يرويها ابن أبي الربيع القرشي المتكرر الذكر، عن جماعة فيهم أبو القاسم بن بقي : أحمد بن يزيد سابق الذكر، عن أبي محمد الحجري، عن المؤلف (153).

17 ـ **رواية الحجري وابن الغازي :**

يرويها السراج (154) بسنده الى أبي جعفر بن الزبير : أحمد بن ابراهمي الثقفي العاصمي الجياني نزيل غرناطة، (155) عن شيخه : أبي عبد الله الأزدي سابق الذكر، وأبي الحسن الشاري : علي بن محمد بن علي الغافقي السبتي، (156) كلاهما عن ابن الغازي وأبي محمد الحجري، عن المؤلف.

152) في افتتاحية أصله من «الشفا» : بالملحق رقم 5.

153) ورد هذا السند في «برنامج ابن أبي الربيع»، المنشور في مجلة معهد المخطوطات العربية : بالجزء الثاني من المجلد الأول ص 266.

154) في افتتاحية أصله من «الشفا» : بالملحق رقم 5.

155) ترجمته في «الذيل والتكملة» 1/ رقم 31.

156) ترجمته في «التكملة» ق : 1922، مع القطعة المنشورة من «صلة الصلة» : 300.

18 ـ **رواية ابن الفرس** سابق الذكر عند رقم 17، ومعه ابن حكم.

يرويها الجملي (157) عن الطنجالي ـ وقد سبق ذكرهما ـ عن أبي الوليد العطار وعبد الرحمن بن حوط الله وسبق ذكرهما : كلاهما عن ابن حكم وابن الفرس، عن المؤلف.

19 ـ **رواية ابن أبي جمرة** مار الذكر عند رقم 18.

يرويها السراج عن الرعيني : محمد بن سعيد بن محمد الفاسي، (158) عن أبي القاسم بن الشاط : قاسم بن عبد الله بن محمد الأنصاري السبتي، (159) عن ابن مشليون : محمد بن محمد (بن أحمد) الأنصاري البلنسي، (160) عن ابن ابي جمرة، عن المؤلف.

20 ـ **رواية الشقوري** : سابق الذكر عند رقم 20.

وهي من الروايات المذكورة بالشرق، فيسند اليها ابن مرزوق (161) الخطيب من ثلاث طرق.

157) عند الفتتاحية نسخته من الشفا، حيث سيرد ذكرها عند رقم 32،31،30 من الباب الثالث.

158) ترجمته عند السراج بالجزء الأول من «فهرسه سابق الذكر، مع سلوة الأنفاس» 3/ 277.

159) ترجمته في «برنامج الوادي أشي» رقم 262.

160) ترجمته في «الذيل والتكملة» 6/ رقم 58.

161) حسب ابراهيم بن هلال في فهرسه المتكرر الذكر.

أ ـ عن محمد بن ابراهيم بن مرتضى الكناني المصري، (162) عن أبي اسحاق ابراهيم بن يحيى بن محمد الفاسي، (163) عن أبي بكر بن مسدي : محمد بن يوسف بن موسى الأندلسي ثم المكي خطيب المسجد الحرام، (164) عن أبي الحسن الشقوري، عن المؤلف.

ب ـ وأعلا منها بدرجة : عن محمد بن عبد المعطي القرشي المكي، (165) عن ابن مسدي، عن الشقوري...

ج ـ وبنفس العلو، عن أبي العباس العشاب، أحمد بن محمد (بن ابراهيم) المرادي القرطبي نزيل الاسكندرية (166)، عن أبي اسحاق بن عياش، ، ابراهيم (بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد العزيز) التجيبي سابق الذكر، عن الشقوري.

ورابع الطرق إلى هذه الرواية، عن الفخر التوزري، عثمان بن محمد بن عثمان المصري نزيل مكة المكرمة (167)، عن ابن برطلة، عبد الله بن عبد الرحمن الازدي سابق الذكر، عن الشقوري (168).

162) ترجمته في «التحفة اللطيفة» رقم 3597.

163) لا ذكر لترجمته بالمصادر التي رجعت لها.

164) ترجمته في «الوافي بالوفيات» رقم 2335، مع «العقد الثمين» رقم 493.

165) ترجمته بالمصدر الأخير رقم 280، غير أنه ذكر في نسبته الأنصاري الخزرجي، لا القرشي.

166) «برنامج الوادي آشي» رقم 93، مع «الوافي بالوفيات» رقم 3305، ثم «الدرر الكامنة» 241/1، وجاء في ترجمته من الوافي : «وسمع الشفاء عن أبي اسحاق بن عياش التجيبي، بسماعه من الشقوري، عن مؤلفه : إجازة».

167) ترجمته في «برنامج الوادي آشي» رقم 226، مع «العقد الثمين...» رقم 1968.

168) هذا السند الأخير : عند الفاسي في «العقد الثمين» 6/ 44 ـ 45.

وساق السراج (169) سنده لهذه الرواية ، إلى ابن ربيع المالقي ، عبد الله بن أبي عامر سابق الذكر، عن أبي عبد الله الطراز ، محمد بن سعيد بن علي الأنصاري الغرناطي (170)، عن الشقوري.

21 ـ رواية أبي محمد خليل السكوني مار الذكر رقم 21.

أسندها في المنح البادية إلى الفخر ابن البخاري (171)، وابن الزبير ، كلاهما عن أبي الخطاب بن خليل ، محمد (172)، عن أبيه أحمد (173)، عن أبيه خليل السكوني، عن المؤلف.

22 ـ رواية أبي القاسم بن الملجوم، سابق الذكر رقم 22.

تسندها طالعة نسخة من «الشفا» عن محمد بن أحمد بن فرح الانصاري الأندلسي (174)، عن أحمد بن عمر الأنصاري (175)، عن أبي القاسم بن الملجوم، عن المؤلف.

---

169) في الفتتاحية أصله من الشفا : بالملحق رقم 5.

170) ترجمته في «التكملة» ق : 1032، مع «الذيل والتكملة» 6/ رقم 613، ثم «الديباج المذهب» ص 297.

171) ترجمته في «غاية النهاية» رقم 2151.

172) ترجمته في «الذيل والتكملة» 5/ رقم 1200.

173) ترجمته في «الذيل والتكملة» 1/ رقم 148، وفي «المنح البادية» يسمى هذا بمحمد، وهو سبق قلم عن أحمد الذي هو اسم والد أبي الخطاب.

174) ترجمته في «الذيل والتكملة» 5/ رقم 1154.

175) ترجمته في «الذيل والتكملة» 1/ رقم 448.

الباب الثالث

جملة من أصول كتاب الشفا

تبينا وفرة رواة الشفا عن المؤلف فمن بعده، وقد استتبع ذلك تعدد أصول الكتاب بالمغرب والمشرق، وفي هذا الاتجاه يقول المقري (176) بعدما يستعرض جملة من الشارحين : «..... وكما اعتنى الناس بذلك ؛ اعتنوا - أيضا - بتصحيحه وضبطه وإتقانه، ولقد وقفت - والكلام للمقري - من نسخه الصحاح على عدة...».

ويمكن تصنيف هذه النسخ في قسمين : أصول غير معروفة الان، غير انها تأتي الاحالة عليها عند الاقتضاء، فيحسن التعريف بها في مدخل يتقدم عرض الأصول الباقية التي هي القسم الثاني من هذا الباب.

---

176) «أزهار الرياض» 4 / 308.

وفي اتجاه وفرة منتسخات الشفا بصفة عامة : نشير إلى وراق من تلمسان كتب - بخطه - 71 نسخة، واسمه أحمد «اليافوخ» بن محمد - بفتح أوله - بن محمد - بضم أوله - الحلفاوي، الأندلسي ثم التلمساني، فيسجل أخر منتسخة له من نفس الكتاب خ.م 2266 : أنه علق من الشفا 71 نسخة، وكان فراغه من هذه زوال يوم الأربعاء الثاني من ذي الحجة عام 1149 هـ.

ومما يؤكد هذه القولة من الوراق التلمساني : وجود بعض نسخ أخرى بخطه من كتاب أبي الفضل، وفي اخرها يشير إلى العدد الذي انتهى اليه : فمخطوطة دار الكتب الوطنية بتونس : هي التاسعة والعشرون، وفرغ منها عام 1141 هـ، حسب «برنامج المكتبة العبدلية» 2/ 254.

ومخطوطة خ.م 218ز : هي التاسعة والستون، وفرغ منها ضحوة يوم الاثنين 24 جمادى الاخرة 1149 هـ

1 ـ فمن القسم الأول ، **أصل المؤلف** أبي الفصل عياض، وكان من ستة أجزاء، (177) ولا يعرف ـ الان ـ إلا من خلال اشارات له في بعض أصول الشفا المتفرعة عنه.

2 ـ ومنها **نسخة ابن الغازي** تلميذ المؤلف : محمد بن حسن بن عطية الأنصاري الجابري السبتي سابق الذكر، وهي مقابلة بكتاب المؤلف مرتين : احداهما من ا بن الغازي نفسه، والثانية من جهة خاله محمد بن سليمان بن سبع (السبتي) سنة 522 هـ (178).

3 ـ **ثم نسخة أبي عبد الله الطراز** : محمد بن سعيد بن علي الأنصاري الغرناطي سابق الذكر، والمتوفى ـ ببلده ـ عام 1248/645 (179).

هذا مع العلم بأن الوراق الجزائري كانت اخر منتسخاته المعروفة ترجع إلى عام 1155 هـ، وهو تاريخ فراغه من كتابة جزء من «الاكتفا» للكلاعي، حسب «رصيد مكتبة حسن حسني عبد الوهاب» ص 353.

177) «التعريف بالقاضي عياض» لولده محمد، مطبعة فضالة ص 116، وعلى هذه التجزئة سارت الأصول المغربية من كتاب الشفا، وهناك تجزئات أخرى على غير نسق المؤلف، ومنها 24 أو 30 جزءا...

178) هذا وارد ضمن الملحق رقم 2، وابن سبع المذكور لا تعرف له ـ الان ـ ترجمة، وقد ضبط الزرقاني كلمة سبع بإسكان الباء وقد تضم، نقله عن التبصير، «شرح المواهب اللدنية» : المطبعة الأزهرية المصرية 1/ 42.

179) جاءت الإشارة لها بالملحقات 4.2.1، وقد استمر أصل الطراز معروفا حتى منتصف المائة الهجرية التاسعة، فيقف عليه عبد الله الزموري، ويعتمده في شرحه للشفا اتي الذكر.

4 ـ وقد عارضها بأصل شيخه أبي العباس العزفي : أحمد بن القاضي محمد بن أحمد اللخمي السبتي سابق الذكر، وهو على رواية ابن الغازي، (180).

ثم قابلها بكتاب المؤلف عام 613 هـ بقرطبة (181).

5 ـ وعلى أصل المؤلف ـ أيضا ـ صحح نسخته الجملي ، محمد بن علي بن محمد بن عبد الغافر (الأنصاري المالقي) سابق الذكر، والمتوفى عام 1329/729، وهي على رواية كل من ابن مضاء وابن فليح (182).

6 ـ وبعد الجملي ينقل عن **خط المؤلف** عبد الله بن أحمد بن سعيد الزموري خلال شرحه للشفا، وقد ألفه أواسط المائة الهجرية التاسعة (183).

7 ـ ويعتمد الزموري ـ أيضا ـ **أصل القاضي العزفي** : محمد بن أحمد بن محمد اللخمي السبتي مار الذكر، فيشير الى أن به خط المؤلف.

---

180) وردت الاشارة له بالملحقات 3،2،1.

181) الملحق 4.

182) الملحق 9، وانظر الملحق 8.

183) أصله لوالده أحمد بن سعيد بن يحيى،ولما توفي أضاف له ابنه ـ المنوه به ـ زيادات،وسماه «ايضاح اللبس والخفاء، عن ألفاظ الشفاء»، لا يزال مخطوطا في نسخ محدودة، واحدة منها في مجلد بخزانة القرويين رقم: 49/2798، ولمؤلفه ـ الابن ـ ترجمة وجيزة في نيل الإبتهاج ص 161، ثم في «طبقات الحضيكي» : المطبعة العربية بالدار البيضاء 165/2، وبالمصدرين ـ معا ـ تمد د حياة المترجم إلى عام 888 هـ.

8 ـ كما اعتمد كلا من أصل الطراز المنوه به وشيكا، **وأصل ابن خلصة** (قد يكون هو محمد بن عبد الرحمن بن أحمد اللخمي البلنسي المتوفى ـ بالمرية ـ عام 1127/521) (184).

9 ـ ومن هذه الأصول ننتقل الى **نسخة ابن القصير** تلميذ المؤلف عبد الرحمن بن أحمد بن أحمد الأزدي الغرناطي، المتوفى ـ بتونس ـ عام 1180/576.

وكان نقلها ـ حسب المقري ـ (185) من نسخة عليها خط المؤلـف، وفرغ منها في رمضان 1164/559، وهي على روا ية ا بن الخلوف مار الذكر بلائحة رواة الشفا ـ سماعا ـ على المؤلف، وقد وقف عليها المقري وأفاد منها.

10 ـ ثم نسخة عياض الحفيد بن محمد بن القاضي أبي الفضل، المتوفى ـ بمالقة ـ عام 1233/630 ، أشار لها يحيى السراج، حسب الملحق رقم 6.

11 ـ **نسخة أبي القاسم القبتوري** : خلف بن عبد العزيز بن محمد الغافقي الاشبيلي نزيل سبتة، والمتوفى ـ بالمدينة المنورة ـ عام 1304/704، وهي على روا ية ا بن حكم، وقد جبر منها ا بن رشيد بعض

---

184) ترجمته في «الذيل والتكملة» 6/ رقم : 894.

185) «أزهار الرياض» 4/ 175، 308 ، مع ص 349 ـ 350، ولابن القصير ترجمة في التكملة ق 1607.

أصله. (186) ثم صارت من النسخ المرجوع لها في بعض النسخ المشرقية، كما سيتضح ذلك عند ذكر الأصلين رقم 19 ـ 20.

12 ـ **نسخة ابن رشيد** : محمد بن عمر بن محمد الفهري السبتي، المتوفى ـ بفاس ـ عام 1321/721، وهي ـ بدورها ـ على رواية ابن حكم، وقد سمع فيها يحيى السراج على شيخه أبي الربيع الأنفاسي، وعارض نسخته بها، حسب الملحقين رقم 5 ـ 6.

٥

وستكون نسخة ابن رشيد قد كملت اثنتي عشرة من نسخ الشفا التي تعتبر ـ الآن ـ ضائعة، غير أن هذه جاءت تمهيدا لعرض جملة من المخطوطات الأصيلة الباقية من الكتاب ذاته :

13 ـ انطلاقا من **نسخة المكتبة الخالدية** بالقدس الشريف، وهي بخط أندلسي من سنة 593 هـ ، ومقابلة على نسخة المؤلف الأصلية (187).

14 ـ نسخة خزانة تمكروت رقم ، 2942، وهي برواية أبي القاسم عبد الرحمن ابن الملجوم الفاسي، سابق الذكر عند لائحة رواة الشفا بالإجازة ـ عن المؤلف.

---

186) الملحق رقم 7.

187) «تاريخ الأدب العربي» لبروكلمان : الترجمة العربية 268/6.

الموجود منها المجلد الأول مبتور الآخر، ومكتوب بخط شرقي نسخي، وجاءت افتتاحيته كالتالي :

«أخبرنا الشيخ... محمد بن أحمد بن أبي فرج الأنصاري الأندلسي بمنى،ومن أصله نقلت، قال : أنا أحمد بن عمر الأنصاري، قال : أنا أبو القاسم عبد الرحمن عرف بابن الملجوم، عن مؤلفه عياض».

15 ـ **نسخة الرحالة أبي الحسين بن جبير** سابق الذكر، يوجد المجلد الأول منها ضمن مخطوطات الأوقاف ببغداد رقم : 2950، وعليه سماع مكتوب بخط شرقي نسخي، وموقع بخط ابن جبير على الطريقة الأندلسية عام 613 هـ، وهذا نص السماع :

«سمع جميع هذا التصنيف على الشيخ الفقيه الإمام العالم، بقية السلف الصالح : أبي الحسين : محمد بن أحمد بن جبير الكناني، رضي الله عنه وأدام مدته، بقراءة الشيخ الفقيه العالم، جمال الدين : أبي الفضل عبد الصمد بن أبي علي الحسين بن يوسف الأصبحي :

الشيخ الفقيه الزاهد : أبو محمد عبد المنعم بن محمد الخيمي.

والفقيه : أبو حفص عمر بن علي بن أبي سعيد....... الكسي.

والفقيه المؤدب : عبد الوهاب بن طاهر بن ابراهيم الحاسب.

والفقيه : محمد بن أحمد الشاطبي.

والفقيه : عبد النصير بن علي بن عبد المحسن الهمداني.

والفقيه : أبو المنصور عبد الوهاب بن أبي الفضل اللخمي.

والفقيه : مفرج بن محمد بن مفرج النباتى.

والفقيه : أبو الفتوح بن سند بن سيف السعدي.

وولد أخته : أبو الفتوح منصور بن سليمان بن معمر اللخمي البياضي.

وهبة الله بن محمد بن الحسين بن مفرج بن حاتم المقدسي ، كاتب هذا السماع المذكور فيه.

وريحان مولاه الحر المسلم.

ومن سمع الأكثر وفاته البعض، وأجاز لهم الشيخ الفقيه المسمع المذكور ، أن يرووا عنه مالم يسمعوه ، بالإجازة المعتبرة بين أهل العلم ؛

الفقيه المؤدب مظفر بن رسلان بن عنان...

وعبد الرحمن بن محمد بن علي الجرخي.

وولد أخته ، علي بن حسين بن اسماعيل الأزدي.

وذلك في عدة مجالس، آخرها الحادي والعشرون من جمادى الآخرة سنة ثلاث عشرة وستمائة. والحمد لله وحده، وصلواته على سيدنا محمد نبيه وآله وسلامه...».

ويلي ذلك توقيع ابن جبير بخطه الأندلسي هكذا ، «صحيح ذلك، وكتب محمد بن أحمد بن حسين بن محمد بن جبير الكناني، وبالله التوفيق». (188).

---

188) «الكشاف عن مخطوطات خزائن الأوقاف» «في (بغداد) ص 52 ـ 53، مع التصحيح من مصورة للسماع واردة عند الزركلي في «الاعلام» 6/ بعد ص 224، والبياض بالسماع يشير لكلمات لا تتبين قراءتها.

16 ـ **مخطوطة دار الكتب الظاهرية** رقم ، 545 حديث، الموجود ، المجلد الأول منها برواية عبد الله بن أحمد (بن محمد) بن عطية القيسي (المالقي) : سنة 617 وسنة 618 : بسند يتصل بالمؤلف، وهي بخط أندلسي عريض مشكول (189).

17 ـ **نسخة ابن فرج** : على بن محمد بن علي القيسي الفيحاطي نزيل غرناطة، والمتوفى ـ بها ـ عام 65/664 ـ 1266.

من مخطوطات الخزانة العامة بالرباط رقم 407 ق ، في 278 ص أصلا وتقديما وتذييلا، مسطرة 25، مقياس 200/270.

كتبها ابن فرج المنوه به بخط أندلسي مليح متقن مصحح ملون بالحمرة، ومهمش بإشارات للفروق وغيرها، ثم فرغ من انتساخها لأربع خلوان من شهر شعبان عام 632 هـ.

وكان قد نقلها وقابلها من أصل شيخه أبي عبد الله الطراز الذي خطه بيده، وقابله وصححه في سبتة ، بأصل شيخه أبي العباس العزفي، المصحح بأصل ابن الغازي، المقرو على مؤلفه مرتين.

ثم قابل الطراز كتابه بأصل المؤلف أبي الفضل، مصححا له به، متحريا في نقل مافيه.

---

189) «فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية» : جزء التاريخ وملحقاته : ص 54، وترجمة راوي المخطوطة في «التكملة» ق 1460، مع القطعة المخطوطة من «صلة الصلة».

كما أن ابن فرج أعاد معارضة نسخته بأصل المؤلف، وفرغ من ذلك في أخريات رمضان 643 هـ

وقد فصل ابن فرج سير هذه التحريات التي اتبعت في كتابة نسخته ونسخة أستاذه الطراز، وشرح ذلك في فقرات أثبت بعضها في افتتاحية الكتاب، والبعض الآخر في خاتمته ، في بضعة نصوص سترد - كاملة - عند الملحقات رقم 1 - 2 - 3 - 4.

ومن هذا العرض نتبين مدى أهمية نسخة ابن فرج، ولذلك اعتمدها المسند المغربي أبو زكرياء السراج ، يحيى بن أحمد بن محمد النفزي الفاسي، المتوفى - بها - عام 02/805 - 1403، فأعاد مراجعتها، مقابلا لها على أصل ابن رشيد وغيره، ثم همشها - بخطه - بعلامات الفروق، وبخطه - أيضا - صدر النسخة المنوه بها بذكر أسانيده للشفا ، في عرض موسع استوعب قرابة ثلاث صفحات في حجم الأصل، فضلا عن فقرة تعرف بنسخة ابن رشيد، وفقرة تشرح الإشارات التي أضافها السراج لنسخة ابن فرج.

وبذلك كله كانت هذه النسخة هي المفضلة بالمغرب في رواية «الشفا» من طريق ابن الغازي، وصارت هي عمدة النسخ المغربية المكتتبة بعد، حيث سنشير لبعضها ضمن نسخ الكتاب الفرعية.

كما سنتبت - عند الملحقات رقم 5 - 6 - 7 - فقرات عروض السراج التي صدر بها أصل ابن فرج.

18 ـ **نسخة ابن ربيع :** أبي عمرو بن محمد بن عبد الله بن يحيى الأشعري، كتبها بخط أندلسي متقن، إلا قليلا بخط مغربي عوضا عن الضائع، وفرغ منها ليلة 13 من شعبان 697 هـ ناقلا لها من أصل كان عليه : «نسخ من أصل عتيق عليه خط مؤلفه». وهي تامة في سفر ضخم بخزانة القرويين رقم 252 (190).

19 ـ **نسخة مشرقية من الشفا :** في خزانة خاصة. وهي مبتورة الطرفين، فتبتدىء أثناء الباب الثاني من القسم الأول عند أوائل فصل : الضرب الثاني.... ثم تنتهي مع مبادىء الباب الأول من القسم الثالث : عند نهاية فصل : في حكم عقد قلب النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ من وقت نبوته.

506 ص، مسطرة 17، مقياس.

مكتوبة ـ على ورق متين ـ بخط عريض مليح ملون مذهب مشكول من نوع الثلث المشرقي، تتخلله ـ بالأصل والهوامش ـ إشارات المقابلة : في علامات منوعة، وبلاغات تساير كتابة النسخة (191).

وضمن المقارنة بأصول متعددة : يأتي التصريح ـ في بعض الهوامش ـ بالمعارضة مع أصلي أبي القاسم القبتوري وأبي الحسين ابن

190) «فهرس مخطوطات خزانة القرويين» دار الكتاب بالبيضاء، 1/263.

191) انظر ص 4، 19، 21، 78، 159، 346، 426.

جبير ، هامش ص 162 و 234 بالنسبة الى القبتوري، ثم هامش ص 138 ر 346 ر 455 بالنسبة لا بن جبير. هذا فضلا عن إشارات كثيرة بحرف ق فيبدو أن المعنى هي نسخة القبتوري، حيث يقع احتذاؤها ـ أيضا ـ في تجزئة الكتاب، حسب إشارة ص 183 : «آخر الجزء الثاني عند ق».

ونظرا لانعدام بداية ونهاية هذه النسخة ؛ فلا يضبط تاريخ كتابتها. غير أن عددا من هوامشها مثقل بحواشي أغلبها من تقريرات الحافظ جمال الدين أبي الحجاج المزي : (يوسف بن عبد الرحمن بن يوسف القضاعي الكلبي، المتوفى عام 1341/742)، (192) قيدها عنه ـ في حياته ـ أحد الآخذين عنه، وقد تكون بخط تلميذه علم الدين البرزالي : القاسم بن محمد ابن يوسف الإشبيلي ثم الدمشقي، المتوفى عام 1339/739، (193)، وبهذا الاعتبار يترجح أن تاريخ النسخة ؛ حوالي نهاية المائة الهجرية السابعة تقريبا.

20 ـ **نسخة مشرقية من الشفا** : خ م. 2552 ؛ من تجزئة 24 موزعة بين ستة أسفار.

صفحاتها غير منتظمة الترقيم، مسطرة 11، مقياس 160/215.

---

192) ترجمته في «الدرر الكامنة» 4 / 457 ـ 461.

193) ترجمته بنفس المصدر 3 / 237 ـ 239.

وخط البرزالي منه مصورة عند الزركلي في الاعلام 6 بعد ص 8.

مكتوبة - على ورق لين - بخط مشرقي يميل للثلث، حسن ملون مشكول، عار عن تاريخ النسخ واسم الناسخ.

معارضة بعدة نسخ، بينها أصلا القبتوري وابن جبير المنوه بهما وشيكا، كما تتخللها تعليقات هامشية من تقريرات الحافظ المزي.

هذا فضلا عن بلاغات المقابلة في عدة صيغ، منها أربعة كتالي :

أ - بلغ مقابلة بالأصل المنقول من نسخة أقبغاءا ص.

ب - بلغ مقابلة على يد مالكها ، على المنشاوي على نسخ الشيخ شرف الدين محمد بن يحيى الأقصراويي.

ج - بلغ مقابلة على يد مالكها علي بن صدقة المنشاوي ، من نسخة أقبغاءا ص.

د - بلغ مقابلة بالأصل المنقول منه على يد مالكها على نسخ أقبغاءا ص.

وأخيرا ، يدون بهامش خاتمة الجزء الأخير ، سماعان لكتاب «الشفا» مع الإجازة بها ، برسم بدر الدين حسن بن محمد بن أحمد الشريف الإدريسي الأرميوني المالكي (194) ،

---

194) لا ذكر لترجمته فيما رجعت له من المصادر.

وقد انتهى السماع الأول بتاريخ 14 شعبان 941 هـ. وضاع اسم الشيخ المسمع في خروق بآخر الورقة.

أما شيخ السماع الثاني : فهو ناصر بن حسن اللقاني (195) : بتاريخ 9 ذي الحجة 942 هـ.

21 ـ **نسخة دار الكتب الظاهرية** رقم 119 حديث : في جزئين من رواية أبي جعفر (ابن الموازيني) : محمد بن علي بن الحسين «(السلمي المرداسي الدمشقي)، المتوفى عام 08/708 ـ 1309، مكتوبة بخطوط مختلفة، وبعضها لتكملة النسخة (196).

22 ـ **نسخة دار الكتب المصرية** رقم 618، وهي ـ حسب فهرس الكتبخانة الخديوية (197) ـ بخط عثمان بن خضر بن مصلح الخليلي الداري، فرغ من كتابتها نهار الخميس 6 ذي الحجة، 725 هـ. مكتوب بآخرها بخط العلامة أبي زرعة أحمد بن محمد بن عمر بن محمد بن ابراهيم الشافعي : (198) ما يفيد قراءتها في مجالس : آخرها اليوم التاسع عشر من شهر ربيع الأول، سنة 888 هـ.

---

195) اسمه محمد بن حسن، وله ترجمته وجيزة في «معجم المؤلفين» 9/203.

196) «فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية» : جزء التاريخ وملحقاته : ص 53.
وترجمة راوي المخطوطة في «الوافي بالوفيات» 4/213.

197) الطبعة الثانية 1/364.

198) هو سبط داود بن عثمان بن محمد بن عبد الهادي السبتي، حسب السخاوي في ترجمته من الضوء اللامع 2/160.

23 ـ **فرع من أصل ابن جبير :** برواية عبد العظيم المنذري ـ سابق الذكر ـ عنه : في الخزانة الناصرية بتمگروت رقم 287.

نسخة تامة في مجلد بخط مشرقي جيد خال من تاريخ النسخ واسم الناسخ.

24 ـ **فرع من أصل ابن جبير :** برواية محمد بن ابراهيم التلمساني ـ سابق الذكر ـ عنه، منه نسختان بخط مغربي :

الأولى : بخزانة خاصة في مجلد به 250 ورقة من حجم متوسط. ووقع الفراغ من كتابتها يوم الخميس 24 ربيع الآخر 997 هـ . على يد أحمد بن أبي بكر بن علي بن دنبسل (الفلاني) (199).

الثانية : تشتمل على السفر الأول : خ. ع. ك 85 26 : في حجم طويل غير مرقم الصفحات، عار عن تاريخ النسخ واسم الناسخ.

وقد كتب على الصفحة الأولى من النسختين : ألسند الى الشفا في الصيغة التالية :

---

(199) يوجد بخطه ـ أيضا ـ الرسالة «القيروانية : خ ع. ك 5. كتبها برسم امير كوكو بالسودان الغربي»، وفرغ منها يوم الاثنين 13 شعبان 995 هـ.

مع الربع الأول من صحيح مسلم : بخزانة الزاوية الحمزاوية باقليم الرشيدية، فرغ منه عشية الاربعاء 28 ربيع الثاني عام 1000 هـ.

وهناك تقديم صدرت به النسخة التي نعلق عليها، وبه مزيد من التعريف بالوراق السوداني.

رواية الإمامين العالمين : محمد بن عبد الله التميمي، وعبد الله بن محمد الحجري.

رواية الإمام العالم : أبي الحسين محمد بن أحمد بن جبير الكناني عن التميمي خاصة.

رواية الإمام القاضي : محمد بن ابراهيم التلمساني عن الكناني والحجري.

رواية الشيخ الإمام الأوحد : محمد بن اسماعيل الأبياري عنه (200).

رواية الإمام الحافظ : أبي الخير بن منصور الشماخي عنه (201).

رواية الفقيه الأجل العالم : أبي العباس أحمد بن أبي الخير الشماخي عنه (202).

رواية العبد الفقير الى الله تعالى : أحمد بن عمر بن محمد الشويري (203) عنه.

رواية العبدالفقير الى كرم الله تعالى : سليمان بن ابراهيم بن عمر العلوي (204) لطف الله به.

---

200) لا ذكر لترجمته فيما رجعت اليه من المصادر.

201) له ترجمة وجيزة في «معجم المؤلفين» 4/ 132.

202) سقط هذا الاسم من النسخة الخاصة، وثبت في نسخة خ.ع. وهو الصواب. وترجمة صاحبه لم اقف عليها الان.

203) لا ذكر لترجمته فيما رجعت له من المصادر.

204) ترجمته في «فهرس الفهارس» 2/ 327 ـ 328.

عن شيخه الإمام الحافظ : أبي الحسن علي بن أبي بكر بن شداد المقريء (205) رحمه الله.

عن الفقيه أبي العباس أحمد بن أبي الخير (206).

25 ـ **فرع من أصل ابن جبير** : خ. م 824 ز. يبتدي بسند ابن جبير عن التميمي عن المؤلف، ويشتمل على النصف الثاني في سفر بخط مشرقي نسخي عتيق مصحح مقرؤ.

وقع الفراغ من كتابته في شهر ربيع الآخر 756 هـ، على يد علي بن أحمد بن عبد الصمد.

26 ـ **فرع من أصل ابن جبير** : في دار الكتب الوطنية بتونس رقم : 1147، ويفتتح ـ بدوره ـ بذكر ابن جبير ، بخط تونسي كتبه مصطفى بن أحمد بن عبد الله الطرابلسي سنة 1191 هـ (207).

27 ـ **فرع من أصل ابن فرح** بمراجعة السراج : خ . م 657.
نسخة تامة في مجلد يستوعب ستة أجزاء : 276 ورقة، مسطرة 21، مقياس 197/282. بخط مغربي متقن واضح مصحح مشكول ملون مذهب

---

205) ترجمته في «غاية النهاية» رقم 2180.

206) يتبين من سياق هذا السند أنه مسلسل ـ في اكثر رجاله ـ باليمنيين، فيشير الى وصول رواية ابن جبير الى اليمن.

207) «برنامج المكتبة العبدلية» 2/256.

مجدول، كتبه ـ عام 1065 هـ ـ أبو السعود الفاسي : عبد القادر بن علي بن يوسف الفهري (208).

28 ـ **فرع من أصل ابن فرح** : خ.م 3332.

نسخة تامة في مجلد يستوعب ستة أجزاء، بخط أبي السعود الفاسي عام 1068 هـ : 196 ورقة، مسطرة 23، مقياس 210/287.

وقد كتب أبو السعود الفاسي نسخا عديدة من الشفا، (209) حيث صارت عمدة للنسخ المغربية المتفرعة عن أصل ابن فرج بمراجعة السراج.

29 ـ **فرع من أصل ابن فرج** : خ.م 3836.

نسخة تامة في مجلد يستوعب ستة أجزاء : 210 ورقات، مسطرة 19، مقياس 184/254، خط مغربي جيد مجوهر واضح مشكول ملون، يستوعب ـ بالاصل والهوامش ـ مقارنات وتعاليق ابن فرج والسراج.

وافق انتهاء كتابته غرة صفر 1142 هـ، على يد علي بن محمد بن الحسن هلال (210).

وبهذا الفرع مقيدات في أوله وآخره، حيث سترد نصوصها عند الملحقات 1 ـ 2 ـ 3 ـ 4.

208) ترجمته في «سلوة الانفاس» 1 / 309 ـ 314.

209) «تحفة الاكابر...» لعبد الرحمن بن ابي السعود الفاسي، مخطوطة خ.م. 643 : عند الباب الرابع.

210) لا تعرف له ـ الآن ـ ترجمة وجده الحسن هلال جاء ذكره عند أحمد القادري في رحلته الحجازية : «نسمة الاس...» خ.ع، ك 1418 ضمن مجموع.

30 ـ **فرع من أصل الجملي** : بخزانة القرويين رقم 257.

نسخة تامة في مجلد يستوعب ستة أجزاء ؛ 151 ورقة، مسطرة 30 مقياس 220/310، خط مغربي جيد واضح، كتبه ـ من أصل معارض بأصل المؤلف ـ محمد بن العربي بن عبد العزيز بن محمد العوفي ثم السلوي (211).

31 ـ **فرع من أصل الجملي** : في خزانة خاصة.

وقع الفراغ من انتساخه ـ بخط مغربي متوسط ـ بتاريخ 26 جمادى الأولى 1154 هـ ، على يد عبد العزيز بن موسى بن علي الحسني الإدريسي البزيوي، كتبه من نسخة بخط القاضي عبد الله الهسكوري، الناقل لها من نسخة بخزانة الشيخ الصغير بن المنيار (212).

ويذيل هذا الفرع بمقيدتين : إحداهما : بآخر أصل الجملي : عن خطته في معارضة نسخته على أصل المؤلف، والثانية : بأول ورقة منه عن سنده الى كتاب الشفا. وهما ـ معا ـ موضوع الملحقين : 8 ـ 9.

32 ـ **فرع من أصل الجملي** : خ.م 5079.

نسخة تامة في مجلد يستوعب ستة أجزاء، بخط مغربي لا بأس به مشكول ملون.

---

211) «فهرس مخطوطات خزانة القرويين» 1/265.

212) هو المترجم عند الأفراني في «صفوة من انتشر...» ط.ف ص 83 ـ 84، وخزانته لا تزال فيها بقايا بزاويته في أبزو بإقليم أزيلال.

وقع الفراغ من كتابته يوم الخميس 23 محرم 1278، على يد محمد بن الطيب الملوكي.

وهو - بدوره - مذيل بمقيدة عن خطة الجملي في معارضة نسخته على أصل المؤلف، حسبما أشير لها وشيكا.

33 - **نسخة مشرقية من الشفا** : مخطوطات الأوقاف ببغداد رقم 6587، (213) كتبت - بحلب - سنة 1170 هـ : من أصل صحيح بخط الحافظ علي بن الجناب اليوسفي : سودون بن عبد الله الا براهيمي، (214) وكتب سنة 830 هـ.

34 - **نسخة مغربية من الشفا** : مخطوطات وزان بالمسجد الأعظم رقم : 96.

تامة في مجلد بخط مغربي حسن ملون، مكتوبة من نسخة مجزأة على 24 جزءا، صحيحة مقابلة مقروء بها على عدة من الشيوخ المشارقة والمغاربة.

كتبها محمد بن أحمد بن محمد بن عبد القادر الفاسي (215).

(213) «الكشاف عن مخطوطات خزائن الأوقاف» ص 53.

(214) له ترجمة في «الضوء اللامع» 5/ 229.

(215) ترجمته في «عناية أولى المجد...» المطبعة الجديدة بفاس ص 58 - 59.

35 ـ وهذه ثلاث نسخ من الشفا وقفت عليها وشيكا، فألحقها بسابقاتها، انطلاقا من **مخطوطة مكتبة الحرم المكي** بمكة المكرمة رقم 416.

من رواية محمد بن ابراهيم الأنصاري عن ابن جبير.

الموجود منها النصف الأول في سفر متوسط الحجم، مكتوب بخط شرقي نسخي، وجاء عنوان الصفحة الأولى هكذا :

«كتاب الشفا، بتعريف حقوق المصطفى، صلى الله عليه وسلم، تأليف الإمام الحافظ : أبي الفضل : عياض بن موسى بن عياض اليحصبي السبتي.

رواية الشيخ الفقيه أبي الحسين محمد بن أحمد بن جبير عنه (كذا).

رواية... محمد بن ابراهيم بن عبد الرحمن الأنصاري».

ويزيد في أهمية هذا السفر تذييله بما كان على أصله من كتابات منقولة من خط الحافظين ابني سيد الناس : أبي عمرو (216)، وابنه أبي الفتح سالف الذكر.

وفيها أن أبا عمر قابل أصله على نسخة ابن جبير من الشفا بخطه...

---

216) لا ذكر لترجمته فيما رجعت له من المصادر.

كما أن أبا الفتح نقل ـ عن غيره ـ طبقة سماع جماعة للكتاب ذاته : على ابن جبير : عام 609 بمصر.

وأثر هذا يسجل أبو الفتح طبقة سماعه للشفا مع أخيه أبي بكر وجماعة : على علم الدين بن رشيق سابق الذكر. وذلك بقراءة والد الأولين أبي عمرو بن سيد الناس : عام 677 بمصر.

وقد ذيلت كل فقرة من هذه الكتابات باسم ناقلها : محمد بن علي الذي لم تتبين قراءة نسبه كاملا. وخطه مشرقي نسخي مندمج. ومنه استخرجت الملحق الذي سيرد عند رقم 10.

36 ـ **نسخة المكتبة المحمودية :** بالمدينة المنورة رقم 2034. من رواية عبد العظيم المنذري عن ابن جبير.

في سفر ـ من حجم متوسط ـ يستوعب الشفا كاملة. مكتوب بخط مشرقي نسخي. بتاريخ ضحى الأول من المحرم عام 1193. على يد محمد سعيد بن محمد صادق بن محمد بن أحمد يحيى زادة. القاضي بعسكر الصولي : سابقا.

وجاء افتتاحها كالتالي : «أخبرنا الشيخ الإمام. العالم الحافظ. زكي الدين : أبو محمد عبد العظيم بن عبد القوي بن عبد الله المنذري رحمه الله. قال :

217) لا ذكر لترجمته فيما رجعت له من المصادر.

أنا الشيخ الأجل الفاضل : أبو الحسين محمد بن أحمد بن جبير الكناني الأندلسي : بقراءتي عليه بجميعه، وقرأت عليه ـ أيضا ـ بجميعه وأنا أسمع، قال :

أنا الفقيه أبو عبد الله محمد بن أبو (كذا) محمد عبد الله بن الفقيه أبي عبد الله محمد بن عيسى التميمي : اجازة :

أنا القاضي الإمام الحافظ : أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض سماعا منه.

37 ـ **نسخة أخرى في مكتبة الحرم المكي :** خالية من الرقم : رواية ابن الصائغ عن المؤلف.

تامة، في سفر بخط شرقي نسخي عار عن التاريخ، ويرجع ـ ظنا ـ إلى القرن 13 هـ

وتبتدي هكذا : «أخبرنا الشيخ الصالح، نجم الدين : أبو المحاسن بن يوسف بن محمد بن فتوح (218) الدلاصي، المؤذن بالجامع العتيق بمصر : إجازة بهذا الكتاب وغيره... قال :

218) الصواب : أبو المحاسن يوسف بن محمد بن محمد بن أبي الفتوح... حسب اسمه الوارد عند فصل رواية ابن الصائغ رقم : 4 من الباب الثاني.

أخبرنا أبو الحسين تقي الدين : أحمد بن محمد بن حسين بن تامتيت (219)... سماعا : بهذا الكتاب سنة 675 بفسطاط مصر، قال :

أنا ابن الصائغ...

219) قارن مع التعليق رقم 85.

الملحقـــات

وعددها عشرة، فتستوعب طائفة من النصوص المدونة بجملة من أصول كتاب «الشفا»، وبهذه - إلى جانب الأسانيد - سماعات ومعارضات وتفسيرات للعلامات المنوعة.

وقد أضيف لهذه العشرة ملحق حادي عشر بالمطبوعات الأولى من «الشفا»، ثم ملحق الملحقات : في نص مطول عثر عليه أخيرا.

ومن الجدير بالذكر أن أسماء الرواة الواردين بالملحقات : ورد أكثرهم بالأبواب الثلاثة السابقة، فكانت مناسبة للتعليق بالإشارة لمصادر التعريف بهم، ولهذا فإن تعاليق الملحقات إنما تهتم بالمصادر لتراجم الأسماء الباقية.

الملحــق الأول
سند ابن فرج إلى الشفـــا
في نص قيده بأول أصلـــه

كتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى صلى الله عليه وسلم تأليف الفقيه الأجل القاضي الحافظ أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض اليحصبي رضي الله عنه.
رواية الفقيه أبي عبد الله بن غازي السبتي عنه.
رواية الفقيه المحدث أبي العباس العزفي عنه.
رواية الفقيه الثقة الضابط أبي عبد الله بن سعيد عنه
رواية كاتبه علي بن محمد بن فرج عنه.

نقله ـ بخطه ـ علي بن محمد بن علي بن فرج القيسي نفعه الله به ، من أصل الفقيه الأجل، الفاضل الكامل الراوية الاحفل ، أبي عبد الله محمد إبن سعيد بن علي الأنصاري أعزه الله، الذي كتبه بيده، وأتقنه وصححه، وقرأه على الفقيه المحدث الجليل ، أبي العباس العزفي بسبتة، حسبما قيد على ظهر كتا به.

ونص التقييد المذكور ، يقول محمد بن سعيد بن علي الانصاري الغرناطي ، قرأت هذا الكتاب ـ من أوله إلى آخره ـ على الشيخ الأجل، الفقيه المحدث الحافظ الاحفل ، أبي العباس أحمد، بن الشيخ الفقيه ،

أبي عبد الله محمد بن أحمد بن محمد اللخمي - رضي الله عنه ونفعه بالعلم - وهو يمسك علي كتاب روايته.

وحدثني به عن الفقيه الفاضل ، أبي عبد الله محمد، بن الشيخ الزاهد ، أبي علي حسن بن عطية بن غازي ، سماعا عليه لأكثره، وقراءة لسائره.

عن مؤلفه الفقيه القاضي ، أبي الفضل عياض بن موسى - رحمه الله - قراءة عليه سنة خمس وثلاثين وخمس مائة.

وحدثني به - أيضا - عن أبيه ، سماعا لبعضه ، عن القاضي مؤلفه.

وكتب محمد المذكور - بخطه - لخمس خلون من شهر رجب الفرد، سنة عشرين وستمائة، والحمد لله رب العالمين.

ما قاله الفقيه الفاضل الزاهد أبو عبد الله المذكور ، صحيح، وكتب عبيد الله الفقير إلى عفوه ، أحمد بن محمد بن أحمد - المذكور أعلاه - في التاريخ المذكور، وهو يحمد الله بما ينبغي له، ونصلي على سيدنا محمد وآله وسلم».

وسمعت كثيرا منه من لفظ الفقيه الأجل ، أبي عبد الله المذكور، وأجاز لي سائره، مع جميع رواياته، والحمد لله.

ثم سمعت جميعه عليه، وسمع ابني معي نحو نصفه، وأصل المؤلف يمسك علينا.

الملحـــق الثانـــي
توتيق ابن فرج لنسخته من الشفـــا
في نص قيده بخاتمة هذا الأصـــل

نجز جميع كتاب الشفاء بحمد الله وعونه، ونصره ومنه، وذلك لأربع خلون من شهر شعبان المكرم، عام إثنين وثلاثين وستمائة.

نقلته من أصل الفقيه الفاضل، الزاهد الكامل : أبي عبد الله محمد بن سعيد الذي خطه بيده، وصححه وأتقنه غاية الإتقان، وألفيت آخره ـ مقيدا بخطه ـ ما نصه :

بلغت ـ قراءة وتصحيحا لجميعه ـ على الشيخ الفقيه، المحدث، العدل، الحافظ : أبي العباس أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد اللخمي ثم العزفي، أعزه الله بطاعته، وهو يمسك علي كتابه الذي صححه بيده.

وحدثني به عن الفقيه الفاضل : أبي عبد الله محمد، بن الشيخ الصالح أبي علي حسن بن عطية بن غازي : سماعا عليه لأكثره، وقراءة لسائره : عن مؤلفه الفقيه القاضي أبي الفضل : قراءة عليه سنة خمس وثلاثين وخمسمائة.

وكان أصل الشيخ أبي عبد الله معارضا بأصل القاضي، مقروءا عليه مرتين : احداهما للفقيه أبي عبد الله المذكور، والثانية لخاله الفقيه أبي عبد الله محمد بن الخطيب أبي الربيع سليمان بن سبع سنة اثنتين وعشرين، ذكر ذلك شيخنا أبو العباس في آخر كتابه.

وكتب العبد الفقير إلى رحمة مولاه : محمد بن سعيد بن علي بخطه، انتهى، قال ذلك كاتبه علي بن فرج.

٥ ٥ ٥

بلغت المقابلة بأصل الفقيه الجليل الفاضل أبي عبد الله محمد بن سعيد - أعزه الله - الذي نسخه بيده، وقابله وصححه بأصل الفقيه المحدث أبي العباس العزفي، ثم قرأه عليه.

وصحح الفقيه أبو العباس أصله - بيده - بأصل شيخه الفقيه الفاضل أبي عبد الله محمد، بن الصالح أبي علي بن عطية بن غازي، المقروء على مؤلفه مرتين.

والحمد لله حق حمده، وصلى الله على سيدنا محمد وآله.

ثم بلغت - سماعا لجميعه - على الفقيه الفاضل أبي عبد الله بن سعيد، وتصحيحا ومعارضة بأصل مؤلفه القاضي أبي الفضل عياض، في أخريات شهر رمضان المعظم، ثلاث وأربعين وستمائة.

الملحق الثالث

تفسيرات ابن فرج لإشارات نسخته من الشفا

في نص قيده بأول هذا الأصل

على ضياع فقرات منه

... فكل ما في كتابي - هذا - مكتوبا (بالحمرة) أو عليه علامة (عين) : فهو ما في أصل المؤلف عياض.

وما في الأصل المكتوب (بالحمرة)، أو عليه (ز) : فهو ما في أصل أبي العباس العزفي، لعله مما كتب قبل تنقيح المؤلف الكتاب، أو تلقي عليه املاء، فتعقب - بعد ذلك - أصله المذكور، وأصلح فيه وزاد ونقص.

... ابني أبو بكر محمد - هداه الله - حين هذه المعارضة مع الفقيه المحدث الراوية : أبي عبد الله بن سعيد، وسمع الدول التي قيدت في الطرة :

(سمع من هنا) : تنبيها على أول الدولة.

وقيدت (الى هنا سمع) : تنبيها على آخر الدولة.

ثم ما انقطع بين ذلك إلى قولي - مرة أخرى - (سمع من هنا) : هو الذي فاته سماعه عليه :

والله ينفع بذلك كله، ويجعله لوجهه، برحمته.

الملحق الرابـــع
صيغة سماع للشفا على أبي عبد الله الطــراز :
في نص مقيد بأول أصل ابن فـــــرج،
وهو ومعه ابنه : المعنيان بالسمـــاع

سمع علي صاحبنا الفقيه الأجل، الكاتب الضابط الأعرف الحافظ المتفنن الأفضل : أبو الحسن علي، بن الشيخ المبارك المجاهد الصالح : أبي عبد الله محمد بن علي بن فرج القيسي، نفعه الله بالعلم، وزينه بالخشية والحلم : جميع هذا الكتاب من أوله إلى آخره.

وكان قد نقله من كتاب روايتي على شيخنا الفقيه الجليل العالم : أبي العباس أحمد، بن الفقيه القاضي أبي عبد الله محمد بن أحمد اللخمي العزفي، - رحمه الله - بقراءتي عليه، ثم قابلت كتابي - بعد - بأصل مؤلفه الفقيه القاضي الامام أبي الفضل عياض بن موسى رضي الله عنه، مصححا له، متحريا في نقل ما فيه، حتى لم أهمل شيئا مما فيه.

وحضر - الآن - في هذا السماع : الأصل المذكور، وأمسك علينا وصحح به : الفقيه الأجل أبو الحسن المذكور، ورد كتابه هذا إليه، وأقر ما ثبت في كتاب شيخنا أبي العباس - رحمه الله - بعلامته، وسمع معه نحو النصف منه ابنه المرجو : محمد، هداه الله وأقر به عينه.

وأذنت لهما في روايته عني، عن شيخنا الفقيه الفاضل ، أبي الحسن علي بن أحمد بن علي الغافقي ثم الشقوري ؛ إجازة منه لي بقرطبة - أعادها الله للإسلام - في سنة ثلاث عشرة وستمائة، عن مؤلفه - رضي الله عنه - إجازة منه له أيضا. وقد صحت لنا هذه الرواية بمعارضته بأصل مؤلفه. والحمد لله.

وعن الفقيه أبي العباس المذكور بحق قراءتي عليه.

والله ينفعني وإياهما بالعلم ويجعلنا من أهله. وممن حمله حق حمله.

وكتب العبد الفقير إلى رحمة ربه. الغني به : محمد بن سعيد بن علي الانصاري، عفا الله عنه. وذلك في السابع والعشرين من شهر رمضان المعظم، من سنة ثلاث وأربعين وستمائة، والحمد لله حق حمده.

الملحق الخامـــــس
أسانيد السراج لكتاب الشفـــــا :
في نص مطول قيده بأول أصل إبن فـــــرج :

بسم الله الرحمن الرحيم

اللهم صلي على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وأصحابه
وسلم تسليما كثيـــرا

يقول كاتب هذا ، يحيى بن أحمد بن محمد النفزي الحميري شهر بالسراج، لطف الله له، وأصلح قوله وعمله ، حدثني بكتاب الشفا، بتعريف حقوق المصطفى، صلى الله عليه وسلم، وشرف وكرم، تاليف الشيخ الفقيه الإمام، العالم المحدث الناقد، الراوية المسند، القاضي الأعدل، الخطيب البليغ الأكمل ، أبي الفضل عياض بن موسى بن عياض اليحصبي، رضي الله عنه ، من طريق الشيخ الفقيه القاضي، الراوية العدل أبي عبد الله محمد بن حسن بن عطية ابن غاز، السبتي الانصاري الجابري ، من ذرية جابر بن عبد الله صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛

الشيخ الفقيه، المحدث الراوية المكثر، المسند المعمر، قاضي الجماعة بجزيرة الأندلس، وخاتمة الجلة بها، الخطيب الأكمل ؛ أبو البركات محمد بن أبي بكر محمد بن ابراهيم السلمي، عرف ـ ببلده ـ

با بن الحاج، و بالبلفيقي في سواه ، قرآة عليه لبعضه، وإجازة لجميعه ، عن الشيخ الفقيه القاضي، الأستاذ المقري ، أبي إسحق ا براهيم بن أحمد المد يوني عرف بالغافقي، قراة لجميعه، وسماعا لجملة منه ، عن القاضي أبي عبد الله محمد بن عبد الله بن أحمد الازدي، سماعا عليه لأكثره، وإجازة لسائره، عن القاضي العدل أبي عبد الله بن غاز المذكور ، سماعا عن القاضي أبي الفضل مؤلفه سماعا، وقال لي ، بهذا السند أحمل تواليف هذا الإمام وروا ياته، قلت ، وهذا السند مسلسل بالقضاة.

وحدثني به من طريق الشيخ الفقيه، الخطيب الزاهد ، أبي جعفر أحمد بن علي بن حكم القيسي ، الشيخ الفقيه الحاج أبو عبد الله محمد بن سعيد الرعيني ، قراءة عليه لبعضه، ومناولة لجميعه، وإجازة غير ما مرة، والأصل الذي ناولني هو أصل سماع الخطيب أبي عبد الله محمد بن عمر بن رشيد، وسماع الفقيه العالم ، أبي القاسم بن عبد الله بن محمد الأنصاري عرف با بن الشاط ، من طريق ا بن حكم المذكور.

وحدثني به عنهما سماعا لنحو الكراسين على ا بن رشيد، وإجازة عن ا بن الشاط.

وحدثني به ـ أيضا ـ عن الأستاذ المحدث الخطيب ، أبي عبد الله محمد بن علي بن محمد الصديني الشهير بالغماري (220) ، مناولة

---

220) ترجمته عند ابن القاضي في «درة الحجال»، مطبعة السنة المحمدية بالقاهرة رقم : 726.

ثلاثتهم عن الشيخ الأديب، النحوي اللغوي ؛ أبي محمد عبد الله بن أبي القاسم الانصاري ؛ قراءة لجميعه لا بن رشيد، وسماعا للأخرين ؛ عن الفقيه الفاضل الثقة ؛ أبي زيد عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن الانصاري ثم الخزرجي ثم القمارشي ؛ سماعا عليه لمعظم الكتاب من أوله، وقراة لسائره ؛ عن الخطيب أبي جعفر أحمد بن حكم المذكور سماعا عليه، عن مؤلفه أبي الفضل المذكور ؛ سماعا عليه، قال ا بن رشيد ـ ومن خطه كتبت ـ هذا السند سند الزهاد الافاضل الثقاة.

قال ا بن رشيد وحدثني به الشيخ المقري المجود الفاضل ؛ أبو القاسم محمد بن عبد الرحيم بن عبد الرحمن بن الطيب بن أحمد ا بن علي بن أحمد بن رزقون (221) القيسي ؛ قراة عليه وأنا أسمع وأمسك كتابي، وكان بينه وبين الرواية التي عليها مدار طريق أبي القاسم المذكور اختلاف في زيادات يسيرة، وتقديم وتأخير، واختلاف الفاظ ربما اتفقت معانيها.

وأخبرنا بهذا الكتاب على الرواية المقروة عليه، بحق سماعه لجميعه على الفقيه الراوية المسند العدل ؛ أبي عبد الله محمد ا بن عبد الله بن أحمد الازدي ـ رحمه الله ـ عام ستة وخمسين وستمائة، قال ؛ سمعت جميعه على شيخنا الفقيه الفاضل، المحدث الحافظ ؛ أبي عبد الله

221) بتقديم الراء على الزاي، حسب ترجمته من «الذيل والتكملة» 6/ رقم 994 : أصلا وتعليقا.

محمد بن أبي علي حسن بن عطية بن غازي بن خلوف، من ولد جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنه ـ صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ في صفر عام أحد وتسعين وخمسمائة. قال قرأت جميعه على مؤلفه القاضي أبي الفضل رحمه الله، وعارضت بأصله، وكتب له عياض خطه بذلك في غرة ذي القعدة من سنة خمس وثلاثين وخمسمائة.

قال الغماري ومن خطه نقلت ؛ وحدثته به ـ أيضا ـ عن الفقيه المقري، بقية أئمة القرآن العزيز ، أبي القاسم محمد بن عبد الرحيم القيسي الشهير بابن الطيب، قلت ؛ هو المذكور، وعن الفقيه الكاتب الاعدل، الحاج المبارك ؛ أبي محمد عبد المهيمن الأنصاري الشهير بالجزيري ، (222) كلاهما عن القاضي الأعدل، الرواية المسند ؛ أبي عبد الله الازدي.

قال أبو القاسم بن الشاط ومن خطه نقلت ؛ وحدثته به ـ أيضا ـ عن الشيخ المسند الحسيب ، أبي بكر محمد بن محمد الأنصاري البلنسي المعروف بابن مشليون ، بحق الاجازة، عن القاضي الحسيب أبي بكر بن أبي جمرة بحق الاجازة، عن المؤلف بحق الاجازة أيضا.

وحدثني به ـ أيضا ـ صاحبنا الفقيه الأجل، الصالح المبارك الخير، المعظم عند الخاصة والعامة، (لأنه) على حالة مستحسنة

222) ترجمته في «برنامج الوادي أشي» رقم 29.

تامة ، أبو الربيع سليمن ا بن الشيخ الفقيه الخطيب الصالح المتبرك به ، أبي يعقوب (يوسف) الأنفاسي، رحمه الله ورضي عنه ، قرآءة عليه لجميعه ماعدا من قوله ، فصل ، «وأما الخصال المكتسبة» إلى قوله ، «فسألته عن سيرته - صلى الله عليه وسلم - في جلسائة» ، فإنه سماعا من لفظه، وهو يمسك علي أصل الخطيب أبي عبد الله بن رشيد ، في مجالس، آخرها في أوائل ذي القعدة عام ثمانية وسبعين وسبع مائة، وحدثني به عن الخطيب أبي عبد الله محمد بن يوسف اليحصبي اللوشي ، إجازة، عن ا بن رشيد المذكور ، سماعا من لفظه.

وعن القاضي الإمام أبي جعفر أحمد بن ا براهيم بن الزبير الثقفي العاصمي ، سماعا عليه، عن الشيخ الراوية العدل القاضي ، أبي عبد الله محمد بن عبد الله الازدي ، قراءة عليه لجملة وافرة من الكتاب ، من أوله، وإجازة لجميعه - غير مامرة - في الجملة.

وعن المحدث أبي الحسن علي بن محمد بن يحيى الغافقي الشاري ، سماعا عليه لبعضه، وإجازة لجميعه ،

قالا ، سمعناه على أبي عبد الله بن غاز، وعن أبي محمد ا بن عبيد الله (223) الحجري، عن المؤلف.

---

(223) نسبه إلى أحد أجداده، حيث إن اسمه هو عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عبيد الله، حسب ترجمته في «التكملة» ق 1416. ثم عند ابن رشيد في «افادة النصيح» ص 78.

قال اللوشي ، وحدثني به ـ أيضا ـ الفقيه العدل الوزير الحسيب ، ابن ربيع المالقي ، سماعا عليه لجميعه، وسمعت بعضه على الفقيه المتصوف المقري الحافظ ، أبي محمد عبد الله ابن سلمون الكناني (224)، وأجازني جميعه، وكذلك سمعت بعضه على الشيخ الصالح ولي الله تعالى المقريء الضابط ، أبي إسحق بن أبي العاصي ؛ (225) بسندهم.

قلت وقد كتب لي بالإجازة العامة الخطيب أبو عبد الله اللوشي المذكور مرتين.

قال ابن ربيع ؛ حدثنا به القاضي أبو عبد الله محمد بن عياض بن محمد بن عياض بن موسى ؛ سماعا عليه، قال ؛ حدثنا أبي قراءة عليه، قال ؛ حدثنا القاضي أبو بكر محمد بن أبي بكر بن الحداد الجذامي سماعا، عن المؤلف سماعا عليه.

ويحمله ـ أيضا ـ عن أبيه أبي عامر، وعن الأستاذ المحدث أبي عبد الله بن سعيد الطراز، وعن المحدث أبي العباس العزفي ؛ في عموم إجازاتهم إياه ؛

224) ترجمته في «الإحاطة» 3 / 400 ـ 402.

225) ترجمته بنفس المصدر 1 / 374 ـ 377، والغالب أن رواية السراج عن هذا وسابقه كانت في بداياته.

قال أبوه القاضي أبو عامر : حدثنا أبي، وقال الطراز : حدثنا أبو الحسن الشقوري، وقال أبو العباس العزفي : حدثنا أبو عبد الله بن غاز : كلهم عن المؤلف رحمه الله.

وحدثني به - أيضا - من طريق ابن حكم المذكور : شيخنا الفقيه المدرس: أبو علي حسن بن خلف الله بن بادس القيسي القسنطينى(226) سماعا عليه لأبعاض من مجالس مختلفة، ومناولة لجميعه : في رجب الفرد عام أربعة وستين وسبع مائة : عن المقري المحدث الرحال : أبي عبد الله محمد بن جابر القيسي الوادي ءاشي، عن الفقيه الكاتب الجليل، أبي القاسم خلف بن عبد العزيز القبتوري، عن أبي محمد عبد الله بن أبي القاسم الأنصاري : بسنده المذكور قبل، قال ابن جابر : وقد أجازنيه أبو محمد هذا.

قال : وكنت قرأته بتونس على قاضي الجماعة أبو (كذا) العباس أحمد بن الغماز، بحق روايته له عن الحافظ أبي الربيع بن سالم : إجازة إن لم يكن سماعا، قال : قرأت صدرا منه على أبي جعفر أحمد بن حكم وناولنيه، وحدثني أنه سمعه على مؤلفه.

قال ابن جابر : وقد كنت سمعت على الشيخ أبي محمد بن هارون من كتاب الشفا : دولا لم أضبطها، وأجازنيه بحق روايته له عن

226) ترجمته عند السراج بالجزء الأول من فهرسه.

أبي الحسن سهل بن ملك الأغرناطي : إجازة، عن أبي جعفر بن حكم، عن المؤلف.

وحدثني به - أيضا - من الطريق المذكور : الشيخ الفقيه، الطبيب المؤرخ : أبو علي عمر بن أحمد بن عمر القرشي العبدري الشهير بالحكيم : قراءة عليه لجملة وافرة منه، ومناولة لجميعه : عن صهره وابن عمته : الشيخ الفقيه الأديب : الحاج أبي علي عمر بن علي الجراوي : (227) سماعا عليه، عن القبتوري المذكور، وعن الشيخ الصالح أبي عبد الله بن صالح : إجازة مشافهة، عن الشيخ الفقيه القاضي المحدث : أبي محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن برطلة الأزدي، قال : قرأته على الفقيه الأجل : أبي الحسين بن الشيخ الفقيه الزاهد الراوية : أبي عبد الله محمد بن سعيد بن أحمد بن زرقون الأنصاري، قال : حدثني به أبي، عن مؤلفه القاضي الإمام أبي الفضل عياض.

ويحمله ابن صالح - أيضا - عن القاضي أبي عبد الله الأزدي المذكور، وعن القاضي أبي بكر بن محرز الزهري : (228) عن ابن غاز المذكور : قراءة عليه، وعن أبي الحسين بن السراج : (229) قراءة لبعضه ومناولة لسائرة، عن أبي عبد الله المذكور، عن مؤلفه.

227) لا ذكر لترجمته فيما رجعت له من المصادر.

228) ترجمته في «التكملة» ق 1041.

229) هو المترجم بنفس المصدر ق 1656.

وحدثني به ـ أيضا ـ الشيخ الفقيه الخطيب : الحاج أبو علي عمر بن محمد البطوي الشهير با بن البحر، (230) رحمه الله : قراءة عليه في نحو الثلث الأول، ثم قراءة عليه ـ أيضا ـ من أوله إلى قوله في النصف الثاني : «فصل في ذم من لم يصل على النبي عليه السلام، واثمه»، وإجازة لجميعه في الجملة : عن الشيخ الفقيه المحدث الناقد : صلاح الدين خليل، بن الأمير الكبير المجاهد : كيكلدي العلائي : سماعا عله.

عن الشيخ الرباني العلامة : أبي إسحاق ابراهيم بن عبد الرحمن الفزاري، (231) والفقيه أبي الحسن علي بن عمر بن حسان الشاغوري : قراءة على كل واحد منهما، وأبي زكرياء يحيى بن محمد بن سعد المقدسي : (232) إجازة :

قال الأولان : أنا أبو محمد الحسين بن الحسن بن ابراهيم الخليلي الداري : سماعا عليه، أنا أبو الحسن محمد بن أحمد بن جبير الكناني : سماعا، أنا أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عيسى التميمي : إجازة، أنا القاضي عياض سماعا.

---

230) ترجمته عند السراج بالجزء الأول من فهرسه.

231) ترجمته في «برنامج الوادي أشي» رقم : 52.

232) ترجمته في «الدرر الكامنة» 4 / 426 ـ 427.

وقال الثاني : أنبأنا أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الرحمان بن محارب القيسي من الأسكندرية. قال : أنا أبو جعفر أحمد بن علي بن الحكم الخطيب : سماعا عليه. قال : أنا القاضي عياض.

قال صلاح الدين العلائي : «وأخبرني به - أيضا - أبو عبد الله محمد بن عبد الحميد بن عبد الله القرشي : فيما كتب لي - بخطه - من القاهرة : أن أبا الحسن علي بن هبة الله بن الجميزي أخبره وهو يسمع، قال : أنبأنا الحافظ أبو طاهر السلفي، أنبأنا عياض رحمه الله.

قال : وقد قرأت نحو النصف الأول منه - أيضا - على أبي بكر محمد بن عبد الرحمن الصالحي، عن أبي القاسم عبد الرحمن بن مكي : إذنا. قال أنبأنا الحافظان : أبو طاهر السلفي، وأبو القاسم خلف بن بشكوال. قالا : أنبأنا عياض.

وأخبرني بجميعه - أيضا - الشيخان : أبو محمد عبد الوهاب بن الحسن بن ابراهيم القمني، (233) وأبو المحاسن يوسف بن محمد بن محمد بن أبي الفتوح القرشي الدلاصي : المصريان : قراءة وسماعا بمصر. قالا : أنا به أبو الحسين يحيى بن أحمد بن محمد بن تامتيت اللواتي : سماعا عليه. قال أنبأنا الحافظ يحيى بن محمد بن علي الأنصاري : ابن الصائغ، عن القاضي عياض : إجازة».

---

233) لا ذكر لترجمته فيما رجعت له من المصادر.

وحدثني به ـ أيضا ـ الفقيه الحافظ الأستاذ المقري، المدرس المشاور : أبو محمد عبد الله بن عمر الوانغيلي الكفيف : قراءة عليه لبعضه، واجازة لجميعه.

والفقيه القاضي المشاور : أبو محمد عبد النور بن محمد بن أحمد الحسني العمراني : قراءة عليه لبعضه، ومناولة لجميعه.

والأستاذ المقري : أبو عبد الله محمد بن محمد بن عمر اللخمي : قراءة عليه لبعضه، وسماعا لكثير منه، واجازة لجميعه :

ثلاثتهم عن الفقيه الأستاذ المقري، الراوية الشهير، العلم : أبي الحسن علي بن سليمان بن أحمد بن سليمان الأنصاري القرطبي : إجازة، عن الأستاذ الإمام : أبي الحسين بن أبي الربيع : سماعا لبعضه، وإجازة لسائره.

قال ابن سليمان : «وحدثني هو والقاضي أبو علي بن الناظر، والخطيب أبو الحجاج المربلي : ثلاثتهم عن أبي العباس العزفي، عن أبيه القاضي أبي عبد الله محمد بن أحمد، وأبي عبد الله محمد بن أبي بكر الجذامي : عن أبي الفضل مؤلفه».

ويحمله ـ أيضا ـ الأستاذ أبو الحسين، والقاضي أبو علي المذكوران ، عن القاضي أبي القاسم بن بقي وجماعة غيره ، عن أبي محمد بن عبيد الله الحجري، عن المؤلف.

وعن القاضي أبي عبد الله بن خلفون في آخرين : عن ابن زرقون، عن المؤلف.

وعن الأستاذ أبي علي الشلوبين، عن الخطيب أبي جعفر أحمد بن علي بن حكم القيسي الحصار، عن المؤلف.

وحدثني به - أيضا - قاضي الجماعة، وخطيب الحضرة : أبو القاسم محمد بن يحيى الغساني ثم البرجي : (234) قراءة لبعضه، ومناولة لجميعه غير مرة : عن المحدث الرحال أبي عبد الله ابن جابر المذكور : سماعا لبعضه، وإجازة لجميعه : بسنده المذكور.

وعن ولي الله - تعالى - الخطيب المحدث : أبي عبد الله محمد بن أحمد بن يوسف الهاشمي الطنجالي : إجازة إن لم يكن سماعا، عن الراوية أبي عمر بن حوط الله : إجازة، عن أبي جعفر بن حكم، وأبي العباس بن مضا : عن المؤلف.

وعن الطنجالي - أيضا - عن أبي الوليد اسماعيل بن يحيى المعروف بالعطار، عن ابن حكم المذكور.

قلت : وقد أخذته عن غير من ذكر، ولي فيه أسانيد كثيرة غير ما ذكر، تركتها اختصارا واكتفاء بهذه عنها.

والحمد لله رب العالمين، والصلاة على سيدنا محمد خاتم النبيئين، وعلى آله الطيبين الطاهرين، وسلم تسليما كثيرا.

---

234) ترجمته عند السراج بالجزء الاول من فهرسه.

الملحق الســـــادس

خطة السراج في مراجعة أصل ابن فرج من الشفـــا، مع تفسير الإشارات التي أضافها لهذه النسخـــة : في نص قيده بأول هذا الأصـــل

الحمد لله حق حمده. والصلاة والسلام الأكملان على سيدنا ومولانا محمد نبيه وعبده. وعلى آله وأزواجه وذريته من بعده. ورضي الله عن أصحابه الكرام. وعن كل من أتبعهم وسلك مهيعهم واستقام.

أما بعـــد :

فيقول كاتب هذا : يحيى بن أحمد النفزي لطف الله به. وأخذ بيده ووفقه إلى رشده : إن كتاب «الشفا بتعريف حقوق المصطفى» صلى الله عليه وسلم. وشرف وكرم :

تأدت إلى روايته من طريق القاضي الراوية العدل : أبي عبد الله محمد بن حسن بن عطية بن غاز السبتي الانصاري الجابري. رحمه الله تعالى.

ومن طريق الخطيب الزاهد أبي جعفر أحمد بن علي بن حكم القيسي.

وأصل كتابي هذا هو على رواية ابن غازي المذكور. ثم قابلته بأصل الخطيب المحدث أبي عبد الله محمد بن عمر بن رشيد الفهري.

وهو على رواية ابن حكم المذكور، وفيه التنبيه على بعض روايات غيره مما يخالف رواية ابن حكم.

إلا أنه ضاع من هذا الأصل من قبل «فصل : وأما الخصال المكتسبة» بنحو سطرين، إلى قوله في حديث هند بن أبي هالة في صفته صلى الله عليه وسلم : «وهذه الكلمة من غير الروايتين».

وضاع ـ أيضا ـ من قوله : «فصل : وقد عد جماعة من الأئمة ومقلدي الأمة في إعجازه وجوها كثيرة» إلى آخر الفصل.

فقابلت ما ضاع من الأصل المذكور من أصل نسخ منه وقوبل به قبل الضياع، ثم من آخر كذلك.

فكل ما ثبت في الأصل المذكور كتبته في كتابي هذا، وعلمت عليه بعلامة صورتها هكذا (ش) : تنبيها على أنه كذلك في أصل الخطيب ابن رشيد.

إلا الزيادات التي كانت عنده في الطرة مكتوبا بإثرها (صح أصل س ت) : فإن تلك الزيادات ثبتت في كتابي هذا في الأصل من غير علامة. فلكثرتها تركت العلامات التي بإثرها، ولاني ما عثرت على ما أراد بهما : أعني بالسين والتاء. (235) كما لم أعثر على ما أراد بالعلامة التي صورتها هكذا (ش).

235) بين المحدث المغربي : ادريس العراقي : ان ابن رشيد يشير برسم السين والتاء الى أصل ابي القاسم القبتوري، نقله عنه محمد الفاطمي الصقلي كاتب الطبعة الحجرية الفاسية من «الشفا» عام 1305 هـ : 1/ ص 4 من الملزمة 25.

وأما ما عليه هكذا (ط) : فالطاء : كناية عن شيخه أبي القاسم بن الطيب.

وأما ما عليه هكذا (ض) : فالضاد كناية عن عياض بن محمد حفيد المؤلف رحمه الله.

وما عليه هكذا : (لاش)، فلم يثبت في أصل ابن رشيد.

وما في كتابي هذا مما عليه هكذا (ز)، فهو مما قيده الضابط المحقق أبو عبد الله الطراز، عن شيخه المحدث أبي العباس العزفي.

وما عليه هكذا (ع) : فهو ما قيد من أصل القاضي الإمام أبي الفضل عياض، حسبما نبه عليه مقيده على ظهر كتابي هذا.

وما عليه معلم (قر) : فهو مما تعقبه الأستاذ أبو محمد القرطبي (236) على المؤلف، رحمة الله عليه، ورضوانه على جميعهم.

وما عليه هكذا (صح خ) فهو عن نسخة صحيحة معتمد عليها. والحمد لله حق حمده.

---

(236) ترجمته في «التكملة» ق 1433

الملحق السابـــع
صيغة السماع المكتوب على نسخة ابن رشيد من الشفا وهذه إحدى الأصول التي راجع عليها السراج نسخة ابن فرج حيث قيد ذلك بإثر الملحق الخامـــس

كان علي ظهر كتاب الخطيب أبي عبد الله محمد بن رشيد الفهري ـ رحمه الله تعالى ـ ما نصه ، سمع على وليي في الله تعالى الشيخ الفقيه الفاضل، التقي الزاهد الورع، المقري المحدث النحوي العارف أبو صالح محمد بن محمد بن محمد بن أبي صالح التجيبي، (237) نشر الله بالعلم ذكره، وأعلا في الدارين قدره ؛ هذا الكتاب كتاب «الشفا بتعريف حقوق المصطفى صلى الله عليه وسلم،» وسمع ـ أيضا ـ معظمه وقرأ سائره ؛ الطالب النجيب، الفاضل المجتهد ؛ أبو محمد عبد الله بن أبي القاسم الانصاري، وفقه الله وسدده، وهداه وأرشده.

وحدثتهما به سماعا مني على الشيخ الفقيه الخطيب بغرناطة ؛ أبي جعفر أحمد بن علي بن حكم القيسي رحمه الله، سماعه على مؤلفه الشيخ الفقيه القاضي أبي الفضل عياض.

وكتب قائل هذا ؛ عبد الرحمان بن محمد بن عبد الرحمان الأنصاري ثم الخزرجي، حامدا لله تعالى، ومصليا على محمد رسوله

237) ترجمته بنفس المصدر ق 1030.

المصطفى، وعلى آله أئمة الدين والهدى : في العشر الأول من ذي حجة، من عام أربعة وثلاثين وستمائة، انتهى.

وتحته بخط ابن رشيد المذكور : عبد الرحمان هذا يكنى أبا زيد، وهو من أهل قمارش، وبالنسب اليها يعرف، وكان بمالقة يعلم كتاب الله، وكان ثقة فاضلا، روي عنه الناس، وروي عنه الأستاذ الزاهد أبو بكر حميد، (238) توفي ـ بمالقة ـ غرة شوال، عام سبعة وثلاثين وستمائة.

ومن خط ابن رشيد ما نصه، أكملت قراءة هذا الكتاب من أوله إلى آخره : على الشيخ الأديب، النحوي اللغوي : أبي محمد عبد الله بن أبي القاسم الأنصاري، عشية يوم الأربعاء الخامس لشهر ربيع الثاني، عام ثلاثة وثمانين وستمائة.

وحدثني به بحق سماعه ـ في هذه النسخة ـ لمعظم الكتاب من أوله، وقراءة سائره : على الفقيه الفاضل الثقة : أبي زيد عبد الرحمان الأنصاري ثم الخزرجي ثم القمارشي المذكور أعلاه : بالإسناد المقيد بخطه.

وحضر سماع جميع الكتاب : الفقيه النبيل، الكاتب الأديب، المشارك : أبو القاسم بن الشاط، وحضر ـ أيضا ـ الفقيه النحوي الذكي

238) لا ذكر لترجمته فيما رجعت له من المصادر.

أبو محمد عبد الحق الفنتروسي : (239) سماع جميع الكتاب، إلا مجلسا واحدا من أوله فاته سماعه.

وكتب محمد بن عمر بن رشيد، حامدا لله، ومصليا على رسوله المصطفى وعلى آله، ومسلما، انتهى.

ومن خطه - أيضا - ما نصه : وكانت هذه الأوراق المجبورة قد ضاعت من الكتاب، فجبرت من فرع كان نسخ منه وقوبل به قبل الضياع، وكان بخط الكاتب الجليل : أبي القاسم القبتوري، انتهى.

قلت (والكلام هنا للسراج) : وقد نبهت في أصلي هذا على أول هذه الأوراق المجبورة وآخرها، ليعلم من يقف عليها معنى قولنا فيها : ليس في الفرع، أو ثبت في الفرع، أو سقط من الفرع، وأن المراد بذلك : الفرع المنبه عليه هنا : الذي جبرت منه، انتهى.

239) ترجمته في «درة الحجال» رقم 1121.

الملحق الثامـــــن

سند الجملي للشفا : في نص منقول عن أول أصلـــه

كتاب الشفا. بتعريف حقوق المصطفى صلى الله عليه وسلم : تصنيف الفقيه. القاضي. الإمام. الحافظ الأوحد. العلامة : أبي الفضل عياض بن موسى بن عياض. رحمه الله :

قرأت جميعه على سيدي الشيخ الفقيه الجليل. الخطيب. الصالح الكامل. القدوة. الصدر الكبير. العالم الأوحد الشهير : أبي عبد الله. بن الشيخ الفقيه الجليل. الصالح الورع الزاهد الاتقى. المبرور المقدس المرحوم : أبو (كذا) جعفر أحمد. بن الشيخ الفقيه الجليل. القاضي. الشريف. الشهير - رحمه الله ونفعه - أبي الحجاج يوسف. بن أحمد بن عمر بن محمد بن يوسف. الهاشمي. امتع الله ببقائه. ولا أعدم متعرف بركة لقائه :

وهو يمسك على أصل مؤلفه : القاضي. الإمام الكبير. أبو (كذا) الفضل عياض بن موسى بن عياض. رضي الله عنه ورحمه.

وحدثني به عن الشيخين الجليلين. المسندين : أبي الوليد اسماعيل بن يحيى بن اسماعيل بن خلف الازدي الغرناطي. وأبي عمر عبد الرحمن بن القاضي. المحدث الجليل. العلم : أبي محمد عبد الله بن

سليمان بن داود بن عبد الرحمن بن سليمان بن عمر بن خلف بن حوط الاندي : اجازة منهما له :

كلاهما عن الخطيب الزاهد : أبي جعفر أحمد بن علي بن حكم. والقاضي أبو (كذا) محمد عبد المنعم بن محمد بن عبد الرحيم بن محمد بن فرج الخزرجي :

كلاهما عن الامام أبي الفضل : مؤلفه. رحم الله جميعهم.

قال أبو عمر بن حوط الله : وأجازنيه القاضيان. المحدثان : أبو العباس أحمد بن عبد الرحمن بن محمد بن مضا. وأبو محمد عبد الله بن محمد بن فليح :

كلاهما عن مؤلفه : الإمام الكبير. العالم الشهير : أبي الفضل. رحمه الله.

الملحق التاســـع
خطة الجملي في معارضة أصله من الشفـــا : في نص منقول عن خاتمة هذا الأصـــل، ويتخلل ذلك كثير من البيـــاض

تم جميع الديوان بحمد الله وتأييده، وتوفيقه وتسديده : على يد مقيده لنفسه، عبد الله الفقير إليه : محمد بن علي بن محمد بن عبد الغافر الجملي، وفقه الله وهداه، وأراه مراشده وهداه، حامدا الله ـ تعالى ـ على آلائه، ومصليا على نبيه محمد خاتم أرساله وأكرم أنبيائه، وعلى آله وعترته الأعلام وأودائه، ومسلما عليه وعليهم تسليما.

عارضته ـ أجمع ـ على أصل مؤلف (كذا) المحدث الحافظ، القاضي، العلامة : أبي الفضل عياض بن موسى رحمه الله، المجزي على ستة أجزاء : منها ـ بخطه ـ الجزء (بياض) معظم الحواشي، وبعض المتون من غيره، وعاينتها ـ ستتها ـ جهدي، وبذلت في (بياض) اليها، وتصحيحه بها (بياض) ولم ءال في ذلك بحال (بياض) تصحيحاته وإشكال (بيـــــاض) وتخريجاته، وثبت في نظره (بياض) حتى لم يبق عندي منه (بياض).

وعلمت على ما لم يثبت في أصله هكذا : صـ صـ، وعلى اشكال أو وهم منها : ع.

قاله محمد الجملي، وفقه الله بمنه.

الحمد لله الذي هدانا لهذا. وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله.

أكملته - قراءة - على سيدي الخطيب : أبي عبد الله الطنجالي، أبقى الله بركته : في مجالسة (كذا) أولها يوم السبت الحادي وعشرين من محرم، عام سبعة عشر وسبعمائة، وتوالت كل يوم جلس إلا أيام الجمع : إلى يوم الخميس سابع صفر هذا. قاله محمد الجملي.

الملحق العاشـــــر

يحدد الأصول الثلاثة التي عارض بها ابن جبير نسخته من الشفا، ويذكر طبقتي سماع لنفس الكتاب على كل من ابن جبير وأبي الحسن بن رشيق : حسب مقيدة في ثلاثة نصوص بآخر السفر الأول من مخطوطة مكتبة الحرم المكي رقم 416 :

ومما على أصله بخط الحافظ أبي عمرو بن محمد بن محمد بن أحمد بن سيد الناس، رضي الله عنه : انتهت المقابلة بالأصل الذي بخط الشيخ الفقيه الأديب، الكاتب البارع، الزاهد الورع : أبي الحسين محمد بن أحمد بن جبير الكناني رحمه الله، الذي فرغ من كتابته في عقب شهر ذي القعدة، سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة.

وكان في آخره بخطه : قابلته ـ عقيب تاريخ الفراغ من نسخه ـ بالأم المنتسخ منها، وبأصل كان عليه خط مؤلفه ـ رضي الله عنه ـ إجازة لقارئه عليه، وكانت مقابلتي له بغرناطة حرسها الله، وبها كان انتساخه.

ثم قابلته بمدينة فاس - حرسها الله - (240) بالأم العتيقة الذي (كذا) كان أكثرها بخط المؤلف رضي الله عنه، وهي مبيضته التي حررها وأظهرها، وقرئت - عدة مرات - عليه، وكانت هذه المقابلة - الأخيرة - في ربيع الآخر، سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة، والحمد لله رب العالمين، وصلواته على محمد وعلى آله الطاهرين، وسلامه عليهم أجمعين.

نقله محمد بن علي

٥

وعليه - أيضا - بخط شيخنا الحافظ أبي الفتح بن سيد الناس : سمع جميع كتاب «الشفا بتعريف حقوق المصطفى»، تأليف القاضي الإمام : أبي الفضل عياض بن موسى بن عياض اليحصبي : على الشيخ الامام الأوحد، الأعلم الأجل، الأفضل الأكبر، ذي الفضائل : أبي الحسين محمد، بن الشيخ أبي جعفر أحمد، بن حسين بن محمد بن حبير الكناني، مد الله في مدته : بحق إجازته من الشيخ الإمام الحسيب، ذي السن العالية : أبي عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن عيسى التميمي، بحق سماعه إياه على مؤلفه المذكور :

(240) كان القاضي عياض قد اجتاز بمدينة فاس مرتحله من سبتة قاصدا مراكش، فزار بالمدينة الاولى «القاضي عيسى» ابن الملجوم بداره، حيث استجازه ابن المزور : ابو القاسم (عبد الرحيم) ابن الملجوم، وهو الذي وقت هذه الزيارة والاستجازة بتاريخ عشية يوم الاثنين 8 رجب 543 هـ، حسب «ازهار الرياض» 1 : 23 - 24.

الشيوخ الفقهاء، الأيمة الفضلاء ، أبو علي حسن بن عبد الله بن الحسين عرف بالطويل.

وبهاء الدين أبو محمد عبد العزيز، وعز الدين أبو البركات عبد الحميد، وعماد الدين أبو الفضل عبد الوهاب، وعلم الدين أبو الحسن محمد ، أولاد الشيخ الإمام العالم، جمال الدين ، أبي علي الحسين بن عتيق بن رشيق المالكي.

وأبو زكرياء يحيى، بن الشيخ الامام ، أبي الحسن علي بن عبد الله القرشي العطار.

ونظام الدين أبو عبد الله محمد، وأخوه أبو محمد عبد الله ، ابنا القاضي أمين الدين حسين بن حسن الخليلي.

وجماعة كثيرة.

وصح بقراءة مثبت أسمائهم ، عبد الحا بن صالح بن علي بن زيدان المسكري ، في مجالس آخرها سلخ شهر رمضان المعظم، من سنة تسع وستمائة بمصر.

والى ذلك يسجل ابن القاضي وهو يترجم ابا الفضل ، ان هذا اخذ عنه بفاس جماعة. «جذوة الاقتباس» رقم 567.

ومن هذه الاشارة وسابقتها ، يمكن ان يستنتج ان القاضي عياضا ترك بفاس ـ عند بعض الرواة عنه ـ اصله من «الشفا»، ثم استمر كتابه بهذه المدينة بعد وفاته حتى عارض به ابن جبير...

وأجاز لهم جميع ما يدخل في روايته، وما نسب وينسب إليه.

نقله - من خط ابن زيدان مختصرا - محمد بن محمد بن محمد بن أحمد بن سيد الناس : أبو الفتح اليعمري، وفقه الله تعالى.

ومن خطه نقل محمد

٥

وعليه - أيضا - بخط الحافظ أبي عمرو بن سيد الناس : سمع جميع هذا الكتاب على الشيخ الفقيه، الإمام العالم الصالح : علم الدين أبي الحسن محمد، بن الشيخ العالم أبي علي الحسين، بن عتيق بن رشيق المالكي، رضي الله عنه : بحق سماعه فيه من ابن جبير، : بقراءة محمد ابن محمد بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن سيد الناس اليعمري، وهذا خطه :

ولداه المحمدان : أبو بكر وأبو الفتح.

والفقيه سعد الدين : أبو الحسن علي بن جابر بن علي التميمي.

والفقيه الأجل : أبو القاسم أحمد بن محمد بن هشام الأنصاري.

وشهاب الدين : أبو العباس أحمد بن عبد الرحيم بن أبي عبد الله القرشي.

وحسام الدين : لاجين ابن عبد الله الخزنداري.

وشهاب الدين أحمد بن محمد الهذياني.

وآخرون مذكورون في الأصل المكتوب بخط ابن جبير.

وأجاز الشيخ للمذكورين جميع ما تجوز له روايته.

وكان الفراغ من قراءته في يوم السادس والعشرين من رجب، سنة سبع وسبعين وستمائة بمصر حرسها الله.

نقله كما هو : محمد بن علي

ملحـــق ختـــامـــــي
عن الطبعات الأولى للشفـــا

يتبين من العروض السابقة أنه صار لكتاب «الشفا» ـ مع مر الزمن ـ نسختان : مغربية ومشرقية، اعتبارا بفروق يسيرة بين الروايات التي انتشرت هنا أو هناك.

وعلى هذا التفاوت جرى نشر الكتاب في طبعاته الأولى : ففي المغرب صار الاعتماد على رواية ابن الغازي عن المؤلف.

وفي المشرق : استند الناشرون إلى أصح النسخ المتداولة هناك دون تحديد لروايتها.

1 ـ وأول نشرات «الشفا» كانت بالطباعة الحجرية، فظهرت ـ للمرة الأولى ـ بالإستانة عام 1264 هـ. (241).

2 ـ ثم كانت الطبعة الأولى بمصر : عام 1276 هـ. بتصحيح العالم المصري الشيخ حسن العدوي الحمزاوي (242)، حيث اعتمد فيها على

---

241) «تاريخ الادب العربي» لبروكلمان : الترجمة العربية 269/6. فيذكر أن كتاب «الشفا» طبع حجر وطبعا عاديا : في استانبول 1264، 1290، 1293، 1312، 1313. وفي بومباي : 1276 والهند : 1287...

242) ترجمته عند الزركلي في «الاعلام» 2/214.

نسخة مصححة على الأصل، وكانت ـ حسب تعبيره ـ يرجع اليها علماء العصر.

وأضاف المصحح المنوه به للنص تعاليق بالهوامش، سماها «المدد الفياض. بنور الشفا للقاضي عياض» فبين فيها الضبط الصحيح، واختلاف النسخ، مع الشروح اللغوية للكلمات الغامضة، فضلا عن مقدمة تمهيدية، وأخيرا : كلمة ختامية كتبها الشيخ عبد الهادي نجا الإبياري (243).

وقد استوعبت المقدمة والخطبة الافتتاحية : ص 2 ـ 16، بينما جاء النص والتعاليق في سفرين من قطع بين المتوسط والكبير :

الأول : 1 ـ 317 ص.

والثاني : 1 ـ 346 ص.

3 ـ وعن المطبعة الحجرية أيضا : ظهر بالإستانة ـ عام 1290 هـ ـ طبعة متقنة من «الشفا»، بمبادرة ناشرها يوسف بن محمد أبو السعود، فاعتنى بتصحيح كلماتها، وضبط ألفاظها، وكتابة الفروق ـ بين الروايات ـ على الهوامش، وصدرت عن مطبعة خليل أفندي بالإستانة : في مجلد يضم سفرين من حجم صغير :

الأول : 312 ص عدا فهرس الأبواب بأوله.

والثاني : 295 ص عدا الكلمات الختامية بآخره.

---

243) ترجمته بنفس المصدر 4/322 ـ 23.

4 ـ وفي الغرب الإسلامي صدرت أول طبعة من «الشفا» عن المطبعة الحجرية الفاسية عام 1305 هـ. فجاءت في ملجد يستوعب سفرين من قطع متوسط.

الأول : 196 ص : أصلا وتذ ييلا.

والثاني : 208 ص : أصلا وكلمة ختامية.

كتبها ـ بخطه ـ محمد الفاطمي بن الحسين الصقلي الفاسي، (244) وتولى تصحيحها الشيخ التهامي جنون (245).

وقد اعتمد الناشرون لها : رواية ا بن الغازي عن طريق نسخة كل من ا بن فرج والسراج. ولذلك تاخذ هذه الطبعة بعين الاعتبار تجزئة المؤلف السداسية للكتاب، كما تتناثر بهوامشها إشارات الفروق، نظير واقع الأصول المغربية من الشفا. وقد ذ يل السفر الأول بنص للسراج في تفسير إشارات الفروق.

244) له ترجمة وجيزة عند ادريس الفضيلي في «الدرر البهية» ط.ف : 226/2.

245) ترجمته بنفس المصدر 370/2 ـ 71، وعند الفاسي في «معجم الشيوخ» 167/1 ـ 169.

ملحـــق الملحقـــــات

وهو نص جديد يستوعب مجموعة كبرى من الأسانيد لكتاب الشفا بين مغربية ومشرقية ومختلطة. فيرونها ابو زيد بن أبي السعود الفاسي في طالعة كتابه «مفتاح الشفا» (246) حسب السياق التالي :

ولنذكر هنا بعض أسانيدنا إلى القاضي عياض - رضي الله عنه - تبركا به. وبالوسائط الذين بيننا وبينه : بالسماع أو اللقي أو الإجازة أو بالمجموع. وإن لم يكن الا اللقي فهو مما يرجى بركته. فإنه إن لم تحصل الرواية فلا بد منه في المذكورين. إلا ما كان بمجرد الإجازة. فصح أن ينفرد كل منها عن كل. وأن يجتمع اثنان فقط أو ثلاثة. وليس المراد الاستقصا. بل الاكتفاء بما تيسر. لأن ذلك ليس من مقصود الكتاب.

ه ه ه

ولنبدأ باسانيد المغاربة : واحدا عن واحد فنقول : أخبرنا الشيخ الإمام. والدنا : أبو السعود عبد القادر بن علي بن يوسف الفاسي. جدد الله عليه مضاعفات رحمته. وأفاض علينا من عوارفه وبركته. عن عم والده

246) مخطوط خ.م 12655. وقد وقفت على هذا النص في نسخة وحيدة بعد رقن الدراسة. فتاثرت إلحاقه ريثما تتيسر معارضته والتعليق عليه في فرصة لاحقة بإعانة الله سبحانه.

الإمام المحدث، العالم العارف ، أبي العز عبد الرحمن بن محمد، رحمه الله.

وعن الإمام المفتي الخطيب ، أبي العباس أحمد بن محمد المقري التلمساني، والامام النظار ، أبي محمد عبد الواحد بن أحمد (بن) عبد الواحد بن عاشر الأندلسي الأنصاري، والإمام القاضي المسن ، أبي القاسم بن أبي النعيم الغساني، وغيرهم.

قال الثلاثة ، أخبرنا الإمام المفتي الخطيب المحقق النظار ، أبو عبد ألله محمد بن قاسم القصار القيسي الغرناطي.

وقال الأول والرابع ، أخبرنا الإمام الأستاذ العلامة ، أبو العباس أحمد بن علي المنجور المكناسي.

وزاد الأول عن شيخه أخيه، الإمام المحدث الصوفي ، أبي المحاسن يوسف بن محمد.

وزاد الثاني عن شيخه عمه، الإمام المفتي ، أبي عثمان سعيد.

وزاد الثاني والرابع - أيضا - عن الإمام المحدث الفقيه المسند أبي العباس أحمد بن أحمد المدعو باب السوداني.

وأخذ القصار والمنجور وأبو المحاسن الفاسي وأبو عثمان المقري ، عن الإمام المسند، الرحلة الراوية المحدث، المتفنن ، أبي عبد الله محمد بن أبي الفضل خروف التونسي الأنصاري.

وأخذ السوداني عن والده المسند ، الحاج أبي العباس، عن عبد العزيز اللمطي الفاسي نزيل المدينة المنورة، عن عمه : أبي عمرو عثمان بن عبد الواحد، وأبي العباس الزقاق.

وزاد القصار والمنجور وأبو المحاسن ، عن الإمام المسند الرحال ، أبي عبد الله اليسيتني، وأبي شامة بن ابراهيم المشنزائي.

وزاد المنجور ، عن أبي محمد عبد الرحمن سقين العاصمي ثم القصري، خطيب فاس الأندلس.

وزاد القصار ، عن الإمام أبي العباس التسولي، والإمام أبي النعيم رضوان بن عبد الله، وأبي القاسم بن عبد الجبار الفجيجي، وأبي عبد الله بن قنزع التلمساني.

وزاد أبو عثمان المقري ، عن الإمام أبي عبد الله التنسي الصغير التلمساني.

وأخذ أبو شامة عن أبي العباس الحباك، وأبي العباس بن جيدة.

وأخذ أبو النعيم رضوان ، عن سقين، والحباك، وأبي الحسن بن هارون، وأبي القاسم بن ابراهيم، وأبي عبد الله العبسي، والعدي، وابن مجبر.

وأخذ اللمطي واليسيتني والتسولي والحباك وابن هارون وابن ابراهيم والعبسي والعدي وابن مجبر ، كلهم عن ابن غازي.

وأخذ التنسي عن والده أبي عبد الله محمد التنسي الكبير.

وأخذ الزقاق عن والده أبي الحسن، عن أبي عبد الله المواق.

وأخذ ابن عبد الجبار عن والده محمد، عن والده عبد الجبار.

وأخذ ابن قنزع عن أبي العباس الوجدي.

وأخذ التسولي - أيضا - عن أبي العباس الدقون، عن المواق.

وأخذ ابن جيدة والوجدي وعبد الجبار : كلهم عن الشيخ أبي عبد الله محمد بن يوسف السنوسي.

وأخذ المواق عن المنتورى.

وأخذ سقين - أيضا - عن الشيخ أبي العباس أحمد بن أحمد زروق البرنسي الفاسي.

وقد انتهت الطرق إلى الشيخ ابن غازي والشيخ زروق والشيخ السنوسي والشيخ المنتوري.

فأما الاولان : فعن الفقيه أبي عبد الله السراج، عن والده أبي القاسم.

وأخذ هو والرابع : عن والده أبي زكرياء يحيى بن أحمد الحميري السراج.

وأخذ الثاني والثالث : عن أبي زيد عبد الرحمن الثعالبي.

وزاد الثالث وعبد الجبار المتقدم : عن أبي الحسن القلصادي.

وزاد عبد الجبار : عن ابن مرزوق الكفيف.

وزاد السنوسي : عن أبي علي أبركان.

وأخذ القلصادي والثعالبي وابركان والكفيف : كلهم عن الإمام أبي عبد الله محمد بن أحمد بن مرزوق الحفيد.

وأخذ هو والمنتوري عن ابن عرفة.

وزاد الحفيد : عن ابن قنفد. عن الإمام الخطيب الصوفي : أبي عبد الله محمد بن ابراهيم بن عباد الرندي.

وزاد - أيضا - عن الإمام القاضي أبي زيد عبد الرحمن بن خلدون.

وأخذ ابن عرفة وابن عباد وابن خلدون : عن أبي عبد الله الابلى.

وانفرد ابن عرفة وابن خلدون بالأخذ عن ابن جابر الوادي ءاشي.

وأخذ الابلي عن أبي موسى بن الإمام. عن الإمام الولي الشهير : أبي العباس أحمد بن البنا المراكشي.

وأخذ السراج - أيضا - عن الرعيني. عن ابن البنا.

وأما المنتوري فعن جماعة : منهم ابن لب. عن ابن جابر. عن أبي الحسن الفيجاطي. وهو عن إبن أبي الأحوص.

ومنهم ابن زكرياء : عن ابن ليون. عن ابن شعيب. عن ابن أبي الاحوص.

ومنهم ابن بقي : عن ابي البركات ابن الحاج البلفيقي. عن أبي اسحق الغافقي. عن أبي محمد النفزي. عن أبي القاسم بن الطيلسان.

وأخذ ابن بقي ـ أيضا ـ عن أبي عبد الله بن الخطيب السلماني، عن أبي القاسم بن رضوان، وأبي البركات ابن الحاج، وابن الجياب، وأبي عبد الله المقري، وابن شاطر، والحكيم، وابن مرزوق الخطيب، وأبي الحسن الفيجاطي، وأبي جعفر الطنجالي، وأبي القاسم الشريف الغرناطي، وابن منظور، وابن عبد. (بياض).

وأخذ ابن رضوان أيضا : عن أبي محمد التجيبي المقري، عن ابن أبي الاحوص.

(وأخذ ابن الخطيب ـ أيضا ـ عن أبي محمد بن أيوب، عن ابن أبي الأحوص، وعن أبي عبد الله المقري : عن الأبلى، وقد تقدم، وعن أبي عبد الله بن شاطر، عن ابن البنا، **وقد تقدم، وعن ابن ليون، وأبي** الحسن الفيجاطي، وقد تقدما.

وأخذ الشريف الغرناطي : عن ابن رشيد، وأبي إسحاق الغافقي.

وأخذ أبو عمر بن منصور : عن أبي عبد الله بن الفخار.

وأخذ أبو البركات بن الحاج وابن الجياب : عن أبي جعفر بن الزبير.

وأخذ أبو زكرياء السراج : عن ابن رضوان أيضا، عن ابن صفوان، عن ابن البنا المتقدم.

ومنهم ابن جزي : عن ابن رشيد، عن ابن صالح الكناني، عن أبي عبد الله بن الأبار أيضا.

وأخذ ابن بقي أيضا : عن أبي جعفر بن خاتمة.

وأخذ ابن البنا وتلميذه ابن صفوان : عن قاضي مراكش : أبي عبد الله بن عبد الملك الأوسي.

٥

وقد انتهت طرقهم إلى ابن أبي الاحوص وابن الطيلسان وابن الأبار وابن خاتمة وابن عبد الملك.

أما ابن أبي الأحوص : فعن أبي الربيع بن سالم، وابن واجب، وابن الجميل، وابن خير : عن ابن الفخار.

وأخذ ابن أبي الاحوص أيضا : عن الكلاعي، عن ابن الفخار.

وأما ابن الطيلسان : فعن أبي جعفر بن الأصلع، عن ابن الفخار وابن خير وابن قرقول، وزاد ابن الطيلسان أيضا : عن أبي اسحق الزولي، عن ابن خير.

وأخذ ابن رشيد - أيضا - عن المنذري، عن الحصار، عن ابن الفخار.

وأما ابن الابار : فعن أبي الخطاب بن الجميل، عن ابن خير.

وأخذ ابن الأبار أيضا : عن أبي القاسم بن بقي، عن أبي عبد الله الفخار، وأخذ - أيضا - عن ابن واجب.

وأما ابن خاتمة : فعن ابن ليون، عن ابن رشيد، وقد تقدم، وعن ابن جابر الوادي ءاشي، عن ابن الغماز، وعن أبي عبد الله بن عزيون، عن أبي الحسين بن السراج، عن أبي خير.

وأما ابن عبد الملك : فعن أبي جعفر وأبي عبد الله الطنجاليين، عن أبي العباس بن ماتع. عن ابن خير.

ح : وعن ابن دقيق العيد. عن المنذري، عن الحصار. عن ابن الفخار.

وعن أبي القاسم العزفي. عن أبي عبد الله الازدي وابن واجب أيضا : عن ابن غاز السبتي.

وعن أبي اسحاق التلمساني عن ابن عميرة

ح : وعن أبي بكر بن برفوب وأبي مروان بن الكماد معا : عن ابن السراج. عن ابن خير.

وعن أبي جعفر بن الزبير.

وعن ابن الغماز وأبي الحجاج بن أحمد بن حكم.

وعن الرعيني. وأبي علي بن أبي الاحوص. وأبي محمد القطان.

وأخذ أبو جعفر الطنجالي أيضا : عن أبي الخطاب بن واجب.

وأخذ إبن الزبير عن أبي الخطاب السكوني. عن أبيه.

وأخذ الرعيني وابن الغماز : عن ابن قطرال، وزاد الرعيني عن أبي اسحاق الزولي. وعن ابن الطيلسان : عن أبي جعفر الكماد، وزاد ابن الغماز : عن أبي الربيع بن سالم. عن أبي الخطاب بن واجب.

وأخذ ابن الغماز أيضا : عن الكلاعي، عن ابن الفخار. وعن أبي

الحسين بن السراج، عن ابن خير، وعن أبي العباس العزفي، وعبد العظيم المنذري.

وأخذ ابن واجب : عن ابن غاز السبتي.

وأخذ الكماد : عن ابن غاز السبتي.

وابن حكم : عن والده أبي الحسن، وأبي علي أحمد بن محمد واجب : عن أبي الخطاب، عن جد أبيه أبي حفص.

وأخذ ابن قطر آل : عن أبي عبد الله بن الفخار، وأبي العباس بن مضى.

وأخذ أبو القاسم العزفي عن ابن قطرال.

وأخذ ابن الفخار وابن قرقول والسلفي وابن خير وأبو علي بن واجب وابن مضى وابن حكم والسكوني وأحمد بن واجب وابن غاز السبتي والغافقي : كلهم عن القاضي عياض رضي الله عنه.

هذه بعض أسانيد المغاربة.

ح : وحدثنا - أيضا - عم والدنا الإمام المحصل المحدث المتفنن : أبو حامد محمد العربي، وابن أخيه الإمام الخطيب القاضي : أبو القاسم محمد بن أحمد : إجازة عامة منهما، عن الشيخ القصار : إجازة، بالسند المتقدم.

وأما أسانيد المشارقة : فأخبرنا خطيب الحرم : الشيخ زين العابدين الطبري : إجازة، عن والده الشيخ عبد القادر، عن شيخ الإسلام الرملي، عن زكرياء.

ح : وعن الشيخ عبد الواحد الخطيب الشهير بالمعمر، عن الشيخ محمد بن ابراهيم الغمري.

وهو وزكرياء : عن ابن حجر العسقلاني.

وأخذ الشيخ عبد القادر أيضا : عن جده شرف الدين يحيى، عن جده المحب الأخير، عن أبي اليمن محمد بن أحمد الطبري، عن والده الشهاب أحمد بن الرضي، عن والده ابراهيم بن محمد، عن علي بن عبد الله بن سلامة، عن السلفي.

وأخذ الرضي أيضا : عن أبي بكر بن مسدي، عن أبي الخطاب بن واجب.

(وأخذ المحب الأخير أيضا : عن محمد المحب الأوسط، عن القطب اليافعي، عن الرضي.

ح : وأخبرنا الشيخ جمال الدين محمد البابلي المصري، عن الشيخ سالم السنهوري، وعن محمد بن عبد الله الأنصاري المعروف بحجازي الواعظ، وعن الشهاب أحمد بن خليل السبكي : ثلاثتهم، عن الغيطي، عن زكرياء.

ح : وأخبرنا الشيخ نور الدين الشبراملسي، عن الشيخ ابراهيم اللقاني، والنور الزيادي، وسليمان البابلي، وسالم الشبشري، وحفيد الجمال بن زكرياء، والشهاب السبكي :

فالأول عن شمس الدين محمد البكري، وشيخ الإسلام محمود بن الشهاب الرملي، ونور الدين علي المقدسي، والشيخ محمد النحرير، والشهاب أحمد بن قاسم العبادي، والشيخ محمد الخفاجي، والشيخ أبو بكر الشنواني، والشيخ محمد العسيلي، والشيخ محمد الجبرتي، والشيخ محمد البهنسي الشافعي نزيل الحرم المكي، والشيخ عبد الرحمن الشريشي، والشيخ أحمد الخطيب الشربيني، والشيخ نور الدين الزيادي، والشيخ أحمد السنهوري، والشيخ طه المالكي، والشيخ أحمد المغماوي، والشيخ جامع الدميري : أخي أبي الفتح الدميري، والشيخ عبد الدائم البغري، والشيخ محمد البنوفري، والشيخ ابراهيم العلقمي، والشيخ عبد الله الشنشوري، والشيخ صالح البلقيني، والشيخ أحمد البلقيني، والشيخ أحمد الزرقاني، والشيخ محمد الترجماني، فلينظروا في فهرسته.

والثاني : عن الرملي عن زكرياء.

والثالث والرابع : عن الخطيب الشربيني، عن زكرياء.

والخامس : عن جده، عن زكرياء.

والسادس : عن الغيطي وقد تقدم، وعن الرملي وتقدم، وعن الشهاب المقدسي، عن الشهاب القسطلاني، عن الشمس بن القبابي، عن عمر بن

علي الانصاري، عن أبي الفتوح يوسف بن محمد الدلاصي، عن ابن الصائغ، عن عياض.

وروى ابن حجر الشفاء عن ناصر الدين : محمد بن عبد الرحيم بن الحسن بن الفرات، عن الدلاصي.

ح : ونا الشيخ الإمام : ابراهيم بن محمد بن عيسى الماموني الأنصاري المصري الشافعي، عن والده الشيخ محمد بن عيسى، وأبي بكر الشنواني، والشيخ محمد الخفاجي، والشيخ أحمد السنهوري المالكي، والشيخ محمد المشيراوي، والشيخ أحمد الخطيب الشربيني، والشيخ عثمان الغزي، والشيخ طه المالكي، والشيخ نور الدين الزيادي.

وكلهم عن العيطي، عن زكرياء.

وزاد السنهوري : عن ابن حجر المكي، عن زكرياء.

ونا الماموني أيضا : عن الرملي، عن زكرياء.

ح : ونا الشيخ الإمام : ملا ابراهيم بن حسن الشهرزوري الكردي نزيل طيبة المنورة، عن شيخه وعماده الشيخ صفي الدين القشاشي، والشيخ عبد الباقي الميداني الدمشقي، والشيخ عبد الملك العباسي الهندي، والشيخ ملامحمد شريف العراقي، والشيخ سلطان بن أحمد المزاحي المصري، والشيخ نور الدين العقيبي الأنصاري اليمني التعزي، والشيخ اسحاق بن جعمان الرميدي اليماني، والشيخ نور الدين العقيبي الأنصاري اليمني التعزي،والشيخ إسحاق بن جعمان الرميدي اليماني،

(247) والشيخ نور الدين علي بن الديبع الشيباني الزبيدي، والشيخ عبد بن مطير الحكمي اليمني، والشيخ علي بن مطير الحكمي، والشيخ عبد الكريم بن مطير الحكمي اليمني،والشيخ علي بن مطيرالحكمي،والشيخ عبد الباقي الحنبلي، والشيخ علي بن محمد بن صلاح الحسني الشافعي، الحنبلي، والشيخ ملا محمد بن أبي سفيان الحارثي النجاري، والشيخ عبد القادر بن مصطفى الصفوري، والشيخ عبد الكريم بن أبي بكر : هدية الله الحسيني الكوراني الشاهوي :

فالأول : عن أبي المواهب الشناوي، عن سيدي محمد البكري، عن والده سيدي أبي الحسن، عن زكرياء، وعن أبيه الشيخ علي الشناوي، عن الشعراني، والشمس العلقمي، وابن حجر المكي : كلهم عن السيوطي، وعن العبادي، عن الأرميوني، عن السيوطي، وزاد الشعراني : عن زكرياء.

والثاني : عن الشمس الميداني، عن يحيى بن عبد القادر النعيمي، عن والده عبد القادر بن محمد، عن قطب الدين الخيضري، عن الشهاب بن حجر العسقلاني.

والثالث : عن قطب الدين محمد بن علاء الدين النهروالي المكي، عن محدث اليمن وجيه الدين : الشيخ عبد الرحمن الديبع الشيباني، عن زين الدين الشرجي، عن ابن الجزري، وأخذ الشرجي أيضا : عن نفيس الدين العكي العدناني، عن الجمال الانشكامي، عن العز الفاروثي، عن الحاتمي، عن السلفي، عن عياض.

247) هكذا تكرر ذكر هذا الإسم والذي قبله.

والرابع : عن القطب النهروالي وقد تقدم، وعن ابن حجر المكي وقد تقدم.

والخامس : عن النور الزيادي وقد تقدم، وعن عميرة البرلسي، والشمس الرملي ابن الشهاب الرملي، والشهاب البلقيني، وابن حجر المكي : كلهم عن زكرياء.

والسادس : عن الجمال محمد بن علي بن مطير الحكمي اليمني، عن أبيه علي وهو العاشر، عن عمه عبد الله بن ابراهيم، عن أبيه ابراهيم، عن أبيه أبي القاسم، عن أبيه عمر، عن أبيه أحمد، عن أبيه ابرهيم، عن أبيه محمد بن عيسى، عن خاله ابرهيم بن عمرو التباعي، عن أبيه مظفر الدين عمرو بن علي، عن أبي عبد الله بن أبي الصيف، عن أبي طاهر السلفي، عن القاضي عياض.

والسابع : عن والده : الجمال محمد بن ابرهيم، عن عمه الجمال محمد بن أبي القاسم بن اسحاق، عن والده، عن شرف الدين بن جعمان، عن البرهان بن جعمان، عن الجمال محمد الطيب بن أحمد الناشري، والده، عن الجمال الديمي، عن الوجيه الناشري، عن الجمال العامري، عن ابن عجيل، عن أبي بكر بن مسدي، عن أبي الخطاب بن واجب، عن السلفي.

والثامن : عن محمد بن الصديق الخاص اليماني، عن أبيه الصديق بن محمد الخاص، عن الشريف الطاهر بن الحسين الأهدل الحسيني، عن

الوجيه الديبع. وأخذ الثامن أيضا : عن ابن الصديق المتقدم. عن عبد الرحمن بن فهد. عن عمه جار الله. عن العلاء الكازروني. عن الجلال الدواني.

والتاسع : عن والده الصفي أحمد بن علي. عن والده علي وقد تقدم.

وأما الشيخ عبد القادر بن مصطفى : فعن ملا عبد الكريم بن سليمان الكوراني. عن خواجة محمد النجاري وملا حسين الخلخالي معا : عن ملامير زجان.

وأخذ الملا محمد بن أبي سفيان الحارثي النجاري : عن ملا صالح اليدخشي. عن ملا يوسف القرباعي. عن ملا ميرزجان. عن جمال الدين محمود الشيرازي.

وأخذ السيد عبد الكريم بن هدية الله : عن ملا حمد المنجلي الكردي. عن ملا حبيب الله ميرزجان الشيرازي. عن الجمال محمود الشيرازي.

وأخذ ملا شريف بن ملا يوسف وهو الرابع : عن والده ملا يوسف بن القاضي محمود الصديقي. عن ميرزا إبراهيم الحسيني الهمداني. عن أبي الفتح الشرقه، عن فخر الدين محمد بن الحسين الحسني السماكي. عن الجمال محمود الشيرازي.

وأخذ ـ أيضا ـ الصفي القشاشي : عن ملا شيخ الارموي الكردي. عن ميرزجان.

وأخذ أيضا ، عن الشناوي، عن العبادي، عن الوجيه العلوي والقطب الايجي، عن أبي الفضل الكازروني، وهو ومحمود الشيرازي، عن الجلال الدواني الصديقي ●

والحادي عشر وهو عبد الباقي الحنبلي : عن المعمر عبد الرحمن الهبرتي الحنبلي، عن جمال الدين يوسف الأنصاري الخزرجي، عن والده زكرياء.

ح : والشيخ أحمد المنوفي : عن نور الدين الزيادي، عن العلقمي.

ح : ونا الشيخ ياسين بن محمد، عن عمر غرس الدين، والنجم الغزي، ومنصور المجلاوي، وعبد الرحمن الخياري، وأبي العباس المقري :

فالأول عن سالم السنهوري والنور الزيادي : عن الغيطي، عن حجازي، عن الارميوني، عن السيوطي، وعن الشيخ أحمد المنشيصي، عن ابن الترجمان، عن البدر المشهدي، عن محمد بن مقبل، عن عبد الوهاب بن السلار، عن الحجار، عن ابن النجار، عن الحاتمي.

والثاني عن والده البدر، عن جده رضي الدين، عن زكرياء.

والثالث عن سالم السنهوري وقد تقدم، والرابع عن الرملي وقد تقدم.

وعن أحمد الكلبي : عن الشعراني، والنور الزيادي.

ح : ونا الشيخ ابراهيم بن عبد الرحمن الخياري : عن النجم الغزي والغرس الخليلي وتقدما، وعن عبد العزيز الزمزمي.

ح : ونا الشيخ عيسى الثعالبي : عن نور الدين الاجهوري، وشهاب الدين الخفاجي، والشهاب القليوبي، وسلطان بن أحمد المزاجي، وزين العابدين بن زكرياء الانصاري، وشمس الدين محمد بن عبد الفتاح الطهطائي، وتاج الدين بن أحمد المالكي، وعبد العزيز الزمزمي المكي، وأبي القاسم بن الجمال القيرواني، وتاج العارفين البكري التونسي، وغيرهم.

فالأول : عن أبي حفص عمر بن الجاي، وبدر الدين الكرخي، ونور الدين علي بن أحمد القرافي : ثلاثتهم عن السيوطي، وأخذ ابن الجاي والقرافي أيضا : عن الشهاب الحجرزي، عن ابن أبي المجد، عن الحجار، وأخذ الأجهوري أيضا : عن الرملي عن زكرياء.

والثاني : عن العلقمي، عن السيوطي والرملي، عن زكرياء، ووالده محمد الخفاجي، عن ابن حجر المكي، وعن خاله أبي بكر الشنواني، عن الغيطي.

والثالث عن الشمس الرملي.

والرابع تقدم.

والخامس : عن زكرياء.

والسادس عن سالم السنهوري، وعبد الرؤوف المنوي، ومحمد الشبراوي، ويوسف الزرقاني، وعن والده، عن البنوفري، عن ابن المنباوي، عن الشيخ زروق، وأخذ السادس أيضا : عن محمد الكلبي، عن الشيخ محمد بن يوسف الشامي صاحب السيرة، والأرميوني، والنور القرافي، والشعراني : كلهم عن السيوطي.

والسابع : عن خالد بن أحمد الجعفري، عن الرملي، عن زكرياء.

والثامن : عن والده محمد بن عبد العزيز، عن زكرياء، وأخذ والده أيضا : عن ابن حجر المكي.

ح : ونا الشيخ يوسف بن حجازي القاسمي الخبيرتي الخليلي، عن سالم السنهوري، وأبي بكر الشنواني، وعلى الحلبي، والشهاب القليوبي، وعبد الرحمن بن الخطيب الشربيني، وعامر الشبراوي، وأبي الحسن الخطيب، ومحمد الخطيب، ومنصور الحنبلي، ومحمد الشوبري، ومحمد الشامي ، ومحمد الجابري •

ح : ونا الشيخ عمر بن عبد القادر المشرقي الحنفي، عن صالح التمرتاشي والغرس الخليلي، وأخذ صالح عن والده محمد بن عبد الله، عن الشمس المشرقي العزي، عن الشعراني، وأخذ والده أيضا : عن أمين الدين

بن عبد العالي الحنفي، عن عبد الله بن الشحنة الحنفي، وزكرياء، وأبي عمرو عثمان الديمي : عن ابن حجر (بياض).

ح : ونا الشيخ خير الدين الرملي، عن أحمد الجنبلاطي، عن أبيه أمين الدين، عن جده عبد العالي، عن ابن حجر.

ح : ونا الشيخ عبد القادر بن القصير العزي، عن الشيخ المقري، والشيخ ابراهيم اللقاني، والشيخ علي الحلبي : عن الرملي.



وأما الطرق المشتركة بين المشارقة والمغاربة فكثيرة : منهم سند القصار : عن أبي الطيب الغزي، والبدر القرافي، والزين البكري، وغيرهم. وسند المنجور : عن الغيطي، وله أسانيد شتى.

وسند خروف : عن الكمال الطويل، عن الزين العراقي، والمجد التركماني، والنور الهيتمي : الأول عن العز بن جماعة والصلاح العلائي، والثاني والثالث عن الميدومي، وأخذ الأول عنه أيضا :

وأخذ خروف أيضا : عن الشمس اللقاني، عن البرهان اللقاني، عن ابن حجر.

وبرواية سقين عن زكرياء والقلقشندي : عن ابن حجر، وأخذ زكرياء أيضا : عن أبي اسحاق بن صدقة، والصلاح الحكري، وأبي عبد الله الرشيد : كلهم عن الزين العراقي، وأخذ القلقشندي أيضا : عن أبي محمد الهيثمي، عن العز بن جماعة.

وأخذ سقين أيضا : عن عبد الحق السنباطي، عن الزين القابوني، وعن الفاقوسي، وأبي الطيب بن حجر، وأم محمد العراقية، وأم الكرام أنس، وزوجة ابن حجر، والبدر النسابة، والتقي الشمني، والشرف الحريري، والابيتجى.

فالستة الاول : عن الزين العراقي.

والسابع : عن عمه وابن الكويك معا، **عن الميدومي**.

والثامن : عن الأبشيطي والتقي الزبيري معا : **عن الميدومي**.

والتاسع والعاشر : عن الانباسي، عن الميدومي.

وأخذت أم الكرام وزوجة ابن حجر معا : عن أبي الكويك، عن الميدومي.

وأخذ الفاقوسي أيضا : عن أبي هريرة بن الذهبي، عن أبيه الحافظ الذهبي.

وأخذ سقين أيضا : عن الشمشين : السخاوي والتتاءي. فالأول : عن ابن حجر، والشرف المراغي، والثاني : عن الحجازي، والشمني، والنسابة والابيتجي، والفاقوسي، وتقدموا، وعن الجوجري، والفخر السيوطي، والزكي المناوي : الأول والثالث : عن الزين العراقي، والثاني : عن التنوخي، عن الميدومي، عن ابن منصور، عن ابن خميس، عن عياض.

وبسند اليسيتني : عن الشيخ أبي عبد الله محمد بن محمد الحطاب المكي، عن والده، عن الشمس المراغي، عن الشرف المراغي، عن ابراهيم

بن فرحون اليعمري. عن ابن جابر الوادي أشي. عن الذهبي. وعمن تقدم.

وبسند ابن غازي : عن أبي عبد الله الصغير. عن أبي عبد الله السلوي، عن أبي شامل الشمني، عن الماغوسي، (كذا)، عن الأسواني،عن ابن تامتيت، عن أبي الحسن بن الصائغ، عن القاضي عياض. وأخذ ابن غازي أيضا : عن أبي عبد الله محمد. بن يحيى البادسي، عن أبي زيد الثعالبي. عن أبي محمد الغرياني. عن أبي عبد الله البطرني عن محمد بن أحمد بن حيان الاوسي. عن أبي بكر محمد بن فتوح. عن أبي طاهر السلفي.

وسند السنوسي : عن ابرهيم التازي. عن أبي الفتح المراغي. عن ابن الفرات. عن التنوخي. عن الحجار. عن أبي الفضل الهمداني. عن السلفي.

الربـاط **محمد المنونـي**

توضيحـــــــات

إن المصـــادر والمراجـــع الـــواردة بالهوامـــش تذكـــر وضعيتهـــا عند الإحالة الأولى : مخطوطة ومكانها ورقمها، أو منشورة مع ذكر المطبعة أو الناشر وبلد ذلك، مراعيا في الإحالات الاقتصار - غالبا - على المستندات الأصيلة.

وترد بالهوامش والدراسة إشارات للمخطوطات هكذا :

خ.ع.د : قسم حرف الدال من مخطوطات الخزانة العامة بالرباط.

خ.ع.ك : قسم حرف الكاف من نفس الخزانة.

خ.ع.ق : قسم حرف القاف من نفس الخزانة.

خ.ع.ج : قسم حرف الجيم من نفس الخزانة.

خ.م : الخزانة الملكيـــة.

وبالنسبة للمطبوعات الحجرية الفاسية : ط.ف.

أبو الحسن المسفر
فيلسوف سبتي من عهد الموحدين

عبد الله كنون

هو الشيخ الحكيم أبو الحسن بن خليل المسفر السبتي، عرف بلقب المسفر الذي يعنى أنه من أهل صناعة تسفير الكتب، وربما كان من آل المسفر الأشراف الحسينيين المعروفين بفاس لأننا لم نعرف هذا الشيخ إلا من طريق ذكره عرضا في كتاب محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار لابن عربي الحاتمي فلا نستطيع أن نجزم فيه بشيء.

قال ابن عربي : أنشدنا أبو عبد الله بن عبد الجليل قال أنشدني أبو الحسن علي المسفر بسبتة لنفسه :

يا أيها المبتلى بذمـــــي قد علم الله ما تقـــــول
فالقول إن خف في لسانـــي أخافني وزنــه الثقيـــل
وحافظ كاتــب شهيـــد يكتب عني الذي أقـــول
من حاسب النفس كل حيــن لم يتهاون بما يقـــول

ثم قال بإثر ذلك : «كان هذا الشيخ المسفر جليل القدر حكيما عارفا غامضا في الناس مخمول الذكر، رأيته بسبتة. له تصانيف منها منهاج العابدين يعزى لأبي حامد الغزالي وليس له وإنما هو من مصنفات هذا الشيخ وكذلك كتاب النفخ والتسوية الذي يعزى إلى أبي حامد أيضا وتسميه الناس المضنون الصغير.

ولهذا الشيخ أيضا القصيدة المشهورة وهي هذه :

قل لإخوان رأوني ميتـــا   فبكوني ورثوني حزنـــا
أتظنون بأنـي ميتكـــم   لست ذاك الميت والله أنـا

إلى آخر القصيدة التي سنتكلم عنها فيما بعد.

هذا جملة ما ورد عن صاحبنا في كتاب المحاضرة وهو أمر مهم يدعو إلى إطالة التفكير في هذه الشخصية الغامضة التي كاد الإهمال يطويها من سجل التاريخ لولا تلك الإشارة العابرة من الشيخ محيي الدين رحمه الله. وعلى كل حال فالراوية ثقة لا يتطرق إليه الشك ألا ترى إلى روايته للأبيات الأربعة عن ابن عبد الجليل أي بالواسطة على الرغم من رؤيته للشيخ بسبتة؟ وهو مع ذلك من أرباب هذا الشأن وذوي الرسوخ فيه. فإذا قال عن منهاج العابدين إنه يعزى لأبي حامد وليس له وإنما هو من مصنفات هذا الشيخ. بهذه العبارات المفيدة لتأكيد مضمونها فإنه يعرف ما يقول ويعنيه. وكذلك يقال في كتاب النفخ والتسوية والقصيدة النونية التي نسبت أيضا إلى الغزالي، وليس هذا فقط فإنا نجد

في هذه الفذلكة من كلام الشيخ الأكبر جوابا عن تساؤل طالما ردده الباحثون في آثار الإمام الغزالي وحلا لمشكل يتعلق بفلسفة هذا المفكر العظيم.

ذلك أن كتاب منهاج العابدين لم يذكره ابن السبكي في جملة مؤلفات الغزالي أثناء ترجمته له في طبقات الشافعية. وقد لاحظ ذلك السيد مرتضى الزبيدي في شرح الأحياء وأشار إلى مقالة ابن عربي هذه. وقد يعنى ذلك أن نسبة الكتاب إلى الغزالي لم تكن معروفة في كل الأوساط بحيث خفيت على ابن السبكي فلم يذكره ولو بهذه الصفة وذلك مما يرجح أنه ليس من مؤلفاته.

وذكر أبو سالم العياشي في رحلته كلام ابن عربي هذا ثم عقب عليه بما يلي :

«قلت قد اشتهر واستفاض نسبة منهاج العابدين للغزالي، وقد كنت قبل رؤية هذا الكلام أتعجب من كونه ليس جاريا على مذهبه، ولا هو مطابق لنفسه، وكنت أبحث كثيرا عن المشائخ الذين ينقل عنهم فيه حيث يقول : قال شيخنا أبو عمرو، وليس ذلك دأبه في مصنفاته وأنا مع ذلك لا أشك أن الكتاب له لاشتهار ذلك. وللاشارة فيه إلى إحياء علوم الدين ولنقلد فيه عن إمام الحرمين سماعا. فلما رأيت كلام الشيخ محيي الدين المتقدم تيقنت أنه ليس له. لعدالة الشيخ محيي الدين وسعة علمه واطلاعه لاسيما وقد ذكر أنه يعزى لأبي حامد فما نفاه عنه مع علمه

بالعزو المذكور إلا لعلم يقين حصل له بأنه لغيره مع شواهد القرائن المتقدمة، فإن كلام أبي حامد لا يكاد يخفى على من مارسه فإنه لسان وقته بلاغة وتحريرا.

وذو الذوق السليم يميز بين الكلامين، ويشهد لذلك أيضا أن من عرف بالإمام أبي حامد من الأقدمين لم يذكروا هذا الكتاب في تآليفه والله أعلم.

وهذا البحث المنهجي من أبي سالم العياشي ينفي كل ما بقي من احتمال الصحة نسبة الكتاب المذكور إلى الإمام الغزالي وهو عند التحليل يرجع إلى العناصر التالية :

1 ـ أسلوبه غير أسلوب الغزالي فهو ليس جاريا على مذهبه ولا مطابقا لنفسه. وقد توارد الدكتور زكي مبارك مع العلامة أبي سالم على هذه العلة فقال في كتاب الأخلاق عند الغزالي : «ومن مؤلفاته الهامة في الأخلاق كتاب منهاج العابدين وهو آخر مصنفاته ولعل هذا هو السر فيما احتواه هذا الكتاب من مظاهر الضعف والاضطراب، وقد رأيت كيف اعتلت صحته بسبب العزلة. ونقل الزبيدي عن المسامرة لابن عربي أنه ليس له وإنما هو لأبي الحسن علي بن خليل السبتي وسترى بعد قليل ما زور باسم الغزالي من التآليف».

2 ـ الاشياخ الذين ينقل عنهم ليسوا من أشياخ الغزالي المعروفين. وقد كنت قبل وقوفي على كلام أبي سالم سلكت نفس الطريق في

معرفة مدى توافق هذا الكتاب وكتاب الأحياء الذي وقعت الاشارة إليه فيه على أنه للمؤلف فوصلت للنتيجة نفسها وهي أن هؤلاء المشائخ لا ذكر لهم عند الغزالي.

3 ـ عدالة الشيخ محيي الدين الذي نسب الكتاب لصاحبه الحقيقي مع معرفته لعزوه للغزالي وقد زدنا على ذلك فيما سبق أنه من أرباب هذا الشأن فلا يخفى عليه ما هو من كلام الغزالي وما هو من كلام غيره.

4 ـ عدم ذكر هذا الكتاب في مؤلفات الغزالي عند من عرف به من الأقدمين وقد أشار الزبيدي إلى هذا الوجه فيما ألمعنا إليه سابقا.

وبالرغم من القيمة العلمية لهذا البحث فإن المحقق أبا العباس الهلالي لم يقتنع به فكتب عليه في (نور البصر) بعد نقله له ما نصه: «قلت ورأيت مكتوبا على نسخة منهاج العابدين منقولا من خط الإمام القصار أنه للغزالي وأنه آخر ما ألفه. وأنه أنفع كتبه فيما أظن. وما ذكره ابن العربي إن صح فلعله كتاب آخر لابن المسفر وافق كتاب الغزالي في الإسم. وأما منهاج العابدين المشهور ففيه التصريح بأن مؤلفه هو مؤلف الأحياء. ففي رجوع الشيخ أبي سالم عن اعتقاده الأول إلى ما عند الحاتمي نظر والله أعلم.

والعجب من الهلالي إذ يقول: «وما ذكره ابن العربي (إن صح) فلعله كتاب آخر لابن المسفر وافق كتاب الغزالي في الإسم» وهو يرى أن الكلام كله مبني على نفي هذا المنهاج المنسوب للغزالي عنه وإثباته

لمن هو له حقيقة. ثم هو يتشكك في رواية ابن عربي مع ما علم من عدالته وتثبته وكونه معاصرا لصاحبنا أبي الحسن المسفر، ويتمسك بما وجد منقولا من خط الإمام القصار في صحة نسبة الكتاب إلى الغزالي، ولا يخلو أن يكون ذلك مجاراة للاعتقاد الشائع الذي لم يخف على أبي سالم. وأما ما جاء في الكتاب من التصريح بأن صاحبه هو مؤلف كتاب الأحياء فقد عرفه الجميع وهو ما حفزهم على البحث في ذلك حتى تحققوا بعدم صحته وتطرقوا منه إلى ذكر ما نسب إلى الغزالي وغيره من الكتب التي ليست له ولا تتمثل فيها روحه. فلا شك عندي أن الهلالي لم يتأمل كلام العياشي ولذلك خان تحقيقه.

هذا ما يتعلق بكتاب منهاج العابدين وأما كتاب النفخ والتسوية المعروف بالمضنون الصغير فإنه أيضا لم يذكره ابن السبكي في تعداد مؤلفات الغزالي وذكر المضنون به على غير أهله أعني المضنون الكبير عرضا أثناء الدفاع عن أبي حامد ورد ما انتقد عليه وهذا نصه في ذلك : «وذكر ابن الصلاح أن كتاب المضنون المنسوب إليه معاذ الله أن يكون له وبين سبب كونه مختلقا موضوعا عليه. والأمر كما قال. وقد اشتمل المضنون على التصريح بقدم العالم ونفي علم القديم بالجزئيات ونفي الصفات وكل واحدة من هذه يكفر الغزالي قائلها هو وأهل السنة أجمعون فكيف يتصور أنه يقولها ؟»

فإذا كان ابن عربي إنما نفى عن الغزالي المضنون الصغير وإذا كان كلامه يقضي بأن المضنون الكبير هو للغزالي فهذا ابن السبكي لا

يتعرض للمضنون الصغير بنفي ولا إثبات وينفي المضنون الكبير قطعا عن الغزالي.

وربما يقول القارىء أن كلامه ليس نصا في أحد المضنونين فبماذا حملتموه على الكبير؟ قلنا إن وصف الكبير والصغير إنما هو اصطلاح حادث وإلا فالكبير اسمه المضنون به على غير أهله والصغير اسمه النفخ والتسوية. وأظن أن الناس اطلقوا عليه اسم المضنون الصغير من أجل تشابهه موضوعا في الجملة مع المضنون به على أهله ثم لصغر حجمه عنه. على أن السيد مرتضى الزبيدي قد فصل الكلام عنهما تفصيلا مما يفيد أن انتقاد ابن الصلاح موجه يقينا للمضنون الكبير. فقد قال في التنبيه على ما عزي لأبي حامد من كتب ليست له: «ومنها كتاب النفخ والتسوية فإنه كذلك موضوع عليه. ومنها المضنون على غير أهله قال ابن السبكي ذكر ابن الصلاح أنه منسوب إليه وقال معاذ الله أن يكون له» إلى آخر ما سبق نقله عن ابن السبكي.

وقال على إثره: (وهو عندي. وفي المسامرة - يعنى محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار لابن عربي - أنه من تأليف علي بن خليل السبتي وكذلك صرح صاحب تحفة الارشاد بأنه موضوع عليه وقد صنف أبو بكر محمد بن عبد الله المالقي كتابا في رده وتوفي سنة (750).

وقد عاد الزبيدي فخلط في هذا الكلام بين المضنونين إذ من المعلوم أن الذي ذكره ابن عربي هو الصغير. وعلى كل فقد أفاد هذا الكلام أن

كليهما موضوع على الغزالي وليس من تأليفه، وأن أحدهما وهو الكبير فيما يظهر لقي حملة عنيفة من لدن ابن الصلاح إلى أبي بكر المالقي الذي ألف كتابا خاصا في رده وقفت على تسميته عند النباهي في المرقبة العليا بكتاب السجوم الواكفة والظلال الوارفة، في الرد على ما تضمنه المضنون به من اعتقادات الفلاسفة.

ولنا في سبب عزو كتاب النفخ والتسوية إلى الغزالي وتسميته المضنون الصغير رأي لا يبعد أن يكون صوابا وهو أن هذا الكتاب وضع بشكل أسئلة وأجوبة نسبت في طالعها إلى الغزالي ولذلك يسمى أيضا كتاب الأجوبة الغزالية في المسائل الأخروية كما ثبت على ظهر النسخة المطبوعة منه فلعل صاحبنا الشيخ المسفر وضعه بهذا الشكل لترويجه ولضمان إقبال الناس عليه وهكذا جاء في أوله :

«سئل الشيخ الإمام الأجل الزاهد السيد حجة الإسلام زين الدين مقتدى الأمة قدوة الفريقين أبو حامد محمد بن محمد الغزالي قدس الله روحه ونور ضريحه عن معنى قوله تعالى : فإذا سويته ونفخت فيه من روحي، ما التسوية وما النفخ وما الروح فقال...» إلى آخره. فهذا الأسلوب الذي حرر به الكتاب مما يفيد أنه من إملاء الغزالي وإن كان هو في الواقع من تأليف المسفر، جعل الناس ينسبونه للأول دون الثاني وتلاقيه مع المضنون به على غير أهله في بعض المسائل، وخاصة في الركن الرابع الذي يشتمل على أحوال ما بعد الموت مع كبر حجم هذا وتعرضه

لمسائل لم يتعرض لها كتاب النفخ والتسوية. كل ذلك مما أعطاه اسم المضنون الصغير.

على أن المهم في هذا كله هو حل المشكل الذي تعرض له ابن الصلاح وهو اقتضاء نسبة المضنون إلى الغزالي أنه يقول بقدم العالم وعدم علم القديم سبحانه وتعالى بالجزئيات ونفي الصفات القديمة عنه وهو مذهب الفلاسفة الذي عرف الغزالي رحمه الله بالتفاني في دحضه وإقامة الأدلة على بطلانه كما يعلم من كتابه تهافت الفلاسفة وغيره. فجاء كلام ابن عربي في كتابه محاضرة الأبرار مزيحا لهذه العلة مزيلا لهذه الشبهة حيث بين أن الكتاب المذكور ليس له. وإنما هو لصاحبنا المسفر كما جاء كلامه المشار إليه جوابا عن سؤال المشبهين في نسبة كتاب منهاج العابدين للغزالي بعد أن درسوه ورأوه مخالفا لطريقته ولا يشبه نفسه.

فإن قيل إن الذي نفاه ابن عربي عن أبي حامد هو المضنون الصغير. والطعن المذكور إنما يتوجه إلى المضنون الكبير. قلنا هذه مسألة أخرى تثير إشكالا جديدا وهو أن كلا من المضنونين اللذين بيدنا لا يوجد فيهما التصريح بشيء مما ذكره ابن الصلاح. عدا ما يوهمه كلامه في المضنون الصغير في فصل الروح من القول الأول أعني قدم العالم. وكذلك بعض فقرات من المضنون الكبير فلعل العبارات التي كانت صريحة في هذا المعنى جردت منه.

وثم في المضنون الصغير في الفصل المذكور عبارة تزري بالأشعرية والمعتزلة وهذا بالنسبة إلى نفي الكتاب عن الغزالي مهم جدا. لأن من المعروف أن أبا حامد كان أشعري العقيدة فهو لا يتوكأ على أصحابه بهذه الصورة.

وننظر أخيرا في قصيدة صاحبنا النونية التي قال عنها ابن عربي أنها قصيدة مشهورة فنجد أنها نسبت أيضا إلى الغزالي وقيل إنها وجدت بعد موته تحت وسادته فأما نسبتها إليه فتستفاد من شرح الأحياء للزبيدي حيث أنه قال في التنبيه الذي تقدمت الإشارة إليه على الكتب التي عزيت للغزالي ما نصه (ومنها كتاب تحسين الظنون) وله فيه :

لا تظنوا الموت موتا إنـــه	لحياة وهي غايات المنـــى
احسنوا الظن برب راحـــم	تشكروا السعي وتأتوا أمنـــا
ما أرى نفسي إلا أنتـــم	واعتقادي أنكم أنتم أنـــا

وهذه الأبيات هي من ضمن القصيدة التي نحن بصددها. فهذا ما يدل على نحلها للغزالي. وأما أنها وجدت بعد موته تحت وسادته فإنا رأينا ذلك مكتوبا على نسخة خطية منها. وقد علمت أن الشيخ الأكبر جزم بنسبتها لصاحبنا من غير أن يقول انها تنسب للغزالي كما قال في الكتابين السابقين من تأليفه فلم يبق شك في أنها للشيخ المسفر.

وهذه القصيدة هي من الشعر الفلسفي الرفيع. وحقها أن تقرن بعينية الشيخ الرئيس ابن سينا فإن كلامنهما تناول مطلبا مهما من

مطالب الفلسفة وصاغه صياغة شعرية جميلة يمتزج الخيال فيها بالحقيقة وحلق في سماء العقل يرود آفاق المعرفة من غير أن يفقد طبيعته السحرية الأخاذة أو يضيع لحنه الشجي الخالد.

وإذا كانت عينية ابن سينا تتناول موضوع النفس، فإن نونية صاحبنا تتناول موضوع الموت وما بعد الطبيعة، فتعتبر الموت تحررا من قيد السجن وانطلاقا نحو حياة أفضل من هذه الحياة الدنيا هي ما كانت النفس تتمناه وترغب في التعرف إليه لتبلغ كمالها وتنعم أبدا في عالم قدسي يكشف لها فيه الحجاب عن الحقائق العليا وتعود سيرتها الأولى من الفطرة التي فطر الله عليها الناس. ويتلمح من القصيدة القول بوحدة الوجود وهو من مذاهب الفلسفة التي أخذ بها كثير من المتصوفة كالشيخ الأكبر وغيره. وفي النص الذي أثبته الزبيدي من كلام ابن عربي عن صاحبنا بعد قوله رأيته بسبتة زيادة جملة لا توجد بنسخة المحاضرة المطبوعة وهي (وتباحثت معه) فلا شك أن مباحثا تهما كانت في هذه المطالب وما شابهها. وكان ابن عربي حينئذ في عنفوان الشباب في سن الثلاثين فما إليها لأنه ولد سنة 560 ورحل إلى المشرق رحلته التي لم يرجع منها سنة 598 وفي أثناء ذلك كان يقيم بإشبيلية، ويتردد على المغرب للدراسة والسياحة إذ ثبت أنه درس بسبتة وفاس على بعض علمائهما.

أما صاحبنا فالغالب أنه كان في نهاية عمره ويدل على ذلك أن ابن عربي روى الأبيات اللامية الأربعة من نظمه عن طريق بعض

شيوخه فهو وإن لقيه يعد في رتبة مشيخة شيوخه، وبذلك نظن أنه لم يتجاوز القرن السادس فهو من رجاله.

والآن نقدم نص القصيدة كاملا على ما حققناه من مقابلة النسخة المطبوعة بالمخطوطة التي عندنا وهي تزيد على المطبوعة خمسة أبيات مع اختلاف في الترتيب وفي بعض الألفاظ وإن كان لفظ المطبوعة في بعض الأبيات يكون أوفق للمعنى أو أنسب للوزن، والأبيات الزائدة في مخطوطتنا هي : الثاني والسادس، والتاسع، والثامن والعشرون، والواحد والثلاثون بترتيبها الذي اتبعناه لا ترجيحا له ولكن لأن ترتيب المطبوعة هو تحت نظر كل واحد فنكون بهذا قد وضعنا النسختين معا بين يدي من يهتم بدراسة القصيدة أو آثار الشيخ المسفر جملة :

1 ـ قل لإخوان رأوني ميتا ... فبكوني ورثوني حزنا
2 ـ أعلى الغائب مني حزنكم ... أم على الحاضر معكم هاهنا
3 ـ أتظنون بأني ميتكم ... ليس ذاك الميت والله أنا
4 ـ أنا في الصور وهذا جسدي ... كان لبسي وقميصي زمنا
5 ـ أنا كنز وحجابي طلسم ... من تراب قد تهيا للفنا
6 ـ أنا در قد حواني صدف ... طرت عنه فتخلى رهنا
7 ـ أنا عصفور وهذا قفصي ... كان سجني فألفت السجنا
8 ـ أشكر الله الذي خلصني ... وبنى لي في المعالي ركنا

9 ـ كنت قبل اليوم ميتا بينكم | فحييت وخلعت الكفنـــا
10 ـ فأنا اليوم أناجي مــلأ | وأرى الله جهارا علنــــا
11 ـ عاكف في اللوح أقرآ وأرى | كل ما كان ويأتي ودنــا
12 ـ وطعامي وشرابي واحــد | هو رمز فافهموه حسنــا
13 ـ ليس خمرا سائغا أو عسلا | لا ولا ماء ولكن لبنــا
14 ـ هو مشروب رسول الله إذ | كان يسري فطره مع فطرنــا
15 ـ فافهموا السر ففيه نبــأ | أي معنى تحت لفظ كمنــا
16 ـ فاهدموا بيتىورضوا قفصي | وذروا الطلسم بعدي وثنــا
17 ـ وقميصي مزقوه رممــا | ودعوا الكل دفينا بيننــا
18 ـ قد ترحلت وخلفتكــم | لست أرضى داركم لي وطنــا
19 ـ حي ذي الدار نؤوم مفرق | فإذا مات أطار الوسنــا
20 ـ لا تظنوا الموت موتا إنه | لحياة هي غايات المنــى
21 ـ لا ترعكم هجمة الموت فما | هي إلا نقلة من هاهنــا
22 ـ فاخلعوا الأجسادعن أنفسكم | تبصروا الحق عيانا بينــا
23 ـ وخذوا في الزادجهدا لاتنوا | ليس بالعاقل منا من ونــى
24 ـ حسنوا الظن برب راحــم | تشكروا السعي وتأتوا أمنــا
25 ـ ما أرى نفسي إلا أنتــم | واعتقادي أنكم أنتم أنــا
26 ـ عنصر الأنفس منا واحــد | وكذا الجسم جميعا عمنــا
27 ـ فمتى ما كان خير فلنــا | ومتى ما كان شر فبنــا
28 ـ فارحموني ترحموا أنفسكم | واعلموا أنكم في إثرنــا

29 ـ أسأل الله لنفسي رحمة رحم الله صديقا أمنا
30 ـ وعليكم من سلامي صيب وسلام الله بدأ وثنى
31 ـ أبد الدهر إلى يوم يرى بعضنا بعضا لرحب وهنا

طنجة **عبد الله كنون**

سبتة...!

علي الصقلي

انزعــي عنــك الخمـــارا　　واخلعــي ذاك العـــذارا
واهتفــي ، لا ! لســت إلا　　لبنــي الشـــم دارا
لا ! ولا طابــت رحابــي　　لســوى أهلــي قـــرارا
أنــا بنــت المغـــرب الأقـــ　　ـــصى، وبـي نــال الفخـارا
وعلــى أكتــاف أســدى　　حمــل العبــء ... وســارا
وبأيديهـــم توفـــى　　كم صليــب قــد أغــارا
هكـذا لــم يهتــف المجـد　　بمثــل إسمــي شعـــارا
ولـــه طــأطــأ رأســـا　　لم يطأطئـــه اختيــارا..!

= – =

كم علـى بابـي مـن جيـ　　ـش عظيـم قــد تـــوارى
جاءنـــي تأخـــذه العـــ　　ـــزة بالنفـــس اغتـــرارا

لا يـرى ما بيننـا، مـن دونـه، إلا جـدارا
فـإذا بـي كالشجـا فـي حلقـه، أقريـه نـارا
وإذا خلـف جـداري همـم تحمـي الذمـارا
ماتهيبـت، علـى مشـ ـهدهـا، يومـا حصـارا

= – =

بـي سـل مـن زارنـي أ ي قـلاع هـو زارا
فـي حماهـا وقـف التـا ريـخ حيـا مستثـارا
لم يزل ينشق من عهـ ـد البهاليـل الغبـارا
ويـرى الليـل ببـرق الـ ـسيـف قـد حـال نهـارا
ويـرى البحـر علـى د رتـه العصمـاء غـارا
إذ علـى أقدامهـا هـا ج، كـذي، وجـد، وثـارا
قاذفـا أمواجـه فـي أوجـه الأعـداء ثـارا

= – =

آه كم كنـت مـلاذا ما احتـوى إلا الكبـارا
تحـت جنحـي كـم خبايـا كشفـوا عنهـا الستـارا
فكتمـت السـر حتـى خلتنـي للسـر غـارا
وكـذا بـي مجمـع البحـ ـريـن كـم جمـع أنـارا
ضـم مـن جـاء يمينـا للـذي جـاء يسـارا
وانجلـى الصبـح لمـن ضـ ـل مـن القـوم المسـارا

= – =

دارنا سبتـــة أنسيـــــــــ ـــنـــا بذكـــراك الديـــارا
نتغنـــى اسمـــك لحنـــا ما علـى الأفـــواه دارا
كـل شبـر منك قـد أطـ ـلـع للكـون منــــارا
كـم «عيــاض» «وصقلــ ـي» (●) تعالى أن يجـــارى
بشـذا ذكـرك أســرى وبـــه الأطـــواد بــارى
وكفـــى أن سنـــاه أمـــن الفكـــر العثـــارا

= - =

فـإذا الأيـــام مــن نحــ ـس أذاقتــك الصفـــارا
ورمـــت بابنـــك فــي الأو حـال، قـد جــلل عــارا
شاكيـــا، منـــذ قـــرون، أنـــه ضـــاق أســـارا
فاعلمـــي أن ما غدونـــا فيـك نسطيـع اصطبـارا
لا ! ولا فينـــا مطيـــق بأمانيـــك انتظـــارا
رن فـــي آذاننـــا صـــو ت رهيـــب لـــك جـارا
إنـــه صـــوت ابنـــك الحـ ـر من الظلـم استجـارا
فلنؤججـــــها جحيمــا لا هبــا، أقـــوى شعـــارا
ولتكـــن معركـــة الحـ ـق التـي تسمـــو اعتبـارا
كلنـــا أبنـــاؤك الشـ ـم كبـــارا وصغـــارا
قــد أقمنـــا نحــن مـن حـو لـك، يا أم، ســـوارا
حيـث لانرجـــع أو يـنـ ـبلـج الصبـــح انتصـــارا

الرباط — على الصقلي

(●) المراد به : الشريف الادريسي الجغرافي الشهير.

أبو العباس السبتي

محمد عزيمان

سلام على سبتة المغرب　　　　أخية مكة أو يثرب

هذه هي التحية التي حيا بها شاعر سبتة وشاعر المغرب عبد الملك بن المرحل مدينته الحبيبة ـ هذه المدينة التي كانت منارا من منارات الحضارة الإسلامية في الغرب الإسلامي مما جعل الشاعر يؤاخيها بمكة والمدينة ، ومما جعل المؤرخ ابن سعيد يعدها مع مدن المغرب العظيمة ويذكرها مع مراكش وفاس وسلا بل يذكرها مع تونس والأسكندرية والقاهرة ودمشق وحلب.

والواقع أن سبتة الإسلامية كانت منارة علم وحضارة وعرفان حتى قبل أن تستقر الحضارة الإسلامية في أرجاء المغرب الأخرى. فمن المعلوم أن المغرب لم يفتح إلا في سنة 62 على يد عقبة بن نافع، ولكن الأمور اضطربت بعد عقبة وعلى الرغم مما قام به موسى بن نصير بعد ذلك من ضبط الأمور وإقرار النظام، وما تم على يده وعلى يد طارق بن زياد من فتح الأندلس إلا أن الأمور مالبثت أن عادت الى الفوضى وحتى وصل المولى إدريس رضي الله عنه واجتمعت عليه الكلمة وعرفت البلاد نوعا من الاستقرار. ولكن الأمور عادت فاضطربت في عهد أحفاده، وقامت الفتن بينهم والثورات ضدهم، وظهر الخوارج بفتنتهم وكثرت الحروب والاضطرابات.

وكل ذلك حال دون نمو الحركة الفكرية في المغرب كما نمت في الأندلس والقيروان، إلا أن سبتة كانت استثناء من ذلك، كانت واحة وسط هذه الصحراء فهي بسبب قربها من الأندلس، وباعتبارها جسرا بين المغرب والأندلس، وطريق الوافدين على الأندلس من المشرق والمتوجهين الى المشرق من الاندلس كانت ملتقى العلماء من المشرق والأندلس، الأمر الذي جعل منها منارة علم وعرفان. حتى في القرون الثلاثة الأولى بعد الفتح الإسلامي التي كانت فيها أجزاء المغرب الأخرى تعاني من الفتن والاضطرابات.

وعندما قامت دولة المرابطين في القرن الخامس الهجري واستقر النظام في البلاد، وتوجهت عناية المرابطين الى إرساء دعائم الحضارة

الإسلامية ونشر العلم والثقافة كان لسبتة دورها الكبير في هذه الحركة الثقافية.

واستمرت في عهد الموحدين والمرينيين مركزا من أهم مراكز العلم والثقافة بمعاهدها العلمية المزدهرة، وتجارتها الرائجة وصناعتها المتقدمة وغير ذلك من مظاهر العمران والازدهار.

وكتب التاريخ والرحلات حافلة بأخبار سبتة وعمرانها وحضارتها وبأخبار رجالها من أهل السياسة والعلم والأدب.

بل أفردت سبتة بتآليف خاصة ـ معظمها مفقود الآن مع الأسف ـ مثل : كتاب «الفنون الستة في أخبار سبتة» للقاضي عياض وكتاب «الكوكب الوقاد فيمن حل بسبتة من العلماء والصلحاء والعباد» لمحمد بن أبي بكر الحضرمي. وكتاب : «بلغة الأمنية ومقصد اللبيب فيمن كان بسبتة في الدولة المرينية من مدرس وأستاذ وطبيب» وكتاب : «الكواكب الوقادة في ذكر من من دفن بسبتة من العلماء والصلحاء والقادة». وكتاب : «اختصار الأخبار عما كان بثغر سبتة من سنى الآثار» لأبي عبد الله محمد بن القاسم بن محمد الأنصاري السبتي من رجال المائة التاسعة فرغ منه بعد استيلاء البرتغاليين عليها بنحو سبع سنين وهذا الكتاب الأخير نشره الأستاذ السيد عبد الوهاب بن منصور. وكان الأستاذ السيد محمد بن تاويت قد نشره قبل ذلك في مجلة تطوان.

أنجبت سبتة رجالا كان لهم أثرهم الخالد في الثقافة الإسلامية أمثال : القاضي عياض، والشريف الإدريسي وا بن رشيد، ومالك بن المرحل، وغيرهم حتى قال المعتمد بن عباد ـ وحاضرته اشبيلية زاخرة برجال العلم والأدب ، «اشتهيت أن يكون عندي من أهل اشبيلية ثلاثة نفر : ا بن غازي الخطيب، وا بن عطاء الكاتب. وا بن مرانة الفرضي».

ومن الشخصيات العجيبة التي أنجبتها مدينة سبتة ، شخصية أبي العباس أحمد بن جعفر الخزرجي العالم الصالح دفين مراكش الذي لا يزال تأثيره واضحا في الحياة المغربية في ميدان البر والاحسان. وهو الذي أردت أن يكون موضوع هذا الحديث في هذه الندوة التي نظمتها جمعية الثقافة الإسلامية بتطوان عن دور سبتة في إثراء الفكر الإسلامي.

من هو أبو العباس السبتي ؟ وما هي الأصول التي بنى عليها مذهبه أو دعوته ؟ وما هو دوره في إثراء الفكر الإسلامي ؟ وما هي العبرة التي يمكن أن نستخرجها من دراسة أقواله وأحواله ؟

وأرى من الواجب أن أوضح أن مرجعي الأساسي في أخبار أبي العباس هو كتاب : «الإعلام بمن حل مراكش من الأعلام» لمؤرخ مراكش الفقيه القاضي السيد العباس بن ا براهيم رحمه الله.

● ولد أبو العباس في سبتة عام 524 هـ وهي تحت حكم المرابطين. وتحدث عن بداية أمره فقال : كنت بمدينة سبتة يتيما وكانت أمي تحملني الى البزازين أي الحاكة لتعلم صناعة الحياكة فأفر

منهم إلى مجلس أبي عبد الله الفخار ـ وأبو عبد الله الفخار هذا هـو صاحب الضريح المعروف في تطوان وكان من أهل العلم والصلاح ومن أصحاب القاضي عياض ـ وكانت أمي تضربني لفراري من تعلم الصنعة إلى أن قال لها أبو عبد الله الفخار ، لم تضربين هذا الصبي ؟ فقالت ، إنه يتيم ويأبى أن يتعلم الصنعة، وليس عندي شيء. فقال لي ، يا بني لم لا تفعل ما تامرك به أمك ؟ فقلت ، إني أحب هذا الكلام الذي أسمعه منك. فقال لأمي ، أتركيه وأنا أدفع لك قدر أجرته وأدفع عنك للمعلم الذي يقرئه القرآن. فقرأت القرآن الى أن حفظته ثم قرأت الأحكام.

ولما بلغ أبو العباس السادسة عشرة من عمره قويت عزيمته على السفر لطلب العلم ولقاء المشايخ. فتقدم إلى شيخه الفخار وقال لـــه ، ياسيدي إني عزمت على السير إلى مراكش أطلب العلم فيها فإنها مدينة العلم والخير والصلاح. فقال له ، يا بني إنه ليعز علي فراقك، ولكن في طلب العلم يهون علي سفرك. فودعه وانصرف عنه، وما زال يجد في السير الى أن وصل مراكش وهي في حالة حصار إد كانت جيوش الموحدين تحاصر فيها المرابطين. فتوجه الى جبل گليز ـ ولم يكن متصلا بالمدينة كما هو اليوم ـ وكان ذلك سنة 540 هـ .

وتتحدث الروايات عن أن أبا العباس كان معه في طريقه من سبتة الى مراكش فقير يخدمه كما تتحدث عن عدة كرامات وقعت له في الطريق الى مراكش. ويلاحظ أنه في هذه الرحلة كان في سن السادسة

عشرة طالبا يافعا. فهل عرف بالبركة والصلاح في هذه السن أم أن هذه الحكايات وضعت بعد اكتمال شخصية الشيخ أبي العباس واشتهار أمره ؟

وصل أبو العباس إلى مراكش ولم يستطع دخول المدينة بسبب حالة الحرب والحصار فتوجه الى جبل. گليز وانقطع بالجبل للعبادة حتى واتته الفرصة لدخول مدينة مراكش فسكن في أحد الفنادق وكان يقرىء الحساب والنحو ويأخذ على ذلك أجرة وكان له رسم في بيت المال من الإعانات التي تعطى للطلبة فكان الطلبة الواردون على مراكش يأوون إليه فينفق عليهم جميع ما يكون عنده وأخذ يخرج الى الأسواق يعظ الناس ويأمر بالمعروف ويحث على البذل والعطاء ويجمع المال من الأغنياء ليوزعه على الفقراء وينشر الدعوة. التي وقف عليها حياته والمباديء التي بنى عليها مذهبه حتى اشتهر أمره. واختلف الناس في شأنه بين من يجله ويقدسه ويعتبره من الأولياء وبين من ينتقد تصرفاته وينسبه إلى الزيغ والابتداع. وهو ماض في طريقه لا يلوي على شيء وقد أعطاه الله بسطة في اللسان وقدرة على الكلام لا يناظره أحد إلا أفحمه. سريع الجواب. القرآن ومواقع الحجج على طرف لسانه. ياخذ بمجامع القلوب ويسحر العامة والخاصة ببيانه ـ كما كان جميل الصورة

أبيض اللون حسن الثياب حليما صبورا يحسن الى من يؤذيه ويحلم عمن سفه عليه. رحيما عطوفا محسنا الى اليتامى والأرامل. يجلس حيث أمكنه الجلوس في الأسواق والطرق فيحض الناس على الصدقة ويأتي بما جاء

في فضيلتها من الآ يات والآثار. تناول له الصدقات فيفرقها على المساكين وينصرف .

وما زال أمره يشتهر وينتشر ومكانته في القلوب ترسخ وتستقر حتى أرسل أبو الوليد ابن رشد من قرطبة رسولا من قبله لسبر غوره واستقصاء أحواله. فقد قال عبد الرحمان بن ابراهيم الخزرجي بعثني أبو الوليد ابن رشد من قرطبة وقال لي : إذا رأيت أبا العباس السبتي بمراكش فانظر مذهبه واعلمني به. قال : فجلست مع السبتي كثيرا الى أن حصلت مذهبه فأعلمته بذلك. فقال أبو الوليد : «هذا رجل مذهبه أن الوجود ينفعل بالجود».

ماهو هذا المذهب الذي امتاز به أبو العباس والذي لخصه الفيلسوف ابن رشد في هذه الجملة : «الوجود ينفعل بالجود» ؟

حين نقرأ أخبار أبي العباس في كتب المناقب نغرق في بحر من الكرامات وخوارق العادات. ذلك أن شخصية أبي العباس السبتي أصبحت في التقاليد الشعبية من الشخصيات الأسطورية. والتقاليد الشعبية مولعة بالعجائب والخوارق والعادات. ولكننا من خلال هذا الركام نستطيع أن نستجلي الشخصية الحقيقية لأبي العباس السبتي.

فأبو العباس كان رجلا عالما عارفا بالكتاب والسنة، وكان عصره عصر ازدهار علمي. لقد عاش في عصر القاضي عياض وابن رشد وابن العربي المعافري ومولاي عبد السلام بن مشيش وأمثالهم في عصر عبد

المومن الموحدي وابنه يوسف وحفيده يعقوب المنصور؛ وما كان لدعوته أن تنتشر وأن يدرك ما أدرك من المكانة والإجلال حتى يبني له يعقوب المنصور مدرسة خاصة ينشر فيها علمه ورباطا وزاوية للفقراء ويقدمه لصلاة الاستسقاء ويتقبل منه الصراحة في القول والشدة في النصيحة وحتى يقول ابن رشد بعد أن اطلع على مذهبه - وابن رشد رأس المدرسة العقلية - هذا رجل مذهبه أن الوجود ينفعل بالجود ولم يوجه إليه نقدا ولم ير في مذهبه ما لا يتفق مع الدين أو العقل. ما كان لأبي العباس أن يدرك ما أدرك من المكانة في ذلك العصر بالذات وبين أولئك الجلة من العلماء بالذات لو كان كما تصوره كتب المناقب مجرد رجل عجائب وغرائب.

ما هو إذن المذهب الذي امتاز به أبو العباس السبتي ؟

يحكى عنه أنه وهو طفل صغير في الكتاب يحفظ القرآن وصل إلى قوله تعالى : **«إن الله يأمر بالعدل والإحسان»**.

فشغلت هذه الآية الكريمة عقله الصغير وقام إلى شيخه سيدي عبد الله الفخار وسأله عن معنى الآية. ويقول عن نفسه أنه عندما وصل مراكش واستقر في گليز وجد هذه الآية الكريمة تلازم فكره وترد على قلبه ولسانه في كل وقت فاستشعر كأن هذه الآية موجهة إليه بالذات وأنه المطلوب بها - قال : ولم أزل أبحث عنها إلى أن وقعت على غريب التفسير وفيه أن هذه الآية نزلت حين آخى رسول الله (ص) بين

المهاجرين والأنصار. وأنهم سألوا الرسول (ص) أن يعلمهم المؤاخاة فأمرهم بالمشاطرة في أموالهم فعلموا أن العدل المأمور به هو المشاطرة. يقول أبو العباس : ثم نظرت إلى قول النبي (ص) «ستفترق أمتي على اثنين وسبعين فرقة كلها في النار إلا فرقة واحدة هي ما أنا عليه وأصحابي». وأنه (ص) قال ذلك صبيحة اليوم الذي آخى فيه بين المهاجرين والأنصار. فعلمت أن الذي عليه هو وأصحابه هو المشاطرة والإيثار فعقدت مع الله عهدا ألا ياتيني شيء إلا وشاطرت فيه إخواني المومنين من الفقراء فعملت على ذلك عشرين سنة ولما بلغت الأربعين رجعت إلى الآية أتدبرها فوجدت العدل هو المشاطرة، والإحسان هو مازاد عليها فعقدت مع الله عهدا ألا ياتيني شيء قليل أو كثير إلا أمسكت الثلث وصرفت الثلثين إلى الله تعالى وعملت على ذلك عشرين سنة ثم عدت للتدبر والتفكير فوجدت أن أول فرض افترضه الله تعالى على العباد هو شكر النعمة بدليل إخراج الفطرة عن المولود قبل أن يفهم ويعقل، فهذا أول فرض فرض عليه قبل أن يكون مطالبا بأي شيء. ووجدت أن الصدقة الواجبة تصرف على الأصناف الثمانية التي نص عليها القرآن «**إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل**».

ووجدت سبعة أصناف آخرين أصرفها عليهم للإحسان والزيادة على العدل وذلك أن لنفسي حقا وللزوجة حقا وللرحم حقا ولليتيم حقا، وللضيف حقا. وذكر صنفين آخرين لم يذكرهما الراوي عنه فانتقلت الى هذه

الدرجة وعقدت مع الله أن كل ما ياتيني من خير قليل أو كثير أمسك منه سبعين حق النفس، وحق الزوجة ومن تجب علي نفقته وأصرف خمسة أسباع على مستحقيها ثم يقول أنه أحصى عدد الأفراد الذين كانت تجب عليه نفقتهم في ذلك الوقت من زوجة وأولاد ومن يخدمه فوجدهم اثنين وثلاثين شخصا فالتزم بأن يقوم بنفقة اثنين وثلاثين شخصا آخرين على سبيل التطوع فجمع اثنين وثلاثين من الأيتام المهملين لا يفقد أحد منهم بزواج أو وفاة إلا عوضه ـ ثم أحصى ذوي رحمه فوجدهم أربعة وثمانين شخصا ولهم حقان حق الرحم وحق المسكنة، فتكفل بهم وأضاف إليهم مثل عددهم أربعة وثمانين شخصا آخرين من الفقراء يقول فإن أؤدي هذه الحقوق منذ أربعة عشر عاما لا أنقص من ذلك شيئا.

هذه مؤسسة خيرية تضم 232 شخص كان قائما بها تطبيقا للآية الكريمة التي استحوذت على نفسه منذ طفولته الأولى كما فهمها على مراحل من التدبر والتفكير.

إن فكرة الإحسان استحوذت على نفسه وملكت مشاعره ووجهت فهمه للقرآن وفهمه للدين هذه الوجهة الخاصة التي امتاز بها تفكيره وامتازت بها دعوته.

فقد رأى أن شكر النعمة هو أول واجب على العبد حتى قبل التكليف بدليل زكاة الفطر التي تخرج على المولود قبل أن يعقل وهكذا فهم العبادات في نطاق هذه الفكرة ورد أصول الشرع كلها الى البر

والإحسان، إلى الصدقة، إلى التكامل الاجتماعي، إلى ما نسميه اليوم العدالة الاجتماعية والتوازن بين الطبقات.

وكان يقول: من لم يفهم معنى الصلاة فكأنه لم يصل.فإن أول الصلاة تكبيرة الإحرام وذلك أن ترفع يديك وتقول : الله أكبر ! والمعنى الله أكبر أن نضن عليه بشيء. فمن رأى شيئا من متاع الدنيا في نفسه أكبر فلم يحرم ولا كبر للصلاة ومعنى رفع اليدين للتكبير : قد تخليت عن كل شيء لم أمسك قليلا ولا كثيرا ثم يتكلم عن أجزاء الصلاة بهذه المعارف وكان يتأول الركوع على المشاطرة والسلام من الصلاة على الخروج من كل شيء. وكان يقول سر الصوم أن تجوع. فإذا جعت تذكرت الجائع وعلمت قدر ما يقاسيه من نار الجوع فتتصدق عليه. فإذا صمت ولم تعطف على الجائع ولا أحدث عندك الصوم هذا المعنى فلم تصم ولا فهمت المراد من الصوم. والزكاة إنما فرضت في كل عام لتتدرب على البذل والعطاء. وإلا ففي الأموال حق سوى الزكاة. وليس المقصود أن تعطى فيوقت بخصوص وتمسك فيغيره وفرض الحج سره أن تبرز في زي المساكين بحلق الرأس والشعث ولبس النعلين والتجرد من ثياب الرفاهية والبذل·لله تعالى وإظهار العبودية. وسر الجهاد بدل النفس في مرضاة الله والتخلي له عن كل شيء. ومعنى التوحيد توحيد الله تعالى دون أن تجعل معه إلها غيره من متاع الدنيا وكل ما استولى على الإنسان فهو إلهه (أفرأيت من اتخذ إلهه هواه). وكان يقول : أصل الخير في الدنيا والآخرة الإحسان وأصل الشر في الدنيا والآخرة البخل **(وأما من أعطى واتقى**

وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى، وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى)

ولما أراد الله تعالى هلاك فرعون وأهله دعا عليهم موسى عليه السلام بالبخل (ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالا في الحياة الدنيا. ربنا ليضلوا عن سبيلك. ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم ـ قال قد أجيبت دعوتكما...). وقال تعالى : (ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون. فاعقبهم نفاقا في قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون) وقال تعالى في الأنصار : (ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة، ومن يوق شر نفسه فأولئك هم المفلحون) ـ وقال تعالى : (إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة إذ أقسموا ليصرفنها مصبحين ولا يستثنون. فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون فأصبحت كالصريم. فتنادوا مصبحين ان اغدوا على حرثكم إن كنتم صارمين فانطلقوا يتخافتون ألا يدخلنها اليوم عليكم مسكين. وغدوا على حرب قادرين. فلما رأوها قالوا إنا لضالون بل نحن محرومون قال اوسطهم ألم أقل لكم لولا تسبحون. قالوا سبحان ربنا إنا كنا ظالمين.فأقبل بعضهم

على بعض يتلاومون، قالوا ياويلنا إنا كنا طاغين عسى ربنا أن يبدلنا خيراً منها إنا الى ربنا راغبون كذلك العذاب ولعذاب الآخرة أشد لو كانوا يعلمون).

وبحرمان المسكين الناشيء عن الأنانية والاستئثار يؤدي إلى عذاب الدنيا والآخرة. قال تعالى : **(وسارعوا الى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس. والله يحب المحسنين)** وقال تعالى : **(ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب، ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيئين وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين الباس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون).**

وقال عليه السلام : «اتقوا النار ولو بشق تمرة» فلم يذكر وقاية النار الا بالعطاء وفي الخبر الأكثرون هم الأخسرون ورب الكعبة الا من قال بماله هكذا وهكذا وذكر العطاء من الجهات الأربع.

وقريء في مجلس أبي العباس قوله تعالى .«**إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن**

منها وحملها الإنسان) فقال هذه الأمانة هي الرزق فالسماوات اعطت ما عندها من الماء والمطر. والأرض أعطت ما عندها من النبات والثمار وما فيها من الأرزاق وأبت من إمساكها فصار الإنسان خازنا لما يجتمع عنده يمنع منه المساكين إنه كان ظلوما جهولا.

وكان يقول في قوله تعالى : **(والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب** أليم **؛ يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون** » ـ كان يقول : إنما كويت هذه المواضع لأن الغني إنما يعرض عن المساكين بوجهه ثم بجنبه ثم يوليهم ظهره فعوقب في هذه المواضع بالكي بالنار على الإعراض بها عن الفقراء.

وهكذا بنى أبو العباس مذهبه على أن روح الدين وروح العبادة هي البذل والعطاء هي التكافل والتعاون بين أفراد المجتمع وقد يقال أن الزهد مقام معروف من مقامات التصوف تكلم فيه الصوفية وأفاضوا فلم يأت أبو العباس بجديد ـ ولكن الواقع هو أن أبا العباس لم يكن زهده سلبيا. لم ير الزهد في ترك شؤون الدنيا والانقطاع إلى العبادة وعدم شغل النفس بشؤون الخلق بل بالعكس كان يشعر شعورا عميقا بالالتزام بقضية الجماهير المحرومة. كما تقول اليوم بالالتزام نحو المجتمع. وكان إسعاد الناس شغله الشاغل. كان يفكر في الضعيف والمسكين وذي

الحاجة وأوقف حياته على خدمة الطبقات المحرومة ونشر الدعوة إلى تطهير النفوس من الأنانية وشهوة التملك وتربية المجتمع على مبادىء التعاون والتكامل. ورأى ذلك هو الهدف الأسمى للدين وللعبادة. وبهذا المعنى فهم آيات القرآن وأحاديث الرسول عليه السلام.

قال له رجل : نراك تتكلم كثيرا على الصدقة ولكنك لا تتكلم على الصلاة فأجابه أبو العباس : إنما تكلمت على العلة العظمى التي عمت وهي البخل وإنما أودعكم السر الذي لم يطلع عليه كل أحد بإعطاء الشطر تكون الوقاية (اتقوا النار ولو بشق ثمرة).

وقيل له : ما للعلماء يعادونك ويكرهونك ؟ فقال : لأني موقن بقوله تعالى : **(وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه وهو خير الرازقين)** وهم غير موقنين بذلك.

وكان يقول: ركن العلماء إلى الدنيا وبخلوا بها وغلبوا الرجاء وفيهم يقول الله تعالى :**مخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب ياخذون عرض هذا الأدنى ويقولون سيغفر لنا وأن ياتهم عرض مثله ياخذوه. ألم نوخذ عليهم ميثاق الكتاب ألا يقولوا على الله إلا الحق)**.

وقد يقال اليوم أن الصدقة الفردية لا تحل المشكلة الاجتماعية وأنه لا بد من نظام اجتماعي مبني على أسس علمية كفيلة بتحقيق التكامل الاجتماعي والضمان الاجتماعي بحيث يتحقق العيش الكريم لجميع أفراد

المجتمع من محدودي الدخل وفقراء وعاطلين ومرضى وعجزة وأيتام ومسنين وغيرهم ونقول : أن المهم في دعوة أبي العباس هو الفكرة والمبدأ هو الجهر قبل أن يعرف العالم الاشتراكية الفابية والاشتراكية العلمية والاشتراكية الديمقراطية بمآت السنين فإن روح الإسلام هي التكافل والتعاضد والتآزر بين أفراد المجتمع من رد فضول مال الأغنياء على الفقراء أما الطريقة العملية لتنظيم ذلك فمسألة تتطور بتطور الزمن وأن المبادىء التي دعا إليها الشيخ أبو العباس السبتي وأوقف حياته عليها يمكن أن تطبق على الطريقة الاشتراكية أو الطريقة السكندنافية أو الطريقة المطبقة في بعض دول أوربا الغربية أو غيرها من الطرق والقوالب ويبقى الأساس هو الروح. هو الفكرة. هو المبدأ. وذلك المبدأ هو مبدأ التكامل الذي اعتبره أبو العباس روح الإسلام واعتبر الدعوة إليه رسالته في الحياة الى أن انتقل الى جوار ربه.

حدث ابنه عبد الله قال : لما حضرت أبي الوفاة دنا منه أبو يعقوب الحكيم وكان صديقه فقال له : أوصنا بما نفعله بعدك فقال : ليس إلا الإحسان - ولسانه ثقيل لا يكاد يبين الكلام.

هذا هو أبو العباس السبتي الصوفي الملتزم والمصلح الاجتماعي والعالم الداعية ورسول البر والرحمة ودلال الخير كما كان يقول عن نفسه الذي حمل راية الدعوة إلى البر والإحسان من بداية شبابه إلى آخر رمق من حياته. إلى أن لقي ربه سنة 601.

ولكن هذه الصورة المشرقة من حياة أبي العباس تطغى عليها في كتب المناقب أخبار الكرامات وشواذ التصرفات.

والظاهر أن أبا العباس كان يستعمل فعلا بعض الأساليب الغريبة لجلب الانتباه الى دعوته ولإثارة الحديث عنه وعن تصرفاته تأييدا أو استنكارا لأن ما كان يهمه فيما يظهر هو أن يثير الاهتمام بالمذهب الذي يدعو إليه ويثير حوله الجدل ليكون ذلك وسيلة لانتشاره على أوسع وجه.

يقولون عنه أنه كان يستعمل بعض الألفاظ والعبارات الجافية، حدث بعض أصحابه قال : خدمت أبا العباس السبتي مدة وأنا أشك في أمره فاذا كان يوم عرفة صليت الصبح في المسجد فلما خرجت من المسجد لقيته فمشيت معه إلى باب الدباغين فوجدناه مغلقا فقال لي : إن كان معك شيء يمكنك الخروج منه فامش معي وإلا فارجع - فقلت له : كل ما معي يمكنني الخروج منه وكانت معي سبعة دراهم ونصف. فقال لي : ادفعها لأول داخل من الباب واقصد بذلك وجه الله. فأول مالقيت عند فتح الباب عجوز فدفعتها اليها ثم خرجنا الى بحيرة الرقائق فتقدمني الى أن انتهينا إلى آخر البحيرة عند غابة الرمان فقال أريد أن تنتصب على أربع. فقلت له : ما هذا الكلام في مثل هذا اليوم ؟ فقال لي : إنما أمرتك بعادتك في الصلاة. فدخلت بين أشجار فاستقبلت القبلة وركعت ركعتين وهو ينظر إلي فقلت في نفسي إن لم يقع منه استحسان

للصلاة قتلته على زندقته وارتحت منه. فلما فرغنا من الصلاة أتيت إليه فأخذ يدي وقبلها وقال لي : مرحبا بالقران. فقلت له : ماهذا الكلام؟ فقال : إنما أردت بقولي هذا أنك قرنت بين الصلاة والصداقة. ثم قال أفي نفسك مني شيء ؟ قلت : بل أشياء كثيرة. فإني خلوت بك في مواضع كثيرة فلم تتحصل لي منك حقيقة. فقال والله الذي خرجنا إليه لا أخفيت عنك ظاهرا ولا باطنا فقبلت يده على ذلك.

ثم أخذ صاحبه يلقي عليه بعض الأسئلة وهو يجيبه عنها ومن جملتها هذا السؤال : لماذا تتكلم بالفحش ؟ فقال لي : إذا تكلمت بالكلمة أليس الله يطلع على قلبي بما لا يطلع عليه مثلك ؟ قلت : بلى قال فما يضرني إذا علم الله تعالى منا ما طويت عليه ضمائرنا. ثم قال : مالذي تنكر علي من الفحش ؟ قلت مما أنكره عليك قولك للناس تيوس، وهو كلام يغير القلوب فقال أعني به المتقدمين وما رأيت أحدا من الناس إلا وهو يحب التقدم ومن شأن التيس التقدم فقلت له من شكا إليك بشيء أمرته بالصدقة فإن لم يكن عنده ما يتصدق به قلت له اجعل على ظهرك أسود. فقال لي ما آمر الناس إلا بما ينتفعون به، ومن لم يكن عنده ما يتصدق به أمرته أن يتحمل مشقة الصلاة بالليل وهذا معنى قولي اجعل على ظهرك أسود فقلت له : هلا قلت له : قم الليل قال : لو قلت له قم الليل لقبل يدي ودخلني العجب.

إن الشعور الحاد الذي كان يشعر به أبو العباس نحو آلام الناس ومشاركته الوجدانية لهم في مشاعرهم وأحاسيسهم كل ذلك كون في نفسه نوعا من الإحساس الباطني بآلام المتألميـــن - وتحكـى عنـه حكايـــات في هذا الباب تذكر في باب الكرامات. فقد حدثوا أن أهله قدموا له ذات ليلة عشاءه فلم تتفتح نفسه للطعام وقال لأهله لعله قد بقي فيكم من لم يأكل فلذلك لم يطب لى الطعام فحفوا به كلهم وقالواوالله ما بقي مناأحد إلا وقد أكل. فقال لهم : اذهبوا ففتشوا فلما ذهبوا لباب الدار وجدوا امرأة مسكينة نائمة وعرفوا منها أنها لم تتناول طعاما تلك الليلة فقدم اليها عشاءها وجعل لها فراشا تنام عليه.

وحدثوا أن أبا العباس بات ذات ليلة ممطرة فغلبه البرد فأمر أن يغطى باللحاف فلم يندفع عنه البرد فزيدت عليه اللحاف والبرد لا يزول عنه فقام من فراشه يتمشى بالمحلة التي هو فيها. يقرع أبواب الديارولا يستجيب له أحدإلىأن قرع باب دارفاستجاب له أهلها وعلم منهم أنهم لم يناموا من شدة البرد لأن الأمطار بللت ثيابهم وألحفتهم فقال أبو العباس لنفسه من هذا غلبني البرد وأمر أهله أن يحملوا لتلك الأسرة ما يلزمها من الأغطية ورجع أبو العباس الى فراشه وتدثر بلحافه المعتاد وقد زال عنه البرد ونام نوما سعيدا.

وأبو العباس يعلل أحيانا ما يصدر عنه مما يعتبره الناس كرامات تعليلات طبيعية فقد خرج مرة يستسقي بالناس في يوم صحو وحرارة شديدة وقضى ساعة يطوف بالناس ويدعو الله ثم توجه الى الناس

وقال : بادروا المطر وخذوا نعالكم بأيديكم فما كادوا يصلون المدينة حتى غيمت السماء ونزل المطر، وحين سئل بعد ذلك كيف عرف مجيء المطر، قال : مرت ريح باردة في خدي فلما وجدت بردها رفعت طرفي إلى السماء فرأيت سحابة بطرف الجبل فعلمت أنها سحابة مطر

أو يعلل ما يصدر عنه مما يعتبر من الكرامات بأنه مأخوذ من إشارات القرآن - فقد أصاب الناس قحط بمراكش فدخل أبو العباس على أحد الولاة وقال له تصدق بشيء على الناس. فقال الوالي : إن الله غني عن الصدقة - فولى أبو العباس وهو يقول : سبحان الله هذا الرجل عزل نفسه - وقد عزل بعد ذلك فعلا - ولما سئل كيف عرف ذلك أجاب من قوله تعالى : «**ها انتم هؤلاء تدعون لتنفقوا في سبيل الله فمنكم من يبخل ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه. والله الغني وأنتم الفقراء**» ومن قوله تعالى : وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم.

في سبتة الآن مزارة معروفة تنسب لسيدي أبي العباس فهل هي لسيدي أبي العباس السبتي الخزرجي دفين مراكش الذي هو موضوع هذا الحديث ؟ نفى صديقنا الفقيه السيد الحاج محمد السراج الذي شغل منصب قاضي الجماعةالإسلامية بسبتة مدة من الزمن قبل استقلال المغرب في كتابه (خلاصة تاريخ سبتة) - نفى أن تكون هذه القبة له. وقال إن زوارها يعتقدون أنها لأبي عباس آخر هو الشريف أبو العباس الحسيني الذي كانت له ولاسرته الرئاسة والمكانة في سبتة في القرن الثامن.

وقد جزم الفقيه السراج بأن هذه القبة ليس لهذا ولا لذاك وإنما هي قبة محدثة بناها الاسبانيون للدعاية والتظاهر بالعناية بأمور مسلمي سبتة.

وأنا أستبعد أن يعمد الإسبانيون إلى بناء قبة في مكان يختارونه اعتباطا فإذا كانوا قد بنوها للدعاية أو لغيرها فلا شك أنهم بنوها في المكان الذي كان المسلمون يقصدونه للزيارة وينسبونه لسيدي أبي العباس

يبقى أن نعرف من هو أبو العباس هذا الذي ينسب إليه الناس هذه المزارة ؟ فيحتمل أن يكون أبا العباس السبتي الخزرجي باعتبار أنه ابن سبتة وأن ذلك المكان يتصل به بسبب من الأسباب - وهنا يرد سؤال وهو : هل عرف أمر أبي العباس في سبته قبل أن يغادرها إلى مراكش؟ وهل ظهر عليه وهو في تلك السن المبكرة - غادر سبتة في السادسة عشرة من عمره - من مخايل الصلاح والخير ما جعل الناس يعرفونه ويعرفون الأماكن التي يأوي إليها أو يتعبد فيها - فلما اشتهر أمره بعد ذلك في مراكش وعلت مكانته في الدين والصلاح أقاموا له تلك المزارة؟

هذا ممكن. وأرجح منه أن تكون المزارة للشريف أبي العباس الحسيني الذي كانت له ولأسرته مكانة بارزة في حياة سبتة ونفوذ روحي ودنيوي واسع.

ولكن الفقيه السراج ينفي أيضا أن تكون لأبي العباس الحسيني بحجة أن مقبرة الأشراف الحسينيين بسبتة قد تحدث عنها المؤرخون وحددوا مكانها وهي لا تقع في المكان الذي توجد فيه القبة الآن.

ونترك لرجال التاريخ والآثار أمر التحقيق في أصل القبة القائمة الآن بسبتة والمنسوبة لسيدي أبي العباس وبقطع النظر عن أصلها وحقيقة أمرها فهي لوحة تذكارية لأحد علمين من أعلام سبتة الاسلامية البارزين. تذكرنا بماضي سبتة الإسلامية الزاهر ـ وحبذا لو كانت قد أقيمت قبب أخرى ولو للدعاية. لمثل القاضي عياض وطارق بن زياد وموسى بن نصير وأمثالهم من الأعلام على أن طارق بن زياد لا يحتاج في الحقيقة إلى قبة في سبتة فأمام سبتة جبله الراسخ تمثال خالد. وموسى بن نصير لا يحتاج كذلك إلى قبة ففوق سبتة جبله الشامخ نصب تذكاري دائم.

أما الشريف أبو العباس الحسيني الذي يحتمل أن تكون القبة منسوبة إليه فقد تحدث عنه المقري في أزهار الرياض وقال انه يتفاءل ببدء كتابه بالتعريف به لمجادته وفضله وعلمه ومكانته، وذكر من أخباره ما يدل على ماكان له بسبتة من مكانة ونفوذ. لم يكن الشريف أبو العباس الحسيني يشغل منصبا رسميا ولكنه كان بمثابة الممثل الشخصي للسلطان أبي عنان المريني. وكان يقول للسلطان تحسبني خديما ولست كذلك وإنما نحن معشر أهل البيت شفعاء في الدنيا وشفعاء

في الآخرة. فكان أهل سبتة في أيامه في عيش هنى كما يقول المقري، ونعمة شاملة. بقي على هذه الحالة مدة عشرين سنة. ياتي إليه صبيحة كل يوم في الموضع الذي أعده لجلوسه بروضه بالصفارين صاحب القصبة (ولعله قائد الحامية العسكرية) كائنا من كان مسلما عليه ثم ينصرف، ثم ياتي الوالي على قبض الجباية مسلما ثم ينصرف، ثم ياتي صاحب الشرطة وكذلك جميع أمراء سبتة إلا القاضي لمكان خطته فيعامل كلا بما يستحق من إكرام أو غيره وإغلاظ أو مجاملة. فلا يتخلف أحد عن غرضه ولا يصدر إلا عن رأيه ونظره. وهذا كله مع النصيحة للمسلمين، وجلب المنفعة لهم بالقول والفعل، وإطعام الطعام الذي لا يقدر عليه الامير فمن دونه، ورفع المظالم ومنح الجاه الى غير ذلك.

وينقل المقري عن صاحب «الكواكب الوقادة» قوله : (سمعت كاتب الشريف أبي العباس الخاص به، الملازم له ليلا ونهارا مع مرور الأيام والسنين يقول : «ما أمرني قط سيدي الشريف بكتب شيء مخالف للشرع بل في رفع المظالم وإنهاء الشفاعات وتوجيه الأمانات وما في معنى ذلك مما ندب إليه الشرع وحض عليه»).

وكان لسان الدين بن الخطيب كثيرا ما ينزل في وجهاته المغربية عند هذا الشريف ـ ولما قفل السلطان أبو عبد الله محمد بن يوسف بن الأحمر من المغرب حين رجوعه إلى ملكه بغرناطة ومعه وزيره ابن الخطيب صنع له الشريف ضيافة ملوكية بالمنية من قرية بليونش حيث

القصر هناك وعنصر الماء المختص بها. ومن هناك ركب البحر ليلا وذلك في جمادى الثانية عام 763 وفي الحادى والعشرين من الشهر المذكور دخل دار ملكه حمراء غرناطة.

ثم يقول المقري : وهؤلاك الشرفاء من ذرية أبي طاهر الذي خرج من جزيرة صقيلية، وكانت لهم بسبتة وجاهة وسيادة، وجلالة ومجادة، لمكان بيتهم الشريف ونسبهم العالي المنيف ما منهم واحد إلا غذاه العلم بلبانه، والأدب ببيانه. ولي منهم قضاء بلدهم سبتة رجلان لم يطلع مثلهما الملوان تقى وعلما، وأناة وحلما : أولهما القاضي أبو الشرف رفيع، والثاني ابنه القاضي أبو الحسن علي. وكم نشأ عن هذا الأصل الطاهر من جهبد، نحرير وعالم ماهر، وسخي جواد، وناهيك بخاتمهم أبي العباس.

وقد توفي أبو العباس الحسيني عام 776. ويظهر أن الشرفاء الصقليين بفاس من فرع هذه الأسرة الكريمة.

نترك أمر القبة القائمة بسبتة فلأي من العباسين نسبت فهي نعم الذكرى لمجد سبتة الغابر - ونعود الى الشيخ أبي العباس السبتي الخزرجي موضوع هذا الحديث فقد رأينا فيما سبق ما يدل على مكانته العلمية وطول باعه في الاطلاع على الكتاب والسنة فقد كان القرآن ومواقع لحجج على طرف لسانه كما قال ابن الزيات، صاحب التشوف.

ولأبي العباس جانب آخر هو الجانب الأدبي فقد كان فصيحا بليغا يقول الشعر في بعض الأحيان. ومن شعره الصوفي قوله :

إنــي أمنــت طــوراق الحدثـان   لما تعلـق بالإلــه جنانـــــي
وحصلت في فردوس نعمته التـي   كانت مثوبة أو فتى وجنانـــي
فلذاك أورثنـــي مغيــب ســره   فالعلم علمي والبيان بيانـــــي

ومن شعره ا يضا :

ألا بأبـي مـن بـات يدعو إلهه   لقد هاجني شوق إلى ذلك الـورد
تبيت على قطع المراحل بالتقى   سيوفا إلى الخيرات في جنة الخلد
ومثلي على فرش البطالة غافـــل   فياأشقى بمن قرب غيري ومن بعدي
أأنأى على الفردوس في جنة العلا   ويحظى بهاذو الدمع سكبا علىالخد

وسمع منشدا ينشد أبياتا من قصيدة الوزير أبي بكر البطليوسي :

يا أخي قم ترى النسيـم عليــلا   باكـر الـروض والمـدام شمـــولا
في رياض تعانـق الزهـر فيهــا   مثلمــا عانـق الخليـل خليـــلا
لا تنم واغتنـم مســرة يـــوم   ان تحــت التــراب نومـا طويـلا

فعارضه بهذه الأبيات :

يا أخي قم ترى الكتاب دليـــلا   واجعل الذكر والسجـــود سبيـــلا
واطلبــن للإلـــه جنـــة خلـــد   بخضــوع يــراك فيــه ذليـــــلا
ان فضلـي لمـن يكـون سـؤولا
أسعف العبد بالإجابـــة منــــي   ليس فضلي عليك ـ عبـدي ـ قليلا

وأنشده بعد زواره يوما بيتين من قصيدة ابن عمار المشهورة :

أدر المدامة فالنسيم قد انبـــرى والنجم قد صرف العنان عن السرى

والصبح قد أهدى لنا كافــوره لما استرد الليل منا العنبـــــرا

فقطع عليه إنشاده وكره سماع القصيدة وقال لا بد أن تكفر عن هذين البيتين بهذين البيتين وقال :

أقم الصلاة مهاجرا سنة الكـــرى واجعل صباحك عنده حمد السرى

واطو المراحل بالعروج لمن لـــه لطف ينزله إذا هجع الــــورى

وإني أحب أن اختم هذه الكلمة متبركا بهذا الدعاء البليغ لأبي العباس الذي يدل على رسوخ قدمه في ميدان النثر الأدبي البليغ وعلى نفس صوفي عال من نفس الصلاة المشيشية قال رحمه الله :

اللهم أفضلت إفضالك. وأنعمت فتم نوالك وغفرت الدنوب فتكامل إحسانك. وسترت العيوب فتواصل غفرانك.

«اللهم لك الحمد على عقل ثقفته. ولك الحمد على فهم وفقته ولك الحمد على توفيق هديته. جل جلالك وتعالى. وانهل جودك وتوالى وجرى رزقك حلالا. وتعاليت في دنوك. وتقربت في علوك. فلا يدركك وهم. ولا يحيط بك فهم. وتنزهت في أحديتك عن بداية. وتعاظمت في إلهيتك عن نهاية. أنت الواحد لا من عدد. والباقي بعد الأبد. لك خضع من ركع كما ذل لك من سجد. قل هو الله أحد. الله الصمد لم يلد ولم

يولد ولم يكن له كفؤا أحد. اللهم كيف يحيط بك علم خلقته أم كيف يدركك بصر أنت شققته. أم كيف يدنو منك فكر أنت وفقته. أم كيف يشكرك لسان أنت أنطقته. إذا تلمحت البصائر عادت بنور سلطانك كليلة. وإذا تجمعت عظائم الجرائم كانت في جنب غفرانك قليلة. سبقت السبق فأنت الأول. وخلقت الخلق فعليك المعول... عجبا لقلوب كيف استمرت على الأنس بسواك. ولأرواح كيف شكرت من لا يقدر على شيء لولاك. ولأكف جمعت وقد استقرضتها هلا جادت بذاك. كيف يناجيك في الصلوات، من يعصيك في الخلوات. أم كيف يدعوك للمهمات من ينساك للشهوات ؟

إلهي! كيف ختمت الألسن بالليل وقد قلت هل من سائل؟ وكيف كفت الأكف وسبيل الجود سائل؟ وكيف سها عن خطابك من لاتعظه الوسائل وكيف يبيع ما يبقى بما يفنى وإنما هي أيام قلائل.

يا روح القلوب أين طلابك ؟ ويارب الأرباب أين أحبابك ؟ يانور السموات والأرض أين قصادك ؟ يامسبب الأسباب أين عباك ؟ من الذي عاملك بلبه فلم يربح ؟ ومن الذي جاءك بكربه فلم يفرح ؟ أي صدر صدر عن بابك الكريم فلم يشرح؟ من الذي لاذ بجنابك العلى فاشتهى أن يبرح ؟ وآه لقلوب مالت إلى غيرك ماذا أرادت ؟ ولنفوس تحب الراحة هلا طلبت منك واستفادت. ولعزائم سعت إلى مرضاتك من ذا الذي ردها فعادت. هل تنقصت أموال اقترضتها وحقك بل زادت.

يامن بيده القلوب أصلح قلوبنا. ويامن قلت في حلمه الذنوب أغفر ذنوبنا. ويامصلح الأسرار صف أسرارنا. ويامزيح الأكدار عف أكدارنا. قد أتيناك طالبين فلا تردنا خائبين. وجئناك تائبين فاجعلنا برضاك آمنين. وحضرنا ببابك سائلين. فلا تجعلنا الى غيرك مائلين. واصلح كل قلب منا قسا فعسى أن يلين. واسلك بنا منهاج المتقين والبسنا خلع الإيمان واليقين. وحصنا بدروع الصدق فإنهن يقين. ولا تجعلنا ممن يعاهد على التوبة فيكذب ويمين. وانقلنا من أهل الشمال الى أهل اليمين، يا أرحم الراحمين وصلى الله على سيدنا محمد إمام المرسلين وعلى آله وصحبه الطاهرين».

ونختم هذا الدعاء المبارك بدعاء آخر اعتاد أسلافنا أن يرددوه كلما ذكر اسم مدينة سبتة فنقول معهم : سبتة أعادها الله دار السلام وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

تطوان **محمد عزيمان**

ابن أبي الربيع السبتي
إمام أهل النحو في زمانه

د. محمد حجي

ولد أبو الحسين عبيد الله بن أحمد ابن أبي الربيع القرشي (1) باشبيلية في نهاية القرن الهجري السادس، وبها درس النحو على طبقة عالية من نحاة الأندلس، أمثال الأستاذ أبي عمر محمد بن أحمد التميمي،

1) ترجم لأبي الحسين بن أبي الربيع :
- ابن قنفذ (أحمد)، شرف الطالب، ألف سنة من الوفيات : ص. 80.
- ابن الجزري (محمد)، غاية النهاية، 1 : 484 - 485.
- الانصاري السبتي (محمد بن القاسم) اختصار الاخبار، عما كان بثغر سبتة من سني الآثار، نشره الأستاذ محمد بن تاويت بمجلة تطوان، العدد 3 - 4، ص 77.
- السيوطي (جلال الدين)، بغية الوعاة، 2 : 125، رقم الترجمة 1606 (وقد اختلط الأمر على الشيخ خير الدين الزركلي في الاعلام فجعل رقم ترجمة ابن أبي الربيع في بغية الوعاة هو 319، وهذه ترجمة إشبيلي آخر من أسرة ابن أبي الربيع انتقل إلى الشرق وتبع الأستاذ الاهواني في البرنامج الشيخ الزركلي في هذا الخلط). =

والأستاذ أبي الحسين علي بن جابر المعروف بالدباج، والإمام أبي علي عمر بن محمد المعروف بالشلوبين، وهو عمدته في النحو عموما **وكتاب سيبويه** خصوصا. وتصدر ابن أبي الربيع لتدريس النحو وهو ما يزال غلاما يافعا بأمر من شيخه الإمام الشلوبين الذي كان يبعث إليه بصفار الطلبة، حتى استد ساعده واستقامت طريقته. ولما مات الإمام الشلوبين خلفه أنجب تلاميذه أبو الحسين بن أبي الربيع في كراسيه النحوية بالجامع الأعظم بإشبيلية، فأشرأبت إليه الاعناق، واكتظت حلقات دروسه النحوية العالية بالشادين من نحاة الطلبة، إلى أن حم القضاء وسقطت إشبيلية في يد المسيحيين (5 شعبان 646هـ/23 نونبر 1248)، فنزح عنها ابن أبي الربيع - في جملة من نزح من العلماء - إلى مدينة سبتة.

وصلة أبي الحسين بن أبي الربيع بمدينة سبتة صلة قديمة وثيقة ترجع إلى عهد الطلب، فقد أخذ عن إمامها الشهير أبي العباس العزفي (2). ومن حسن حظ علماء إشبيلية أن كانت أيام نكبتهم دولة الأمراء

= - ابن القاضي (أحمد) **درة الحجال**، 3 : 70 - 72 رقم الترجمة 990.
- بروكمان (كارل)، **الذيل**، 1 : 547.
- الزركلي (خير الدين) **الاعلام**، 4 : 344.
- الاهواني (عبد العزيز) **كتب برامج العلماء في الأندلس**، ص 22 وما بعدها.

2) حلاه ابن أبي الربيع في **برنامجه** (ص. 41 - 42) بقوله : «العالم العامل العلم الأوحد، الورع الفاضل الضابط الناقد المسند، بقية المحدثين أبو العباس أحمد بن محمد... العزفي السبتي» وبعد أن ذكر من روى عنهم الشيخ العزفي وأجازوه - وهم كثير من علماء المغرب والمشرق - قال إن مولده في السابع عشر من رمضان عام 557، ووفاته في رمضان عام 633.

العزفيين العلماء الكرماء قائمة مزدهره بسبتة وطنجة. فآوى الكثير منهم، وفي جملتهم أبو الحسين بن أبي الربيع، إلى ربوة ذات قرار ومعين، في حمى الأمير العالم أبي القاسم العزفي، ونال ابن أبي الربيع حظوة خاصة عند هذا الأمير وبنيه، وعاش في كنفهم مكفي المؤونة متفرغا للتدريس والتأليف.

«وكان الذي أعانني على إكماله وتتميمه ـ يقول ابن أبي الربيع في مقدمة كتابه **البسيط** ـ الذي اتفق الأنام على فضله وتقديمه، فخر الزمان، المذكور بكل مكان، المشكور على كل لسان، الذي عمت فضائله، وانتشرت في الورى فواضله، الأفضل الأمجد، والسيد الأوحد، أهل الفضل والوفا، الفقيه الأكمل أبو الوفا، ابن السيد الأمجد، الملك الأنجد، الفقيه الأوحد، الأسنى الأفضل أبو القاسم محمد، ابن الإمام العلامة المحدث الراوية أبو العباس أحمد، ابن الفقيه الخطيب، الأكمل الحسيب، أبو عبد الله محمد اللخمي ثم العزفي أدام الله مجدهم، وأبقى سعدهم، وخلد ملكهم...»

«ولم أكن لأتخلص لهذا المرام ـ يقول ابن أبي الربيع أيضا في مقدمة" كتابه **الكافي في الإفصاح** ـ ولا أحدث نفسي بالتفرغ لهذا المقام، لما غشيني من صروف الأيام، ودهمني من مقاساة الأنام، لولا جلة الفقهاء، السادة العظماء، الصفوة الكرماء، ذوو الرأي الحازم، والعز القائم، والإحسان الدائم، السيد الأسنى أبو حاتم، وشقيقه شقيق الكرم والوفاء،

وحليف الفضل والنعماء، السيد الأوفى، أبو الوفا، وصنوه حائز شرف المناقب، السامي في المجد سمو النجم الثاقب، السيد الأسنى أبو طالب، بنو الإمام الأوحد، العالم الأمجد، السيد الأرشد، فخر الزمان، المقدم بكل مكان، المشكور على كل لسان، المتورع في أفعاله، المبرز في فعاله، الفقيه العالم المحدث الأكمل أبو القاسم محمد بن الإمام العلامة المحدث الراوية المنفوذ إليه من كل مكان في حياته، الباقي ذكره ما بقي الزمان بعد وفاته، الفقيه العالم السيد أبو العباس أحمد، ابن الفقيه الخطيب، الأكمل الحسيب، أبو عبد الله محمد اللخمي ثم العزفي، أدام الله مجدهم، وأبقى بمنه وكرمه سعدهم...»

ثقافة ابن أبي الربيع

اشتهر أبو الحسين بن أبي الربيع بالتبريز والإمامة في النحو، ومع ذلك كانت ثقافته متنوعة متينة على نموذج ثقافة عصره التي تغلب عليها المشاركة في مختلف العلوم النقلية والعقلية، بحيث لم يقل تحصيله لعلوم القرآن والحديث والفقه والأصول والفرائض عن تحصيله في النحو واللغة والأدب، بل نجده يحلى في بعض الكتب بإمام الفرضيين، وترجمه ابن الجزري في طبقات القراء.

وذكر ابن أبي الربيع في برنامجه (3) أنه درس أربعين كتابا سماها من أمهات هذه العلوم فضلا عن أبعاض كتب أخرى لم يذكر أسماءها. قرأها على اثني عشر شيخا من شيوخ اشبيلية وسبتة وفاس، أجازوه إجازات عامة بأسانيد متصلة بمؤلفي تلك الكتب. ولم تقتصر دراسة ابن أبي الربيع للكتب المذكورة على مجرد الفهم، بل كان يحفظ بعضها عن ظهر قلب ويعرضه على شيوخه كما يعرض عليهم سور القرآن. ومن جملة محفوظاته ، **فصيح ثعلب، وإصلاح المنطق لابن السكيب، والحماسة الأعلمية،** (4) **وأشعار الستة** بترتيب الاعلم الشنتمري أيضا. **وأدب الكتاب لابن قتيبة.**

وقرأ أبو الحسين ابن أبي الربيع وحمل، في جملة ما قرأ وحمل، من الأمهات ، **كتاب سيبويه،** أخذه عن الإمامين أبي الحسن اللخمي

---

3) برنامج ابن أبي الربيع أو فهرسه، كتبه تلميذه أبو القاسم ابن الشاط السبتي، وقد قدم لهذا البرنامج وحققه ونشره الأستاذ عبد العزيز الأهواني بمجلة معهد المخطوطات العربية، المجلد الأول، الجزء الأول والثاني، سنة 1955.

4) علق الأستاذ عبد العزيز الأهواني على **الحماسة الأعلمية** (كتب برامج العلماء، ص 30، هامش 3) بما يشعر أن هذه الحماسة إنما هي حماسة أبي تمام، وأن نسبتها إلى لأعلم الشنتمري تجوز وتسامح، قال : «رتب الأعلم الشنتمري ديوان الحماسة حسب القوافي وشرحه شرحا وافيا حتى نسب اليه فقيل الحماسة الاعلمية» مع أنه نقل بعد ذلك من مقدمة إيضاح المنهج ما يفيد بصريح العبارة أن حماسة أبي تمام أصبحت في ذلك العصر مطرحة الاستعمال، حين أخنت هذه الحماسة الأعلمية عليها، باستمالة النفوس إليها... والكل يعلم أن حماسة أبي تمام ليست سوى مجموعة مختارة من الاشعار العربية القديمة، وما أكثرها ! وأن الشاعر أبا العباس الجراوي المراكشي وضع هو أيضا حماسة مغربية على نموذج الحماستين المشرقية والأندلسية، سماها صفوة الأدب وديوان العرب.

المعروف بالدباج، وأبي علي الازدي المعروف بالشلوبين، وحمله عنهما بسند متصل بأبي العباس المبرد، عن أبي عثمان المازني، عن أبي الحسن الأخفش، عن المؤلف سيبويه.

وقرأ كتاب **الايضاح** لأبي علي الفارسي على الاماميين أبي القاسم ابن بقي بن مخلد، وأبي علي الشلوبين، ورواه عنهما بسند متصل بالقاضي أبي بكر بن العربي، عن أبي الفوارس شجاع الذهلي، عن أبي الحسين هلال ابن الحسن، عن المؤلف أبي على الفارسي.

وقرأ كتاب **الجمل** لأبي القاسم الزجاجي، عن الامامين محمد ابن خلفون الاونبي، وأبي علي الشلوبين، وحمله عنهما بسند متصل بأبي الحسن الانطاكي، عن المؤلف أبي القاسم الزجاجي.

٥ ٥ ٥

تآليف ابن أبي الربيع وأسلوبه فيهـــا

عرفنا أبا الحسين بن أبي الربيع عالما مشاركا في مختلف العلوم الشرعية واللسانية والأدبية. إلا أن ما ألفه من كتب يؤكد ما اشتهر به من التخصص في النحو، وليست تآليفه إلا تسجيلا حيا أمينا للدروس التي ظل يلقيها على طلبة إشبيلية وسبتة طوال زهاء سبعين سنة. كما سنرى عندما نتحدث عن أسلوب هذا الشيخ الكبير. ولقد ذكر بروكلمان أسماء أربعة كتب على أنها كل ما وصل إلينا من تآليف أبي الحسين بن أبي الربيع ـ حسبما بلغ إليه علمه ـ وهي **البرنامج** الذي كتبه تلميذه أبو

القاسم ابن الشاط. **والمختصر** في النحو المخطوط بالاسكوريال، (4م) **والقوانين النحوية** المخطوط بالقرويين. **وشرح الايضاح** المخطوط بالقرويين أيضا. وفات بروكلمان من تآليف ابن أبي الربيع التي أبقى عليها الدهر كتابه **البسيط**، وهو شرح الجمل للزجاجي المخطوط بالخزانة العامة بالرباط. **وتفسير القرآن الكريم** المخطوط أيضا بالخزانة العامة بالرباط. ولم يصل إلينا - للأسف - أهم كتاب ألفه ابن أبي الربيع وهو **شرحه لكتاب سيبويه**، إذ بذكره سارت الركبان في حياة المؤلف وبعد وفاته، ونال إعجاب نحاة المشرق والمغرب على السواء.

هناك ملاحظات عامة عن مؤلفات أبي الحسين بن أبي الربيع وأسلوبه نذكرها قبل أن نأتي بفقرات من كل واحد من مؤلفاته التي اطلعنا عليها. عمدنا لإثباتها هنا لكونها ما تزال كلها مخطوطة وبحالة يتعذر على عامة القراء الانتفاع بها.

أولا : أن مؤلفات ابن أبي الربيع في مجملها ضخمة، يبلغ بعضها عشرة أجزاء مثل **البسيط** في شرح جمل الزجاجي، ويقدر بعضها بما

4م) وقف الأستاذ محمد ابراهيم الكتاني على السفر الثاني من الملخص في الاسكوريال، رقم 110 وكتب عنه في كناشته أنه يبتدىء من باب الجر، وفي آخره : انتهى السفر الثاني وبكماله كمل جميع الكتاب، كتبه في حياة المؤلف محمد بن عباد ابن حيان القرشي المخزومي في الخامس من رمضان عام 683، وبه 119 ورقة، وعليه تملك ابراهيم بن عبد الجبار الفكيكي، وعبد الرحمان اليعقوبي.

ينيف عن ثلاثين جزءا مثل **تفسير القرآن الكريم**، في حين لا يوجد منها أو بالاحرى لم نطلع منها إلا على أجزاء قليلة مبعثرة هنا وهناك، ولا شك أن المكتبات العامة والخاصة في الشرق والغرب تحتوي على سائر الأجزاء تامة أو ناقصة أو مكررة، منسوبة إليه أو غير منسوبة. ومن السهل على من يوفقه الله للبحث عن بقايا آثار ابن أبي الربيع وجمع شتاتها أن يكتشفها ويميزها عن غيرها متى عرف أسلوب هذا الرجل وتمرس بطريقته في العرض والشرح والتمثيل.

ثانيا : أن مؤلفات أبي الحسين بن أبي الربيع تصطبغ بصبغة مؤلفات عصر الانحطاط، إذ هي في معظمها شروح لكتب قديمة. لكن من قرأها وأمعن النظر فيها وجدها أقرب إلى مؤلفات عصر الاصالة في القرون الأولى منها إلى كتب المتأخرين. ذلك أن ابن أبي الربيع لا يتقيد في شروحه بألفاظ المتن يؤولها ويوضحها ويمثل لها كما يفعل جمهرة الشراح، وإنما يتخذ المتن كأساس وتصميم لما يكتب، فتراه يبدأ الباب بمقدمة تعطي فكرة عامة عن الموضوع، وترسم خطوطه العريضة - كما يقال - ثم يشرع في أخذ عبارات المتن واحدة واحدة، سائرا في عرضه حسب التصميم المرسوم، مفصلا القول في الجزئيات تفصيلا متناسقا، لا تشعر معه بلفظ المتن إلا عندما يأتي المؤلف بعبارة «قوله...» دونما تقطع في التعبير أو تعثر في السياق. على أن لابن أبي الربيع كتبا مستقلة قائمة بذاتها، مثل **القوانين النحوية**، **وتفسير القرآن الكريم**.

ثالثا : أن أهم ما يمتاز به أسلوب ابن أبي الربيع لهو الوضوح والسلاسة والعفوية، فلا تعقيد ولا غموض ولا سجع ولا تورية - في غير المقدمة - ولا ما يحتاج إلى شرح أو تعليق أو رجوع إلى مصادر أخرى، بل إن أسلوبه وهو يكتب أسلوب من يتكلم ويخاطب الطلبة ويحاورهم ليرفع عن أذهانهم كل لبس. إن الخبرة المتواضعة التي لنا بطرق التدريس دلتنا على أن أبا الحسين بن أبي الربيع كان حقا مدرسا موهوبا، يعرف بحكم إحساسه المرهف وتجربته الواسعة، طرق التدريس الناجعة، ويراعي - عمليا - المبادىء التربوية التي اهتدى إليها بعده ابن خلدون في المقدمة، ويطبق - عفويا - النظريات التعليمية الأساسية لتحصيل المعرفة وتكوين الملكة على نحو ما توصل إليه المربون الغربيون المحدثون. ولا أدل على ذلك من أنه بإمكانك اليوم، وقد مضى على وفاة ابن أبي الربيع أكثر من سبعة قرون، أن تأخذ فصلا أى فصل من أي كتاب من كتب ابن أبي الربيع وتلقيه على طلبتك في التعليم العالي دون أن تزيد فيه أو تنقص أو تضيف مثالا أو تغير عبارة، ويكون درسك ناجحا مشوقا مفهوما تمام الفهم.

وكأني بأبي الحسين بن أبي الربيع - رحمه الله - لم يقنعه ذلك العمر الطويل الذي قضاه في التعليم، منقبضا عن الناس مباعدا أهل الدنيا، فأبى إلا أن يسجل على طروس كتبه دروسا جاهزة نافعة لكل من يقرؤها من الأساتذة والطلبة في كل عصر ومصر، عملا بالحديث

الشريف : **إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له.**

ولنلق الآن نظرة سريعة على ما وقفنا عليه من كتب أبي الحسين ابن أبي الربيع :

البسيط في شرح الجمل الكبيرة للزجاجي (5).

تعني كلمة البسيط هنا : المبسوط، أي المطول. ذلك أن ابن أبي الربيع وضع شروحا مختلفة في الطول والقصر على **جمل الزجاجي** أثناء تدريسه لهذا الكتاب الذي يعتقد النحاة بركته وانتفاع الطلبة به (6)، **ثم رأى أن يجمعها كلها في شرح واحد مبسوط** «يضم ما فيها، ويجمع معانيها ويستوفيها، ولم أمر بلفظ مطلق إلا قيدته، ولا ناقص إلا كملته، ولا مغلق إلا شرحته، ولا اعتراض إلا أزلته، ولا شاهد إلا أوضحته، ولا بيت إلا نسبته، على حسب علمي، ومنتهى فهمي، وسميته **البسيط**، وتجافيت فيه عن الافراط والتفريط...» (7).

---

5) ذكر السيوطي في بغية الوعاة أن هذا الشرح يقع في عشرة أجزاء، لم نقف إلا على الجزء الأول منه مخطوطا في الخزانة العامة بالرباط، رقم 206 ق منتسخا عام 735هـ وذكر المرحوم محمد العابد الفاسي أن في خزانة القرويين بفاس نسخة ثانية مخطوطة من هذا الجزء منتسخة عام 724، مسجلة تحت رقم 100، لكننا لم نعثر عليها هناك لا تحت هذا الرقم ولا غيره.

6) ذكر حاجي خليفة في كشف الظنون (1 : 603 من طبعة اصطمبول 1941) أن الجمل من الكتب المباركة، لم يشتغل به أحد إلا انتفع به، ويقال إنه - الزجاجي - ألفه بمكة المكرمة كان إذا فرغ من باب طاف أسبوعا ودعا الله سبحانه وتعالى أن يغفر له وينفع به قارئه.

7) من مقدمة مخطوط البسيط.

واشتمل الجزء الأول من **البسيط** على ستة وعشرين بابا. أولها أقسام الكلام، وآخرها الصفة المشبهة باسم الفاعل. وجاء في التقديم الذي كتبه ابن أبي الربيع لهذا الباب الأخير :

((اعلم أن الصفة على أربعة أقسام :

أحدها اسم الفاعل واسم المفعول، وقد مضى الكلام فيهما. ويجرى مجراهما جموعهما وتثنيتهما، وأمثلة المبالغة، وقد مضى الكلام في هذا كله بما حضر لي.

الثاني الصفة المشبهة باسم الفاعل، وهي كل صفة تثنى وتجمع وتذكر وتؤنث، وذلك نحو حسن وكريم وما أشبههما.

وهذه تنقسم إلى ثلاثة أقسام :

أحدها ما يجمع جمع سلامة وجمع تكسير.

الثاني ما يجمع جمع تكسير ولا يجمع جمع سلامة.

الثالث ما يجمع جمع سلامة ولا يجمع جمع تكسير.

فالأول نحو حسن وكريم، تقول مررت برجال حسان وحسنين.

والثاني ما كان نحو أحمر وأشقر وما أشبههما، تقول برجال حمر ولا تقول أحمرين، وكذلك تقول مررت برجال شقر ولا تقول برجال أشقرين.

ومن هذا سكران وما أشبهه. وهو كل ما كان على فعلان ومؤنثه فعلى، فإنه لا يجمع بالواو والنون. فلا تقول مررت برجال سكرانين، وإنما يجمع سكران على سكارى ويجمع أيضا فعلان على فعال، وهو الأكثر فيه. قالوا عطشان وعطاش، ولا تجد فيه جمعا بالواو والنون، فإن كان المؤنث بالتاء نحو رجل سيفان وامرأة سيفانة جمع المذكر بالواو والنون، والمؤنث بالألف والتاء، فقالوا مررت برجال سيفانين ونساء سيفانات. والسيفان الطويل الممشوق. وهذا وما أشبهه هو القسم الثالث.

فما جمع من هذه الصفات بالواو والنون أقوى في العمل مما جمع جمع تكسير لا غير. لأن جمع التكسير لا يكون في الأفعال. وإذا جمع بالواو والنون فقد أشبه الفعل من جهة اللفظ. ألا ترى أنك إذا قلت حسنون فهو بمنزلة يضربون في اللفظ. وإن كان الواو في الفعل مخالفة للواو في الإسم على ما يتبين في باب التثنية والجمع. فإذا قلت مررت برجل حسن أبوه، فهو أقوى من قولك مررت برجل أحمر وجهه. وإن كانا جائزين، وكل واحد منهما عمل بالحمل على اسم الفاعل على ما يتبين.

الثالث أفعل إذا كان بمن، نحو مررت برجل أحسن من عمرو، ومررت برجل أحسن من الزيدين وما أشبه ذلك...)).

ـ **الكافي في الإفصاح، عن مسائل الإيضاح، إيضاح أبي علي الفارسي** (8).

ألف أبو علي الفارسي ـ كما هو معلوم ـ كتاب **الايضاح** لأحد تلاميذه من أمراء بني بويه ليقرب إليه مسائل **كتاب سيبويه**، ومن ثم أقبل عليه الطلبة وعولوا عليه ((لاختصاره وبراعة تصنيفه ونظمه، وقربه للحفظ وتيسير بسطه وفهمه، وكثرة فوائده وتثقيف مسائله مع صغر حجمه، لأن مؤلفه مال فيه إلى الرمز والتنكيت، وتجافى عن الاطالة والتشتيت، فعلا بذلك قدره، وانتشر عند أئمة الصنعة ذكره، فمالت الخواطر اليه، واتخذ سلما للتوصل لفهم نكت سيبويه...)) (9).

ومما جاء في باب الأشياء التي تذكر وتؤنث بوسط السفر الثاني :

((**الهدى** يذكر ويؤنث، قال الله تعالى : **قل ان هدى الله هو**

---

8) لم نر من حدد عدد أسفار **الكافي في الافصاح** ممن ترجموا لابن أبي الربيع، الا ما ورد في وثيقة التحبيس المكتوبة على وجه الورقة الأولى من الجزء الثاني لهذا الكتاب المحفوظ في خزانة القرويين بفاس أنه يقع في أربعة أسفار. وربما اختلفت تجزئة **الكافي** باختلاف النسخ، وأمكن تلفيق نسخة كاملة من المخطوطات التالية :
ـ الجزآن الأول والثاني بخزانة القرويين بفاس، رقم 513، بخط مغربي أندلسي دقيق مشكول جميل أصابهما بعض التلاشي بالأرضة.
ـ الجزء الثاني بالخزانة الملكية بالرباط رقم 5298 بخط أندلسي جميل، وفيه تلاش أيضا بالأرضة.
وفي الزاوية الحمزاوية بجبل آيت عياش أجزاء أربعة من مخطوطات هذا الكتاب، وميكروفيلماتها محفوظة بالخزانة العامة بالرباط : الجزء الأول (ورقاته 177) والجزء الثاني (ورقاته 179) رقمهما 17، ورقم الميكرو فيلم 18، والجزء الثالث (ورقاته 83) والجزء الرابع (ورقاته 156) رقمهما 41، ورقم الميكرو فيلم 43.

9) من مقدمة الجزء الأول بخزانة القرويين بفاس.

الهدى. فهذا يدل على التذكير. وهو المشهور في الهدى، وهو مصدر هديته في الدين. قال الله سبحانه **أواجد على النار هدى.**

ثم قال **والمتن** يذكر ويؤنث. **يعقوب** (10) ، والمتن مذكر وقد يؤنث. فيدل هذا على أن التذكير هو الأكثر. ثم أنشد لامرىء القيس دليلا على التذكير :

اليد سابحة والرجل ضارحة   والعين قادحة والمتن ملحوب (11)

قوله ملحوب يدل على التذكير. إذ لو كانت مؤنثة لقال ملحوبة.

ولقائل أن يقول ليس في هذا البيت دليل على التذكير، لأنه يمكن أن يقول إنما قال ملحوب لأن الشاعر اضطر. ويكون بمنزلة : ولا أرض أبقل إبقالها. وهو سهل. والأول أظهر.

وقوله سابحة يريد بذلك سرعتها كما قال :

إذا ما السابحات على الونى.

يريد بذلك السريعات من الخيل. وقوله ضارحة يقال ضرحت الدابة برجلها. ومعنى قادحة بصيرة. وقوله ضارحة وقادحة وسابحة يدل على تأنيث اليد والرجل والعين.

---

10) يريد ابن السكيت صاحب إصلاح المنطق.

11) في لسان العرب :

فالعين قادحة والرجل ضارحة   والقصب مضطمر والمتن ملحوب

ومما يدل على تأنيث اليد والرجل قول عنتره.

ويمنعهن أن يأكلن منه حياة يد ورجل تركضان

وقال تركضان بالتاء. ولو كانا مذكرين أو أحدهما مذكرا لقال يركضان بالياء، لأن المذكر يغلب في الضمائر إذا اجتمعا.

ثم قال ومن التأنيث قوله :

ومتنان خظاتـــــان كزحلوف من الهضـــــــب

الهضب جمع هضبة. ومعنى خظاتان : كثيرتا اللحم. والتاء تدل على التأنيث والزحلوف والأحلوف : من لعب الصبيان.

ثم قال : **القفا.** قال الأصمعي : هي مؤنثة وأنكر التذكير. وقال أبو زيد : تذكر وتؤنث، والقفا مذكر وقد تؤنث... فظاهر هذا أن الغالب عليه التذكير. والأصمعي قال لا تكون مذكرة. فعلى هذا الصواب ما قال أبو زيد تذكر وتؤنث ليس أحدهما أكثر من الآخر. وأنشد الفراء على التأنيث :

وما المولى وإن عرضت قفاه بأحمل للمحامد من حماري

ثم قال : **والعنق** تذكر وتؤنث عن أبي زيد. قال الأصمعي : لا أعرف فيه التأنيث. يعقوب والعنق مؤنثة وقد تذكر...

ثم قال **والسلم** تذكر وتؤنث.

وأنشد. في التأنيث :

السلم تأخذ منها مارضيت به والحرب يكفيك من أنفاسها جرع

والأشهر في السلم على هذا التأنيث لأنها لغة القرآن. قال الله تعالى : **وإن جنحوا للسلم فاجنح لها**، وهي الأكثر في كلام العرب.

ثم قال **درع الحديد** تذكر وتؤنث. ثعلب : ودرع الحديد مؤنثة، ودرع المرأة مذكر. **يعقوب** : **وهي** درع الحديد، **والجمع القليل أدرع** وأدراع. فإذا كثرت فهي الدروع. ودرع (12) المرأة لقميصها. والجمع أدراع. قال النابغة :

فهم درعي التي استلأمت فيها إلى يوم النشار وهم مجن

فالغالب عليها التأنيث، وتصغر بغير تاء، وهي مما شذ من الثلاثي المؤنث في التصغير. ثم أنشد قول أوس دليلا على التذكير :

وأملس صوليا كنهي قوارة أحس بقاع نفح ريح فأجعلا

أراد درعا أملس. فلو كان مؤنثا لقال ملساء. وهذا ليس بدليل قاطع على التذكير لأنه يمكن أن يريد : وملبوسا أملس صوليا. يريد بذلك الدرع. كما تقول رأيت اليوم شخصا حسنا وأنت تريد جارية. ثم تحذف الموصوف وتقيم الصفة مقامه. فتقول رأيت حسنا أى شخصا حسنا. والله أعلم. إلا أن المشتهر ما ذكره. والنهي : الغدير. والعرب تشبه الدروع بالغدران. وقوله أحس بقاع نفح ريح تتميم للتشبيه. وهذا التتميم هو الذى أراد الآخر في قوله :

---

12) في اصلاح المنطق ص 359 : ((وهو درع المرأة لقميصها)).

تنسجه الصبا. والله أعلم. ثم أنشد دليلا على التأنيث لزهير :

ومفاضة كالنهي تنسجه الصبا بيضاء كفت فضلها بمهند

الكلام في هذا كالكلام في الأول.

وقول النابغة فهم درعي التي، أدل على التأنيث من هذا، والله أعلم.

وقوله تنسجه الصبا في موضع الحال من النهي. والعامل في الحال التشبيه كأنه قال تشبه النهي في حال أن الصبا تنسجه من أجل الطرق التي تحدث في الماء بالرياح.

وقوله : كفت فضلها بمهند، يريد به قبض. يقال كفت الشيء وكفته إذا قبضه. والكفت : صرف الشيء عن وجهه.

ثم قال : **السوق** تذكر وتؤنث، والتأنيث أكثر. يعقوب : والسوق مؤنثة وقد تذكر. قال الشاعر :

بسوق كثير ريحه وأعاصـــــره

ثم قال : **والصاع** يذكر ويؤنث : يعقوب : والصاع مذكر، وقد يؤنث.

والأكثر على هذا التذكير. الزنبري : الصاع والصواع والصوع : مكيال يأخذ أربعة أمداد».

٥ ٥ ٥

القوانيـــــن النحويـــــة (13)

لم يكتب ابن أبي الربيع مقدمة لهذا الكتاب. وإنما بدأه توا - بعد البسملة والصلاة على الرسول الكريم - بذكر الأحكام النحوية. على نحو مافعل سيبويه في **الكتاب**. وتتحد موضوعات **القوانين النحوية وكتاب سيبويه** أو تتقارب منذ البداية. لكن قارىء **القوانين** يجد في عبارات ابن أبي الربيع من الشرح وحسن السبك والعرض والاستشهاد والتمثيل ما لا يجده في **كتاب سيبويه،** الأمر الذى يشجعه على المضي في القراءة ولو لم تكن له تلك الملكة النحوية التي لا يستطيع بدونها قراءة **الكتاب** والاستفادة منه. **وهكذا نقرأ في أول القوانين :**

«الكلم جمع كلمة. وهي اللفظة الدالة على معنى. وهي تنقسم ثلاثة أقسام : اسم وفعل وحرف.

فالاسم ما جاز من جهة تصور معناه أن يسند ويسند إليه. وقد يوجد اسما ما رفضت العرب الإسناد اليه فلا يخرجه ذلك على أن يكون اسما. لأنك إذا نظرت إلى حقيقته وجدتها لا تضاد الإسناد إليها. ألا ترى

---

13) وقفنا على نسختين من القوانين النحوية :

- الأولى مخطوطة خزانة القرويين رقم 512، وتقع في جزء ضخم من الحجم الكبير، بخط مغربي مجوهر ملون، بها نقص في الأخير، إذ تنتهي أثناء باب الادغام.
- والثانية مخطوطة الزاوية الحمزاوية بجبل ايت عياش، رقم 15، المصورة على الميكرو فيلم بالخزانة العامة بالرباط، رقم 16، وبها بتر كذلك في الأخير، وتنتهي أيضا أثناء الادغام. وقد عنونت هذه المخطوطة - خطأ - بكتاب الملخص، وظن واضع العنوان - خطأ كذلك - الملخص شرح لكتاب الإيضاح.

أن سبحان من قوله سبحان الله لم تسند اليه العرب ولم تستعمله إلا مصدرا منصوبا بفعل لا يظهر. وإذا نظرت اليه وجدت معناه معنى براءة. فكما يصح الإسناد إلى براءة يصح الإسناد إلى سبحان. وللاسم خواص يعرف بها. منها الألف واللام. والتنوين. والتثنية. والجمع. ودخول حرف الجر. والتصغير. وغير ذلك مما يذكر في أبوابه.

وأما الفعل فما يقتضي من جهة وضعه أن يسند الى غيره ولا يسند غيره إليه. وإن جاء فعل قد أسند اليه في اللفظ فهو بالحقيقة مسند إلى الاسم. ألا ترى أن قول العرب تسمع بالمعيدي خير من أن تراه. كذلك: فخير في اللفظ مسند إلى تسمع. وهو في الحقيقة إلى السماع. وكان قياسه : أن تسمع بالمعيدي خير من أن تراه. كما قال تعالى : **وأن تصوموا خير لكم**. ثم إن العرب حذفت أن لأنه مثل،والعرب تضع الأمثال على التغيير كثيرا. ومتى حذفت أن ارتفع الفعل. هذا هو القياس، إلا في مواضع يأتي بيانها في بابها إن شاء الله.

وأما الحرف فكل ما جاء لمعنى في غيره ولا يمكن من جهة وضعه أن يسند ولا يسند إليه. ويأتي الحرف لمعنى في الاسم. ومعنى في الفعل. ورابطا بين اسمين. ورابطا بين فعلين. وبين اسم وفعل. ورابطا بين جملتين:...».

تفسير القرآن الكريـــــم (14)

ليس في الجزء الأول من هذا الكتاب مقدمة كذلك، وإنما يبتدىء بإعراب بسم الله الرحمن الرحيم ففاتحة الكتاب. ويؤكد هذا التفسير تخصص أبي الحسين بن أبي الربيع في قواعد اللغة، إذ كله نحو وإعراب، باستثناء قليل من الشرح اللغوى. وهكذا نجد في أوله :

« بسم الله الرحمن الرحيـــم.

ذهب البصريون إلى أن التقدير : ابتدائي باسم الله، فهو عندهم خبر مبتدإ محذوف وذهب الكوفيون إلى أنه في تقدير أبدأ باسم الله. والفعل الذى لا يصل إلا بحرف يضعف حذفه وقد جاء لكنه قليل، وأما جعل المجرور خبر مبتدإ محدوف فكثير.

وجاء بعض المتأخرين وذهب إلى أنه يجوز أن يكون المجرور متعلقا بفعل تدل عليه الحال، تقديره : أقرأ بهذا، وأكتب بهذا مستعينا به، ويحذف الفعل لدلالة الحال عليه. وهذا لا يصح، لأن الحال لا تدل على الفعل حتى يصل بنفسه، لا تقول : بزيد، تريد : مر بزيد، وإن كان معك من الحال ما يدل على ذلك، وتقول لمن أشال صوطا أو شهر سيفا : زيدا، على معنى اضرب زيدا، فالحال لا تدل على الفعل حتى

---

14) لم نطلع من هذا التفسير الا على الجزء الأول مخطوطا بالخزانة العامة بالرباط، رقم 315ق، حجمه متوسط، وبه نقص في الأخير يمنع من التعرف على اسم الناسخ وتاريخ النسخ.

أنظر محمد العابد الفاسي، **قائمة نوادر المخطوطات**، ص 12.

يكون الفعل يصل بنفسه. لأن حذف الفعل الواصل بحرف الجر قليل. لأنه ليس بقوة ما يصل بنفسه. ولا يتصرفون في الضعيف تصرفهم في القوي من الإضمار والإظهار...».

وينتهي الجزء الأول من التفسير بالآية 128 من سورة البقرة : **ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك.** وربما كان النقص الحاصل في آخر هذا الجزء هو تتمة الحزب الثاني. وبذلك قدرنا أن يكون عدد أجزاء تفسير ابن أبي الربيع ثلاثين. حزبان في كل جزء.

تلاميذ ابن أبي الربيـــــع

تكاثر عدد الآخذين عن أبي الحسين بن أبي الربيع من الأندلسين والمغاربة. خاصة في مادة النحو والأمهات التي شرحها. وناهيك برجل قضى عمره الطويل في التدريس «معانا على علمه بما جبل عليه من الانقباض عن الناس. ومباعدة أهل الدنيا. وقلة العيال وشغل البال. منعكفا على التدريس والتعليم حتى أتاه اليقين» (15).

ولنجتزىء بذكر ثلاثة من تلاميذ أبي الحسين بن أبي الربيع السبتيين. بلغوا درجة علمية عالية. وطارت شهرتهم كل مطار بما خلفوا من تآليف قيمة. وهم :

15) ابن الزبير. صلة الصلة (مخطوط القاهرة) بنقل الأستاذ عبد العزيز الاهوائي. كتب برامج العلماء، ص 24.

ـ أبو القاسم ابن الشاط الأنصاري السبتي (المتوفي عام 723) **مؤلف** كتاب **الإشراف على الشرف**، وشارح **أنوار البروق** للقرافي. ومحرر **برنامج** شيخه أبي الحسين ابن أبي الربيع **قائلا فيه** : «شيخنا الشيخ الجليل الفقيه المقرىء الإمام العالم العلم الأوحد. الفاضل الأورع الاتقى الازكى الاكمل. قدوة النحاة. وأسوة الفراض. أبو الحسين عبيد الله بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن عبيد الله بن أبي الربيع القرشي الأموي العثماني ـ أبقى الله بركته ـ أعلم من لقيناه. وأعظم من روينا عنه العلم ولقناه. وأجل من نظم بين يديه اجتماعنا. وعظم بما لديه انتفاعنا» (16).

ـ وعبد المهيمن الحضرمي السبتي (المتوفي عام 749) العالم الكبير. والأديب الشاعر. رئيس كتاب بلاط العزفيين أمراء سبتة. وبني الأحمر ملوك غرناطة. والمرينيين ملوك فاس وشمال افريقيا. وما زال النحو هجيراه كشيخه ابن أبي الربيع حتى قال فيه ابن الأحمر في **نثير الجمان** : «وأما كتاب سيبويه فكان بمسائله عارفا. وعلى إقرائه بطول عمره مداوما وعاكفا. ولم يكن له في المعرفة به قرين. ولقد تصدر لاقرائه وهو ابن عشرين».

ـ وأبو عبد الله بن رشيد الفهري السبتي (المتوفي عام 721) المؤلف المكثر. صاحب **ملء العيبة** التي جمع فيها أخبار رحلتيه إلى

---

16) مقدمة **البرنامج**، ص 36.

الشرق وما أخذه عن المشايخ، وهو شيء كثير، وفيها يقول عن شيخه ا بن أبي الربيع مرددا ما وجد له من صدى واسع في المشرق :

«لما وصلت إلى مصر ذهبت إلى مسجدها الأعظم فجلست إلى حلقة من حلق العلم، فوجدت الشيخ يتكلم في علم العربية فأخذت معهم بطرف مما كانوا يتكلمون فيه، فالتفت إلي الشيخ فقال : من آين قدومك ؟ قلت من الغرب. قال أمن الأسكندرية ؟ قلت من أبعد. قال أمن تونس ؟ قلت من أبعد. قال : إذن من جو المغرب، يعني من داخله. قلت نعم. قال : من أي بلاده ؟ فقلت من سبتة. فكان أول ما فاتحني به أن قال : أيعيش سيدنا أبو الحسين بن الربيع ؟ قلت نعم، فقال : ذاك شيخنا إفادة بوصول كتابه إلينا أو بوفادته علينا أو معنى هذا، يريد شرحه لكتاب إيضاح الفارسي المسمى بالكافي في الإفصاح. ثم قال لي : أقرأت عليه ؟ قلت نعم. قال وما قرأت عليه ؟ فقلت : ما يقرأ طلاب العلم والعربية. فاستفسرني فقلت : قرأت الجمل، والإيضاح، والكتاب فلما ذكرت الكتاب قال : اعبر إلى جانبي، فامتنعت، فعزم علي وأقعدني إلى جانبه، فجلست منضما حياء منه. فقال : اجلس متسعا، فجلست وتمادى على الإقراء، فاختلست الكلام أثناء إقباله على من بين يديه من التلاميذ للإلقاء عليهم مع الذي كان عن يميني اختلاسا، وقلت : من الشيخ ؟ فقال بهاء الدين ا بن النحاس، فالتفت الشيخ وقد وثبت بين يديه، فقال : لم ؟ ارجع الى موضعك. فقلت له يا مولانا لم يعرف المملوك بين يدي من

هو. ولو علم ما جلس هذا المجلس ولا تكلم، فعزم علي في العودة إلى مجلسي فقعدت، وأشار بالاطمئنان فأطمأننت... (17).

لقد دقق ابن رشيد في تحديد تاريخ هذا الحادث الذي جرى يوم الأحد سابع رجب عام 684، وحق لابن النحاس أن يسأل عما إذا كان ابن أبي الربيع ما يزال حيا يرزق، لأنه كان يومئذ في منتصف العقد التاسع من عمره، وسيموت بعد ذلك بأربع سنوات.

أما ابن النحاس فهو إمام نحاة المشرق في عصره، شارح **المقرب** لابن عصفور، وتلميذ ابن يعيش شارح **المفصل** للزمخشري. وقد صدق ابن رشيد في صفات هذا الإمام وإنصافه وسعة خلقه وعنايته بالطلبة. إذ نجد مثل ذلك عند الصفدي في الترجمة الحافلة التي عقدها لابن النحاس في كتابه **الوافي بالوفيات**.

وتوفي أبو الحسين بن أبي الربيع بمدينة سبتة صبيحة يوم الجمعة 16 صفر عام 688، ودفن عصر هذا اليوم بالمقبرة الكبرى التي بسفح جبل الميناء شرقي المدينة.

وعسى أن تكون هذه الإشارة الخاطفة حافزا لبعض الشبان الباحثين على دراسة هذه الشخصية العلمية الفذة وإحياء تراثها المجيد المفيد.

الربـاط **د. محمد حجـي**

---

17) نقلته من كناشة الأستاذ محمد ابراهيم الكتاني أخذا من أحد أجزاء رحلة ابن رشيد المخطوطة بالاسكوريال.

بين ابن خميس وسبتة

د. عبدالله الطيب

قال ابن خميس (1)

تركت لمينا سبتة كل نجعة   كما تركت للعز أهضامها شمــخ

أى تركت سبتة بالبناء للمجهول في عجز البيت وللمعلوم في صدره ومنخفضاتها شامخات بسبب مالها من العز والمجد.

وآليت ألا أرتوي غير مائها   ولو حل لي في غيره المن والمــذخ

---

1) نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب للمقري، القاهرة 1369 هـ = 1949م ج 7 ص 293 وللعزبعين بعد اللام الثانية وزيادة الميم تحريف ناسخ أو طابع. وترجمة ابن خميس وأخباره في الجزء السابع من ص 277 إلى 299 (القسم الثاني، الباب الثالث من نفح الطيب ج 7).

المن هو الذي أطعمه الله عز وجل موسى عليه السلام وبني اسرائيل مع السلوى والمذخ نوع من عسل الفواكه والأزهار. والمعنى ينظر إلى قول المعري في بغداد والمعرة :

وماء بلادي كان أنجع مشربا   ولو أن ماء الكرخ صهباء جريال

وقوله :

ألا زودوني شربة ولو انني   قدرت إذن أفنيت دجلة بالجرع

وقوله :

سقيا لدجلة والدنيا مفرقة   حتى يعود اجتماع النجم تشتيتا
وبعدها لا أريد الشرب من نهر   كأنما أنا من أصحاب طالوتا

ثم يقول ابن خميس :

وألا أحط الدهر إلا بعقرها   ولو بوأتني دار إمرتها بلخ

وبلخ هذه جلبتها القافية :

فكم نقعت من غلة تلكم الأضى   وكم أبرأت من علة تلكم اللبخ

الأضى بفتح الهمزة والضاد جمع أضاة وهي الغدير ولك كسر الهمزة من الأضى فتصير الإضا وهي مقصور الإضاء. جمع آخر. واللبخ جمع لبيخة وهي وعاء المسك بضم اللام وسكون الباء ههنا وهو في مدح سبتة مياهها وأفاويه طيبها كما لا يخفى :

وحسبي منها عدلها واعتدالها   وأبحرها العظمى وأريافها النفخ

بضم النون وفاء ساكنة أي الممتلئة خصبا وشبابا :

وأملاكها الصيد المقاولة الألى لعزهم تعنى الطراخمة البلــخ

الطراخمة المتكبرون غضبا ومحمية. البلخ بضم فسكون جمع أبلخ وهو العزيز. ثم أخذ في مدح العزفيين ومجدهم ورعايتهم للآداب :

كواكب هدي في سماء رياسة تضيء فما يدجو ضلال ولا بطخو

أي لا يكون للضلال دجى ظلام ولاطخا زيغ أي سحاب زيغ :

وروضات آداب إذا ما تأرجت تضاءل في أفناء أفيائها الرمــخ

بكسر الراء وسكون الميم وتأمل الجناس الخطي في أفناء وأفياء وهو صوتي أيضا.

مجامرند في حدائق نرجس تنم ولا لفح يصيب ولا دخ

أى لا لفح نار ولا دخان دخ أي دخان بفتح الدال وضمها :

وأبحر علم لا حياض رواية فيكثر منها النضح أو يعظم النضخ

النضح بالحاء المهملة والنضخ بالخاء المعجمة متقاربتا المعنى والنضخ أشد قال تعالى : «فيهما عينان نضاختان» (سورة الرحمن).

بنى العزفيين الألى من صدورهم وأيديهم تملا القراطيس والطرخ

بفتح الطاء وسكون الراء جمع طرخة أى الحوض الذي يستقى به أي هم علماء وعندهم الجود للمجتدين والعفاة :

إذا ما فتى منهم تصدى لغاية تأخر من ينحو وأقصر من ينخــو

وهذا البيت كأنما تنبأ به عن بعض حاله، إذ قد تصدى له من أهل سبتة فتى من أحدثهم سنا وجبهه بمسائل من النحو. قال المقري في سياق ترجمته لا بن خميس : (2) «وقال الشاطبي أيضا ما صورته : حدثنا الأستاذ الشهير أبو عبد الله محمد بن الفخار شيخنا رحمه الله تعالى قال حدثني بسبتة بعض المذاكرين أن ابن خميس لما ورد عليها بقصد الإقراء بها اجتمع إليه عيون طلبتها فألقوا عليه مسائل من غوامض الاشتغال، فحاد عن الجواب عنها بأن قال لهم أنتم عندي كرجل واحد، يعني أن ما ألقوا عليه من المسائل إنما تلقوها من رجل واحد وهو ابن أبي الربيع، فكأنه إنما يخاطب رجلا واحدا ازدراء بهم؛ فاستقبله أصغر القوم سنا وعلما بأن قال له : إن كنت بالمكان الذي تزعم فأجبني عن هذه المسائل من باب معرفة علامات الإعراب، التي أذكرها لك، فإن أجبت بالصواب لم تحظ بذلك في نفوسنا لصغرها بالنظر إلى تعاميك عن الإدراك والتحصيل، وإن أخطأت فيها لم يسعك هذا البلد وهي عشرة، الأولى أنتم يازيدون تغزون والثانية أنتن ياهندات تغزون والثالثة أنتم يازيدون وياهندات تغزون والرابعة أنتن ياهندات تخشين والخامسة أنت ياهند تخشين والسادسة أنت ياهند ترمين والسابعة أنتن ياهندات ترمين والثامنة أنتن ياهندات تمحون أو تمحين كيف تقول أنت ؟ والتاسعة أنت ياهند تمحين أو تمحون كيف تقول والعاشرة أنتما تمحوان أو تمحيان

---

2) نفسه 7 ـ 277 ـ 278.

كيف تقول ؟ وهل هذه الأفعال كلها مبنية أو معربة أو بعضها مبني وبعضها معرب وهل هي كلها على وزن واحد أو على أوزان مختلفة ؟ علينا السؤال وعليك التمييز لنعلم الجواب. فبهت الشيخ وشغل المحل بأن قال إنما يسأل عن هذا صغار الولدان. قال له الفتى فأنت دونهم إن لم تجب فانزعج الشيخ وقال هذا سوء أدب ونهض منصرفا ولم يصبح إلا بمالقة متوجها إلى غرناطة حرسها الله تعالى ولم يزل مع الوزير ابن الحكيم إلى أن مات رحمة الله تعالى عليه. انتهى».

ليت شعري مادعا الطلبة إلى تحدي ابن خميس واستقباله من طريقة السؤال بما يكره ؟ لماذا قال له الفتى : «إن كنت بالمكان الذي تزعم فأجبني» ؟ ما المكان الذي كان يزعمه ابن خميس لنفسه ؟ أهو قوله :

لأفواه أعدائي وأعين حسدي ... إذا جليت خائيتي الغض والفضخ
دعوها تهادى في ملاءة حسنها ... ففي نفسها من مدح أملاكها مدخ
يمانية زارت يمانين فانثنت ... وقد جدفيها الزهو واستحكم الزمخ

فالشعراء مما يفخرون بقصائدهم وذلك لهم طريق مطروق ؟

قوله الغض والفضخ أي تغض أبصارهم انكسارا وتفقأ فقئا. الفضخ بفتح فسكون كالفقء وزنا ومعنى والمدخ بالدال المهملة والخاء المعجمة ووزن المدح أي استشعار العظمة والزهو والزمخ بزاي مفتوحة وميم ساكنة أي التكبر أي دعوا قصيدتي الخائية تتهادى في ملاءة حسنها

كالغادة الجميلة لأنها قد امتلأت زهوا واستشعرت العظمة بسبب مدحها لكم وقد جد فيها الزهو واستحكمت الكبرياء.

على أن ابن خميس قد غلا في الذي صنعه من نظم نيف وثمانين بيتا على روي الخاء المعجمة فهذا أمر يدل على مقدرة وتحد عظيم ورب مثله أثار الغيرة والحسد وقد فطن ابن الخطيب إلى هذا المعنى في الذي نقله المقري عنه من قوله عن ابن خميس في ترجمته له : «كان طبقة الوقت في الشعر وفحل الأوان، أقدر الناس على اجتلاب الغريب. ا.هـ» (3). أول قصيدة ابن خميس : (4) -

تلمسان لو أن الزمان بها يسخــو ... منى النفس لادار السلام ولاالكرخ
وداري بها الأولى التيحيل دونها ... مثار الأسى لو أمكن الحنق اللبخ
وعهدي بها والعمر في عنفوانــه ... وماء شبابي لا أجين ولا مطــخ
قرارة تهيام ومغنى صبابــــة ... ومعهد أنس لا يلوذ به لطــــخ
إذ الدهر مثني العنان منهنــــه ... ولا ردع يثني من عناني ولا ردخ
ليالي لا أصغي إلى عذل عاذل ... كأن وقوع العذل في أذني صمـخ
معاهد أنس عطلت فكأنهـــا ... ظواهر ألفاظ تعمدها النســـخ
وأربع آلاف عفا بعض ايهـــا ... كما كان يعرو بعض ألواحنااللطخ
فمن يك سكرانا من الوجد مرة ... فإني منه طول دهرى لملتـــخ

3) نفـــه 7 - ص 280.
4) نفـــه 7 من 290 والى 295 تجد القصيدة الخائية كلها.

ومن يقتدح زندا لموقد جـــذوة فزند اشتياقي لا عفار ولا مـرخ
أأنسى وقوفي لاهيا في عراصهـا ولا شغل لي إلا التودع والسبـــخ
وإلا اختيالي ماشيا في سماطهـا رخيا كما يمشي بطرته الـرخ

تلمسان بلد الشاعر بكسرتين فسكون. دار السلام بغداد والكرخ موضع منها. شاطىء دجلتها الشرقي. الحنق بالتحريك شدة الغيظ واللبخ بفتح فسكون الضرب الشديد وأراد الشاعر معنى قول صخر أخي الخنساء:

أهم بأمر الحزم لو أستطيعه وقد حيل بين العير والنـــزوان

أي لو استطعت لشفيت نفسي من الشوق بالسفر إلى وطني ولا أستطيع كذي الغيظ الذي لا يقدر على ضرب ما يغيظه ضربا شديدا يشتفى به ـ المطخ بفتح الميم وسكون الطاء بقية الطين في الحوض أي ماء شبابي لا متغير ولا متكدر. لا يلوذ به لطخ بفتح فسكون أي مما يعيبه. وفي الكتاب المطبوع «لا يلذ» ولا يضح معناه به وهو تصحيف بلا ريب. ولا ردخ بفتح فسكون ويجوز أن يكون قد سكن فتحة الدال وعليه فمعناها الوحل. أي كالفرس المنطلق لا يردعه رادع من لجام أو وحل. أو الدال ساكنة أصلا والردخ دون الكسر أو هو بمعنى المنع. كأن وقوع العذل في أذني صمخ بفتح فسكون أي ضرب على الصماخ وصماخ الأذن بكسر الصاد ثقبها وقد يطلق الصماخ على الأذن؛ تقول سكران ملتخ بتشديد الخاء المعجمة ـ لموقد جذوة أي لإيقاد جذوة. موقد بضم

الميم مصدر ميمى من أوقد الرباعي وجذوة مثلثة الجيم والعفار والمرخ معروفان بنارهما قالوا في كل عود نار واستمجد المرخ والعفار. التودع بتشديد الدال مضمومة أي الفراغ والسبخ قريب منه بفتح فسكون والرخ طائر جميل وهي قافية متصيدة تصيدا ههنا وقوله كما كان يعرو بعض ألواحنا اللطخ لا يخلو من ظرف وفكاهة.

ومضى ابن خميس في معاني الحنين وذكرى عيشه الطيب بتلمسان :

كأني فيها أرد شير بن بابك ولا ملك لي إلا الشبيبة والشـــرخ

ودلنا بهذا أن خروجه من تلمسان إنما كان بعد انقضاء الشباب. ثم أخذ يذم ما ألم به وبقومه من ظروف الجور مما جر إلى تفريق الشمل :

سعيتم بني عمور في شت شملنا فما تجركم ربح ولا عيشنا ربـخ
فكم فتنة فينا ظفرتم بنيلهـــا بأبشارها من حجن أظفاركم بـرخ

ثم صار بعد أبيات من الذم والشكو والتعريض كل قوافيهن من وعر الكلام إلى ما قدمنا من ذكر سبتة ثم مدح ولاتها العزفيين. قوله ولا عيشنا ربخ ربخ بكسر فسكون أى لين رخيم من الربيخ أى المسترخي والفعل كفرح وأنكر صاحب القاموس على الجوهري قوله المسترخي من الرجال بالجيم والمادة تحتمله وقوله بأبشارنا من حجن أظفاركم برخ أي جرح وتمزيق، برخ باء مفتوحة وراء ساكنة بعدها خاء معجمة وتأمل المجانسة في ظفرتم وأظفاركم.

هذا وقد حذا ابن خميس في خائيته من حيث قصده إلى الرنين الجزل والتصنيع المحكم حذو المعري في طائيته التي مطلعها :

لمن جيرة سيموا النوال فلم ينطوا   يظللهم ما ظل ينبة الخط

أي تظلهم الرماح. وقد جارى هذه الطائية الشاعر الأندلسي الكبير ابن زيدون في كلمته التي أولها :

شحطنا وما بالدار نأي ولا شحط   وشط بمن نهوى المزار وما شطوا

وعنى ولادة بنت المستكفى كما لا يخفى. وقد اعتمد ابن خميس في قوافيه على حفظه من اللغة ونظره في كتبها وفي ما جاء على الخاء من الأراجيز.

وكلا المعري وابن زيدون أسلم في اختيارهما روي الطاء منه مذهبا حيث اختار روي الخاء المعجمة. ذلك لأن الطاء على عسر مركبها في القوافي قد سلمت منها كلمات جياد من الرجز والقصيد في الجاهلية والإسلام وعند المولدين كالمجمهرة التي منها البيت المشهور :

فحور قد لهوت بهن عين   نواعم في المروط وفي الرياط

وكلمة عبيد التي أولها : بان الخليط الألى شاقوك إذ شحطوا.

وجاراها البارودي بكلمة من رويها ووزنها فتأمل.

وكلتا طائيتى المعري وابن زيدون لا تخلوان من مواضع متكلفة وقواف مستكرهة ومع ذلك فيهما مواضع نفس صادق وإجادة كقول المعري مثلا :

خليلي لا يخفى انحساري عن الصبا　　　　فحلا إساري قد أضربي الربط

وما أحسب أنهما تعمدا الطاء وللمباهاة بمقدرتهما على الغريب، فكلاهما ممن أجمع معاصروه على التسليم له بسعة العلم وقوة الملكة وجودة الصنعة. وما أرى إلا أنهما عمدا إلى الطاء لأن معاناتها كانت مما يلائم ما كانا يحسانه من معاناة. هذا لإخفاقة أو شبه إخفاقه في رحلته الى بغداد وهذا لإخفاقه في علاقته مع ولادة وولاة قرطبة. وقد فصلنا بعض هذا المعنى في كلمة لنا أعدت لمهرجان ابن زيدون بعنوان «من غريب ابن زيدون» وطبعت بالرباط سنة 1975 م.

والخاء المعجمة من أشد الحروف إيغالا في الوحشية إذا جعلت رويا. وقال قدامة في نقد الشعر عند الحديث على عيوب اللفظ : «ومن الأعراب أيضا من شعره فظيع التوحيش مثل ما أنشدناه أحمد بن يحيى عن ابن الأعرابي لمحمد بن علقمة التميمي يقولها لرجل من كلب يقال له ابن الفنشخ ورد عليه فلم يسقه :

أفرخ أخا كلب وأفرخ أفرخ　　　　أخطأت وجه الحق في التطخطخ

أي أخرج فرخ الطمع من قلبك يا أخا كلب ولا يخطر ببالك أنك مستطيع أن تغرف من مائي بلا ثمن (كما سيجيء من بعد) وقد أخطأت الصواب في تطخطخك هذا أي تخبطك على غير هدى وأصله من تطخطخ الغيم أي تجمع طخاه أي قطع سحابه :

أما وربِّ الراقصات الزمـــخ يخرجن من بين الجبال الشمــخ

يزرن بيت الله عند المصــرخ لتمطخن برشاء ممطـــخ

ماء سوى مائي يا ابن الفنشــخ

الراقصات الإبل ترقص في الصحراء. الزمخ بتشديد الميم المفتوحة بعد الزاي المضمومة جمع زامخ وزامخة من نعت الإبل إذ في مشيتها عجرفية وكبرياء. الشمخ جمع شامخ وشامخة من صفة الجبال. المصرخ مكان الصراخ للدعاء واستغاثة المولى سبحانه وتعالى ومصدر ميمي. لتمطخن من مطخ (باب منع) أى ضرب بالدلو وجذبه. ممطخ كبير بكسر الميم الأولى وسكون الثانية نعت للرشاء بكسر الراء وهو الحبل أراد به حبل الدلو هنا. أي والله رب الإبل الحاملة الحجاج إلى البيت الحرام لتجذبن بحبلك الجذاب من بئر غير بئري ولتردن به ماء غير مائي. لتمطخن به ماء غير مائي يا فلان، واسمه ابن الفنشخ أو لتؤدين ثمن الماء.

أو لتجيئن بوشي بخ بخ

الوشى أراد به النقد وبخ بخ لفظة للتعظيم تسكن وتنون وتكسر الأولى هنا ساكنة الخاء والثانية مكسورتها:

من كيس ذى كيس وضأن منفــخ

منفخ يجوز أن تكون من صفة الكيس أو من صفة الضأن فإن كانت الميم مفتوحة والخاء مفتوحة وهذا أشبه بحركة أكثر الأبيات في الحرف

الذي قبل حرف الروي أي فيه نفخ أى فخر لصاحبه (مصدر ميمي) وإن كانت مضمومة والفاء مفتوحة فإنما يصح هذا على افتراض وجود فعل من نفخ رباعي بهمزة النقل أي ذى كيس منفوخ بكثرة ما فيه أو ضأن منفوخ سمنا وإن كانت الفاء مكسورة أى يجعل صاحبه ذا نفخ أي فخر ويجوز قياسا كسر الميم وفتح الفاء للمبالغة على أنه من صفة الكيس أو الضأن أي يجعل صاحبه ذا فخر أو هو منفوخ جدا كأنه نفخ نفسه سمنا وامتلاء والله أعلم :

قد ضمه حولين لم يسنـــخ

بتشديد النون مكسورة ويكون الفاعل صاحب الكيس أي ضمه حولين لم يطلب منه شيئا لحرصه وبخله أو بتشديد النون مفتوحة أي بالبناء للمجهول ونائب الفاعل ضمير يعود على الكيس أى لم يؤخذ منه شيء.

ضم الصماليخ صماخ الأصلـخ

ضم بالضاد المعجمة مفعول مطلق مبين للنوع عامله الفعل ضمه الذي تقدم. الصماليخ جمع صملاخ بكسر فسكون وهو ثقب الأذن الداخلي أو وسخها والأول أجود أن نفسر به ههنا وصماخ بكسر الصاد أي ثقب الأذن أو الأذن نفسها والأصلخ الأصم الشديد الصمم وصماخ مرفوعة فاعل المصدر المتقدم أي ضم هذا الرجل الحريص كيسه حولين لم يأخذ منه شيئا كما يضم صماخ الأصم الأصلخ صماليخه أي باطن أذنه فلا

يسمع، وههنا نوع من الكناية عن أن هذا الرجل إنما ينعق بضأنه ولا يسمع صوتا ممن يطلب منه شيئا لحرصه، ويجوز جعل صماخ الأصلخ مفعولا به للمصدر لأن صماليخ الأصم تضم ثقب أذنه أو على القلب. هذا وأحمد بن يحيى هو ثعلب وابن الأعرابي من شيوخ الكوفيين معروف.

وهذه الأشطار إنما أوردناها للتنبيه على شناعة الخاء المعجمة في القوافي، وقد كان قدامة بن جعفر رحمه الله جيد البصر بنقد الشعر يستشهد لما يذكره من المحاسن والمقابح بما يدل عليه دلالة واضحة، وفي اختياره هذه الأبيات مع ما نبه عليه من وحشيتها جانب تنبهه أيضا لما فيها من روح الفكاهة البدوية، إذ لا يخفى أن الراجز محمد بن علقمة التميمي قصد قصدا إلى أن يبني روي أشطاره على اسم ابن الفنشخ، وهذا الإسم لا يخلو من الدلالة على نوع من النبز نبز به ابن الفنشخ أو أبوه بأنه فنشخ أي افحج الساقين، وفي الخاء المعجمة ههنا ما يشعر بالزجر إذ يقال للأطفال كخ ومما يشهد بقصد التميمي إلى الخاء بهذا الروح البدوي الخشن المزاح الذي يخلط غلظه الزجر بضحك السخرية والتهكم قوله : «ضم الصماليخ صماخ الأصلخ» - تأمل تكرار الصاد والخاء والميم.

شناعة الخاء المعجمة في الروي وعسرها وطول النفس فيها كل ذلك مما عسى أن يكون ابن خميس رحمه الله قد غاظ به بعض كبار أدباء سبتة، وما أيسر ما يهيج حفائظ الأدباء ويثير نار الغبظ في

نفوسهم إذا حمشتهم نار الغيرة والمنافسة. هذا، ومن شواهد ما زعمناه من تأثر ابن خميس نهج المعري ونظره مع ذلك بلا ريب إلى طائية ابن زيدون - إذ هو أندلسي مشهور - قول في المطلع : -

تلمسان لوان الزمان بها يسخو　　　منى النفس لادار السلام ولا الكرخ

وقد كانت دار السلام وهى بغداد حاضرة الدنيا وغيرها كأنه بادية ولكنها في زمان ابن خميس كانت أثرا بعد عين إذ كان خرابها على أيدي هولاكو سنة 656 هـ وقدمات ابن خميس وهو ابن نيف وستين فمولده (5) كان في ما بين 639 هـ و647 هـ ويكون قد سمع بأمر عظمة بغداد في صباه، إلا أنه حين نظم الخائية بسبتة لم تكن دار السلام التي ذكر والكرخ إلا أعلاما رمزية كاللوى ورامة وذي سلم، وإنما أخذ من صياغة أبي العلاء حيث قال : -

وما أربي الا معرس معشر　　　هم الناس لا سوق العروس ولا الشط

فجعل ابن خميس دار السلام مكان سوق العروس والكرخ مكان الشط، وقول ابن زيدون : -

وفي الربرب الإنسي أحوى كناسه　　　نواحى ضميري لا الكثيب ولاالسقط

كالأخذ من بيت المعري المتقدم إلا أن نفس صدق الصبابة فيه غير خاف، وقول ابن خميس : -

---

5) ولد ابن خميس سنة 650 هـ كما رجح الأستاذ عبد الوهاب بن منصور وسيلى ذكر ذلك إن شاء الله من بعد فلينظر.

وداري بها الأولى التي حيل دونها مثار الأسى لو أمكن الحنق اللبخ

فيه كالأخذ من قول المعري :

وما ساربي الا الذي غر آدما وحواء حتى أدرك الشرف الهبط

أدرك جعل ا بن خميس في مكانها أمكن وفي مكان الشرف الحنق وفي مكان الهبط اللبخ ومحاكاة رنين المعري في ثلاثتهن واضحة جدا. وقال المعري :

إذا أنا عاليت القتود لرحلة فدون عليان القتادة والخرط

ومثل رنة قوله القتادة والخرط قول ا بن خميس الشبيبة والشرخ من بيته : -

كأني فيها أردشير بن بابك ولا ملك لي إلا الشبيبة والشرخ

ولا يخفى أن قوله «ولا ملك لى إلا» موازن لقول المعري «ودون عليان ل» وفيه نغم رنته : - وقريب في الرنة من هذا قوله : «ولا شغل إلا التودع والسبخ» إلا أن التودع ليس فيها حرف «من حروف اللين ولكن بعدها واو العطف كما في قول المعرى الذي مر وكما في قوله :

أخازن دار العلم كم من تنوفة أتت دوننا فيها العوازف واللغط

ويشبه ما تقدم قول ا بن خميس :

دعيتم إلى ما يرتجى من صلاحكم فردكم عنه التعجرف والجمخ

والجمخ بفتح فسكون أي الكبر والفخر وههنا في التعجرف فقدان حرف اللين كما في التودع وابن زيدون أحذق في محاكاة رنة المعري حيث قال ؛

بأبرح من شوقي إليكم ودون ما أدير المنى عنه القتادة والخرط

فجاء بقتادة المعري وخرطه فجمع مع الرنة حذق الإشارة إلى كلمة كليب وائل المعروفة ، «دون عليان خرط القتاد» وقوله ؛

يولونني عرض الكراهة والقلى وما دهرهم إلا النفاسة والغمط

وبحسبنا هذا القدر في التمثيل لأخذ ابن خميس الأسلوبي واقتدائه بنفس الجزالة مع الصنعة من طريقة المعري وابن زيدون.

في شعر ابن خميس - كما يبدو من اختيار المقري الذي اختاره له في نفح الطيب - محاسن تدل على ملكة ومقدرة وفحولة نفس مع حرص على اجتلاب الغريب كما تقدم ذكره من كلام ابن الخطيب. ولا تخلو كلمة من ذلك من روح مباراة ومجاراة وتأثر للفحول من الشعراء المولدين من قريب أو بعيد وقد أشار إلى مجاراته لمهيار في لامية له من السريع سلسة في جملتها أوردها المقري في نفح الطيب بتمامها مطلعها ، -

أرق عيني بارق من أثال كأنه في جنح ليلى ذبال

وآخر أبياتها قوله ،

مجاريا مهيار في قوله (ما كنت لولا طمعي في الخيال)

والرائية التي أولها :

نظرت إليك بمثل عيني جؤذر وتبسمت عن مثل سمطي جوهر

بحترية الروح والرنين وبعد هذا البيت :

عن ناصع كالدر أو كالبرق أو كالطلع أو كالأقحوان مؤشر

ومذهب البحتري هنا بين في تكرار أو مع كاف التشبيه. وتأمل قوله : -

لو عجت طرفك في حديقة خدهـا وأمنت سطوة صدغها المتنمـــر

لرتعت من ذاك الحمى في جنـــة وكرعت من ذاك اللمى في كوثر

واللامية التي ذكر صاحب نفح الطيب أنها من مشهور شعره : -

عجبا لها أيذوق طعم وصالها من ليس يأمل أن يمر ببالها

وأنا الفقير إلى تعلة ساعة منها وتمنعني زكاة جمالها

فهذا من قول أبى العلاء :

لغيري زكاة من جمال فإن تكن زكاة جمال فاعرفي ابن سبيل

الأولى مكسورة الجيم والثانية مفتوحتها وقوله : -

يسمو لها بدر الدجى متضائلا كتضاؤل الحسناء في أسمالها

مأخوذ من قول أبي تمام في مصرع الأفشين : -

كسيت سبائب لؤمه فتضاءلت كتضاؤل الحسناء في الأطمار

وتأمل نهج أبي تمام في مايلي : -

أنا من بقية معشر عركتهم   هذي النوى عرك الرحى بثغالها

يشير إلى قول زهير في المعلقة «فتعرككم عرك الرحى بثفالها» والإشارة من مذهب أبي تمام كثيرة في شعره : -

أكرم بها فئة أريق نجيعها   بغيا فراق العين حسن مآلها

تأمل «أريق» و«فراق»

حلت مدامة وصلها وحلت لهم   فإن اختشوا فبحلوها وحلالها

تأمل اللعب بحلت بتشديد اللام وحلت بتخفيفها ورد على ذلك «فبحلوها وحلالها» وما يتضمنه هذا من الإشارة إلى قول الهذلى : «فأنت الحلال الحلو والبارد العذب». ثم أخذ من بعد في مذهب من الإشارات شديد التأثر والاقتداء بطريقة أبي تمام : -

بلغت بهرمس غاية مانالها   أحد وناء لها لبعد منالها

تأمل المجانسة في (وناء لها) - (ما نالها) - (منالها).

وعدت على سقراط سورة كأسها   فهريق ما في الدن من جريالها
وسرت إلى فاراب منها نفحة   قدسية جاءت بنخبة آلها
ليصوغ من ألحانه في حانها   ما سوغ القسيس من أرمالها
وتغلغلت في سهر ورد فأسهرت   عينا يؤرقه طروق خيالها

هذا والمسائل التي استقبل الفتى بها ابن خميس إنما يسأل عنها الولدان كما قال رحمه الله. وفي ما نقله صاحب نفح الطيب عن أبي عبد الله محمد بن مرزوق في خبر ابن خميس، «ولم يجب بشيء قلت فلعله استسهل أمرها» (6) وفي عبارة ابن مرزوق ما يشعر بأن بعضها لا يخلو من إشكال. وأوضح عذر لابن خميس سوى ما تقدم من أنها مما يسأل عنه الولدان، أن هذه الأسئلة جيء بها على وجه التعجيز بحيث لو أصاب لم يحمدوه لأنها من مسائل الولدان ولو لم يصب لم تسعه البلد لما أظهره من العجز. وليس كل ما يسأل عنه الولدان بيسير ولكنه من باب الرياضة والتدريب والتعليم الملائم للحداثة فإذا مضى زمن الحداثة كان استقبال الكبير بمثله يجرى مجرى تعمد الإساءة إليه.

ومحل الإشكال في المسألتين التاسعة والعاشرة، ومنشؤه من جانبين أحدهما لغوي والآخر نحوي. أما اللغوى فهو هل الفعل محا واوي أو يائي والجواب أن فيه ثلاث لغات محاه يمحوه كيدعوه ويمحاه كيرضاه واوي ومحى يمحى كرمى يرمي يائي والجانب النحوي وعليه ظاهر السؤال يتعلق بالإسناد، إسناد يمحاه كيرضاه إلى ياء المخاطبة كإسناد يرضاه ويخشاه وما أشبه تقول أنت يا هند تمحين بفتح الحاء وسكون الياء بعد حذف ألف المعتل وإسناد يمحيه كيرميه تقول أنت يا هند تمحين بكسر

6) نفح الطيب 7 ـ ص 279 س 3/2 قال المقري (نفسه 280 س 3) وما قاله رحمه الله تعالى في الاعتذار عن ابن خميس هو اللائق بمقامه فإن مكان ابن خميس من العلوم غير منكر الخ.

الحاء بعدها الياء بعد حذف حرف العلة الذي هو لام الفعل وإسناد يمحوه كيدعوه تقول فيه أنت يا هند تمحين باشمام الحاء والاشمام أن تنحو بالضمة نحو الكسرة قال سيبويه في أخريات الكتاب في باب التضميف : «وأما تغزين ونحوها فالإشمام لازم لها ولنحوها لأنه ليس في كلامهم أن تقلب الواو في يفعل من غزوت ياء في تفعل واخواتها - انتهى». قلت وإنما ذكر سيبويه إخلاص الكسر في لام الفعل السالم لا الفعل الذي من باب يغزو ويدعو ويمحو وذلك قوله في أوائل الكتاب في باب مجاري أواخر الكلم : «وكذلك إذا ألحقت التأنيث في المخاطبة» إلى قوله «أنت تفعلين ولم تفعلي ولن تفعلي». انتهى. وكأن الناس شبهوا أمر الإشمام في (تغزين) بأمره في (بيع وقيل ورد المضعف) فرجحوا الكسر أو جعلوه غير لازم ونص سيبويه في اللزوم واضح مخالف لهذا كما ترى. ولقد أحسن ابن خميس بتجنبه الإجابة والخوض في هذه المسئلة ولعله لو أجاب بأن تمحين من تمحو مكسورة الحاء أن يجبهه السائل المتحدي وأعوانه بما ذكره سيبويه من وجوب الإشمام. ولعله لو أجاب بضرورة الاشمام في هذا الموضع اعتمادا على سيبويه أن يشغب عليه سائله بالمشهور من إخلاص الكسر سواء أكان خطئا أم له وجه من الصواب. فالذي صنعه ابن خميس من إيثار الانصراف مغضبا مكان الجواب عن هذه المسائل هو التصرف الحازم الحكيم بلا ريب. وقد اضطرب الذين أجابوا عن هذه المسائل العشر شيئا. وقول ابن مرزوق :

(7) «تمحين كتدعين اعرابا ووزنا وتصريفا» سكت فيه عن التصريح بوجوب الاشمام وربما تضمنه ولا يخلو من تهرب. هذا وهذه المسائل العشر بعد من شواهد احتدام جدل الدرس بسبتة على ذلك الزمان.

وقال المقري صاحب نفح الطيب نقلا عن ابن خاتمة يذكر خروج ابن خميس إلى الأندلس وإقامته بها حتى وفاته رحمه الله : «وقدم ابن خميس المرية سنة ست وسبعمائة فنزل بها في كنف القائد الحسن بن كماشة من خدام الوزير ابن الحكيم فوسع له في الإيثار والميرة وبسط له وجه الكرامة طلق الأسرة. وبها قال في مدح الوزير المذكور قصيدته التي أولها :

العشى تعيي والنوابـــغ   من شكر أنعمك السوابـــغ

ووجه بها إليه وهي طويلة منها :

ورسائع ابن كماشـــــة   مع كل بازغة وبـــــازغ
تأتى بما تهوى النفــــا   نغ من شهيات اللغالـــغ

ومنهـــا :

ما ذاق طعم بلاغــــة   من ليس للحوشى ماضــــغ

ويقال ان الوزير اقترح عليه أن ينظم قصيدة هائية. فابتدأ منها مطلعها، وهو قوله :

---

7) نفسه 279 ص 20.

لمن المنازل لا يجيب صداها محيت معالمها وصم صداهـا

وذلك في آخر شهر رمضان من سنة ثمان وسبعمائة. ثم لم يزد على ذلك إلى أن توفي رحمه الله تعالى. فكان آخر ما صدر عنه من الشعر وقد أشار معناه إلى منعاه وآذن أولاه بحضور أخراه. وكانت وفاته بحضرة غرناطة قتيلا ضحوة يوم الفطر مستهل شوال سنة ثمان وسبعمائة وهو ابن نيف وستين سنة. وذلك يوم مقتل مخدومه الوزير ابن الحكيم. أصابه قاتله بحقده على مخدومه. وكان آخر ما سمع منه (أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله) واستفاض من حال القاتل أنه هلك قبل أن يكمل سنة من حين قتله من فالج شديد أصابه. فكان يصيح ويستغيث ابن خميس يطلبني. ابن خميس يضربني. ابن خميس يقتلني. وما زال الأمر يشتد به حتى قضى نحبه على تلك الحال. نعوذ بالله من الورطات ومواقعات العثرات. انتهى ملخصا».

في الأبيات الغينية تصحيف وشرحها مختصرا كما يلي. العشى جمع الأعشى والنوابغ جمع النابغة الشاعر والرسائع بالمهملة حمائل السيف جمع رساعة أي سيوفه مع كل شمس بازغة وقمر بازغ تجيء بالغنائم الشهية المطاعم (اللغالغ) في الحلوق (النغانغ) والرسائغ بالمعجمة لعلها الحبال وفي تأويلها بعد. العشى في طبعة النفح العثى بالثاء المثلثة وعلى ذلك تعليق في الهامش صريح الدلالة على التصحيف. (8)

8) في هامش ص 282 رقم ا قال : في هامش ب ما نصه العشى تعيي هكذا في الأصل بالشين المعجمة ولعله بالثاء المثلثة جمع أعثى بمعنى أحمق. تامل.

ويشبه هذا التعليق شيئا تعليق آخر خطأ فيه المحقق ابن خميس في قوله :

وما زلت أدعو للخروج عليهم وقد يسمع العم الدعاء إذا أصخوا

فقد ضبطها أصخوا بفتح الخاء في التعليق يخطىء بذلك الشاعر وهذا لا يستقيم وإنما هى فعل مبني للمجهول بضم الهمزة وسكون الصاد المهملة وضم الخاء المعجمة أي جعلوا يصيخون إلى الدعاء (9). هذا وفي الهامش أيضا في التعليق على البيت «لمن المنازل إلخ» ما نصه (10) (في نسخة عند ب«وصم صفاها») وعندى أن هذا مما يدل على أن صواب نص البيت هو : ـ

لمن المنازل لا يجيب صفاها محيت معالمها وصم صداها

وهو مطلع طنان. وصداها في العجز والصدر كما في النص المطبوع الذى أوردناه من قبل إيطاء. وكان ابن خميس أطول باعا من أن يركب الإيطاء في تصريع المطلع.. «ولا يجيب صفاها» عندنا أرجح من «صم صفاها» التي في الهامش إذ لا يخفى أن الشاعر يشير إلى قول امرىء القيس :

صم صداها وعفا رسمهـــا واستعجمت عن منطق السائـــل

(9) في هامش 293 رقم 1 قال : أصل الماضي أصاخ فقلبه بتقديم اللام على العين فصار أصحى ومعناه استمع بقى أنه كان يجب فتح ماقبل واو الجماعة وفي الشعر كثير من التكلف والتقعر المزدول.

(10) ص 282 هامس 2.

فصم صداها التي في عجز البيت صحيحة بلا ريب ووقع التصحيف في الصدر والذي في الهامش تصحيف في العجز يدل على تصحيف الصدر كما تقدم. والصفا الحجارة وأراد أن حجارة الربع لا تجيب كقول لبيد :

فوقفت أسألها وكيف سؤالنا صما خوالد ما يبين كلامها

هذا وعند الفروغ من كتابة هذه السطور أطلعت على كتاب المنتخب النفيس من شعر أبي عبد الله بن خميس (11) فوجدته يذكر فيه أن مولد ابن خميس كان سنة 650 هـ قال : (12) «ولد بتلمسان في عام 650 كما في رحلة العبدري ويفهم من كلام ابن خاتمة في مزية المرية أنه ولد قبل ذلك بقليل». قلت فيكون عمره على هذا حين توفي دون الستين لانيفا وستين كما تقدم والله تعالى أعلم.

ويفهم مما ذكره صاحب المنتخب النفيس أن ابن خميس وفد على سبتة وقد جاوز عمره ثمانية وثلاثين على الأقل بدليل أن العبدري لقيه بتلمسان سنة 688 قال تحت عنوان (في سبتة) (13) بعد أن ذكر أن من أسباب هجرة ابن خميس إليها ما وقع في تلمسان من هم بعض خصومه

---

11) المنتخب النفيس من شعر أبي عبد الله بن خميس عمل عبد الوهاب بن منصور الطبعة الأولى 1365 هـ مطبعة ابن خلدون «تلمسان» دلني عليه وأعارنيه مشكورا الأستاذ الفاضل محمد عبد العزيز الدباغ.

12) نفسه ص 17 .

13) نفسه ص 24.

فيها بقتله : «ورد ابن خميس على سبتة بقصد الإقراء والإقامة وبين يديه قصيدة غريبة في موضوعها مدح فيها سبتة وأشاد بمائها وهوائها ورقتها واعتدالها ورواء بساتينها وحدائقها وجمال أبحرها وجبالها وآلى على نفسه ألا يرتوي من غير مائها وأن لا يحط رحله الا بمقرها. ا.هـ» ثم أورد المؤلف أبياتا من الخائية سبق الاستشهاد ببعضها. ثم قال من بعد (14) : «يريد بذلك كسب مودة أهلها وغنم عطفهم بعد أن رمته الأيام بالرزايا والمحن والبعد عن الأهل والوطن. ولكنه ألفى في هذه المدينة من مكر الماكرين وكيد الكائدين ما أقض مضجع غريب مثله وجعله يرتحل عنها سريعا لا يلوي على شيء، فقد أوعز ابن أبي الربيع إلى طلبة سبتة أن يلقوا على ابن خميس أسئلة يراد بها إعجازه». وساق الخبر بعد كما تقدم.

وفي ما انتخبه الأستاذ عبد الوهاب بن منصور في منتخبه النفيس حقا من كلمات ابن خميس جياد حسان نخص منها ههنا بالذكر حائيته (الحاء مهملة لا معجمة) (15) التي نظمها بالأندلس يتشوق إلى تلمسان. الحاء المهملة أخت الخاء المعجمة إلا أنها أخف وأعذب وألطف على السمع في القوافي وأذل مركبا ولا سيما ما كان منها مثل كلمة ذى الرمة التي يقول فيها : -

ذكرتك أن مرت بنا أم شادن   أمام المطايا تشرئب وتسنح

14) نفسه 29 ـ 30.

15) نفسه من ص 85 ـ الى ص 88.

وكلمة كثير التي يقول فيها : -

ولما قضينا من منى كل حاجة ومسح بالأركان من هو ماسح

وشتان ما بين حائية ابن خميس المهملة ذات الجرس الرفيق والروح الرقيق وخائيته المعجمة التي وفد بها على سبتة التى على جودتها ذات خشونة وغلظ وجنادل. ونورد الحائية ههنا كما جاء نصها في المنتخب النفيس مع تعليق منا موجز. إنصافا لهذا الشاعر البائس الذى فر من القتل وفي القتل وقع : -

تلمسان جادتك السحاب الدوالح وأرست بواديك الرياح للواقح
وسح على ساحات باب جيادها ملث يصافي تربها ويصافح
يطير فؤادى كلما لاح لامع وينهل دمعى كلما ناح صادح

السحاب الدوالح الثقال. باب جياد فسرها الأستاذ عبد الوهاب بن منصور في الهامش قال باب الجياد شهير بتلمسان. ملث بضم الميم وكسر اللام وثاء مشددة المطر الكثير الدائم.

ففى كل شفر من جفونى ماتح وفي كل شطر من فؤادي قادح

شفر العين بضم الشين وفتحها. الماتح أراد به الدمع تمتحه جفونه ببكائه من عينه.

فما الماء إلا ماتح من مدامعي وما النار إلا ماتجن الجوانح

تجن ثلاثى ورباعى بضم التاء وفتحها من جن الشىء وأجنه إذا ستره.

خليلى لاطيف لعلوة طـارق بليل ولا وجه لصبحي لائـح

إذ طيف علوة لو زار لصار به الليل صباحا وعلوة مما شبب به البحترى من أسمائهن.

نظرت فلا نور من الصبح ظاهر لعيني ولا نجم من الغرب جانح
بحقكما كفا الملام وسامحـا فما الخل كل الخل إلا المسامح
ولا تعذلاني واعذراني فقلمـا يرد عنانى عن علية ناصـح

عليه بضم العين وفتح اللام وتشديد الياء مصغر علوة للتمليح وتأمل المجانسة في (عناني عن علية) والتغنى بحرف العين من عند أول البيت :

كتمت هواها ثم برح بي الأسى وكيف أطيق الكتم والدمع فاضح

ثم أخذ في تعداد مواضع تلمسان مما يحن إليه ويشتاق فذكر ساقية الرومي وذكر الأستاذ عبد الوهاب بن منصور في هوامشه أنها قناة جميلة المنظر تعرف اليوم بساقية النصراني والعباد وذكر أنها ربض تلمسان الجنوبي الشرقي ومناظره من أبهج مناظر الشمال الإفريقي وتاج المعارف وهو الشيخ أبو مدين والوريط من متنزهات تلمسان الشهيرة به شلالات وبساتين وسوق البز وذكر في الهوامش أنه سوق القيسارية اليوم وقال : (16) «وربما كان الشاعر مستقرا بأحد فنادقه كما يستشف من بعض النصوص»

---

16) راجع هامش المنتخب النفيس 86 ـ 87 ـ 88.

لساقية الرومي عندي مزية وإن رغمت تلك الروابي الرواشح

أحسبه عنى روابي غرناطة إذ كأنه ههنا يفضل ساقية الرومي بتلمسان على ما ينحدر من جبال الشرف ذوات الثلج الدائم.

فكم لى عليها من غدو وروحة تساعدني فيها المنى والمنائح
فطرفي على تلك البساتين سارح وطرفي على تلك الميادين سابح

ذكر هنا سبب تفضيله ساقية الرومي على روابي غرناطة لأن هناك وطنه الذى كان يسرح فيه ويمرح. وقوله : «وان رغمت تلك الروابي» فيه اشعار باستحسان لها. ولله در أبي العلاء المعري إذ يقول :

وماء بلادي كان أنجع مشربا ولو أن ماء الكرخ صهباء جريال

فصرح بمدح بغداد في مدحه ماء دجلة. وتأمل في أبيات ابن خميس جودة الصنعة في مقاربة الجناس عند المنى والمنائح وعند قوله سارح وسابح وقد صرع كما ترى وجانس بين فطرفي بفتح الطاء المهملة يعني طرف العين وطرفي بكسرها يعنى الكريم من الخيل. ثم المعنى جيد إذ جعل الطرف يسرح ثم يمتلىء القلب مرحا ويندفع صاحب الطرف السارح على طرفه السابح وفي حركة نغم البيت واتصال معنى آخره بأوله تمثيل لحيوية الشباب ونشاطه :

تحاربها الأذهان وهي ثواقب وتهفو بها الأفكار وهي رواجح
ظباء مغانيها عواط عواطف وطير مجانيها شواد صوادح

وهنا قارب مذهب أبي تمام :

وتقتلهم فيها عيون نواظــــر وتبكيهم منها عيون نواضـــح
على قرية العباد مني تحيـــة كما فاح من مسك اللطيمة فائح

اللطيمة هنا العير التي تحمل الطيب ويجوز أن يقال وعاء الطيب غير أن الشاعر أراد التكثير كما ترى :

وجاد ثرى تاج المعارف ديمـة تغص بها تلك الربى والأباطح
إليك شعيب بن الحسين قلوبنا نوازع لكن الجسوم نـــوازح
سعيت فما قصرت عن نيل غاية فسعيك مشكور وتجرك رابـح

تجرك بفتح فسكون أى تجارتك.

وان أنس لا أنس الوريط ووقفة أنافح فيها روضه وأنـــاوح
مطلا على ذاك الغدير وقد بدت لإنسان عيني من صفاه صفائـح
أماؤك أم عيني عشية صدقـــت علية فينا ما يقول المكاشـــح

علية تصغير علوة كما مر والمكاشح العدو وعلية هنا كالرمز لوطنه ومالقيه من تنكر فيه مع حبه له وتعلقه البالغ به وتأمل الجناس في صفاه صفائح.

لئن كنت ملآنا بدمعي طافحـا فإني سكران بحبيك طافـــح

صرف سكران وملآن ضرورة وهو جائز في الشعر. حبيك أى حبي لك.

وإن كان مهري في تلاعك سائحا   فذاك غزالي في عبابك سابح
قراح غدا ينصب من فوق شاهق   بمثل حلاه تستحث القرائح

القراح الما. وهنا كما ترى، وصف للشلال في ما وصف من طبيعة تلمسان الجميلة وأن منظره مما تستحث به القرائح على نظم الشعر وليت شعرى أي الغزلان عنى بقوله فذاك غزالى في عبابك سابح ؟

أرق من الشوق الذي أنا كاتم   وأصفى من الدمع الذى أنا سامح

وهذا من محاسن ابن خميس في وصف الطبيعة من النوع البديعي الذي أطلق عليه أبو منصور الثعالبي في حديثه عن محاسن أبي الطيب اسم المدح الموجه تشبيها له بالثوب الموجه وهو الذى كلا وجهيه يروق، وقد ترى أنه وصف الشلال بالرقة وشبهه بشوقه إلى وطنه في رقته وبالدمع الذي يريقه حنينا إلى رؤيته في صفائه. فقد جمع معنيين كما ترى، معنى استحضار جمال منظر ذلك المكان وزمان تمتعه برؤية رقة مائه وصفاء روائه وهوائه ومعنى حاضر ما هو فيه من لوعة اشتياق وتتابع دمع مهراق.

أما وهوى من لا أسميه إنني   لعرضي كما قال النصيح لناصح
أبعد صيامي واعتكافي وخلوتي   يقال فلان ضيق الصدر بائح
لبعت رشادي فيه بالغي ضلة   وكم صالح مثلى غدا وهو طالح

والشكوى قريبة الصلة بما كان فيه من معنى الحنين، إذ ما أخرجه من داره إلا استشعار الحيف وطلب الأمن، وقد وجد نفسه يحف به الحساد وأهل الكيد حيث انتهى به المقام في الأندلس :

وأي مقام ليس لي فيه حاسد   وأي مقال ليس لى فيه قادح
ألا قل لفرسان البلاغة أسرجوا   فقد جاءكم مني المكافي المكافح

المكافي أي المماثل خفف الهمزة فتأتى له بذلك الجناس الناقص في المكافي المكافح.

أيخمل ذكري عندهم وهو نابه   ويغمط شجوي عندهم وهو شائح

أي وهو جاد صادق ولعل هذه القافية قلقة.

بدور إذا جن الظلام كوامل   وأسد إذا لاح الصباح كوالح

لأن الصباح وقت الغارة والحرب.

تركتك سوق البز لا عن تهاون   وكيف وظبيي سانح فيك سارح
وإني وقلبى في ولائك طامع   وناظر وهمى في سماطك طامح
أيا أهل ودي والمشير مؤمن   أتقضى ديوني أم غريمي فالح

ولعل فالح أيضا على أنها محتملة لا تخلو من ضعف. يأهل الوجه أن تكتب هكذا. مؤمن أراه بتشديد الميم الثانية مكسورة أو مفتوحة بمعنى مؤتمن من أمن بفتح فميم مشددة مفتوحة بمعنى أئتمن. كهدى بفتح فتشديد بمعنى اهتدى وباب فعل بفتح فتشديد أو كسر فتشديد بمعنى افتعل مطرد في العربية مقروء به في يونس ويس من القرآن

الكريم وفالح أي ماكر منتصر من الفلح بفتح فسكون والفلاحة بفتح الفاء. حرف يونس «كمن لا يهدي» وحرف يس «يخصمون».

وهل ذلك الظبى النصاحي للذي   يقطع من قلبي بعينيه ناصــح

النصاحي نسبة إلى النصاحات وهي جبال السراة بالجزيرة العربية. ناصح. الناصح هو الذي يخيط الثوب. وظبى ابن خميس سابح في عباب الشلال وسارح في سوق البز فتأمل. أي هل ذلك الظبي الجبلي النفور مصلح فخائط بيديه ما مزقه من نسج قلبي برشق عينيه ؟ النصاحى بكسر النون والنصاحات كذلك.

كنيت بها عنه حياء وحشمة   ووجه اعتذاري في التقية واضح

وإنما كنى عن وطنه وأمله في العودة إليه والأمن فيه وإصابة الرضا والقبول عند أهله وولاته ويجوز أنه كنى عن إنسان بعينه والله أعلم.

وبعد فلعل سبتة قد أحسنت إلى ابن خميس حين تنكرت له وتوحشت لحوشيه. فقد أفادته الغربة بالأندلس مع ما أصاب فيها لدى ابن الحكيم من جانب الرقة ولين العيش والإكرام رقة في التعبير ورونقا في الصناعة - ولعله لو قد استمر به المقام في سبتة لأتبع الخائية المعجمة ثائية مثلثة أو شينية معجمة أو ظائية معجمة... لا بل مما يقوى هذا الظن أن أول ما ورد به الأندلس غينيته المعجمة التي قال فيها :

ما ذاق طعم بلاغــــة   من ليس للحوشي ماضـــغ

وكأنه يعرض ههنا بالنفر الذين تحدوه بأنت يا هند تغزين وتمحين وأشباه ذلك أنهم لتنكرهم لخائيته المعجمة وحوشيها ليسوا حقا ممن يوصف بتذوق طعم البلاغة.

وقد أغرب في الغينية المعجمة فجاء فيها بالنغانغ واللغالغ كما رأيت.

أم ليت شعرى هل جنى على ابن خميس انصرافه مغضبا إلى مالقة والمرية وغرناطة أن أشرع إليه قاتله يوم مصرع الوزير ابن الحكيم رمح الإغتيال فأصماه وهو لما يبلغ الستين على الأرجح أو جاوزها بقليل ؟ «لكل أجل كتاب» هكذا قال الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز **«وكان أمر الله قدرا مقدورا»** - رحمه الله رحمة واسعة ولله الحمد أولا وأخيرا وصلى الله علي سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما...

فاس **د. عبد الله الطيب**

في رحاب سبتة

محمد الحلوي

لاحت رباها الخضر شاحبة الرؤى خلف الحدود
حسناء ترفل في السلاسل والغلائل والقيود ا
أجرى وراها في جنون وهي تمعن في صدودي
كالفجر طلعتها الوضيئة، في ابتسامات الورود.
قد قاومت كر الزمان كأنها بنت الخلود ا
وأبت روابيها الشوامخ أن تطأطىء للسجود.
شمخت بعزتها كما كانت على عهد الجدود
وقفت تراقب من بعيد زحف فتيتها الأسود

٥ + ٥

لاحت فكفكفت الدموع وتاه عقلي في شرود
هذى مضانينا التي خفقت بها حمر البنود
وتجاوبت أصداؤنا فيها كأصوات الرعود

وسقت جحافلنا رباها بالدماء وبالصديد
أبصرتها في الحزن غارقة وفي أسر القيود !
وسمعت أنتها الجريحة في الحنايا كالوقود
ورأيت فيها سادة بالأمس كانوا كالعبيد !
في ناطحات للسحاب على مدى الافق البعيد
يتفيأون ظلالها في نضرة العيش الرغيد
ورأيت إخوتنا هناك بيوتهم شبه اللحود !
غرباء ! في نظراتهم معنى السيادة والمسود !

٥ + ٥

ولقد وقفت على الديار فلم يطل فيها قعودي
لم تصبني فيها الحسان ولا انثنيت مع القدود
فطفقت أسألها سؤال متيم صب عميد
عصر الحنين فؤاده وبكى على ماضي العهود
ومتى استطاع الدمع تحطيم الحواجز والشدود ؟
ومتى تحررت الممالك بالأماني والوعود ؟
يا سبتتي ! رغم الأنوف ورغم عجرفة الحسود
ما أنت إلا درة في تاج مغربي العتيد
سرقتك في وضح النهار يد تطالب بالشهود !
ظنوا ابتلاعك لقمة ستساغ يوما بالجحود
ستعود جوهرتي التي سرقت إلى العقد النضيد

ويــذوب إصــرار الغــزاة بعزمنــا ذوب الجليــد
وتــردد الدنيــا لعــودة سبتتــي أحلــى قصيــد
وعناقنــا سيطــول فــي عــرس يظللنــا مديــد
نشــدو علــى ربواتــك الخضــراء قدســي النشيــد
ويرفــرف العلــم المخضــب فــي سمائــك مــن جديــد
قسمــا سيجمعنــا الزمــان ونلتقــي فــي يــوم عيــد !!

تطــوان محمد الحلوي

تحقيق إسم سبتي:

ابن بياع لا ابن زنباع (●)

د. محمد ابن شريفة

نص المؤرخون المتقدمون والمتأخرون من المغاربة، بحسرة مؤثرة ولوعة موجعة، على الإهمال الذي علق باعلام المغرب، والإجحاف الذي لحق بآثارهم.

●) كلمة كنت كتبتها في جملة جواب لم ينشر على تعليق للأستاذ الجليل السيد محمد بن تاويت منشور في دعوة الحق - ماي 75 - وأخص بها هذا العدد لصلتها بموضوعه، واندراجها في محوره وهي هدية متواضعة إلى أستاذنا العزيز بمناسبة هذا العدد الخاص بسبتة التي له أياد بيضاء في إبراز نصوص تتعلق بتاريخها.

ولعل من مظاهر هذا وذاك ما يتعلق باسم شاعر من كبار شعرائنا في القديم، نزدهي بعبقريته في الشعر، ونباهي بباعه في الأدب، وأعني به الشاعر المشهور با بن زنباع، الذي أصبح شعره ـ والحمد لله ـ يقرأ في المدارس والكليات المغربية بهذه الشهرة : ابن زنباع، وربما أطلقت هكذا على بعض المعاهد والشوارع، فهل هي شهرة مصححة يجوز التمادي عليها أم أنها محرفة ينبغي الرجوع فيها إلى الصواب ؟

وكما التبس الأمر في شهرة هذا الشّاعر التبس في نسبته، فقد نسب في عدد من المؤلفات إلى سبتة، ونمي في بعض المؤلفات الأخرى إلى طنجة.

فهل هو ابن زنباع أم ابن بياع؟

هل هو سبتي أم طنجي؟

هل الاسمان لمسميين أم أنهما لمسمى واحد ؟

تلك أسئلة سأحاول الإجابة عنها في النبذة الآتية :

إن مصدر الالتباس في اسم شاعرنا الكبير وقاضينا الجليل وطبيبنا الماهر يكمن في عدم وقوفنا إلى الآن على ترجمة له في كتب التراجم المعروفة، ولندع كتاب «قلائد العقيان» فإنه ليس بكتاب تراجم بالمعنى الدقيق، وهو أشبه بكتب الاختيارات الأدبية منه بكتب الطبقات.

وقد نتج عن هذا أننا لا نعرف شيئا مما يتصل بحياة هذا العلم المغربي البارز كسلسلة نسبه، وتاريخ ميلاده، وعائلته، وشيوخه في العلم والأدب، وأسانيده في الرواية، ومراكز دراسته، والتلاميذ الآخذين عنه، والخطط التي تقلدها - غير القضاء - وفي أي بلد أو بلدان، ثم تاريخ وفاته.

ولا نملك أمام ذلك إلا أن نتساءل عن السر في اهتضام الرجل، والسبب في غمطه حقه، والباعث على إمساك مؤلفي المراجع المظان عن ذكره، وضياع معظم شعره، لا سيما إذا عرفنا طبقته العالية في الأدب، ومنزلته الشامخة في المجتمع، ولا سيما أيضا إذا قسنا خمول ذكره، بذيوع صيت قرينه القاضي عياض، وكان الإثنان في زمنهما، وفي نظر أهل عصرهما، كفرسي رهان، ومن ثم تجاورا في القلائد.

فهل أصابت أديبنا حرفة الأدب ؟

أم هي أحكام الحظوظ ؟

سبحان من قسم الحظوظ - فلا عتاب ولا ملامة.

وهل كانت المعاصرة - وهي حجاب كما يقال - سببا في أن القاضي عياضا نفسه لا يشير إليه - حسبما وقفنا عليه - فيمن يشير إليهم أحيانا من الأصحاب والبلديين المعاصرين، إلا أن يكون ذكره في كتابه الحافل المفقود في تاريخ سبتة والسبتيين.

ولسنا ندري هل جاز أبو الحسن البحر الى الأندلس التي كان الجواز اليها يعني الجواز أيضا إلى حصول الشهرة وبقاء الذكر، وحفظ الإسم، وتدوين الترجمة. وثمة عدد غير قليل من أعلام المغرب ما كانوا ليعرفوا لو لم يزوروا الأندلس فحفظتهم بسبب هذا من الضياع. كتب الطبقات الأندلسية المتسلسلة الحلقات والمعروفة بالصلات، لأنها تقسم المترجمين في كل حرف إلى قسمين ؛ أندلسيين بلديين، وغرباء دخلوا الأندلس، ويبدو أن أبا الحسن لم يجشم نفسه عناء الانتقال إلى الجزيرة، وإلا لوردت ترجمته في الكتب المذكورة كما وردت فيها ترجمة صاحبه القاضي عياض مثلا (1).

ونحن نجد فيما بين أيدينا ما يشهد بصلات وثيقة وروابط متينة لأبي الحسن مع بعض أدباء وشعراء الأندلس وقد يدل هذا على أن شهرته بلغت الأندلس وإن لم يدخل إليها على ما يبدو.

وبعد فإن أوفى ما لدينا فيما يخص اسم شاعرنا ونسبه ونسبته وبلده هو الآتي :

أبو الحسن على بن بياع الصنهاجي السبتي.

---

1) كان المفروض أن تكون له ترجمة في صلة ابن بشكوال ، مثل صاحبه عياض، أو فيما استدركه ابن الأبار، وابن الزبير، وابن عبد الملك. ولكن يبدو أنه لم يدخل الأندلس فلم يكن من شرط مؤلفاتهم. ومن الملاحظ أنه لم يذكر في المصادر المشار إليها ولو في خلال تراجم غيره.

وهذا التعريف مستفاد في جملته من مصادر يرقى بعضها إلى عصر أبي الحسن، وأولها ـ فيما نرى ـ قصيدة الأعمى التطيلي الشاعر الأندلسي المعروف التي مدح بها قاضينا الجليل، فقد نص فيها على كنيته أبي الحسن مرتين :

أبا حسن دعاء أو حنينـــا ولا الوك ان كانت خبالا

أبا حسن وأين الحسن مما تشير به فعالا أو مقــالا

وعلى اسمه علي :

لعلك يا علي لها معاذ فتسقيها بحارا أو سجالا

ومن المعروف أن أبا الحسن هي كنية لمن اسمه علي في الاصطلاح المعروف، ولكن التنصيص على الاسم يؤكد ذلك.

وأهم ما في هذه القصيدة إيراد شهرة أبي الحسن بما يزيل الالتباس ولا يدع مجالا للاختلاف وذلك في هذا البيت :

أبيعك يااين بياع فؤادي وغيري من إذا ندم استقالا

أما انتماء أبي الحسن فيذكره من غير تخصيص في الابيات التالية :

نمتك إلى المكارم والمعالـــي إذا نجم تكارم أو تعالـــى

صقور أو بدور أو بحــــور وإن لم تلق مثلهم رجـــالا

إذا شهدوا القتال فسوف تـــدري لاية علـة شهـدوا القتـــالا

بنو الهيجاء طاروا في وغاهـــا وإن كانت حلومهـــم ثقـــــالا
إذا زبنتهـــم شنـــوا عليهـــــا جيادا ضمـــرا وقنـــــا طـــــوالا
ونعم النازلون على الروا بـــــي إذا ما الشمس أحرقت الظلالا (2)

وهذه النعوت يمكن أن تضفى على أي قبيل، ولكنها قد تكون أكثر انطباقا على قبيل صنهاجة التي كان بيدها يومئذ أعنة الجهاد وأزمة الحكم في الغرب الإسلامي.

وعلى كل حال فإن نسب أبي الحسن في صنهاجة قد ورد في كتاب صبح الأعشى للقلقشندي كما سنرى بعد قليل.أما الشاعر فقد عد نفسه من حمير، وذلك في قصيدة غزلية يقول فيها :

وتلافني قبل التلاف فإننـــــي من حمير وسيأخذونك في دمـــي
الطاعنين بكل أسمر مدعـــــس والضاربين بكل أبيض مخـــذم
والواردين الصادرين إذا الوغـــى لفحت بجمرتها وجوه الحـــــوم
ولعلهم تسمو بهم هماتهــــــم أن يدركوافيالظبى ثأرالضيغم(2م)

ومن الممكن جدا التوفيق بين النسبين، فقد ذهب عدد من الاخباريين إلى ربط صنهاجة بحمير، وأصبح هذا من رسوم قصائد المدح

---

2) ديون الأعمى التطيلي : 243 ـ 245. تحقيق الدكتور إحسان عباس والذخيرة ق 2 مج ـ 2 : 730 ـ 734. تحقيق الدكتور إحسان عباس.

2م) القلائد : 265 ط. باريس والخريدة 2 : 565 ـ 566.

في المرابطين ومن أشهر الأمثلة في ذلك قول الفقيه الكاتب أبي محمد ابن حامد في يوسف بن تاشفين وبنيه :

ملك له شرف العلا من حمير   وإن انتموا صنهاجة فهم هم (3)

يبقى بعد هذا القول في نسبته إلى سبتة أو طنجة. أما أن أبا الحسن بن بياع سبتي الدار، فهذا ما يقرره عالم سبتي معاصر لشاعرنا رآه وأخذ عنه شعره، وهو أبو عمران موسى بن محمد بن خطاب الكندي السبتي الذي زار المشرق وأقام مدة في الاسكندرية حيث لقي الحافظ السلفي (توفي سنة 576) وقد ذكره هذا في معجم السفر، فقال : «وأنشدنا مقطعات كثيرة من شعر المغاربة الذين رآهم كأبي الحسن علي بن بياع السبتي والمرادي المتكلم وأبي بحر الخولاني» (4).

وينبغي أن نلاحظ أن أبا عمران هذا سبتي الدار وكان زوجا لابنة مروان ابن سمجون اللواتي الطنجي القاضي (5) أشهر أعيان طنجة بل المغرب في وقته، وكبير بيت بني سمجون المعروف في زمنه فينبغي أن

3) الأنيس المطرب : 137 ط. دار المنصور.

4) أخبار وتراجم أندلسية : 121 ـ 122 اعداد وتحقيق الدكتور احسان عباس. والمرادي المتكلم هو محمد بن الحسن الحضرمي المتوفي بازكد من الصحراء المغربية سنة 489 هـ الصلة 2 : 572 والذخيرة ق 5 مج 1 : 364 ـ 367. وترجمة أبي بحر الخولاني في المغرب 2 : 203 والذخيرة ق 3 مج 2 : 809 ـ 811.

5) تكملة ابن الابار 2 : 698 والغنية : 113 ـ 115 (مخطوط) وسقطت ـ فيما سقط ـ من طبعة الدكتور محمد بن عبد الكريم. والتعريف بالقاضي عياض : 127 ومعجم البلدان (طنجة) والنبوغ المغربي : 92 ـ 93. ط. بيروت.

يكون أعرف من غيره بأهل عصره ومصره، وهو يميز جيدا بين من هو سبتي ومن هو طنجي لأنه تردد بين المدينتين وعرف رجالاتهما، وأهل مكة أدرى بشعابها كما يقال، والراوي عنه الحافظ السلفي آية في الضبط والتقييد.

وقد نص على نسبة أبي الحسن الى سبتة كذلك ابن بسام الشنتريني في الذخيرة إذ يقول :

«وأنشدت لابن بياع السبتي :

وردت بها التنوفة وهي بدر فلم أصدر بها إلا هلالا (6)»

وجاءت هذه النسبة أيضا في نسخة المتحف البريطاني من ديوان الأعمى التطيلي، فقد انفردت هذه النسخة بإثبات قصيدة نقرأ في عنوانها ما نصه :

«وكتب إلى أبي الحسن ابن بياع السبتي (7)»

وهذه النسخة كتبت في سنة ثمانمائة من الهجرة (8) أما القصيدة المشار إليها فهي التي استشهدنا ببعض أبياتها فيما سبق، وهي واردة أيضا في الذخيرة مع بعض زيادات وفروق.

---

6) الذخيرة ق 1 مج 1 : 76 تحقيق الدكتور احسان عباس.

7) ديوان الأعمى التطيلي : 243. تحقيق الدكتور احسان عباس. وقد كتب في الحاشية مانصه : «لم أجد له ترجمة في مابين يدي من مصادر» ثم أشار إلى ورود الإسم عند السلفي وابن بسام، وكأنه ظن مثل ظننا قديما انه غير المترجم في طبعات القلائد باسم أبي الحسن بن زنباع.

8) المصدر نفسه : ظ.

ولنا أن نستأنس في الأخير بما أورده ولد القاضي عياض من أخبار تومئ إلى علائق التواصل والتقاطع بين القاضيين عياض وابن بياع، وتشي بما كان بينهما من تنافس حاد، لعل سببه ما يكون بين القرناء والنظراء في العادة لا سيما إذا جمعتهما البلدية والمعاصرة والخطة. فقد ذكر أبو عبد الله محمد في «التعريف» أن ابن بياع ممن لهم شعر في القاضي عياض، وذلك في الديوان الذي جمعه ولد القاضي مما قيل من شعر في والده، والذي يشتمل على نحو خمسة آلاف بيت (9).

والنص الذي يفيدنا فيما نحن بصدده هو الذي يسوقه مؤلف «التعريف» في موضع آخر حيث يقول :

«وبلغني أن أبا الحسن بن بياع - هكذا في الأصل المخطوط - كان بينه وبينه في الشبيبة إخاء كبير، وفي الكبر، إلى أن ولي أبي رضي الله عنه القضاء، وهما على تلك الحال، فبعد وقع بينهما تقاطع، فبلغ أبي-رحمة الله عليه - عنه كلام ساءه فكتب إليه الأبيات القديمة :

فبلغني أن ابن بياع - هكذا في الأصل المخطوط - اعترف له بالفضل وذم نفسه(10)».

فهذا خبر واضح الدلالة - في الجملة - على ما كان بين الرجلين في عهد الشباب، وفي عهد الكبر، وفي حال الخطة، وفي غيرها.

---

9) التعريف بالقاضي عياض : 104.

10) التعريف بالقاضي عياض : 111.

فهل كان التنافس على قضاء سبتة سبب القطيعة المذكورة ؟ أم أنها من سعايات الوشاة المعهودة للتفريق بين صديقين متآخيين ؟

وعلى كل حال فإن تمثل عياض بالأبيات المذكورة يعكس حرصه على صداقة ابن بياع، والإبقاء على إخائه في صبر وتحمل هما من شيم الأخيار، كما أن رجوع صاحبه، واعترافه بالفضل لصديقه ـ فيما يقول الخبر ـ يدل على سمو نفسه، وعلو قدره.

ويخيل إلي أنه لا بد أن يكون بين الرجلين مطارحات أدبية، ومجاوبات شعرية، فلو وصل إلينا شيء منها لعرفنا حقيقة العلاقات بين القاضيين الجليلين.

وتجدر الإشارة ـ بمناسبة ورود كلمة «الفضل» في آخر الخبر السالف ـ إلى بيت من قصيدة الأعمى التطيلي في مدح القاضي أبي الحسن لا يخلو في رأينا من تلميح، وهو قوله :

لك «الفضل» الذي هو فيك طبع إذا احتقبوه غصبا وانتحالا

فهل «ينظر» الأعمى في هذا إلى «أبي الفضل» ويرمي إلى النيل منه ليتقرب إلى أبي الحسن ممدوحه ؟

وينبغي أن نذكر في سياق هذا أن الشعراء كانوا يمشون في ركاب القضاة في ذلك العصر، و «كافية» الأعمى التطيلي أوضح دليل على ذلك، والمدائح التي قيلت في ابن حمدين، وابن جسون، وابن أضحى، وابن

عصام، وابن عشرة، وعياض، وابن بياع وغيرهم من قضاة ذلك الزمان كثيرة جدا، ومن هنا لا نستبعد أن يكون لكل قاض عصبته من الشعراء، وأن الأعمى التطيلي كان من عصبة القاضي أبي الحسن.

ومهما يكن من أمر فإن ما يعنينا فيما ذكرناه هو ما يمكن أن يستأنس منه أو يستدل به على «سبتية» ابن بياع.

وبناء على ذلك فإني حين عنيت بإخراج كتاب التعريف بالقاضي عياض لولده ذكرت في إحدى الحواشي بمناسبة ورود ابن بياع أنه أبو الحسن على القاضي السبتي المعروف، وقلت هذا اختصارا واعتمادا على ما كنت وقفت عليه، ووقر في ذاكرتي.

وقد عقب على هذا الأستاذ الجليل السيد محمد ابن تاويت التطواني في تعريف له مشكور بالكتاب المذكور (11)، وجاء في تعقيبه ما نصه : «كون القاضي من سبتة، أو هو قاضي سبتة ـ كذا ـ هذا لا نعرفه بالمرة، والمعروف أنه قاضي طنجة، التي نسب إليها في كتاب صبح الأعشى قديما» ولعل أستاذنا الجليل يعرف الآن مما استقرأنا واستقريناه من نصوص أن نسبة القاضي أبي الحسن إلى سبتة واردة في مؤلفات هي أقدم بكثير من صبح الأعشى، وأحسب أن تعبير «القاضي السبتي» لا يفهم منه بالضرورة معنى «قاضي سبتة» التي حملت على ولم أقل بها. ولعل الذي لا يعرف أو لم ينص عليه هو قول الأستاذ في كتاب الأدب

11) مجلة دعوة الحق، عدد ماي 1975.

المغربي أن القاضي أبا الحسن «تولى القضاء بطنجة (12)» فلم يقع إلي نص على أنه ولي قضاء طنجة أو سبتة، مع إمكان ذلك في إحداهما أو فيهما معا، وقد قلده فيما قرره محققا الطبعة المصرية من خريدة القصر.

وأما نسبته إلى طنجة فقد وردت في مصدر مشرقي متأخر عن المصادر السابقة وهو صبح الأعشى للقلقشندي، وجاءت بصيغة استثناء أو إخراج طريف، وهي ما يلي في وصف أهل طنجة : «وأهلها مشهورون بقلة العقل، وضعف الرأي (13)، على أن منها أبو الحسن الصنهاجي، ترجم له في قلائد العقيان، وأثنى عليه، وأنشد له أبياتا منها :

وقد تحمى الدروع من العوالي ... ولاتحمى من الحدق الدروع (14)

ويبدو من أول هذا الكلام أن القلقشندي ينقل عن العمري في مسالك الأبصار، وهذا يعتمد على رواة مغاربة لكنه يقع في الخلط أحيانا.

---

12) الادب المغربي : 142.

13) هذا من الأقاويل التي تقال في البلدان، وهو وارد بتفصيل في الاستبصار : 138 تحقيق الدكتور سعد زغلول عبد الحميد، والروض المعطار : 396 تحقيق الدكتور إحسان عباس، ومعيار الاختيار لابن الخطيب . ونسبوا ذلك إلى ماء عين برقال أو برقان التي يقول فيها بعضهم :

بطنجة عين ماء وسط رمل ... لذيذ ماؤه كالسلسبيل

خفيف وزنه عذب ولكن ... يطير بشاربيه ألف ميل

14) صبح الأعشى 5 : 170.

وقد أشار الأستاذ الجليل سيدي عبد الله كنون في النبوغ المغربي إلى كلام القلقشندي، واعتمد عليه في نسبة أبي الحسن الى طنجة (15). وعلى كتاب النبوغ معول كثير من كتب الدراسة في مادة الأدب المغربي.

وصحيح أن طنجة كانت من منازل صنهاجة، وينسب إليها عدد من الصنهاجيين إلا أن هذا لا دليل فيه ما لم يوجد نص في الموضوع غير ما عند القلقشندي، خصوصا وأن منازل صنهاجة متعددة، والنسبة إليها موجودة أيضا في مختلف المدن المغربية.

ونعود أخيرا إلى تحقيق اسم ابن بياع ـ محور هذه النبذة ـ فنقول أنه ورد هكذا في المخطوط والمطبوع من الكتب الآتية :

ابن بياع في الذخيرة لابن بسام، ثلاث مرات

ابن بياع في ديوان الأعمى التطيلي، مرتان.

ابن بياع، في معجم السفر للسلفي، مرة.

ابن بياع، في خريدة القصر للاصفهاني، مرة (16).

وورد اسم ابن بياع ـ من غير تحريف ـ في المخطوطات الآتية من قلائد العقيان المحفوظة بالخزانة العامة بالرباط :

---

15) النبوغ : 93. ط. بيروت.

16) أبقى محققو الطبعة التونسية على عنوان الترجمة كما هو في الأصل المخطوط هكذا : الفقيه القاضي أبو الحسن بن بياع. وفي الطبعة المصرية : الفقيه القاضي أبو الحسن بن زنباع. وذكر في حاشيتها ما لفظه : في الأصل : ابن بياع، وهو تحريف.

قلائد العقيان ك 350

قلائد العقيان ك 2423

قلائد العقيان ج 370

قلائد العقيان ج 821

قلائد العقيان د 125

شرح قلائد العقيان لا بن زاكور ج 1049

وفي المخطوطات التالية بالخزانة الملكية العامرة :

قلائد العقيان م 5851

قلائد العقيان م 5850

قلائد العقيان م 475

قلائد العقيان م 1061

قلائد العقيان م 1333

قلائد العقيان م 1918

وكذلك في بعض مخطوطات القلائد بخزانة القرويين.

إن مخطوطات القلائد العامة والخاصة كثيرة، ولعل معظمها لا يختلف عما ذكرنا.

أما الطبعات المختلفة من القلائد فكلها واقعة في التحريف.

وقد ورد ابن بياع أيضا هكذا بوضوح في النسخة المخطوطة الوحيدة من كتاب التعريف بالقاضي عياض لولده، ولكنني حين أعددته

للطبع رددت الإسم إلى ا بن زنباع توهما مني يومئذ أنه هو الصواب. وقد أشرت في الحواشي إلى أن ا بن بياع هي الموجودة في الأصل المخطوط كلما تكررت. و يقول الأستاذ عبد الله گنون في النبوغ :

«أبو الحسن بن زنباع(17) و يقال فيه أيضا : ا بن بياع» و ينبغي في نظرنا أن يكون أحد الأمرين. والمتعين منهما حسبما ذكرناه أنه ا بن بياع. و بيت الأعمى التطيلي هو القول الفصل في النزاع :

أ بيعك يا ا بن بياع فؤادي وغيري من إذا ندم استقالا

وصحيح أن زنباع اسم علم. ولكنه - في نظرنا - لصق بشاعرنا بسبب التحريف الذي سرى في الطبعات المختلفة من قلائد العقيان. وقد يقال أنه ر بما كان في سلسلة نسبه. بياع وزنباع. ولكن هذا الافتراض لا دليل عليه ما دمنا لم نقف إلى الآن على عمود نسبه.

ولهذا فإني - في خاتمة هذا التحقيق المتواضع - أدعو الدارسين والمشتغلين بضبط الأسماء أو تنميطها كما يقال إلى العدول عن الإسم السائر. ا بن زنباع. والأخذ بالإسم الصحيح : ا بن بياع.

الر باط — **د. محمد ابن شريفة**

---

17) قلت في اخر الحاشية : وفي الاصل : ابن بياع. وهو تحريف. وقد توهم الاستاذ ابن تاويت في مقاله المشار اليه سابقا حين وجد هذه العبارة بعد الاشارة الى ترجمة المذكور في القلائد والخريدة أني اعني بالأصل أصل الخريدة. والواقع انه لاشأن لي بمخطوط الخريدة. فالاصل الذي اعنيه. والذي أشير اليه عادة في الحواشي هو الاصل المخطوط من كتاب التعريف.

18) ورد ابن زنباع هكذا أيضا في كتاب الادب المغربي للأستاذ الجليل ابن تاويت ص 142 وكذلك في كتاب الأدب المغربي للأستاذ الزميل الدكتور عباس الجراري (الصفحات 98. 102. 103).

الرحالتان السبتيان

ابن رشيد والتجيبي

عبد القادر زمامة

ظهرت مدينة سبتة ومنذ العصور الأولى لتاريخ الإسلام والثقافة العربية بالمغرب. بمظهر المدينة الرابطة بين العدوتين المغربية والأندلسية سياسيا واقتصاديا، وعلميا، ومن أجل ذلك تكون بها مجتمع متنوع، ولكنه متماسك، ومتكامل تشابكت فيه المواهب والتطلعات، وظهرت الأسر والبيوتات، التي تسلسل فيها العلم والنفوذ والجاه، منها المغربي الأصيل ومنها الأندلسي الأثيل، ورحاب سبتة وضواحيها وأسواقها. وأحياؤها، ومساجدها ومعاهد العلم بها تسع الجميع. وتطبع الجميع بطابع خاص من الحيوية والعمل والطموح، والإباء، وقد أدرك ساسة الدول المتعاقبة بالمغرب والأندلس هذه الظاهرة التاريخية عند السبتيين وتصرفوا أو تصرف الكثير منهم على ضوئها..!

ومصادر تاريخ المغرب والأندلس تقدم لنا وقائع وأحداثا تفسر لنا هذه الظاهرة. على عهد المرابطين. والموحدين. والمرينيين فيما يرجع لقضايا السياسة والحكم..

كما أن كتب الطبقات والتراجم والفهارس تقدم لنا ما يعادل ذلك فيما يرجع لقضايا العلم والفكر. وسيرة أعلام هذه المدينة من علماء وقضاة وحكام وغيرهم... اشتهر ذكرهم داخل المغرب وخارجه...!

وكان التمسك بالمشروعية يجعل أهل سبتة في يقظة دائمة خوفا من مغبة الفراغ ومن أجل ذلك خاضوا عدة غمرات أيام المخاض السياسي الذي كان ينذر البلاد بطي صفحة. ونشر صفحة أخرى...

وعند الحديث عن الرحالتين السبتيين : ابن رشيد والتجيبي ينبغي أن يكون واضحا عندنا أنهما خرجا الى هذه الدنيا. أيام المخاض السياسي والصراع بين الموحدين والمرينيين. كما أنهما خرجا الى هذه الدنيا وأسرة العزفيين هي الآخذة بزمام الحكم في سبتة ترفعها رافعة.. وتخفضها خافضة...!!

تنتظر نتيجة الصراع الذي طال أمده بين الخصمين..! كما تنتظر ما ستكشفه الأيام من كيد غرناطة... ومطامع بني الأحمر الذين كانوا يبيتون الشر للمدينة وأهلها ليستولوا عليها جورا واعتسافا...!

ولا نريد أن نرسم إطارا أوسع من هذا للظروف الزمانية التي عرف فيها هذان الرحالتان نور الحياة في سبتة لأن ذلك سينسينا ما نحن

بصدده من الحديث عن شخصيتيهما وما قدماه من عطاء علمي صور ثقافة وحضارة ذلك العصر متمثلتين في رحلتيهما...

ولد ابن رشيد بسبتة سنة 657 هـ ـ 1258 م

كما ولد التجيبي بها سنة 666 هـ ـ 1267 م

وسبتة إذ ذاك تحت نفوذ العزفيين الذين كانوا يمثلون أسرة علمية مسموعة الكلمة ظاهرة النبل. التف حولها أهل المدينة... وكان الى جانبها أسر أخرى لا تقل عنها سمعة وجاها. تتعاون معها. وترتبط بها برباط المودة والمساكنة والمصاهرة. والمشاورة... كأسرة الحسينيين... والحضرميين...

كما أن الجو العلمي كان مزدهرا بسبب هجرة القرطبيين الذين جتلت مدينتهم سنة 636 هـ ـ 1238 م وهجرة الإشبيليين الذين احتلت مدينتهم سنة 646 هـ ـ 1248 م زيادة على علماء سبتة الذين ذكرت كتب التراجم والطبقات الجم الغفير ممن عاش منهم في هذا الظرف بالذات...

ولا نعلم تفاصيل مدققة عن المراحل الأولى من حياتي الرحالتين : ابن رشيد والتجيبي. كما لا نعلم نوع وطبيعة العلاقة التي كانت بينهما وهما يتخطيان سنوات الطفولة والشباب... ونحن نعلم أن ابن رشيد يكبر التجيبي بتسع سنوات... وقد شاهدنا التجيبي يذكر في رحلته : مستفاد الرحلة والاغتراب ابن رشيد بقوله :

وأخبرنا الفاضل العلامة أبو عبد الله بن رشيد... (1) فهذا تقدير من التجيبي لعصريه وبلديه ابن رشيد الا أنه ليس اعترافا بالتلمذة... وقد اشترك الرحالتان في الأخذ عن بعض شيوخ سبتة... كما نجد ذلك عند استعراض شيوخ كل منهما في هذه المدينة... مع العلم أننا ـ ولحد الساعة ـ لم نطلع على القسم الأول من رحلة ابن رشيد. وكذلك لم نطلع على نفس القسم من رحلة التجيبي. والمظنون أن هذين القسمين المحجوبين عنا بهما معلومات مفيدة تساعدنا على فهم كثير من الحقائق المتعلقة بالموضوع...

على أننا نتأكد أن كلا منهما لم يقدم على الرحلة. الا بعد أن أخذ حظا وافرا من العلوم والمعارف ولقي من شيوخ الرواية وعلماء الدراية العدد الكثير من الأندلسيين والمغربيين وكان جلهم ممن استوعب الثقافة العلمية التي انتشرت على عهد الموحدين. من اهتمام بالحديث ورجاله والتفسير ومصادره. واللغة والنحو والأدب والتاريخ...

فالمعجم العلمي للثقافة المغربية الذي بدأت مواده تتضخم منذ عصر الموحدين. حافل بالعناوين والموضوعات والاهتمامات والاتجاهات. وقد تشابكت فيه المعارف الأدبية بالمعارف الشرعية. والاتجاهات العقلية بالاتجاهات الذوقية... وأخذ جل ذلك طريق الاستمرارية على عهد المرينيين..!

---

1) التجيبي. مستفاد الرحلة والاغتراب ص. 36. تونس 1975م.

فإذا تعمقنا فيما خلفه لنا الرحالتان السبتيان. وما خلفه معاصرهما : الرحالة العبدري الحاحي نجد أن ذلك المعجم الذي عهدناه في العهدين... لا يلبث أن يظهر بارز السمات من حيث التفكير والتعبير والتطلعات والاهتمامات. عند شبان من أهل المغرب خرجوا من بلادهم بعدما طبعتهم ثقافتها بطابع خاص. ودفعتهم الى محاولة المزيد من المعرفة. مع الربط بين ماعاشوا فيه من عطاءات مغربية وأندلسية. وبين ما تحتفظ به أمصار تونس ومصر والشام والحجاز من عطاءات أخرى جادت بها قرائح ومواهب شتى...! في موضوعات شتى...!

فالشكل والمضمون والهدف يكاد يكون واحدا... والفروق إن كانت هناك فروق : لا تعدو أن تكون فروقا أو جدتها الطبيعة الذاتية. والعنصر الشخصي حيث لا مناص من انعكاس ذلك على جوانب من التفكير والتعبير...! عند المؤلفين...!

ابتدأ ابن رشيد رحلته سنة 683 هـ - 1284 م.

وابتدأ التجيبي رحلته سنة 696 هـ - 1296 م.

بعدما طويت صفحة الموحدين السياسية ونشرت صفحة المرينيين... فابن رشيد سبق التجيبي باثنتي عشرة سنة... وقد علمنا قبل أنه يكبره بتسع سنوات...!

وقبل أن نخوض في الحديث عن كل منهما ينبغي أن نوضح نقطة أساسية ترجع الى مفهوم الرحلة عند الرحالتين... أو بعبارة أدق ماذا كانا

يقصدان بها ؟ وماذا كان يقصد الناس حينما يسمون كتاب كل منهما باسم : الرحلة...؟ مع أن الاسم الحقيقي لكتاب ابن رشيد هو :

ـ ملء العيبة فيما جمع بطول الغيبة في الوجهتين الكريمتين الى مكة وطيبة والاسم الحقيقي لكتاب التجيبي هو :

ـ مستفاد الرحلة والاغتراب.

فالمفهوم الذي كان لعمل ابن رشيد والتجيبي هو مفهوم رحلة علمية يؤدي فيها كل منهما فريضة الحج. ويتصل اتصالا علميا بالشيوخ. والأساتذة ويربط سنده بعلومهم. وكتبهم وما سمعه منهم من روايات وأسانيد ومحفوظات وإفادات وإنشادات... فالعنصر العلمي من شيوخ وكتب وأسانيد وروايات هو الأساس والمقصود بالذات... أما أخبار السفر برا وبحرا ووصف المشاهدات والبقاع فهو شيء. ثانوي للربط والإيضاح والتوثيق...!

فلهذا ينبغي أن يكون واضحا عندنا أن كلا من ابن رشيد والتجيبي إنما قاما بتدوين عمل علمي لتتميم الدراسة والتوسع في المعرفة وذكر أخبار الشيوخ وعلومهم ومؤلفاتهم وأسانيدهم مع أداء مناسك الحج وزيارة قبر الرسول عليه السلام...

فعملهما في العمق هو من قبيل كتابة الفهارس العلمية لا كتابة الرحلات الجغرافية والفرق واضح بين عملهما هذا وبين عمل ابن جبير. وابن بطوطة...! ومع ذلك فهناك في عمل الرحالتين السبتيين ما يفيدنا

عن أحوال الأقطار الإسلامية التي شاهداها ولا بسا بعض مظاهر الحياة بها. علميا واقتصاديا وعمرانيا...! زيادة على الفوائد العلمية والأدبية الأخرى...

قام ابن رشيد برحلته بعد ما بلغ من العمر ستا وعشرين سنة وذلك سنة 683 هـ - 1284 م وبعدما ودع أهله وأولاده وشيخه أبا الحسين عبيد الله بن أحمد ابن أبي الربيع بسبتة... وسافر الى المرية حيث رافقه هناك صديقه الأديب أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن ابن الحكيم اللخمي. وكان شابا في مقتبل العمر له نفس التطلعات العلمية التي كانت لابن رشيد... ولم يكن إذ ذاك ذا منصب سياسي وإنما أصبح وزيرا في دولة السلطان محمد : الثالث : ابن الأحمر بعد الرحلة بسنوات...! (2).

والاتجاه كان فيما يظهر من المرية الى بجاية حيث وجد الرفيقان عددا من شيوخ العلم جلسا للسماع والأخذ عنهم. وحيث إن الجزء الأول من كتاب ابن رشيد محجوب عنا فإننا نقدر أنهما انطلقا من بجاية الى مدن أخرى ومنها مدينة تلمسان...! طلبا للعلم وبحثا عن شيوخه... ودليلنا على ذلك أننا عند البحث نجد في المصادر المخطوطة والمطبوعة ما يشير الى هذا الإنطلاق ولا سيما فيما يرجع الى مدينة تلمسان بالخصوص...!

---

(2) ابن الخطيب. الاحاطة ج 2 ص 444 وما بعدها.. القاهرة 1974 م.

فهذا أبو زكرياء السراج الرندي ت (805 هـ ـ 1402 م) يحدثنا في فهرسته نقلا عن ابن رشيد :

ـ أنه ـ ابن رشيد ـ سمع الخطيب بتلمسان يوم الجمعة يقول في خطبته : من يطع الله ورسوله فقد رشد ـ بكسر الشين ـ فأراد الاجتماع بالخطيب وسؤاله عن ذلك فلم يقدر له. وسافر ثم عاد بعد مدة فسمعه يعيدها كذلك...! فعزم على سؤاله عن ذلك فلم يتفق ذلك...! ثم إنه سافر الى سبتة فدخل على الأستاذ ابن أبي الربيع عائدا له في مرضه الذي توفي فيه... ومجمعا على سؤاله عن لفظة ـ رشد ـ قال : فلما دخلت عليه وهو يعالج الموت قال لي ابتداء...

ـ ابن رشيد...! رشدت... ورشِدت... لغتان ذكرهما سيبويه...!! (3).

فهذا النص الذي نقله السراج عن ابن رشيد يدل دلالة واضحة على أن ابن رشيد زار تلمسان مرتين وحضر صلاة الجمعة بمسجدها في كل مرة وسمع الخطيب يكسر الشين من كلمة رشد...! ويغلب على الظن بل يتأكد أن ذلك حصل أيام الرحلة الحجازية ذهابا وإيابا...!!

وأبو العباس المقري يحدثنا في كتابه نفح الطيب عن فوائد جده أبي عبد الله المقري قاضي فاس وشيخ المدرسة المتوكلية ـ العنانية ـ فنجد من جملة تلك الفوائد.. ما يدعم نقل أبي زكرياء السراج الرندي...

---

(3) أبو زكرياء السراج : الفهرسة. مخطوطة.

ويزيدها إيضاحا بتعيين اسم الخطيب وهو : محمد بن عبد الرحيم بن أبي العيش الخزرجي (4).

ويزيدنا أبو العباس المقري إفادة أخرى في الموضوع وهو يتحدث عن شيوخ جده المذكور فيقول :

ولما وقف الرفيقان أبو عبد الله محمد بن عمر ابن رشيد الفهري. ومحمد بن عبد الرحمن ابن الحكيم الرندي في رحلتهما على قبر - السعيد - (5) بعباد تلمسان تناول ابن الحكيم فحمة...! ثم كتب بها على جدار هناك..!

انظر ففي إليك اليوم معتبر إن كنت ممن بعين الفكرقدلحظا
بالأمس أدعىسعيدا والورىخولي واليوم يدعى سعيدا من به اتعظا

فهذا النص (6) يزيدنا إفادة فيما يرجع لزيارة الرفيقين ابن رشيد وابن الحكيم مدينة تلمسان. والمظنون أن هذه النقول كانت - في الغالب - موجودة في الجزء المحجوب عنا من كتاب ابن رشيد ومنه نقلت الى فهرسة السراج. ونفح الطيب وغيرهما...!

وفي مدينة تونس عاصمة الحفصيين وجد الرفيقان أشهر علماء ذلك

---

4) المقري. نفح الطيب. ج 5 ص 274. ط. بيروت 1968م.

5) هو أبو الحسن علي بن ادريس بن الخليفة يعقوب المنصور الموحد... ويلقب بالمعتضد. وبالسعيد... قتل في حربه مع يرمراسن. انظر بن عذاري القسم 3 ص 385 والحلل الموشية. ص 167. ط. البيضاء 1979م والاستقصا. ج 2 ص. 248. ط البيضاء 1954م.

6) المقري. نفح الطيب ج. 5 ص. 225.

العصر اجتمعوا في العاصمة الحفصية وفيهم عدد من الأندلسيين والتونسيين فأخذا من الإجازات والسماعات والإفادات مادونه ا بن رشيد بإسهاب وإعجاب وتقدير... فلا فائدة هنا من نقل ذلك، وإنما نشير. بعد إمعان النظر فيما كتبه ا بن رشيد الى أن الرفيقين لم يتركا من اللغويين ولا من الأدباء. ولامن الفقهاء ولامن المحدثين أحدا إلا وأخذا عنه واستجازاه... وتكفل ا بن رشيد بترجمة المأخوذ عنهم وشيوخهم وأسانيدهم ومؤلفاتهم مما يعد عملا علميا ذا عطاء جيد بالنسبة للحياة العلمية في تونس في ذلك العهد...

وكان الرفيقان الى جانب ذلك - يتذبجان - مع جماعة من أهل العلم والرواية هناك والتدبيج عند المحدثين معروف وهو أن يروي ويأخذ المحدثان كل منهما عن الآخر...!

ولا يفوتنا هنا أن نسجل ملاحظة عنت لنا ونحن نستعرض حديث ا بن رشيد عن الأعلام الذين أخذ عنهم مع رفيقه ا بن الحكيم في عاصمة تونس وهي تتعلق بالأديب الكبير حازم القرطاجني مؤلف - سراج البلغاء - وغيره من الكتب المفيدة... فهو من شيوخ ا بن رشيد وا بن الحكيم ولا شك...!

وقد أدركاه بتونس وأخذا عنه. بدليل أن ا بن رشيد يذكره مرات متعددة في الرحلة.. بقوله : قال شيخنا... وذكر شيخنا حازم... وأنشدنا شيخنا حازم... إلا أننا لانجد ا بن رشيد يترجمه مع علماء تونس... الذين أخذ عنهم... وقد توفي حازم سنة 684 هـ - 1285 م أي بعد مغادرة ا بن

رشيد وا بن الحكيم العاصمة التونسية.. ووصلهما خبر وفاته بعد ذلك وهما يواصلان تنقلهما في الأقطار المشرقية...! وبطبيعة الحال لم يلتقيا به عند صدورهما...!

وفي الأسكندرية. والفسطاط. والقاهرة. استمر الرفيقان في الأخذ والسماع والإستجازة والتناول وزيارة الأعلام. واستمر ا بن رشيد في وروده وصدوره يسجل ذلك سالكا منهاجه المعهود في تراجم الشيوخ وذكر مؤلفاتهم وأسانيدهم ومالهم من إفادات وإنشادات وروايات وكل ذلك يعكس الحالة العلمية التي كانت عليها تلك البلاد وما تضمه مدارسها ومعاهدها وخزائنها من كتب ومجاميع وفهارس ومسلسلات...

ومن مصر كان الرحيل الى دمشق وبلاد الشام والجزء الذي يتحدث عن أخبار ذلك محجوب عنا من كتاب ا بن رشيد... ومن دمشق كان الرحيل عبر الصحراء الى المدينة المنورة...

وفي الحجاز والحرمين الشريفين وجد الرفيقان مكان القول ذا سعة. كما وجدا عددا كبيرا من العلماء الأفذاذ من الوافدين. والمقيمين هناك وكانت الضالة المنشودة هي أخذ الإجازات وسماع الروايات وحفظ الأسانيد والاطلاع على الكتب والأخبار وتراجم الرواة والحفاظ. وربط السند بأكبر عدد ممكن من أعلام المحدثين والفقهاء واللغويين والمؤرخين وكان التعاون بين الرفيقين واضحا.. فكل منهما يستجيز لنفسه ولرفيقه.. وكل منهما ينقب في المشاهد والمساجد والمواسم عن

الأسماء اللامعة والشخصيات الشهيرة ليستفيد مما عندها ويربط سنده وسند رفيقه بها...!

وكانت مدة الإقامة بالحجاز نحو أربعة أشهر تم فيها آداء الفريضة وربط الصلة بالأعلام والأطلاع على ما أمكن من كتب وفهارس وأسانيد...

وكان قلم ابن رشيد سيالا في وصف البقاع الطيبة وآداء المناسك ووصف المعالم مع انتقاد البدع والمخالفات التي أحدثت هناك على يد الجهال والرعاع... في المشاهد والمعالم. وعقد أداء المناسك...!

واستمر في منهاجيته في ذكر الأشياخ وتراجمهم وأسانيدهم ومؤلفاتهم بضبطه المعهود واستيعابه المألوف... واستطراده المفيد..!

وأسعفته قريحته وعاطفته فأنشد عددا كبيرا من الأبيات والمقطعات التي تمثل الحنين الى مشاهد الديار المقدسة والشوق الى معالمها وأعلامها...

ومن أحسن ما أنشدنا لنفسه في هذا الباب قوله :

أشيح الفلا مانم أم غبر الشحـــــر ... أم العرف أهدت طيبة طيب النشـــر
والأفعا بال الرياض تعطـــــــرت ... وما لثغور النور تبسم عـــــن در
وما بال أدواح البطاح تأطـــــرت ... وجرت ذيولا من غلائلها الخضــــر
وما لفصيح الطير يعلو منابــــرا ... يردد ألحانا على مزهر الزهــــر
وما بال أرواح الصباح تذاءبـــت ... تفاتح بالبشرى وتتحف بالبشـــر
نعم هو عرف من نواحي معـــرف ... سرى ملقيا ما حملوه من الســـر

ترى علموا أني فقدت خيالهــــم لفقدي الكرى فالطيف نحوي لا يسري
فأهدوا مع الريح الشمالي شمائــــلا سقتني شمولا فانثيث من السكـــر
على أن بعد الدار يعذر طيفهــم فيثنيه إن جد السرى مسفر الفجــر
بشير الرياح المهديات بشائــــرا حقيق علينا أن يقابل بالشكـــر
فحل ضلوعي منزلا إن رضيتـــها وعذرا فقلبي بالمكان الذي تــدري
ومن كبدي أقريك وهي نضيجـــة ومن أدمعي أرويك إذ لم تزل تجـري
وبالله إلا ما أقمت مكرمـــــا لدينا ولا ترجع سريعا علىالإثــر
فقال : تكلفت الجواب وانـنــــي وفي بعهدي لا أميل الى العــــذر
فناديته : بلغ سلامي وقل لهـــم أقام لعذر صده. والهوى العـــــذري
فكان لقائي والوداع معا فــــلا تسل كيف حالي حين ولى مع الصبر

كما أنه اغتنم فرصة مروره بمنزل خليص. وهو منزل ينزله الحجاج بعد رابغ في توجههم من المدينة الى مكة فأنشد لنفسه :

أهل ودي لا تدينوا بالصــــدود بذمـــام كــان فـي وادي زرود
وخليص إذ وردنــا خلصـــــه فرعـه اللـه أو يقــات الــورود

ثم اتبع ذلك بنظرات أدبية ونقدية تتعلق باستعمال الشعراء للتصغير. وفي طليعتهم أبو الطيب المتنبي مما يدل على معارفه اللغوية والبلاغية الغزيرة.. ونقل ذلك عن شيخه حازم القرطاجني الذي مر به بتونس...

وأثناء حديث ابن رشيد في الحجاز وفي مناسبات شتى نجده يحدثنا عن أصدقاء ورفقاء كان معهم في الرفقة زيادة على صديقه ابن الحكيم... كما هو الشأن فيما يرجع لعالم من علماء تونس وهو الشيخ محمد المرجاني... الذي يقول عنه إن كان معه في المركب أثناء سفره من تونس الى الأسكندرية وتكرر لقاؤه به في مكة أثناء أداء المناسك...

ورجع ابن رشيد من الحجاز مع رفيقه ابن الحكيم على نفس الطريق التي جاءا منها فأعادا الدخول الى المدينة ومنهاالى الشام ثم الى مصر ثم الى تونس...

وفي عاصمة الحفصيين مكث ابن رشيد ما يقرب من سنة أعاد فيها صلاته بالأشياخ من محدثين وفقهاء ولغويين وأدباء.. كما جدد لقاءه بكثير من أصدقائه الذين أعجب بفضلهم وكرمهم وحسن ضيافتهم... وفارقه صديقه ابن الحكيم متعجلا السفر الى الأندلس... حيث وجد هناك ماكان يصبو اليه من تكريم وتقدير وحظوة وشهرة... جرته أخيرا الى بلاط غرناطة...!

وعن طريق البحر سافر ابن رشيد من تونس الى وطنه ومر على عنابة ولم يفته أن يتصل بقاضيها ويكتب عنه بعض أسماء شيوخه...!

وفي مالقة كانت نهاية المطاف حيث نزل ابن رشيد هذه المدينة وأخذ العلم عن بعض أشياخها وكذلك فصل بمدينة رندة. ووجد هناك رفيقة ابن الحكيم فناله من بره وإحسانه ما أطلق قلمه ولسانه بالثناء الجميل...! وقصد الجزيرة الخضراء ومنها أبحر الى سبتة مسقط رأسه

ومقر أسرته وأحبابه وقد نزل بها يوم الاثنين الثاني والعشرين من شهر جمادى الثانية سنة 686 هـ ـ 1287 م بعد غيبة دامت نحو ثلاث سنوات... استكمل فيها دراسته وادى فريضة الحج. وجمع المادة العلمية التي سيحرر منها أسفار هذه الرحلة العلمية التي شرق أمرها وغرب وأعجم وأعرب...!!

ولا نودع ابن رشيد دون أن نتساءل...

ـ متى كتب رحلته...؟ وأين كتبها...؟

إننا باطلا عنا على ما تضمه مصورة مخطوطة الأسكوريال من أجزاء هذه الرحلة المفيدة نجد أنفسنا مضطرين الى القول : إن ابن رشيد لم يكتب رحلته كلها في وقت واحد... كما يظهر من كلامه وتعليقاته وإشارته ودعائه لمن يتحدث عنهم من أعلام أموات وأحياء...!

كما أنه لم يكتبها في مكان واحد... وإنما كان يشتغل بالعمل فيها لمدة طويلة من الزمن. وفي أماكن متعددة نظرا لإقامته بسبتة ثم بغرناطة. ثم بمراكش. وفاس... ولعله لم ينه الاشتغال بها وتعهد أسفارها إلا في آخر سنوات حياته...

فهناك في عبارات رحلته ما يوذن بأنه سيكتب وسيشرح. وسيذكر...! وهذا يدل على أنه بدأ العمل أثناء الرحلة... فكتب أشياء خوف النسيان...

وهناك في عبارات رحلته تنويهات وأدعيه موجهة لرفيقه الوزير ابن الحكيم مع ذكر الألقاب والتشكرات. مما يلقى عادة لمن له صولة وجاه ونفوذ... وهذا يدل على أنه كتب قسما منها أيام عمله في غرناطة في ظل مبرة رفيقة ابن الحكيم وزير بني الأحمر..!

وهناك أشياء أخرى في سماعات ومقابلات ونسخ لأسفار الرحلة. قام بها تلامذة ابن رشيد تأخرت عن زمن إقامته بغرناطة تدل على ما قلنا...

ولعل الأيام ستجود يوما من الأيام بالسفرين المحجوبين عنا من رحلة ابن رشيد... ثم طبعها طبعا يليق بقيمتها العلمية وقيمة مؤلفها الرحالة السبتي الكبير...

بعد هذا ننتقل الى الحديث عن الرحالة السبتي الثاني وهو القاسم بن يوسف التجيبي. وقد علمنا أنه ابتدأ رحلته سنة 696 هـ ـ 1296 م وهو شاب في مقتبل العمر قد أخذ حظا من الثقافة المعروفة في عصره مع اهتمام كبير بعلم الحديث متنا وسندا لأنه كان يعد نفسه ليصبح محدثا عالما بالسنة وما إليها من العلوم الأخرى كعصريه وبلديه ابن رشيد.

ولحد الآن لا نعرف من كتابه : مستفاد الرحلة والاغتراب إلا جزءا واحدا من ثلاثة أجزاء... وهو الجزء الثاني أما الجزء الأول. والجزء الثالث فهما محجوبان عنا... (7).

والتجيبي كابن رشيد كان يهمه الاتصال بالعلماء والرواة وربط السند والاطلاع على الكتب والأخبار وتراجم الرواة والمؤلفين والمحدثين. في أقطار المشرق. كما عرف الشيء الكثير من ذلك بالنسبة للأندلس والمغرب. وعرف عند شيوخه من السبتيين والأندلسيين وغيرهم ما جعله يطلب المزيد من ذلك...

وكما كان ابن رشيد رفيقا في رحلته لابن الحكيم فإن التجيبي تهيأ له أن يرافق في رحلته أحد شيوخ العلم بالأندلس وهو الكاتب خلف الغافقي القبتوري الإشبيلي كاتب العزفيين... وقد رأيناه يرافقه في كل من مصر والحجاز (8) وكان القبتوري قد بلغ من العمر احدى وثمانين سنة. وهو يقصد المجاورة بالمدينة وفعلا جاور هناك الى أن لقى ربه سنة 704 هـ - 1304 م (9).

والقبتوري من الشيوخ الذين اشترك في الأخذ عنهم كل من ابن رشيد والتجيبي وقد كانت له مكانة مرموقة في سبتة وفي الأندلس

---

7) طبعه عبد الحفيظ منصور 1975 م بتونس.

8) انظر مستفاد الرحلة والاغتراب ص 197 و 35 و 228 و 451 و 452.

9) فهرس الوادياشي ص. 62. ط بيروت 1980 م.

وكذلك في تونس حيث أخذ عنه هناك الواد ياشي صاحب الفهرسة الشهيرة باسم برنامج الواد ياشي (10).

وشخصية التجيبي واضحة في كتابته حيث إننا نلمس فيه زيادة على بحثه عن الشيوخ وأعلام الرواية في مصر والشام والحجاز والأخذ عنهم. نجده يصف المدن التي حلها ويذكر بعض معالمها وآثارها وما فيها من حركة علمية وتجارية... وهو في هذا الميدان يتتبع بعض خطوات الرحالة ابن جبير بل ويستفيد من المعلومات التي سجلها ابن جبير... وبالمقارنة بين ما كتبه ابن جبير عن صحراء عيذاب (11) وقبائل البوجة وساحل البحر الأحمر والحركة التجارية بين قوص وعيذاب... وبين ما كتبه التجيبي في نفس الموضوع يتجلى لنا أن التجيبي استفاد من عمل ابن جبير استفادة واضحة...! (12) وانتقد بعض معلوماته...! وزاد عليه...!

وملكة النقد عند التجيبي فيما يرجع لما يروي عند الناس من أخبار ومناقب قوية. وقلمه صريح في تهجين الروايات المزيفة والأخبار المجهولة الأصل والسند. وفي الجزء الذي بين أيدينا من كتابه شيء كثير (13).

---

(10) المصدر السابق.

(11) رحلة ابن جبير ص. 42 ط القاهرة بتحقيق د. حسين نصار..

(12) مستفاد الرحلة والاغتراب ص. 205.

(13) انظر ص. 12 وما بعدها.

ولعل هذا وشبهه يحتم علينا أن نلاحظ الفروق الشخصية بين ا بن رشيد والتجيبي فالأول عالم محدث هادىء النفس. والثاني عالم محدث جرىء ناقد...

وكما تساءلنا عن زمان ومكان كتابة رحلة ابن رشيد... فإننا نتساءل عن ذلك فيما يرجع الى التجيبي...؟

اما زمان كتابة الرحلة فقد كان بعد سنة 702 هـ ـ 1302 م نظرا لما جاء في نص التجيبي (14) نفسه.

وأما مكان كتابتها فيغلب على الظن أنه كان مدينة سبتة لأن التجيبي كان يجد فيها دون غيرها دار مقامه المحمود رغم ما بذل له من إغراءات ليتولى مناصب في غيرها من المدن...
و بها أقبر سنة 730 هـ ـ 1329 م.

ومن المصادفات فيما يتعلق بالرحالتين السبتيين أن ا بن رشيد خرج الى هذه الدنيا قبل التجيبه بتسع سنوات... وودعها قبله بتسع سنوات حيث أقير بفاس سنة 721 هـ ـ 1321 م .

ولا نودع الحديث عن الرحالة التجيبي السبتي دون أن نشير الى تلك التعليقات والتعقيبات المفيدة التي كتبها على ماجاء من معلومات وآراء في في كتاب. الزيل والتكملة لشيخه ا بن عبد الملك المراكشي...

(14) انظر ص. 11.

وقد لاحظ ذلك واستفاد منه الخطيب ابن مرزوق ت/781 هـ ـ 1379 م في كتابه المسند الصحيح الحسن (15).

كما أن النسخة الخطيبة من كتاب : الذيل والتكملة التي اعتمد عليها. د. إحسان عباس. في الطبع وهي نسخة ـ حليم ـ احتفظت بذلك في شكل تعليقات وهوامش بخط الرحالة التجيبي نفسه...!

فاس **عبد القادر زمامة**

15) ذكر ذلك عند كلامه في الفصل الثاني من الباب الثاني والخمسين... وانظر مقدمة القسم الاول من السفر الخامس من كتاب ـ الذيل والتكملة ـ ومقدمة السفر السادس.

شيوخ العلم وكتب الدرس
في سبتة
من خلال برنامج القاسم التجيبي

د. حسن الوراكلي

كانت مدينة سبتة منذ فترة مبكرة من حياة المغرب العقلية والعلمية أحد المراكز التي نشطت بمنازلها شتى ألوان المعرفة. وازدهرت بنواديها مختلف أضراب الثقافة. وظلت هذه وتلك توتي أكلها على مدار أعصار المدينة في ظل الحكم الإسلامي.

ولسنا هنا لتفصيل القول في أسباب ذلك ودواعيه. وبحسبنا الإشارة إلى أن موقع المدينة الفريد والمتميز جعلها دائما ملتقى للقادمين من المشرق إلى المغرب والأندلس. يقيمون بها فترة تطول حينا. وتقصر آخر. ولكن أغلبهم. فيما نعلم. كان يحرص خلال إقامته على أن ينشر علما. ويبث معرفة. ويذيع أدبا في مجالس الدرس وحلقه بسبتة. كما أن

قربها من الأندلس هيأ لأهلها فرصة الإفادة من معارف الأندلسيين وعلومهم وآدابهم. فلم يكن الطلبة من أبناء سبتة يجدون مشقة أو عناء في شد الرحلة إلى الأندلس ليتحلقوا حول شيوخ العلم. ويختلفوا إلى مجالس المشاهير من المقرئين. والمبرزين من المحدثين. بل إنه يغلب على ظننا أن الرحلة إلى الأندلس في طلب العلم أصبحت أو كادت تصبح على مر الأيام تقليدا علميا أو أشبه ما تكون به بين طلبة سبتة. ليس يعترف للواحد منهم بالكفاية في هذا العلم أو ذاك. وليس يقر له بالتصرف في هذا الفن أو ذاك ما لم يرحل للقاء الشيوخ والجلوس إليهم في قرطبة. وغرناطة. وإشبيلية. ومالقة وغير هذه وتلك من حواضر العلم والمعرفة في الأندلس. وحتى حين نضجت العلوم والمعارف في سبتة. واستوفت مجالسها العلمية حظها من المدرسين البارعين. والشيوخ المسندين الذين كان الطلبة يستكملون بين أيديهم دراستهم وتحصيلهم. ظلوا ـ أي الطلبة ـ مع ذلك يحرصون على التوجه للأندلس قصد لقاء الشيوخ والتوسع في الرواية (1). كما أن قرب المدينة من الأندلس جعل الانتقال إليها بالنسبة للأندلسيين أمرا سهلا ميسورا. وقد عرفنا من هؤلاء عددا غير قليل انتقل من عدوة الأندلس ونزل سبتة واستوطنها. يحلق للتفسير والحديث. أو يجلس لتدريس الفقه والأحكام. أو ينتصب لاقراء العربية وآدابها (2).

وسواء حين كان ينزل المدينة هؤلاء العلماء الوافدون من المشرق. أو حين كان ينتقل إليها هؤلاء الشيوخ القادمون من الأندلس. أو حين

كان يهاجر إليها علماء فاس وغير فاس من مدن المغرب، أو حين كان يعود إليها أبناؤها بعد الرحلة في طلب العلم بحواضره في المشرق أو في الأندلس، كانت سبتة تتلقف من أيدي هؤلاء وأولئك جميعا مختلف التيارات والمذاهب العقلية، والعلمية، والأدبية التي كانت تتدفق بها مجالس الدرس والبحث، ومجالات التأليف والتصنيف في فاس، وقرطبة، وبجاية، والقيروان، ودمشق، وبغداد، والقاهرة وغيرها، وكانت سبتة تتأثر بذلك جميعه تأثرا بعيدا، ثم تتمثله على نحو فريد من النضج العقلي، والوعي بالذات، عرفنا صورا منهما فيما انتهى الينا من مؤلفات بنيها في التفسير، والحديث، والفقه، واللغة، والنحو، والآداب، وكانت المدينة خلال عملية التلقف، والتأثر، والتمثل، والعطاء تكتسب أهميتها بوصفها أحد المراكز العلمية الهامة التي نورت مدى قرون، أفق المعرفة، والفكر، والأدب، ليس في المغرب الأقصى فحسب، ولكن في الغرب الإسلامي بعامة.

وليس من سبيل إلى بلورة هذه الأهمية والكشف عنها إلا من خلال ما نعرف من كتابات المؤرخين الذين أفردوا المدينة بمؤلفات خاصة (3)، أو الذين وقفوا عندها في تواريخهم العامة (4)، وأيضا من خلال ما وصلنا من إسهام السبتيين في المكتبة الشرعية، واللغوية، والأدبية، ومع أن ما وصلنا من هذا الإسهام قليل (5) بالقياس إلى ما ضاع منه (6) فإنه يفيد بالغ الفائدة في استخلاص ملامح من حياة المدينة العقلية والعلمية على عصور مؤلفيه.

وليس من شك في أن كتب الفهارس والبرامج، وهي التي تروي لنا ألوانا من السيرة العلمية لطالب ما، نتعرف من خلالها على الشيوخ الذين تلقى عنهم، والكتب التي قرأها عليهم، والتقاليد العلمية التي كان الشيوخ يلتزمون بها في الاقراء والتدريس، ويلزمون بها تلامذتهم في الطلب والتحصيل، ذات أهمية قصوى فيما قد نحاوله من استكشاف لجوانب النشاط العقلي، والعلمي، والأدبي الذي عرفته حلقات الدرس ومجالسه في هذه المدينة أو تلك من المدن التي قدر لصاحب الفهرس أو البرنامج الرحلة اليها في طلب العلم؛ ومن هنا فإن اعتماد فهرسة أو برنامج ما في التأريخ للنشاط العلمي في مدينة ما على فترة ما ليس، برأينا، في الأهمية والشأن دون أية مصادر أخرى تاريخية أو علمية قد تعتمد للغاية نفسها.

ويظهر أن السبتيين أدركوا في وقت مبكر ما لكتب الفهارس والبرامج من أهمية وشأن، فكانوا من السباقين إلى التأليف فيها، وتعتبر فهرسة القاضي أبي الفضل عياض (476 ـ 544) المسماة بـ (الغنية) (7) أول ما عرفته المكتبة المغربية من اسهام في هذا اللون من التأليف. ولو أن ما كتبه السبتيون من فهارس وبرامج منذ أن أذاع فيهم بلديهم عياض فهرسته المذكورة في أوائل العقد الخامس (8) من النصف الأول من القرن السادس الهجري وصلنا (9) لاستطعنا أن نفيد منه فائدة غير يسيرة في التأريخ للحياة العقلية، والعلمية، والأدبية في سبتة فيما تلى عصر عياض

على نحو إن لم يكن بالغا حد الاستيفاء فإنه مسعف بحظ وافر في تأليف غير ما ملمح من ملامح تلك الحياة.

وأيا ما كانت الحال فإن الأثر الوحيد الذي وصلنا، بعد عياض، من برامج السبتيين وفهارسهم (10) هو برنامج القاسم بن يوسف التجيبي السبتي (11) (670 ـ 730 هـ)، ومن هذا البرنامج حاولنا أن نستخلص لمحات من الحياة العقلية في سبتة أواخر القرن السابع الهجري. ولكي نحقق ذلك توجهنا بالدراسة إلى واجهتين اثنتين في البرنامج، هما :

I ـ شيوخ العلم في سبتـــــة

تنبغي الإشارة بادىء ذي بدء إلى أن الشيوخ الذين درس عليهم التجيبي وضمنهم برنامجه ليسوا كلهم سبتيين. فالرجل، كما هو معلوم، رحل (12) في طلب العلم، واغترب في تحصيله (13)، وكان يحرص على لقاء الشيوخ والجلوس اليهم حيثما حل؛ ومن هنا وقعنا في برنامجه على شيوخ من الغرب الإسلامي، فيهم، فضلا عن شيوخ سبتة، من أعلام مالقة، وبجاية، والقيروان عدد غير قليل، وآخرين من المشرق، فيهم مثل ذلك من أعلام القاهرة، ودمشق، ومكة، ولا شأن لنا، هنا، بهؤلاء ولا بأولئك.

كما تنبغي الإشارة إلى أن عدد الشيوخ السبتيين الذين يروي عنهم التجيبي في البرنامج يمثل فقط الهيئة التعليمية التي تردد على مجالسها

التجيبي ولا يمثل مجموع الهيئة التعليمية التي كانت المدينة تعرفها في الربع الأخير من القرن السابع الهجري؛ ومع ذلك فإنه، أي عدد شيوخ الهيئة التعليمية التي اتصل بها التجيبي كاف، في اعتقادنا، للدلالة من حيث الخصائص العامة للبنية الفكرية والنفسية على مجموع الهيئة المذكورة لما نفترضه من التشابه في المميزات العلمية، ولما نقدره من التناظر في السمات الخلقية بين مجموع أفراد الهيئة.

وإذا كان بعض مؤلفي البرامج من مثل ابن عطية الغرناطي (ت 541 هـ)، والقاضي عياض السبتي (ت 544 هـ) قد عنوا في برامجهم بالشيوخ وأفردوا لهم فيها (جانبا فيه حديث عنهم وعن حياتهم ومنزلتهم العلمية) (14) مما تسهل معه أية محاولة لتأليف صورة لهؤلاء الشيوخ بمختلف مناحيها وجوانبها فإن صاحبنا التجيبي لم يعن في برنامجه بالحديث عن شيوخه واتبع في تأليفه منهجا، اتبعه من قبله ابن خير الاشبيلي (ت 575 هـ) في فهرسته، يقوم على ذكر المؤلفات المقروءة مبوبة حسب مضامينها وموضوعاتها وتسمية الشيخ الذي قرئت عليه وتحديد سند أو أسانيد الرواية، وهو منهج تعسر معه عملية استخلاص ملامح، أيا كان نوعها، لشيوخ صاحب البرنامج، ويجعل الفائدة منه في هذا الصدد محدودة جدا؛ ومع ذلك جميعه فإننا سنجتهد ما وسعنا الاجتهاد في استكشاف صورة عامة لمجموع الهيئة التعليمية على عصر التجيبي في أبعادها العلمية، والخلقية، والإجتماعية.

ا ـ البعد العلمـــي ـ

يمكن القول بأن غالبية الشيوخ الذين كان التجيبي يختلف إلى حلقاتهم ويتردد على مجالسهم في سبتة كانوا من سمو المكانة العلمية بحيث يمثلون النخبة أو الجلة في تعبير القدامى. وفي محاولتنا التدليل على ذلك أمكننا أن نستخرج من البرنامج عدة جزئيات وعناصر نحسبها كافية في تأليف البعد العلمي لهؤلاء الشيوخ.

1 ـ في التحليات والأوصاف التي نجد التجيبي يخلعها على شيوخه. وما نظن بها غلوا أو مبالغة. فلم يكن من عادة من عرفنا من أصحاب البرامج حين يذكرون شيوخهم. أوجزوا أم أفاضوا. أن يتجاوزوا (في ذلك القصد والاعتدال) (15) ما يكشف لنا عن أقدار هؤلاء الشيوخ العلمية. ولنستعرض، على سبيل التمثيل، بعض هذه التحليات والأوصاف :

أ ـ الشيخ ابن أبي الربيع (شيخ الأستاذين وإمام المقرئين. وخاتمة المعربين...) (16). وهو أيضا (الشيخ الفقيه الإمام العلامة المعرب المغرب شيخ المقرئين ورئيس الأستاذين...) (17).

ب ـ وشيخه أبو بكر محمد بن عبد الله بن عبيدة الأنصاري (خاتمة المعربين...) (18).

ج ـ وشيخه أبو اسحاق ابراهيم بن أحمد بن عيسى الغافقي (الشيخ المقرىء النحوي الحافظ عمدة المجودين...) (19).

د ـ وشيخه أبو القاسم قاسم بن عبد الله الأنصاري المعروف با بن الشاط (الشيخ الفقيه الإمام الفاضل النبيل الناقد النجيب المنجب الاوحد...) (20).

2) ـ وكان شيوخ التجيبي أصحاب مؤلفات وشروح يعتمدونها للتدريس والاقراء في حلقاتهم :

أ ـ فشيخه ا بن أبي الربيع معدود في مشاهير المؤلفين في النحو واللغة خلال القرن السا بع الهجري ليس في سبتة. فحسب بل في مجموع الغرب الإسلامي. ومن تصانيفه وشروحه : كتا به (الملخص في ضبط قوانين العربية) (21). وشروحه على كتاب الجمل للزجاجي و(أعظمها الكتاب الموسوم بالبسيط وهو في عدة مجلدات ظهر فيها حفظه وتبريزه). (22) وشرحه على كتاب الا يضاح المسمى (الكافي في الإفصاح عن نكت كتاب الا يضاح) وهو في عدة أسفار (23). فضلا عن أماليه في تفسير القرآن واعرا به. (24) وفهرسته التي خرجها تلميذه ا بن الشاط (25).

ب ـ وشيخه مالك بن عبد الرحمن المعروف با بن المرحل صاحب منظومات وأراجيز. بعضها في السيرة (26). والمذيح النبوي (27). ووصف المكارم النبوية (28). وبعضها في الزهد (29). وبعضها في اللغة (30) والأدب (31).

ج ـ وشيخه أبو القاسم ا بن الشاط مؤلف وشارح. ومن أعماله التي نوه بها التجيبي كتا به (الإشراف على أعلى شرف في التعريف برجال

البخاري من طريق الشريف أبي علي ابن أبي الشرف) (32). وكتابه في الفرائض الذي سماه (غنية الرائض في علم الفرائض) (33). وهو (مختصر نبيل صغير الحجم. كبير الفائدة. شكره أهل المعرفة بالفرائض) (34). وله غير هذين الكتابين (35).

د ـ وشيخه أبو بكر محمد بن محمد الاصطبوني المعروف بالقللوسي هو أيضا صاحب أراجيز ذكر منها التجيبي اثنتين. إحداهما في الفرائض وهي تقع في جزء ضخم (36). وثانيتهما في القوافي واسمها (النكت المستوعبة) (37).

3 ـ واشتهرت طائفة من هؤلاء الشيوخ بالتضلع في بعض الأمهات والأصول مما كانوا يواظبون على إقرائه في حلقهم من كتب اللغة. والنحو. والفقه. والسيرة. فكان ابن أبي الربيع عارفا بغوامض كتاب سيبويه (38). وكان له بكتاب (الايضاح) للفارسي (اعتناء وله فيه نفوذ برع فيه بأبي علي بن الشلوبين. وشرحه شرحا شافيا) (39). وقل أن كان يغيب عنه شيء من كتاب اصلاح المنطق في اللغة لابن السكيت (40). وكان شيخه ابن مخلوف الوادي لوي أعني شيوخه بغوامض كتاب التهذيب في اختصار المدونة للبراذعي (41). وكان شيخه أبو حاتم أحمد العزفي مواظبا على اقراء سيرة ابن هشام. تسمعها عليه أفواج الطلبة مرات ذوات عدد (42). كما كان شيخه أبو عبد الله الكتامي مواظبا على تدريس كتاب ابن الصلاح في علم الحديث. يتلقاها عنه الطلبة مرات ومرات ما بين قراءة وسماع (43).

4 ـ والمشاركة في مختلف العلوم والمعارف ولا سيما علوم اللسان وعلوم الشريعة (44) من الصفات المشتركة بين شيوخ العلم في تاريخ الفكر الإسلامي بالمشرق والمغرب على اختلاف الأعصار. ولم يكن لشيوخ التجيبي السبتيين أن يشذوا عن ذلك، وقد عرف فيهم من كان (يدير ظهره الى جدار القبلة من بعد صلاة الصبح ويمشي دولة إثر دولة في الفنون العلمية إلى أن تزول الشمس) (45) ومن (كان يقرىء الطلبة في المجلس الواحد دولا في علوم شتى) (46). ومن يستعرض برنامجه يستطيع أن يلاحظ في يسر أن جل الشيوخ، إن لم نقل كلهم، كان يعرف بالمشاركة في علوم متقاربة أحيانا من مثل علوم النحو، واللغة، والأدب، وعلوم التفسير والقراءات، وعلوم الفقه والأصول، ومتباعدة أحيانا أخرى من مثل علوم الأدب والفرائض، وعلوم الحديث والطب، وما أشبه ذلك. وبحسبنا أن نتمثل صفة المشاركة هذه في شيخين من شيوخ التجيبي في سبتة، هما :

ا ـ الشيخ ابن أبي الربيـــع

أشار التجيبي في أكثر من موضع من برنامجه إلى ما كان لشيخه ابن أبي الربيع من المشاركة في مختلف العلوم والمعارف، ومن ذلك وصفه له بـ (الحافظ النحوي اللغوي الفرضي الحسابي المتفنن...) (47). وتتضح لنا هذه المشاركة العلمية لابن أبي الربيع من خلال استعراضنا لمقروءات التجيبي عليه في النحو، واللغة، والتفسير، والقراءات، والحديث،

والفقه، والسيرة، والأدب، وهذه هي العلوم التي نص التجيبي على أنه قرأها على هذا الشيخ، وهو ما سنفصل القول فيه في محله، ونكتفي هنا بالإشارة إلى أننا لا نستبعد أن يكون التجيبي قرأ على شيخه فضلا عن العلوم المذكورة آنفا علوما أخرى كالفرائض والحساب، وهما علمان يبدو أن ابن أبي الربيع كان يجيدهما فيما يجيد من علوم. وهي ما تشي به تحلية التجيبي له بـ (الفرضي الحسابي) (48). وأيا ما كانت الحال فإن في تنوع مقروء التجيبي على هذا الشيخ ما يقوم دليلا على مشاركة الرجل في مختلف العلوم والمعارف.

ب ـ الشيخ أبو عبد الله الكتامي المعروف بابن الخضار

هو أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله الكتامي الضرير. يعرف بابن الخضار، وهو أحد شيوخ العلم في سبتة ممن تحققت لهم المشاركة العلمية بالدرجة التي كانت تتيح لهم التصدر لاقراء غير ماعلم، وإسماع غير ما فن. وقد قرأ عليه التجيبي بعض كتب التاريخ، وكان حلبته الأولى فيما يدل عليه وصفه له بـ (التاريخي) (49)، كما قرأ عليه كتبا في الفقه، وأخرى في الحديث، وفضلا عن هذا وذاك فإننا نجد التجيبي يستجيز شيخه هذا جميع تآليف أبي عمرو بن الحاجب، وهي، فيما نعلم، متنوعة، بعضها في الفقه وأصوله، (50) وبعضها في النحو، والصرف، والعروض (51)، واستجازة التجيبي شيخه هذه المؤلفات يدلنا على أن هذا الأخير كان يحملها عن مؤلفها ويجلس لاقرائها فيما يقرئه بمساجد سبتة، وفي ذلك ما يكشف لنا عما كان لهذا الشيخ من مشاركة

في علوم شتى، فيها التاريخ، والفقه، والأصول، والحديث، وفيها النحو، والصرف، والعروض، وغير ذلك.

على أن هذه المشاركة العلمية التي كانت صفة غالبة على شيوخ التجيبي في سبتة، شأنهم في ذلك شأن غيرهم من شيوخ العلم في مختلف حواضره في الوطن الإسلامي، لم تكن لتحول بينهم وبين التضلع بعلم ما على نحو متميز يلفت اليهم أنظار طلبتهم فينسبونهم إلى ذلك العلم ويعرفونهم به. فابن أبي الربيع، على مشاركته التي رأينا، هو قبل كل شيء وبعده (نحوي لغوي) (52)، وابن الخضار، على مشاركته التي رأينا أيضا، هو قبل كل شيء وبعده أيضا (تاريخي) (53)، وبوسعنا أن نقرأ جملة من الأوصاف التي لم يكن التجيبي يخلعها على شيوخه جزافا لنلمح من خلالها المنحى الذي برزوا فيه، واشتهروا به من مناحي العلم والمعرفة. فشيخه أبو القاسم الأنصاري (الشيخ الفقيه) (54)، وشيخه ابن الدراج هو أيضا (الشيخ الفقيه) (55)، وشيخه أبو القاسم السلمي (النحوي الحافظ) (56)، وشيخه ابراهيم بن عيسى (المقرىء النحوي) (57)، وشيخه ابن المرحل (شيخ الأدباء) (58) و(الأديب) (59)، وشيخه أبو القاسم الغافقي (الإمام الأديب) (60) و(الحافل بالأدب) (61)، وشيخه أبو اسحاق الأنصاري (الشيخ الفرضي الحسابي) (62)، وشيخه أبو محمد عبد المهيمن الجزيري (الحاسب الفرضي) (63)، وهكذا...

5 ـ وعرف أغلب شيوخ التجيبي في سبتة بالحفظ، والتثبت، واليقظة، والضبط، والنقد، وهي مزايا كانت إذا توفر عليها أي من الشيوخ واشتهر بها تسابق الطلبة إلى حلقته للدرس، وحرصوا على لقائه للرواية، فإذا بعدت عليهم الشقة، أو لم يأنسوا من ظروفهم ما يسعفهم على الرحلة إليه، كاتبوه يستجيزونه فيما يحمل ويروي. وليس هنا موضع الإفاضة في شرح معاني تلك المزايا ودلالاتها وما كان لها من خطر وشأن في ارتقاء المعارف والعلوم في تاريخنا الفكري، وإنما نريد، هنا، ونحن نحاول أن نبلور البعد العلمي لشيوخ التجيبي السبتيين، أن نسجل بأن غالبية هؤلاء كانوا يتحلون بتلك المزايا، فهذا شيخ التجيبي أبو الحكم يحيى القيسي (الضابط الثبت اليقظ) (64)، وهذا شيخه ابن الخضار (الثبت الحافظ) (65)، وهذا شيخه ابن مخلوف الوادي لوي (الحافظ الثبت) (66)، وهذا شيخه أبو الظفر الكلبي (الحافظ) (67)، وهذا شيخه ابن القاري (الثبت) (68)، وهذا شيخه أبو القاسم الأنصاري (الناقد النبيل) (69)، وهكذا دواليك...

6 ـ كما أن صحة الرواية، وأمانة النقل، وعلو الإسناد، واتصال السماع، مزايا أخرى مثل سابقاتها التي عرضنا لها في الفقرة السالفة، كانت تحوط صاحبها من شيوخ العلم بهالة من التقدير، والتبجيل، والإجلال، وتحمل، بالآن عينه، الطلبة على إنضاء المطايا في سبيل التحلق حوله، والجلوس إليه.

وكان من شيوخ التجيبي السبتيين طائفة من ذوي الروايات الصحيحة، والأسانيد العالية فيما يقرئون ويسمعون من أصول في الحديث، والسيرة، والقراءات، وفي غير الحديث، والسيرة، والقراءات من علوم الآلة واللسان. فهذا شيخه أبو فارس عبد العزيز الهواري الجزري كان له في رواية صحيح البخاري يومئذ إسناد (لا نظير له في بلاد المغرب، جلالة رجال، واتصال سماع، وعلو صفة)، (70) وفي التعريف بـ (سلسلة اسناده حلقة حلقة) (71) ألف ابن رشيد السبتي (ت 721 هـ) كتابه (إفادة النصيح في التعريف بسند الجامع الصحيح) (72). وهذا شيخه السيد الشريف أبو علي الحسيني، كان له بدوره في رواية صحيح البخاري (إسناد جليل) (73) بعبارة التجيبي، وفي رجال هذا الإسناد ألف أبو القاسم ابن الشاط كتابه (الإشراف على أعلى شرف في التعريف برجال سند البخاري من طريق الشريف أبي علي بن أبي الشرف) (74). وكان لغير هذين الشيخين من شيوخ التجيبي السبتيين أمثال أبي القاسم محمد بن عبد الرحيم القيسي، وأبي محمد عبد المهيمن الأنصاري أسانيد عالية في رواية صحيح البخاري (75). وكان لشيخه أبي حاتم أحمد العزفي في رواية كتاب سيرة ابن اسحاق (إسناد شريف)، (76) وكان لشيوخه أبي الحسن عبد الرحيم القيسي، وأبي محمد عبد المهيمن الأنصاري، وابن أبي الربيع، وأبي محمد عبد الله الأنصاري في رواية كتاب (الشفا) لعياض أسانيد عالية (77). وكان لشيخه ابن أبي الربيع في رواية كتاب (الكافي) في القراءات لمحمد بن شريح الرعيني (طريق

عالية. وبقرب الاسناد جالية) (78). كما كان لهذا الشيخ من الطرق التي يروي بها كتاب (الإيضاح) لأبي علي الفارسي أعلاها (79).

7 ـ وبالنظر إلى هذه المنزلة العلمية الرفيعة التي تحققت لشيوخ العلم في سبتة على عصر التجيبي بفضل ما كان لهم من تضلع بألوان من المعارف، وسعة اطلاع على أضراب من العلوم. وما عرفوا به من مواهب ومقدرات عقلية ممتازة، تمثلت فيما ألفوا من مصنفات، وما وضعوا من شروح على الأمهات، إلى ما كانوا يتحلون به من مزايا الضبط، والتثبت، وعلو الإسناد. فقد كانت حلقهم ومجالسهم ليس فقط مألفا لعامة الطلبة، ولكنها كانت إلى ذلك أو قبله مألفا للصدور منهم، وللمشايخ، والقضاة، يأخذون عنهم، وينتفعون بهم، وهاهو ذا التجيبي نفسه يقول عن شيخه أبي القاسم الأنصاري بأنه كان معروفا بإفادته المشايخ والأصحاب (80)، وهو نفسه يخبرنا بأنه درس على شيخه ابن أبي الربيع صحيح البخاري (بقراءة صاحبنا الفقيه القاضي الأجل العارف أبي خالد محمد بن أحمد بن محمد بن رضوان بن أرقم النميري الوادي آشي رحمه الله تعالى) (81).

ب ـ البعد الخلقـــــي

لسنا نقع في برنامج التجيبي على مادة وافرة ننتفع بها في استجلاء البعد الخلقي لشيوخه ورسم صورة له بينة، جلية، وكل ما نظفر به فيما يتصل بهذا البعد لا يعدو أن يكون مجرد أوصاف قرن بها

التجيبي أسماء شيوخه كلما ألم بذكرهم من مثل أوصاف الزهد، والورع، والتقوى، والصلاح، والفضل، والنبل، فشيخه أبو زيد عبد الرحمن القصري (الصالح الزاهد النقي أعجوبة زمانه في الورع...) (82)، وشيخه أبو القاسم الغافقي (الصالح الزاهد) (83)، وشيخه أبو حاتم أحمد العزفي (الصالح الزاهد) (84)، وشيخه أبو القاسم الأنصاري (الفاضل النبيل) (85)، بل هو (نبيل مصره بل عصره) (86)، وشيخه ابن أبي الربيع (الفاضل) (87)، ومثل هذه الأوصاف، وهي، فيما نعتقد، ثمرة معاشرة لهؤلاء الشيوخ ومراقبة لسلوكهم عن كثب من طرف أحد تلامذتهم، تعكس لنا، ولو بقدر محدود، جوانب من البعد الخلقي لهؤلاء الشيوخ نستشف منها قاعدة خلقية في غاية الأهمية، كانت تحفظ على المجتمع الإسلامي تماسكه النفسي والعقلي، ويتحقق بها النفع العام للمجتمع العام، هي قاعدة ارتباط العلم بالعمل، وفي اعتقادنا أن شيوخ التجيبي، وهم يأخذون أنفسهم بهذه القاعدة، كانوا بقدر ما ينفعون طبقة خاصة من مجتمع سبتة هي طبقة الطلبة بما كانوا يقرئونها من علم، ويذيعون فيها من معرفة، كانوا ينفعون طبقات المجتمع الأخرى بسلوكهم المستقيم، وممارستهم الطيبة، وهو، بدون شك، مما كان يحبب فيهم الطلبة عامتهم وخاصتهم، ويعلي مقامهم عند هؤلاء وأولئك، وعند طبقات المجتمع جميعها.

ج ـ البعد الإجتماعـــي

لا يكاد البرنامج الذي نعتمده في هذه الدراسة يمدنا بأي لون من المعلومات التي يمكن الإفادة منها في تحديد البعد الإجتماعي لشيوخ

التجيبي السبتيين على نحو من الوضوح والجلاء يجعلنا على بينة من أحوالهم الإجتماعية، غير أن هذا لم يكن ليثنينا عن الإجتهاد في البحث والتنقيب عن الخطوط العامة لذلك البعد في ثنايا هذا البرنامج. وقد هدانا البحث فيما حاولناه من استكشاف لتلك الخطوط أو بعضها للنظر إلى أولئك الشيوخ من حيث :

1 ـ الأســـــرة

ارتبط حظ الأسرة في المغرب، على مختلف العصور، بوصفها خلية اجتماعية، من شيوع الذكر أو خموله، وجلاء المنزلة أو خفائها، بمقدار حظها من الرياسة والولاية أو عدمهما، ومن شرف النسب أو ضعته، ومن الحسب والأصالة، والعلم والصلاح أو عدمها، فكل ذلك كان يسهم بحظ غير يسير في تحديد المكانة الإجتماعية للفرد قبل أن يحددها هو لنفسه بإيجابياته أو سلبياته.

وفي ضوء هذا المعيار يمكننا القول بأن أغلب من عرفنا من شيوخ التجيبي كانوا، حتى قبل أن يعلي العلم منزلتهم، معدودين في ذوي المكانة المرموقة في مجتمع سبتة، وذلك لكونهم يتحدرون من :

أ ـ **بيت رياسة وولاية** مثل شيخه الفقيه أبي حاتم أحمد العزفي، أحد أفراد بني العزفي الذين ترأسوا بسبتة (88)، فهو (ابن الشيخ الإمام الأمير المعظم الفقيه الهمام أبي القاسم محمد...) (89) ومثل شيخه (أبي الظفر ابن الشيخ الاجل الوزير القائد أبي عمرو بن الفقيه أبي

محمد الكلبي) (90). ومثل شيخه (أبي محمد عبد الله بن عبد الله مولى الرئيس الأجل الهمام الأديب أبي عثمان سعيد بن حكم بن عمر بن حكم القرشي) (91).

ب ـ أو بيت نسب شريف مثل شيخه السيد الشريف الفاضل أبي علي بن السيد الشريف الحافظ أبي التقى طاهر بن القاضي الاجل أبي الشرف رفيع الحسيني (92). وشيخه السيد الشريف أبي عبد الله محمد بن السيد الشريف أبي زكريا يحيى بن السيد الشريف القاضي الاعدل أبي الحسن علي بن القاضي الاجل أبي الشرف الحسيني (93). وكلا الشيخين من بيت الشرفاء الحسينيين الذين (كانت لهم بسبتة وجاهة وسيادة، وجلالة ومجادة) (94). ومثل هذا النسب كان مما يرغب في الرواية عن أصحابه. وفي هذا الصدد روى التجيبي عن شيوخه الترغيب في التحديث (عن الاشراف فإنهم لا يرضون أن يدنسوا شرفهم بالكذب والخيانة) (95).

ج ـ أو بيت حسب وأصالة مثل شيخه (أبي الحسين عبد الله بن الشيخ الاجل أبي جعفر أحمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله بن أبي الربيع القرشي الأموي ثم العثماني من ولد أمير المؤمنين ذي النورين أبي عمرو عثمان بن عفان رضي الله عنه) (96). وشيخه (أبي الحسين عبيد الله بن عبد العزيز بن عبيد الله بن عبد الملك بن عبيد الله بن محمد بن غالب بن المغيرة بن عبد الرحمن الناصر) (97)

القرشي الأموي ثم المرواني المغيري. فكلا الشيخين يتصل نسبه بأجداد كانت بأيديهم زمام أمور المسلمين في المشرق وفي المغرب.

د ـ **أو بيت علم وصلاح** مثل شيخه (أبي الحكم يحيى بن الشيخ الفقيه القاضي الاجل أبي جعفر أحمد بن أبي زكريا يحيى بن إمام الفريضة بالجامع العدبسي أبي الحسين عبيد الله بن أبي العرب يحيى بن الشيخ الفقيه القاضي الاجل أبي القاسم أحمد بن الشيخ الفقيه القاضي الفاضل أبي بكر محمد بن أحمد بن محمد بن منظور بن عبد الله بن منظور القيسي) (98). وشيخه (أبي القاسم خلف بن الشيخ الصالح المجاب الدعوة الحافظ أبي الأصبغ الغافقي القبتوري) (99). فالأول من هذين الشيخين، كما رأينا من سلسلة نسبه، ينتسب إلى اسرة كان من بنيها شيوخ العلم، وأئمة الفريضة، والقضاة، وثانيهما كان ابن رجل عرف في المجتمع بالصلاح واستجابة الدعوة.

على أننا لا نستبعد بعد ذلك أن يكون من شيوخ التجيبي السبتيين من كانت أنسابهم في أسر مغمورة، ولو لم يرفع لهم العلم شأنا، لظلوا أغفالا، ليس يجري بذكرهم لسان. ولعلنا أن نرى في شيخه أبي عبد الله الكتامي الذي عرف بـ (ابن الخضار) وشيخه أبي عبد الله محمد الصنهاجي الذي عرف بـ (الجزار) مثالين على ذلك. ففي نسبتيهما ما قد يشي بالمكانة المتواضعة للطبقة الإجتماعية التي كانت أسرتا هذين الشيخين من عدادها.

2 ـ الوظيفـــــة

ولا شك أن منزلة الفرد في المجتمعات المغربية، ومنها مجتمع سبتة، ارتبطت، من نحو آخر، على تطاول العصور، بنوع الوظيفة التي يشغلها. فكانت تلك تسمو بسمو هذه، وتنحط بانحطاطها؛ ومعنى ذلك أنه مثلما كانت الأسرة تسهم في تحديد المكانة الإجتماعية للفرد الذي ينتمي اليها أسهمت الوظيفة، تكليفا كانت أو تشريفا، في بلورة هذه المكانة وتأطيرها مع فارق واحد تجدر الإشارة اليه وهو أن المكانة التي تحددها الأسرة للفرد يكون عليه أن يتقبلها طوعا أو كرها، في حين أن المكانة التي تحددها له الوظيفة غالبا ما تكون ثمرة مواهبه، وقدراته، وإمكاناته.

والسؤال الذي نطرحه الآن هو : هل كان شيوخ التجيبي السبتيون يتخذون جميعهم الاقراء والتدريس مهنة تدر عليهم الأرزاق أم أن منهم من كان يتولى، إلى ذلك، وظائف أخرى ؟.

الواقع أنه إلى جانب طائفة من هؤلاء الشيوخ كرست حياتها للاقراء، وأوقفت جهدها على التدريس أمثال أبي زيد عبد الرحمن ابن صاب رزقه (خير المكتبين وضابط المؤدبين) (100)، وابن أبي الربيع (شيخ الاستاذين وإمام المقرئين) (101)، وأبي القاسم ابن الشاط (102)، فإننا نجد طائفة أخرى كانت فضلا عن جلوسها للاقراء، تشغل وظائف

أخرى في مجتمع سبتة يومئذ. كانت أقدار من يتولاها من الناس تعلو في أعين الناس. وهذه الوظائف يمكن حصرها في :

أ ـ **القضاء والافتاء** : وقد عرفنا من شيوخ التجيبي الذين تولوا هذه الوظيفة الشيخ ابن القاري (القاضي الاجل) (103)، والشيخ ابن الدراج (المفتي القاضي الجليل) (104)، والشيخ أبا اسحاق ابراهيم الغافقي (105).

ب ـ **العدالة والتوثيق** : وممن اشتغلوا بذلك من شيوخ التجيبي نذكر أبا جعفر القيسي (العدل الجليل) (106)، وأبا محمد عبد المهيمن الانصاري (الشيخ العدل المبرز) (107)، وأبا القاسم محمد السلمي (العدل الحسيب) (108)، و(العدل المبرز) (109)، وكان من شيوخ التجيبي رئيس العدول والموثقين بسبتة، وهو أبو فارس عبد العزيز الهواري (الشيخ العدل المبرز مقدم الموثقين المجيدين بسبتة ورئيس جماعتهم) (110).

ج ـ **الخطابـة** : وكان في شيوخ التجيبي الذين كانوا ينهضون بها ابن صاب رزقه (الخطيب الصالح) (111)، و(الخطيب) (112) أبو محمد عبد الله مولى أبي عثمان القرشي.

3 ـ الإقامة والطـــرؤ

وبما أن قدم الإقامة، جيلا بعد جيل، بمدينة ما، يبوىء أصحابه أفرادا وجماعات، مكانة ملحوظة في المجتمع، دونها، بالتأكيد، المكانة

التي تكون للطرأة عليها. فقد رأينا. ونحن نحاول استكشاف جوانب من صورة شيوخ العلم في سبتة على عصر التجيبي أن نطرح سؤالا آخر نعتقد أن الإجابة عنه قد تسعف، ولو بحظ يسير، في بلورة بعدهم الإجتماعي، وهو : هل كان هؤلاء الشيوخ جميعهم ممن أنبتتهم سبتة أم كان فيهم ممن طرأوا عليها ؟.

لقد ميزنا في برنامج التجيبي طائفة من شيوخه انبتتها هذه المدينة من مثل أبي حاتم أحمد العزفي (113) أحد أمراء البيت الذي تولى حكم المدينة في القرن السابع الهجري، ومثل ابن الدراج (أحد من أنجبته سبتة واشتهر بها وبغيرها فضله وتفننه) (114)، ومثل أبي القاسم الأنصاري المعروف بابن الشاط (نبيل مصره) (115) أي سبتة.

وإلى جانب هؤلاء ميزنا في البرنامج طائفة أخرى من شيوخه الطراء على سبتة. وبرغم ما قد يكون من اختلاف في الدوافع التي حدت بهؤلاء الشيوخ إلى ترك بلدانهم والتوجه إلى سبتة لاتخاذها دارا ومقاما فإن نزولهم بها دون غيرها من مدن المغرب يؤكد لدينا ما أسلفنا الإشارة إليه حول الأهمية العلمية التي كانت لهذه المدينة في تلك الفترة. وأيا ما كانت الحال فإن جل شيوخ العلم الذين نزلوا سبتة واستوطنوها في النصف الثاني من القرن السابع كانوا :

أ ـ من مدن مغربية، مثل فاس، ولها يومئذ شأن كبير في الحركة العلمية والفكرية ببلادنا، (116) فقد كان فيمن تركها إلى سبتة من

الشيوخ أبو العباس أحمد بن يوسف بن فرتون السلمي الفاسي الذي نزلها سنة تسع وخمسين وخمسمائة. (117) ومثل قصر كتامة، ومنه رحل إلى سبتة مؤدب التجيبي وشيخه ابن صاب رزقه، (118) ومثل تلمسان، ومنها شيخه أبو إسحاق ابراهيم بن موسى الأنصاري (نزيل سبتة)، (119) وشيخه أبو عبد الله محمد الكتامي (التلمساني المولد، السبتي الاستيطان) (120)، وشيخه أبو فارس الهواري (التلمساني المولد ، السبتي الاستيطان) (121).

ب - ومن مدن أندلسية، ولا سيما اشبيلية التي أزعج أهلها عنها باستيلاء النصارى عليها فيما يعرف بحرب الاسترداد Reconquista سنة 645 هـ (1248م) (122). ومن شيوخ التجيبي الاشبيليين الذين هاجروا إلى سبتة واستوطنوها ابن أبي الربيع (الاشبيلي مستوطن سبتة) . (123) وابن القاري (الاشبيلي نزيل سبتة)، (124) وأبو جعفر القيسي (الأندلسي الاشبيلي نزيل سبتة)، (125) وأبو بكر محمد الأنصاري (الأندلسي الاشبيلي... مستوطن سبتة) (126).

II - كتب الدرس في سبتة

بلغ عدد الكتب التي ذكر التجيبي في برنامجه أنه درسها ورواها في مختلف الحلقات والمجالس بمختلف الأمصار والأقطار أربعين وثلاثمائة كتاب، تتوزع هذا العدد مختلف العلوم. (127) فيها تفسير

وقراءات وحديث، وفيها فقه وأصول وفرائض، وفيها سيرة وزهد وتصوف، وفيها نحو ولغة وأدب.

وفي هذا القسم الثاني من هذه الدراسة نريد أن نتعرف من بين ذلك العدد الضخم من مقروءات التجيبي ومروياته على كتب الدرس التي قرأها في مختلف العلوم بحلقات شيوخ العلم في سبتة لنقف بذلك على أكثر الكتب دورانا في هذه الحلقات، وأبعدها أثرا في تكوين الطالب السبتي وتوجيهه يومئذ، ملاحظين، خلال ذلك، حظ الكتاب المغربي، والكتاب الأندلسي إلى جانب الكتاب المشرقي من عناية الشيوخ واهتمامهم.

ولعله من تمام الفائدة الا نباغت صاحبنا التجيبي في حلقات الدرس، ومجالس التحصيل قبل أن نرقبه، وهو بعد يرفل في أبراد الطفولة والصبا، يتردد صباحه والمساء على مكتب أبي زيد عبد الرحمن القصري المعروف بابن صاب رزقه (خير المكتبين وضابط المؤدبين)، (128) يقرأ عليه القرآن الكريم ويستظهره : (ودرسته بين يديه باللوح وعرضته عليه من فاتحته إلى خاتمته المرة بعد المرة بحيث لا أحصى ذلك كثرة بحرف نافع رحمه الله، وهو أول من فتق لساني بكتاب الله تعالى) (129)، وفي هذا المكتب أيضا قرأ التجيبي بعض المتون والمنظومات (130) مثل (قصيدة المقرىء الأديب أبي الحسن علي بن عبد الغني الفهري القروي الحصري رحمه الله تعالى في قراءة نافع رحمه

الله. عرضتها عن ظهر قلب بالمكتب على سيدي الخطيب الصالح أبي زيد بن صاب رزقه رحمه الله مرات ذوات عدد. وهي مائتا بيت وتسعة أبيات) (131).

وها قد آن لنا أن نقف على كتب الدرس في :

1 ـ حلقات التفسير والقراءات

عرفنا في برنامج التجيبي حلقتين للتفسير :

إحداهما كانت لابن أبي الربيع، وفيها درس عليه التجيبي فيما درس ماتسنى لهذا الشيخ إملاؤه في هذه الحلقة (من تفسير الكتاب العزيز وإعرابه) (132).

وثانية الحلقتين كانت للشيخ محمد بن عبد الرحيم القيسي الجزري، وفيها قرأ عليه التجيبي جزءا فيه لغات القرآن العزيز وتفسيره عن أبي العباس عبد الله بن العباس (133). ويظهر من سلسلة الاسناد (134) التي يوردها التجيبي لهذا الكتاب أنه كان من كتب الدرس في التفسير التي اعتمدت في حلقات الشيوخ بسبتة خلال عقود من القرن السابع.

وكانت القراءات رائجة السوق على عصر التجيبي، ولذلك كثر المتصدرون لتدريسها، وتعددت حلقاتها. وفي برنامج التجيبي تستوقفنا منها :

أ ـ حلقة ابن أبي الربيع، وفيها قرأ التجيبي (جميع الكتاب العزيز بالأربع عشرة رواية المألوفة المشهورة المعروفة عن القراء السبعة المشهورين أئمة المسلمين رحمهم الله ورضي عنهم أجمعين في ثماني عرضات) (135). ويظهر أن هذا الشيخ كان يمنح طلبته شهادة بصحة تمكنهم مما حصلوا من قراءات على يديه، وهو ما يصرح به التجيبي إذ يقول : (وكمل لي بحمد الله تعالى وهدايته وتوفيقه جميع العرضات المذكورة في مدة آخرها شهر ربيع الآخر من سنة ست وثمانين وستمائة، وكتب لي الأستاذ الاجل أبو الحسن المذكور رحمه الله تعالى صحة ذلك بخط يده المباركة وأشهد لي به في التاريخ فقهاء سبتة وفضلاءها وأمراءها وكبراءها) (136).

وكان ابن أبي الربيع يعتمد في تدريس القراءات كتابين أندلسيين، أولهما الكتاب الكافي في القراءات السبع عن القراء السبعة المشهورين لمؤلفه الإمام المقرىء أبي عبد الله محمد بن شريح الرعيني الاشبيلي. وينص التجيبي أنه قرأه على الشيخ المذكور جميعه كاملا. (137) أما الكتاب الثاني فهو كتاب المفردات، (138) وهو في قسمين، أحدهما، وهو للمؤلف السابق، يحتوي على روايتي عبد الله بن كثير، وروايتي أبي عمرو، وروايتي الكسائي، وثانيهما، وهو من تأليف ابنه أبي الحسن شريح، يحتوي على روايتي ابن عامر، وروايتي عاصم، وروايتي حمزة. وقد نص التجيبي أنه قرأ على شيخه ابن أبي الربيع (جميع هذا الكتاب كاملا)، (139) وكان لمؤلفي (كتاب المفردات) تصانيف أخرى في

القراءات (140) لانستبعد بحال أن تكون فيما كان ابن أبي الربيع يلقنه طلبته من كتب الدرس حين يحلق للقراءات، وقد يقوي عندنا هذا الافتراض إشارتان. وردت إحداهما في ختام حديث التجيبي عن سلسلة سنده في رواية كتاب المفردات عن شيخه ابن أبي الربيع حيث يقول : (وبهذا الاسناد ساويت في جميع تواليف أبي الحسن هذا وفي جميع تواليف أبيه أكثر مشايخي رحمهم الله) (141) ووردت الإشارة الثانية بعد ذكره لكتابين من كتب أبي الحسن بن شريح قرأهما في بجاية على خطيبها الشيخ أبي عبد الله بن صالح. وفيها - أي الإشارة - يذكر التجيبي أن شيخه ابن أبي الربيع كان فيمن أذنوا له من شيوخه عن أبي القاسم بن بقي عن أبي الحسن شريح بجميع تواليفه وتواليف أبيه (142).

ب - حلقة الشيخ ابن القاري، وكان يعتمد للتدريس فيها الكتاب الكافي في القراءات السبع لابن شريح. وقد أقر للتجيبي بروايته (143).

ج - حلقة الشيخ أبي الحكم يحيى بن منظور القيسي، وكان يعقدها (بمسجد اقرائه بأسفل زقاق ابن عيسى من سبتة المحروسة). (144) وفيها قرأ عليه التجيبي جميع الكتاب الكافي لابن شريح (من أوله إلى آخره) (145).

د - حلقة الشيخ أبي بكر محمد الأنصاري، وكان يعقدها بداره حيث سمع عليه التجيبي الكتاب الكافي المذكور كاملا (146).

هـ ـ حلقة أبي القاسم القاسم بن عبد الله الأنصاري، وفيها كان يقرىء طلبته كتاب (التيسير لحفظ مذاهب القراء السبعة في القراءات وتبيين ذلك على المشهور عنهم من الطرق والروايات) (147) لأبي عمرو الداني. وينص التجيبي أنه سمع على هذا الشيخ (جميع هذا الكتاب كاملا) (148).

ومع أننا لا نشك في أن حلقات الدرس بسبتة كانت تعرف على عصر التجيبي، وقبل عصر التجيبي، في مجال التفسير والقراءات آثارا أخرى لمؤلفين مشارقة وأندلسيين (149) فإن فيما ذكره التجيبي من مقروئه في العلمين المذكورين ما يدل دلالة واضحة على العناية البالغة التي كانت مؤلفات الأندلسيين في القراءات خاصة تحظى بها لدى شيوخ العلم السبتيين. وقد لاحظنا انه باستثناء قصيدة الحصري المغربي التي قرأها التجيبي واستظهرها في مكتب مؤدبه ابن صاب رزقه فإن جميع الحلقات التي كان التجيبي يختلف إليها كان أصحابها يعتمدون في تدريس علم القراءات مؤلفات أندلسية. وجدنا منها كتابا مثل الكافي لابن شريح يستأثر باهتمام كافة الشيوخ المدرسين حتى يكاد يصبح مدار الأمر في القراءات مقصورا عليه في أغلب الحلقات (150).

2 ـ حلقات الحديث

من المعلوم أن كتب البرامج ـ ومنها برنامج التجيبي ـ كانت في الغالب من عمل مؤلفين يأتي الحديث وما يمت إليه من علوم المصطلح.

والنسخ، والاسناد، ومعرفة العلل، والتواريخ، والرجال، في مقدمة مشاغلهم الفكرية، (151) ومن هنا فليس مما يثير دهشتنا أن نلفي لكتب الحديث في برنامج التجيبي نصيبا موفورا ليس يقل عن نيف وأربعين في المائة من مجموع الكتب التي تضمنها البرنامج (152). فمن كان يتصدر بسبتة حلقات الحديث ؟ وأي كتبه كان يعتمد فيها ويتداول بين أيدي الشيوخ والطلبة ؟.

تردد التجيبي لقراءة مصادر الحديث من الموطآت، والصحاح، والمسانيد، وكتب علوم الحديث وأصوله، على كثير من الحلقات والمجالس التي كان الشيوخ يعقدونها لذلك في جوامع سبتة ومساجدها، نلم بها فيما يلي :

أ ـ حلقة الشيخ ابن أبي الربيع، وفيها قرأ التجيبي طائفة صالحة من كتاب الموطأ لمالك بن أنس، وتكرر له سماع كثير منه عليه. (153) ويظهر أن ابن أبي الربيع كان يلزم طلبته بالحفظ والاستظهار فيما يقرئهم من حديث، فإنا نجد التجيبي لا يترك هذه الحلقة حتى يعرض على شيخه (صدرا منه ـ أي الموطأ ـ عن ظهر قلب) (154). وفي حلقة ابن أبي الربيع هذه سمع التجيبي عليه طائفة من صحيح البخاري تفقها. (155) كما سمع عليه من صحيح مسلم طائفة أخرى تفقها. (156) وإلى جانب هذه الأصول كان ابن أبي الربيع يدرس لطلبته كتاب الاحكام في الحديث في نسخته الصغرى، (157) وهو من تأليف أبي محمد عبد

الحق بن عبد الرحمن الأزدي. وكان ابن أبي الربيع يمنح طلبته الإجازة بما يقرأون ويسمعون بين يديه من هذه الكتب، وقد نص التجيبي على أن شيخه هذا أجاز له الموطأ معينا، (158) وأجازه سائر صحيح البخاري، (159) وسائر صحيح مسلم، (160) وسائر كتاب الاحكام في الحديث للأزدي، (161) وأخبره إجازة بجزء فيه عوالي حديث الشيخ سراج الدين أبي بكر محمد بن علي بن ياسر الجياني (162).

ب ـ حلقة الشيخ أبي القاسم محمد بن عبد الرحيم العبسي، كان يقرىء فيها موطأ مالك، وعليه سمع التجيبي (جميع هذا الكتاب كاملا... في مجالس)، (163) أرخ لآخرها بالثالث والعشرين لمحرم من سنة إحدى وتسعين وستمائة (164). وكان الشيخ أبو القاسم يقرىء كذلك صحيح البخاري، وعليه سمع التجيبي (جملة من هذا الجامع تفقها) (165)، وتجدر الإشارة إلى أن هذا الشيخ كان يتوفر على أسانيد عالية في رواية البخاري (166) مما نتصور معه اكتظاظ حلقته بالطلبة الذين كانوا يحرصون على الظفر بالأسانيد العالية، وينضون في سبيلها ظهور المطي كما يقولون.

وعلى الرغم من رواج سوق الفقه والفروع في سبتة على عصر التجيبي، وعلى الرغم من أن سنن أبي داود كما يقول التجيبي نفسه (كتاب الفقهاء أصحاب المسائل) (167) فإننا لم نجده يتداول ـ حسب البرنامج الذي نعتمده ـ إلا في حلقة للشيخ أبي القاسم العبسي، ففيها قرأ

عليه التجيبي بعض هذا الكتاب (وسمعت عليه باقيه فكمل لي جميعه ما بين قراءة وسماع بالروايات الثلاث ، رواية ابن داسة، والرملي، وابن الأعرابي رحمهم الله تعالى) (168). وأصح روايات هذا الكتاب كلها وهي آخر ما أملى أبو داود رحمه الله رواية أبي علي محمد بن أحمد بن عمرو اللؤلؤي البصري، وعليها مات أبو داود. وكان الشيخ أبو القاسم العبسي يخبر بها طلبته (سماعا لما وافق منها الروايات المذكورة وإجازة لما خالفها إن خالف) (169).

كما كان الشيخ أبو القاسم العبسي يقرىء طلبته في حلقته هذه كتاب السنن لأبي عبد الرحمن النسوي، وعليه سمع التجيبي من هذا الكتاب (أزيد من ثلثيه (170) في تسعة وثلاثين مجلسا)، (171) رأجازه (باقي الكتاب) (172).

وفضلا عن هذه الأصول والأمهات فقد كان الشيخ أبو القاسم العبسي يعتمد في تدريس الحديث الشريف كتبا أخرى، عرفنا منها في برنامج التجيبي إثنين ، أحدهما جزء فيه عوالي من حديث الشيخ سراج الدين أبي بكر ممد بن علي بن ياسر الجياني وأحاديث ساوى بها الايمة. ويظهر من سلسلة الاسناد التي يروي بها الشيخ أبو القاسم العبسي هذا الكتاب أنه قديم التداول في حلقات الحديث بسبتة. (173) أما الكتاب الثاني فهو عبارة عن جزء فيه شرح حديث بادنة بنت غيلان من جمع الفقيه الأستاذ المقرىء أبي البقاء يعيش بن علي الأنصاري. ويعتبر هذا

الكتاب واحدا من شروح المغاربة الحديثية. وقد حمله معه الشيخ ابن فرتون من فاس حيث كان يقرأه على مصنفه إلى سبتة حيث جلس لاقرائه (174).

ج ـ حلقة الشيخ أبي محمد عبد المهيمن الأنصاري الجزيري، وهو أحد شيوخ الحديث في سبتة الذين عرفوا بالأسانيد العالية وخاصة في صحيح البخاري. (175) وفي حلقته هذه سمع عليه التجيبي طائفة من موطأ مالك، (176) وأخرى مُن غير تفقه من صحيح البخاري، (177) وثالثة من صحيح مسلم، (178) كما سمع عليه كتاب الاحكام في الحديث للأزدي. (179) وينص التجيبي على إجازة شيخه هذا له بسائر الموطأ، (180) وسائر صحيح مسلم معينا (181).

د ـ حلقة الشيخ أبي الحسن عبيد الله بن عبد العزيز الأموي المعروف بابن القاري، وفيها سمع عليه التجيبي يسيرا من موطأ مالك، وتناوله (جميعه من يده بثغر سبتة المحروس) (182).

هـ ـ حلقة الشيخ أبي عبد الله الكتامي، ومن الكتب التي يبدو أن هذا الشيخ كان يواظب على تدريسها في حلقته بمسجد زقاق الملال من داخل سبتة (183) كتاب معرفة أنواع علم الحديث لأبي عمرو عثمان بن محمد السرخاني المعروف بابن الصلاح، فقد سمعه عليه التجيبي جميعه كاملا مرتين، وقرأه عليه جميعه أيضا من أوله إلى آخره بلفظه (فكمل لي ـ يقول التجيبي ـ جميعه عليه ثلاث مرات ما بين قراءة وسماع، أولاها

في خمسة مجالس آخرها في يوم الخميس الرابع والعشرين لشهر ربيع الأول المبارك من سنة تسع وثمانين وستمائة...) (184) كما سمع التجيبي على شيخه هذا في حلقته المذكورة من صحيح البخاري (ثلاثياته عودا بعد بدء)، (185) وأجازه جميعه (186).

و - حلقة الشيخ أبي فارس عبد العزيز بن ابراهيم الهواري الجزري، وفيها قرأ عليه التجيبي صحيح البخاري (كاملا من أوله إلى آخره عودا بعد بدء) (187). ولم يذكر أنه قرأ عليه كتابا آخر من الصحاح أو المسانيد أو من غير الصحاح والمسانيد من كتب علوم الحديث، وقد يدل ذلك على أن هذا الشيخ كان يقصر حلقته على تدريس البخاري دون غيره سيما وأننا نعلم أن سماعه له كان يومئذ (باسناد لا نظير له في بلاد المغرب، جلالة رجال، واتصال سماع، وعلو صفة)، (188) وإذا أضفنا إلى ذلك أن هذا الشيخ كان من أبرز المسندين في سبتة على عصر التجيبي (وأشهرهم ثقة وعدالة) (189) في عبارة ابن رشيد استطعنا أن نتصور أي زحام هذا الذي كانت تشهده الحلقة التي كان التجيبي يحرص على حضورها لقراءة البخاري على الشيخ أبي فارس.

ز - حلقة الشيخ أبي علي الحسين بن طاهر الحسيني، وفيها تلقى التجيبي على هذا الشيخ صحيح البخاري (قراءة عليه لبعضه ومناولة لجميعه)، (190) فربط بذلك سنده في روايته بإسناد هذا الشيخ، وهو

(إسناد جليل، ورجاله مشاهير) (191). ومن الكتب التي كان الشيخ الحسيني يعنى بها في حلقته ويفيد بها طلبته كتاب ابن القطان الفاسي في (الوهم والايهام الواقعين في كتاب الاحكام) (192).

ح - حلقة الشيخ أبي القاسم القاسم الأنصاري، وفيها قرأ عليه التجيبي جميع كتاب شمائل النبي صلى الله عليه وسلم للترمذي، ثم عاد فسمع عليه (جميعه من فلق فيه). (193) ويصف التجيبي الاسناد الذي تلقى به هذا الكتاب على شيخه الأنصاري بأنه (أعلى الممكن في هذا الكتاب في أقطار الأرض كلها في هذا التاريخ) (194). وفي هذه الحلقة قرأ التجيبي عليه أيضا كتاب الشهاب لأبي عبد الله محمد بن سلامة القضاعي (195)، وهو كتاب يقول عنه التجيبي بأنه (مشهور عند أهل الحديث متداول بينهم، وكثيرا ما يحفظه الطلبة عن ظهر قلب، ويتذاكرون بأحاديثه) (196).

ط - حلقة الشيخ أبي الظفر بن أبي عمرو الكبي، وفيها قرأ التجيبي على هذا الشيخ كتابين للقاضي عياض، أحدهما هو كتاب (الإلماع إلى معرفة أصول الرواية وتقييد السماع) (197)، وثانيهما هو كتاب (بغية الرائد لما تضمن حديث أم زرع من الفوائد) (198). وبالتأمل في سلسلة الاسناد التي تلقى بها التجيبي عن شيخه أبي الظفر هذين الكتابين والتي تنتهي إلى مصنفهما القاضي عياض (199) يتبدى لنا

أنهما ظلا مما يتداوله شيوخ العلم وطلبته في حلقات الدرس بسبتة منذ ألفهما صاحبهما في النصف الأول من القرن السادس إلى أيام التجيبي أواخر القرن السا بع.

ي ـ حلقة الشيخ أبي عبد الله محمد الأنصاري المعروف با بن الدراج. وفيها قرأ عليه التجيبي جزءا (فيه أر بعون حديثا في الاذكار مما يستعمل بالعشي والا بكار) (200) لمؤلفه أبي عمرو عثمان الز بيدي. وقرأ (عليه أيضا ما اتصل بالأر بعين المذكورة من الادعية المباركة المأثورة) (201).

ك ـ حلقة الشيخ أبي القاسم السلمي. وفيها أتحيت للتجيبي مرة أخرى فرصة قراءة طائفة من كتاب عياض (الالماع). (202) والظفر بإجازة الشيخ له سائره (203).

ل ـ حلقة الشيخ أبي القاسم خلف بن عبد العزيز الغافقي. وفيها سمع عليه التجيبي كتاب (الاعتبار في ناسخ الحديث ومنسوخه) لمؤلفه أبي بكر محمد بن موسى الحازمي (204).

ولعل أهم ما يسترعي النظر فيما كان يعتمد في هذه الحلقات من كتب الدرس أنه :

أ ـ مع ماعرف عن طائفة من أهل المغرب والأندلس من تفضيل صحيح مسلم على صحيح البخاري (205) فإن هذا الأخير ظل في سبتة.

على عصر التجيبي، يستأثر بحظ وافر من اهتمام شيوخ العلم وطلبته، كان دونه حظ صحيح مسلم في حلقاتهم.

ب ـ ومع ما عرف لكتب صناعة الحديث المشرقية من مثل (علوم الحديث) للحاكم النيسابوري، وكتاب العلل للدارقطني من تداول في حلقات المحدثين السبتيين (206) فإن كتاب (الالماع) للقاضي عياض زاحمها في تلك الحلقات، بل استطاع أن ينحي بعضها ليصبح بمرور الأيام في طليعة ما يعني بتدريسه الشيوخ في صناعة الحديث ليس فقط في سبتة، (207) وإنما كذلك في الأندلس (208) والمشرق (209).

ولا نختم هذه الفقرة دون أن نشير إلى أن في اعتماد الشيوخ السبتيين في حلقات الحديث، إلى جانب ما كانوا يعتمدونه فيها من آثار المشارقة، مؤلفات مغربية مثل كتاب (بغية الرائد) للقاضي عياض، وكتاب (شرح حديث بادنة) لأبي البقاء الأنصاري، وكتاب (الوهم والايهام الواقعين في كتاب الاحكام) لابن القطان الفاسي ما يعكس لنا المكانة المرموقة التي احتلها الكتاب المغربي يومئذ في نفوس الشيوخ والطلبة على حد سواء.

3 ـ حلقات الفقه والفرائض

عرفنا من حلقات الفقه التي كان التجيبي يختلف إليها في سبتة :

أ ـ حلقة الشيخ ابن أبي الربيع، وكان يقرىء فيها من كتب الفقه المالكي (كتاب التفريع) لأبي القاسم عبيد الله بن الجلاب، وقد قرأ عليه التجيبي (جملة كثيرة منه تفقها) (210)، وأجازه باقيه، (211) وكتاب (الجواهر الثمينة في مذهب عالم المدينة) لأبي محمد عبد الله الجذامي السعدي، وقد سمع التجيبي عليه (طائفة صالحة منه تفقها) (212)، وكتاب الرسالة لأبي زيد القيرواني، قرأها عليه التجيبي جميعها تفقها، (213) وكتاب التهذيب في اختصار المدونة لأبي سعيد خلف الأزدي القيرواني المعروف بالبراذعي، سمع عليه التجيبي جملة منه تفقها، (214) وكتاب المختصر في الفقه لأبي الحسن علي ابن عيسى التجيبي الطليطلي، قرأه عليه جميعه تفقها، (215) وهو من كتب الأندلسيين الفقهية التي تلقاها الناس بالقبول، واهتم بها الأشياخ، وعني بها الطلبة، وقد عرف عن ابن أبي الربيع أنه كان (يحرض من أراد أن يقرأ الفقه أن يبتدىء به ويقول إن البركة عرفت في ذلك)، (216) وينص التجيبي بدوره على أنه كتاب (ظهرت بركته واشتهرت منفعته)، (217) وكتاب المقدمات في الفقه للقاضي أبي الوليد محمد بن رشد القرطبي، سمع التجيبي على شيخه ابن أبي الربيع (بعضه تفقها)، (218) وأجازه سائره (219)، وكتاب الكافي في الفقه لابن عبد البر النمري، سمع كذلك عليه (جملة منه تفقها)، (220) وحدثه به (بعد أن أجازه سائره)، (221) وكتاب التلقين للقاضي أبي محمد عبد الوهاب ابن طوق البغدادي، سمع التجيبي على شيخه ابن أبي الربيع (كثيرا منه تفقها) (222).

ب ـ حلقة الشيخ أبي عبد الله محمد الكتامي. وفيها قرأ التجيبي على شيخه هذا كتابين اثنين. أولهما (كتاب الزكاة) من جمع الفقيه الحافظ أبي بكر محمد بن الجد الفهري، (223) وثانيهما (كتاب النظر في أحكام النظر) لابن القطان الفاسي. (224) سمع الأول جميعه كاملا في مجلسين. (225) وسمع الثاني جميعه كاملا في خمسة مجالس (226).

ج ـ حلقة الشيخ أبي القاسم محمد بن عبد الرحيم القيسي العبسي، وفيها قرأ عليه التجيبي جزءاً من رسالة أبي زيد القيرواني إلى باب النكاح والطلاق. وأجازه سائرها (227).

د ـ حلقة الشيخ أبي عبد الله محمد الأنصاري المعروف بابن الدراج. وفيها قرأ عليه التجيبي طائفة من كتاب التهذيب في اختصار المدونة للبراذعي القيرواني تفقها. (228) وفاتته خلال ذلك (عن كثير من مشكلاته) (229).

هـ ـ حلقة الشيخ أبي زكريا يحيى بن عبد السلام بن مخلوف الوادي لوي، وفيها سمع عليه التجيبي يسيرا من صدر كتاب البراذعي السابق تفقها (230) وهو وإن كان جلس إلى شيخين آخرين هما ابن أبي الربيع وابن الدراج لقراءة تهذيب البراذعي وسماعه فإنه يصرح بأن شيخه الوادي لوي (كان أعنى الثلاثة بغوامض هذا الكتاب) (231).

و ـ حلقة الشيخ أبي القاسم القاسم بن عبد الله الأنصاري، وفيها سمع عليه التجيبي كتابه في الفرائض الذي سماه (بغية الرائض في علم الفرائض) (232).

ز ـ حلقة الشيخ أبي بكر محمد بن محمد القللوسي، وفيها سمع عليه التجيبي أرجوزته في الفرائض (233) (جميعها من فلق فيه في مجالس) (234).

ـ حلقة الشيخ أبي إسحاق ابراهيم بن أبي بكر الأنصاري التلمساني، كان يدرس لطلبته أرجوزة له في الفرائض. قرأها عليه التجيبي جميعها (235).

هذه هي الكتب التي كان الشيوخ السبتيون يعتمدونها حين يجلسون لاقراء الفقه، والاحكام، والفروع. وإذا كان مؤلفوها قد توزعتهم الأقطار، وباعدت بينهم الأزمان، فإن (المالكية)، من جهة، هي الخيط الذي انتظم كتبهم، والجودة، من جهة ثانية، هي التي أفسحت لها في مكتبة الفقه المالكي مكانا متميزا، ولا غرابة في ذلك، فهؤلاء المؤلفون، أو أغلبهم، على الأقل، من القامات المديدة ـ إذا صح التعبير ـ في ميدان الفقه المالكي، فإبن القطان، وابن الشاط من المغاربة، وابن رشد، وابن الجد من الأندلسيين، وابن أبي زيد والبراذعي من القيروانيين، والجذامي السعدي، وعبد الوهاب البغدادي من المشارقة، جميعهم ممن تألق بأعمالهم تراث المالكية في مشرق بلاد الإسلام ومغربها على تعاقب العصور. وهذا

هو السبب فيما نجده لهذه الكتب من قدم التداول واستمراره في مجالس الشيوخ وحلقهم في سبتة، وفي غير سبتة من حواضر العلم في المغرب، والأندلس، والمشرق (236). وبالنظر إلى سلسلة الاسناد التي يوردها التجيبي لكتاب الزكاة لابن الجد الفهري، وكتاب النظر في أحكام النظر لابن القطان يتبين لنا أن تدريسهما خلال النصف الثاني من القرن السابع لم يكن مقصورا على حلقات شيوخ سبتة، وإنما كان يشمل غيرها من الحلقات بمصر، (237) وصقلية. (238) كما أن كتاب التهذيب للبراذعي، وهو الذي ظهرت بركته (على طلبة الفقه بمغربنا الأقصى وسموا بدراسته وحفظه) (239) كان (عليه معول جماعة الفقهاء اليوم بفاس دار فقه المغرب، والمناظرة في جميع حلق التدريس بها إنما هي به) (240).

4 ـ حلقات السيرة

عني السبتيون بالسيرة النبوية عناية بالغة تمثلت فيما ألفوا من كتب فيها، وما أنشأوا من دواوين، (241) وما سبقوا إليه غيرهم من الاحتفال بمولد صاحبها الصادق الأمين صلى الله عليه وسلم، ولا شك أن ذلك جميعه كان من شأنه أن يجعل عدد حلق السيرة متعددة وكثيرة، وقد وقفنا منها في برنامج التجيبي على :

أ ـ حلقة الفقيه أبي حاتم أحمد بن الأمير الفقيه محمد العزفي، كان يقرىء فيها كتاب السيرة لابن إسحاق بتهذيب ابن هشام. ويظهر

أن هذا الشيخ ظل يواظب على تدريس هذا الكتاب مدة طويلة مما أتاح للطلبة أن يسمعوه عليه غير مامرة، ومنهم التجيبي، فقد سمعه عليه (جميعه كاملا من أوله إلى آخره مرات ذوات عدد)؛ (242) بل يظهر أن المواظبة على إقراء هذا الكتاب كانت أشبه ماتكون بالتقليد العلمي الذي توارثه أبناء أسرة العزفي، ولاة سبتة في القرن السابع، ابنا عن أب، وأبا عن جد، فقد لاحظنا أن أبا حاتم العزفي يروي هذا الكتاب (بحق سماعه لجميعه عدة نوب على أبيه الفقيه الأجل أبي القاسم بسماعه على أبيه العالم أبي العباس غير مرة بقراءته لجمعيه على أبيه القاضي أبي عبد الله...)، (243) وفي هذا ما يدل بوضوح على الاهتمام الذي لقيته سيرة ابن هشام بين طلبة العلم في سبتة، والعناية التي كان يوليها اياها خاصة آل العزفي العلماء الأمراء.

ب - حلقة الشيخ ابن أبي الربيع، وفيها سمع عليه التجيبي طائفة من كتاب سيرة ابن هشام، وأجازه (سائره جملة)، (244) كما سمع عليه جملة من كتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى صلى الله عليه وسلم للقاضي عياض، وأجازه سائره أيضا (245).

ج - حلقة الشيخ أبي عبد الله محمد الكتامي الضرير، وفيها سمع عليه التجيبي عوداً بعد بدء جميع كتاب المختصر الموسوم بـ (رائع الدرر ورائق الزهر في أخبار خير البشر صلى الله عليه وسلم) لمؤلفه أبي الحسين أحمد بن فارس اللغوي، كما قرأه عليه بلفظه (246).

د ـ حلقة الشيخ أبي اسحاق ابراهيم بن أبي بكر الأنصاري، كان يقرىء فيها منظومته التي سماها (نتيجة الخير، ومزيلة الغير في وصف مغازي رسول الله صلى الله عليه وسلم والسير)، وهي تقع في نحو سبعمائة بيت (247).

هـ ـ حلقة الشيخ أبي الحكم مالك بن المرحل، كان يقرىء فيها ديوانه الذي سماه (الوسيلة الكبرى المرجو نفعها في الدنيا والأخرى)، وهو عبارة عن قصائد على حروف المعجم، تتألف كل واحدة منها من عشرين بيتا، وهي تتضمن في مجموعها غزواته صلى الله عليه وسلم وكثيرا من معجزاته ومن أول البشرى به إلى مولده إلى وفاته عليه السلام، وكل ذلك على نسق ما ذكره ابن إسحاق في كتاب السيرة (248).

و ـ حلقة الشيخ أبي القاسم محمد بن عبد الرحيم القيسي العبسي، كان يقرىء فيها كتاب الشفا لعياض، وقد سمعه التجيبي عليه (جميعه كاملا... في مجالس) (249). ومن سلسلة الاسناد التي يروي بها الشيخ أبو القاسم العبسي هذا الكتاب نلاحظ الحرص على تداوله، وروايته، واعتماد الشيوخ له في حلقات السيرة منذ أن ألفه عياض وجلس يقرئه طلبته حتى عصر التجيبي الذي أصبح فيه الشفا (من الكتب التي ينبغي لكل طالب علم أن لا يخلي خزانته منه) (250).

ز ـ حلقة الشيخ أبي محمد عبد المهيمن الأنصاري الجزيري، وكان الشفا لعياض هو أيضا مدار الدرس فيها حيث سمع التجيبي على صاحبها طائفة من الكتاب المذكور (251).

ح ـ حلقة الشيخ أبي محمد عبيد الله الأنصاري، وهو الذي أجاز التجيبي كتاب الشفا (252).

ط ـ حلقة الشيخ أبي الظفر الكلبي، وكان يقرىء فيها كتاب الغده المختصر من كتاب العمده في نسب النبي صلى الله عليه وسلم والخلفاء بعده) لمؤلفه أبي عبد الله محمد الأنصاري التلمساني، والكتاب، وان لم يكن في صميم السيرة، فهو مما يلحق بها، وقد قرأه التجيبي جميعه في هذه الحلقة (253).

ومن اليسير أن نلاحظ أنه باستثناء مؤلفين مشرقيين هما : كتاب السيرة لابن هشام، وكتاب (رائع الدرر ورائق الزهر في أخبار خير البشر) لابن فارس فإن كتب الدرس الأخرى التي كانت محور حلقات السيرة في سبتة على عصر التجيبي كلها مغربية، بل سبتية، غير أن ثمة كتبا غيرها نستغرب لغيابها عن هذه الحلقات، وهي مثل تلك في مغربية الأصل، وسبتية المحتد مثل كتاب (شفاء الصدور) للحافظ أبي الربيع سليمان بن سبع العجميسي، (254) وكتاب (الدر المنظم في مولد النبي المعظم) لأبي العباس أحمد العزفي وولده أبي القاسم، (255) ومثلما نلاحظ غياب مثل هذين الاثرين المغربيين عن حلقات السيرة في سبتة

نلاحظ غياب مؤلفات أندلسية أغلب الظن أنها كانت يومئذ مما يشغف بدراسته واقرائه في الأندلس والمغرب مثل كتاب (الروض الانف) لأبي القاسم عبد الرحمن السهيلي (تـ 581 هـ)، وكتاب (الاكتفا في مغازي المصطفى والثلاثة الخلفا) لأبي الربيع سليمان انكلاعي (تـ 634) (256).

5 ـ حلقات اللغة والنحو والأدب

كان يتصدر لاقراء هذه العلوم في سبتة على عصر التجيبي شيوخ كان منهم من عرف بالتضلع والتبريز في النحو واللغة، كما كان منهم من عرف بالإبداع والعطاء في الأدب شعره ونثره. ومن أهم الحلقات التي كان التجيبي يحرص على الجلوس فيها لقراءة تلك العلوم :

أ ـ حلقة الشيخ ابن أبي الربيع، وهي من أهم حلقات اللغة، والنحو، والأدب، إن لم تكن أهمها على الاطلاق، فقد كان هذا الشيخ من الاطلاع على الأصول والأمهات المشرقية في العلوم المذكورة بالدرجة التي لا نعلم أحدا من عصرييه كان يرقى رقيه فيها يومئذ بسبتة، يدلنا على ذلك جلوسه، دهره، لاقراء تلك الأصول والأمهات، وشروحه المتعددة عليها مما ظهر فيه نفوذه وتبريزه، فضلا عما ألف في تلك العلوم ولا سيما النحو واللغة.

في هذه الحلقة قرأ التجيبي على شيخه ابن أبي الربيع طائفة من الكتاب لسيبويه تفقها (257)، وأجازه سائره معينا، وكثيرا من كتاب

الايضاح للفارسي تفقها، وأجازه سائره معينا (258)، وكان لابن أبي الربيع (بهذا الكتاب اعتناء، وله فيه نفوذ) (259)، ونظن أن ما كان يمليه على طلبته في غوامض الإيضاح ونكته هو ما ألف منه شروحه عليه، ومنها شرحه الكبير الذي كان يقع في عدة أسفار والذي سماه (الكافي في الإفصاح عن نكت كتاب الإيضاح) (260). وقرأ عليه كتاب الجمل في النحو لأبي القاسم الزجاجي (جميعه تفقها) (261)، وجملة من شرحه الأوسط عليه (262)، وأجازه سائره (263)، وسمع عليه جملة من كتاب اصلاح المنطق في اللغة لابن السكيت تفقها (264)، وعلى هذا الكتاب كان معول هذا الشيخ في اللغة (265)، وقرأ عليه كتاب الفصيح لثعلب (جميعه تفقها) (266)، وعرض (عليه كثيرا منه عن ظهر قلب) (267)، كما قرأ عليه بعضا من كتابه (الملخص في ضبط قوانين العربية) (268)، وأجازه سائره (269).

وإلى هذه الأصول النحوية واللغوية قرأ التجيبي على شيخه ابن أبي الربيع كتبا في الأدب ليس يعدم فيها قارئها المعارف اللغوية والنحوية من مثل الكامل للمبرد الذي قرأ عليه طائفة منه تفقها (270)، وأجازه سائره (271)، وكتاب أدب الكتاب لابن قتيبة، قرأ منه عليه (من أوله إلى باب إقامة الهجاء منه تفقها) (272)، وأجازه سائره (273)، كما قرأ عليه كتاب أشعار الستة (274) الجاهلية بترتيب أبي الحجاج الاعلم الشنتمري وشرحه (أعربت بعضها على العلامة أبي الحسين بن أبي

الربيع القرشي رحمه الله تعالى، وعرضت عليه بعضا منها، وأجازني سائرها) (275)، وقرأ عليه أيضا (أزيد من ثلاثين مقامة تفقها) (276) من كتاب المقامات الحريرية، وأجازه سائرها (277). ويظهر أن الشيخ ابن أبي الربيع لمح في تلميذه التجيبي فطنته، ونجابته، ورغبته في الدرس والتحصيل، وحرصه على إغناء معارفه وتعميقها بالمواظبة على الإطلاع والرواية، فما كان منه الا أن أجازه (جميع ما ألفه ورواه) (278).

ب ـ حلقة الشيخ الأديب الشاعر مالك بن المرحل، والظاهر أن جل ما كان هذا الشيخ يقرئه طلبته كان يتمحور بالأساس حول منشآته الشعرية والنثرية، ومما قرأ عليه التجيبي من ذلك ، 1) جزء فيه (المعشرات اللزومية في مدح محمد رسول الله المصطفى من البرية) (279). 2) جزء فيه (المعشرات الورابية في وصف المكارم النبوية والحض على الأعمال الدينية وعلى زيارة قبر النبي محمد خير البرية) (280). 3) جزء سماه (لوائح الانابة وروائح القبول والإجابة) (281). 4) جزء فيه جملة من نظمة في الزهد (282). 5) جزء فيه مقامته النجدية في الزهد (283) أيضا. 6) أرجوزة نظم فيها كتاب الفصيح لثعلب وشرح بعض ألفاظه، سماها (الموطأة) (284). 7) أرجوزة أخرى نظم فيها من أول كتاب أدب الكتاب إلى باب إقامة الهجاء (285).

ج ـ حلقة الشيخ الأديب أبي القاسم خلف الغافقي، وفيها قرأ عليه التجيبي مرة ومرة تخميس الشيخ الغافقي لقصيدة ابن أبي الخصال

(معراج المناقب ومنهاج الحسب الثاقب) سماه (شاهد اخلاص الحب المشروع ورائد خلاص المذنب المروع) (286)، كما قرأ عليه جزءا فيه جملة صالحة منتخبة من ترسيل الشيخ المذكور ومقطعات من شعره (287).

د ـ حلقة الشيخ الأديب أبي اسحاق ابراهيم بن أبي بكر التلمساني الانصاري، كان يقرىء فيها جزءا ضمنه معشراته التي أنشأها في المديح النبوي (288)، وجزءا آخر ضمنه أشعاره الحكمية وغيرها (289).

هـ ـ حلقة الأديب اللغوي أبي عبد الله محمد بن أحمد الصناهجي المعروف بالجزار، كان مما يقرئه طلبته في حلقته هذه جزء فيه قطعة صالحة من نظمه (سمعت بعضه من لفظه، وقرأت عليه بعضه، وسمعت باقيه عليه) (290).

و ـ حلقة الشيخ الأديب أبي بكر القللوسي، كان يقرىء فيها أرجوزة له في القوافي، سماها (النكت المستوعبة)، سمعها عليه التجيبي جميعها من لفظه، ووصفها بأنها حسنة (291).

ونظرة خاطفة على المقروء في هذه الحلقات تتيح لنا أن نلاحظ :

أ ـ أن كتب الدرس المشرقية التي رأينا تداولها في اقراء الأدب خاصة، وهي من الأهمية والشأن بالمكان الذي ليس يجهله أحد، لم تكن

وحدها، فيما نقدر، المعتمدة في ذلك، فلا شك أنه كان بجانبها كتب ودواوين مثل كتب الجاحظ، والهمذاني، والمعري، ودواوين أبي تمام، والبحتري، والمتنبي، كانت تغني رسالة حلقات اللغة والأدب في سبتة وترفدها على نحو ما كانت تغني مثيلاتها وترفدها في مختلف الحواضر بالغرب الإسلامي، وأغلب ظننا أن التجيبي لم يورد لها ذكرا إما (مخافة الإطالة والإكثار) (292) أو لأن هواه كان في غيرها من صحاح الحديث ومسانيده.

ب ـ وأن اعتماد أغلب الشيوخ، وفيهم بعض أعلام المغرب في الشعر كما لك بن المرحل، نتاجهم الأدبي في التدريس، ظاهرة بقدر ما تدلنا على اقتناع هؤلاء الشيوخ بجودة ما ينشئون من شعر، ويكتبون من نثر، تدل على ما كانت سبتة تعرفه عصرئذ من نشاط أدبي، نأمل أن نتوافر على بحثه ودراسته إن شاء الله تعالى.

6 ـ حلقات أخـــرى

ونقع بعد ذلك في برنامج التجيبي على حلقات أخرى، كان أصحابها يقرئون فيها طلبتهم مصنفات في التصوف والزهد، أو يسمعونهم كتب الفهارس والبرامج، ومنها :

أ ـ حلقة الشيخ أبي محمد عبد المهيمن الانصاري الجزيري، كان يقرىء فيها رسالة أبي القاسم القشيري للصوفية (293)، وكتاب (شعب الإيمان) لعبد الجليل الاوسي القصري (294).

ب ـ حلقة الشيخ أبي القاسم الانصاري، وكان فيما يقرئه فيها (مفاوضة القلب العليل ومنابذة الأمل الطويل في معارضة ملقى السبيل) لأبي الربيع سليمان الكلاعي في الزهد. سمعه عليه التجيبي جميعه عودا بعد بدء (295).

ج ـ حلقة الشيخ أبي القاسم محمد السلمي، كان يقرىء فيها غير واحد من معاجم الرجال مثل كتاب تاريخ الفقهاء والقضاة والرواة للعلم والأدب من أهل الأندلس لابن الفرضي (296)، وكتاب الصلة لابن بشكوال (297)، وكتاب الذيل لكتاب الصلة لمؤلفه ابن فرتون الفاسي نزيل سبتة (298)، وكتاب التكملة لابن الابار (299).

وبالإضافة إلى هذه المعاجم قرأ التجيبي على أشياخه مجموعة من الفهارس مثل فهرسة المسند أبي الحسين بن السراج الإشبيلي، قرأها على شيخه السلمي والشريف الحسيني (300)، وفهرسة أبي القاسم بن جبيش، وبرنامج ابن محرز البلنسي، قرأهما على شيخه أبي الظفر الكلبي (301)، كما قرأ على شيخه ابن أبي الربيع فهرسته التي خرجها له تلميذه أبو القاسم الأنصاري (302)، وعلى شيخه أبي فارس الهواري برنامجه (303)، وعلى شيخه أبي محمد عبد الله مولى أبي عثمان القرشي فهرسته (304)، وعلى شيخه أبي القاسم الأنصاري فهرسة القاضي أحمد بن واجب القيسي (305)، وعلى شيخه ابن المرحل فهرسة المقرىء ابن الفحام المالقي (306).

وإذا كنا نرى في تلك المعاجم، والفهارس، والبرامج التي قرأها التجيبي على شيوخه ما يبلور لنا إقبال شيوخ العلم من الأندلسيين والمغاربة على هذا اللون من التأليف فإن بوسعنا أن نرى في عناية التجيبي ومن عاصره من الطلبة السبتيين برواية هذه الكتب لونا من ألوان الحرص على الاتصال بينابيع الثقافة الإسلامية العربية التي تتضمنها تلك الكتب، والتي على أساسها كانت تقوم وحدة الثقافة المغربية الأندلسية.

وبعـــد :

فإننا، على ما بذلناه من جهد في استخلاص صورة لشيوخ العلم في سبتة أواخر القرن السابع من برنامج التجيبي، معترفون بالثغرات التي يقع عليها البصر في هذه الصورة، مردها، بالدرجة الأولى، إلى أن شيوخ العلم في سبتة كانوا، بلا شك، أوفر عددا مما ألفينا في البرنامج.

وإننا، على ما بذلنا من جهد، أيضا، في استخلاص صورة لكتب الدرس في حلقات أولئك الشيوخ، معترفون بالفجوات التي يقع عليها البصر كذلك في هذه الصورة، مرجعها إلى أن كتب الدرس في حلقات مختلف العلوم في سبتة يومئذ، كان هو الآخر أوفر عددا مما ساق ذكره التجيبي في برنامجه.

هذا وذاك هو ما تكشف لنا عنه عبارة التجيبي التي ختم بها برنامجه :

(وقد قرأت وسمعت غير ما ذكر على غير من ذكر، واقتصرت على هذا القدر مخافة الاطالة والاكثار حسبما أعان عليه الوقت ولرغبة الأصحاب في الإختصار، والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله...) (307).

غير أننا، مع ذلك، مطمئنون إلى أن العين حين تقع على ما استخلصناه من عناصر وجزئيات، ألفنا منه ملامح للصورتين : صورة شيوخ العلم، وصورة كتب الدرس، سرعان ما تتبين من خلالها إسلامية سبتة وعروبتها ومغربيتها، وهي المنابع التي كانت هذه المدينة تمتاحها فيما أسهمت به في تاريخنا الثقافي من عطاء فكري، وأدبي، على توالي العصور.

تطــوان **د. حسن الوراكلــي**

الهوامـــــش

1) من الامثلة على ذلك رحلة القاضي عياض التي قام بها بعد أن كان (له في العلم حظ وافر، ووجه سافر، وعنده دواوين أغفال، لم تفتح لها على الشيوخ أقفال) على حد ما ورد في رسالة أمير المسلمين علي بن تاشفين التي وجهها في التوصية بعياض إلى قاضي الجماعة بقرطبة، انظر، قلائد العقيان : 111.

2) من هؤلاء :

أ ـ أبو عبد الله محمد بن عمر ابن قطري الزبيدي النحوي (ت 501 هـ)، من بيت الزبيديين الشهير في العلم والمعرفة، استوطن سبتة، ودرس بها النحو والعربية وغيرهما. انظر، الغنية : 143 ـ 146.

ب ـ عبد الله بن سليمان الانصاري الحارثي (ت 612 هـ)، كان فقيها، أصوليا، نحويا، يدرس الكتاب لسيبويه، والمستصفى لأبي حامد، وولي قضاء سبتة، انظر، الديباج : 142.

ج ـ أبو عبد الله ابن خميس الأنصاري الجزيري (ت 750 هـ)، كان أديبا، شاعرا، فقيها متفننا، نزل سبتة، وأسندت إليه الخطبة في جامعها الأعظم، انظر، اختصار الأخبار : 28، وبلغة الأمنية : 4.

3) لسنا نملك، اليوم، من الكتب التي ألفها أصحابها في تاريخ سبتة وآثارها ورجالاتها إلا أثرين اثنين، هما : (اختصار الأخبار عما كان بثغر سبتة من سنى الآثار) لمؤلفه محمد بن القاسم الأنصاري السبتي، وقد صدر عن المطبعة الملكية بتحقيق الأستاذ عبد الوهاب بن منصور، و(بلغة الأمنية ومقصد اللبيب فيمن كان بسبتة في الدولة المرينية من مدارس وأستاذ وطبيب)، وقد نشره أستاذنا محمد بن تاويت في العدد التاسع من مجلة تطوان (1964).

4) من هؤلاء ابن عذاري المراكشي، في (البيان المغرب)، وابن خلدون في (العبر)، والناصري في (الاستقصا) وغيرهم.

5) من ذلك بعض آثار عياض، وابن رشيد، وابن الشاط، والقاسم التجيبي، وغيرهم.

6) من ذلك : (الفنون الستة في أخبار سبتة) لعياض، وديوان شعره، ومجموع خطبه، وديوان مالك بن المرحل، وكتاب (الاشادة في المشتهرين من المتأخرين بالاجادة) لعبد الرحمن العزفي، وغير ذلك كثير.

7) كانت هذه الفهرسة موضوعا لأطروحة الدكتوراة التي أعدتها الصديقة الدكتورة مارية خوسي هرموسيا (M.J. Hermosilla) وقدمتها في السنة الجامعية 1978 ـ 1979 إلى شعبة اللغات السامية باداب برشلونة تحت عنوان Los Maestros del Qadi Ayad.
La « Gunya » : Edisiȯn, Estudio y Notas (3 vols).

وفي نفس الوقت صدرت (الغنية) عن الدار العربية للكتاب (ليبيا ـ تونس) بتحقيق الدكتور محمد بن عبد الكريم.

8) من المرجح أن عياضا ألف فهرسته قبل وفاته بسنة، أي في عام 543 هـ انظر مقدمة المحقق ص 77.

9) من فهارس السبتيين وبرامجهم التي تعتبر، اليوم، في حكم المفقود :

أ ـ برنامج أبي العباس أحمد العزفي (ت 649 هـ).

ب ـ فهرس أبي الحسن الغافقي الشاري (ت 649 هـ).

ج ـ برنامج أبي العباس ابن فرتون (ت 666 هـ).

د ـ برنامج أبي فارس الهواري الجزري (عاش في ق 7).

هـ ـ فهرسة أبي محمد عبد الله مولى أبي عثمان القرشي (عاش في ق 7).

و ـ فهرسة أبي القاسم ابن الشاط (ت 723 هـ).

10) لم نعد برنامج ابن أبي الربيع (حققه المرحوم الدكتور عبد العزيز الاهواني ونشرته مجلة معهد المخطوطات العربية ـ (نوفمبر 1955) في برامج السبتيين مع أن صاحبه أمضى شطرا كبيرا من حياته في سبتة، وأن الذي خرج له هذا البرنامج سبتي وهو تلميذه ابن الشاط، لسبب بسيط وهو أن البرنامج المذكور يسجل مقروء صاحبه ومشيخته في إشبيلية وليس في سبتة التي وفد عليها وقد اكتملت أداته العلمية.

انظر، حول هذا البرنامج.

د. عبد العزيز الاهواني، كتب برامج العلماء في الأندلس.

مجلة معهد المخطوطات العربية ـ المجلد الأول ـ الجزء الأول ص 91 وما بعدها (ماي 1955).

انظر، CHALMETA, P.
Estudie sobre el Barnāmaȳ de Ibn Abi al-Rabi
Fac. de Filesofia y letras de Madrid, Curse 1958-59.
342 (mecanegrafiado). Pub., parcialmente en Arrábica, 1960 pp. 183-208.

11) هو أبو القاسم القاسم بن يوسف بن محمد بن علي بن القاسم التجيبي (670 ـ 730 / 1271 ـ 1329)، أخذ عن شيوخ بلده، ثم رحل إلى الأندلس والمشرق، فلقي الشيوخ، وتوسع في الرواية، وبعد عودته قعد لاسماع الحديث في سبتة، واشتغل بالتأليف، فكتب رحلته، وبرنامجه، وجمع أربعين حديثا في الجهاد والحث عليه، وله غير ذلك. أما برنامجه فمنه نسخة مخطوطة بالاسكوريال وقد ورد في صفحتها الأولى ، (برنامج عبيد الله تعالى الفقير اليه الغني به عز وجل القاسم بن يوسف بن محمد بن علي بن القاسم التجيبي البلنسي المحتد، السبتي النشأة والمولد جعله الله تعالى ممن سعد بالكتاب والسنة ونال بهما المغفرة ودخول الجنة برحمته ومنه).

وكان هذا البرنامج تحقيقا ودراسة موضوع أطروحة الدكتوراة التي أعدتها في مدريد الدكتورة أنا راموس كالڤو بإشراف الأستاذ الدكتور خوسي مارية فورنياس. وكان الأستاذ عبد الحفيظ منصور قد أخبر منذ أزيد من خمس سنوات أنه أعد البرنامج للنشر ودفع به للطبع. وإلى هذا التاريخ لم تظهر هذه الطبعة.

انظر ترجمة التجيبي في :

1 ـ الصفدي، الوافي بالوفيات (مخطوط دار الكتب القومية التونسية ـ رقم 13323).

2 ـ الانصاري، محمد بن القاسم، اختصار الأخبار عما كان بثغر سبتة من سنى الاثار. تحقيق الأستاذ عبد الوهاب بن منصور ـ المطبعة الملكية ـ الرباط (1389 ـ 1969).

3 ـ مجهول، بلغة الأمنية ومقصد اللبيب فيمن كان بسبتة في الدولة المرينية من مدرس وأستاذ وطبيب. تحقيق الاستاذ محمد بن تاويت (مجلة تطوان ـ العدد التاسع ـ 1964).

4 ـ ابن حجر، الدرر الكامنة، الجزء الثالث. رقم 611 ط. الهند

5 ـ الكتاني، عبد الحي، فهرس الفهارس (فاس 1346 ـ 1347 هـ).

6 ـ بابا التنبكتي، أحمد، نيل الابتهاج بتطريز الديباج. ط. مضر (1329 هـ).

7 ـ ناطق صالح مطلوب، فهارس شيوخ العلماء في المغرب والأندلس حتى القرن العاشر الهجري (أطروحة دكتوراه)، منها نسخة مرقونة في مكتبة كلية الاداب ـ جامعة عين شمس (القاهرة).

8 ـ الخطيب، اسماعيل، الحركة العلمية في سبتة خلال القرن السابع. (رسالة دبلوم الدراسات العليا)، منها نسخة مرقونة بمكتبة دار الحديث الحسنية ـ الرباط.

9 ـ منصور عبد الحفيظ، مستفاد الرحلة والاغتراب للتجيبي (مقدمة التحقيق) ط الدار العربية للكتاب.

10 - Forneas, J. M. Elencos. Estudio, tesis doctoral, 2ª parte, Madrid 1970.

11 - Calvo Ana Ramos.
Al Barnãmay de Al-tuŷibi. Edición critica y estudio. Tesis doctoral presentada en la U.A.M. el 1 – VII – 1976.
وانظر، كذلك، مجلة العرب السعودية (1974) ومجلة al Arábica XXIV.

12) ليس في القطعة التي انتهت الينا من رحلة التجيبي تحديد للتاريخ الذي خرج فيه من سبتة، ويمكن القول بأن ذلك كان في أواسط العقد الأخير من القرن السابع، ففي القطعة المذكورة يسجل التجيبي تاريخ جلوسه إلى الشيخ ابن دقيق العيد بالقاهرة في سادس جمادى الأولى من سنة 696 هـ وهي السنة التي يحدد بها أحد مترجميه بداية رحلته. انظر، نيل الابتهاج : 222.

13) سمى التجيبي رحلته (مستفاد الرحلة والاغتراب)، والقطعة التي حققها ونشرها الأستاذ عبد الحفيظ منصور (الدار العربية للكتاب - ليبيا - تونس 1395 / 1975) تبتدىء بذكر مدينة القاهرة وتنتهي بمشاهداته ولقاءاته في مكة المكرمة.

14) انظر، د. عبد العزيز الاهواني، كتب برامج العلماء في الأندلس. مجلة معهد المخطوطات ج 1. ص 92.

15) نفس المرجع : ص 92.

16) برنامج التجيبي : 9.

17) نفسه : 213.

18) نفسه : 23.

19) نفسه : 91.

20) نفسه : 92.

21) نفسه : 243 - 244.

22) نفسه : 243.

23) نفسه : 242.

24) هذه الامالي تناولت من فاتحة القرآن إلى قوله تعالى في سورة المائدة «يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم قالوا لا علم لنا أنك أنت علام الغيوب». ولم تمهل المنية ابن أبي الربيع لاتمامها. ومن هذه الأمالي قطعة مخطوطة بالمكتبة العامة بالرباط مسجلة برقم (ق 315). وانظر برنامج التجيبي 37 - 38.

25) برنامج التجيبي 213.
26) عنوانها : (الوسيلة الكبرى المرجو نفعها في الدنيا والأخرى).
27) عنوانها : (المعشرات اللزومية في مدح رسول الله المصطفى من البرية)، التزم فيها أن يكون أول كل حرف من أبياتها لازما لحرف اخر، وأخر كل حرف منها وهو حرف الروي لازما لحرف اخر. فصارت لزومية من الطرفين. انظر، البرنامج 250.
28) عنوانها : (المعشرات الورابية في وصف المكارم النبوية) سماها كذلك لأنه التزم ـ كما يقول التجيبي ـ أن يكون اخر كلمة من كل بيت أول كلمة من البيت الذي يليه إلى اخر الحروف. وأن يكون اخر كلمة من حرف الياء أول كلمة من حرف الألف فجاءت كلمات القوافي على الورابي ولم يجعل اخر البيت أوله بنفسه.
29) عنوانها : (لوائح الانابة وروائح القبول والإجابة).
30) عنوانها : الموطأة في نظم الفصيح.
31) أرجوزة في نظم أدب الكتاب لابن قتيبة. انظر، البرنامج : 244 ـ 245.
32) منه نسخة مخطوطة بمكتبة الاسكوريال تحت رقم 1732.
33) برنامج التجيبي : 240؛ وانظر، الديباج : 226.
34) نفسه : 240.
35) من ذلك : فهرسته التي وصفها ابن فرحون بأنها حافلة، وهي مما ضاع من فهارس السبتيين، وشرحه على كتاب القرافي في الفقه وأصوله والمسمى (أنوار البروق في أنواء الفروق)، ومنه نسخ مخطوطة في عدة مكتبات كالزيتونة والقرويين. انظر، الديباج 226، وبروكلمان، الملحق أ : 665.
36) برنامج التجيبي : 239 ـ 240.
37) نفسه : 240.
38) نفسه : 240 ـ 241.
39) نفسه : 243.
40) نفسه : 242.
41) نفسه : 232.
42) نفسه : 106 ـ 107.
43) نفسه : 117.
44) بعد أن ذكر ابن خلدون أن أركان علم اللسان أربعة : اللغة، والنحو، والبيان، والأدب، أضاف بأن (معرفتها ضرورية على أهل الشريعة اذ مأخذ الأحكام الشرعية كلها من الكتاب والسنة وهي بلغة العرب، ونقلتها من الصحابة والتابعين عرب... فلا بد من معرفة العلوم المتعلقة بهذا اللسان لمن أراد علم الشريعة).
انظر، المقدمة : 542 ـ 543.

45) المراد أبو عبد الله اللخمي السبتي (ت 733 هـ). انظر، بلغة الامنية ومقصد اللبيب : 3

46) المراد أبو عبد الله بن عبد المنعم الصنهاجي السبتي (ت 750 هـ). انظر بلغة الأمنية ومقصد اللبيب : 3 ـ 4.

47) برنامج التجيبي : 9.

48) نفســه : 9.

49) نفســه : 113 ـ 236.

50) من ذلك : (منتهى السول والأمل في علمي الأصول والجدل). و(جامع الأمهات) في الفقه المالكي. انظر، وفيات الاعيان، I : 314.

51) من ذلك : (الكافية) في النحو، و(الأمالي النحوية)، و(الشافية) في الصرف، وقصيدة في العروض. انظر، وفيات الاعيان، I : 314.

52) برنامج التجيبي : 9.

53) نفســه : 113، 236.

54) نفســه : 92.

55) نفســه : 141.

56) نفســه : 228.

57) نفســه : 215.

58) نفســه : 114.

59) نفســه : 245.

60) نفســه : 122.

61) نفســه : 233.

62) نفســه : 239.

63) نفســه : 222.

64) نفســه : 22.

65) نفســه : 112 ـ 113.

66) نفســه : 232.

67) نفســه : 219 ـ 250.

68) نفســه : 22.

69) نفســه : 92، 214.

70) انظر، افادة النصيح : 7؛ وبرنامج التجيبي : 59، 61.

71) انظر، افادة النصيح : 9.

72) صدر عن الدار التونسية للنشر بتحقيق الدكتور محمد الحبيب ابن الخوجة.

73) برنامج التجيبي : 60.

74) انظر الهامش رقم (32).

75) برنامج التجيبي : 61.

76) نفسه : 107.

77) نفسه : 114 ـ 116.

78) نفسه : 22.

79) نفسه : 242.

80) نفسه : 125.

81) نفسه : 72.

82) نفسه : 8.

83) نفسه : 122.

84) نفسه : 106.

85) نفسه : 125، 224.

86) نفسه : 27.

87) نفسه : 22.

88) تولى بنو العزفي حكم سبتة في منتصف القرن السابع الهجري، وعرفوا، إلى جانب حسن القيام على أحوال المدينة، بالاشتغال بالعلم، وتذوق الأدب، وتشجيع أصحابهما مما كان له أثره في النهضة العلمية والأدبية التي عرفتها المدينة على أيامهم. وأخبار هذه الأسرة موزعة في بعض كتب التاريخ والتراجم والأدب، وهي إحدى الأسر المغربية الأثيلة الجديرة بالبحث والتأريخ.

89) برنامج التجيبي : 106 ـ 107.

90) نفسه : 119، 244، 250.

91) نفسه : 214.

92) نفسه : 237.

93) نفسه : 212 ـ 213.

94) انظر، أزهار الرياض، 1 : 42.

95) برنامج التجيبي : 107.

96) نفسه : 9.

97) نفسه : 22.

98) انظر، المرقبة العليا : 96، 147، 154 ـ 155؛ وبرنامج التجيبي : 22 ـ 23.

99) برنامج التجيبي : 214.

100) نفسه : 8.

101) في بغية الوعاة (أقرأ بسبتة النحو دهره) البغية، ١١ : 125؛ وانظر البرنامج : 9، 107، 108، 115.
102) في الديباج : (أقرأ عمره بمدينة سبتة) ص 226؛ وانظر البرنامج : 240.
103) برنامج التجيبي : 22.
104) نفســـه : 141، 243.
105) في المرقبة العليا (ص 133) (ولي القضاء بسبتة نيابة ثم استقلالا).
106) برنامج التجيبي : 22.
107) نفســـه : 72.
108) نفســـه : 227.
109) نفســـه : 227.
110) نفســـه : 59.
111) نفســـه : 8، 30.
112) نفســـه : 146، 214.
113) نفســـه : 106.
114) نفســـه : 141.
115) نفســـه : 27؛ وانظر، الديباج : 226.
116) يصفها التجيبي بأنها (دار فقه المغرب)، البرنامج : 233.
117) هو من أشياخ شيخ التجيبي محمد بن عبد الرحيم العبسي الجزري. البرنامج : 37.
118) برنامج التجيبي : 8.
119) نفســـه : 114.
120) نفســـه : 115.
121) نفســـه : 59.
122) انظر، يوسف أشباخ، تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين. الطبعة الثانية، ص 444.
123) برنامج التجيبي : 8.
124) نفســـه : 22.
125) نفســـه : 22.
126) نفســـه : 23.
127) انظر احصاء مفصلا بذلك في مقال الدكتورة Calvo, Ana Ramos :
Materiales para el estudio de algunas obras poéticas :
y de adab contenidas en el Barnãmaŷ de al-tuŷibĩ.
Revista Awrãq, N° 3 pp. 32-33 (1980).

128) برنامج التجيبي : 8.

129) نفســـه : 8.

130) تحدث ابن خلدون عن مقروء المبتدئين من التلاميذ فذكر أن أهل الأندلس، ومثلهم في ذلك أهل المغرب، لا يقتصرون على تحفيظ القرآن أولادهم (بل يخلطون في تعليمهم للولدان رواية الشعر في الغالب، والترسل، وأخذهم بقوانين العربية وحفظها...)

انظر، المقدمة : 536.

131) برنامج التجيبي 30.

132) نفسه : 37، وانظر الهامش رقم 24.

133) نفســـه : 37.

134) ونص ما يتعلق منه برجاله السبتيين : (قرأت جميعه ـ أي كتاب لغات القرآن وتفسيره ـ بمدينة سبتة حرسها الله تعالى على الشيخ المقرىء الحافظ محمد بن عبد الرحيم بن عبد الرحمن بن الطيب بن أحمد بن علي بن أحمد بن يحيى بن خلف بن زرقون بن أفلح بن سحنون بن مسلمة بن علي القيسي ثم العبسي أبي القاسم بن أبي الحسن بن أبي القاسم بن أبي السهود بن أبي العباس الجزري نزيل سبتة رحمه الله تعالى، وصح ذلك وثبت في سنة إحدى وتسعين وستمائة بحق سماعه لجميعه من لفظ الراوية العدل أبي العباس أحمد بن يوسف بن أحمد بن يوسف بن ابراهيم بن أحمد بن خلف بن الحسن بن الوليد بن فرتون السلمي الفاسي نزيل سبتة بها في سنة تسع وخمسين وستمائة بحق قراءته لجميعه علي أبي الفضل عياض بن محمد بن عياض بن موسى اليحصبي...)

انظر، البرنامج : 37.

135) برنامج التجيبي : 8.

136) نفســـه : 12.

137) نفســـه : 22.

138) نفســـه : 24.

139) نفســـه : 24.

140) ذكر ابن رشيد من تصانيف أبي عبد الله بن شريح، فضلا عن كتابيه (الكافي) و(المفردات)، كتاب (التذكير) في القراءات، و(قراءة يعقوب)، و(الادغام الكبير)، و(اختلاف أهل المدينة والكوفة في عدد أي القرآن وذكر مكيه ومدنيه)، انظر، إفادة النصيح : 53. ولم يسم ابن رشيد مؤلفات الابن، واكتفى بالاشارة إلى ان له تصانيف حسانا في القراءات (إفادة النصيح : 66) في حين ذكر له التجيبي من ذلك كتاب (نهاية الاتقان في تجويد ألفاظ القرآن)، وكتاب (الانتصاف من أبي عمرو المقرىء الداني).

انظر، البرنامج : 32.

141) برنامج التجيبي : 24.
142) نفســـه : 32 ـ 33.
143) نفســـه : 22.
144) نفســـه : 22.
145) نفســـه : 23.
146) نفســـه : 23.
147) نفســـه : 27.
148) نفســـه : 27.
149) انظر دراستنا (القاضي عياض مفسرا)، دعوة الحق، ع 3، س 22 (رجب 1401/ ماي 1981) من ص 66 ـ 96.
150) برنامج التجيبي : 27.
151) تحدث التجيبي عن الباعث له على تأليف برنامجه فقال : (أما بعد فانه لما كان جلتنا معشر فئة الحديث، وقدوتنا في القديم والحديث، قد بينوا الينا أن الرواية سبب في الدراية، وقرروا لدينا أن الدراية منقذة من الجهل والغواية، مفرقة بين الضلال والهداية، وكان أيضا كل واحد منهم أو جلهم قد ألف برنامجا جمع فيه ما من مروياته افترق، وبين فيه ما له في دواوين العلم من الطرق، رأيت أن أتعلق بأهدابهم، وأتمسك بأذيالهم، وأستضيء بأنوارهم، وأقتدي بآثارهم، وأجمع برنامجا يضم ما حضرني الآن ذكره مما قرأته أو سمعته، أو تلفق لي من النوعين جميعا أو من أحدهما مع مناولة لسائر ذلك المقروء أو المسموع أو إجازة معهما أيضا أو مع أحدهما...) البرنامج : 2
152) انظر.
Calvo, Ana Ramos :
Meteriales para el estudio de algunas obras poéticas y de adab, Revista Aurāq, N° 3 p. 32.
153) برنامج التجيبي : 40.
154) نفســـه : 40.
155) نفســـه : 61.
156) نفســـه : 72.
157) نفســـه : 128.
158) نفســـه : 40.
159) نفســـه : 61.
160) نفســـه : 72.
161) نفســـه : 128.
162) نفســـه : 128.

163) نفســـه : 45.

164) نفســـه : 45.

165) نفســـه : 60.

166) نفســـه : 61.

167) يضيف التجيبي (لأنهم يجدون فيه ما يحتاجون اليه في كل باب من أبواب الفقه مما يشهد لهم بصحة ما ذهبوا اليه، وليس يوجد في كتب السنة مثله في هذا الفن. وقد احتوى من أحاديث الأحكام على أربعة الاف وثمانمائة على الاصح، انتقاها من حديث كثير) البرنامج : 78 ـ 79.

168) برنامج التجيبي : 77.

169) نفســـه : 78.

170) يحدد التجيبي الاجزاء السموعة من هذا الكتاب فيقول : (الطهارة جزء. الصلاة ثمانية أجزاء. الجنائز جزء. الزكاة والاعتكاف وليلة القدر جزء. الصيام جزان. الحج ثلاثة أجزاء. الجهاد والخيل والسبق وقسم الفييء جزء. الســير جزء. الصيد والضحايا والذبائح والعقيقة وجلود الميتة جزء. النكاح والرضاع جزء. الطلاق جزء. الزينة جزان. عشرة النســاء جزان. البيوع جزء. الفرائض والمواريث والأحباس والوصايا والنحل والرقبى والعمرى جزء، وأشك في كمال هذا الجزء واتحقق سماع الفرائض والمواريث منه) الرنامج : 93 ـ 94.

171) برنامج التجيبي : 93.

172) نفســـه : 94.

173) قال التجيبي : (قرأت جميعه بثغر سبتة المحروس على الشيخ الفقيه المقرىء الحافظ أبي القاسم بن عبد الرحيم بن عبد الرحمن القيسي ثم العبسي رحمه الله تعالى، وصح ذلك وثبت في شهر ربيع الأول المبارك من سنة احدى وتسعين وستمائة بحق سماعه من لفظ الراوية العدل أبي العباس أحمد بن يوسف السلمي ابن فرتون في شعبان سنة تسع وخمسين وستمائة بحق قراءته على الفاضل أبي العباس أحمد بن أبي عبد الله محمد اللخمي ثم العزفي رحمه الله ورضي عنه وعلى الكاتب أبي اسحاق إبراهيم بن الفقيه أبي الحسن أحمد بن ميسرة القصري جميعا بسماعهما معا على أبي عبد الله محمد بن عامر بن محمد بن شاهد بسماعه من سراج الدين المذكور عن شيوخه. قال ابن فرتون : وقرأته أيضا بمدينة سبتة على الحاج أبي اسحاق ابراهيم بن أحمد بن بشتغير الألهاني المراكشي بحق قراءته على معين أبي عبد الله محمد بن أبي زيد عبد الرحمن بن عبد الله السبتي بثغر الاسكندرية بحق قراءته على ابن شاهد المذكور. قلت : وأنا به اجازة العلامة أبو الحسين بن أبي الربيع القرشي رحمه الله وغيره في الجملة عن أبي العباس العزفي المذكور وبالله التوفيق . البرنامج : 203.

174) برنامج التجيبي : 204.

175) نفسه : 61.

176) نفسه : 45.

177) نفسه : 60.

178) نفسه : 60.

179) نفسه : 128.

180) نفسه : 45.

181) نفسه : 72.

182) نفسه 45.

183) نفسه : 117.

184) نفسه : 112.

185) نفسه : 58

186) نفسه : 58.

187) نفسه : 59

188) انظر، افادة النصيح : 7

189) نفسه : 7

190) برنامج التجيبي : 60

191) نفسه : 60

192) نفسه : 61

193) نفسه : 92

194) يحدده التجيبي في برنامجه ب (ذي قعدة من سنة تسع وثمانين وستمائة) البرنامج : 92.

195) برنامج التجيبي : 125 ـ 126.

196) نفسه : 127.

197) نفسه : 119.

198) نفسه : 120.

199) وهذا نص الاسناد في رواية (الالماع) : (قرأت جميعه على الشيخ الحسيب الأصيل الحافظ أبي الظفر ابن الشيخ الأجل الوزير القائد أبي عمرو بن الفقيه أبي محمد الكلبي، وحدثنا به عن القاضي الفاضل أبي بكر محمد بن محمد الزهري ابن محرز رحمه الله تعالى اجازة في سنة خمس وأربعين وستمائة، قال : أنا عبد الله محمد بن حسن بن عطية بن غازي الأنصاري مابين قراءة وسماع في سنة إحدى وتسعين وخمسمائة. قال : أنا القاضي أبو الفضل المصنف سماعا رحمهم الله أجمعين. وقرأت

أيضا طائفة منه على العدل الحسيب أبي القاسم بن الشيخ المحدث الرحال أبي اسحاق السلمي، واجازنا سائره، وحدثنا به عن القاضي العدل أبي عبد الله الأزدي السبتي عن ابن غازي المذكور سماعا وبالله التوفيق) البرنامج : 119 ـ 120. وبخصوص كتاب (بغية الرائد) قال : (قرأت جميعه على أبي الظفر المذكور بالاسناد المتقدم في (الالماع) سواء. البرنامج : 120.

200) برنامج التجيبي : 141.

201) نفسه : 141.

202) نفسه : 120.

203) نفسه : 120.

204) نفسه : 121 ـ 122.

205) لأن الأول ليس فيه بعد خطبته إلا الحديث الصحيح مسرودا غير مخروج بمثل ما في كتاب البخاري في تراجم أبوابه من الأشياء التي لم يسندها أهل الوصف المشروط في الصحيح، وأيضا فإن مسلما قد اختص بجمع طرق الحديث في مكان واحد. انظر، البرنامج : 74.

206) انظر، الغنية : 198،205،140،110.

207) انظر، برنامج شيوخ الرعيني : 75.

208) نفس المصدر : 46،45.

209) انظر، الالماع (مقدمة المحقق ص 30).

210) برنامج التجيبي : 234.

211) نفسه : 234.

212) نفسه : 235.

213) نفسه : 231.

214) نفسه : 232.

215) نفسه : 233.

216) نفسه : 234.

217) نفسه : 234.

218) نفسه : 235

219) نفسه : 235.

220) نفسه : 235.

221) نفسه : 235.

222) نفسه : 235.

223) نفسه : 236.

224) نفسه : 236.

225) نفسه : 236.

226) نفسه : 236.

227) نفسه : 236.

228) نفسه : 231.

229) نفسه : 232.

230) نفسه : 231.

231) نفسه : 232.

232) نفسه : 240.

233) سماها : اثارة المسائل الغوامض × من مغلقات مشكل الفرائض.

234) برنامج التجيبي : 240.

235) نفسه : 239.

236) انظر، على سبيل التمثيل، الغنية : 299،210،199،187،133،114؛ برنامج شيوخ الرعيني : 84،44،38،32؛ فهرسة ابن عطية : 52، فهرسة ابن خير الاشبيلي : 243 برنامج التجيبي : 236.

237) برنامج التجيبي : 236.

238) نفسه : 238.

239) نفسه : 233.

240) : 233.

241) مثل كتاب (شفاء الصدور) لابن سبع العجميسي، و (الشفا) لعياض، و (الدر المنظم في مولد النبي المعظم) لأبي العباس العزفي وابنه أبي القاسم.

242) برنامج التجيبي : 106.

243) نفسه : 107.

244) نفسه : 108.

245) نفسه : 215.

246) نفسه : 213.

247) نفسه : 114.

248) نفسه : 115.

249) نفسه : 115.

251) نفسه : 116.

252) نفسه : 230.

233) نفسه : 231.

254) من جزئه الثاني نسخة مخطوطة في الخزانة الملكية (الرباط) برقم 5733.

255) منه نسخ مخطوطة في مكتبات عامة وخاصة.

256) انظر، برنامج شيوخ الرعيني : 142،60،52.

257) برنامج التجيبي : 241،240.

258) نفسه : 242.

259) نفسه : 242.

260) نفسه : 242.

261) نفسه : 243.

262) لابن أبي الربيع على كتاب الجمل للزجاجي عدة شروح، أعظمها، فيما يقول التجيبي، كان هو الموسوم بـ (البسيط)، وكان يقع في عدة مجلدات انظر البرنامج : 243.

263) برنامج التجيبي : 243.

264) نفسه : 244.

265) نفسه : 244.

266) نفسه : 245.،

267) نفسه : 245.

268) نفسه : 243 ـ 244.

269) نفسه : 244.

270) نفسه : 246.

271) نفسه : 244.

272) نفسه 244.

273) نفسه : 244.

274) هم : امرؤ القيس الكندي، والنابغة الذبياني، وعلقمة التميمي، وزهير المزني، وطرفة البكري، وعنترة العبسي. انظر دراسة عن كتاب الاعلم في كتاب (تاريخ النقد الأدبي في الأندلس) لمؤلفه الدكتور محمد رضوان الداية ص 122 ـ 133. ط دار الأنوار ـ بيروت.

275) برنامج التجيبي : 247.

276) نفسه : 278.

277) تنظر مؤلفات ابن أبي الربيع في مواضع متفرقة من برنامج التجيبي. أما مروياته فتنظر في برنامجه الذي نشره الدكتور المرحوم عبد العزيز الأهواني في مجلة (معهد المخطوطات العربية) نوفمبر 1955.

278) برنامج التجيبي : 250.

279) نفسه : 250.

280) نفسه : 250.
281) نفسه : 250.
282) نفسه : 231.
283) نفسه : 251.
284) نفسه : 245.
285) نفسه : 244 ـ 245.
286) نفسه : 249.
287) نفسه 249.
288) سماها (المعشرات العروضية في مدح محمد خير البرية) يقول التجيبي : (نظمها على أوزان الشعر المشهورة، وأعاريضه المأثورة، وضروبه المعدودة، المحصورة، مما روي عن العرب أو ألحق صدر المحدثين بنبعه من الغرب، ولم يدع عروضا تؤثر. ولا ضربا يقدم ويؤثر، ولا نوعا يوثر، ولا نوعا يروى، ولا وزنا يبسط أو يزوى، الا صرف وجه الاعتناء إليه، ونظم تسعة أبيات في ذلك المقصد الكريم عليه معشرا بالبيت الشاهد لعلماء الصنعة على ذلك الوزن) البرنامج : 251.
289) برنامج التجيبي : 251.
290) نفسه : 251.
291) نفسه : 240.
292) نفسه : 251.
293) نفسه : 221.
294) نفسه : 223.
295) نفسه : 224.
296) نفسه : 227.
297) نفسه : 227.
298) نفسه : 228.
299) نفسه : 228.
300) نفسه : 212، 213، 219.
301) نفسه : 213، 214، 215.
302) نفسه : 213.
303) نفسه : 215.
304) نفسه : 214.
305) نفسه 213، 214.
306) نفسه : 214.
307) نفسه : 251،252.

المصـــــــادر

1 ـ اختصار الأخبار عما كان بثغر سبتة من سني الآثار.
محمد بن القاسم الأنصاري السبتي. تحقيق : عبد الوهاب بن منصور. المطبعة الملكية ـ الرباط (1389 ـ 1369).

2 ـ أزهار الرياض في أخبار عياض.
شهاب الدين أحمد بن محمد المقري التلمساني ج 1. تحقيق مصطفى السقا وابراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي. ط القاهرة. 1358 هـ ـ 1939م.

3 ـ إفادة النصيح في التعريف بسند الجامع الصحيح.
محب الدين أبو عبد الله محمد ابن رشيد السبتي. تحقيق : الدكتور محمد الحبيب ابن الخوجة. ط. الدار التونسية للنشر (بدون تاريخ).

4 ـ برنامج التجيبي.
أبو القاسم القاسم بن يوسف التجيبي (مصورة الأستاذ محمد بوخبزة عن نسخة الاسكوريال).

5 ـ برنامج شيوخ الرعيني.
أبو الحسن علي بن محمد الرعيني الاشبيلي. تحقيق : ابراهيم شبوح. مطبوعات مديرية احياء التراث القديم ـ وزارة الثقافة والارشاد القومي . دمشق (1381 هـ ـ 1962م).

6 ـ بغية الوعاة في طبقات اللغوين والنحاة. ج 2.

جلال الدين عبد الرحمن السيوطي. تحقيق ، محمد أبو الفضل إبراهيم. ط. عيسى البابي الحلبي (1384 هـ ـ 1964م).

7 ـ بلغة الأمنية ومقصد اللبيب فيمن كان بسبتة في الدولة المرينية من مدرس وأستاذ وطبيب.

مجهول. تحقيق ، محمد بن تاويت (مجلة تطوان) العدد التاسع (1964) منشورات الجامعة المغربية، كلية الآداب ـ معهد مولاي الحسن للأبحاث المغربية الأندلسية تطوان.

8 ـ الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب.

برهان الدين ابراهيم بن علي بن فرحون. الطبعة الأولى. مصر. 1329 هـ.

9 ـ الغنية (فهرسة شيوخ عياض).

القاضي عياض بن موسى اليحصبي. تحقيق ، د. محمد بن عبد الكريم. طبعة الدار العربية للكتاب.

10 ـ فهرسة ابن خير.

أبو بكر محمد بن خير الأموي الاشبيلي. ط ثانية عن ط سرقسطة (1382 هـ ـ 1963م).

11 ـ فهرسة ابن عطية.

عبد الحق بن عطية المحاربي (مصورة خاصة).

12 ـ القاضي عياض مفسرا.

د. حسن الوراكلي. دعوة الحق، ع 3. س 22. ص 66 ـ 96.

13 ـقلائد العقيان.

الفتح بن خاقان. ط القاهرة (1284 هـ).

14 ـكتب برامج العلماء في الأندلس.

د. عبد العزيز الاهواني. مجلة معهد المخطوطات العربية. المجلد الأول الجزء الأول (ماي 1955).

15 ـالمرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا.

أبو الحسن علي بن عبد الله النباهي ط. بيروت (بدون تاريخ).

16 ـمستفاد الرحلة والاغتراب.

أبو القاسم القاسم بن يوسف التجيبي. تحقيق : عبد الحفيظ منصور.

ط. الدار العربية للكتاب. ليبيا ـ تونس (1395 هـ ـ 1975م).

17 ـالمقدمة.

عبد الرحمن بن خلدون. ط. بولاق (1320).

18 ـ
Materiales para El Estudio de Algunas obras poéticas y de Adab contenidas en el Barnãmaŷ de Al Tuŷibî. Por Ana Ramos Calvo. Revista Awrãq N° 3 1980 (Instituto Hispano-Arabe de Cultura-Madird).

19 ـوفيات الآعيان وأنباء أبناء الزمان. ج 2.

أبو العباس شمس الدين أحمد بن خلكان. تحقيق ، د. احسان عباس.

ط. دار صادر (بيروت).

د. ح. و

أعلام من سبتة :

أبو القاسم السبتي
من خلال شرحه لمقصورة حازم

محمد بن عبد العزيز الدباغ

مدينة سبتة من المدن الرئيسية في بلاد المغرب وهي من العواصم العلمية التي كان لها شأن كبير في عالم الفكر خصوصا في عهد المرابطين والموحدين ثم في عهد المرينيين.

وموقعها البحري في شمال المغرب على حدود القارة الأوربية جعلها عرضة لكثير من الاضطرابات السياسية التي توالت عليها عبر التاريخ ومازال المغرب لحد الآن يحس بعدم استكمال وحدته الترابية مالم تعد هاته المدينة وما أشبهها الى الأرض الأم وتلك مهمة ملقاة على عاتقنا نحن المغاربة سنصل اليها إن شاء الله قريبا.

ولقد استقل بعض حكامها من العزفيين اللخميين في عهد المرينيين بتسيير أمورها وتدبير سياستها لكنهم لم يستطيعوا الاستمرار على ذلك نظرا للروح الوطنية التي كانت تسود المغاربة والتي كانت تعمل على استقرار الأمن وتعميم الوحدة بين أجزاء الوطن (1).

وحيث أن العزفيين كانوا مولعين بحب العلم واحترام رجاله وتقدير أهل البيت وحماته فقد عرفت سبتة في أيامهم من الإزدهار ماكان شبيها بالإزدهار الذي لاقته بعدهم في عهد المرينيين ولهذا كانت هاته المدينة في تاريخ المغرب من ألمع المدن الحضارية الشبيهة بمدينة فاس ومدينة مراكش بل كانت في بعض الأحيان مجمعا للعلماء الوافدين عليها من المدينتين السابقتين أو من بلاد الأندلس باعتبار كونها مجازا أساسيا يربط بين العدوتين ويحقق التواصل المنشود بين مختلف رجال الفكر وأرباب ـ الثقافة.

ورغم وجود مدينة طنجة على قرب منها فإن الإزدهار العلمي الذي اشتهرت به جعلها تستأثر بعناية الباحثين الذين مازالوا الى الآن يستكشفون عناصره. ويبحثون عن مختلف اتجاهاته.

إن مدينة سبتة موطن العلم ومقر الثقافة العربية الخالصة ومركز النشاط الفكري الإسلامي ومنطلق الدراسات الإسلامية الرائعة. إنها مدينة

1) انظر عن العزفيين الجزء الخامس من صبح الأعشى للقلقشندي صفحة 160 وكتاب أزهار الرياض للمغرب الجزء الثاني صفحة 374 فما بعد.

القاضي عياض ومنشأ الإمام ابن رشيد وبلد الشريف أبي القاسم المعروف بالشريف الغرناطي وموطن عدد من الأدباء والشعراء الذين تزخر بهم كتب تاريخنا العلمي وتاريخنا الأدبي .

إن نشاطها الفكري يعتبر عصارة الثقافة المغربية الممزوجة بالثقافة الأندلسية خصوصا أثناء ارتباطها بالعزفيين وبالمرينيين في القرن الثامن الهجري.

إن أهم ما كانت تمتاز به هاته المدينة في هذه الحقبة عناية علمائها وأدبائها بالجانب النقدي وبالأبحاث اللغوية الدقيقة وبالشروح للمتون العلمية وبالتصرف في ألوان البديع واخضاع الشعر لقيوده وفنونه.

ومن السهل جدا أن يجد الباحثون بعض الأعلام الذين يمثلون مدينة سبتة في هذا العصر سواء في الميدان الفقهي أو في الميدان الأدبي أو في الميدان المشترك.

ولعل من ألمع الشخصيات العلمية التي كان لها ولع بالنقد واللغة والأدب حينذاك. العالم الأديب أبو القاسم السبتي الذي أشرنا اليه سابقا والذي قلنا عنه أنه كان يعرف بالشريف الغرناطي.

كان هذا الأديب الماهر عالما لغويا متمكنا من مادته واعيا لثقافته متمثلا لأصول البلاغة متصرفا في أنواع أساليبها مطلعا على كتبها

مستحضرا لمصادرها قادرا على تبليغ المعلومات متحريا في نقل النصوص حريصا على الصدق في فهمها يناقشها بتدبر ويوازن بينها بإحكام.

كان يكثر من الإحالات الدقيقة التي تجعلك وأنت تطلع عليها كأنك تعيش في عصور منتجيها متنزها في بدائع ما كتبوا مستمتعا بروائع ما أبدعوا مستعينا برأيه الخلاق وفهمه العميق الذي يساعدك على فتح المغلقات وشرح المبهمات.

لقد اشتهر بقدرته على الشرح والتحليل حتى أصبحت هاته القدرة صفة من صفاته وسمة من سماته يقول عنه المقري في كتابه نفح الطيب حينما كان يتحدث عن شيوخ لسان الدين بن الخطيب (2) «كان هذا الشريف آية الله الباهرة في العربية والبيان والأدب ويكفيه فضلا أنه شرح الخزرجية وافترع هضاب مشكلاتها يفهمه من غير أن يسبقه أحد الى استخراج كنوزها وإيضاح رموزها وشرح مقصورة أديب المغرب الإمام أبي الحسن حازم بن محمد القرطاجني الأندلسي التي مدح بها الأمير المستنصر بالله أبا عبد الله محمد الحفصي وسمى هذا الشرح بفتح الحجب المستورة عن محاسن المقصورة (3). وهذا الشرح في مجلدين كبيرين وفيه من الفوائد ما لا مزيد عليه رأيته بالمغرب واستفدت منه».

---

2) نفح الطيب تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد الطبعة الأولى الجزء السابع صفحة 116.

3) طبع هذا الكتاب بمصر سنة 1344 هـ تحت عنوان رفع الحجب المستورة عن محاسن المقصورة.

وتعليق المقري هذا يدل على أن أبا القاسم كان قادرا على فهم الرموز وعلى تيسير مضامين المتون العلمية والأدبية وأن كتبه ظلت متداولة بين الناس حتى عصر المقري فلم يبلها الزمان ولم تفقد فائدتها وروعتها.

والواقع يثبت أن حكم المقري كان سديدا صادقا خصوصا بعد الإطلاع على شرح المقصورة حينما طبع في العصر الحديث.

إن من يطلع على هذا الشرح فسيجد من خلاله عالما حازما متذوقا للأدب حفاظا للقواعد ناقدا متمكنا شاعرا خاضعا لمحسنات البديع في أكثر ما ينظم.

ولعل الإطلاع على هذا الشرح يمكننا من معرفة الاتجاه الثقافي السائد بمدينة سبتة ويدلنا على المنحى الفكري الذي كان يمثله عدد من أساتذة أبي القاسم وأصحابه من الذين ذكرهم في كتابه كلما واتته الفرصة أودعته الحاجة.

إن أبا القاسم نهل ثقافته الأولى من علماء سبتة وأدبائها ولقد ذكر ابن الخطيب في كتاب الإحاطة عددا منهم لا يستهان بثقافتهم وبكفايتهم منهم والده ومنهم أبو عبد الله بن رشيد وأبو عبد الله بن هانىء اللخمي وأبو القاسم ابن الشاط وغيرهم (4).

---

4) الاحاطة في أخبار غرناطة لابن الخطيب تحقيق محمد عبد الله عنان المجلد الثاني صفحة 181.

وحينما تجتمع كفايات الشيوخ ومؤهلات المتلقين تكون النتائج مجدية وتكون القرائح فياضة وذلك ما اجتمع عند أبي القاسم وتبلور في شرحه هذا.

إن هذا الشرح أثار انتباهي منذ سنوات وقد كان سبق لي منذ خمس عشرة سنة أن علقت عليه في إحدى مقالاتي المنشورة بمجلة دعوة الحق الغراء (5). فاستخلصت منه بعض الأحكام النقدية المتعلقة بمؤلفه ورأيت من الواجب أن أواصل عملي في الاهتمام بهذا الكتاب المفيد وأن أتعمق في البحث عن مضمونه أكثر لأستطيع من خلاله أن استشف الشخصية العلمية لمؤلفه وأن أصور الطريقة المنهجية التي سار عليها في تأليف هذا الكتاب. تلك الطريقة التي تعتمد على الاستخدام العقلي وعلى الاستفادة من مواهب السابقين وعلى الدقة في الإحالات وعلى التحقق من المعلومات وعلى الإكثار من الموازنات وعلى الجدية في رسم الطريق أمام المتعلمين.

ولم أرد أن أجعل حكمي خطابيا وأن أرسله على عواهنه فآثرت أن أعتمد فيه على إحصاءات دقيقة وموازنات منظورة محسوسة ليتيقن قراؤه من أن أبا القاسم هذا كان نموذجا حيا للصدق في البحث وللتحري في نشر الأخبار.

---

5) نشر هذا المقال بالعدد الرابع من السنة التاسعة شهر يبراير سنة 1966.

إنه كان يبدي تحفظاته إزاء النصوص التي يشك فيها وإزاء الأخبار التي لم تكتمل عنده وسائل تعديلها وتلك ميزة علمية مازالت الى الآن تعد من محاسن التأليف والتدوين وسنضرب على ذلك بعض الأمثلة التي سنستوحيها من كتابه هذا وسنجملها فيما يأتي :

أولا - لقد تحدث في ديباجة كتابه عن مقصورة ابن دريد باعتبار كونها نموذجا سابقا لهذا النوع من الشعر وأشار أثناء ذلك الى المكافأة التي منحها ابنا ميكال لمنشئها ابن دريد وهنا ساقه الحديث الى ذكر المكافأة التي نالها حازم من لدن المستنصر الممدوح بهاته المقصورة فقال : «وقد ذكر أن أمير المومنين أبا عبد الله المستنصر صاحب افريقية وصل أبا الحسن حازما على مقصورته هذه بألف دينار من الذهب العين بحساب دينار لكل بيت ثم عقب على ذلك بقوله ولم يتأد إلي من وجه صحيح (6).

ثانيا - ذكر بيتين من الشعر في وصف الأغصان وهما بيتان رقيقان قال ناظمهما :

حارت عقول الناس في إبداعها   ألسكرها أم لشكرها تتـــاود
فيقول أرباب البطالة تنثنـــي   ويقول أرباب الحقيقة تسجـــد

6) رفع الحجب المستورة عن محاسن المقصورة الجزء الأول صفحة 11.

وحيث إن أبا القاسم لم يكن واثقا من قائلهما فإنه قال ومما ينسب لابن العريف في الأغصان (7) ولم يقل قال ابن العريف وهذه خطة توثيقية واضحة تبين مدى تحريه وتثبيته.

ثالثا ـ حينما كان يشرح هذا البيت من المقصورة :

كم ساق من غربيه مقتنص صيدا ومن غربيه وكم دأى

قال (8) : والغربي جانب الغرب ولعله كرر الغربي في عجز البيت لأنه أراد الغربي من جانب البر والغربي من جانب البحر فيكون قد جمع في البيت بين الإشارة الى صيد البحر والى صيد البر ولعله خص الغربي لأن وضع المرسى المذكورة اقتضى ذلك. ولست على تحقيق من ذلك ولا وجدت من يحققه ثم قال وقد ذكر لي بعض من زعم أنه سكن تلك المواضع أن الغربي اسم لموضع هنالك معروف إلا أني لا أثق بتعريفه ولا أرتهن فيه وهذا نص صريح يثبت ما ذكرناه.

هذه الملاحظات الثلاث السابقة قد نستطيع بها البلوغ الى ما قلناه حينما ذكرنا أن أبا القاسم السبتي كان في كتاباته يتحرى الحقيقة ويحتاط في نقل الأخبار.

ولعل هذه الظاهرة ستجعلنا واثقين مما يقول وستساعدنا على الثقة فيما استدل به وفيما نسبه لغيره لأن الذي يقول لا أعرف لا يتهم فيما

7) نفس المصدر الجزء الأول صفحة 77.

8) نفس المصدر الجزء الأول صفحة 138.

ادعاه من المعارف لكن هذا لا يمنعنا من تتبع أقواله بصفة موضوعية لنتيقن منها ولقد سرت في التحقق من ذلك على طريقة منهجية حاولت فيها أن أربط بعض إحالاته بأصولها فتبين لي صدقه وصحت عندي دعاواه.

ولنأخذ على سبيل المثال ما جاء في شرحه من شواهد سيبويه فإن الإطلاع عليها وربطها بأصولها يدلنا على أنه حينما كان يستدل بها كان يعلم ما يقول إلا أن الإستدلال بهذه الشواهد لم يستعمل دائما في الموضوع الخاص الذي جاءت من أجله في الكتاب فهو كان يتصرف فيها حسب الأغراض التي تتلاءم مع معانيه وموضوعاته وسأوضح ذلك فيما يأتي :

أولا ـ يقول الشاهد :

ولا ينطق الفحشاء من كان منهم　　إذا جلسوا مناولا من سوائـــــنا

جاء به سيبويه للدلالة على أن سواء لا تعامل معاملة الأسماء إلا إذا اضطر الى ذلك في الشعر (9) وجاء به أيضا مرة أخرى للدلالة على أن ما لا يجري في الكلام إلا ظرفا قد يجعلونه بمنزلة غيره من الأسماء (10).

---

9) كتاب سيبويه مؤسسة الاعلمي للمطبوعات الطبعة الثانية الجزء الأول صفحة 237.

10) نفس المصدر الجزء الأول صفحة 21.

أما أبو القاسم السبتي فقد استدل به على جواز مد سواء إذا فتحت سينها واعتمد في ذلك على قول الأخفش ولعله الصغير فقد قال (11) : «ذكر الأخفش في سوى ثلاث لغات إن ضممت السين أو كسرت قصرت وإن فتحت مددت».

ثانيا ـ يقول مقاس العائدي :

فدى لبني ذهل بن شيبان ناقتي   إذا كان يوم ذو كواكب أشهب

استدل به سيبويه (12) على جواز اكتمال معنى كان بمرفوع بعدها فنكون حينئذ تامة بمعنى وقع فإن لم يرفع ما بعدها فإنها تكون ناقصة على أساس تقدير اسمها ومثل للنوع الثاني بقول الشاعر (13).

بني أسد هل تعلمون بلاءنا   إذا كان يوما ذا كواكب أشنعا

أي إذا كان اليوم يوما.

ولكن أبا القاسم لم يستدل بهذين البيتين للحديث عن كان التامة وكان الناقصة وإنما استدل بهما لغرض آخر مرجعه الى وصف اليوم بأنه

---

(11) رفع الحجب المستورة الجزء الأول صفحة 68.

(12) كتاب سيبويه الجزء الأول صفحة 31.

(13) نفس المصدر الجزء الأول صفحة 32.

ذو كواكب للدلالة على شدته وكثرة ما فيه من الخوف والهلع ولهذا يقول المتنبي (14).

فإن نهاري ليلة مدلهمـــــــــة   على مقلة من فقدكم في غياهـب

وأثناء شرحه لهذا البيت ذكر أن العرب يقولون إن الكواكب ظهرت يوم حليمة نهارا ثم استعملوه في الأمر الصعب.

وأنا أرى أن هذا التفسير قد يستأنس به فهو غير بعيد عن الحقيقة لأن هذا التركيب الإيحائي الذي ظل الى الآن مستعملا لا ريب أن له جذورا طبيعية فقد يكون وقع كسوف في إحدى المعارك واستمر ذلك الهلع متداولا ومتوارثا حتى ظلت الكلمة دالة على أصول وضعها مع تناسي تلك الأصول ويكون ذلك بمثابة قولهم رفع عقيرته أي رفع صوته إذ رفع الصوت هذا كان ناتجا عن ألم أدى الى التعبير عنه بالصوت الجهير.

ثالثا ـ يقول زيد الخيل

أفي كل عام مأتم تبعثونـــــه   على محمر توبتموه وما رضـى

استدل به سيبويه على جواز قلب الياء أو الواو من لام الفعل الى

---

14) رفع الحجب المستورة الجزء الأول صفحة 22.

ألف مع فتح ما قبله فتقول في رضي رضى وأيد ذلك بقول طفيل الغنوي (15).

إن الغوي إذا نهى لم يعتب، أي إذا نهي

ولنفس الغرض استدل أبو القاسم إلا أنه كان أكثر توسعا من سيبويه فهو قد نسب هذه الصيغة الى قبيلة بلحارث بالأصالة والى الطائيين بالفرعية (16).

رابعا ـ يقول ذو الرمة :

ديار مية إذمي مساعفـــــــة ولا يرى مثلها عجم ولا عرب(17)

استدل به سيبويه على أن مثل هذا الشعر يجوز فيه نصب ديار على أنها اسم منصوب لفعل محذوف وجوبا تقديره أذكر أو رفعها على أنها خبر لمبتدإ محذوف وجوبا وقد خص سيبويه لهذا النوع بابا معينا ذكر فيه أن هذا الاستعمال كثير في كلامهم حتى أصبح بمنزلة المثل واستدل عليه أيضا بقول الشاعر (18).

اعتاد قلبك من سلمى عوائـــده وهاج أهواءك المكنونة الطلـــل

---

15) كتاب سيبويه الجزء الثاني صفحة 348.

16) رفع الحجب الجزء الأول صفحة 130.

18.17) كتاب سيبويه الجزء الأول صفحة 167 ـ 168.

ربع قواء أذاع المعصرات بـــه   وكل حيران سار ماؤه خضـــل

ولنفس الغرض استدل به أبو القاسم السبتي إلا أننا نلاحظ أن بيت ذي الرمة قد رواه أبو القاسم برواية غير معهودة فيه حيث قال (19).

دار لمية إذ مي تساعفنا

في حين أن رواية الكتاب أكثر استعمالا وأقرب الى ما هو متداول (20)

فالاستدلالات إذن متلائمة مع أصولها دالة على صدق ناقلها وعلى قدرته على استغلالها لأغراض أخرى وما في بعضها من الاختلاف لا يرجع الى تحوير جذرى وإنما هو راجع إما لاعتماد المؤلف على بعض النسخ التي لم تتيسر للطابعين وإما لاضطراب في النقل وفي كلتا الحالتين لا يتحمل المؤلف أدنى مسؤوليته.

وينبغي أن نعلم أن ظاهرة الصدق هاته لا تقتصر على النقول التي أخذت من كتاب سيبويه بل هي الصورة التي تطبع المؤلف في كل نقوله بواسطة أو بغير واسطة ولقد تعمدت أن أربط بعض النصوص الأخرى بأصولها فتيقنت أنها أيضا صورة للأصل وأن ما فيها من تغيير لا يعدو أن يكون تغيير رواية أو تحوير سند أو تحريف ناسخ وكل هذه

---

(19) رفع الحجب المستورة الجزء الثاني صفحة 3.

(20) انظر صفحة 11 من شرح أربع قصائد لذي الرمة للدكتور عبد الله الطيب الطبعة الاولى بالخرطوم.

الحيثيات لا تبطل جوهر الثقة التي يتصف بها المؤلف في أعماله الأدبية.

إن المقارنة بين النصوص التي استدل بها وبين أصولها لما يساعد على التحقق والتثبت وقد تدعونا هاته المقارنة الى مراجعة ماهو متداول للبحث عن الدوافع التي جعلت المؤلف يختار رواية دون غيرها أو يوثر اتجاها على آخر ويتجلى ذلك واضحا في بعض المصطلحات البلاغية التي شرحها حسب بعض الاتجاهات المستعملة ثم ذكر في الوقت نفسه ما يقابلها عند بعض رواد النقد الأدبي وهو في منهجه يوثر رأي الأغلبية ولكنه لا يهمل الإشارة الى بعض الآراء الخاصة وكمثال على ذلك يمكننا أن ننقل تعريفه للجناس والطباق.

لقد عرف الجناس بقوله : (21) «إنه اتفاق كلمتين أو كلمات في جميع الحروف أو أكثرها مع اختلاف المعنى وقد جمع الناس فيه ضروبا سموا كل ضرب منها بلقب أفردوه وبعد التمثيل لذلك قال ويسمى قدامة التجنيس طباقا ثم قال وأما التطبيق وهو الطباق والمطابقة ويسميه قدامة التكافؤ فهو تقابل لفظتين متضادتين من جهة المعنى كقول الشاعر :

حلو الشمائل وهو مر باسل

وكقول أم الضحاك المحاربية :

وكيف يساوي خالدا أو ينالـه   خميص من التقوى بطين من الخمـر

21) رفع الحجب الجزء الأول صفحة 15.

ومن المعلوم أن نفس البيتين اللذين استدل بهما المؤلف يوجدان في كتاب نقد الشعر لقدامة (22) إلا أني أرى أن إطلاق الطباق على الجناس هو خاص بالجناس التام ولا يتعداه الى سواه. ولقد اهتم أبو القاسم بمشكلة المصطلحات كثيرا ونص على ذلك في شرحه ليميز بين مذهب المتقدمين والمتأخرين ويتجلى ذلك واضحا في الحديث عن الترصيع مثلا فقد قال : قال قدامة : الترصيع هو أن يتوخى تصيير مقاطع الأجزاء في البيت على سجع أو شبيه به أو من جنس واحد في التصريف كما يوجد في أشعار كثير من القدماء المجيدين الفحول وغيرهم وفي أشعار أكثر المحدثين المحسنين ثم مثل لذلك بقول امرىء القيس.

مجنس مخنس مقبل مدبر معـا كتيس ظباء الحلب العـدوان

قال فأتى باللفظتين الأوليين مسجوعتين في تصريف واحد وبالتاليتين لهما شبيهتين بهما في تساوي التصريف وهنا شرح أبو القاسم المراد بالتصريف فقال هو تشاكل الوزن ثم استمر في نقل كلام قدامة فقال وربما كان السجع ليس في لفظة ولكن في لفظتين مثل قوله :

فتور القيام قطوع الكـــــلام تفتر عن ذي غروب خصر (23)

---

22) نقد الشعر لقدامة تحقيق كمال مصطفى مطبعة الخانجي صفحة 163.

23) رفع الحجب الجزء الأول صفحة 83.

ومن المعلوم أن هذا البيت الأخير يمثل الترصيع على حقيقة إلا أنه لم يرد في النسخة المطبوعة من نقد الشعر بل جاء عوضه قول امرىء القيس :

ألص الضروس حني الضلـــوع تبوع طلوب نشيط أشــر (24)

ومثل هذا الخلاف لا نعتبره تغييرا ولا تزييفا وإنما يدخل في نوعية الاعتماد على بعض النسخ التي لم تتوفر عن المهتمين بالطبع في العصر الحديث.

إن هذه الاستدلالات لتعتبر من أهم الدلائل على صدق المؤلف وعلى دقته في نقل النصوص وهي في الوقت ذاته تعتبر نموذجا صادقا لدقة المؤلف في تحديد المصطلحات وفي شرح معانيها.

إن الاهتمام بالقواعد أساسي لا على أنها ضرورية لذاتها وإنما باعتبار كونها وسيلة للتطبيق والتذوق وتلك منهجية واضحة في الخطة التي سار عليها المؤلف تلك الخطة المبنية على تجميع القواعد والتمثيل لها قبل استغلالها في أصول البيان.

إن هذا التجميع في أول الكتاب ليدل دلالة قطعية على أن الكتاب تعليمي وأن الهدف من خلق تواصل بين الأستاذ والطالب ليتسنى

24) نقد الشعر صفحة 39.

للمتلقي أثناء التعلم أن يستخدم المصطلحات في حل الرموز وفي تذوق الأساليب.

إن التذوق المبني على المعرفة يسهل تبليغه ونقل آثاره للآخرين أما التذوق الذاتي فقد يحس به الفرد ولكنه لا يستطيع إرشاد الآخرين اليه ولعل المؤلف أحس بقيمة هذه الملاحظة فمهد لشرحه بتجميع القواعد في صفحات ثم عمد الى التكثير من الأمثلة التطبيقية داخل الكتاب ليخرج تلك القواعد من إطارها الجاف ويجعلها صورة حية تنفث السحر من أقلام البلغاء ومواهب الشعراء. فالقواعد بالنسبة إليه ليست إلا وسيلة لتذوق الأدب ـ ولإنشائه على صورة جذابة لمن كانت له موهبة أو رقة أو لمن كان له أي استعداد للاستفادة منها فوجودها ضروري ولكن الاستفادة منها لا تتيسر للجميع.

ولم يقتصر المؤلف أثناء الشرح على تطبيق القواعد التي جعلها في مقدمة كتابه بل كان يعمد من حين لآخر الى استخلاص قوانين عامة يوضحها للقارىء ليسترشد بها فيما ينتجه أو لتساعده على فهم ما يقرؤه فليس الشرح الذي بين أيدينا شرحا لفظيا عابرا وإنما الغرض منه خلق ملكة فنية عند القارىء ليستطيع بعد قراءته أن يحل الغامض وأن يستهدي الى جوانب البيان وأن يتمكن من طريقة البحث وأن تكون له خبرة بأصول اللغة.

إن الكتاب إذن يهدف فيما يهدف إليه الى رسم الطريق أمام المتعلمين وإلى رفع مستواهم الفكري والذوقي في آن واحد وإلى إرشادهم

الى مواطن الجمال ليقلدوها وليسيروا على سننها وهذا هو السر في تحديد بعض العموميات وفي الإكثار من الأمثلة الرائعة التي أنتجتها القرائح الولادة وأبدعتها المواهب المصقولة.

ولعل الاطلاع على بعض الموضوعات سيدلنا على التحقق مما نقول وسيؤكد لنا أن المؤلف كان يتدرج في تقديم المعلومات تدرجا يرفع من مستوى المتعلم وينهض بهمته ويمكننا أن نعتمد في هذا الرأي على بعض الجزئيات الواضحة المتجلية مثلا في الحديث عن هيكل القصيدة باعتبار كونها تمثل أهم عناصر الأدب الإيقاعية مع الاعتراف بأن بعض هذه الجزئيات قد يتصل بالنشر الفني أيضا.

وإني سأقتصر في هذه الجزئية على الجوانب الثلاثة الآتية.

أولا تناسب الألفاظ

يرى أبو القاسم أن هذا التناسب ضروري لأنه يدخل في جنس النظم ويساعد على تذوق الأدب ويمتع السمع ويطرب النفس ويسهل الحفظ واستند في ذلك على قول الجاحظ : أجود الشعر ما رأيته متلاحم الأجزاء سهل المخارج فتعلم بذلك أنه أفرغ افراغا وسبك سبكا (25).

إن الحديث عن التناسب لا يتصل بالإطار النقدي فقط ولكنه يدخل في الإطار البلاغي التوجيهي وبذلك يكون التعرض إليه في هذه

25) رفع الحجب الجزء الأول صفحة 10.

الجزئية مرتبطا بالمنهج التعليمي الذي قلنا إنه يمثل أوضح خاصية من خصائص أبي القاسم.

ثانيا حسن التخلص.

وهو يرى أن المحدثين قد برعوا فيه وأكثروا من استعماله أما الأقدمون فكان الكثير منهم يقفز من المقدمة الى الموضوع مفاجأة أو قد يشير إشارة ناشزة فيقول مثلا دع ذا أو عد عن ذا وما أشبه ذلك.

وحيث أن الجانب التعليمي كما قررنا يعد هدفا أساسيا عند أبي القاسم فإن هذه المعاني لا تستقر في النفس إلا بنماذج مختلفة يضعها أمام المتعلم ليقتدي بها وليسير على شكلها الظاهري حتى إذا استطاع أن يتجاوزها بإبداع ذاتي لم يجد أي عناء.

ومن الشعراء الذين استدل ببعض نماذجهم في هذا الموضوع أبو تمام والبحتري وأبو الطيب المتنبي وابن وضاح التميمي زيادة على بعض شعراء الأندلس ومن الاستدلالات التي جاء بها قول ابن عمار (26).

أتدرين من كلفت عينك قتله   وقلت فتى لا يستفيد غريب
ستنصره من مهرة الخيل ترتمي   بأعلام نصر في الوغى وتثوب
مزحت فإني ياابنة القيل لم أكن   لأفشي سرا ضمنته قلـــــوب

---

26) نفس المصدر صفحة 61 وتوجد بعض أبيات هاته القصيدة بالذخيرة لابن بسام تحقيق احسان عباس الجزء الثاني من المجلد الأول صفحة 381.

سأشهد قومي أن طرفك من دمي بريء وإن كان الفتور يريب
وكيف أرى في الغدر نهجا لسالك وعهدي بالملك الوفي قريب
فتم نسخ الغدر اقتضاء وفائه فلا تحكمي أن الوفاء غريب
وألف بين الذئب والظبي عدله فلا تجزعي إن زار ربعك ذيب

ثالثا الحديث عن القافية :

وهو هنا كان يهدف أيضا الى الجانب التعليمي الذي يوحي للشعراء بأن يتجنبوا القوافي الناشزة التي لا تأخذ مكانها العادي فلا أضر بالشعر من أن تكون قوافيه متكلفة وأن تساق إليه سوقا نكرا وأن تأتي دون أن يكون من ورائها معنى ضروري ولهذا قال حينما كان يتحدث عن الإيغال : «انه لا شيء أقبح من بناء القافية على فضول الكلام الذي لا يفيد (27)».

واستدل في هذا الموضوع بالحوار الشهير الذي ورد عن الأصمعي (28) فقد قيل للأصمعي من أشعر الناس قال من يأتي الى المعنى الخسيس فيجعله بلفظه كبيرا أو إلى الكبير فيجعله خسيسا بلفظه وينقضي كلامه قبل القافية فإذا احتاج اليها أفاد بها معنى قيل نحو من ؟ قال نحو ذي الرمة حيث قال :

27) رفع الحجب الجزء الأول صفحة 20.

28) يوجد هذا الحوار في مختلف كتب النقد القديمة أثناء الحديث عن الإيغال من ذلك مثلا كتاب نقد الشعر لقدامة صفحة 194 وكتاب الصناعتين لأبي هلال العسكرى صفحة 380.

قف العيس في أطلال مية فاسأل رسوما كأخلاق الـــــــــرداء

فتم كلامه ثم احتاج إلى القافية فقال المسلسل فزاد شيئا ثم قال :

أظن الذي يجدي عليك سؤالهـا دموعا كتبديد الجمـــــــــان

فتم كلامه ثم احتاج إلى القافية فقال المفصل فزاد شيئا. قيل له ونحو من ؟ قال نحو الأعشى حيث يقول :

كنا طح صخرة يوما ليفلقهـــا فلم يضرها وأوهى قرنه الوعـــل

فتم مثله الى قوله قرنه فلما احتاج الى القافية قال الوعل. قيل له وكيف صار الوعل له مزية على كل ما ينطح ؟ قال لأنه ينحط من قنة الجبل على قرنه فلا يضيره...

واستمر المؤلف في تعداد الأمثلة لإقرار هذا المعنى في نفس المتعلم لأن الغرض كما قلنا لم يكن ينحصر في إفهام ما هو واقع بقدر ما هو يهدف الى خلق ملكة في نفس المتعلم يقدر بواسطتها على التذوق والإ بداع.

وكانت عادة المؤلف في الاستدلال أن ينطلق أولا من الأمثلة التي استعملها الأولون في كتبهم ثم يأتي بأمثلة أخرى لتقرير القاعدة يختارها من ا بداع عدد من الشعراء سواء كانوا من الذين سبقوه أو كانوا من شيوخه ومن معاصريه ثم قد لا يكتفي بذلك فيأتي بنماذج من شعره

ليساهم بدوره في إثراء العملية الشعرية الا أنني لاحظت من خلال ما نظمه أن قوته الإبداعية في الشعر لم تكن تجارى قدرته النقدية فهو شاعر متوسط لا يندمج في عداد الشعراء الأقوياء وأظن أنه كان يعلم ذلك من نفسه حينما اعترف بقصوره أثناء تقديمه للمجموعة الشعرية التي أهداها للسان الدين بن الخطيب رحمه الله.

ولا بأس أن نأخذ صورة من هذا التدرج الاستدلالي الذي أشرنا إليه فهذا حازم يقول في مقصورته (29).

وجه بدا بمشرق الحسن بـــه   بدر منير تحت ليل قد غســا

فيعقب عليه الشريف أبو القاسم بما يأتي.

وقوله تحت ليل قد غسا كنى بالليل عن الشعر وقد قال أبو الطيب

كشفت ثلاث ذوائب من شعرهـا   في ليلة فأرتني ليالي أربعــا
واستقبلت قمر السماء بوجههـا   فأرتني القمرين في وقت معــا

وقال ابن المعتز :

سقتني في ليل شبيه بشعرهــا   شبيهة خديها بغير رقيـــب
فمازلت في ليلين بالشعروالدجى   وشمسين من كأس ووجه حبيـب

وقال ابن المعترا أيضا ويروى لغيره.

نشرت غدائر شعرها لتجننـــي   خوفا علي من الرقيب المحنــق
فكأنني وكأنها وكأنـــه   صبحان باتا تحت ليل مطبــق

---

29) رفع الحجب الجزء الأول صفحة 34.

ثم يقول : ولي من أبيات :

ليل وليل ففرع وارد ودجـــى   طالا فواحزني مما أكابـــده
شاهدت في ذاك بدرا لا أهيم به   وهمت في ذا ببدر لا أشاهــده

ولي أيضـا :

غزال أنس كم استدنيته فنـأى   عني وأعرض مزورا بجانبــه
طالت علي ليالي في هواه كمـا   طال عليه ليال من ذوائبــه

فنحن لو قارنا بين ما جاء به و بين تشبيهات المتنبي وا بن المعتز لوجدناهما أقوى منه بكثير.

وليس عدم إبداعه في شعره مما ينقص من قيمته النقدية وقدرته التأليفية لأن جوانب قوته تبدو في طريقة تأليفه وفي منهجية تعليمه فهو عالم بأصول الشعر حجة فيه بارع في علمي العروض والقوافي له خبرة بتاريخ الأدب وقوة على استحضار كثير من الشخصيات التاريخية أدبية أو سياسية بحيث نراه قد ترجم في كتابه لأكثر من ستين علما من الأعلام الذين يتوقف عليهم شرح بعض الرموز الشعرية وفك بعض الإحالات التاريخية فهو بذلك كان يساعد المتعلم ويرسم له طريق المعرفة ويبين له كل ما يحتاج إليه.

إن أبا القاسم في كتابه كان ذواقة للأدب عالما بأصول البلاغة هادفا الى رسم الطريق أمام المتعلمين منهجيا في طريقة تأليفه تحس وأنت تقرأ كتابه كأنك طالب من طلابه يتدرج بك من البسيط الى

المركب ومن المجهود الى المعلوم فهو لا يقدم اليك المعلومات فقط بل إنه زيادة على ذلك يهذب فكرك ويمكنك من وسائل المعرفة بطريقة عقلية تعتمد على المنطق وترتكز على الفهم وتسهل وسائل التبليغ ولقد شعر معاصروه بهذه الميزة فوصفوه بها ومدحوه بالمهارة فيها ولهذا قال لسان الدين بن الخطيب في وصفه إنه كان يمتاز بإتقانه للتدريس وبالصبر الدؤوب عليه.

وهكذا يمكننا أن نضيف هاته الميزة الى محاسنه الأخرى وحينئذ تتبلور شخصية أبي القاسم أمامنا في صورة جذابة تمثل الدقة في الحكم والنزاهة في النقل والإتقان في التدريس والحرص على تهذيب الأذواق بنقوله المتعددة التي لا تنحصر في اتجاه ولا تقتصر على عصر دون عصر.

وتلك خصائص قيمة تدفعنا بكل إلحاح الى أن نتحدث عن هذا الأديب في هذه المناسبة الخاصة بالحديث عن الحركة الفكرية في مدينة سبتة لنستشف من ذلك صورة من صور الأدب المغربي في عهد المرينيين ولنطلع على منهاج نقدي مازال الى الآن صالحا في بعض جوانبه لاستكشاف الآثار الأدبية وللغوص عن مضامينها.

فـــاس **محمد بن عبد العزيز الدباغ**

سبتة من خلال رجالاتها

(بيوغرافية شاملة)

عبد العزيز ابن عبد الله

ظلت حاضرة سبتة طوال قرون منذ عهد الأدارسة إلى بني مرين همزة الوصل وبوتقة الانصهار ومجمع التيارات الفكرية بين الشرق العربي وإفريقيا والأندلس وقد كان لرجالاتها عبر العصور دور قيادي في بلورة الفكر المغربي وابراز المعالم الحضارية للشق الغربي من العروبة مقرونة بذيولها في بحبوحة الكيان العربي والإسلامي ضمن العطاء الإنساني الشامل وان نظرة على التراث الشيق الذي خلفه لنا في مختلف

مراحل التاريخ أقطاب الفكر في هذه القطعة السليبة من المغرب ـ لدليل على عمق الرسالة التي اضطلعت بها مدينتنا هذه خلال ثمانية قرون ظلت خلالها صورة حية ناطقة عن الدور الطلائعي الذي كان لها أن تستمر في القيام به لولا الآفة الاستعمارية التي شلت منذ أربعة قرون عملها الحضاري الرائع ويكفي أن نستشف من خلال ماكتب عن هذه الحاضرة بعض روائعها وبادراتها ثقافيا واقتصاديا ـ لنلمس مدى خطورة السطو الأجنبي وأبعاده الإجرامية.

فلنستعرض سير ومنتجات أبرز هؤلاء الرجالات كنماذج لما أنجبته سبتة من عباقرة أسهموا بحظ وافر في بناء الكيان المغربي بسماته الوضاءة وقد حاولنا تتبع أشتات هذا الإنتاج من خلال المكتبات والخزانات العالمية عموما والمغربية خصوصا استحثاثا للهمم من أجل تسليط الأضواء الكاشفة عليها تحقيقا ونشرا.

وقد ركزنا عناصر كل سيرة في مقوماتها الرئيسة وخصائصها وميزاتها محاولين التنظير العابر عند الاقتضاء. ورغم الاقتضاب فإن الصورة في عمومها تبرز السمات التي تمتاز بها ذاتيتنا الخلاقة المبدعة في جزء من ترابنا السليب.

إبراهيم بن أبي بكر بن عبد الله بن موسى التلمساني الأنصاري الوشقي السبتي :

(دفين سبتة) (ولد بتلمسان عام 699 هـ / 1299م).

حسب الديباج وعام 609 هـ / 1212م).

حسب بروكلمان في ملحقه (ج 1 ص 666).

وتوفي بعد 690 هـ / 1291م.

راجع ترجمته في «الديباج المذهب» (ص 90) والبستان لابن مريم (ص 55 و 82) وتعريف الخلف للحفناوي (ص 9).

من مؤلفاته :

1) «نتيجة الخير ومزيلة الغير في نظم المغازي والسير» على أوزان المغرب (مكتبة الاسكوريال = 390).

2) المنظومة التلمسانية في الفرائض : يوجد في مكاتب خع = (1) 1040) وخع 2149 د (م 20 ـ 223) والقيروان (185) والجزائر (1317 ر 9 ر 149) والفاتكان (160) وخم 8786 / 9224 / 5972.

3) مقالة في العروض.

La Tlemsaniya, poème sur le droit successoral musulman, traduit par G. Faure – Biguet, Valance, 1905.

خم 6804 / 5316 / 7382.

لها شروح كثيرة احدها لعبد الرحمن بن يحيى بن محمد بن صالح العصنوني المغيلي يوجد بالجزائر (1318) والمتحف البريطاني.

خع 2149 د (والزيتونة 401 ر 4.

4) قصيدة في المولد النبوي.

إبراهيم بن أبي العيش بن يربوع القيسي السبتي :

430 هـ / 1038 ـ 1039م / أو 433 هـ (1041 ـ 1042م).

الصلة لا بن بشكوال (ص 105).

إبراهيم بن أحمد البصري السبتي :

(513 هـ / 1119م).

فهرسة عياض (ص 68).

إبراهيم بن أحمد بن عيسى بن يعقوب الغافقي الاشبيلي ثم السبتي :

ولد بإشبيلية سنة 641 وحمل صغيرا إلى سبتة سنة 646 هـ لما تغلب الفرنج على اشبيلية شرح كتاب الجمل ونزل سبتة فصار شيخها وساد أهل المغرب في العربية إلى أن مات سنة 716 هـ / 1317م (الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ج 1 ص 13. درة الحجال (ج 1 ص 94).

شذرات الذهب (ج 6 ص 38).

إبراهيم بن ادريس بن أبي إسحاق ابن جامع :

ولي سبتة حوالي 621 هـ / 1224م.

الحلة السيراء ج 2 ص 293 (طبعة القاهرة 1963).

إبراهيم بن جعفر بن أحمد اللواتي السبتي :

المعروف بابن الفاسي (513 هـ / 1119م).

الصلة (ج 1 ص 105) / معجم أصحاب الصدفي (ص 54 / الديباج (ص 88) فهرسة عياض (ص 65).

إبراهيم بن محمد اللخمي السبتي المعروف بابن المتقن :

سمع بالاسكندرية حوالي 570 هـ / 1174م على أبي طاهر السلفي تكملة الصلة ص 213.

إبراهيم بن يوسف بن أدهم (أو ابن إبراهيم) بن القائدى الوهراني الحمزي :

المعروف بابن وسلا وتوفي (569 هـ / 1173م) بفاس وقد ولد بالمرية عام 505 هـ وانتقل إلى سبتة.

السلوة (ج 3 ص 151).

تكملة الصلة 185 / بروكلمان ج 1 ص 370.

الجذوة ص 86 ـ الاستقصا (ج 1 ص 186).

ابن خلكان (ج 1 ص 16).

الروض لابن عيشون الشراط.

من مصنفاتــه :

1) مطالع الأنوار على صحاح الآثار في غريب الحديث.

(راجع مطالع الأنوار لعياض بمكتبة القرويين اعداد (594 ـ 624 ـ 1641).

مكتبة القاهرة (149 أو 1 / أحمد تيمور Raad III 340

2) منتخب مطالع الأنوار للحسامي القريمي.

(757 هـ / 1356م) (Tüb 31)

3) تهذيب المطالع لخطيب الدهشة (837 هـ / 1430م).

القاهرة 99 ر 291 ر 1).

4) تحفة ذوي الارب.

5) التقريب في علم الغريب ـ القاهرة (286 ج).

ملحق بروكلمان (ج 1 ص 633).

ابن أبي تليد موسى بن عبد الرحمن بن خلف بن موسى (ابن أبي تليد) الشاطبي :

من أصحاب ا بن عبد البر.

أخذ عنه عياض بسبتة.

(444 هـ / 517 هـ) (فهرسة عياض ص 112) استقدمه السلطان إلى مراكش معجم ا بن الا بار.

الاعلام للمراكشي ج 6 ص 222.

ابن أبي جمرة عبد الله السبتي (710 هـ / 1312م).

خطيب غرناطة.

شذرات الذهب (ج 6 ص 23).

الدرر ج ص 360.

وهو غير ا بن أبي جمرة عبد الله بن سعد الأندلسي المتوفي بمصر (695 هـ / 1296م).

البداية والنهاية ج 13 ص 346.

النيل ص 140 (وفاته عام 699 هـ).

تاريخ بروكلمان ج 1 ص 458.

ابن أبي خالد البلنسي مشغل سبتة من طرف الحفصيين :

البيان لابن عذارى ج 4 ص 454.

ابن أبي الربيع أبو الحسين عبيد الله بن أحمد ابن عبيد الله الاشبيلي السبتي :

(688 هـ / 1289م).

له (2) «تفسير القرآن».

كتاب نادر يوجد الجزء الأول منه في خق (ق 315).

ابن أبي العافية علي بن محمد بن إبراهيم السبتي :

طبقات القراء ص 563.

ابن أبي عرفة أحمد بن محمد أبو حاتم السبتي العزفي :

الدرر الكامنة ج 1 ص 261.

ابن الأحمر أبو سعيد فرج بن اسماعيل صاحب مالقة :

(احتلاله سبتة عام 703 هـ / 1303م.

طرده منها ومصاهرته لملك المغرب (709 هـ).

الاستقصا ج 2 ص 40 ـ 48.

ابن باج سليمان بن عبد الملك (قاضي سبتة) :

التكملة ص 297.

الذيل والتكملة س 4 ص 74.

ابن بدرون الوزير أبو مروان أبو القاسم عبد الملك بن عبد الله الحضرمي الشبلي السبتي :

توفي بعد (608 هـ / 1211م).

تكملة ابن الابار ج 2 ص 620.

تاريخ بروكلمان ج 1 ص 415 وملحقه ج 1 ص 579) / كشف الظنون ص 1329.

له : شرح قصيدة ابن عبدون.

وهي الرائية التي رثى بها المتوكل عام 447 هـ 1092م. اسمها (كمامة الزهر وصدفة الدر أو فريدة الدهر».

ومطلعها :

الدهر يفجع بعد العين بالاثر   فما البكاء على الأشباح والصور

خع = 1450 د (119 ورقة) مع جزء آخر مبتور في خع 2140 د (م 1 ـ 97) اعتنى بطبعه دوزى ـ ليدن 1846 ـ 1848.

ابن البناء أبو بكر محمد الاشبيلي شاعر بني عبد المومن :

توفي بسبتة عام 646 هـ / 1248م.

المغرب لابن سعيد ج 1 ص 249.

الذيل ج 5 ص 406.

النفح ج 4 ص 396.

ابن تبال علي بن سليمان بن ابراهيم النفزي البغوي الجواهري المراكشي السبتي :

أجازه البوصيري (514 هـ أو 515 ـ 1121 / 1122م).

التكملة ص 235.

الاعلام للمراكشي ج 7 ص 15 (خ).

ابن تيمية : أجاز صاحب سبتة بجملة من أسانيده في عشر ورقات وصدر عنه ذلك وهو معتقل في سجن الاسكندرية عام 709 هـ / 1309م (فهرس الفهارس ج 1 ص 129).

ابن تمام يحيى السبتي :

المدارك ص 266.

ابن جامع عبد الله قائد سبتة :

خلف غانم بن مردنيش في قيادة أسطول سبتة لما اسر (ابن عذارى ج 3 ص 117 طبعة الرباط).

ابن جماح عبد الله بن ابراهيم الكتامي السبتي :

صلة الصلة لابن بشكوال ج 1 ص 293.

ابن الجميل حسن بن علي بن محمد بن فرج الكلبي السبتي :

(571 هـ / 1176م).

تكملة ا بن الا بار ص 26.

ابن الجميل ابن دحية عثمان بن حسن بن علي ابن محمد بن فرج الكلبي السبتي اخ عمر الآتي :

(634 هـ / 1237م).

التكملة ص 662.

صلة الصلة ص 76.

بغية الوعاة ص 322.

لسان الميزان ج 4 ص 133.

ابن الجميل عمر بن حسن بن علي بن محمد بن فرج الكلبي السبتي :

(633 هـ / 1235م).

تذكرة الحفاظ ج 4 ص 205.

التكملة ص 660.

صلة الصلة ص 73.

عنوان الدرا ية ص 159.

الذيل والتكملة ص 49.

بغية الوعاة ص 360.

لسان الميزان ج 4 ص 292.

ابن الجيار أبو عبد الله محتسب سبتة :

ترجمة ابنته عائشة في مجلة تطوان 1964 عدد 9 ص 187.

ابن الحاج عماد الدين أبو البركات البلفيقي السبتي محمد بن محمد بن ابراهيم :

أستاذ ابن خلدون والحضرمي وابن الخطيب (771 هـ / 1369م).

شجرة النور (ص 229).

درة الحجال ج 1 ص 176.

الاعلام للزركلي (ج 7 ص 269).

النفح ج 7 ص 391.

الاعلام للمراكشي ج 3 ص 325.

مصنفاتـــــــــه :

1) نظم الجمل .

2) الافصاح فيمن عرف في الاندلس بالصلاح.

3) حركة الدخولية في المسألة المالقية.

4) تاريخ المرية (لم يتم).

5) العذب والاجاج في شعر أبي البركات ابن الحاج.

6) المؤتمن على أنباء أبناء الزمن.

7) أسماء الكتب والتعريف بمن ألفها على حروف المعجم.

8) المرجع بالدرك على من أنكر وقوع المشترك.

9) الفلسفات.

10) مشتبهات اصطلاح العلوم.

11) الفصول والأبواب في ذكر من أخذ عني علما من الشيوخ والاتباع والأصحاب.

ابن حجاج أبو محمد السبتي :

فهرسة عياض ص 36.

ابن حجون القنائي عبد الرحيم ابن أحمد بن محمد :

ولد في إحدى قرى سبتة ودفن بقنا بمصر (592 هـ / 1196م) كان امام عصره الاعلام للزركلي ج 4 ص 118.

حسن المحاضرة للسيوطي ج 1 ص 245 له مقالات في التوصية.

ابن حسين التميمي محمد بن عبد الله بن محمد بن عيسى السبتي :

التكملة ص 372.

الذيل والتكملة ص 98.

ابن الحكيم الرندي أبو بكر :

الوزير شيخ ابن الخطيب رفيق ابن رشيد في رحلته توفي بغرناطة 708 هـ / 1308م.

النفح ج 8 ص 12 ـ 21.

ابن حماد علي بن موسى السبتي :

قاضي غرناطة ثم قاضي الجماعة بمراكش (564 هـ / 1169م).

الجذوة (ص 304) السلوة ج 3 ص 309.

الاعلام للمراكشي ج 7 ص 9 (خ).

ابن حمادوه أبو عبد الله السبتي :

صاحب المقتبس في أخبار المغرب وفاس والأندلس (مفاخر البربر ص 43 و 46).

ابن حمو عبد الله السبتي :

الصلة لابن بشكوال ج 1 ص 292.

ابن حوط الله داود بن سليمان بن عبد الرحمن الأنصاري

قاضي الجزيرة الخضراء ثم بلنسية.

له : كتاب في أسماء شيوخه.

توفي بمالقة 521 هـ / 1127م (ولد باندة من عمل بلنسية عام 442 هـ) درس بسبتة ومراكش وسلا.

الاعلام للمراكشي ج 7 ص 108.

ابن حوط الله الأنصاري الحارثي عبد الله بن سليمان بن داود بن عمر

محدث حافظ مؤدب أبناء المنصور الموحدي.

لقي ابن بشكوال وابن رشد أبا الوليد.

قاضي قرطبة واشبيلية ومرسية وسبتة وسلا.

له : كتاب في تسمية شيوخ البخاري ومسلم وأبي داود والنسائي والترمذي نزع فيه منزع أبي نصر الكلاباذي لم يكمله.

توفي بغرناطة 612 هـ / 1215م ودفن بمالقة.

النفح ج 6 ص 66.

الاعلام للمراكشي ج 6 ص 93.

ابن الخضار محمد الكتامي التلمساني الستبي :

سمع علوم الحديث لابن الصلاح عليه بدمشق عام 634 هـ / 1236م (درة الحجال ج 1 ص 282).

ابن الخطيب عبد الله بن أحمد بن أبي القاسم :

التميمي قاضي سبتة توفي بتونس (620 هـ / 1223م).

التكملة ص 531.

ابن خلاص الحسين بن أحمد البلنسي :

والي سبتة.

صبح الأعشى ج 7 ص91.

البيان المعرب ج 4 ص 410.

العبر ج 6 ص 614.

ابن خلف الشقري أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد
(بن خلف) الشاعر امتدح وزراء الموحدين بالمغرب وأمراءهم بالأندلس.

كتب إليه الشاعر ابن علي الفاسي المعروف بابن عابد عام 623 هـ قصيدة استوطن سبتة في حماية اليناشتي الموفق بالله أحمد بن أبي عبد الله بن أبي الفضل مبارك قتل بسبتة 633 هـ / 1235م.

الاعلام للمراكشي ج 6 ص 316 (خ).

ابن خلف اللخمي محمد بن أحمد بن هشام السبتي (557 هـ / 1161م).

له شرح كتاب الفصيح (خم 1944).

ابن خلف يحيى الصدفي من أهل سبتة أصله من بصرة المغرب رحل إلى المشرق وحدث كثيرا
ودخل الأندلس مجاهدا وتاجرا وتوفى بسبتة (تاريخ علماء الأندلس لابن الفرضي طبع مجريط 1891 ج 2 ص 61).

ابن خلوف عبد الله بن أحمد (بن خلوف ابن شبونة السبتي الأزدي)

دفين أغمات (537 هـ / 1142م).

أحد حفاظ المذهب بسبتة نزل ببني عشرة بسلا ثم أغمات حيث أصبح مفتيا وهو احفظ أهل وقته للمالكية.

معجم أصحاب الصدفي ص 214.

فهرس القاضي عياض (الغنية) ص 84.

الاعلام للمراكشي ج 6 ص 85.

ابن دارة أو ابن سبعين محي الدين أبو محمد عبد الحق بن إبراهيم بن محمد الاشبيلي المرسي :

استوطن سبتة عام 669 هـ / 1270م.

المقري في نفح الطيب (ج 1 ص 421 و 590 ج 2 ص 395).

الطبقات الكبرى للشعراني (ج 1 ص 172).

درة الأسلاك لا بن حبيب (ص 256).

الشذرات (ج 5 ص 329) / عنوان الدراية (ص 139) / بروكلمان ج 1 ص 844 فوات الوفيات ج 1 ص 247 / لسان الميزان ج 3 ص 392 / الاعلام للزركلي ج 4 ص 51.

مؤلفاته :

1) بد العارف وعقيدة المحقق المغرب الكاشف وطريق السالك المتبتل العاكف (جار الله ، 1273) برلين 1774.

Ibn S. et la critique psychologique dans l'histoire de la philosophie musulmane, in mémoire H. Basset (Paris 1929).

2) أسرار الحكمة المشرقية ـ 533.

المتحف البريطاني (Brill 533)

3) الأجوبة عن الأسئلة الصقلية أجاب بها عن أسئلة فريدريك الثاني الموجهة إلى علماء سبتة.

4) الدرة المضيئة والخفية الشمسية (خع = 471).

5) لسان الفلك الناطق عن وجه الحقائق Asaf I, 802/109

ابن دحية السبتي

(راجع ا بن الجميل).

ابن دري علي بن محمد الأنصاري (سبتة).

بغية الوعاة ص 347 / فهرسة عياض ص 102.

معجم أصحاب الصدفي ص 273.

ابن ذي النون الحجري عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عبيد الله بن سعيد :

توفي بسبتة (591 هـ / 1194م) وتولى قضاءها خرج من المرية بعد تغلب العدو على مرسية ثم إلى مالقة ثم فاس ثم إلى سبتة هو المشهور با بن عبد ربه ولد عام 505 بقناجير (أو 503 هـ) حسب ا بن فرتون وهو خاتمة المسند ين.

شجرة النور (ص 159) / الجذوة ص 239 / التكملة ص 294 و 762 / نيل الا بتهاج ص 117 / طبقات الحفاظ ج 4 ص 158.

الاعلام للمراكشي ج 6 ص 87 (خ).

ابن رشيد أبو عبد الله محمد بن عمر بن محمد :

السبتي محب الدين الفهري الأندلسي كبير مشيخة المغرب توفي بفاس (721 هـ / 1321م).

الدرر الكامنة (ج 3 ص 280) و ج 4 ص 111.

الاعلام للمراكشى (ج 3 ص 250).

شجرة النور (ص 216) / السلوة (ج 2 ص 191).

درة الحجال ج 1 ص 201 / الجذوة (ص 180) / بغية الوعاة ص 85 ـ (الذيل ص 355) الوافي بالوفيات (ج 4 ص 284).

عبد الله گنون : ابن رشيد في ذكريات مشاهير المغرب.

دعوة الحق عدد 2 (1959).

مجلة معهد المخطوطات القاهرة ـ 1959.

مؤلفاته :

1) افادة النصيح بالتعريب بإسناد الجامع الصحيح (الاسكوريال (1732 ـ 1785).

2) السنن الا بين والمورد الامعن في المحاكمة بين الامامين في السند المعنعن (الاسكوريال = 1806).

3) فهرست (طرف منها في كراسة في خق).

4) رحلته المسماة «ملء العيبة بما جمع بطول الغيبة في الوجهة الوجيهة إلى الحرمين مكة وطيبة».

5 أجزاء مصورة بمعهد مولاي الحسن بتطوان ونسخة بالاسكوريال.

5) ترجمان التراجم في إبداء وجه مناسبة تراجم صحيح البخاري (لم يكمل كما في كشف الظنون).

6) المقدمة المعرفة لعلو المساحة والصفة.

7) إحكام التأسيس في أحكام التجنيس.

8) إيراد المريع لرائد التسميع والترصيع.

9) وصل القوادم بالخوافي في ذكر احكام القوافي (شرح لقوافي شيخه حازم القرطاجنى).

10) جزء في العروض.

11) إيضاء المذاهب فيمن يطلق عليه اسم الصاحب.

ابن رشيد الفهري يحيى بن محمد بن عمر :

السبتي (750 هـ / 1349م) صاحب العلامة عند بني مرين.

الحذوة (ص 339) / الاعلام ج 3 ص 255.

ابن رضوان أبو القاسم عبد الله بن يوسف :

النجاري المالقي كاتب أبي عنان صاحب القلم الأعلى (أي العلامة) بالمغرب توفي بأنفا عام 733 هـ / 1332م.

قدم مع أبي الحسن المريني إلى تونس وأفاد منه ابن خلدون نزل بعد وقعة طريف بسبتة (النفح ج 8 ص 123 ـ 218.

الاستقصا ج 2 ص 102 / تاريخ ابن خلدون / الجذوة ص 245 / الاعلام للمراكشي ج 6 ص 99 (خ).

ابن رضوان لعبد القادر زمامة (دعوة الحق عدد 2 (1969).

له : «الشهب اللامعة في السياسة النافعة» (233 ص) / (خع = 2144 د).

ابن الرميمي محمد بن عبد الله بن أبي يحيى :

وزير ابن هود قتله والتجأ إلى ابن خلاص في سبتة (المغرب ج 2 ص 199 / المعجب ص 210.

البيان المغرب ج 4 ص 388.

العبر ج 4 ص 388 و 6 ص 615 / النفح ج 6.

أعمال الاعلام ص 330.

ابن زرقون محمد بن سعيد بن أحمد بن سعيد :

الأنصاري مسند الأندلس (586 هـ / 1190م).

قاضي سبتة وشلب. توفي باشبيلية.

فهرسة ابن خير ص 86 / التكملة ص 329 أو 256.

له :

1) «الأنوار في الجمع بين المنتقى والاستذكار في شرحي الموطأ» للباجي وابن عبد البر يوجد المجلد الرابع بخزانة القرويين (ق 145).

2) «كتاب في الجمع بين الترمذي وأبي داود».

ابن زوبع محمد بن عيسى السبتي :

الصلة لا بن بشكوال ج 2 ص 536.

المدارك لعياض ص 265.

ابن زيد السمار السبتي :

مجلة تطوان 1964 عدد 9 ص 178.

ابن السبتي محمد بن صدقة الخفاجي الشاعر :

(622 هـ / 1225م).

الوافي بالوفيات ج 3 ص 159.

وهنالك ا بن صدقة المرادي من طرا بلس الغرب.

(ذكره في الوافي ص 161 و بغية الوعاة ص 49).

ابن سبع سليمان السبتي :

(راجع سليمان).

شفاء الصدور خم = 5733 (ج 2) خع = (ج 2).

ابن سمعون أبو الحجاج يوسف بن يحيى بن اسحاق الطبيب الرياضي اليهودي :

(راجع يوسف).

ذكر القفطي انه من أهل فاس ارتحل لمصر واجتمع بابن ميمون وسافر إلى العراق النبوغ المغربي ص 158.

ابن سهل عبد الله ابن ادريس المقرىء شيخ عياض :

515 هـ / 1121م.

الغنية ص 149 / فهرس عياض ص 86 / معجم أصحاب الصدفي ص 204.

ابن الشاط سراج الدين القاسم بن عبد الله (وقيل علي) بن محمد الاشبيلي السبتي :

(725 هـ / 1323م).

الديباج ص 261 / درة الحجال ج 2 ص 457.

الديباج ص 216.

مصنفاته :

1 - برنامج (الاسكوريال 1727).

تاريخ بروكلمان ج 2 ص 264.

عرف بـ «برنامج ابن أبي الربيع الأندلسي (الاسكوريال ف 1785

نشر في مجلة معهد المخطوطات م 1 (1955) تحقيق عبد العزيز الاهواني.

2 ـ «كتاب الشرف على أعلى شرف في التعريف برجال سند البخاري من طريق الشريف أبي علي بن أبي شرف (الاسكوريال 1732).

وتوجد بالمكتبة الملكية بالرباط مخطوطة تحمل اسم «أدوار الشروق على أنوار البروق» خم 8052 / تنسب لابن الشاط.

كما توجد نفس المخطوطة باسم «أدوار الشروق على أنوار الفروق» في الزيتونة ج 4 عدد 4 / 1751 / المكتبة الوطنية بتونس (4256م) وهي منسوبة لابن الشاط أبي القاسم.

ويوجد ابن شاط آخر هو عيسى بن أحمد الهدبي البجائي، صاحب التعليق على صحيح مسلم (خم – 5456 / 5536).

وهو أيضا صاحب رسالة في العمل الاسطرلاب (خم 6665 / 5369 / 6843)

ابن شبونة عبد الله بن أحمد السبتي :

(راجع ابن خلوف).

ابن شقرون السبتي الشاعر :

قال فيه صاحب خريدة القصر وجريدة العصر العماد الاصفهاني (في قسم شعراء المغرب ـ تونس 1966 ص 345) : «ذكر لي سنة ثلاث وسبعين (يعني بعد الخمسمائة) بمصر أنه يعيش ثم ذكر له قصيدة في مدح عبد المومن مطلعها :

قفوا عيسكم في حضرة الملك الاتقـــى وقضوا بلثم الترب من ربعه حقا

ابن الشهيد الهنتاتي : والى الحفصيين على سبتة (البيان لا بن عذارى ج 4 ص 454).

طرده أبو القاسم العزفي عام 647 هـ / 1249م (ص 486).

ابن الشيخ السبتي محمد بن علي بن عبد الله الأموي :

الصلة ص 335 / لسان الميزان ج 2 ص 290.

فهرست عياض ص 63.

ابن شيرين السبتي :

(راجع محمد بن أحمد).

ابن الصائغ أبو الحسين يحيى بن محمود (أو محمد) بن علي السبتي شيخ محمد بن تاخميست :

التكملة ج 3 ص 730.

صلة الصلة لا بن الزبير ص 200.

الذيل والتكملة ص 195.

التشوف ص 384.

ابن طريف الحسن بن علي التاهرتي : شيخ سبتة.

(راجع الحسن).

فهرست عياض ص 77.

ابن طلحة أبو جعفر كاتب أبي العباس :

اليناشتى أمير سبتة.

(راجع أبو جعفر).

ابن عبد السلام أبو عبد الله الكومي قائد أسطول سبتة :

البيان لابن عذاري ج 4 ص 203.

ابن عبد الملك الجذامي أحمد بن محمد الطبيب المحدث السبتي :

توفى بمراكش عام 650 هـ / 1252م.

الاعلام للمراكشي ج 1 ص 354.

له معرفة بالادب وضبط مع مهارة في الطب وأدواته.

ينسب لابن عبد الملك السبتي (اختصار الأخبار عما كان بسبتة من المزارات) / خزانة الكتاني وقد شبت عام 743 هـ / 1342م وقعة ضد الافرنج حول مدينة سبتة قتل فيها ابن عبد الملك محمد بن محمد بن محمد الأوسي.

النفح ج 8 ص 198.

الاعلام للمراكشي ج 3 ص 261.

ابن عبد المنعم محمد بن محمد بن عبد الله الحميري الأندلسي السبتي :

900 هـ / 1495م.

كشف الظنون 92 / النفح ج 7 ص 391 / الدرر الكامنة ج 4 ص 151.

مجلة تطوان عدد 9 ص 175 (1964).

له : «الروض المعطار في أخبار الأقطار» (مجلدان) (طبع ما يتعلق بصفة جزيرة الأندلس مع ترجمته الفرنسية.

ابن عبدون عبد المجيد بن عبد الله اليابوري الفهري ذو الوزارتين لدى بنى الافطس خدم المرابطين :

كان يحفظ الأغاني. ورد سبتة للأخذ عن عياض توفي بيابرة 529 هـ / 1134م أو 520 حسب المعجب ص 76 / فوات الوفيات ج 2 ص 8.

كشف الظنون ص 1329 / ابن بشكوال 831.

فهرست عياض ص 98.

الغنية ص 167.

دعوة الحق عدد 5 (1962).

بروكلمان ج 1 ص 320 وملحقه ج 1 ص 80.

الاعلام للزركلي ج 7 ص 136.

له : (القصيدة البسامة في أطواق الحمامة) في رثاء بني الأفطس (Jong 1839) شرحها ابن بدرون أبو القاسم عبد الملك بن عبد الله الحضرمي الشبلي (560هـ / 1164م).

في رسالة موسومة «كمامة الزهر وفريدة أو طرفة الدهر أو صدفة الدر».

خم 638 / خع 2140 د (مجموع : 1 ـ 97 مبتور الأخير).

Traité d'Ibn Khaldoun. L. Provençal (Jornal Asiatique Avril-Juin 1934) Commentaire hist. sur le poème d'Ibn Abdun p. 9 I.B. par Dozy, Leyde 1846.

كما شرحه أحمد بن محمد الصفدي الخالدي (764هـ / 1362م) في طوق الحمامة.

2) ـ كتاب في الانتصار لأبي عبيد البكري على ابن قتيبة.

ابن عتيق الحسن بن الحسين بن رشيق :

شاعر مرسى استوطن سبتة. اخترع شكلا مستديرا في الشطرنج.

(680هـ / 1281م).

(الإحاطة ج 1 ص 300).

له : 1 ـ «التاريخ».

2 ـ «ميزان العمل».

وهنالك ابن رشيق آخر (انقل ما في ج 1 ص 107).

ابن العجوز عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن بن عبد الرحيم الكتامي السبتي :

قاضي الجزيرة الخضراء وسلا.

(510هـ / 1116م).

(صلة بن بشكوال ج 1 ص 348).
الجذوة ص 260 / شجرة النور ص 124.
الاعلام للمراكشي ج 6 ص 49 (خ).
الديباج ص 157 / السلوة ج 3 ص 295.
فهرست عياض ص 95 / المدارك ص 306.

ابن العجوز عبد الرحيم بن أحمد الكتامي السبتي الاصيلي الفاسي أبو عبد الرحمن شيخ الفتيا :
(413 هـ / 1022م).
لازم ابن أبي زيد القيرواني واخذ عن درس الأصيلي.
(الديباج ص 162 / طبقات المالكية ص 234).
شجرة النور ص 115 / صلة ابن بشكوال ص 383 / السلوة ج 3 ص 298 له خمسة عقب كلهم أئمة وهم :
- ابن العجوز عبد الحميد.
- ابن العجوز عبد الملك.
ولده عبد الرحمن بن عبد الرحيم.
ولده الاخر عبد العزيز بن عبد الرحيم.
- حفيده محمد بن عبد الرحمن.
ولد حفيده أبو القاسم عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن.
(فهرست عياض ص 95).

ابن العجوز عبد العزيز بن عبد الرحيم بن أحمد :

(مدارك عياض ص 233).

(راجع عبد العزيز).

ابن العجوز السبتي محمد بن عبد الرحمن بن عبد الرحيم بن أحمد الكتامي :

قاضي فاس أيام ا بن تاشفين.

(474 هـ / 1081م).

(الجذوة ص 145).

الوافي بالوفيات للصفدي ج 3 ص 231).

ابن علاء عيسى بن نذير بن أيمن السبتي أبو الأصبغ :

ا بن الفرضي ص 277 / مدارك عياض ص 229 (راجع عيسى).

ابن عليم عبد الرحيم بن أحمد بن علي بن طلحة السبتي الشاطبي :

كتب الحديث بمصر ودمشق وحدث بتونس (655 هـ / 1257م).

(لسان الميزان ج 4 ص 4 / التكملة ج 3 ص 602).

(الاعلام للمراكشي ج 6 ص 71).

ابن عمران الحضرمي السبتي :

مجلة تطوان 1964 عدد 9 ص 177.

ابن عياش أحمد بن محمد بن عبد العزيز التجيبي الكناني المرسي :

ولي قضاء سبتة وتلمسان وسكن مراكش (629 هـ / 1231م).

(النفح ج 3 ص 360 / الاعلام للمراكشي ج 1 ص 350).

ابن الغازي محمد بن حسن بن عطية (بن غازي) ابن خلوف السبتي :

شجرة النور ص 163 / التكملة ص 373 / الذيل والتكملة ص 81.

ابن غالب الهمداني عبد الله بن تمام النكوري :

مفتي أهل سبتة وزاهدهم وعالمهم. دخل الأندلس والقيروان ومصر كان فصيحا مفوها قليل النظير.

(العبر في خبر من غبر للذهبي ج 3 ص 181.

طبعة الكويت 1381 هـ / 1961م).

معجم البلدان ج 4 ص 365 / الديباج ص 143).

ابن الفاسي ابراهيم بن جعفر بن أحمد اللواتي :

(راجع ابراهيم).

ابن الفراء أبو بكر محمد بن عبد الله السبتي الجزيري :

(المائة السادسة) وهو غير ابن الفراء الأخفش بن ميمون.

بغية الوعاة ص 53 / النفح ج 4 ص 357.

ابن الفلو عبد الرحمن بن محمد المعافري قاضي سبتة :

(فهرسة عياض ص 92).

ابن قطرال علي بن عبد الله بن محمد بن يوسف ابن أحمد الأنصاري قاضي فاس وسبتة :

(651 هـ / 1253م).

(صلة ا بن الز بير ص 138 / الجذوة ص 308).

تكملة الصلة لا بن الا بار ج 3 ص 683.

الجذوة ص 308.

الاعلام للمراكشي ج 7 ص 42.

ظل قاضيا بشاطبة إلى 622 هـ ثم انتقل إلى مراكش وحضر مجلس ا بن القطان ثم استقضي بشريش وجيان وقرطبة وسبتة وفاس ثم أغمات وريكة ثم قضاء النساء بمراكش وعرض عن ظهر قلب صحيح البخاري.

الاعلام للمراكشي ج 6 ص 2 (خ).

ابن ماسويه أحمد بن محمد بن عبد الرحمن بن أحمد بن يحيى بن خليل بن ماسويه بن حمدين الأنصاري المعروف با بن الحداد من بلنسية :

رحل إلى المشرق عام 452 هـ زار بلاد فارس وواسط وبغداد والموصل وخرسان وعاد إلى مصر عام 467 هـ / 1074م إلى أن تغلب

الروم على طليطلة فخرج إلى دانية وطلب الجهاد مع الأمير يوسف فبلغ سبتة ثم طنجة (تكملة الصلة لا بن الا بار. ط الجزائر 1920 ص 28).

ابن الماموني قاسم بن محمد بن هشام الرعيني السبتي :

المدارك ص 334.

ابن المتقن ابراهيم بن محمد اللخمي السبتي :

(راجع ا براهيم).

ابن محرز محمد بن أحمد بن عبد الرحمن البلنسي :

سمع من ا بن غاني بسبتة لقي ا بن القطان بمراكش واستوطن بجا ية بعد 640 هـ كان رأس الجماعة الأندلسية ببجا ية كأبي عبد الله الأ بار وأبي المطرف بن عميرة وا بن سيد الناس وأبي عبد الله الجنان (توفي ببجا ية عام 655 هـ 1257م)

(عنوان الدرا ية ص 170).

الاعلام للمراكشي ج 6 ص 325).

ابن المحلى محمد بن حسن بن عمر الفهري :

السبتي قاضي سبتة.

(661 هـ / 1262م).

الاعلام للمراكشي ج 3 ص 149.

(عن الذيل والتكملة).

بغية الوعاة ص 84.

ابن المرحل مالك بن عبد الرحمن بن علي بن فرج :
السبتي الشاعر توفي بفاس عام 699 هـ / 1299م.

بغية الوعاة ص 384 / الجذوة (ص 219) طبقات القراء ج 2 ص 36 / الدارس في تاريخ المدارس ج 1 ص 29 / السلوة ج 3 ص 99 وقد أفتى وهو ابن اثنتين وعشرين سنة وكان يناصب ابن تيمية العداء ويناظره ويثنى احدهما على الآخر.

ويقول من قصيدة مطلعها :

سلام على سبتة المغرب   أخية مكة أو يثرب

مصنفاته :

- «الرمي بالحصى والضرب بالعصى» (بخط أندلسي).

مكتبة محمد المنوني بالرباط رقم 395 (20 ورقة).

- «الموطأ في نظم الفصيح» لثعلب.

خع 1857 د (م = 92 - 129) / خم 7425 / 6618 / 6031 وله شرح الفصيح (مكتبة الگلاوي خع).

- منظومة ابن المرحل خع 841.
- ذيل مشتبه النسبة لابن رافع محمد السلامي (بيروت 1974 / 1394 هـ.

نفح الطيب ـ طبعة احسان عباس ج 2 ص 551 / غاية النهاية في طبقات القراء لابن الجزري (ج 2 ص 36).

ويوجد ابن المرحل محمد بن عبد الله زين الدين الدمشقي الشافعي ابن الوكيل المعروف بابن المرحل.

(738 هـ / 1338م).

الدرر الكامنة ج 3 ص 479.

الشذرات ج 6 ص 118.

ملحق بروكلمان ج 2 ص 102.

ابن مردنيش غانم بن محمد :

قائد الأسطول الموحدي المرابطي في سبتة (اسره النصارى عام 576هـ - 1180م ففداه يعقوب الموحدي).

(ابن عذاري ج 3 ص 117 (طبعة الرباط) و ج 1 ص 105.

المن بالامامة ص 516.

الاستقصا ج 2 ص 136.

ابن مطرف أبو الحسن أحمد السبتي :

ابن عساكر ج 2 ص 93.

ابن المعرور السبتي محمد بن عبد الرحمن :

طبقات القراء ج 2 ص 162.

ابن معيشة أبو العرب الكناني السبتي :

النفح ج 4 ص 301.

(راجع أو العرب).

ابن منغفاد سبع ثار في جبل غمارة : عام 560 هـ أي بعد مزيزدغ بعام واحد فحاربه الشيخ أبو حفص عمر بن يحيى ثم عام (562 هـ ـ 1166م) فاحتل من الريف إلى سبتة.

(أخبار المهدي بن تومرت ص 124).

وقد امتنع في جبل الكواكب عام 562 هـ / 1166م حيث قتل.

تاريخ المن بالامامة ص 307 (رسالة مطولة في محاربته) ص 307 ـ ابن أبي زرع ج 2 ص 185 / الاستقصا ج 1 ص 160 / المغرب المجهول (بالفرنسية) ـ موليراس Moulieras(ج 1 ص 352).

ابن النجار محمد بن يحيى بن علي التلمساني :

شيخ التعاليم تلميذ الآبلي وابن هلال السبتي شارح المجسطي وابن البنا المراكشي توفي بتونس بالوباء العام عام 749 هـ / 1348م.

(الاعلام للمراكشي ج 3 ص 263).

الجذوة ص 190.

ابن هانيء محمد اللخمي السبتي :

المتوفي بجبل طارق 733 هـ / 1332م وهو غير محمد بن هانيء الشاعر.

الاعلام للزركلي ج 7 ص 176 / الدرر الكامنة ج 4 ص 210 / النفح ج 8 ص 352.

له :

1) «إنشاد الضوال وإرشاد السؤال».

ولابن خاتمة أحمد بن علي أبي جعفر المتوفي في عام 770 هـ «إيراد اللآل من إنشاد الضوال» هو عبارة عن استدراك للكتاب وقد اختصر وطبع في (هسبريس) بعناية (كولان).

2) «الغرة الطالعة في شعر المائة السابعة» (د.م. 1133).

فهل هو مدون «بغية المستطرف وغنية المتطرف من كلام إمام الكتابة ابن عميرة أبي المطرف» (الإحاطة) ؟

ابن هشام محمد بن أحمد ابن هشام اللخمي :

السبتى الصوفي (557هـ / 1162م).

تكملة ابن الابار ص 653 / بغية الوعاة ص 19).

له :

1) «المدخل إلى تقويم اللسان وتعليم البيان» كتاب الرد على الزبيدي في «لحن العوام» (أبو بكر محمد بن الحسين الزبيدي 379 هـ - 989م) «وتثقيف اللسان وتلقيح الجنان» لأبي حفص عمر بن مكي المزاري (الاسكوريال 99.46).

رتبه كل من ابن الشاري وابن عطية محمد بن حسن.

(راجع ابن الشاري).

التكملة لابن الآبار ج 1 ص 370 (لم يشر إلى المخطوط ولا إلى ترتيبه المسمى «المدخل في تقويم اللسان وتعليم البيان»).

(بغية السيوطي ص 16).

وابن مكى هذا هو أبو حفص عمر بن خلف الحميري الصقلي المتوفي 501 هـ.

طبع كتابه التثقيف بالقاهرة 1966 بتحقيق الدكتور عبد العزيز مطر.

وقد رد عليه ابراهيم بن اسحاق الاجدابي صاحب «كفاية المتحفظ ونهاية المتلفظ».

(راجع رحلة التجاني التونسي ص 180).

راجع إرشاد الضوال لابن خاتمة (هسبريس م 13).

تحليل الألفاظ المغربية في هذا الكتاب (مجلة معهد المخطوطات العربية ص 3 (1376 هـ / 1957م).

2) الدر المنظوم (الاسكوريال 1736).

3) شرح مقصورة ابن دريد.

نسبها له بروكلمان ج 1 ص 541.

وورد في الوافي بالوفيات للصفدي ج 2 ص 131 وفي ملحق بروكلمان ج 1 ص 172 نفس الاسم مع تحديد الوفاة تقريبا حوالي 570 هـ / 1173م ونسبة شرح المقصورة إليه. توجد نسختان في خع 1268 د / 154 د ونسخة في مكتبة الگلاوي في خع أيضا / خم 2048.

ويوجد شرح قصيدة في الهيئة لأبي الحسن البغدادي منسوب لمحمد بن هشام اللخمي في خم = 7432.

ابن هلال الحضرمي علي :

(راجع علي).

ابن الوفاء أبو علي السبتي :

طبقات المالكية ص 226.

ابن يحيسة عبد الرحمن بن محمد بن الحسين :

السبتي المصري الخباز.

تذكرة الحفاظ ج 4 ص 126.

ابن يدر محمد بن محمد السبتي :

مشتبه النسبة للذهبي ص 28.

(راجع محمد).

ابن يربوع أحمد بن محمد بن أبي العيش :

المري السبتي.

مات بقسطنطينية عام 749 هـ أو 744 هـ / 1343م.

الدرر الكامنة ج 1 ص 312.

(راجع ا بن أ بي العيش).

ابن يربوع محمد بن ابراهيم (بن يربوع).

الكلبي السبتي.

درة الحجال ج 1 ص 280.

ابن يعمر اسحاق بن ابراهيم السعدي :

المجابري الغماري قاضي فاس وسبتة (فقد في وقعة العقاب عام 609 هـ / 1212م (الجذوة ص 99).

ابن يقظان علي السبتي :

شاعر أديب متطبب أصله من سبتة ورد إلى مصر عام 544 ومنها إلى اليمن ثم العراق (العماد الأصفهاني صاحب خريدة القصر وجريدة العصر ـ منهم شعراء المغرب ط تونس 1966 ص 344 حيث أورد له نتفا من الشعر).

أخبار الحكماء للقفطي ص 160.

ابن يوسف بن عبد الرحمن بن عبد الوهاب :

بدر الدين المراكشي السبتي المغربي أصلا الدمشقي مولدا كان يقرأ البخاري يوم الجمعة في الجامع الأموي وله حجرة في دار الحديث عينت له الدولة شهريا 1200 قرش صاغا ولم يكن له نظير في حفظ الحديث ورجاله وقد دأب على تدريس الحديث تحت قبة النسر بالجامع الأموي ثلاثة أرباع القرن وكان يقرأ المطولات في دار الحديث (حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر لعبد الرزاق البيطار ج 1 ص 375).

أبو بكر بن الحكيم السبتي الرندي :

درة الحجال ج 1 ص 119.

(راجع ابن الحكيم).

أبو بكر عبد الرحمن بن سليمان البلوي السبتي الشاعر :

(تكملة ا بن الا-بار ج 2).

أبو بكر يحيى بن عبد الله بن محمد بن عبد السلام :

الهذلي التطيلي نزيل سبتة.

راجع برنامج الرعيني (بعض أشعاره).

مجلة معهد المخطوطات العربية م 5 ج 1.

1378 هـ / 1959م (ص 129).

أبو بكر الادريسي قاضي سبتة :

مجلة تطوان 1964 عدد 9 ص. 184

أبو الحسن علي بن عثمان بن يعقوب بن عبد الحق :

المريني (752 هـ / 1351م).

ودفن بمراكش بموضع قبور السعديين ثم نقل إلى شالة.

افخم ملوك بني مرين وأضخمهم ملكا وأكثرهم آثارا بالمغرب والأندلس ويعرف عند العامة بالسلطان الاكحل لأنه أمه حبشية أسس خلال حصاره للمدينة معقلا سماه «سبتة العتيقة» Ceuta la Viega و برجا في المرسى.

أبو الحسين بن أبي الربيع عبيد الله بن أحمد بن عبيد الله الاشبيلي نزيل سبتة تتلمذ له بالكتابة بهاء الدين ا بن النحاس امام النحاة بمصر الذي سأل ا بن رشيد (الرحلة ج 3 ص 22) في درسه عنه

قائلا : «انه شيخنا افادة بوصول كتابه إلينا» (يريد شرحه لإيضاح الفارسي المسمى بالكافي في الافصاح) وقد وصل للشرق في حياة مؤلفه (بغية الوعاة ص 319).

(راجع ابن أبي الربيع).

له «البسيط في شرح الجمل الكبيرة للزجاجي» (يوجد الجزء الأول منه وهو عاشر عشرة أجزاء مؤرخ بعام 735 هـ / 1334م في المكتبة العامة بالرباط).

أبو خالد محمد بن أحمد بن محمد النميري :

قاضي بسطة.

سكن سبة 694 هـ / 1295م.

(بغية الوعاة ص 17).

أبو سرحان الزواوي قاضي سبتة :

(مجلة تطوان 1964 عدد 9 ص 181).

أبو سعيد المريني :

أقام قرب سبتة افراك وهو مدينة المنصورة التي بناها عام 729 هـ حيث القصر الملوكي الذي أعده بنو مرين لنزولهم (المسند الصحيح لابن مرزوق (هسبريس ج 5 ص 35 (1925).

أبو العباس الرنداحي

قائد البحر اعان أبا القاسم العزفي على تملك سبتة عام 647/ 1249م.

(ا بن عذاري ج 3 ص 400 طبعة الر باط).

أبو العباس بن جعفر السبتي المراكشي :

(601 هـ / 1204م).

السلوة ج 1 ص 16 و ج 3 ص 56.

الاعلام للمراكشي ج 1 ص 241.

النشر ج 1 ص 80 / النفح ج 10 ص 127.

نيل الا بتهاج ص 31.

دوكاستر ـ السعديون ـ ص أ. م 3 ص 213.

العدالة والإحسان عند أبي العباس السبتي.

1956 ـ (ادولف فور).

المصنفات التي ألفت فيه :

1 ـ كتاب في مناقبه ليوسف بن يحيى بن عيسى بن عبد الرحمن الشهير با بن الزيات (627 هـ / 1229م).

خع 396 / خق 313 / المكتبة الوطنية بباريز (2037).

2 ـ مآثره لأحمد بن أبي القاسم الصومعي الهروي التادلي (راجع النشر).

3 ـ «بدائع الاقتباس في مناقب أبي العباس». لمحمد الغالي بن المكي بن سليمان (1317 هـ / 1899م).

4 ـ كتاب لمحمد بن محمد بن الموقت المراكشي طبع بفاس (دم 774).

5 ـ كتاب لعلي بن سليمان الدمنتي البوجمعاوي (1306 هـ / 1888م).

6 ـ كتاب في مناقبه لمحمد أبي القاسم الهواري (المكتبة الوطنية بالجزائر عدد 1713) انتشرت أسطورة بالمغرب بين المسيحيين تدمج **شخصية أبي العباس السبتي في القديس المسيحي سان ـ أوكستان** St. Augustin ويظهر أن ذلك راجع لتطابق اسم المدينة التي ولد فيها هذا الأخير وهي Tagaste مع اسم المدينة السوسية أيضا تاكاست (Tagaste) (دوكاستر ـ س. أ. السعديون ج 3 ص 214).

مصنفاته :

1 ـ الدر المنظم (مجلد) نسخة بمكتبة الكتاني في خع.

2 ـ زايرجة خم 9254 / خع 1251 د (م = 82 – 166).

(في معرفة الأسرار حسب مطالع البروج).

3 ـ منظومة في الكيمياء (39 بيتا).

خع 2000 د (م = 122 ـ 124).

4 ـ منظومة في الفقه (دار الكتب الوطنية بتونس ق 19 س 23)

أبو العباس أحمد بن مسعود الخزرجي السبتي شهاب الدين راجع أحمد).

أبو عبد الله بن الجيار محتسب سبتة.

(راجع ابن الجيار).

أبو عبد الله الزرعي الجدميوي السبتي :

مجلة تطوان 1964 عدد 9 ص 176.

أبو عبد الله الشريشي طبيب سبتة :

مجلة تطوان 1964 عدد 9 ص 186.

أبو عبد الله الضباع :

(اقام بسبتة).

«المقصد الشريف» لعبد الحق البادسي خع = 110.

أبو عبد الله الغافقي السبتي :

مجلة تطوان 1964 عدد 9 ص 177.

أبو عبد الله الكمي :

قائد أسطول سبتة (راجع ابن عبد السلام).

أبو العرب الكناني السبتي :

(راجع ابن معيشة).

أبو علي السبتي :

(راجع ا بن الوفاء).

أبو الفتح علي بن محمد السبتي :

(راجع علي).

أبو القاسم الشيخ أحمد بن محمد السبتي المعروف بالشريف :

(راجع أحمد).

أبو القاسم بن يوسف التجيبي السبتي :

رحل إلى المشرق عام 696 هـ / 1295م.

من شيوخ الرعيني.

لـه :

1) رحلة لعل جزءا منها بتونس يخص القسم المتعلق بمرحلة ما بين تونس وسبتة.

(راجع الدرر الكامنة لا بن حجر الذي وقف عليها في ثلاثة مجلدات ضخام حذا فيها حذو ا بن رشيد الذي رحل قبله بعشر سنوات وزاد هو تضمين الرحلة مشيخته مستوعبة (مجلة تطوان 1964 عدد 9 ص 177).

2) فهرست (د. م. 1278).

(راجع أبو القاسم القاسم بن يوسف بن محمد بن علي السبتي

التجيبي 730 هـ / 1329م في مجلة الا يمان ـ العام الثالث عدد 9 / الدرر الكامنة ج 3 ص 324.

له : «مستفاد الرحلة والاغتراب».

يعرف منها مجلد (حول مصر وجدة ومكة) ـ نشر بتونس في مطبعة الشركة التونسية لفنون الرسم 1395 هـ / 1975 في 468 ص.

أبو القسم ابن الطيب محمد بن عبد الرحيم السبتي :

(راجع محمد).

أحمد بن الشيخ علي الحسيني السبتي :

مجلة تطوان 1964 عدد 9 ص 181.

أحمد بن محمد بن أبي العيش بن يربوع المري :

السبتي أخذ عن ابن رشيد وأجاز له ابن دقيق العيد والضياء السبتي كانت له عند سلطان المغرب حظوة استعمله في السفارة بينه وبين الملوك فحدث بعدة من البلاد وأفاد مات بقسطنطينية (يقصد قسطنطينة) من بلاد إفريقية سنة 749 هـ / 1348م أو 744.

(الدرر الكامنة ج 1 ص 312).

أحمد بن محمد بن أحمد اللخمي العزفي السبتي :

(633 هـ / 1235م).

له :

اثبات مالا منه بد لمريد الوقوف على حقيقة الدينار والدرهم والصاع والمد (نسخة قوبلت بأصل المؤلف بخط أندلسي قديم).

مكتبة محمد المنوني بالرباط رقم 164 (69 ورقة).

أحمد بن محمد بن عبد العزيز المكناسي :

قاضي سبتة.

(راجع ابن عياش).

أحمد بن محمد بن عبد الملك الجدامي السبتي القرطبي

(راجع ابن عبد الملك).

أحمد بن محمد الشيخ أبو القاسم الحسني السبتي :

المعروف بالشريف الغرناطي (760 هـ / 1358م).

لـــــه :

1) شرح على الرامزة.

خع = الرباط رقم 1758.

2) شرح القصيدة الخزرجية خم 9491.

راجع محمد بن أحمد بن محمد الشريف السبتي الغرناطي الحسيني أبو القاسم قاضي الجماعة بغرناطة.

الدرر الكامنة ج 3 ص 462 ـ النفح ج 7 ص 123.

وثائق الشريف الغرناطي.

ط على الحجر بفاس ص 28.

ويحمل اسم أحمد الشريف رجال هم :

1 ـ أحمد الشريف السنوسي (رياض الجنة أو المدهش المطرب ص 136).

2 ـ أحمد الشريف الحسني (نشر المثاني ج 1 ص 57).

3 ـ أحمد الشريف : الاغتباط لمحمد بوجندار.

السلوة ج 3 ص 216 / ج 3 ص 343.

4 ـ أحمد الشريف المراكشي تلميذ الشيخ محمد بن عبد الله السوسي وسيدي محمد بن الفقيه وسيدي الشيخ أحمد وسيدي علي بن عبد الرحمن (الاعلام للمراكشي ج 2 ص 129) وهو المدعو أبا العباس المراكشي ويوجد رجل آخر اسمه أبو العباس المراكشي نزيل بسكرة (راجع الاعلام).

أحمد بن مطرف أبو الحسن السبتي :

(راجع ابن مطرف).

الإدريسي (الشريف...) محمد بن محمد بن عبد الله بن ادريس :

560 هـ / 1165م (وقيل 556 هـ / 1160م) من كبار الرحالين المغاربة ولد في سبتة عام 494 هـ أستاذ أوربا في الجغرافية قال في رسائل البشرى انه «طاف بمصر وآسيا الصغرى والقسطنطينية وفرنسا

وانجلترا قبل أن يستدعيه ملك صقلية» (الاعلام لعباس بن ابراهيم ج 3 ص 34) وهو أول من اكتشف أن النيل ينبع من بحيرات خط الاستواء في حين أن الأوربيين لم يكتشفوا ذلك إلا منذ عهد قريب (حضارة العرب لكوستاف لوبون الطبعة الفرنسية ص 508).

مصنفاته :

1) «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق».

طبع قسم المغرب والسودان ومصر والأندلس مع ترجمة إلى الفرنسية بليدن 1866 - 1283 (نسخة تامة منها بالاستانة كما في معجم المطبوعات ص 410).

- جغرافية الإدريسي مترجمة عن العربية إلى الفرنسية بحسب مخطوطين من مخطوطات المكتبة الملكية ومشفعة بملاحظات (1840).

Description de l'Afrique et de l'Epagne, Leiden 1866 Dozy et Goeje. La Finlande et les autres pays Baltiques orientaux – Ed. critique par O.J. Talgren Tuulio et A.M. Tallgren. Le géographe Arabe Idrissi et la topographie Baltique, 1934.

Europe septentrionale – Ed. crit., Trad. Helsinski, 1936.

Contribution à l'étude de la cartographie chez les Musulmans (Ballets de l'Ac. de Hippone – Bone 1898).

2) روض الانس ونزهة النفس (على كتاب المسالك والممالك).

بروكلمان ج 1 ص 876.

وقد اقتبست من النزهة دراسات منها :

- «صورة الأرض» وهي خارطة العالم نشرها محمد بهجة الاثري وجواد علي (بغداد 1951).

- العراق والجزيرة من كتاب «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق» (نشره ا براهيم شوكة بغداد 1963.

- صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس (مأخوذة) من كتاب «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق» - الشريف الإدريسي - ليدن مطبعة برلين 1968 (393 ص + 220 ص / الوافي للصفدي ج 1 ص 163 / محمد الفاسي - مجلة العدوتان - عدد 1 (1952) / محمد المنوني - دعوة الحق - عدد 1 (1966) / الاعلام للزركلي ج 1 ص 280 / الشريف الإدريسي - لعبد الله گنون.

روض الفرج ونزهة المهج.

مختصر في الجغرافية العامة مكتبة حكيم أو علو علي باشا باسطنبول عدد 688 وهو مصور في (خع 3665 د) 165 لوحة).

- الشريف الإدريسي عمدة المؤرخين المسلمين، مجلة العربي - أبريل 1961.

- الجغرافية والجغرافيون في الأندلس «الشريف الإدريسي» للدكتور حسين مؤنس صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد، المجلدان 9 و 10 سنة 1961 و 1962.

Meyerhof, M. Die Allgemeine Botanik und Pharmakologie des Edrissi. Technik 12 (1930).
Gautier – Mœurs et coutumes des Musulmans p. 239.

- هل الإدريسي مصري ؟ ولد في سبتة ببلاد مراكش ويقال انه من ذرية قوم ملكوا مصر وبلاد النوبة ولذا لقبوه بجغرافي النوبة (النخبة

الأزهرية في تخطيط الكرة الأرضية في أربعة عشر جزءا لإسماعيل علي مدرس تقويم البلدان بالأزهر (ج 1 ص 140).

الأسطول (قواد..) بسبتة

عبد الله بن سليمان التينمللي المسكالي :

ولي سبتة من أهل الخمسين (راجع رسالة عبد المومن إلى طلبة سبتة (الرسائل الموحدية ص 11) وقد وصفه ابن القطان بصاحب امارة البحر (نظم الجمان ص 148 ـ تحقيق محمود مكي) / ابن عذاري ج 3 ص 32.

وقد أسس أسطول سبتة عام 720 هـ / 1320م محمد بن علي ابن الفقيه أبي القاسم شيخ ءال العزفي وذلك بعد أن أشرف على الأسطول قائد البحر يحيى الرنداحي (الاستقصا ج 2 ص 55).

وقبله أبو العباس الرنداحي الذي أعان أبا القاسم على تملك سبتة عام 647 هـ / 1249م (ابن عذاري ج 3 ص 400 طبعة الرباط) على أن عليا بن خلاص صاحب سبتة هو الذي أنشأ أسطولا عام 643 هـ / 1245م فغرق عند خروجه من سبتة في طريقه إلى البيعة لأبي زكرياء الحفصي. (الاستقصا ج 1 ص 203).

عبد الله بن جامع قائد أسطول سبتة (ابن عذاري ج 3 ص 117 طبعة الرباط) وقد خلف ابن جامع هذا غانم بن محمد بن مردنيش قائد

الأسطول الموحدي المرابط في سبتة الذي أسره النصارى عام 576 هـ / 1180م ففداه يعقوب الموحدي.

ا بن عذاري ج 3 ص 117 طبعة الرباط.

البيان المعرب ج 1 ص 105.

المن بالامامة ص 516.

الاستقصا ج 2 ص 136.

ميلكور (ص 43 Melckor, Companas, 43 (43 p.)

وكان ا بن عبد السلام أبو عبد الله الكومي هو أيضا قائد أسطول سبتة (البيان لا بن عذاري ج 4 ص 203).

كما كان أبو الحسن بن كماشة قائد البحر بسبتة عام 709 هـ / 1309م أيام استيلاء بني الأحمر على المدينة وقد تقبض عليه آنذاك تاشفين بن يعقوب الوطاسي بأمر من السلطان أبي الربيع سليمان بن أبي عامر عبد الله بن يوسف المريني (الإستقصا ج 2 ص 49).

أم المجد مريم بنت أب الحسن الشاري الغافقي :

السبتي أحد أئمة سبتة أسس بها مدرسة للغرباء وحبس عليها أول مكتبة من نوعها بالمغرب وقد درست الحديث ووصفها محمد بن القاسم السبتي بالعجوز المسنة المسندة في كتاب (إختصار الأخبار عما كان بسبتة من سنى الآثار) (ص 5).

أيوب بن عبد الله بن أحمد بن عمر الفهري :

يكنى أبا الصبر السبتي (توفي بوقعة العقاب عام 609 هـ / 1212م.

التشوف ص 431 / الجنوة ص 99 / انس الفقير وعز الحقير (ص 32) / شجرة النور (ص 184) / تكملة الصلة لا بن الا بار (ص 242) صحب أبا يعزم وأبا مدين وا بن غالب.

ورحل إلى المشرق مرارا كان ا بن غالب إذا أشكل عليه أمر رآه مكتوبا في ركن بيته وهو محدث راوية شاعر.

الاعلام للمراكشي ج 6 ص 453 (خ).

عبد الرحيم بن أحمد الكتامي السبتي الفاسي شيخ الفتيا :

(راجع ا بن العجوز).

عبد العزيز بن ابراهيم الهواري السبتي :

درة الحجال ج 2 ص 379.

عبد الله بن ابراهيم الكتامي السبتي :

(راجع ا بن جماح).

عبد الله بن أبي القاسم الأنصاري السبتي :

درة الحجال ج 2 ص 344.

عبد الله بن أحمد بن أبي القاسم قاضي سبتة :

(راجع ابن الخطيب).

عبد الله بن أحمد التميمي السبتي :

فهرسة عياض ص 88 / عنوان الدراية ص 144).

عبد الله بن ادريس بن سهل المقرىء السبتي :

شيخ القاضي عياض.

عبد الله بن علي أو يعلى بن محمد بن عبيد المعافري السبتي :

صلة ابن بشكوال ج 1 ص 294.

عبد الله بن غالب بن تمام النكوري الهمداني مفتي أهل سبتة :

(راجع ابن غالب).

عبد الله بن محمد شمس الدين السبتي :

قاضي المالكية بصفد (910هـ / 1504م).

(شذرات الذهب ج 7 ص 44).

عبد الله بن محمد بن ابراهيم بن قاسم بن منصور اللخمي أصله من نكور ولي قضاء سبتة بعد 500 هـ ثم 512 هـ إلى أن توفي عام 513 هـ (مولده 458 هـ)

ولي قضاء الجماعة بمراكش حسب ابن الا بار

«معجم الصدفى ص 204/

فهرس عياض ص 85/ الغنية لعياض ص 146/ معجم ابن الا بار)

الاعلام للمراكشى ج 8 ص 187 (ط. الرباط)

عبد الله بن محمد بن عيسى بن حسين التميمى السبتى الأنصارى

كان رئيس طلبة مراكش توفى بها عام 574 هـ/1178 م (أو 573 حسب ابن صاحب الصلاة) (معجم أصحاب الصدفى ص 224/ شجرة النور ص 143/ المن بالامامة ص 121/ المعجب ص 200 (طبعة 1949) /تكملة الصلة طبع مجريط ج 3 ص 486 (1887) /الاعلام للمراكشى ج 6 ص 87.

عبد الله بن محمد ابن عبيد الله الحجرى خاتمة المسندين ومن الكتاب البلغاء

أقام بفاس وسبتة حيث ولى قضاءها يوما واحدا توفى بسبتة 591 هـ/1194 م وهو من حجر ذى رعين بالمرية عرف أهله ببنى ذى النون قديما كان معتنيا برواية الحديث مشاركا في القراءات وقد استدعاه السلطان إلى مراكش.

له (الجواهر السنية في شرح الاجرومية)

(التكملة ص 495 (ط. مدريد) / امرأة الجنان لليافعى ج 3 ص
473/
الاعلام للمراكشى ج 8 ص 194 (ط. الرباط)

عبيد الله بن أحمد بن عبيد الله بن محمد بن عبيد بن أبى الربيع الاشبيلى

نزيل سبتة (راجع ا بن أبى الربيع)

عثمان بن ابراهيم السبتى

راجع ترجمته في (منتخب المختار للتقي الفاسي ص 76)

عبد المهيمن بن عبد الله بن محمد السبتى الجزيرى

(درة الحجال ج 2 ص 401/ مشتبه النسبة ص 107)

على بن محمد الأنصارى السبتى

(راجع ا بن درى)

على بن محمد بن ابراهيم السبتى

(راجع ا بن أبى العافية)

على بن موسى السبتى قاضى غرناطة

وقاضى الجماعة بمراكش (راجع ا بن حماد)

على بن هلال بن حسن بن عبد الأعلى بن هلال الحضرمى نزيل سبتة توفى بسبتة عام نيف وستمائة وسبعين

مهندس ماهر موفق العلاج في الطب ولكنه كان شرس الخلق وكان له دكان يجلس فيه للعلاج ويجلس تلامذته في أسفله ثم صار يقرىء الطب في المسجد فكثر تلامذته (الذيل والتكملة لا بن عبد الملك).

ق = 5 (ص 419).

غالب بن على بن محمد اللخمى 741هـ / 1340م أبو تمام طبيب من أهل غرناطة حج وقرأ الطب بالقاهرة زاول العلاج وولى الحسبة بفاس وتوفى بسبتة عند حركة مخدومه أبى الحسن المرينى (الجذوة ص 313) له تآليف قيمة(الاعلام للزركلى ج 5 ص 303 / لوكلير - تاريخ الطب العربى - باريس ص 243).

محمد بن ابراهيم بن محمد الرقاء المرادى السبتى الأصولى الفاسى دخل الاسكندرية والديار المصرية ودمشق. (تكملة الاكمال لا بن الصابونى طبع المجمع العلمى العراقى 1377 (ص 174) توفى بدمشق عام 627 هـ/1229 م (ودفن بجبل قاسيون)

٣/فً چ ابراهيم بن يوسف القصرى السبتى (درة الحجال ج 1 ص 279)

محمد بن ابراهيم (بن يربوع) الكلبى السبتى

(راجع ابن يربوع)

محمد بن أبى العباس السبتى

الاعلام للمراكشي ج 3 ص 239

محمد بن أحمد اللخمى بن العزفى السبتى

له الدر المنظم في مولد النبي المعظم

الاسكوريال 1741

851 Yeni (المقرى ج 1 ص 901)

بروكلمان ج 1 ص 626

محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن أحمد الجذامى السبتى المعروف بابن شيرين قاضى سبتة وشيخ ابن الخطيب ولد بسبتة (وتوفى عام 747 هـ/1346 م)

أخذ عن جده لأمه أبى بكر بن عبيدة الاشبيلى النباهى

(المرقبة العليا) ص 153 (أوصاف الناس في التواريخ والصلات) لابن الخطيب ـ طبعة شبانة ص 37.

محمد بن عبد الحق بن اسماعيل بن أحمد السبتى ذكره صاحب الانباء سنة ثلاث ثم في سنة ست وثلاثين قدم القاهرة عام 832 (الضوء اللامع للسخاوى ج 7 ص 279 طبعة القاهرة 1354) توفى عام 836 هـ/1432 م

محمد بن عبد الرحمن بن عبد الرحيم بن الطيب العنسى السبتى (ذرة الحجال ج 1 ص 279)

راجع محمد بن عبد الله بن أحمد بن علي العنسى السبتي.

ذرة الحجال ج 1 ص 279 نفس الصفحة.

محمد بن عبد الرحمن بن على التجيبى المرسى نزيل سبتة وتلمسان

(610 هـ/1213 مْ) (تكملة ا بن الا بار ص 303 النفح ج 1 ص 140 ـ 397 ـ 566/ الوافى بالوفيات للصفدى. 32 ص 234 جذوة الاقتباس ص 172.

مصنفاته :

1) معجم شيوخه ـ 2) البرنامجان الأكبر والأصفر ـ 3) مناقب السطيغ الحسن والحسين ـ 4) معجم شيوخ شيخه الحافـظ السلفـي ـ 5) الفوائد ـ 6) الترغيب في الجهاد ـ 7) المواعظ (أربعون حديث).

محمد بن عبد الله أبو بكر السبتى الجزيرى (راجع ا بن الفراء)

محمد بن عبد الله بن محمد بن عيسى السبتى (راجع ا بن حسين)

محمد بن عبد الله المورورى السبتى (فهرسة عياض ص 46)

محمد بن على بن عبد الله الأموى السبتى (راجع ا بن الشيخ)

محمد بن على بن يعلى السبتى (نيل الا بتهاج ص 225)

محمد بن محمد الكتامى السبتى (راجع ا بن الخضار)

محمد الفخار السبتى التطوانى (586 هـ/1190 م)

(تاريخ تطوان ج 1 ص 75)

محمد المسيلى السبتى (فهرسة عياض ص 2)

محمد المهنأ السبتى (الجذوة ص 200)

يحيى الدكالى أبو زكرياء الحافظ قدم فاسا وسبتة صحب ا بن دقيق العيد كثيرا كان حيا عام 723 هـ/1323 م (الدرة ج 2 ص 489، الجذوة ص 341)

يوسف بن موسى بن أبى عيسى السبتى الغسانى الحافظ

روى البخارى عن الزبيدى والحديث عن ا بن الصلاح

(686 هـ/1287 م) (النيل ص 386/ الجذوة (ص 347)

الاعلام للزركلى ج 9 ص 334/ درة الحجال ج 2 ص 496.

المصـــــادر

- الكوكب الوقاد فيمن حل بسبتة من العلماء والصلحاء والعباد لمحمد بن عبد المهيمن الحضرمى.

- محمد بن القاسم الانصارى صاحب «اختصار الاخبار عما كان بثغر سبتة من سني الآثار» صنف عام 825 هـ/1421 م (نشرته المطبعة الملكية بالرباط ومجلة هسبريس ج 12 ـ 1931).

- (معيار الاختيار) لا بن الخطيب ـ طبعة شبانة ص 144.

- سبتة فرضة المجاز إلى أرض الأندلس.

المقتبس لا بن حيان (ج 5 ص 288) ط. مدريد 1979.

- تاريخ تطوان ج 2 ص 28 ـ 30/ج 3 ص 181

- نشر المثانى ج 2 ص 159

- الاستقصا ج 4 ص 37 و126

- الجيش العرمرم ج 1 ص 76

(وخاصة في عهد المولى يزيد عام 1205) تاريخ الضعيف ص 252 (خ)

(راجع مخطوطة في خم 6926) (الثقافة المغربية عدد 4 (1391 هـ/1971 م)

- كشف الظنون ج 2 ص 1186

- هدية العارفين ج 1 ص 805/ تاريخ الفكر الاندلسي ص 283
الاحاطة لابن الخطيب ج 1 ص 182/ التعريف لمحمد بن عياض
ص 133 وازهار الرباط ج 2 ص 239.

M. Criado y M. L. Ortega
Apuntes para la historia de Ceuta, T.I. Madrid, 1928 (414 p.)
M. Ferrer Bravo. Ermitas de Ceuta, in Libro de Ceuta, Ceuta 1928
Georges Hardy, le Maroc, dans Histoire des colonies françaises, T. III, Paris, 1931 (p. 15)
– Elie de la Primandaie les villes maritimes du Maroc, in Revue africaine, 1872 (p. 205).
– J. P. Mesnage, l'Afrique chrétienne du Maroc et la mission franciscaine, Paris 1934 p. XIV.
P. Goubert Ceuta Byzantine ou wisigothique ? Notes d'histoire et d'archéologie – Misc. – 1947 1951.
Mascarenhas (Jeronimode) Historia de la cuidad de Ceuta, in Publ. de l'Acad. des Sciences de Lisbonne 1918.
R. Ricard – Camoëns à Ceuta – (392 p. 4).
Rivera Manescau – Un plano inedito de Ceuta y su campo en el siglo XVIII, in Africa, rev. de tropascol, 1927 (57-59).

دوكاتر - س أ. السعديون - البرتغال 1951 (م 4 ص 392)
دوكاستر - السعديون - السلسلة الأولى
م. 1 ص 23 - 673
م. 2 ص 70 - 466
م. 3 ص 85 - 737

الربـــاط عبد العزيز ابن عبد اللــه

إيجاز الخبر عن فتح مدينة سبتة
وتلخيص التعريف بأولية أمرها[1] (●)

كان سقوت بن محمد المتغلب عليها قد جرى عليه سباء، واستبد به ولاء، ففاز به (2) قدح علي بن حمود أيام امترى أخلافها، واعرورى شقاقها (3) وخلافها، ومن هالته طلع هلالا وبدرا، وبين باطله وبطالته عتق خلا وخمرا، وعليه (4) جيبت رحاها، وإليه كان مجراها ومرساها،

●) عن كتاب «الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة» تأليف أبي الحسن علي بن بسام الشنتريني القسم الثاني المجلد الثاني من ص 657/664 تحقيق الدكتور احسان عباس - الدار العربية للكتاب ليبيا - تونس 1398 هـ - 1978.

1) م.س : أميرها.

2) به : سقطت من ط.د.

3) م.س : ثقافها.

4) م.س : وعنه.

حتى عدت (5) أيامه، واشتهر مقامه، وملأ أجزاء الزمان وصدر الأوان بأسه وإقدامه، ولما أفضت الدولة الحمودية إلى سقط زندها، ومنتهى جهدها، يحيى بن علي - المتقدم الذكر - ألقى بمقاليد سبتة الى هذه الأفعى الجارية، والشعلة الوارية، سقوت المذكور، فأقام به عمودها، وأطعمه قائمها وحصيدها، وطفق لأول حينه يخلق ويفري، ويجر لأبعد شؤونه ليسير ويسري (6)، وقد كان يحيى بن علي أشرك معه في عمالتها مولى آخر من مواليه يكنى أبا العطاف، أحد أجذال الطعان، وكفاة الأقران، فأقاما بقية أيام يحيى بن علي يتجاذبان أهدابها، ويتعاطيان أقداحها وأكوابها، إلى أن وقع من مقتله (7) سنة سبع وعشرين ما فرغنا من ذكره، ونبهنا على مستودع مستقره، ولما أفضت دولة آل حمود الى ابنه إدريس بن يحيى بن علي سما سقوت بن محمد فأخذ بلقم الطريق، وطلع لمغبونه إدريس من ثنايا العقوق، وأول ما بدأ به من ذلك الفتك بشريكه الخاسر، بحيلة خفية، تمخضت له بميتة (8) وحية، في خبر طويل، تركته تخفيفا للتثقيل، فأصبح بعده سقوت بن محمد قد حلت شمس سلطانه بالحمل، وقام وزن زمانه فاعتدل (9)، وتسمى لأول

---

5) ط : غدت.

6) وطفق... ويسري : سقط من ط.د.

7) يعني مقتل يحيى الحمودي.

8) م.س : بموته.

9) م.س : واعتدل.

وقته يومئذ من الأسماء السلطانية بالمنصور المعان. وقد عرض له ابن حيان ببعض أوابده، وفصل بذكره سلك مقيداته وشوارده، وأنا أذكر من ذلك ما وفى به وسعي، وكان من شرط جمعي.

قال ابن حيان (10) : وهذه نادرة من طخيات (11) هذه الفتنة (12) المبيرة، أن تخطت أرض هذه الجزيرة. الى ما وراء بحرها الزقاقي الذي كان منه دخول العرب أيام فتحهم لهذا الصقع. هاجتها (13) أسباب المنافسة الفادحة. لا متعاض حسيب الأملاك النبيه الأبوة الشامخة. عباد. من هضم جاره الخارجي سقوت مولى ابن (14) حمود ـ بزعمه ـ الناهض الجد بأنقص (15) الخلال : من معقة المولى وختر الرفيق (16) واهتضام الحقوق. والترقي الى أعلى مراتب (17) السلطان. حتى تسمى بالمنصور المعان. لقبين في قران. أغمض له عليهما (124 ب) الزمان. فساء غلطه

---

10) نقل بعض هذا النص في كتاب مفاخر البربر : 45 مع بعض اختصار وتغيير في الترتيب وخلط بكلام ابن بسام نفسه، وانظر مخطوطة الرباط (رقم : 1275) ص : 83.

11) ط : طحيات، م : ضحياة : س : صخياء . مفاخر : هيجان (وفي المخطوطة : طخليات) والطخية : الظلمة أو السحابة.

12) زاد في المفاخر : البربرية.

13) م. س والمفاخر : هاجها.

14) م.س : ال.

15) م : بأنقض، س : فانغض.

16) م.س : وخبر الرقيق.

17) م.س : لأعلى موارب (س : موازب).

في نفسه. واضطره القدر أن تمرس بجاره (18) عباد صيرفي (19) الفتنة الذي لا ينام على دمنة. كان سبب ذلك باعتقال عباد لرجل من تجار سبتة في شيء حضره بحضرته. فاعتدى عليه سقوت فاعتقل له عدة تجار (20). فنشأت لذلك بينهما (21) وحشة سنة سبع وخمسين. امتطيا لها ظهر اللجج ، على ما بينهما من التطام اللجج. فتهافتا على القطيعة واجتمعا على عقد (22) البحر بينهما. فتلفت فيه رؤوس أموال. وهلكت من أجلها نفوس رجال. يطول في صفتها المقال. الى أن أكمل عباد من أسطول أنشأه نحوا من ثمانين قطعة. فأجراها الى سبتة. فخرج عليها (23) أسطول لسقوت. فكان الظهور لابن عباد. ثم افترقت الأساطيل بعد حروب وسفك دماء. وانقطع بحر الزقاق بينهما مدة استهما اجترار (24) منافعه فيها. انتهى ما لخصته من كلامه.

قال ابن بسام : ثم غلظ أمر سقوت. حتى أخاف (25) القريب والنازح. واقتاد الحرون والجامح. وانبثت سراياه في البحر والبر. فأدرك

---

18) م.س : يجاه.

19) ط : صيفري : م : صرفي.

20) ط : رجال.

21) م.س : بينهما لذلك.

22) ط.د : عقل : س : عقر.

23) م.س : إليها.

24) ط.د.م.س : احترام.

25) أخاف : سقطت من م.س.

المطلوب والطالب، وتصيد الطافي والراسب، ونجم (26) في لمتونة أمير المسلمين وناصر الدين أبو يعقوب يوسف بن تاشفين، رحمه الله، فأحاطت دولته بالفرق، إحاطة القلادة بالعنق (27)، ودبت في ممالك العرب والعجم، دبيب البرء في السقم، وطفق يتبع آفاق جورهم بالعدل، تتبع الديمة آثار المحل، ويسبق قولهم بالعمل، سبق السيف العذل، وتجاروا الى مصارعهم، حتى لحق متبوعهم بتابعهم، وانتظم دانيهم بشاسعهم، ودارت النوبة على سقوت بن محمد، فتطرف (28) أمير المسلمين ـ رحمه الله ـ بلده للفراغ ممن شذ عنه من ذؤبان زناتة، وقد التفوا بأحد محاش الفتنة، ووألوا الى موضع يعرف (29) بالدمنة، فنزل بساحتهم أمير المسلمين، سنة احدى وسبعين، على مقربة من بلاد سقوت (30)، فهم بالانحياش اليه، فقد كان آل وايل عليه، فنهاه حزبه الذميم السعي، وثناه ابنه الفائل الرأي، فقد كان هذا الفتى على بعد مراميه، ولو ذعية ـ زعموا ـ كانت فيه، يذهب مذهب الجبابرة من ملوك الطوائف عندنا، من الإعراض عن العواقب، وأخذ الشاهد عيارا على الغائب، أين ما هو فيه، لا يحفل بشيء يذره ولا يأتيه، ووضحت لأمير المسلمين ـ رحمه الله ـ السبيل إلى حربه، لما كان من نفاره عن قربه، وانتباذه لأول

26) من هنا يبدأ النقل في كتاب مفاخر البربر : 54 ومخطوطة الرباط : 87.

27) م.س : بالفراق... بالأعناق.

28) مفاخر والمخطوطة : فتطوف.

29) م.س : يدعى.

30) زاد في المفاخر : فتضيفه لا من خلة، وأراد أن يكثر به لا من قلة.

وهلة عن حزبه. فلما أوقع بأهل الدمنة، رمى سقوت ابن محمد بأقماره ونجومه، وأحله وجوه همه (31) وهمومه، والبلاد تنقاد لحمه، والمنابر تكاد تهل (32) باسمه، وسمع الرعية بمقدمه، فانثالوا عليه انثيال الجياع على الوليمة، وتباشروا به تباشر البلد (33) بالديمة، وخرج سقوت بن محمد في عديده وعدده، للذب - زعم - عن رعيته وبلده (34)، وعساكر أمير المسلمين يومئذ على مقربة من مدينة طنجة، وعليها من قبله (35) ابنه المسمى بضياء الدولة، فلقي عساكر المرابطين وقد سالت بها سيولهم، وشارفها (36) لواؤهم ورعيلهم، فأقام بإزائهم يومين والأجل يقحمه، والخيل تسلمه، إلى أن طحنته رحاهم، وسالت نفسه على أسنتهم وظباهم، يوم الكسوف الشمسي الكلي من العام المؤرخ، ودخل المرابطون طنجة ذلك اليوم.

وأفضت الدولة البرغواطية إلى الحاجب العز ابنه، شهاب أفلاكها، وخيرة أملاكها، هب للأدب ريحا، ونفخت دولته في أهله روحا، أعرض (37) به الشعراء وأطالوا، ووجدوا به السبيل إلى المقال فقالوا : وممن

---

31) م.س والمفاخر : همته.

32) م : تهذ ، س : تمد.

33) زاد في المفاخر : التيهاء (وفي المخطوطة : التمية).

34) زاد في المفاخر : وأقسم أن لا يسمع قرع طلبه (طبله ؟) في ملكه.

35) يعني : وعلى طنجة من قبل سقوت.

36) م : وطار بها : س : وشان بها.

37) مفاخر : أعوص.

خيم في ذراه، ونال الحظ الجسيم من دنياه، الحصري الضرير. فإن (38) له فيه (39) ما أذهل الناظر عن الرقاد، وأغنى المسافر عن الزاد، والحاجب يكحل عينيه بزينة دنياه، ويفتق لهاته بمواهبه ولهاه. وكان سهل الجانب للقصاد، طلق اليد بالمواهب الأفراد. من رجل (125 أ) استعان بالشر، وتهاون بالأمر، لا يجبي إلا من غلول، ولا يجيش إلى ابن سبيل، لا سيما البحر فإنه أضرم لججه نارا، ولقى ريحه إعصارا، أخذ كل سفينة غصبا، وأضاف إلى كل رعب، فضجت منه الأرض والسماء، والتقت الشكوى عليه والدعاء، وأذن الله لأمير المسلمين وناصر الدين ـ رحمه الله ـ فأناخ بعقوته، وحكم مداه بين سنامه وذروته.

وكان من الاتفاق العجيب أن أنشأ المعتمد سفينة ضاهى بها مصانع الملوك القاهرين بعد العهد بمثلها : شدة أسر، وسعة (40) بطن وظهر، كأنما بناها على الماء صرحا ممردا، وأخذ بها على الريح ميثاقا مؤكدا، ووجهها على (41) مدينة طنجة لتمتار، وقد أنجد أمر الله وغار. ولما رأى أمير المسلمين وناصر الدين ـ رحمه الله ـ تلك السفينة، خاطب المعتمد في ذلك، فشحنت على سبتة موتا ذريعا، وأقيمت بإزاء أسوارها (42)

38) ط.د : فبان.

39) في النسخ : فيها.

40) ط.د : ومنعة.

41) م.س : إلى.

42) م.س : سورها.

حصنا منيعا. فلما كان يوم الخميس من صفر سنة ست وسبعين، قدم أمير المسلمين لقتال سبتة أسطولا فخما، رجم به مردة عفاريتها رجما. ولقيه العز بن سقوت ببقية جمة من أسطول طالما أوسع البلاد شرا، وملأقلوب أهلها ذعرا. فكان لأول ذلك اليوم ظهور (43) على أسطول المرابطين حتى أخذ منه قطعة جليلة المقدار، ظاهرة الحماة والأنصار. فكان من إذلال الله للعز بن سقوت يومئذ أن بخل على آخذها (44). وتكلم بكلام أنكر عليه فيه ؛ وارتاعت محلة المرابطين لأخذ تلك القطعة، حتى هموا بالإحجام، وقوضوا بعض الخيام. وغضب أمير المسلمين وناصر الدين - رحمه الله - احدى غضباته فكانت إياها. وفغرت المنايا (45) على سبتة فاها. وتقدمت تلك السفينة حتى أطلت على (46) أسوارها، ورفعت صوتها ببوارها. وأفضت بدولة صاحب سبتة الى سوء قرارها. ليلة الجمعة من صفر المؤرخ. ولجأ العز بن سقوت في نفير من أصحابه الى البحر، فهم بركوبه. فأعوزه الفرار، ودفع في صدره المقدار، وكر راجعا. فدخل دارا تعرف بدار تنوير (47)، وبدر به جماعة من المرابطين، فاقتحموا عليه بعد مرام بعيد، وقتال شديد، حتى ضاق اضطرابه، وفر عنه أصحابه،

---

43) م.س والمفاخر : ظهر.

44) ط : اخذيها.

45) ط.د : المنية.

46) م.س : أظلت أسوارها، ط.د : طلت على...

47) مفاخر : شوير (وفي المخطوطة : تنوير).

ولما أحس بالشر دفع ذخائر (48) كانت عنده الى أحد من وفى له من رؤوس حماته. فبلغني أنه عثر عليها ووجد فيها جوهر كثير. ونشب من نشب الملوك (49) خطير. ووجد في جملتها خاتم يحيى بن علي بن حمود. وخرج العز بن سقوت حين وضح الفجر من ليلته تلك. فلقيه العز ا بن أمير المسلمين (50) ـ رحمهما الله ـ فجلله الحسام. وحكم فيه الحمام. تعالى من لا يرد قضاؤه. ولا تبيد آلاؤه.

48) م.س : دنانير.

49) م.س : الملك.

50) كان المعز ولي عهد يوسف بن تاشفين. لكنه توفي في حياة أبيه فقدم يوسف ابنه عليا لولاية العهد. وفي مفاخر البربر أن المعز طلب الى ابن سقوت أن يعطيه المال فقال له : «خازن أبيك كنت نجمع لك المال ؟» فجلله الحسام... الخ.

معالم سبتة ومنشآتها العلمية والاقتصادية قبيل الغزو البرتغالي

(معلومات مستخرجة من كتاب
"اختصار الأخبار عما كان بثغر سبتة من سني الآثار"(●)
لمحمد بن القاسم الأنصاري السبتي)

1.000 مسجد

62 خزانة علمية

47 رباطا وزاوية

18 محرسا

250 زقاقا سوى ما دثر منها

22 حماما

174 سوقا

24.000 حانوتا

31 تربيعة (×)

(●) مجلة «اسبريس» - مجلد XII سنة 1931 فصلة 2. رقم 145/175 - نشر ليفي بروفنسال.

(×) مكان صغير مربع الشكل - سوق - على هيأة ساحة.

40 منجـرة

360 فندقـا

360 فرنـــا

25 سقايــة

12 ميضــأة

4 دور للأشراف

4.000 مطمورة

103 طاحونــة

6 أربــاض

50 بابـــا

4 حفائــر

6 مصـــلات

44 مرمــــى

25 مقصـــرا (××)

13 مقبـــرة

30 مرســـى

9 مضارب (×××) و299 مصيدا

قرية بنيونـــــش :

86 عينا ونهرا

(××) مقصرة : مكان خاص بدن التين .

(×××) مضربة : مكان تضرب فيه شباك صيد السمك. وهو مصطلح مغرب أندلسي.

126 حماما

50 رحى طاحنة

24 منزلا

19 مسجدا

25 حانوتا

16 فرنا

1 فندق

82 من أسماء الاعلام المدفونين في سبتة

بها مصانع ملوكية وابراج هائلة وقباب وطيافير رخامية ومحنشات وصهريج ومياه.

الفواكه الخريفية :

65 نوعا من العنب

28 نوعا من التين

15 نوعا من التفاح

6 أنواع من الخوخ

4 أنواع من السفرجل

2 نوعان من العناب

16 نوعا من الرمان

4 أنواع من اللوز

9 أنواع من الجوز

1 نوع واحد من الجلوز

18 نوعا من القسطل

3 أنواع من الزيتون

2 نوعان من الخروب

3 أنواع من الصنوبر

النخل موجود ولكنه غير صالح.

الفواكه الصيفية :

17 نوعا من المشمش

14 نوعا من عيون البقر

36 نوعا من الاجاص

2 نوعان من التوت

3 أنواع من حب الملوك

الفواكه الشتوية :

2 نوعان من الاترج

2 نوعان من الليم

1 الليمون نوع واحد

1 الزنبوع نوع واحد

3 أنواع من قصب السكر

الموز كثير ولا يختص بفصل.

المشمومـــــات :

3 أنواع من الريحان

1 نوع واحد من الياسمين

1 نوع واحد من النسرين

5 أنواع من الخيرى

2 نوعان من البهار

3 أنواع من الورد

1 نوع واحد من السوسان

2 نوعان من النور القرنفلي

2 نوعان من البنفسج

2 نوعان من النعنـع

1 نوع واحد من الترنجان

1 نوع واحد من المرددوش

1 نوع واحد من زهر النارنج